مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ. م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ. م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. محمد طه بويالق

المجلد السابع

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاعِ التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلِّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وسترُكّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فهمي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق:
أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغُلْطاي بن قليج نموذَجًا، كُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب،
ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيونِ التُّراثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

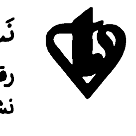
يُنشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد السابع

نشريات وقف الديانة التركي



نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

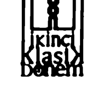
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد السابع

تحقيق محمد طه بُوتَالِقْ - أحمد أَيْنَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İSAM YAYINLARI
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْماز
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَميرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغْلُو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازْسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ



تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغْلُو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٠١/٠٦/٢٠٢٠ ورقم ٠٥/٢٠٢٠.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة)
978-625-7581-38-7 (المجلد السابع)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr



شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَالِقْ، أحمد أَيْنَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. – أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد السابع، ٦٥٦ صفحة)؛ ٢٤ سم. – (لنشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠. لنشريات إسام؛ ٢٣٦.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد السابع) 978-625-7581-38-7 (مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8

فهرس المحتويات

[٣٢٨و]

/ سورة السجدة

مكّيّة، وهي ثلاثون آيةً، وقيل: تسع وعشرون.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ إمّا اسم للسورة فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿الٓمٓ﴾، والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفتَ سرَّها، وإمّا مسرود على نمط التعديد، فلا محلّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبرٌ بعد خبرٍ، على أنّه مصدر أُطلقَ على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: خبر لـ﴿الٓمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيل الكتاب، وقد مرّ مرارًا أنّ ما يُجعل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية قبلُ فحقّها الإخبارُ بها.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث على الوجه الأوّل، وثانٍ على الأخيرين. وقيل: خَبر لـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلّق بمضمَر هو حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنًا منه تعالى، لا بـ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنّ المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، والأوجَه حينئذ[٢] أنّه الخبر، و﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ حال مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو اعتراض، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة، كأنّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزّلًا مِن ربّ العالمين.

---

[١] ط س + آية.

[٢] وفي هامش م: أي: على تقدير كون ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مبتدأ. «منه».

ويؤيّده قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنّ قولهم هذا إنكار منهم لكونه مِن ربّ العالمين، فلا بدّ أن يكون مَورده حكمًا مقصودَ الإفادة، لا قيدًا للحكم بنفي الريب عنه، وقد رُدّ عليهم ذلك وأُبطِل حيث جيء بـ"أَم" المنقطعة إنكارًا له، وتعجيبًا منه لغاية ظهور بطلانه، واستحالةِ كونه مُفترًى.

ثم أُضربَ عنه إلى بيان حقّيّة ما أنكروه حيث قيل: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام بعد إضافته فيما سبق إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] تشريفًا له عليه السلام، ثمّ أُيّدَ ذلك ببيان غايته حيث قيل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فإنّ بيان غاية الشيء وحكمتِه -لا سيّما عند كونها غايةً / حميدةً مستتبِعةً لمنافعَ جليلة في وقت شدّة الحاجة [٣٢٨ظ]
إليها- ممّا يقرّر وجود الشيء ويؤكّده لا محالةَ.

ولقد كانت قريش أضلّ الناس وأحوجَهم إلى الهداية بإرسال الرسول وتنزيلِ الكتاب، حيث لم يُبعَث إليهم مِن رسول قبله عليه السلام، أي: ما أتاهم مِن نذير مِن قبل إنذارك، أو مِن قبل زمانك. والترجّي معتبَر مِن جهته عليه السلام، أي: لتنذرهم راجيًا لاهتدائهم، أو لرجاء اهتدائهم.

واعلم أنّ ما ذُكر مِن التأييد إنّما يتسنّى على ما ذُكر مِن كون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] مبتدأً، وأمّا على سائر الوجوه فلا تأييدَ أصلًا؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] خبر رابع على الوجه الأوّل،[4] وخبرٌ ثالث على الوجهين الأخيرين،[5] وأيًّا ما كان فكونه مِن ربّ العالمين حكمٌ مقصودُ الإفادة، لا قيدٌ لحكمٍ آخَر، فتدبّر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش م: هو كون ﴿الٓمٓ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف. «منه».

٥ وفي هامش م: هما كون ﴿الٓمٓ﴾ مَسرودًا على نمط التعديد، وكونُه مبتدأً. «منه».

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مرّ بيانه فيما سلَف. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما لكم إذا جاوَزتم رضاه تعالى أحدٌ ينصركم ويشفع لكم ويجيركم مِن بأسِه، أو ما لكم سواه وليّ ولا شفيع؛ بل هو الذي يتولّى مصالحَكم وينصركم في مواطن النصر، على أنّ "الشفيع" عبارة عن الناصر مجازًا، فإذا خذَلكم لم يبقَ لكم وليّ ولا نصير.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ألَا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكّرون بها؟ أو أتَسمعونها فلا تتذكّرون بها؟ فالإنكار على الأوّل متوجِّه إلى عدم السماع وعدمِ التذكّر معًا، وعلى الثاني على عدم التذكّر مع تحقّق ما يوجبه مِن السماع.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: يدبّر أمر الدنيا بأسباب سماويّة مِن الملائكة وغيرها نازلةً آثارها وأحكامها إلى الأرض، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يثبت في علمه موجودًا بالفعل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: في بُرهة مِن الزمان متطاولة. والمراد بيان طول امتداد / ما بين تدبير الحوادث وحدوثِها مِن الزمان. [٣٢٩و]

وقيل: يدبّر أمر الحوادث اليوميّة بإثباتها في اللوح المحفوظ، فيَنزل بها الملائكة ثمّ يَعرج إليه في زمان هو كألْفِ سنة ممّا تعدّون، فإنّ ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عامٍ.

وقيل: يقضي قضاء ألف سنةٍ، فينزل به الملَك ثمّ يعرج بعد الألفِ لألْفٍ آخر.

وقيل: يدبّر أمر الدنيا جميعًا إلى قيام الساعة، ثمّ يَعرج إليه الأمر كلّه عند قيامها.

وقيل:[1] يدبّر المأمور به مِن الطاعات منزّلًا مِن السماء إلى الأرض بالوحي، ثمّ لا يعرج إليه خالصًا إلّا في مدّة متطاولة لقِلّة المخلِصين والأعمال الخُلَّص.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٢٠/٤.

وأنت خبير بأنّ قِلّة الأعمال الخالصة لا يقتضي بُطْء عروجها إلى السماء؛ بل قِلّتَه. وقُرئ: "يَعُدُّونَ" بـ"الياء".[١]

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الله عزّ وجلّ باعتبار اتّصافه بما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض، والاستواءِ على العرش، وانحصارِ الولاية والنصرة فيه، وتدبيرِ أمر الكائنات على ما ذُكر مِن الوجه البديع. وهو مبتدأ خبرُه ما بعده، أي: ذلك العظيم الشأنِ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبّر أمرَهما حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على عباده، وهما خبران آخَران. وفيه إيماءٌ إلى أنّه تعالى متفضِّل في جميع ما ذُكر، فاعلٌ بالإحسان.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خبر آخر، أو نصب على المدح، أي: حسّن كلّ مخلوق خلقَه؛ إذ ما مِن مخلوق خلقه إلّا وهو مرتَّب على ما يقتضيه الحكمة، وأوجبَتْه المصلحة، فجميع المخلوقات حسَنة وإن تفاوتت إلى حسَنٍ وأحسنَ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين، ٩٥/٤].

[٣٢٩ظ] / وقيل: عَلِم كيف يخلقه، مِن قوله: "قيمة المرء ما يُحسِن"،[٢] أي: يُحسن معرفتَه ويعرفه معرفةً حسنةً بتحقِيق وإتقان.

وقُرئ: "خَلْقَهُ"[٣] على أنّه بدل اشتمالٍ مِن ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾، والضمير للمبدَل منه، أي: حسّن خلق كلّ شيء. وقيل: بدل الكلّ على أنّ الضمير لله تعالى، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، أي: حسّن كلَّ مخلوقاته. وقيل: هو مفعول ثانٍ لِـ﴿أَحۡسَنَ﴾ على تضمينه معنى "أعطى"، أي: أعطى كلَّ شيء خلقَه اللائقَ به بطريق الإحسان والتفضّل.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

٢ مِن قول عليّ رضي الله عنه. فتوح الغيب للطيبي، ٣٣٧/١٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

وقيل: هو مفعوله الأوّل، و﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مفعوله الثاني، و"الخَلْق" بمعنى المخلوق، وضميرُه لله سبحانه، على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف، والمعنى: أَلهَمَ خلقَه كلَّ شيء ممّا يحتاجون إليه.

وقال أبو البقاء: «عرّف مخلوقاتِه كلَّ شيء يحتاجون إليه»،[١] فيئُول إلى معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه، ٥٠/٢٠].

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ مِن بين جميع المخلوقات ﴿مِن طِينٍ﴾ على وجه بديع يَحارُ العقول في فهمه حيث بَرَأَ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائرِ أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لخروج كلّ فرد منها مِن القوّة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قُربًا وبُعدًا، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾... إلخ، أي: ذرّيّته، سمّيت بذلك لأنّها تَنسِل وتنفصل منه. ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ هو المنيّ المُمتهَن.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: عدّلَه بتكميل أعضائه في الرحِم وتصويرِها على ما ينبغي، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافَه إليه تعالى تشريفًا له وإيذانًا بأنّه خَلق عجيب وصُنع بديع، وأنّ له شأنًا له مناسَبة إلى حضرة[٢] الربوبيّة، وأنّ أقصى ما ينتهي إليه العقول البشريّة مِن معرفته هذا القدرُ الذي يُعبَّر عنه تارةً بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء، ٨٥/١٧].

/ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ الجَعل إبداعي، و"اللام" متعلّقة [٣٣٠و] به، والتقديم على المفعول الصريح لِما مرّ مرّات مِن الاهتمام بالمقدَّم والتّشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمه بجَزالة النظم الكريم، أي: خلقَ لمنفعتكم تلك المشاعرَ لتعرفوا أنّها -مع كونها في أنفسها نِعمًا جليلةً

١ التبيان لأبي البقاء، ١٠٤٨/٢.

٢ ط س: الحضرة.

لا يقادَر قدرُها-وسائلُ إلى التمتّع بسائر النِّعم الدينيّة والدنيويّة الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تَصرفوا كلًّا منها إلى ما خُلق هو له، فتُدركوا بسَمعكم الآياتِ التنزيليّةَ الناطقة بالتوحيد والبعث، وبأبصاركم الآياتِ التكوينيّةَ الشاهدة بهما، وتستدلّوا بأفئدتكم على حقّيّتهما.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النِّعم بطريق الاعتراض التذييلي، على أنّ القِلّة بمعنى النفي، كما ينبئ عنه ما بعده، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون.

وفي حكاية أحوال الإنسان مِن مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكايةِ أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيّته له مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءَه.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ١٠﴾

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ما ذُكر مِن عدم شكرهم بتلك النِّعم موجِب للإعراض عنهم وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا ترابًا مخلوطًا بترابها بحيث لا نتميّز منه، أو غِبنا فيها بالدفن. وقُرئ: "ضَلِلْنَا" بكسر "اللام"،[١] مِن باب "عَلِمَ"، و"صَلَلْنَا" بـ"الصاد" المهملة،[٢] مِن "صَلَّ اللحمُ" إذا أنتَن. وقيل: مِن "الصَّلّة"، وهي الأرض، أي: صِرنا مِن جنس الصَّلّة.

قيل: القائل أبيّ بن خلف، ولِرضاهم بقوله أُسندَ القول إلى الكلّ.

[٣٣٠ظ] والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه / قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو "نُبعَثُ" أو "يُجَدّد خَلقُنا". و"الهمزة" لتذكير الإنكارِ السابق وتأكيدِه. وقُرئ: "إِنَّا"[٣] على الخبر. وأيًّا ما كان فالمعنى على تأكيد الإنكار، لا إنكارِ التأكيد

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وطلحة وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٠.

[٣] قرأ بها نافع والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

كما هو المتبادر مِن تقدّم "الهمزة" على "إنّ"، فإنّها مؤخّرة عنها في الاعتبار، وإنّما تقديمُها عليها لاقتضائها الصدارة.

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنَع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقَونه فيها مِن الأحوال والأهوال جميعًا.

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾

﴿قُلۡ﴾ بيانًا للحقّ وردًّا على زعمهم الباطل: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ لا كما تزعمون أنّ الموت مِن الأحوال الطبيعيّة العارضة للحيوان بموجَب الجِبِلّة، أي: يقبض أرواحكم بحيث لا يدَع فيكم شيئًا، أو لا يترك منكم أحدًا، على أشدّ ما يكون مِن الوجوه وأفظعِها، مِن ضرب وجوهكم وأدباركم.

﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ أي: بقبض أرواحكم، وإحصاءِ آجالكم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وهم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ،[١] أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم،[٢] ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مِن الحياء والخِزي عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا. ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ أي: صِرنا ممَّن يُبصر ويَسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصَرة والآيات المسموعة، وكنّا مِن قبلُ عُميًا وصمًّا لا ندرك شيئًا، ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعۡمَلۡ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه تلك الآيات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ادّعاء منهم لصحّة الأفئدة، والاقتدارِ على فهم معاني الآيات، والعملِ بموجَبها، كما أنّ ما قبله ادّعاء لصِحّة مَشعَرَي البصر والسمع،

---

١ السجدة، ٣٢/١٠.

٢ م ط س – أو جنسُ المجرمين، وهم مِن جملتهم ["صح" في هامش م].

كأنّهم قالوا: وأيقَنّا وكنّا مِن قبلُ لا نَعقِل شيئًا أصلًا، وإنّما عدلوا إلى الجملة الاسميّة المؤكَّدة / إظهارًا لِثباتهم على الإيقان، وكمالِ رغبتهم فيه، وكلّ ذلك [٣٣١و] للجِدّ في الاستدعاء طمعًا في الإجابة إلى ما سألوه مِن الرجعة، وأنّى لهم ذلك.

ويجوز أن يقدَّر لكلّ مِن الفعلين مِفعول مناسب له ممّا يبصرونه ويسمعونه، فإنّهم حينئذٍ يشاهدون الكفر والمعاصي على صوَر منكَرة هائلة، ويخبرهم الملائكة بأنّ مصيرهم إلى النار لا محالةَ، فالمعنى: أبصَرنا قُبح أعمالنا، وكنّا نراها في الدنيا حسنةً، وسمعنا أنّ مردّنا إلى النار، وهو الأنسب لِما بعده مِن الوعد بالعمل الصالح.

هذا، وقد قيل: المعنى: وسمعنا منك تصديق رسلك. وأنت خبير بأنّ تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به مِن الوعد والوعيد، لا بالإخبار بأنّهم صادقون حتّى يسمعوه. وقيل: وسمعنا قولَ الرسل، أي: سمِعناه سمعَ طاعة وإذعان.

ولا يُقَدَّر لـ﴿تَرَىٰ﴾ مفعول، إذ المعنى: لو تكون منك رؤية في ذلك الوقت، أو يُقدَّر ما ينبئ عنه صِلةُ ﴿إِذ﴾. والمضيّ فيها وفي ﴿لَوْ﴾ باعتبار أنّ الثابت في علم الله تعالى بمنزلة الواقع. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا فظيعًا لا يُقادَر قدرُه. والخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح له كائنًا مَن كان؛ إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغِها مِن الفظاعة إلى حيث لا يختصّ استغرابها واستفظاعُها بِراءٍ دون راءٍ ممَّن اعتاد مشاهدةَ الأمور البديعة، والدواهي الفظيعة؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية يتعجّب مِن هولها وفظاعتها.

هذا، ومَن علّل عموم الخطاب[١] بالقصد إلى بيان أنّ حالَهم قد بلغت مِن الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتّة، فلا تختصّ رؤية راءٍ دون راءٍ؛ بل كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب؛ فقد نأى عن تحقيق الحقّ؛ لأنّ المقصود بيان كمال فظاعة حالهم، كما يفصح عنه الجواب المحذوف، لا بيانُ كمال ظهورها، فإنّه مَسوق مَساق المسلَّمات، فتدبّر.

---

١ وفي هامش م: وهو صاحب المفتاح. | السكّاكي في مفتاح العلوم، ١/١٨٠.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ مقدَّر بقولٍ معطوف على ما قُدِّر قبلَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾... إلخ،[1] أي: ونقول: لو شئنا، أي: لو تعلّقت مشيئتنا تعلّقًا فعليًا بأن نعطي كلَّ نفسٍ مِن النفوس البَرّة[2] والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح لأعطيناها إيّاه في الدنيا التي هي دار الكسب، وما أخّرناه إلى دار الجزاء.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: سبقَت كلمتي حيث قلت لإبليس / عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٢-٨٣]: ﴿فَالْحَقُّ[3] وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٤-٨٥]، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كما يلوّح به تقديم ﴿الْجِنَّةِ﴾ على ﴿النَّاسِ﴾، فبموجَب ذلك القول لم نَشَأْ إعطاءَ الهدى على العموم؛ بل منَعْناه مِن أتباع إبليس الذين أنتم مِن جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغيّ بإغوائه، ومشيئتُنا لأفعال العباد مَنوطة باختيارهم إيّاها، فلمّا لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشَأْ إعطاءَه لكم، وإنّما أعطيناه الذين اختاروه مِن النفوس البَرّة، وهم المَعنيّون بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الآيةَ،[4] فيكون مناطُ عدمِ مشيئته إعطاءَ الهدى في الحقيقة سوءَ اختيارهم، لا تحقّقَ القولِ. [٣٣١ظ]

وإنّما قيّدنا المشيئة بما مرّ مِن التعلّق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها، لأنّ المشيئة الأزليّة مِن حيث تعلّقُها بما سيكون مِن أفعالهم إجمالًا متقدّمةٌ على تحقّق كلمة العذاب، فلا يكون عدمُها مَنوطًا بتحقّقِها، وإنّما مناطه علمه تعالى أزَلًا بِصَرف اختيارِهم فيما سيأتي إلى الغيّ، وإيثارِهم له على الهدى، فلو أُريدت هي مِن تلك الحيثيّة لاستُدرِك بعدمها، ونِيط ذلك بما ذُكر مِن المَناط،

---

[1] السجدة، ٣٢/١٢.
[2] س: البرّه.
[3] وفي هامش م: مقول لقوله: "حيث قلتُ".
[4] السجدة، ٣٢/١٥.

على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨]. فمَن توهّم[١] أنّ المعنى: ولو شئنا لأعطينا كلّ نفس ما عندنا مِن اللطف الذي لو كان منهم اختياره لَاهْتدَوا، ولكن لم نعطهم لمّا علمنا منهم اختيارَ الكفر وإيثارَه، فقد اشتبه عليه الشئون.[٢]

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يُعرِب عنه ما قبله مِن نفي الرجع إلى الدنيا، أو على الوعيد المحكي. و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ للإيذان بأنّ تعذيبهم ليس لمجرّد سبق الوعيد به فقط؛ بل هو وسَبْقُ الوعيد أيضًا بسببٍ موجِب له مِن قِبَلهم، كأنّه قيل: لا رَجْعَ لكم إلى الدنيا، أو حقّ وعيدي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاءَ هذا اليوم الهائل، وبتركِكم التفكّرَ فيه والاستعدادَ له بالكلّيّة. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: تركناكم في العذاب ترْكَ المنسيّ بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديدِ، وتعيينِ المفعول المطويّ للذّوق، والإشعارِ / بأنّ سببه ليس مجرّد ما ذُكِر مِن النسيان؛ بل له أسباب أُخَر مِن فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرّين عليها في الدنيا. وعدم نظم الكلّ في سِلك واحدٍ للتنبيه على استقلال كلّ منها في استيجاب العذاب. وفي إبهام المَذوق أوّلًا وبيانِه ثانيًا بتكرير الأمر وتوسيطِ الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما مِن الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى. [٣٣٢و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استئناف مَسوق لتقرير عدم استحقاقهم

---

[١] يعني النسفي في مدارك التنزيل، ٨/٣.

[٢] وفي هامش م: وكذا مَن قال: «المعنى: لو علمناها أهلًا للهدى لهديناها». «منه». | نقله الطيبي عن بعضهم في فتوح الغيب، ٣٤٢/١٢.

لإيتاءِ الهدى والإشعارِ بعدم إيمانهم لو أُوتوه بتعيين مَن يستحقّه بطريق القصر، كأنّه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا، ولا تعملون بموجَبها عملًا صالحًا، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدّعون حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام، ٢٨/٦]، وإنّما يؤمن بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وُعِظوا ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ آثِرَ ذي أثِيرٍ مِن غير تردّدٍ ولا تَلَعثُمٍ، فضلًا عن التسويف إلى معاينةِ ما نطقَت به مِن الوعد والوعيد، أي: سقطوا على وجوههم، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ونزّهوه عند ذلك عن كلّ ما لا يليق به مِن الأمور التي مِن جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التي أجلُّها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيقُ للاهتداء بها.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد، وبأنّهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيّته تعالى لهم.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: والحال أنّهم خاضعون له تعالى، لا يستكبرون عمّا فعلوا مِن الخرور والتسبيح والتحميد.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي: تنبو وتتنحّى ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: الفُرُشِ ومواضعِ المنام. والجملة مستأنفة لبيان بقيّة محاسنهم، وهم المتهجّدون بالليل.

قال أنس رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشِرَ الأنصار، / كنّا نصلّي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتّى نصلّي العشاء مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[١] [٣٣٢ظ]

وعن أنس أيضًا أنّه قال: «نزلت في أناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كانوا يصلّون مِن صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وهي صلاة الأوّابين».[٢]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣١/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٣/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٣. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ٤٨٧/٢.

وهو قول أبي حازم،[١] ومحمّد بن المنكدر،[٢] وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما.[٤]

وقال عطاء: «هم الذين لا ينامون حتّى يصلّوا العشاء الآخرة والفجرَ في جماعة».[٥]

والمشهور أنّ المراد منه صلاة الليل،[٦] وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة،[٧] لقوله صلّى الله عليه وسلّم:[٨] «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل».[٩]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تفسيرها: «قيام العبد مِن الليل».[١٠]

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين جاءَ منادٍ ينادي بصوتٍ يُسمِعُ الخلائق كلَّهم: "سيعلم أهلُ الجمع مَن أولى بالكرَم"، ثمّ يرجع فينادي: "لِيَقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع"، فيقومون وهم قليل،

---

١ هو سلمة بن دينار المَديني المخزومي، أبو حازم (ت. ١٤٠هـ/٧٥٧م)، الإمام، القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبويّة، القاصّ، الزاهد. وُلد في أيّام ابن الزبير وابن عمر. وروى عن سهل بن سعد وأبي أمامة بن سهل وسعيد بن المسيّب، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه، فقال: «إن كانت له حاجة فليأتِ، وأمّا أنا فما لي إليه حاجة». قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ما رأيت أحدًا الحكمةُ أقرب إلى فيه مِن أبي حازم» أخباره كثيرة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٩٦/٦؛ **والأعلام** للزركلي، ١١٣/٣.

٢ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٥٣/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٥/١٥. | هو محمّد بن المنكَدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد العزّى القرشي التيمي المدني، أبو عبد الله (ت. ١٣٠هـ/٧٤٨م)، الإمام، الحافظ، القدوة، شيخ الإسلام. روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عمر وجابر وابن عبّاس وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم. قال سفيان الثوري: «كان مِن معادن الصدق، ويجتمع إليه الصالحون، ولم ندرك أحدًا أجدَر أن يَقبل الناس منه إذا قال: "قال رسول الله" منه». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٥٣/٥؛ **والأعلام** للزركلي، ١١٢/٧.

٣ س - تعالى.

٤ انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠٣/٦؛ **والدرّ المنثور** للسيوطي، ٥٤٦/٦.

٥ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠٤/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٥/١٥. وانظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣١/٧.

٦ وفي هامش م: أي: التهجّد. «منه».

٧ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٦١٢/١٨؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٣٠٤/٦.

٨ س: عليه السلام.

٩ **صحيح مسلم**، ٨٢١/٢ (١١٦٣)؛ **سنن أبي داود**، ٩٦/٤ (٢٤٢٩).

١٠ **جامع البيان** للطبري، ٦١٥/١٨؛ **مسند أحمد**، ٣٥٢/٣٦ (٢٢٠٢٢).

ثمّ يرجع فيقول: "لِيَقم الذين يحمدون الله[1] في البأساء والضرّاء"، فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعًا إلى الجنّة، ثمّ يحاسَب سائر الناس».[2]

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾، أي: داعين له تعالى على الاستمرار ﴿خَوْفًا﴾ مِن سخطه وعذابه وعدمِ قبول عبادته، ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِن المال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في وجوه البرّ والحسنات.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النفوس، لا ملَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسَل، فضلًا عمّن عداهم ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ أي: لأولئك الذين عُدّدت نُعوتهم الجليلة ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ممّا تَقَرُّ به أعينُهم. وعنه عليه السلام: «يقول الله عزّ وجلّ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشَر، بَلْهَ ما اطّلعتم عليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».[3]

/ وقُرئ: "مَا أُخْفِي لَهُمْ"،[4] و"مَا نُخْفِي لَهُمْ"،[5] و"مَا أَخْفَيْتُ لَهُمْ"[6] على صيغة المتكلّم، و"مَا أَخْفَى لَهُمْ"[7] على البناء[8] للفاعل، وهو الله سبحانه. وقُرئ: "قُرَّاتِ أَعْيُنٍ"[9] لاختلاف أنواعها. و"العِلم" بمعنى المعرفة، و﴿مَا﴾ موصولة، أو استفهاميّة عُلّق عنها الفعل. [٣٣٣و]

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: جُزُوا جزاءً، أو أُخفِي لهم للجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا مِن الأعمال الصالحة. قيل: هؤلاء القوم أخفَوا أعمالهم، فأخفى الله تعالى ثوابهم.

---

١ س – الله.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٢/٧. وبنحوه في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٣٩/٤ (٢٩٧٥).

٣ صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٤١/٤ (٢٨٢٤).

٤ أي: بإسكان "الياء". قرأ بها يعقوب وحمزة. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن كعب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

٨ س + على.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة رضي الله عنهم وعوف العقيلي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٧/٨.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: أبعدَ ظهور ما بينهما مِن التباين البيّن يُتوهّم كونُ المؤمِن الذي حُكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه. ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ التصريحُ به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرّة على أبلغ وجهٍ وآكدِه لبناء التفصيل الآتي عليه. والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تفصيل لمراتب الفريقين في الآخرة بعد ذكر أحوالهما في الدنيا. وأضيفت "الجنّة" إلى "المَأوى" لأنّها المأوى الحقيقي، وإنّما الدنيا منزل مرتحَل عنه لا محالةَ. وقيل: ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ جنّة مِن الجنّات. وأيًّا ما كان فلا يَبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذُكر مِن تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

﴿نُزُلًۢا﴾ أي: ثوابًا، وهو في الأصل ما يُعدّ للنازل مِن الطعام والشراب. وانتصابه على الحاليّة. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، أو بأعمالهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي: خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: ملجأهم ومنزلهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ مكانَ جنّات المأوى للمؤمنين، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ استئناف لبيان كيفيّة كون النارِ مأواهم.

[٣٣٣ظ] يُروى أنّه يضربهم لهَب النار / فيرتفعون إلى طبقاتها حتّى إذا قَرُبُوا مِن بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهَب فيَهْوُون إلى قَعرها، وهكذا يُفعَل بهم أبدًا.[1]

---

[1] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣ (الحج، ٢٢/٢٢)؛ واللباب لابن عادل، ٥١/١٤ (الحج، ٢٢/٢٢).

وكلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على أنّهم مستقِرّون فيها، وإنّما الإعادة مِن بعضِ طبقاتها إلى بعضٍ.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ تشديدًا عليهم وزيادةً في غيظهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذابِ الدنيا، وهو ما مُحِنوا به مِن السنة سبعَ سنين والقتلِ والأسرِ، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الذي هو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ الذين يشاهدونه وهم في الحياة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

رُوي أنّ الوليد بن عتبة[1] فاخَر عليًّا رضي الله عنه يوم بدر، فنزلت هذه الآيات:[2] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بيان إجمالي لحال مَن قابلَ آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال مَن قابلَها بالسجود والتسبيح والتحميد. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلًا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين، كما في بيت **الحماسة**:[3]

---

[1] وفي هامش م: هو ابن أبي مُعيط. | كذا في الأصول الخطّية، والصواب: "ابن عقبة". وهو الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي (ت. بعد ١٠١هـ/٧٢٠م). هو أخو أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لأمّه، بن مُسلِمة الفتح؛ بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صدقات بني المصطلِق، وبعثه عمر على صدقات بني تغلب، وولي الكوفة لعثمان رضي الله عنه، وجاهد بالشام، ثمّ اعتزل بالجزيرة بعد قتل أخيه عثمان، وكان سخيًّا، شاعرًا. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤١٢/٣؛ و**الأعلام** للزركلي، ١١٢/٦.

[2] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٢٢/٤. وفي **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٣/٧: «كان بينهما تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد لعليّ: "اسكت، فإنّك صبيّ، وأنا واللهِ أبسطُ منك لسانًا، وأحدّ منك سِنانًا، وأشجع جَنانًا، وأملأ منك حشوًا في الكتيبة"، فقال له عليّ: "اسكت، فإنّك فاسق"، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ الآية».

[3] لجعفر بن علبة الحارثي الحماسي، أي: لا يكشف الشدّة، ويزيلها إلّا رجل كريم يرى قُحَم الموت، ويتحقّق غمرات الممارسة حتى كأنّه يشاهدها، ثمّ يتوسّطها، ولا يعدل عنها. و"الغمّاء": الغمّ والكربة. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ١٦/٨. وانظر: **شرح ديوان الحماسة** للمرزوقي، ص ٣٩.

لا يكشفُ الغمّاءَ إلّا ابنُ حُرّةٍ يرى غمراتِ الموت ثمّ يزورها[1]

أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سبك التركيب على نفي الأظلم مِن غير تعرّض لنفي المُساوي، وقد مرّ مرارًا.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مِن كلّ مَن اتّصف بالإجرام وإن هانَت جريمته ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممّن هو أظلم مِن كلّ ظالم، وأشدُّ جُرمًا مِن كلّ مُجرم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، عُبّر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانَسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أنّ إيتاءَه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كإيتائها لموسى عليه السلام.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مِن لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل، ٢٧/٦]، والمعنى: إنّا آتينا موسى مثلَ ما آتيناك مِن الكتاب، ولَقّيناهُ مثل ما لَقّيناك مِن الوحي، فلا تكن في شكّ مِن أنّك لُقّيتَ مثلَه ونظيرَه.

[٣٣٤و] وقيل: مِن لقاء موسى الكتابَ، أو مِن لقائك موسى عليه السلام، / وعنه عليه السلام: «رأيت ليلةَ أسري بي موسى عليه السلام رجلًا آدم طوالًا جَعدًا، كأنّه مِن رجال شَنُوءة».[2]

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل: لم يُتعبّد بما في التوراة وَلَدُ إسماعيل.

---

[1] وفي هامش م: المِصراع مَخروم؛ أُسقِط عن أوّله "الواو"، كما في قول خُبَيب رضي الله عنه:
لستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلمًا
على أيّ شِقّ كان لله مصرعي
أي: ولست. «منه». | "الخَزم" في الشعر: ذهاب "الفاءِ" مِن "فَعُولُن"، أو "الميمِ" مِن "مُفاعَلَتُن". القاموس المحيط للفيروزابادي، «خرم». والبيت في مسند أحمد، ٤٦١/١٣ (٨٠٩٦)؛ وصحيح البخاري، ١٢٠/٩ (٧٤٠٢)، بلفظ: "ولست أبالي".

[2] صحيح البخاري، ١١٦/٤ (٣٢٣٩)؛ صحيح مسلم، ١٥١/١ (١٦٥). | شَنوءة بطن مِن الأزد، مِن القحطانيّة، وهم بنو نَصر بن الأزد، وبنو شَنوءة هذا هم الذين يقال لهم: "أزد شنوءة". نهاية الأرب للقلقشندي، ٣٠٨/١.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ بقيّتهم بما في تضاعيف الكتاب مِن الحِكم والأحكام إلى طريق الحقّ، أو يهدونهم إلى ما فيه مِن دين الله وشرائعه، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم بذلك، أو بتوفيقنا له، ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ هي "لمّا" التي فيها معنى الجزاء، نحو: "أحسنتُ إليك لمّا جئتني". والضمير للأئمّة، تقديره: لمّا صبروا جعلناهم أئمّةً، أو هي ظرف بمعنى الحين، أي: جعلناهم أئمّة حين صبروا، والمراد صبرهم على مشاقّ الطاعات، ومُقاساةِ الشدائد في نصرة الدين، أو صبرُهم عن الدنيا. وقُرئ: "لِمَا صَبَرُوا"،[1] أي: لِصبرهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب ﴿يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلنّ الكتاب الذي آتيناكهُ هُدًى لأمّتك، ولنجعلنّ منهم أئمّةً يهدون مثلَ تلك الهداية.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فيميّز بين المُحقّ والمُبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على منويّ يقتضيه المقام. وفعل الهداية إمّا مِن قَبيل: "فلان يُعطي" في أنّ المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول، وإمّا بمعنى التبيين، والمفعولُ محذوف، والفاعل ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: أَغَفَلوا ولم يَفعَلِ الهدايةَ لهم -أو وَلَم يُبيِّنْ لهم مَآلَ أمرهم- كثرةُ إهلاكنا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ مثلِ عادٍ وثمود وقومِ لوط.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

وقُرئ: "نَهْدِ لَهُمْ" بنونِ العظَمة،[١] وقد جُوّز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى أيضًا ضميرَه تعالى، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ استئنافًا مُبيّنًا لكيفيّة هدايته تعالى.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: يمرّون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم. والجملة حال مِن ضمير ﴿لَهُمْ﴾. وقُرئ: "يُمَشُّونَ"[٢] للتكثير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية، أو في [٣٣٤ظ] مساكنهم ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها. / ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذه الآيات سماعَ تدبّر واتّعاظ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِز نباتُها، أي: قُطعَ وأُزيلَ بالمرّة. وقيل: هو اسم موضعٍ باليمن. ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ مِن تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتِّبن والقَصِيل وَالوَرَقِ وبعضِ الحبوب المخصوصة بها. وقُرئ: "يَأْكُلُ" بـ"الياء".[٣]

﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يَقْتاتُها الإنسان والثمارِ. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلّوا به على كمال قدرته تعالى وفضلِه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ كان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكّة إذا سَمِعُوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبًا واستهزاءً:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٩٦/٧ (طه، ١٢٨/٢٠).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن حمزة وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصر، أو الفصلُ بالحكومة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ الله تعالى ينصركم، أو يفصل بيننا وبينكم؟

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ "يومُ الفتح": يوم القيامة، وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويومُ نصرهم عليهم. وقيل: هو يوم بدر. وعن مجاهد والحسن رحمهما الله: «يومُ فتحِ مكّة».[١]

والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنّه ليس ممّا ينبغي أن يُسأَل عنه، لكونه أمرًا بيّنًا غنيًّا عن الإخبار به، وكذا إيمانُهم واستنظارهم يومئذ، وإنّما المحتاج إلى البيان عدمُ نفع ذلك الإيمان وعدمُ الإنظار، كأنّه قيل: لا تستعجلوا، فكأنّي بكم قد آمنتم فلم ينفعكم، واستنظرتم فلم تُنظَرُوا. وهذا على الوجه الأوّل ظاهر، وأمّا على الأخيرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ، لا عن كافّة الكفرة كما في الوجه الأوّل، كيف لا وقد نَفَع الإيمانُ الطلقاءَ يومَ الفتح، وناسًا آمنوا يومَ بدرٍ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم وهلاكَهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ قيل: أي: الغلبةَ عليكم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة، ٩/٥٢]. والأظهَر أن يقال: إنّهم منتظرون هلاكَهم كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية [البقرة، ٢/٢١٠]، ويقرُب منه ما قيل: وانتظِر عذابَنا إنّهم منتظروه، فإنّ استعجالهم المذكور وعكوفَهم على ما هم عليه مِن الكفر والمعاصي في حكم انتظارِهم العذابَ المترتّب عليه لا محالةَ.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥١٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٤٢.

وقُرئ على صيغة المفعول[1] على معنًى أنّهم أحِقّاء بأن يُنتظَر هلاكُهم، أو فإنّ الملائكة ينتظرونه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك] أُعطي مِن الأجر كأنّما أحيى ليلة القدر».[2] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة] في بيتِه لم يدخل الشيطان بيتَه ثلاثة أيّام».[3]

---

١ أي: "مُنتَظَرُونَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣ ط س + تم. | الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٣/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٨٩/٣.

/ سورة الأحزاب [٣٣٥و]

مدنيّة، وآيُها ثلاث وسبعون.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في ندائه عليه السلام بعنوان النبوّة تنويهٌ بشأنه، وتنبيهٌ على سموّ مكانه. والمراد بالتقوى المأمورِ به الثباتُ عليه والازدياد منه، فإنّ له بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مَداه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: المجاهرين بالكفر، ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ المضمِرين له، أي: فيما يعود بوهنٍ في الدين، وإعطاءِ دنيّةٍ فيما بين المسلمين.

رُوي أنّ أبا سفيان بن حرب وعِكرمة بن أبي جهل[٢] وأبا الأعور السُّلَمي[٣] قدِموا عليه عليه السلام في الموادَعة التي كانت بينه عليه السلام وبينهم، وقام معهم عبد الله بنُ أبيّ ومُعَتِّب بن قُشَير والجَدُّ بنُ قيس، فقالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ارفُض ذكرَ آلهتنا، وقل: إنّها تشفع وتنفع، وندَعك وربَّك»،

---

١ ط س: وهي ثلاث وسبعون آيةً.

٢ هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي، القرشي، المكّي، أبو عثمان (ت. ١٣هـ/٦٣٤م)، الشريف، الرئيس، الشهيد. لمّا قُتل أبوه تحوّلت رئاسة بني مخزوم إلى عكرمة، ثمّ إنّه أسلم، وحسن إسلامه بالمرّة. قال أبو إسحاق السبيعي: «نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالًا شديدًا، ثمّ استشهد، فوجدوا به بِضعًا وسبعين مِن طعنة، ورمية، وضربة». وقال عروة وابن سعد وطائفة: «قُتل يوم أجنادين». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/٣٢٤؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٤٤.

٣ هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس، أبو الأعور السلمي. مشهور بكُنيته. قال مسلم والحاكم في الكُنى: «له صحبة». وقال ابن أبي حاتم، عن أبيه: «أدرك الجاهليّة، ولا صحبةَ له، وحديثه مرسل». كان أميرَ جيش الشام في غزوة عمّوريّة، وغزا قُبرص سنة ستٍّ وعشرين، وكانت له مواقفُ بصفّين مع معاوية. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤/٥٢٩.

فشقّ ذلك على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، وهمّوا بقتلهم، فنزلت.[١] أي: اتّقِ الله في نقض العهد ونبذِ الموادَعة، ولا تساعد الكافرين مِن أهل مكّة، والمنافقين مِن أهل المدينة فيما طلبوا إليك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالغًا في العلم والحِكمة، فيعلم جميعَ الأشياء مِن المصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلّا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلّا عمّا فيه مفسدة، ولا يحكم إلّا بما يقتضيه الحكمة البالغة. فالجملة تعليل للأمر والنهي، مؤكِّد لِوجوب الامتثال بهما.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ أي: في كلّ ما تأتي وتذَر مِن أمور الدين ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن الآيات التي مِن جُملتها هذه الآية الآمِرةُ بتقوى الله، الناهيةُ عن مساعدة الكفرة والمنافقين. والتعرّض لعنوان الربوبيّة لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قيل: الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، / والجمعُ للتعظيم. وقيل: له عليه السلام وللمؤمنين. وقيل: للغائبين بطريق الالتفات،[٢] ولا يخفى بُعده. نعم، يجوز أن يكون للكلّ على ضربٍ مِن التغليب. [٣٣٥ظ]

وأيًا ما كان فالجملة تعليل للأمر، وتأكيد لموجَبِه، أمّا على الوجهين الأوّلَين فبطريق الترغيب والترهيب، كأنّه قيل: إنّ الله خبير بما تعملونه مِن الامتثال وتركِه، فيُرتّب على كلٍّ منهما جزاءَه ثوابًا وعقابًا، وأمّا على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط، كأنّه قيل: إنّ الله خبير بما يعمله كِلا الفريقين، فيرشِدُك إلى ما فيه صلاح حالك، وانتظامُ أمرك، ويُطلِعك على ما يعملونه مِن المكائد والمفاسد، ويأمرُك بما ينبغي لك أن تعمله في دفعها وردّها، فلا بدّ مِن اتّباع الوحي والعملِ بمقتضاه حتمًا.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥١٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٢٤.

[٢] جوّزه أبو حيّان في البحر المحيط، ٨/٤٥١.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوّض جميعَ أمورك إليه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا موكولًا إليه كلُّ الأمور.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ شروع في إلقاء الوحي الذي أُمِر عليه السلام باتّباعه، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى تمهيدًا لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وتنبيهًا على أنّ كون المُظاهَر منها أُمًّا وكونَ الدَّعِيّ ابنًا -أي: بمنزلة الأمّ والابن في الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم- في الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبَين في جوف واحد.

وقيل: هو ردّ لِما كانت العرب[1] تزعم مِن أنّ اللبيب الأريب له قلبان، ولذلك قيل لأبي معمر[2] أو لجميل بن أسد الفِهري:[3] "ذو القَلبَين".

---

[1] س + كانت.

[2] هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح الجمحي، له صحبة. وهو الذي أخبر قريشًا بإسلام عمر، ثمّ أسلم، وشهد حُنينًا، وقتل زهير بن الأبجَر في قصّة مشهورة، شهد جميل بن معمر فتح مصر، ومات في أيّام عمر، وحزن عليه حزنًا شديدًا، قال ابن عبد البرّ: «وكان يسمّى "ذا القلبين" فيما ذكره الزبير عن عمّه مصعب، قال: وفيه نزلت: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]». انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٢٤٧/١؛ والإصابة لابن حجر، ٦٠٥/١.

[3] هو جميل بن أسيد -وقيل: أسد- الفِهري، يُكنى أبا مَعمر، قال مقاتل في تفسيره، ٤٧١/٣، في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب، ٤/٣٣]: «نزلت في أبي معمر الفهري». وقال الفرّاء في معاني القرآن، ٣٣٤/٢: «نزلت في أبي معمر جميل بن أسيد، كان أهل مكّة يقولون: لأبي معمر قلبانِ وعقلان في صدره مِن قوّة حفظه». انظر: غوامض الأسماء لابن بشكوال، ٧٠٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٦٠٤/١.

أي: ما جمع الله قلبَين في رجلٍ. وذِكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج، ٢٢/٤٦]، ولا زوجيّةً وأمومةً[١] في امرأة، ولا دِعوةً وبُنوّةً في شخص، لكن لا بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجيّة والأمومة، ونفيِ الجمع بين حقيقة الدِّعوة والبُنوّة كما في القلب، ولا بمعنى نفي الجمع بين أحكام الزوجيّة وأحكام الأمومة، ونفيِ

[٣٣٦و] الجمع بين أحكام الدِّعوة / وأحكامِ البُنوّة على الإطلاق؛ بل بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجيّة وأحكام الأمومة، ونفيِ الجمع بين حقيقة الدِّعوة وأحكامِ البُنوّة، لإبطال ما كانوا عليه مِن إجراء أحكام الأمومة على المُظاهَر منها، وإجراءِ أحكام البُنوّة على الدَّعيّ.

ومعنى "الظِّهار" أن يقول لزوجته: "أنتِ علَيّ كظَهر أمّي"، مأخوذ مِن "الظَّهْر" باعتبار اللفظ، كـ"التلْبية" مِن "لَبَّيك". وتعديته بـ"مِن" لتَضمّنه معنى التجنّب -لأنّه كان طلاقًا في الجاهليّة، وهو في الإسلام يقتضي الطلاق أو الحرمةَ إلى أداء الكفّارة- كما عُدّي "آلَى" بها، وهو بمعنى "حَلَفَ".

وذِكر الظِّهار للكناية عن البطن الذي هو عموده، فإنّ ذِكره قريب مِن ذِكر الفَرج، أو للتغليظ في التحريم، فإنّهم كانوا يحرّمون إتيان الزوجة وظهرُها إلى السماء.

وقُرئ: "اللَّايْ".[٢] وقُرئ: "اللَّاءِ".[٣] وقُرئ: "تَظَاهَرُونَ"[٤] بحذف إحدى "التاءين" مِن "تتَظاهَرون"، و"تَظَّاهَرُونَ"[٥] بإدغام "التاء" الثانية في "الظاء"،

---

[١] س: ولا أمومةً.

[٢] م س: اللّايِ. | ولم أجد القراءة بياء مكسورة؛ إلّا إن أراد ما يشبه الياء؛ وهو الهمزة المسهّلة المكسورة، فسيأتي الإشارة إليها. وقرأ بياء ساكنة وقفًا أبو عمرو وأبو جعفر وورش عن نافع والبزّي عن ابن كثير، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو والبزّي في حالة الوصل. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٠٤.

[٣] قرأ بها يعقوب وقالون عن نافع وقُنبل عن ابن كثير. وقرأ أبو جعفر وورش وصلًا كذلك لكن بتسهيل الهمزة بينَ بينَ، وهو الوجه الثاني عن أبي عمرو والبزّي في حالة الوصل. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٠٤.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

[٥] قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٧.

و"تَظَّهَّرُونَ"[١] مِن "اظَّهَّر" بمعنى "تَظَهَّر"، و"تُظَهِّرُونَ"[٢] مِن "ظَهَّرَ" بمعنى "ظاهَرَ"، كـ"عَقَّدَ" بمعنى "عاقَدَ"، و"تَظْهَرُونَ"[٣] مِن "ظَهَرَ ظُهورًا".

و"أَدْعياءُ" جمع "دَعِيّ"، وهو الذي يُدعَى ولدًا على الشذوذ، لاختصاص "أفْعِلاء" بـ"فَعيل" بمعنى "فاعِل"، كـ"تَقيّ" و"أتقياء"، كأنّه شُبِّه به في اللفظ، فجُمع جَمعَه، كـ"قُتَلاء" و"أُسَرَاء".

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما يُفهَم ممّا ذُكِر مِن الظِّهار والدعاء، أو إلى الأخير الذي هو المقصود مِن مَساق الكلام، أي: دعاءُكم بقولكم: "هذا ابني" ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فقط مِن غير أن يكون له مِصداق وحقيقة في الأعيان، فإذن هو بمَعزِل مِن استتباع أحكام البنوّة كما زعمتم.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المطابقَ للواقع، ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: سبيلَ الحقّ / لا غير، فَدَعُوا أقوالَكم، وخذوا بقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآبِهِمْ﴾ أي: انسِبوهم إليهم، وخُصُّوهم بهم. [٢٣٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل له، والضمير لمَصدر "ادعوا"، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة، ٨/٥]. و﴿أَقْسَطُ﴾ "أَفْعَل" تفضيل، قُصد به الزيادة مطلقًا مِن "القِسْط" بمعنى العَدْل، أي: الدعاء لآبائهم بالِغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى وقضائه.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وأولياؤكم فيه، أي: فادعوهم بالأخوّة الدينيّة والمَولَويّة. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثمٌ ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: فيما فعلتموه مِن ذلك مُخطئين بالسهو أو النسيانِ أو سَبقِ اللسان، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكنّ الجُناح فيما تَعمّدت قُلوبكم بعد النهي، أو ما تعمّدت قلوبكم فيه الجُناح.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٢/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون عن أبي عمرو. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٢/٨.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوِه عن المخطئ.

وحكم التبنّي بقوله: "هو ابني" إذا كان عبدًا للقائلِ: العِتقُ على كلّ حال، ولا يَثبت نسبه منه إلّا إذا كان مجهولَ النسب، وكان بحيث يولَد مِثلُه لِمِثل المتبنِّي، ولم يُقِرّ قبله بنسبه مِن غيره.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في كلّ أمر مِن أمور الدين والدنيا، كما يَشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون عليه السلام أحبَّ إليهم مِن أنفسهم، وحكمُه أنفَذَ عليهم مِن حُكمها، وحقُّه آثرَ لديهم مِن حقوقها، وشفقتُهم عليه أقدمَ مِن شفقتهم عليها.

رُوي أنّه عليه السلام أراد غزوة تبوك، فأمر الناسَ بالخروج، فقال ناس: "نستأذِن آباءَنا وأمّهاتِنا"، فنزلت.[١]

[٣٣٧و] وقُرئ: "وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ"،[٢] أي: في الدين، فإنّ كلّ نبيّ / أبٌ لأمّته مِن حيث إنّه أصل فيما به الحياة الأبديّة، ولذلك صار المؤمنون إخوةً.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ أي: منزَّلات منازلَهنّ في التحريم واستحقاقِ التعظيم، وأمّا فيما عدا ذلك فهنّ كالأجنبيّات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «لسنا أمّهاتِ النساء».[٣]

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ذَوو[٤] القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وهو نَسخٌ لِما كان في صدر الإسلام مِن التوراث بالهجرة والموالاة في الدين.

---

١ أحكام القرآن لابن العربي، ١٥٤١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/٤. لكن قال ابن العربي: «الحديث في غزوة تبوك موضوع».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهم وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٥/٤. وأخرجه الدارقطني في المؤتلف والمختلف، ٩٣٦/٢، بلفظ: «لستُ أمَّ نسائكم، إنّما أنا أمّ الرجال».

٤ م: ذووا.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح، أو فيما أنزله، وهو هذه الآية، أو آية المواريث، أو فيما فرض الله تعالى.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيان لـ"أُولي الأرحام"، أو صلة لـ﴿أَوْلَىٰ﴾، أي: أولوا الأرحام بحقّ القرابة أَولى بالميراث مِن المؤمنين بحقّ الدين، ومن المهاجرين بحقّ الهجرة.

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناء مِن أعمّ ما يقدَّر الأولويّة فيه مِن النفع، والمرادُ بفعل المعروف التوصية، أو منقطع.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان ما ذكر مِن الآيتين ثابتًا في اللوح أو القرآن. وقيل: في التوراة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: اذكر وقتَ أخذِنا مِن النبيّين كافّةً عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحقّ، ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ تخصيصُهم بالذِّكر مع اندراجهم في النبيّين اندراجًا بيّنًا للإيذان بمزيد مَزيّتهم وفضلهم، وكونِهم مِن مشاهير أرباب الشرائع وأساطينِ أولي العزم مِن الرسل. وتقديمُ نبيّنا عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطَره الجليل.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا عظيمَ الشأن، أو مؤكَّدًا باليمين، وهذا هو الميثاق / الأوّلُ بعينه وأَخذُه هو أخذُه. والعطف مبنيّ على تنزيل التغاير العنواني منزلةَ التغاير الذاتي تفخيمًا لشأنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ١١/٥٨] إثرَ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[١] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود، ١١/٥٨]. [٣٣٧ظ]

---

١ م ط س: فلمّا.

﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ متعلّق بمُضمَر مستأنَف مَسوقٍ لبيان ما هو داعٍ إلى ما ذُكر مِن أخذ الميثاق وغايةٌ له، لا بـ﴿أَخَذْنَا﴾، فإنّ المقصود تذكيرُ نفس الميثاق، ثمّ بيانُ الغرض منه بيانًا قصديًا، كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة، أي: فعلَ اللهُ ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياءَ. ووضعُ الصادقين موضعَ ضميرهم للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّهم صادقون فيما سُئِلُوا عنه، وإنّما السؤالُ لحكمةٍ تقتضيه، أي: ليسأل الأنبياءَ الذين صدقوا عهودَهم عمّا قالوه لقومهم، أو عن تصديقهم إيّاهم تبكيتًا لهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]، أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم، فإنّ مُصدِّق الصادق صادقٌ، وتصدِيقَهُ صِدقٌ.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدَهم؛[1] فيأباه مَقام تذكير ميثاق النبيّين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على ما ذُكر مِن المُضمَر، لا على ﴿أَخَذْنَا﴾ كما قيل.[2] والتوجيه بأنّ بعثة الرسل وأخذَ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين، أو بأنّ المعنى أنّ الله تعالى أكّد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين؛ تعسّفٌ ظاهر، مع أنّه مُفضٍ إلى كون بيان إعداد العذاب الأليم للكافرين غيرَ مقصود بالذات. نعم يجوز عطفه على ما دلّ عليه / قوله تعالى: [٣٣٨و]
﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، كأنّه قيل: فأثاب المؤمنين، وأعدّ للكافرين... الآيةَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إن جُعِل "النعمة" مصدرًا فالجارّ متعلّق بها، وإلّا فهو متعلّق بمحذوف هو حال منها، أي: كائنةً عليكم،

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٦/٤.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٥/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٢٦/٤.

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ظرف لنَفس "النعمة"، أو لثبوتها لهم. وقيل: منصوب بـ﴿ٱذْكُرُواْ﴾، على أنّه بدل اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾.

والمراد بـ"الجنود" الأحزابُ، وهم قريش وغطفان ويهود قريظةَ والنضيرِ، وكانوا زُهاءَ اثنَي عشر ألفًا، فلمّا سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإقبالهم ضرَب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسي، ثمّ خرج في ثلاثة آلاف مِن المسلمين، فضرب مُعَسكَرَه[1] والخندقُ بينه وبين القوم، وأمرَ بالذراري والنساء فرُفِعوا في الآطام، واشتدّ الخوف، وظنّ المؤمنون كلَّ ظنّ، ونَجَم النفاق في المنافقين، حتّى قال معتّب بن قُشَير: «كان محمّد يعِدنا كنوز كسرى وقيصر، لا نقدر أن نذهب إلى الغائط».[2]

ومضى على الفريقين قريب مِن شهر لا حربَ بينهم إلّا أنّ فوارس مِن قريش -منهم عمرو بن عبد وَدّ، وعكرمة ابن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب،[3] ومِرداس[4] أخو بني محارب- قد ركبوا خيولهم وتيمّموا مِن الخندق مكانًا مضيقًا، فضربوا خيولَهم فاقتحموا، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع، فخرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر مِن المسلمين حتّى أخذ عليهم الثُّغْرة التي اقتحموا منها، فأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو مُعلِمًا[5] ليُرى مكانه، فقال له عليّ رضي الله عنه: «يا عمرو، إنّي أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام»، قال: «لا حاجة لي إليه»، قال: «فإنيّ أدعوك إلى النزال»، قال: «يا ابن أخي، واللهِ لا أحبّ أن أقتلك»، قال عليّ رضي الله عنه: «لكنّي واللهِ أحبّ أن أقتلك»، فحَمي عمرو عند ذلك، وكان غيورًا مشهورًا بالشجاعة،

---

١ س: معسكرة.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٦/٣. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٠/١٩.

٣ هو ضرار بن الخطّاب بن مِرداس بن كثير بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فِهر الفِهري (ت. ١٣هـ/٦٣٤م). له صحبة، كان فارسًا شاعرًا، وكان أبوه رئيس بني فِهر في زمانه، ولم يكن في قريش أشعر منه. قاتل المسلمين يوم أحُد والخندق أشدّ قتال، وأسلم يوم فتح مكّة. له أخبار في فتح الشام، واستشهد في وقعة أجنادين. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣٩٢/٣؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢١٥/٢.

٤ لعلّ الصواب: "ابن مِرداس". انظر: ترجمة ضرار بن الخطّاب السابقة.

٥ أعْلَمَ الفارسُ: جعل لنفسه علامة الشجعان، فهو مُعْلِم. **الصحاح** للجوهري، «علم».

واقتحم عن فرسه فعقَره، أو ضرب وجهه، ثمّ أقبل على عليّ، فتناوَلا وتجاوَلا، فضربه عليّ رضي الله عنه ضربةً فيها نفْسه، فلمّا قتله انهزمت خيله حتّى اقتحمت مِن الخندق هاربةً، وقُتِل مع عمرو رجلان؛ منبّه بن عثمان بن عبد الدار، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، قتله أيضًا عليّ رضي الله عنه.[1]

وقيل: لم يكن بينهم إلّا الترامي بالنَّبل والحجارة، حتّى أنزل الله تعالى النصر،[2] وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَتْكُمْ﴾، مَسوق لبيان النعمة إجمالًا، وسيأتي بقيّتها في آخر القصّة.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، وكانوا ألفًا.

بعث الله عليهم صَبًا باردةً في ليلةٍ شاتية، فأَخْصَرَتهم[3] وسَفَت الترابَ في وجوههم، وأُمرَ الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطّعت الأطناب،[4] وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيلُ بعضها في بعضٍ، وقُذف في قلوبهم الرعب، وكبّرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فقال طليحة بن خُوَيلد الأسدي: «أمّا محمّد فقد بدأكم بالسحر، / فالنجاءَ النجاءَ»، فانهزموا مِن غير قتال.[5] [٣٣٨ظ]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن حفر الخندق وترتيب مبادي الحِراب. وقيل: مِن التجائكم إليه، ورجائكم مِن فضله. وقُرئ بـ"الياء"،[6] أي: بما يعمله الكفّار، أي: مِن التحرّز والمحاربة، أو مِن الكفر والمعاصي. ﴿بَصِيرًا﴾ ولذلك فعلَ ما فعلَ مِن نصركم عليهم. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل مِن ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾[7] ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مِن أعلى الوادي مِن

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٧/٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٣.

٣ "فأَخْصَرَتهم" آلمتهم بالبَرْد، مِن "الخَصَر" بالتحريك؛ أي: البَرْد. و"قد خَصِرَ الرجل"، إذا آلَمَه البَرْد في أطرافه. انظر: الصحاح للجوهري، «خصر».

٤ الطُّنب: حَبل الخِباء، والجمع "أطناب". الصحاح للجوهري، «طنب».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٦/٤.

٦ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

٧ في الآية السابقة.

جهة المشرق، وهم بنو غَطَفان ومَن تابعهم مِن أهل نجدٍ، قائدهم عُيينة بن حصين وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامَّتهم اليهود مِن قريظة والنضير.

﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: مِن أسفل الوادي مِن قِبَل المغرب، وهم قريش ومَن شايَعهم مِن الأحابيش[1] وبَني كِنانة وأهل تِهامة، وقائدُهم أبو سفيان، وكانوا عشرة آلافٍ.

﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ عطفٌ على ما قبله، داخلٌ معه في حكم التذكير، أي: حين مالت عن سَنَنها، وانحرفت عن مستوى نظرها حَيرةً وشُخوصًا. وقيل: عدَلت عن كلّ شيء، فلم تلتفت إلّا إلى عدوّها لشدّة الرَّوع.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ لأنّ الرِّئة تنتفخ مِن شدّة الفزع، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحُلقوم. وقيل: هو مَثَل في اضطراب القلوب ووَجيبِها وإن لم تبلغ الحناجرَ حقيقةً.

/ والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ لمَن يُظهر الإيمان [٣٣٩و]
على الإطلاق، أي: تظنّون به تعالى أنواع الظنون المختلفة، حيث ظنّ المخلصون الثُّبّتُ القلوبِ أنّ الله تعالى يُنجز وعدَه في إعلاء دينه، كما يُعرِب عنه ما سَيُحكى عنهم مِن قولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيةَ [الأحزاب، ٢٢/٣٣]، أو يمتحنهم فخافوا الزلَل وضعفَ الاحتمال، والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكِي عنهم ممّا لا خيرَ فيه.

والجملة معطوفة على ﴿زَاغَتِ﴾، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة، والدلالةِ على الاستمرار. وقُرِئ: "الظُّنُونَ" بغير "ألف"،[2] وهو القياس، وزيادتُها لمراعاة الفواصل، كما تُزاد في القوافي.

[1] الأحابيش: قال الجوهري: «هم بطن مِن قريش». وقال المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: «هم مِن بطون كنانة بن خزيمة». قال الجوهري: «وسمّي بذلك بجبل أسفلَ مكّة اسمه حبشي، اجتمع عنده بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة، فحالفوا قريشًا على أنّهم يد واحدة على عدوّهم ما سجا ليل ووضح نهار، وما أرسي حبشي مكانه، فسمُّوا الأحابيش». قال صاحب حماة: «وليسوا مِن الحبشة كما يتوهّمه بعضهم». نهاية الأرب للقلقشندي، ١٦٤/١.

[2] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وحمزة. وقرأ ابن كثير والكسائي وخلف وحفص بـ"ألف" في الوقف دون الوصل. النشر لابن الجزري، ٣٤٧/٢.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف زمان، أو ظرف مكان لِما بعده، أي: في ذلك الزمان الهائل، أو المكان الدحض ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: عُومِلوا معاملةَ مَن يُختبَر، فظهر المخلِص مِن المنافق، والراسخُ مِن المتزَلزِل، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ مِن الهَول والفزع. وقُرئ بفتح "الزاء".[١]

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِذْ زَاغَتِ﴾.[٢] وصيغة المضارع لِما مرّ مِن الدلالة على استمرار القول، واستحضار صورته، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفُ اعتقاد: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِن إعلاء الدين والظفَر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: وعدَ غرورٍ. وقيل: قولًا باطلًا. القائل مُعتّب بن قُشير، وأضرابُه راضون به، قال: «يَعدِنا محمّد بفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يتبرّز فرَقًا، ما هذا إلّا وعدُ غرور».[٣]

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوسُ بن قيظي[٤] وأتباعه. وقيل: عبد الله بن أبيّ وأشياعه: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة المطهّرة. وقيل: اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وقد نهى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تُسمّى بها كراهةً لها، وقال: «هي طيبة» أو «طابة».[٥] كأنّهم ذكروها بذلك الاسم

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى والجحدري. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٤٥٩.

[٢] الأحزاب، ٣٣/١٠.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٢٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٢٦.

[٤] هو أوس بن قيظي بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن أوس الأنصاري الأوسي، شهد أحُدًا هو وابناه؛ عرابة، وعبد الله. ويقال: إنّ أوس بن قيظي كان منافقًا، وإنّه الذي قال: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب، ٣٣/١٣]. **الإصابة** لابن حجر، ١/٣٠٥.

[٥] أخرج أحمد في **مسنده**، ٣٠/٤٨٣ (١٨٥١٩)؛ وابن شبّة في **تاريخ المدينة**، ١/١٦٥، عن البراء، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن سمّى المدينةَ يثرب فليستغفر الله عزّ وجلّ، هي طابة هي طابة».

مخالفةً له صلّى الله عليه وسلّم. ونداؤهم إيّاهم بعنوان أهليّتهم لها ترشيح لِما بعده مِن الأمر بالرجوع إليها.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لا موضعَ إقامة لكم، أو لا إقامةَ لكم ههنا، يريدون المعسكَر. وقُرئ بفتح "الميم"،[1] أي: لا قيامَ، أو لا موضعَ قيام لكم، ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ أي: إلى منازلكم بالمدينة. مرادهم الأمر بالفرار، لكنّهم عبّروا عنه بالرجوع ترويجًا لمقالهم، وإيذانًا بأنّه ليس مِن قبيل الفِرار المذموم.

وقيل: المعنى: لا قيامَ لكم في دين محمّد عليه السلام، فارجعوا إلى ما كنتم عليه مِن الشرك، أو فارجعوا عمّا بايعتموه عليه، وأسلِموه إلى أعدائه، أو لا مُقامَ لكم في يثرب، فارجعوا كفّارًا ليتسنّى لكم المُقام بها، والأوّل هو الأنسب لِما بعده، فإنّ قوله: / ﴿وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَت﴾. [٣٣٩ظ]
وصيغة المضارع لِما مرّ مِن استحضار الصورة، وهم بنو[2] حارثة وبنو[3] سلمة، استأذنوه عليه السلام في الرجوع ممتثلين بأمرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَسْتَئْذِنُ﴾، أو حال مِن فاعله، أو استئناف مبنيّ على السؤال عن كيفيّة الاستئذان. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: غيرُ حصينةٍ، مُعرِضةٌ للعدوّ والسرّاق، فأْذَن لنا حتّى نحصّنَها ثـمّ نرجعَ إلى العسكر. و"العَورةُ" في الأصل: الخلَلُ، أُطلِقت على المختَلّ مبالغةً. وقد جُوّز أن تكون تخفيفَ "عَوِرَة" مِن "عَوِرَت الدارُ" إذا اختلَّت، وقد قُرئ بها.[4] والأوّل هو الأنسب بمَقام الاعتذار، كما يُفصح عنه تصدير مقالِهم بحرف التحقيق.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ والحال أنّها ليست كذلك. ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مِن القتال.

---

[1] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.
[2] م س: بنوا.
[3] م س: بنوا.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن يعمر وقتادة وأبي رجاء وأبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي طالوت وابن مقسم وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٠/٨.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤﴾

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أُسندَ الدخول إلى "بيوتهم" وأُوقِعَ عليهم لِما أنّ المراد فرضُ دخولها وهم فيها، لا فرضُ دخولها مطلقًا، كما هو المفهوم لو لم يُذكر الجارّ والمجرور، ولا فرضُ الدخول عليهم مطلقًا، كما هو المفهوم لو أُسند إلى الجارّ والمجرور.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: مِن جميع جوانبها، لا مِن بعضها دون بعض، فالمعنى: لو كانت بيوتهم مختلّةً بالكلّيّة، ودخلها كلّ مَن أراد مِن أهل الدعارة والفساد ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ مِن جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الرِّدّةَ والرجعةَ إلى الكفر مكانَ ما سُئِلوا الآن مِن الإيمان والطاعة ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ لأَعطَوها غيرَ مُبالين بما دهاهم مِن الداهية الدهياء، والغارة الشَّعواء. وقُرئ: "لَأَتَوْهَا" بالقصر،[١] أي: لفعلوها وجاءوها، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَا﴾ بالفتنة، أي: ما أَلبَثوها وما أخَّروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يسَع السؤالَ والجوابَ مِن الزمان، فضلًا عن التعلّل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن.

وقيل: ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد إلّا يسيرًا. والأوّل هو اللائق بالمَقام.

هذا، وأمّا تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزِّبة فمَع منافاته للعموم المستفاد مِن تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضربٌ مِن فساد الوضع، لِما عرفت مِن أنّ مساق النظم الكريم لبيان أنّهم إذا دُعوا إلى الحقّ تعلّلوا بشيء يسير، وإن دُعوا إلى الباطل سارعوا إليه آثِرَ ذِي أثير مِن غير صارفٍ يَلويهم، ولا عاطفٍ يَثْنِيهم. ففرضُ الدخول عليهم مِن جهة العساكر المذكورة، وإسنادُ سؤالِ الفتنة والدعوةِ إلى الكفر إلى طائفةٍ أخرى مع أنّ العساكر هم المعروفون بعداوة الدين، المباشرون لقتال المؤمنين، المصِرّون على الإعراض عن الحقّ، المجِدّون في الدعاء إلى الكفر والضلال؛ بمَعزِل مِن التقريب.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن ذكوان بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

/ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فإنّ بني حارثة عاهدوا [٣٤٠و] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحُد حين فشِلوا أن لا يعودوا لمثله. وقيل: هم قوم غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر مِن الكرامة والفضيلة، فقالوا: "لئن أشهدَنا الله قتالًا لنُقاتلنّ".[١]

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ مطلوبًا مقتضًى حتّى يوفّى به. وقيل: مسئولًا عن الوفاء به، ومُجازًى عليه.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإنّه لا بدّ لكلّ شخصٍ مِن حتفِ أنفٍ أو قتلِ سيفٍ في وقت معيّن سبَق به القضاء، وجرى عليه القلم.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وإن نفعكم الفرار مثلًا فمُتِّعتم بالتأخير لم يكن ذلك التّمتيع إلّا تمتيعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: أو يصيبُكم بِسُوءٍ إن أراد بكم رحمة، فاختُصِر الكلام، أو حُمل الثاني على الأوّل، لِما في العِصمة مِن معنى المنع.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبِّطين للناس عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم المنافقون، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مِن منافقي المدينة: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٤٧/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠/٨.

وهو صوت سُمِّي به فعل متعَدٍّ، نحو: "أحْضِر" أو "قَرِّبْ"، ويستوي فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "هلُمّ يا رجل"، و"هلُمّوا يا رجالُ". أي: قرِّبُوا / أنفسكم إلينا، وهذا يدلّ على أنّهم عند هذا القول خارجون مِن المعسكَر، متوجِّهون نحو المدينة. [٣٤٠ظ]

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحِراب والقتال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إتيانًا، أو زمانًا، أو بأسًا قليلًا، فإنّهم يعتذرون ويثبِّطون ما أمكن لهم، ويخرجون مع المؤمنين، يوهمونهم أنّهم معهم، ولا تراهم يبارِزون ويقاتلون إلّا شيئًا قليلًا إذا اضطرّوا إليه، كقوله تعالى: ﴿مَا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.[١] وقيل: إنّه مِن تتمّة كلامهم، معناه: ولا يأتي أصحاب محمّد حربَ الأحزاب ولا يقاومونهم إلّا قليلًا.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء عليكم بالمعاونة، أو النفقةِ في سبيل الله، أو الظفَرِ والغنيمة، جمع "شَحيح"، ونصبُه على الحاليّة مِن فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾،[٢] أو مِن ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾،[٣] أو على الذمّ.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ صفة لمصدر ﴿يَنظُرُونَ﴾، أو حال مِن فاعله، أو لمصدر ﴿تَدُورُ﴾، أو حال مِن ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾، أي: ينظرون نظرًا كائنًا كنظَر المغشيّ عليه مِن معالجة سكرات الموت حذَرًا وخوَرًا ولِواذًا بك، أو ينظرون كائنين كالذي... إلخ، أو تدور أعينهم دورانًا كائنًا كدوران عينه، أو تدورُ أعينُهم كائنةً كعَينه.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضَربوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وقالوا: وَفِّروا قِسمتَنا، فإنّا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمَكاننا غَلبتم عدوَّكم،

---

[١] الأحزاب، ٢٠/٣٣.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

وبنا نُصِرتم عليه. و"السَّلْق": البَسط بقهرٍ باليد أو اللسان. وقُرئ: "صَلَقُوكُمْ".[١]

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على الحاليّة، أو الذمّ، ويؤيّده القراءةُ بالرفع.[٢]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن صفات السّوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بالإخلاص، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: أظهَر بطلانها، إذ لم يَثبُت لهم أعمال فتَبطُلَ، أو أبطل تصنّعهم ونفاقهم، فلم يبقَ مستتبِعًا لمنفعةٍ دنيويّة أصلًا.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّنًا. وتخصيص يُسرِه بالذكر مع أنّ كلّ شيء عليه تعالى يسير لبيان أنّ أعمالهم حقيقةٌ بأن يُظهَرَ حبوطها، لكمال تعاضد الدواعي، وعدمِ الصوارف بالكلّيّة.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

/ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: هؤلاء لِجُبنهم يظنّون أنّ الأحزاب لم ينهزموا، ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّةً ثانيةً ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ تمنّوا أنّهم خارجون إلى البَدوِ حاصلون بين الأعراب. وقُرئ: "بُدًّى"[٣] جمع "بادٍ"، كـ"غازٍ" و"غُزًّى". [٣٤١و]

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادم مِن جانب المدينة. وقُرئ: "يَسَّاءَلُونَ"،[٤] أي: يتساءلون، ومعناه: يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعتَ؟ ماذا بلغَك؟ أو يتساءلون الأعرابَ، كما يقال: رأيت الهلالَ وتراءَيناه، فإنّ صيغة "التفاعل" قد تُجرَّد عن معنى كون ما أُسنِدَت إليه فاعلًا مِن وجهٍ، ومفعولًا مِن وجهٍ، ويُكتفى بتعدّد الفاعل، كما في المثال المذكور ونظائره.

﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عمّا جرى عليكم. ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ هذه الكرّةَ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتالٌ ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفًا مِن التعيير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٦٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

٤ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٨.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خَصلة حسنة حقُّها أن يؤتَسى بها، كالثبات في الحرب، ومُقاساةِ الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يَحِقُّ التأسِّي به، كقولك: "في البيضة عشرونَ مَنَا حَدِيدٍ"،[١] أي: هي نفسها هذا القدرُ مِن الحديد. وقُرئ بكسر "الهمزة"،[٢] وهي لغة فيها.

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: ثوابَ الله، أو لقاءَه، أو أيّامَ الله واليومَ الآخر خصوصًا. وقيل: هو مِثل قولك: "أرجو زيدًا وفضلَه"، فإنّ اليوم الآخر مِن أيّام الله تعالى. و﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلة لـ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صفة لها، وقيل: بدل مِن ﴿لَكُمْ﴾، والأكثرون على أنّ ضمير المخاطب لا يُبدَل منه.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ أي: وقَرنَ الرجاءَ ذِكْرَ اللهِ ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا، فإنّ المثابَرةَ على ذكره تعالى تؤدّي إلى ملازمة الطاعة، وبها يتحقّق الائتِساء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيان لِما صدر عن خُلّص المؤمنين عند اشتباه الشئون واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم، أي: لمّا شاهدوهم حسبما وُصِفوا لهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه مِن حيث هو، مِن غير أن يخطر ببالهم لفظ يدلّ عليه، فضلًا عن تذكيره وتأنيثه، فإنّهما مِن أحكام اللفظ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام، ٧٨/٦]. وجعلُه إشارة إلى الخَطب أو البلاء مِن نتائج النظر الجليل، فتدبّر.

---

١ كذلك ضبطها المؤلّف بالإضافة والتخفيف. قال الشهاب الخفاجي: «المراد بـ"البيضة" بيضة الحديد، وهي الكرة، أو ما يوضع على الرأس، وهو المِغفر. و"المَنُّ" بتشديد النون وزنٌ معروف، و"حديد" بدلٌ منه، وفي نسخة: "مَنَا" بالقصر والتخفيف والإضافة، وهو لغة فيه». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٥/٧.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

نعم، يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فإنّ ذلك العنوان أوّلُ ما يخطر ببالهم عند المشاهدة، ومرادُهم بذلك ما وُعِدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة، ٢/٢١٤]، / وقولِه عليه السلام: «سيشتدّ الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبةُ لكم عليهم»،[١] وقولِه عليه السلام: «إنّ الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليالٍ أو عشرٍ».[٢] [٣٤١ظ]

وقُرئ بكسر "الراء" وفتحِ "الهمزة".[٣]

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله، أو صدَقا في النصرة والثواب كما صدَقا في البلاء. وإظهار الاسم للتعظيم.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ما رأوه ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى وبمواعيده، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المؤمنين بالإخلاص مطلقًا، لا الذين حُكيت محاسنهم خاصّةً ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مِن الثبات مع الرسول عليه السلام، والمقاتلةِ لأعداء الدين، وهم رجال مِن الصحابة رضي الله عنهم نذروا أنّهم إذا لَقُوا حربًا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثَبَتوا وقاتلوا حتّى يُستَشهَدوا، وهم عثمان بن عفّان، وطلحة بن عُبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل،[٤]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٩/٤.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٢٩/٤. قال الوليّ العراقي: لم أقِف عليه، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. الفتح السماوي للمناوي، ٩٢٨/٣.

٣ "بكسر الراء" يعني بإمالة فتحتها. قرأ بذلك حمزة وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٤٦/٢.

٤ هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل القرشي العدوي، أبو الأعور (ت. ٥١هـ/٦٧١م). أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، ومِن السابقين الأوّلين البدريّين، شهد المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشهد حصار دمشق وفتحها، فولّاه عليها أبو عبيدة بن الجرّاح، فهو أوّل مَن عمل نيابة دمشق مِن هذه الأمّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٢٤/١؛ والإصابة لابن حجر، ٨٧/٣؛ والأعلام للزركلي، ٩٤/٣.

وحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرُهم، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ومعنى ﴿صَدَقُواْ﴾: أتَوا بالصدق، مِن "صَدَقَنِي" إذا قال الصدقَ. ومحلّ ﴿مَا عَٰهَدُواْ﴾ النصب، إمّا بطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه، كما في قولهم: «صَدَقَني سِنَّ بَكْرِه»،[1] أي: في سِنّه، وإمّا بجعلِ المعاهَدِ عليه مصدوقًا على المجاز، كأنّهم خاطَبوه خطابَ مَن قال لكَومائه:[2]

نَحَرَتْنِيَ الأعداءُ إنْ لم تُنْحَرِي[3]

وقالوا له: سَنَفِي بك، وحيث وَفَوا به فقد صَدَقوه، ولو كانوا نكَثوه لَكَذَبوه، ولكان مكذوبًا.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ تفصيل لحال الصادقين، وتقسيمٌ لهم إلى قسمين. و"النَّحْبُ": النذر، وهو أن يَلتزم الإنسان شيئًا مِن أعماله، ويوجبَه على نفسه. و"قضاؤُه": الفراغ منه والوفاء به. ومحلّ الجارّ والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٨/٢]، أي: فبعضُهم أو فبعضٌ منهم مَن خرج عن العهدة، كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر[4] عمِّ أنس بن مالك، وغيرهم، رضوان الله تعالى[5] عليهم أجمعين، فإنّهم قد قضَوا نذورهم، سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالَهم الاختياريّة التي هي المقاتلة المغيّاةُ بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر، وهو الموتُ شهيدًا، أو كان مستعارًا لِالتزامه على ما سيأتي.

---

[1] مَثَل يُضرب في الصدق؛ و"البَكْر": الفَتِيُّ مِن الإبل، وأصله: أنّ رجلًا ساوَمَ رجُلا في بَكْرٍ، فقال: "ما سِنُّه؟" فقال صاحبه: "هِدَعْ هِدَعْ"، وهذه لفظة يُسَكَّن بها الصِّغار مِن الإبل، فلمّا سمع المشتري هذه الكلمة، قال: "صدَقَني سِنَّ بَكره"، ونُصب "سِنّ" على معنى: "عَرَّفَني سنَّ". انظر: **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٢/١.

[2] الكَوْماء: الناقة العظيمة السنام. **الصحاح** للجوهري، «كوم».

[3] وفي هامش م: صدره:

أومَى إلى الكوماء هذا طارق

نسبه أبو هلال العسكري إلى بعض الإسلاميّين. انظر: **ديوان المعاني** للعسكري، ٤٧/١. وقال النويري: «يروى لحسّان بن ثابت». **نهاية الأرب** للنويري، ٢٠٣/٣.

[4] س: النضير.

[5] س – تعالى.

﴿وَمِنْهُم﴾ أي: وبعضهم أو وبعضٌ منهم ﴿مَن يَنتَظِرُ﴾ أي: قضاءَ نحبِه، لكونه موقِنًا، كعثمان وطلحةَ وغيرهما ممَّن استشهد بعد ذلك، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فإنّهم مستمرّون على نذورهم، قد قضَوا بعضها، وهو الثبات مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقتالُ إلى حين نزول الآية الكريمة، ومنتظرون لقضاء بعضها الباقي، وهو القتال إلى الموت شهيدًا.

هذا، ويجوز أن يكون "النَّحبُ" مستعارًا لِالتزام الموت شهيدًا، إمّا بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختياريّة للناذِر منزلة التزام نفسه، وإمّا بتنزيل نفسه منزلةَ أسبابه، وإيرادِ الالتزام عليه، وهو الأنسب بمقام المدح.

وأيًا ما كان ففي وصفهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة في المنتَظَر / شهادةٌ [٣٤٢و] حقّةٌ بكمال اشتياقهم إلى الشهادة. وأمّا ما قيل[1] مِن أنّ "النَّحب" استُعير للموت؛ لأنّه كنذرٍ لازم في رقبة كلّ حيوانٍ؛ فمَسخٌ للاستعارة، وذهابٌ برَونقها، وإخراجٌ للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلّيّة.

﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقُواْ﴾، وفاعلُه فاعلُه، أي: وما بدّلوا عهدَهم وما غيّروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: تبديلًا ما، لا أصلًا، ولا وصفًا؛ بل ثبتوا عليه راغبين فيه، مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، أمّا الذين قضَوا فظاهر، وأمّا الباقون فيَشهد به انتظارهم أصدقَ شهادةٍ. وتعميم عدم التبديل للفريق الأوّل مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحُكم. ويجوز أن يكون ضمير ﴿بَدَّلُواْ﴾ للمنتظرين خاصّةً بناءً على أنّ المحتاج إلى البيان حالُهم.

وقد رُوي أنّ طلحة رضي الله عنه ثبتَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحد حتّى أصيبت يده، فقال عليه السلام: «أوجَبَ طلحة الجنّةَ»، وفي رواية: «أوجَبَ طلحةُ»،[2] وعنه عليه السلام في رواية جابر: «مَن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»،[3]

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٢٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣٢. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أوجَبَ طلحةُ» أخرجه الترمذي في السنن، ٥/٦٤٣ (٣٧٣٨).

٣ سنن الترمذي، ٥/٦٤٤ (٣٧٣٩)؛ المستدرك للحاكم، ٣/٤٢٤ (٥٦١٢).

وفي رواية عائشة رضي الله عنها: «مَن سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض وقد قضى نَحبَه فلينظر إلى طلحة»،[١] وهذا يشير إلى أنّه مِن الأوّلين حكمًا.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ متعلّق بمُضمَر مستأنَف مَسوقٍ بطريق الفَذْلكة لبيان ما هو داعٍ إلى وقوع ما حُكي مِن الأحوال والأقوال على التفصيل وغايةٌ له، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾،[٢] كأنّه قيل: وقعَ جميع ما وقعَ ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم مِن الصدق والوفاء قولًا وفعلًا. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم مِن الأعمال والأقوال المحكيّة ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبَهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا.

وقيل: متعلّق بما قبله مِن نفي التبديل المنطوق، وإثباتِه المعرَّضِ به، كأنّ المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء، كما قصد المخلِصون بالثبات والوفاء العاقبةَ الحسنى.

وقيل: تعليل لـ﴿صَدَقُوا۟﴾،[٣] وقيل: لِما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾،[٤] وقيل: لِما يستفاد مِن قوله تعالى: / ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾،[٥] كأنّه [٣٤٢ظ]
قيل: ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخَطب ليجزي... الآيةَ، فتأمّل، وبالله التوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لِمَن تاب، وهو اعتراض فيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ رجوع إلى حكاية بقيّة القصّة، وتفصيلِ تتمّة النعمة المشارِ إليها إجمالًا بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا

---

١ المعجم الأوسط للطبراني، ١٤٩/٩ (٩٣٨٢)؛ مسند أبي يعلى، ٣٠١/٨ (٤٨٩٨).
٢ الأحزاب، ٨/٣٣.
٣ في الآية السابقة.
٤ الأحزاب، ٢٢/٣٣.
٥ الأحزاب، ٢٢/٣٣.

﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾،[١] معطوفٌ إمّا على المُضمَر المقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾،[٢] كأنّه قيل إثرَ حكاية الأمور المذكورة: وقعَ ما وقعَ مِن الحوادث وردّ اللهُ... إلخ.

وإمّا على ﴿أَرْسَلْنَا﴾،[٣] وقد وُسِّط بينهما بيانُ كون ما نزل بهم واقعةً طامّةً تحيّرت بها العقول والأفهام، وداهيةً تامّةً تحاكّت منها الرُّكَب، وزلّت الأقدام، وتفصيلُ ما صدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق مِن الأحوال والأقوال لإظهار عِظَم النعمة، وإبانةِ خطَرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها، أي: فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخالِ الرَّوعة.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال مِن الموصول، أي: ملتبسين به، وكذا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ بتداخلٍ أو تعاقب، أي: غيرَ ظافرين بخير، أو الثانية بيان للأولى، أو استئناف.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بما ذُكر مِن إرسال الريح والجنود، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كلّ ما يريد، ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا على كلّ شيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب المردودة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو[٤] قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ مِن حصونهم، جمع "صِيصِية"، وهي ما يُتحصَّن به، ولذلك تُقال لِقَرن الثَّور والظبي وشَوك الديك.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوفَ الشديدَ بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليَهم وأولادَهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ / فَرِيقًا﴾ مِن غير أن يكون مِن جهتِهم حَراك فضلًا عن المخالفة والاستعصاء. [٣٤٣و]

---

١ الأحزاب، ٩/٣٣.
٢ في الآية السابقة.
٣ الأحزاب، ٩/٣٣.
٤ م س: بنوا.

رُوي أنّ جبريل عليه السلام أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم صبيحةَ الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال: «أتَنزِع لَأْمَتَك والملائكة ما وضعوا السلاح؟ إنّ الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إليهم»، فأذّن في الناس أن لا يصلّوا العصر إلّا ببني قريظة. فحاصروهم إحدى وعشرين -أو خمسًا وعشرين- ليلةً حتّى جَهَدهم الحصار، فقال لهم: «تنزلون على حكمي»، فأبَوا فقال: «على حكم سعد بن معاذ»، فرضوا به، فحَكم سعد بقتل مُقاتِلَتهم، وسَبيِ ذراريهم ونسائهم، فكبّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «لقد حكمت بحُكم الله مِن فوق سبعة أرقعة». فقُتل منهم ستّمائة مُقاتل -وقيل: مِن ثمانمائة إلى تسعمائة- وأُسِرَ سبعمائة.[١]

وقُرئ: "تَأْسُرُونَ" بضمّ "السين"،[٢] كما قُرئ: "الرُّعُبَ" بضمّ "العين".[٣] ولعلّ تأخيرَ المفعول في الجملة الثانية مع أنّ مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه، كما في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة، ٨٧/٢]، وقولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة، ٧٠/٥] لمراعاة الفواصل.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾ أي: حصونَهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقودَهم وأثاثَهم ومواشيَهم.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جعل عَقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال عليه السلام: «إنّكم في منازلكم»، فقال عمر رضي الله عنه: «أمَا تُخمّس كما خمّستَ يوم بدر؟» قال عليه السلام: «لا، إنّما جُعِلَتْ هذه لي طعمةً دون الناس»، قالوا: «رضينا بما صنعَ الله ورسوله».[٤]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٣. وقصّة حكم سعد في بني قريظة في صحيح البخاري، ٣٥/٥ (٣٨٠٤)؛ وصحيح مسلم، ١٣٨٨/٣ (١٧٦٨).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرهسم وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

[٣] قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣. قال الزيلعي: «رواه الواقدي في كتاب المغازي»، وذكر نحوه. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٠٤/٣.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي: أورثكم في علمه وتقديره أرضًا لم تقبضوها بعدُ كفارس والروم. وقيل: كلُّ أرض تُفتح إلى يوم القيامة. وقيل: خيبر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فقد شاهدتم بعضَ مقدوراته في إيراث الأراضي التي تسلَّمتُموها، فقيسوا عليها ما عداها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ٢٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ / أي: السَّعةَ والتنعّمَ [٣٤٣ظ] فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفَها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أَقْبِلنَ بإرادتكنّ واختياركنّ لإحدى الخَصلتين، كما يقال: "أقبلَ يخاصِمُني"، و"ذهب يكلِّمني"، و"قام يهدِّدني".

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ بالجَزم جوابًا للأمر، وكذا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي: أعطيكُنّ المتعةَ وأطلِّقكنّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقًا مِن غير ضِرار. وقُرئ بالرفع[١] على الاستئناف.

رُوي أنّهنّ سألنَه عليه السلام ثيابَ الزينة وزيادةَ النفقة، فنزلت.[٢] فبدأ بعائشة فخيّرها فاختارت الله ورسولَه والدارَ[٣] الآخرةَ، ثمّ اختارت الباقيات اختيارَها، فشكر لهنّ اللهُ ذلك فنزل: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب، ٥٢/٣٣].[٤]

واختُلِف في أنّ هذا التخيير هل كان تفويضَ الطلاق إليهنّ حتّى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنّه لم يكن تفويضَ الطلاق، وإنّما كان تخييرًا لهنّ بين الإرادتين على أنّهنّ إن أردنَ الدنيا فارَقَهنّ عليه السلام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾. وذهب آخرون إلى أنّه كان تفويضًا للطلاق إليهنّ، حتّى لو أنّهنّ اخترن أنفسهنّ كان ذلك طلاقًا.[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد الخرّاز. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٨.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٠/٤.

٣ وفي هامش م: "والدارَ" بيان.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٠/٤.

٥ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.

وكذا اختُلِف في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود وابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهم: إذا خَيّر رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلًا، ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا، ورجعيّة عند الشافعي، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان رحمهم الله.[٢]

[٣٤٤و] ورُوي عن زيد بن ثابت أنّها إن اختارت زوجَها / يقع طلقة واحدة، وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات، وهو قول الحسن ورواية عن مالك.[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعيّة، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة. ورُوي عنه أيضًا أنّها إن اختارت زوجَها لا يقع شيء أصلًا، وعليه إجماع فقهاء الأمصار.[٤] وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها: «خيّرَنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاخترناه، ولم يَعدّه طلاقًا».[٥]

وتقديم التمتيع على التسريح مِن باب الكرَم، وفيه قطع لمَعاذيرهنّ مِن أوّل الأمر.

والمتعة في المطلّقة التي لم يُدخَل بها ولم يُفرَض لها صَداق عند العقد واجبةٌ عندنا، وفيما عداهنّ مستحبّة، وهي دِرع وخِمار وملحفة بحسب السَّعة والإقتار، إلّا أن يكون نصف مهرها أقلَّ مِن ذلك، فحينئذ يجب لها الأقلُّ منهما، ولا ينقص مِن خمسة دراهم.[٦]

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: تُرِدنَ رسولَه. وذِكرُ الله عزّ وجلّ للإيذان بجلالة محلّه عليه السلام عندَه تعالى. ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: نَعِيمَها الذي

[١] س – تعالى.
[٢] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
[٣] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
[٤] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٦/١٥.
[٥] صحيح البخاري، ٤٣/٧ (٥٢٦٢)؛ صحيح مسلم، ١١٠٤/٢ (١٤٧٧).
[٦] انظر: الهداية للمرغيناني، ١٩٩/١.

لا قدرَ عنده للدنيا وما فيها جميعًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهنّ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَرُ قدرُه، ولا يُبلَغ غايتُه.

و"مِن" للتبيين؛ لأنّ كلّهنّ مُحسنات. وتجريد الشرطيّة الأولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير، والاحترازِ عن شائبة الإكراه، وهو السرّ فيما ذُكر مِن تقديم التمتيع على التسريح، وفي وصف السراح بالجميل.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تلوين للخطاب، وتَوجيهٌ له إليهنّ، لإظهار الاعتناء بنُصحهنّ. ونداؤهنّ ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه عليه السلام لأنّها التي يدور عليها ما يرد عليهنّ مِن الأحكام.

﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ بكبيرةٍ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرةِ القبح، مِن "بَيَّنَ" بمعنى "تبيَّنَ"، وقُرئ بفتح "الياء"،[1] والمراد بها كلّ ما اقترفنَ مِن الكبائر. وقيل: هي عصيانهنّ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونشوزُهنّ، وطلبهنّ منه ما يشقّ عليه، أو ما يضيق به ذرعه، ويغتمّ لأجله. وقُرئ: "تَأْتِ" بالفوقانيّة.[2]

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يُعذَّبن ضعفَي عذاب غيرهنّ، أي: مِثلَيه لأنّ الذنب منهنّ أقبح، فإنّ زيادة قبحه / تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمةِ عليه، ولذلك جُعِل حَدّ الحُرّ ضعف حَدّ الرقيق، وعوتب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم[3] بما لا يعاتَب به الأمم. [٣٤٤ظ]

وقُرئ: "يُضَعَّفْ"[4] على البناء للمفعول، و"يُضَاعِفْ"،[5] و"نُضَعِّفْ"[6] بـ"نون" العظمة على البناء للفاعل ونصب ﴿ٱلْعَذَابُ﴾.

---

١ قرأ بها ابن كثير وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وابن عمير وزيد بن عليّ ورَوح ويزيد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٤.

٣ س: عليهم السلام.

٤ قرأ بها أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٤٧٣.

٦ قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونُهنّ نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل يدعوه إليه لِمراعاة حقّه.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ وقُرئ: بـ"التاء"،[١] أي: ومَن يدُم على الطاعة ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرّةً على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهنّ رِضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالقناعة، وحُسن المعاشرة. وقُرئ: "يَعْمَلْ" بـ"الياء"،[٢] حَملًا على لفظ ﴿مَن﴾، و"يُؤْتِهَا"[٣] على أنّ فيه ضمير اسم الله تعالى.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ في الجنّة زيادة على أجرها المضاعف ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ مرضيًّا.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أصلُ ﴿أَحَدٍ﴾ "وَحَدٍ" بمعنى الواحد، ثمّ وُضِع في النفي مستويًا فيه المذكّر والمؤنّث، والواحدُ والكثير. والمعنى: لستُنّ كجماعة واحدة مِن جماعات النساء في الفضل والشرف ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفةَ حُكم الله تعالى ورِضا رسوله، أو إن اتّصفتُنّ بالتقوى كما هو اللائق بحالكنّ.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ عند مخاطبة الناس، أي: لا تَجِئْنَ بقولكنّ خاضعًا ليّنًا على سَنَن قول المُريبات والمُومِسات ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فجورٌ وريبةٌ. وقُرئ بالجزم[٤] عطفًا على محلّ فعل النهي، على أنّه نهيٌ لِمريض القلب

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وابن عمير وزيد بن عليّ ورَوح ويزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٤.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

[٤] أي: "فَيَطْمَعْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وأبان بن عثمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٥.

عن الطمع عقيبَ نهيهنّ عن الإطماع بالقول الخاضع، كأنّه قيل: فلا تخضعنَ بالقول، فلا يطمَعْ مريضُ القلب.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ بعيدًا عن الريبة والإطماع بحَدٍّ وخُشونة مِن غير تَخنيث،[١] أو قولًا حَسَنًا مع كونه خَشِنًا.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

/ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرٌ مِن "قَرَّ يَقَرُّ" مِن باب "عَلِمَ"، وأصله "اقْرَرْنَ"، [٣٤٥و]
فحذفت "الراء" الأولى، وأُلقيَت فتحتها على ما قبلها، كما في قولك: "ظَلْنَ"، أو مِن "قَارَ يَقَارُ" إذا اجتمع. وقُرئ بكسر "القاف"،[٢] مِن "وَقَرَ يَقِرُ وَقارًا" إذا ثبتَ واستقرّ، وأصله "اوْقِرْنَ"، ففُعِل به ما فُعِلَ بـ"عِدْنَ" مِن "وَعَدَ"، أو مِن "قَرَّ يَقِرُّ" حذفت إحدى راءَي "اقْرِرْنَ"، ونُقِلَت كسرتها إلى "القاف"، كما تقول: "ظِلْنَ".

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي: لا تَتَبَخْتَرنَ في مَشيكنّ ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: تبرّجًا مثلَ تبرُّج النساء في الجاهليّة القديمة، وهي ما بين آدم ونوح. وقيل: ما بين إدريس ونوح عليهم السلام. وقيل: الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس دِرعًا مِن اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرِض نفسها على الرجال. وقيل: زمن داود وسليمان عليهما[٣] السلام. والجاهليّة الأخرى ما بين عيسى ومحمّد عليهما السلام.

وقيل: الجاهليّة الأولى جاهليّة الكفر، والجاهليّة الأخرى الفسوق في الإسلام، ويؤيّده قوله عليه السلام لأبي الدرداء: «إنّ فيك جاهليّةً»، قال: «جاهليّةُ كفرٍ أو جاهليّة إسلام؟» قال: «بل جاهليّة كفر».[٤]

---

١ ط: تخنيث؛ س: تحنيس.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

٣ م: عليهم.

٤ جامع البيان للطبري، ٩٩/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٣. وفي الصحيحين أنّه قاله لأبي ذرّ رضي الله عنه، دون قوله: «جاهليّةُ كفرٍ أو جاهليّة إسلام؟»... إلخ. صحيح البخاري، ١٥/١ (٣٠)؛ صحيح مسلم، ١٢٨٢/٣ (١٦٦١).

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أُمِرن بهما لإنافتهما على غيرهما، وكونِهما أصلَي الطاعات البدنيّة والماليّة، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: في كلّ ما تأتُنَّ وَما تذَرُنَّ، لا سيّما فيما أُمِرتُنّ به ونُهيتُنَّ عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الذنبَ المدنِّس لعِرضكم، وهو تعليل لأمرهِنّ ونهيهِنّ على الاستئناف، ولذلك عُمّم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهنّ، وصُرّح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ مرادًا بهم مَن حواهم بيت النبوّة، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِن أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغًا.

واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها. وهذه [٣٤٥ظ] كما ترى آية بيّنة / وحجّة نيّرة على كون نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أهل بيته، قاضيةٌ ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم أهليّة البيت بفاطمة رضي الله عنها وعليّ وابنَيه رضوان الله تعالى[١] عليهم. وأمّا ما تمسّكوا به مِن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج ذاتَ غَدوةٍ وعليه مِرط مرجَّل[٢] مِن شعر أسود، وجلس، فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثمّ جاء عليّ فأدخله فيه، ثمّ جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.[٣] فإنّما يدلّ على كونهم مِن أهل البيت، لا على أنّ مَن عداهم ليسوا كذلك، ولو فُرِضَتْ دلالتُه على ذلك لَما اعتُدَّ بها، لكونها في مقابلة النصّ.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اذكرن للناس بطريق العِظة والتذكير ما يُتلى

---

١ س - تعالى.

٢ في صحيح مسلم، ١٨٨٣/٤ (٢٤٢٤): "مرحَّل" بالحاء. قال ملّا عليّ القاري: «"مرحَّل" -بفتح الحاء المهملة المشدّدة- ضرب مِن بُرود اليمن، لِما عليه مِن تصاوير الرَّحْل، كذا ذكره شارح، ورُوي بجيم؛ وهو ما عليه صورة المراجل، بمعنى: القدور». مرقاة المفاتيح للقاري، ٣٩٦٢/٩.

٣ صحيح مسلم، ١٨٨٣/٤ (٢٤٢٤)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٢١٢/٢-٢١٣ (٢٨٥٨).

في بيوتكنّ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ مِن الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البيّنةَ الدالّةَ على صدق النبوّة بنظمه المعجز، وكونِه حكمةً منطويةً على فنون العلوم والشرائع. وهو تذكير بما أنعَم عليهنّ، حيث جعلهنّ أهل بيت النبوّة، ومهبطِ الوحي، وما شاهدن مِن بُرَحاء الوحي[1] ممّا يوجب قوّةَ الإيمان، والحرصَ على الطاعة، حثًّا على الانتهاء والائتمارِ فيما كُلِّفْنَه.

والتعرّض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها -مع أنّه الأنسب لكونها مهبِط الوحي- لعمومها لجميع الآيات، ووقوعِها في كلّ البيوت، وتكرُّرِها الموجِبِ لتمكّنهنّ مِن الذكر والتذكير، بخلاف النزول. وعدم تعيين التالي لِتَعُمَّ تلاوةَ جبريل، وتلاوةَ النبيّ عليهما السلام، وتلاوتَهنّ، وتلاوةَ غيرهنّ تعليمًا وتعلّمًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبّر ما يصلح في الدين، ولذلك فعلَ ما فعلَ مِن الأمر والنهي، أو يعلم مَن يصلح للنبوّة، ومَن يستأهل أن يكون مِن أهل بيته.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: الداخلين في السِّلم المنقادين لحكم الله تعالى مِن الذكور والإناث، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدّقين بما يجب أن يصدَّق به مِن الفريقين، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداوِمين على الطاعات القائمين بها، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي، ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في مالهم،

---
[1] بُرَحاء الوحي: شدّته. انظر: الصحاح للجوهري، «برح».

[٣٤٦و] / ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروضَ، ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ بسبب ما عملوا مِن الحسنات المذكورة ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لِما اقترفوا مِن الصغائر؛ لأنّهنّ مكفِّرات بما عملوا مِن الأعمال الصالحة، ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ على ما صدر عنهم مِن الطاعات.

والآية وعدٌ لهنّ ولأمثالهنّ على الطاعة، والتدرّعِ بهذه الخصال الحميدة.

رُوي أنّ أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهنّ قُلن: «يا رسول الله، ذكرَ الله الرجال في القرآن بخير، أفَما فينا خيرٌ نُذكَر به؟ إنّا نخاف أن لا تُقبل منّا طاعة»، فنزلت.[١] وقيل: السائلة أمّ سلمة.[٢]

ورُوي أنّه لمّا نزل في نساء النبيّ عليه السلام ما نزل قال نساء المؤمنين: «فما نزل فينا شيء»، فنزلت.[٣]

وعطفُ الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين، وهو ضروري. وأمّا عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين، فلا يكون ضروريًّا، ولذلك تُرِك في قوله تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ [التحريم، ٦٦/٥]. وفائدته الدلالة على أنّ مدارَ إعداد ما أُعِدّ لهم جمعُهم بين هذه النعوت الجميلة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لرجل ولا امرأة مِن المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ أي: إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله تعالى لتعظيم أمره، أو للإشعارِ بأنّ قضاءه عليه السلام قضاء الله عزّ وجلّ؛ لأنّه نزل

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٤٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣٨.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٤٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٧١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣٩.

في زينب بنت جحش[١] بنتِ عمّته أميمة بنت عبد المطّلب،[٢] خطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لزيد بن حارثة، فأبَت هي وأخوها عبد الله.[٣]

وقيل: في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط،[٤] / وهبت نفسها للنبيّ عليه السلام، فزوّجها مِن زيد، فسخِطت هي وأخوها، وقالا: «إنّما أردنا رسول الله، فزَوّجَنا عبدَه».[٥] [٣٤٦ظ]

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أن يختاروا مِن أمرهم ما شاءوا؛ بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تَبعًا لرأيه عليه السلام، واختيارَهم تِلوًا لِاختياره. وجمعُ الضميرين لعموم ﴿مُؤْمِنٍ﴾ و﴿مُؤْمِنَةٍ﴾، لوقوعهما في سياق النفي. وقيل: الضمير الثاني للرسول عليه السلام، والجمع للتعظيم. وقُرئ: "تَكُونَ" بـ"التاء".[٦]

---

[١] هي زينب بنت جحش الأسديّة (ت. ٢٠هـ/٦٤١م)، أمّ المؤمنين، زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأمّها أميمة عمّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ثلاث، وقيل: سنة خمس، ونزلت بسببها آية الحجاب، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، وقد وَصفت عائشةُ زينبَ بالوصف الجميل في قصّة الإفك، وأنّ الله عصمها بالورع. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢١١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/١٥٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٦٦.

[٢] هي أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشميّة، عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. اختُلف في إسلامها، فنفاه محمّد بن إسحاق، وقال ابن سعد: «أمّها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن محزوم، وتزوّجها في الجاهليّة جُحير بن رئاب الأسدي، فولدت له عبد الله، وعبيد الله، وأبا أحمد، وزينب، وحَمنة. وأطعمها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أربعين وَسقًا مِن تمر خيبر». قال ابن حجَر: «فعَلى هذا كانت لمّا تزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ابنتها زينب موجودةً». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢٧٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/٣٣-٣٤.

[٣] **جامع البيان** للطبري، ١٩/١١٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٢٣٢.

[٤] هي أمّ كُلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط الأمويّة (ت. نحو ٣٣هـ/٦٥٣م). أوّل مَن هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لمّا علمت بهجرته صلّى الله عليه وسلّم خرجت ماشية مِن مكّة إلى المدينة تتبعه، ولحِقها أخواها لإعادتها، فلم ترجع. فتزوّجها في المدينة زيد بن حارثة، واستشهد في غزوة مؤتة، فتزوّجها الزبير بن العوّام، فولدت له زينب، وفارقها، فتزوّجها عبد الرحمن بن عوف، فولدَت له إبراهيم وحميدًا، ومات عنها، قال ابن سعد: «ولا نعلم قرشيّة خرجت مِن بيت أبوَيها مسلمةً مهاجرة إلّا أمّ كُلثوم». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٢٧٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٨/٤٦٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٣١.

[٥] **جامع البيان** للطبري، ١٩/١١٤؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٤٧.

[٦] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن ذكوان عن ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤٨.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر مِن الأمور، ويَعملْ فيه برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريقَ الحقّ ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: بيِّن الانحراف عن سَنن الصواب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي: واذكر وقتَ قولك ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام، وتوفيقك لحُسن تربيته ومراعاته، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعمل بما وفّقك الله له مِن فنون الإحسان التي مِن جملتها تحريرُه، وهو زيد بن حارثة. وإيرادُه بالعنوان المذكور لبيان منافاة[1] حاله لِما صدر عنه عليه السلام مِن إظهار خلاف ما في ضميره؛ إذ هو إنّما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام، وكلاهما ممّا لا يُتصوّر في حقّ زيدٍ.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: زينبَ، وذلك أنّه عليه السلام أبصرها بعد ما أنكحها إيّاه، فوقعت في نفسه حالةٌ جِبِلّيّة لا يكاد يسلم عنها البشر، فقال: «سبحان اللهِ مقلّبِ القلوب»، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرَتْها لزيد، ففَطِن لذلك، فوقع في نفسه كراهةُ صحبتها، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «أريدُ أن أفارق صاحبتي»، فقال: «ما لك، أَرَابَك منها شيء؟» قال: «لا واللهِ ما رأيتُ منها إلّا خيرًا، ولكنّها لشرفها تتعظّم عليّ»، / فقال: «أمسِك عليك زوجك»،[2] ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها، فلا تطلّقها إضرارًا وتَعلّلًا بتكبّرها، ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نكاحها إن طلّقها، أو إرادةُ طلاقها، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرَهم إيّاك به، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إن كان فيه ما يُخشى، و"الواو" للحال. [٣٤٧و]

---

١ س: منافاه.

٢ جامع البيان للطبري، ١١٦/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٨.

وليست المعاتبة على الإخفاء وحدَه؛ بل على الإخفاء مخافةَ قالةِ الناس، وإظهارِ ما ينافي إضماره، فإنّ الأَولى في أمثال ذلك أن يَصمت، أو يفوّض الأمر إلى رأيه.[1]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ بحيث لم يبقَ له فيها حاجة، وطلّقها، وانقضت عدّتها، وقيل: "قضاء الوَطَر" كناية عن الطلاق، مثل: "لا حاجةَ لي فيكِ". ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقُرئ: "زَوَّجْتُكَهَا"،[2] والمراد الأمر بتزويجها منه عليه السلام. وقيل: جعلُها زوجتَه بلا واسطة عَقدٍ، ويؤيّده أنّها كانت تقول لسائر نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى تولّى نكاحي، وأنتنّ زوَّجكنّ أولياؤكنّ».[3] وقيل: كان زيد السفيرَ في خِطبتها، وذلك ابتلاء عظيم، وشاهدُ عدلٍ بقوّة إيمانه.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضِيق ومشقّة ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي: في حقّ تزوُّجهنّ ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فإنّ لهم في رسول الله أسوةً حسنةً، وفيه دلالة على أنّ حكمه عليه السلام وحُكمَ الأمّة سواء، إلّا ما خصّه الدليل.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يُريدُ تكوينه مِن الأمور، أو مأمورَه الحاصل بـ"كُنْ" ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوَّنًا لا محالةَ. اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما صحّ وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قَسَم له وقدَّر، مِن قولهم: "فرَضَ له في الديوان كذا"، ومنه فروض العساكر لأعطِياتهم.

---

[1] أي: إلى رأي زيد رضي الله عنه كما صرّح به الألوسي في روح المعاني، ١١/٢٠٤. والعبارة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٣٣: "أو يفوّض الأمر إلى ربّه".

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم وابن الحنفيّة وجعفر بن محمّد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٨٣.

[3] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٣٣. وهو بنحوه في صحيح البخاري، ٩/١٢٤ (٧٤٢٠).

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسم موضوع موضعَ المصدر، كقولهم: "تُرْبًا وجَندلًا"،[١] مؤكِّد لِما قبله مِن نفي الحرج، أي: سَنّ الله ذلك سنّةً ﴿فِى ٱلَّذِينَ / خَلَوْا۟﴾ مضَوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن الأنبياء عليهم السلام حيث وسّع عليهم في باب النكاح وغيره، ولقد كانت لداود عليه السلام مائةُ امرأة، وثلاثُمائة سُرِّيّة، ولسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة، وسبعمائة سُرِّيّة. [٣٤٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: قضاءً مقضيًّا، وحكمًا مَبتوتًا. اعتراض وُسِّط بين الموصولين الجاريَين مَجرى الواحد، للمسارعة إلى تقرير نفي الحرَج وتحقيقِه.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾،[٢] أو مدح لهم، بالنصب أو بالرفع. وقُرئ: "رِسَالَةَ اللهِ".[٣] ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ في كلّ ما يأتون ويذرون، لا سيّما في أمر تبليغ الرسالة، حيث لا يَخرِمون منها حرفًا، ولا تأخذهم في ذلك لومةُ لائم.

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في وصفهم بقَصرهم الخشيةَ على الله تعالى تعريضٌ بما صدر عنه عليه السلام مِن الاحتراز عن لائمة الخَلق بعد التصريح في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.[٤]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافيًا للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشَى غيرُه، أو محاسبًا على الصغيرة والكبيرة، فيجب أن يكون حقّ الخشية منه تعالى.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده مِن حرمة المصاهرة وغيرها. ولا ينتقض عمومه

---

[١] "تُرْبًا وجَندلًا"، أي: رغمًا وهَوانًا وخَيبة. فتوح الغيب للطيبي، ٤٣٧/١٢. وانظر: الكتاب لسيبويه، ٣١٤/١.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٤/٨.

[٤] الأحزاب، ٣٧/٣٣.

بكونه عليه السلام أبًا للطاهر والقاسم وإبراهيم؛ لأنّهم لم يبلغوا الحلُم، ولو بلغوا لكانوا رجالًا له عليه السلام، لا لهم.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: كان رسولَ الله، وكلُّ رسول أبو أمّته، لكن لا حقيقةً؛ بل بمعنى أنّه شفيق ناصح لهم، وسبب لحياتهم الأبديّة، وما زَيد إلّا واحدٌ مِن رجالكم الذين لا وِلاد بينهم وبينه عليه السلام، فحكمه حكمهم، وليس للتبنّي والادّعاء حكم سوى التقريب والاختصاص.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: كان آخِرَهُم الذين خُتِموا به. وقُرئ بكسر "التاء"،[1] أي: كان خاتِمَهم، ويؤيّده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَلَكِنْ نَبِيًّا خَتَمَ النَّبِيِّينَ".[2]

وأيًا ما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيًّا، ولم يكن هو عليه السلام خاتَم النبيّين، / كما يُروى أنّه قال في إبراهيم حين توفّي: «لو عاش لكان نبيًّا».[3] [٣٤٨و]

ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام؛ لأنّ معنى كونه خاتَم النبيّين أنّه لا ينبّأ أحد بعدَه، وعيسى ممّن نُبّئ قبله، وحين ينزل إنّما ينزل عاملًا على شريعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، مصلّيًا إلى قبلته، كأنّه بعض أمّته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ومِن جملته هذه الأحكام والحِكَم التي بيّنها لكم، وكنتم منها في شكّ مريب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بما هو أهله مِن التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يَعمّ الأوقات والأحوال، ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزّهوه عمّا لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أوّلَ النهار وآخِرَه، على أنّ تخصيصهما بالذِكر

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٢٢/١٩.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٣/٤. وفي صحيح البخاري، ٤٣/٨ (٦١٩٤)، عن إسماعيل: قلتُ لابن أبي أوفى: رأيتَ إبراهيم ابنَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: «مات صغيرًا، ولو قُضي أن يكون بعدَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم نبيّ عاشَ ابنه، ولكن لا نبيّ بعده».

ليس لقَصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات؛ بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات؛ لكونهما مشهودَين، كإفراد التسبيح به مِن بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدةَ فيها. وقيل: كِلا الفعلَين متوجّه إليهما، كقولك: "صُم وصلِّ يومَ الجمعة". وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾... إلخ استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما قبله مِن الأمرين، فإنّ صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغِناه عن العالمين ممّا يوجب عليهم المداومةَ على ما يستوجبه تعالى عليهم مِن ذِكره تعالى وتسبيحه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستكِنّ في ﴿يُصَلِّي﴾، لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل، لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمةَ أوّلًا، والاستغفارَ ثانيًا، فإنّ استعمال اللفظ الواحد في معنيَين متغايرَين ممّا لا مساغَ له؛ بل على أن يراد بها معنًى مَجازي عامّ، يكون كِلا المعنيَين فردًا حقيقيًّا له، وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم، فإنّ كلًّا مِن الرحمة والاستغفار فردٌ حقيقي له، أو الترحّم والانعطاف المعنوي المأخوذ مِن الصلاة المشتملةِ على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود. / ولا ريب في أنّ استغفار [٣٤٨ظ] الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحّم عليهم. وأمّا أنّ ذلك سبب للرحمة لكونهمَ مُجابي الدعوة كما قيل،[1] فاعتباره يَنْزِعُ إلى الجمع بين المعنيَين المتغايرَين، فتدبّر.

﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلّق بـ﴿يُصَلِّي﴾، أي: يعتني بأموركم هو وملائكتُه ليُخرِجكم بذلك مِن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ اعتراض مقرِّر لمَضمون ما قبله، أي: كان بكافّة المؤمنين -الذين أنتم مِن زُمرتهم- رحيمًا، ولذلك يفعل بكم ما يفعل مِن الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة، ويهديكم إلى الإيمان والطاعة،

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٣٤/٤.

أو كان بكم رحيمًا، على أنّ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُظهَرٌ وُضِع موضعَ المُضمَر مدحًا لهم وإشعارًا بعِلّة[١] الرحمة.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ بيان للأحكام الآجِلة لرحمته تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التي هي العناية بأمرهم، وهدايتُهم إلى الطاعة، أي: ما يُحَيَّون به، على أنّه مصدر أضيفَ إلى مفعوله يومَ لقائه عند الموت، أو عند البعث مِن القبور، أو عند دخول الجنّة، تسليم عليهم مِن الله عزّ وجلّ تعظيمًا لهم، أو مِن الملائكة بشارةً لهم بالجنّة، أو تكرمةً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد، ١٣/٢٣-٢٤]، أو إخبار بالسلامة عن كلّ مكروهٍ وآفة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنّة عقيبَ بيان آثار رحمته الواصِلة إليهم قبل ذلك. ولعلّ إيثارَ الجملة / الفِعليّة على الاسميّة المناسبة لِما قبلها بأن يقال مثلًا: "وأجرُهم أجرٌ كريم" أو "ولهم أجرٌ كريم" للمبالغة في الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أنّ الأجر الذي هو المقصد الأقصى مِن بين سائر آثار الرحمة موجودٌ بالفعل، مُهَيَّؤٌ لهم، مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. [٣٤٩و]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ على مَن بُعِثتَ إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالَهم، وتتحمّل منهم الشهادةَ بما صدر عنهم مِن التصديق والتكذيب وسائرِ ما هم عليه مِن الهدى والضلال، وتؤدّيها يوم القيامة أداءً مقبولًا فيما لهم وما عليهم. وهو حال مقدَّرة.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تبشّر المؤمنين بالجنّة، وتنذر الكفّار بالنار.

---

[١] س: لعلّة.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الإقرار به وبوحدانيّته وبسائر ما يجب الإيمان به مِن صفاته وأفعاله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره، أطلق عليه مجازًا لِما أنّه مِن أسبابه، وقيّد به الدعوة إيذانًا بأنّها أمر صعب المَنال، وخَطبٌ في غاية الإعضال، لا يتأتّى إلّا بإمدادٍ مِن جناب قدسه، كيف لا وهو صرفٌ للوجوه عن القِبَلِ المعبودة، وإدخالٌ للأعناق في قلادةٍ غير معهودة.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، ويُهتَدَى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على مقدَّر يقتضيه المقام، ويستدعيه النظام، كأنّه قيل: فراقِب أحوالَ الناس، وبشِّر المؤمنين منهم ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ أي: على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادةً على أجور أعمالهم بطريق التفضّل والإحسان.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمالِ لين الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار، كُنِي عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهيّ عنه بنظمه في سِلكها،
[٣٤٩ظ] / وتصويرِه بصورتها. ومَن حملَ النهي على التهييج والإلهاب[١] فقد أبعد عن التحقيق بمراحل.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: لا تُبالِ بأذيّتهم لك بسبب تصلّبك في الدعوة والإنذار. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كلّ ما تأتي وما تذَر مِن الشئون التي مِن جملتها هذا الشأن، فإنّه تعالى يكفيكهم.

---

١ انظر: فتوح الغيب للطيبي، ١٢/٣٧٦.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولًا إليه الأمور في كلّ الأحوال. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

ولَمّا وُصِف عليه السلام بنعوتٍ خمسة قُوبل كلّ منها بخطاب يناسبه، خلا أنّه لم يُذكَر مقابلُ "الشاهد" صريحًا -وهو الأمر بالمراقبة- ثِقةً بظهور دلالة مقابل المبشِّر عليه، وهو الأمر بالتبشير حسبما ذُكر آنفًا. وقوبل "النذير" بالنهي عن مداراة الكفّار والمنافقين، والمسامحةِ في إنذارهم كما تَحقَّقتَه. وقوبل "الداعي إليه تعالى بإذنه" بالأمر بالتوكّل عليه مِن حيث إنّه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به. وقوبل "السراج المنير" بالاكتفاء به تعالى، فإنّ مَن أيّده الله تعالى بالقوّة القدسيّة، ورشّحه للنبوّة، وجعله برهانًا نيّرًا يهدي الخلق مِن ظلمات الغيّ إلى نور الرشاد؛ حقيقٌ بأن يكتفي به عن كلّ ما سواه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامعوهنّ، وقُرئ: "تُمَاسُّوهُنَّ" بضمّ "التاء".[1]

﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ بأيّام يتربّصن فيها بأنفسهنّ ﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددَها، مِن "عدَدتُ الدراهمَ فاعتدّها"، وحقيقته عَدَّها لنفسه، وكذلك "كِلتُه فاكتالَه". والإسناد إلى الرجال للدلالة على أنّ العدّة حقّ الأزواج كما أشعرَ به قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾.[2]

وقُرئ: "تَعْتَدُونَهَا"[3] على إبدال إحدى "الدالين" بـ"الياء"، أو على أنّه مِن "الاعتداء" بمعنى: تَعتَدون فيها.

والخلوة الصحيحة في حكم المسّ، وتخصيصُ المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيّات / للتنبيه على أنّ المؤمن مِن شأنه أن يتخيّر لنطفته، ولا ينكح إلّا مؤمنةً. [٣٥٠و]

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.

[2] س + عليهنّ.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٤٩٠.

وفائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ إزاحةُ ما عسى يُتوهَم أنّ تراخي الطلاق ريثما يمكن الإصابة يؤثّر في العدّة كما يؤثّر في النسب.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: إن لم يكن مفروضًا لها في العقد، فإنّ الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة، فإنّها مستحبّة عندنا في روايةٍ، وفي أخرى غيرُ مستحبّة.[١]

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي: أخرجوهنّ مِن منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهنّ عدّة، ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ مِن غير ضِرار ولا منعِ حقّ، ولا مساغَ لتفسيره بالطلاق السنّي؛ لأنّه إنّما يتسنّى في المدخول بهنّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، فإنّها أجور الأبضاع، وإيتاؤها إمّا إعطاؤها معجّلةً، أو تسميتُها في العقد، وأيًا ما كان فتقييد الإحلال له عليه السلام به ليس لتوقّف الحلّ عليه ضرورةَ أنّه يصحّ العقد بلا تسميةٍ، ويجب مهر المِثل أو المتعة على تقديرَي الدخول وعدمه؛ بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه السلام، كتقييد إحلال المَملوكة بكونها مَسبيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ فإنّ المشتراة لا يُتحقَّق بَدءُ أمرها وما جرى عليها، وكتقييد القرائب بكونهنّ مهاجراتٍ معه في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ويحتمل تقييد الحِلّ بذلك في حقّه عليه السلام خاصّة، ويعضُده قول أمّ هانئ بنت أبي طالب: «خطَبني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[٢] فاعتذرتُ إليه، فعذَرني، ثمّ أنزل الله هذه الآية، فلم أحِلّ له؛ لأنّي لم أهاجر معه، كنتُ مِن الطُّلَقاء».[٣]

---

[١] انظر: البناية للعيني، ١٥٤/٥.
[٢] م - صلّى الله عليه وسلّم.
[٣] سنن الترمذي، ٣٥٥/٥ (٣٢١٤)؛ المستدرك للحاكم، ٢٠٢/٢ (٢٧٥٤).

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ بالنصب عطفًا على مفعول ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾؛ إذ ليس معناه إنشاءَ الإحلال الناجز؛ بل إعلام مطلق الإحلال المنتظِم لِما سبق ولحِق. وقُرئ بالرفع[1] على أنّه مبتدأ خبره محذوف، أي: أحللناها لك أيضًا.

/ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: ملّكته بَضْعَها بأيّ عبارةٍ كانت بلا مهرٍ إن اتّفق ذلك، كما ينبئ عنه تنكيرها، لكنْ لا مطلقًا؛ بل عند إرادته عليه السلام استنكاحها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: أن يتملّك بَضْعَها كذلك، أي: بلا مَهر، فإنّ ذلك جارٍ منه عليه السلام مَجرى القبول. [٣٥٠ظ]

وحيث لم يكن هذا نصًّا في كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مَناطًا للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجابًا أو سلبًا.

واختُلف في اتّفاق هذا العقد، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لم يكن عنده عليه السلام أحدٌ منهنّ بالهبة».[2] وقيل: الموهوبات أربع: ميمونةُ بنت الحارث،[3] وزينبُ بنت خزيمة الأنصاريّة،[4] وأمُّ شريك بنتُ جابر،[5] وخولةُ بنت حكيم.[6]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٢/٨.

٢ **جامع البيان** للطبري، ١٣٤/١٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٣.

٣ هي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلاليّة (ت. ٥١هـ/٦٧١م)، أمّ المؤمنين، آخر امرأة تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وآخر مَن مات مِن زوجاته. كان اسمها "بَرّة"، فسمّاها "ميمونة"، بايعت بمكّة قبل الهجرة، وكانت زوجة أبي رَهم بن عبد العزّى العامري، ومات عنها، فتزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ٧هـ، عاشت ٨٠ سنة. وتوفّيت في سرِف، وهو الموضع الذي كان فيه زواجها بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم قُرب مكّة، ودفنت به. وكانت صالحة فاضلة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٣٨/٢؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٣٢٢/٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣٤٢/٧.

٤ هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلاليّة (ت. ٤هـ/٦٢٥م). أمّ المؤمنين، كانت تُدعى في الجاهليّة أمّ المساكين، تزوّجها عبيدة بن الحارث، وقتل عنها ببدر، فتزوّجها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة ٣هـ، ولبثت عنده ثمانية أشهر أو أقلّ، وماتت بالمدينة، وعمرها نحو ثلاثين سنة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٥٧/٨؛ و**الأعلام** للزركلي، ٦٦/٣.

٥ هي أمّ شريك بنت جابر الغفاريّة. ذكرها أحمد بن صالح في أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اللاتي لم يدخل بهنّ. وقال ابن الأثير: ذكرها ابن حبيب في المبايِعات. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٩٤٢/٤؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٤١٥/٨.

٦ هي خولة بنت حكيم بن أميّة بن حارثة السلميّة، امرأة عثمان بن مظعون، ومات عنها. يقال: كنيتها أمّ شريك، ويقال لها: خُويلة بالتصغير، وكانت صالحة فاضلة، قال هشام بن عروة عن أبيه: كانت خولة بنت حكيم مِن اللاتي وهبن أنفسهنّ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٨٣٢/٤؛ و**الإصابة** لابن حجر، ١١٦/٨.

وإيراده عليه السلام في الموضعين بعنوان النبوّة بطريق الالتفات للتكرِمة والإيذانِ بأنّها المَناط لثبوت الحُكم، فيختصّ به عليه السلام حسب اختصاصها به، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: خَلُص لك إحلالُها خالصةً، أي: خُلوصًا، فإنّ "الفاعلة" في المصادر غير عزيز، كـ"العافية" و"الكاذبة"، أو خَلُص إحلال[1] ما أحللنا لك مِن المذكورات على القيود المذكورة خالصةً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الأوّل أنّ الإحلال المذكور في المادّة المعهودة غيرُ متحقِّق في حقّهم، وإنّما المتحقِّق هناك الإحلال بمَهر المِثل، وعلى الثاني أنّ إحلال الجميع على القيود المذكورة غيرُ متحقِّق في حقّهم؛ بل المتحقِّق فيه إحلال البعض المعدود على الوجه المعهود.

وقُرئ: "خَالِصَةٌ" بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: ذاك خلوصٌ لك وخصوصٌ، أو هي -أي: تلك المرأة أو الهبة- خالصةٌ لك، لا تتجاوز المؤمنين، حيث لا تحِلّ لهم بغير مَهر المِثل، ولا تصحّ الهبة؛ بل يجب مَهر المِثل.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: في حقّهنّ. اعتراض مقرِّر لِما قبله مِن خُلوص الإحلال المذكور لرسول
[٣٥١و] الله / صلّى الله عليه وسلّم وعدمِ تجاوزه للمؤمنين ببيان أنّه قد فُرض عليهم مِن شرائط العقد وحقوقه ما لم يُفرض عليه عليه السلام تكرمةً له وتوسعةً عليه، أي: قد علمنا ما ينبغي أن يُفرض عليهم في حقّ أزواجهم ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وعلى أيّ حدٍّ وأيّ صفةٍ يحِقّ أن يُفرض عليهم، ففرَضنا ما فرَضنا على ذلك الوجه، وخَصَصناك ببعض الخصائص؛ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: ضِيق. و"اللام" متعلّقة بـ﴿خَالِصَةً﴾ باعتبار ما فيها مِن معنى ثبوت الإحلال وحصولِه له عليه السلام، لا باعتبار اختصاصه به عليه السلام؛ لأنّ مدار انتفاء الحرج هو الأوّل، لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما يعسُر التحرّز عنه، ﴿رَّحِيمًا﴾ ولذلك وَسّع الأمرَ في مواقع الحرج.

---

[1] س: حلال.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: تؤخِّرها وتترك مضاجعتها، ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمّ إليك مَن تشاء منهنّ وتضاجعها، أو تُطلّق مَن تشاء منهنّ، وتُمسك مَن تشاء. وقُرئ: "تُرْجِئُ" بـ"الهمزة"،[١] والمعنى واحد. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي: طلبتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلّقتَ بالرجعة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء ممّا ذُكر.

وهذه قسمة جامعة لِما هو الغرض؛ لأنّه إمّا أن يطلّق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسمَ أو لم يقسِم، وإذا طلّق فإمّا أن يخلّي المعزولة أو يبتغيَها.

ورُوي أنّه أرجى منهنّ سَودةَ وجُويريةَ[٢] وصفيّةَ[٣] وميمونةَ وأمَّ حبيبة،[٤]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

[٢] هي جُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار، مِن خزاعة (ت. ٥٦هـ/٦٧٦م)، أمّ المؤمنين. كانت تحت مسافع بن صفوان المصطلِقي، فقُتل يوم المريسيع، وكان أبوها سيّدَ قومه في الجاهليّة، فسبيت مع بني المصطلِق، فافتداها أبوها، ثمّ زوّجها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان اسمها بَرّة، فغيّره النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسمّاها جُويرية، وكانت مِن فُضلَيات النساء أدبًا وفصاحةً. توفّيت في المدينة وعمرها ٦٥ سنة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٧٢/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ١٤٨/٢.

[٣] هي صفيّة بنت حيَي بن أخطب (ت. ٥٠هـ/٦٧٠م)، أمّ المؤمنين، مِن بني النضير، من سِبط لاوي بن يعقوب، ثمّ مِن ذريّة هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام. كانت تحت سلام بن مشكم، ثمّ خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقُتل يوم خيبر، فصارت صفيّة مع السبي، فأخذها دِحية ثمّ استعادها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأعتقها وتزوّجها. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢١٠/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٠٦/٣.

[٤] هي رَملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أميّة، أمّ حبيبة (ت. ٤٤هـ/٦٦٤م)، أمّ المؤمنين. كانت مِن فصيحات قريش، ومِن ذوات الرأي والحَصافة. تزوّجها أولًا عُبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، ثمّ ارتدّ عبيد الله، فأعرضت عنه إلى أن مات، فأرسل إليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطبها وعهِد للنجاشي بعقد نكاحه عليها، ووكّلت هي خالد بن سعيد بن العاص، فأصدقها النجاشيُّ مِن عنده أربع مائة دينار، وذلك سنة ٧هـ، ولها مِن العمر بضع وثلاثون سنةً. وكان أبوها لا يزال على الجاهليّة، فلمّا بلغه ما صنع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عجب له، وقال: «ذلك الفحل لا يُقرَع أنفه». توفّيت بالمدينة. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٤٠/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣/٣.

فكان يقسم لهنّ ما شاء كما شاء، وكانت ممّا آوى إليه عائشةُ وحفصةُ[١] وأمُّ سلمة وزينبُ.[٢] وأرجى خمسًا وآوى أربعًا. ورُوي أنّه كان يسوّي بينهنّ مع ما أُطلقَ له وخُيّر، إلّا سودة، فإنّها وهبت ليلتها لعائشةَ رضي الله عنهنّ،[٣] وقالت: «لا تطلّقني حتّى أحشرَ في زمرة نسائك».[٤]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقربُ إلى قُرّة عيونهنّ ورضاهنّ جميعًا؛ لأنّه حكمٌ كلّهنّ فيه سواء، ثمّ إن سوّيتَ بينهنّ وجدنَ ذلك تفضّلًا منك، وإن رجّحتَ بعضهنّ علِمنَ أنّه بحكم الله، فتطمئنّ به نفوسهنّ.

وقُرئ: "تُقِرَّ" بضمّ "التاء" ونصب ﴿أَعْيُنَهُنَّ﴾،[٥] و"تُقَرَّ"[٦] على البناء للمفعول. و﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد لـ"نون" ﴿يَرْضَيْنَ﴾، / وقُرئ بالنصب[٧] على أنه تأكيدٌ لِـ"هُنَّ". [٣٥١ظ]

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِن الضمائر والخواطر، فاجتهِدوا في إحسانها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العِلم، فيعلم كلّ ما تبدونه وتخفونه، ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا تغترّوا بتأخيرها فإنّه إمهال، لا إهمالٌ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

---

١ هي حفصة بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب (ت. ٤٥هـ/٦٦٥م)، أمّ المؤمنين. وُلدت بمكّة، وتزوّجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما، وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن أبيها، فزوّجه إيّاها سنة اثنتين أو ثلاث للهجرة. رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طلّقها تطليقة ثمّ ارتجعها، وذلك أنّ جبريل قال له: «أرجع حفصة، فإنّها صوّامة قوّامة، وإنّها زوجتك في الجنّة». انظر: الإصابة لابن حجر، ٨٦/٨؛ والأعلام للزركلي، ٢٦٤/٢.

٢ جامع البيان للطبري، ١٣٩/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٥/٨.

٣ س: عنها.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٢/٣. وهو في مسند الشافعي، ٢٧/٢-٢٨ (٨٣)، عن ابن عبّاس.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي إياس جؤية. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بـ"الياء" لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقي، ولوجود الفصل. وقُرئ بـ"التاء".[١] ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعدِ التسع، وهو في حقّه كالأربع في حقّنا. وقال ابن عبّاس وقتادة: «مِن بعد هؤلاء التسع اللاتي خيَّرتَهن فاخترنَكَ». وقيل: مِن بعدِ اختيارهنّ الله ورسولَه، ورضاهنّ بما تُؤتيهنّ مِن الوَصل والهجران.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي: تتبدّل، بحذف إحدى "التاءين" ﴿بِهِنَّ﴾ أي: بهؤلاء التسع ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ بأن تطلِّق واحدة منها، وتنكِح مكانها أخرى. و﴿مِنۡ﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق.

أراد الله تعالى لهنّ كرامةً وجزاءً على ما اخترنَ ورضينَ، فقصرَ رسولَه عليهنّ، وهنّ التسع اللاتي توفّي عليه السلام عنهنّ، وهنّ: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وسَودة بنت زَمعةَ، وأمّ سلمة بنت أبي أميّة، وصفيّة بنت حُييّ الخيبريّة، وميمونة بنت الحارث الهلاليّة، وزينب بنت جحش الأسديّة، وجويريّة بنت الحارث المُصطَلِقيّة.

وقال عِكرمة: «المعنى: لا يحلّ لك النساء مِن بعدِ الأجناس الأربعة اللاتي أحللناهنّ لك بالصفة التي تقدّم ذِكرها مِن الأعرابيّات والغرائبِ، أو مِن الكتابيّات، أو مِن الإماء بالنكاح».[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾، فإنّ معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلالُ نكاحِهنّ، فلا بدّ أن يكون معنى التبدّل بهنّ إحلال نكاحِ غيرِهنّ بدلَ إحلال نكاحِهنّ، وذلك إنّما يُتصوّر بالنسخ الذي ليس مِن الوظائف البشريّة.

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أي: حُسنُ الأزواج المستبدَلة، وهو حال مِن فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾، لا مِن مفعوله، / وهو ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾، لتوغّله في التنكير، قيل: تقديره: [٣٥٢و] مفروضًا إعجابُك بهنّ، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢١].

---

١ أي: "لَا تَحِلُّ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩/١٤٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨/٥٥.

٣ م ط س: أعجبتك.

وقيل: هي أسماء بنت عُمَيس الخَثعميّة[١] امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه،[٢] أي: هي ممَّن أعجَبه عليه السلام حسنُهنّ.

واختُلف في أنّ الآية محكمة أو منسوخة، قيل: بقوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.[٣] وقيل: بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾،[٤] وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف. وقيل: بالسنّة. وعن عائشة رضي الله عنها: «ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى أُحِلَّ له النساء».[٥] وقال أنس رضي الله عنه: «مات عليه السلام على التحريم».[٦]

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء مِن ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾؛ لأنّه يتناول الأزواج والإماء. وقيل: منقطع.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظًا مهيمنًا، فاحذروا مجاوزةَ حدودِه، وتخطِّيَ حلالِه إلى حرامه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

---

١ هي أسماء بنت عُميس بن مَعد بن تَيم بن الحارث الخثعمي (ت. نحو ٤٠هـ/٦٦١م). أسلَمت قبل دخول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم بمكّة، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فولدت له عبد الله ومحمّدًا وعَوفًا، ثمّ قُتل عنها جعفر شهيدًا في وقعة مؤتة، فتزوّجها أبو بكر الصدّيق فولدَت له محمّدًا، وتوفّي عنها أبو بكر فتزوّجها عليّ بن أبي طالب، فولَدت له يحيى وعونًا. وماتت بعد عليّ. وصفَها أبو نُعيم بمهاجِرة الهجرتين ومُصلّية القِبلتين. انظر: الإصابة لابن حجر، ٨/١١٤؛ والأعلام للزركلي، ١/٣٠٦.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٥٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٥٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ الأحزاب، ٣٣/٥٠.

٥ مسند أحمد، ٤٠/١٦٥ (٢٤١٣٧)؛ سنن الترمذي، ٥/٣٥٦ (٣٢١٦).

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٦/٣٦٧؛ اللباب لابن عادل، ١٥/٥٧٥. وأخرج البيهقي في السنن الكبرى، ٧/٨٦ (١٣٣٤٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لمّا خيّرهن الله اخترنَ الله ورسولهُ والدارَ الآخرة، فقصَره عليهنّ، فأنزل الله عليه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس مِن حقوق نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيان ما يجب مراعاته عليه عليه السلام مِن الحقوق المتعلِّقة بهنّ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تدخلوها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونكم مأذونًا لكم. وقيل: مِن أعمّ الأوقات، أي: لا تدخلوها في وقت مِن الأوقات إلّا وَقتَ أن يؤذن لكم.[1] ورُدّ عليه بأنّ النحاة نصّوا على أنّ الوقوع موقعَ الظرف مختصّ بالمصدر الصريح دون المأوّل، لا يقال: "آتيك أن يصيحَ الديك"، وإنّما يقال: "آتيك صياحَ الديك".

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلّق بـ﴿يُؤۡذَنَ﴾ بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنّه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقّق الإذن، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غيرَ منتظرين وقتَه، أو إدراكَه. وهو حال مِن فاعل ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ على أنّ الاستثناء واقع على الوقت والحال معًا عند مَن يجوّزه، أو مِن المجرور في ﴿لَكُمۡ﴾.

وقُرئ بالجرّ[2] صفةً لـ﴿طَعَامٍ﴾، فيكون جاريًا على غير مَن هو له بلا إبراز الضمير، ولا مساغَ له عند البصريّين. وقُرئ بالإمالة؛[3] لأنّه مصدر "أَنَى الطعامُ" أي: أدرك.

﴿وَلَـٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ استدراك مِن النهي عن الدخول بغير إذن، وفيه دلالة بيّنة على أنّ المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه.

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فتفرّقوا ولا تلبثوا؛ لأنّه خطاب لقوم كانوا يَتحيَّنون / طعام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، [٣٥٢ظ]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٦.

٣ أي: بإمالة ألِف ﴿إِنَىٰهُ﴾. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وهشام بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

مخصوصةٌ بهم وبأمثالهم، وإلّا لَما جاز لأحد أن يدخل بيوته عليه السلام بإذنٍ لغير الطعام، ولا اللبثُ بعد الطعام لأمرٍ مهمّ.

﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: لِحديث بعضكم بعضًا، أو لِحديث أهل البيت بالتسمّع له. عطفٌ على ﴿نَاظِرِينَ﴾، أو مقدَّر بفعل، أي: ولا تدخلوا، أو لا تمكثوا مستأنسين... إلخ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئناس الذي كنتم تفعلونه مِن قبلُ ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وإيجابُه للاشتغال بما لا يَعنيه، وصدِّه عن الاشتغال بما يَعنيه. ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أي: مِن إخراجكم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فإنّه يستدعي أن يكون المستحيَى منه أمرًا حقًّا متعلِّقًا بهم، لا أنفسَهم، وما ذلك إلّا إخراجُهم، فينبغي أن لا يُترك حياءً، ولذلك لم يتركه تعالى، وأمركم بالخروج. والتعبير عنه بـ"عدم الاستحياء" للمشاكلة. وقُرئ: "لَا يَسْتَحِي" بحذف "الياء" الأولى وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها.[1]

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبيّ المدلولِ عليهنّ بذِكر بيوته عليه السلام ﴿مَتَـٰعًا﴾ أي: شيئًا يُتمتّع به مِن الماعون وغيره، ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ أي: المتاعَ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: سترٍ.

رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، يدخل عليك البَرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب»، فنزلت.[2] وقيل: إنّه عليه السلام كان يَطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يدُ رجل منهم يدَ عائشة رضي الله عنها، فكَرِه النبيّ عليه السلام[3] ذلك، فنزلت.[4]

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر مِن عدم الدخول بغير إذن، وعدمِ الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤالِ المتاع مِن وراء حجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أكثرُ تطهيرًا مِن الخواطر الشيطانيّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

٢ مسند أحمد، ٢٩٩/١ (١٦٠)؛ صحيح البخاري، ١١٨/٦ (٤٧٩٠).

٣ م - عليه السلام.

٤ جامع البيان للطبري، ١٦٧/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٠/٨

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن تفعلوا في حياته فعلًا يكرهه ويتأذّى به، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: مِن بعد وفاته، أو فِراقه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن إيذائه عليه السلام ونكاحِ أزواجه مِن بعده، وما فيه مِن / معنى البعد للإيذان ببُعد منزلته في الشرّ والفساد. [٣٥٣و] ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: أمرًا عظيمًا وخَطبًا هائلًا لا يقادَر قدرُه. وفيه مِن تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلّى الله عليه وسلّم وإيجابِ حُرمته حيًّا وميّتًا ما لا يخفى، ولذلك بالَغ تعالى في الوعيد حيث قال: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ ممّا لا خيرَ فيه -كنكاحهنّ- على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم مِن المعاصي البادية والخافية لا محالةَ، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيدُ تهويل وتشديدٍ ومبالغةٍ في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استئناف لبيان مَن لا يجب الاحتجاب عنهم.

رُوي أنّه لمّا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: "يا رسول الله، أوَنكلِّمهم أيضًا مِن وراء الحجاب"، فنزلت.[١]

وإنّما لم يُذكر العمّ والخال لأنّهما بمنزلة الوالدَين، ولذلك سمّي العمّ أبًا في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة، ١٣٣/٢]، أو لأنّه اكتُفي عن ذكرهما بذِكر أبناء الإخوة وأبناءِ الأخوات، فإنّ مَناط عدم لزوم الاحتجاب بينهنّ وبين الفريقين عَينُ ما بينهنّ وبين العمّ والخال مِن العُمومة والخُئولة، لِما أنهنّ عمّات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات. وقيل: لأنّه كُرِه ترك الاحتجاب منهما مخافةَ أن يصِفاهنّ لأبنائهما.

---

[١] التفسير الوجيز للواحدي، ص ٨٧٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٧/٣.

﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نساءِ المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مِن العبيد والإماء. وقيل: مِن الإماء خاصّةً، وقد مرّ في سورة النور.[١]

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتُنّ وما تذَرُنّ، لا سيّما فيما أُمِرتُنّ به ونُهيتُنّ

[٣٥٣ظ] عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه خافية، / ولا يتفاوت في علمه الأحوال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ وقُرئ: "وَمَلَائِكَتُهُ" بالرفع[٢] عطفًا على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمها عند الكوفيّين، وحَملًا على حذف الخبر ثِقةً بدلالة ما بعده عليه على رأي البصريّين.

﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قيل: الصلاة مِن الله تعالى الرحمة، ومِن الملائكة الاستغفار. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد أنّ الله يرحمه، والملائكةَ يدعون له».[٣] وعنه أيضًا: «﴿يُصَلُّونَ﴾ يُبرّكون».[٤] وقال أبو العالية: «صلاة الله تعالى[٥] عليه ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاتهم دعاؤهم له».[٦] فينبغي أن يراد بها في ﴿يُصَلُّونَ﴾ معنًى مجازي عامّ يكون كلّ واحد مِن المعاني المذكورة فردًا حقيقيًّا له، أي: يعتنون بما فيه خيره وصلاحُ أمره، ويهتمّون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه، وذلك مِن الله سبحانه بالرحمة، ومِن الملائكة بالدعاء[٧] والاستغفار.[٨]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ اعتنوا أنتم أيضًا بذلك، فإنّكم أولى به. ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ قائلين: "اللّهمّ صلّ على محمّد وسلّم"، أو نحو ذلك. وقيل: المراد بـ"التسليم" انقياد أمره.

---

١ النور، ٣١/٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٢/٨.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٨١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٨٥/١٥.

٤ جامع البيان للطبري، ١٧٤/١٩. وذكره البخاري في صحيحه، ١٢٠/٦، معلّقًا.

٥ س - تعالى.

٦ تفسير مجاهد، ص ٥٥٢. وذكره البخاري في صحيحه، ١٢٠/٦، معلّقًا.

٧ س - بالدعاء.

٨ س: بالاستغفار.

والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه عليه الصلاة والسلام[١] مطلقًا مِن غير تعرّض لوجوب التكرار وعدمه. قيل: يجب ذلك كلّما جَرى ذكره، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «رَغِم أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ»،[٢] وقولِه عليه السلام: «مَن ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليّ دخل النار، فأبعده الله».[٣]

ويُروى أنّه عليه السلام قال: «وكّل الله تعالى بي ملَكَين، فلا أُذكَر عند مسلم فيصلّي عليّ إلّا قال ذانِكَ الملَكان: "غفرَ الله لك"، وقال الله تعالى وملائكته جوابًا لذَينِك الملَكين: "آمين"، / ولا أُذكَر عند مسلم فلا يصلّي عليّ [٣٥٤و]
إلّا قال ذانِك الملَكان: "لا غفرَ الله لك"، ويقول الله تعالى وملائكتُه جوابًا لذَينِك الملَكَين: "آمين"».[٤]

ومنهم مَن قال: يجب في كلّ مجلس مرّة، وإن تكرّر ذكره عليه السلام، كما قيل في آية السجدة وتشميتِ العاطس، وكذلك في كلّ دعاء، في أوّله وآخره. ومنهم مَن قال بالوجوب في العمر مرّةً، وكذا قال في إظهار الشهادتين.

والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفةُ علوّ شأنه صلّى الله عليه وسلّم أن يصلّى عليه كلّما جرى ذِكره الرفيع.

وأمّا الصلاة عليه في الصلاة بأن يقال: "اللّهمّ صلّ على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ، كما صلّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد"، فليس[٥] بشرط في جواز الصلاة عندنا.[٦] وعن إبراهيم النخعي رحمه الله أنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتفون عن ذلك بما في التشهّد، وهو "السلام عليك أيّها النبيّ".[٧] وأمّا الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطًا.[٨]

---

١ م - عليه الصلاة والسلام.
٢ **سنن الترمذي**، ٥/٥٥٠ (٣٥٤٥)؛ **المستدرك** للحاكم، ١/٧٣٤ (٢٠١٦).
٣ **المعجم الكبير** للطبراني، ١٢/٨٣ (١٢٥٥١). وهو في **صحيح ابن حبّان**، ٣/١٨٨ (٩٠٧)، بلفظ: "فدخَلَ" بالفاء.
٤ **المعجم الكبير** للطبراني، ٣/٨٩ (٢٧٥٣)؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٦٣.
٥ س: فليست.
٦ انظر: **ردّ المحتار** لابن عابدين، ١/٤٧٧.
٧ **المبسوط** للسرخسي، ١/٢٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٥٥٨.
٨ أي: قوله: " اللّهمّ صلّ على محمّدٍ"، وأما الزيادة على ذلك باللفظ الوارد فمستحبّ عنده. انظر: **المجموع** للنووي، ٣/٤٦٣.

وأمّا الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تَبعًا، ويُكره استقلالًا؛ لأنّه في العرف شعار ذِكر الرسل، ولذلك كُرِه أن يقال: "محمّد عزّ وجلّ" مع كونه عزيزًا جليلًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أُرِيدَ بالإيذاء إمّا فِعلُ ما يكرهانه مِن الكفر والمعاصي مجازًا، لاستحالة حقيقة التّأذّي في حقّه تعالى، وقيل في إيذائه تعالى: هو قولُ اليهود والنصارى والمشركين: "يد الله مغلولة"، و"ثالث ثلاثة"، و"المسيح ابن الله"، و"الملائكة بنات الله"، و"الأصنام شركاؤه"، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقيل: قول الذين يُلحدون في آياته، وفي إيذاء الرسول عليه السلام هو قولهم: شاعر، ساحر، كاهن، مجنون. وقيل: هو كَسر رَباعيَته وشجُّ وجهه الكريم يوم أُحد. وقيل: طَعنهم في نكاح صفيّة، والحقّ هو العموم فيهما.

وإمّا إيذاؤه عليه السلام خاصّة بطريق الحقيقة، وذكرُ الله عزّ وجلّ لتعظيمه والإيذانِ بجلالة مِقداره عنده تعالى، وأنّ إيذاءَه عليه السلام إيذاءٌ له سبحانه.

[٣٥٤ظ] / ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردَهم وأبعدهم مِن رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئًا منها، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يصيبهم في الآخرة خاصّةً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يفعلون بهم ما يتأذّون به مِن قولٍ أو فعلٍ. وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ -أي: بغير جناية يستحقّون بها الأذِيّةَ- بعد إطلاقه فيما قبله للإيذانِ بأنّ أذى الله ورسولِه لا يكون إلّا غيرَ حقّ، وأمّا أذى هؤلاء فمِنه ومِنه. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بيّنًا.

قيل: إنّها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليًا رضي الله عنه ويُسمِعونه ما لا خيرَ فيه.[١] وقيل: في أهل الإفك. وقال الضحّاك والكلبي: «في زُناة يتّبعون النساء إذا برَزنَ بالليل لقضاء حوائجهنّ».[٢] وكانوا لا يتعرّضون إلّا للإماء، ولكن ربّما كان يقع منهم التعرّض للحرائر أيضًا جهلًا أو تجاهلًا لاتّحاد الكلّ في الزِيّ واللباس. والظاهر عمومه لكلّ ما ذكر ولِما سيأتي مِن أراجيف المرجفين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ بعد ما بُيّن سوءُ حال المؤذين زجرًا لهم عن الإيذاء أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمر بعضَ المتأذّين منهم بما يدفع إيذاءَهم في الجملة مِن التستّر والتميّز عن مواقع الإيذاء، فقيل: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ "الجلباب": ثوب أوسعُ مِن الخِمار، ودون الرداء، تَلويه المرأة على رأسها، وتُبقِي منه ما تُرسله على صدرها. وقيل: هي المِلحفة وكلُّ ما يُتَستّر به، أي: يُغطِّينَ بها وجوهَهنّ وأبدانَهنّ إذا بَرزنَ لداعية مِن الدواعي. و﴿مِن﴾ للتبعيض، لِما مرّ مِن أنّ المعهود التَّلَفّعُ ببعضها وإرخاءُ بعضها. وعن السُّدّي: «تغطّي إحدى عَينيها وجَبهتَها، والشِقّ الآخر إلّا العين».[٣]

[٣٥٥و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التغطّي ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب / ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ ويُمَيَّزن عن الإماء والقيّنات اللاتي هنّ مواقع تعرّضهم وإيذائهم، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ مِن جهة أهل الريبة بالتعرّض لهنّ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما سلف منهنّ مِن التفريط، ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مِن مصالحهم أمثالَ هاتيك الجزئيّات.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٨/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٣/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٦/٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٤/٨.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عمّا هم عليه مِن النفاق وأحكامِه الموجبة للإيذاء، ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عمّا هم عليه مِن التزلزل وما يستتبعه ممّا لا خيرَ فيه، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مِن الفريقين عمّا هم عليه مِن نشر أخبار السُّوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك مِن الأراجيف الملفَّقة المستتبِعة للأذيّة. وأصل "الإرجاف" التحريك، مِن "الرَّجْفة" التي هي الزلزلة، وُصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنّك بقتالهم وإجلائهم، أو بما يضطرّهم إلى الجلاء، ونُحرِّضنّك على ذلك، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على جواب القسَم. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الجلاء ومفارقةَ جِوار الرسول عليه السلام أعظمُ ما يصيبهم ﴿فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زمانًا أو جِوارًا قليلًا، ريثما يتبيّن حالهم مِن الانتهاء وعدمه.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو الحال، على أنّ الاستثناء وارد عليه أيضًا على رأي مَن يُجوّزه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾،[1] ولا سبيلَ إلى انتصابه عن قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يَعمل فيما قَبلها.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية سنّةً، وهي أن يُقتّل الذين نافقوا الأنبياء عليهم السلام وسَعَوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما ثُقِفوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أصلًا لابتنائها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع.

---

[1] الأحزاب، ٥٣/٣٣.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن[1] / وقتِ قيامها، كان المشركون [٣٥٥ظ]
يسألونه عليه السلام عن ذلك استعجالًا بطريق الاستهزاء، واليهودُ امتحانًا، لِما أنّ الله تعالى عَمَّى وقتها في التوراة وسائر الكتب.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطلِع عليه ملَكًا مقرّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطاب مستقِلّ له عليه السلام غيرُ داخل تحت الأمر، مَسوق لبيان أنّها مع كونها غيرَ معلومة للخلق مرجوّةُ المجيء عن قريب، أي: أيّ شيء يُعلِمك بوقت قيامِها؟ أي: لا يُعلِمُك به شيء أصلًا.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: شيئًا قريبًا، أو تكون الساعة في وقتٍ قريب. وانتصابه على الظرفيّة، ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أنّ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في معنى اليوم أو الوقت. وفيه تهديد للمستعجلين، وتبكيت للمتعنّتين. والإظهار في حيّز الإضمار للتهويل وزيادةِ التقرير وتأكيدِ استقلال الجملة كما أشيرَ إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي: طرَدهم وأبعدهم مِن رحمته العاجلة والآجلة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ نارًا شديدة الاتّقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يخلّصهم منها.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ظرف لعدم الوجدان. وقيل: لـ﴿خَٰلِدِينَ﴾.[2] وقيل: لـ﴿نَصِيرًا﴾.[3] وقيل: مفعول لـ"اذكرْ"، أي: يوم تُصَرَّفُ وجوهُهم فيها مِن جهة إلى جهة،

---

[1] س + أيّ.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.

كاللحم يُشوَى في النار، أو يُطبَخ في القِدر، فيدور به الغليان مِن جهة إلى جهة، أو مِن حال إلى حال، أو يُطرَحُون فيها مقلوبين منكوسين.

وقُرئ: "تَقَلَّبُ"[١] بحذف إحدى "التاءَين" مِن "تَتَقَلَّب"، و"نُقَلِّبُ" بإسناد الفعل إلى "نون" العظمة، ونصبِ ﴿وُجُوهُهُمْ﴾،[٢] و"تُقَلِّبُ"[٣] بإسناده إلى "السعير".

وتخصيص "الوجوه" بالذِّكر لِما أنّها أكرم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع للأمر، وتهويلٍ للخَطب، ويجوز أن تكون عبارةً عن كلّ الجسد، فقوله تعالى:[٤] ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأَ مِن حكاية حالهم الفظيعة، كأنّه قيل: [٣٥٦و] فماذا / يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسّرين على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلا نُبتَلى بهذا العذاب، أو حالِ مِن ضمير ﴿وُجُوهُهُمْ﴾، أو مِن نفسها، أو هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يَقُولُونَ﴾،[٥] والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأنّ قولهم هذا ليس مستمرًا كقولهم السابق؛ بل هو ضرب اعتذارٍ، أرادوا به ضربًا مِن التشفّي بمضاعفة عذاب الذين أَلْقَوهم في تلك الورطة، وإن علموا عدمَ قبوله في حقّ خلاصهم منها.

﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين لقّنوهم الكفر. وقُرئ: "سَادَاتِنَا"[٦] للدلالة على الكثرة. والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكِبَر لتقوية الاعتذار، وإلّا فهم في مقام التحقير والإهانة. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيّنوا لنا الأباطيل، و"الألِف" للإطلاق، كما في ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وأبي جعفر الرواسي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٧/٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن كرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.

٤ م - تعالى.

٥ في الآية السابقة.

٦ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٧ في الآية السابقة.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: مِثلَي العذاب الذي آتيتَناه؛ لأنّهم ضلّوا وأضلّوا، ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ أي: شديدًا عظيمًا. وقُرئ: "كَثِيرًا".[١] وتصدير الدعاء بالنداء مكرّرًا للمبالغة في الجُؤار واستدعاءِ الإجابة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ قيل: نزلت في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه مِن قالة الناس.[٢]

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ أي: فأظهر براءته عليه السلام ممّا قالوا في حقّه، أي: مِن مضمونه ومؤدّاه الذي هو الأمر المَعيب، وذلك أنّ قارون أغرى مُومِسةً على قذفه عليه السلام بنفسها، بأن دفع إليها مالًا عظيمًا، فأظهر الله تعالى نزاهته عليه السلام عن ذلك بأن أقرّت المُومِسة بالمصانَعة الجارية بينها وبين قارون، وفُعلَ بقارون ما فُعلَ / كما فُصّل في سورة القَصص.[٣] [٣٥٦ظ]

وقيل: اتّهمه ناس بقتل هارون عند خروجه معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة، ومرّوا به حتّى رأوه غير مقتول.[٤]

وقيل: أحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءته. وقيل: قَرَفُوه[٥] بعَيبٍ في بدَنه مِن برَص أو أُدرة[٦] لفَرط تَسَتُّرِه حياءً، فأَطْلَعَهم الله[٧] تعالى على براءته بأن فَرّ الحَجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله، والقصّة مشهورة.[٨]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخَلف وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ٢٩٩/١٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٣/٣.

٣ القصص، ٧٦/٢٨.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٩/٤.

٥ وفي هامش م: اتّهموه.

٦ الأُدْرة: مرض يَنتفخ منه الخصيتان ويكبران. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٨٥/٧.

٧ س – الله.

٨ جامع البيان للطبري، ١٩٢/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٦/٨.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا قُربة ووَجاهة. وقُرئ: "وَكَانَ عَبْدًا للهِ وَجِيهًا".[١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذرون، لا سيّما في ارتكاب ما يكرهه فضلًا عمّا يؤذي رسوله عليه السلام، ﴿وَقُولُواْ﴾ في كلّ شأن مِن الشئون ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصدًا إلى الحقّ، مِن "سَدَّ يَسُدُّ سَدادًا"، يقال: "سَدَّدَ السهمَ نحوَ الرميّة" إذا لم يعدل به عن سَمتها، والمراد نهيهم عمّا خاضوا فيه مِن حديث زينب الجائر عن العدل والقصد.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يوفِّقكم للأعمال الصالحة، أو يُصلحها بالقبول والإثابة عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعَلْها مكفَّرة باستقامتكم في القول والعمل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي التي مِن جملتها هذه التكليفات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ في الدارين ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايتُه.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٣﴾

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ لمّا بيّن عِظَم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها مِن العذاب الأليم ومَنالِ المُراعين لها مِن الفَوز العظيم عُقِّب ذلك ببيان عِظَم شأن ما يُوجِبُها مِن التكاليف الشرعيّة، وصعوبةِ أمرها بطريق التمثيل، مع الإيذان بأنّ
[٣٥٧و] ما صدر عنهم مِن الطاعة وتركها صدَر عنهم بعد القبول والالتزام، / وعُبّر عنها بالأمانة تنبيهًا على أنّها حقوق مَرعيّة أودعها الله تعالى المكلّفين، وائتَمنهم عليها،

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٧.

وأوجب عليهم تَلَقِّيَها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها، والمحافظةِ عليها وأدائِها مِن غير إخلال بشيء مِن حقوقها، وعُبِّر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر مِن السماوات وغيرها بالعَرْض عليهنّ لإظهار مَزيد الاعتناء بأمرها، والرغبةِ في قبولهنّ، وعن عدم استعدادهنّ لقَبولها بالإباء والإشفاقِ منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها، وعن قَبولها بالحمل لتَحقيق معنى الصعوبة المعتبَرة فيها، بجَعلها مِن قَبيل الأجسام الثقيلة التي يُستعمل فيها القوى الجسمانيّة التي أشدّها وأعظمُها ما فيهنّ مِن القوّة والشدّة.

والمعنى: أنّ تلك الأمانة في عِظَم الشأن بحيث لو كُلِّفَت هاتيك الأجرام العظام التي هي مَثَلٌ في القوّة والشدّة مراعاتَها، وكانت ذات شعور وإدراك، لَأبَينَ قَبولَها، وأشفَقنَ منها، ولكن صُرِف الكلام عن سَننه بتصوير المفروض بصورة المحقَّق رَومًا لِزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحِه.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: عند عرضها عليه، إمّا باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إيّاها يوم الميثاق، أي: تكلّفها والتزمَها مع ما فيه مِن ضعف البُنية ورِخاوة القوّة، وهو إمّا عبارة عن قَبوله لها بموجَب استعداده الفطري، أو عن اعترافه بقوله: "بلى".

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ اعتراض وُسِّط بين الحَمل وغايتِه للإيذان مِن أوّل الأمر بعدم وفائه بما عهِده وتَحَمَّله، أي: إنّه كان مفرِطًا في الظلم، مبالغًا في الجهل، أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجَب فطرتهم السليمة. أو اعترافُهم السابق دون مَن عَداهم مِن الذين لم يُبدّلوا فطرةَ الله / تبديلًا. [٣٥٧ظ]

وإلى الفريق الأوّل أشيرَ بقوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: حمَلَها الإنسان ليعذِّب الله بعض أفراده الذين لم يُراعوها ولم يقابلوها بالطاعة، على أنّ "اللام" للعاقبة، فإنّ التعذيب وإن لم يكن غَرَضًا له مِن الحَمل لكن لمّا ترتّب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده[١]

---

١ س: فراده.

تَرتُّبَ الأغراض على الأفعال المعلَّلة بها أُبرِز في مَعرِض الغرض، أي: كان عاقبة حَمْل الإنسان لها أن يعذِّب الله تعالى هؤلاءِ مِن أفراده لخيانتهم الأمانةَ، وخروجِهم عن الطاعة بالكلّيّة.

وإلى الفريق الثاني أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: كان عاقبةُ حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء مِن أفراده، أي: يقبل توبتَهم لعدم خَلعهم رِبقةَ الطاعة عن رقابهم بالمرّة، وتلافيهم لِما فرَط منهم مِن فرطاتٍ قلّما يخلو عنها الإنسان بحُكم جِبلّته، وتدارُكِهم لها بالتوبة والإنابة.

والالتفات إلى الاسم الجليل أوّلًا لتهويلِ الخطب وتربيةِ المَهابة. والإظهارُ في موقع الإضمار ثانيًا لإبراز مزيد الاعتناءِ بأمر المؤمنين توفيةً لكلٍّ مِن مقامَي الوعيد والوعدِ حقَّه، والله تعالى أعلم.

وجعلُ ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ التي شأنها أن تكون مِن جهته تعالى عبارة عن الطاعة التي هي مِن أفعال المكلَّفين التابعة للتكليف[1] بمَعزِل مِن التقريب. وحملُ الكلام على تقرير الوعد الكريم الذي يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2] بجَعل تعظيم شأن الطاعة ذريعةً إلى ذلك بأنّ مَن
[٣٥٨و] قام بحقوق مِثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بأن يفوز / بخير الدارين،[3] يأباه وصفه بالظلم والجهلِ أوّلًا، وتعليلُ الحَمل بتعذيب فريقٍ، والتوبةِ على فريقٍ ثانيًا.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ مطلق الانقياد الشامل الطبيعي والاختياري، وبـ"عَرضها" استدعاؤها الذي يَعمّ طلبَ الفعل مِن المختار، وإرادةَ صدوره مِن غيره، وبـ"حَملها" الخيانةُ فيها، والامتناعُ عن أدائها، فيكون "الإباء" امتناعًا عن الخيانة، وإتيانًا بالمراد، فالمعنى: أنّ هذه الأجرام مع عِظمها وقوّتها أَبَيْنَ الخيانةَ لأمانتنا، وأَتَيْنَ بما أمرناهنّ به، كقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ١١/٤١]، وخانَها الإنسان حيث لم يَأْتِ بما أمرناه به، إنّه كان ظلومًا جهولًا.

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٤.

[2] الأحزاب، ٧١/٣٣.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٠/٤.

وقيل: إنّه تعالى لمّا خلَق هذه الأجرام خلَق فيها فهمًا، وقال لها: إنّي فرضت فريضةً، وخلقت جنّةً لمَن أطاعني فيها، ونارًا لمَن عصاني، فقلنَ: "نحن مسخَّرات لِما خَلقتنا، لا نحتمل فريضة، ولا نبغي ثوابًا ولا عقابًا"، ولمّا خلَق آدمَ عليه السلام عرَض عليه مِثل ذلك، فحملَه، وكان ظلومًا لنفسه بتحمّله ما يشقّ عليها، جهولًا بوَخامة عاقبته.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ العقل أو التكليف، وبـ"عَرْضها عليهنّ" اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنّ، وبـ"إبائهنّ" الإباءُ الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعدادِ لها، وبـ"حَمل الإنسان" قابليّتُه واستعدادُه لها، و"كونُه ظلومًا جهولًا" لِما غلب عليه مِن القوّة الغضبيّة والشهويّة، وهذا قريب مِن التحقيق، فتأمّل، والله الموفِّق.

وقُرِئ: "وَيَتُوبُ اللَّهُ"[1] على الاستئناف.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغًا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم، وغفر لهم فرطاتهم، وأثاب بالفوز على طاعاتهم.

قال عليه الصلاة والسلام:[2] «مَن قرأ سورة الأحزاب، وعلّمها أهلَه وما ملكت يمينُه؛ أعطي الأمان مِن عذاب القبر».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس والحسين بن عليّ رضي الله عنهم والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٨٨.

[2] م: عليه السلام.

[3] ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٥٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة سبأ[1] [٣٥٨ظ]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله تعالى:

﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٦/٣٤]،[2] وهي أربع وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، بالإيجاد والإعدام، والإحياءِ والإماتة؛ جميعُ ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، فكأنّه قيل: له جميع المخلوقات، كما مرّ في آية الكرسي.[3] ووصفُه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليقُ "الحمد" المعرَّف بـ"لام" الحقيقة بالاسم الجليل مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بُيِّن في فاتحة الفاتحة ببيان تفرّدِه تعالى واستقلالِه بما يوجب ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِن الموجودات التي مِن جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حدّ ذاتها استحقاق الوجود فضلًا عمّا عداه مِن صفاتها؛ بل كلّ ذلك نِعم فائضة عليها مِن جهته عزّ وجلّ،[4] فما هذا شأنه فهو بمَعزِل مِن استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثرَ بيان اختصاص الدنيوي به، على أنّ الجارّ متعلّق إمّا بنفس الحمد،

---

[1] س: السبأ.

[2] ط س – وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيةَ [سبأ، ٦/٣٤].

[3] البقرة، ٢٥٥/٢.

[4] س: تعالى.

أو بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار. وإطلاقُه عن ذِكر ما يُشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذِكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذِكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذِكر كون الحمد أيضًا فيها؛ بل ليعمّ النعم الأخرويّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ[1] ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآيةَ [فاطر، ٣٥/٣٥]، وما يكون ذريعةً إلى نَيلها مِن النعم الدنيويّة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٤٣/٧]، أي: لِما جزاؤه هذا مِن الإيمان والعمل الصالح. والفرق بين الحمدَين مع كون نعمتَي الدنيا والآخرة بطريق التفضّل أنّ الأوّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر: «أنّهم يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفَس».[2]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكَم أمور الدين والدنيا ودبّرها حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء / ومكنوناتها. [٣٥٩و]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ تفصيل لبعض ما يُحيط به علمه مِن الأمور التي نِيطت بها[3] مصالحهم الدنيويّة والدينيّة، أي: يعلم ما يدخل فيها مِن الغَيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. وقُرئ: "وَمَا نُنَزِّلُ"[4] بالتشديد و"نون" العظَمة.[5] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخِرة والأدخِنة. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين على ما ذُكر مِن نِعمه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرّطين في ذلك بلطفه وكرمه.

---

١ م ط س - ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/١. وهو في صحيح مسلم، ٢١٨٠/٤ (٢٧٣٥)، بلفظ: "كما تُلهمون".

٣ س: به.

٤ ط: وما يُنَزّل؛ س: وما تُنَزّل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسَهم أو معاصريهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها نفيَ وجودِها بالكلّيّة، لا عدمَ حضورها مع تحقّقها في نفس الأمر. وإنّما عبّروا عنه بذلك لأنّهم كانوا يوعَدُون بإتيانها، ولأنّ وجود الأمور الزمانيّة المستقبَلة -لا سيّما أجزاء الزمان- لا يكون إلّا بالإتيان والحضور.

وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهُزء والسخريّة كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِما نفَوه، على معنى: ليس الأمر إلّا إتيانَها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تأكيد له على أتمّ الوجوه وأكملِها. وقُرِئ: "لَيَأْتِيَنَّكُمْ"،[١] على تأويل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ باليوم أو الوقت.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾... إلخ إمداد للتأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد، وكسرٌ لسَورة نكيرهم واستبعادِهم، فإنّ تعقيب القسَم بجلائل نعوت المُقسَم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسَم عليه، وقوّةِ ثباته، وصحّته لِما أنّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر. ولا ريبَ في أنّ المستشهَد به كلّما كان أجلَّ وأعلى كانت الشهادة آكدَ وأقوى، والمستشهَدُ عليه أحقَّ بالثبوت وأولى، لا سيّما إذا خُصّ بالذِّكر مِن النُّعوت / ما له تعلّق خاصّ بالمقسَم عليه كما نحن [٣٥٩ظ] فيه، فإنّ وصفه بـ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي أشهر أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المقسَم عليه تنبيهٌ لهم على علّة الحكم، وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة مِن اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلًا، فإنّهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وَصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنّما لم يصدّقوه مكابرةً.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

وقُرئ: "عَلَّامِ الْغَيبِ"،[١] و"عَالِمُ الْغَيبِ"،[٢] و"عَالِمُ الْغُيُوبِ" بالرفع[٣] على المدح. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يبعُد. وقُرئ بكسر "الزاء".[٤] ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مِقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٌ فيهما، ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن مِثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي: منه، ورفعُهما على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ. والجملة مؤكِّدة لنفي العُزُوب.

وقُرئ: "وَلَا أَصْغَرَ" "وَلَا أَكْبَرَ" بفتح "الراء"[٥] على نفي الجنس. ولا يجوز أن يعطف المرفوع على ﴿مِثْقَالُ﴾، ولا المفتوحُ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ بأنّه فتحٌ في حيّز الجرّ لامتناع الصرف، لِما أنّ الاستثناء يمنعه، إلّا أن يُجعل الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ للغيب، ويُجعل المثبَت في اللوح خارجًا عنه لبروزه للمطالعين له، فيكون المعنى: لا ينفصل عن الغيب شيء إلّا مسطورًا في اللوح.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علّة لقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾،[٦] وبيان لِما يقتضي إتيانها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافُه بما في حيّز الصِّلة، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما فرَط منهم مِن بعض فَرَطات / قلّما يخلو عنها البشر، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه. [٣٦٠و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين كي يفوتونا. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[٧] أي: مثبِّطين عن الإيمان مَن أراده.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.

[٤] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وقتادة والحسين عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

[٦] في الآية السابقة.

[٧] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ آنفًا. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ للبيان. قال قتادة رضي الله عنه: «"الرِّجز" سوء العذاب».[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلِيمٞ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٞ﴾، أي: أولئك الساعون لهم عذابٌ مِن جِنس سوء العذابِ شديدُ الإيلام. وقُرئ: "أَلِيمٍ" بالجرّ[2] صفةً لـ﴿رِجۡزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٦﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: يعلم أولو[3] العلم مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن شايعهم مِن علماء الأمّة، أو مَن آمَن مِن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابِهما رضي الله تعالى[4] عنهم ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ بالنصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿يَرَى﴾، والمفعول الأوّل هو الموصول الثاني، وهو ضمير الفصل. وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء والخبر، والجملة هو المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾... إلخ مستأنَف مَسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل: منصوب عطفًا على ﴿يَجۡزِيَ﴾،[6] أي: ولِيعلمَ أولو[7] العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنّه الحقّ حسبما علموه الآن برهانًا، ويحتجّوا به على المكذّبين. وقد جُوِّز أن يراد بـ"أولي العلم" مَن لم يؤمن مِن الأحبار، أي: ليعلموا يومئذ / أنّه هو الحقّ، فيزدادوا حسرةً وغمًّا. [٣٦٠ظ]

﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ عطفَ الفعل على الاسم؛ لأنّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَـٰٓفَّـٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [الملك، ١٩/٦٧]، أي: وقابضاتٍ، كأنّه قيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.
٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٣ م: أولوا.
٤ س – تعالى.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.
٦ سبأ، ٤/٣٤.
٧ م: أولوا.

ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحقَّ وهاديًا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّع بلباس التقوى.

وقيل: مستأنَف.[١] وقيل: حال مِن ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قول مَن قال:

نـجـوتُ وَأَرْهَـنُـهـم[٢] مـالِـكًـا[٣]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم كفّار قريش، قالوا مخاطِبًا بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما قصدوا بالتنكير الطَّنْزَ[٤] والسخرية، قاتلَهم الله تعالى.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يحدّثكم بعَجَبٍ عُجابٍ. وقُرئ: "يُنْبِئُكُم"[٥] مِن "الإنباء". ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: إذا مُتُّم ومُزِّقَت أجسادكم كلَّ تمزيق، وفُرِّقَت كلَّ تفريق بحيث صِرتم ترابًا ورُفاتًا؛ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: مستقرّون فيه. عُدِل إليه عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث -مثل: تُبعَثون، أو تُخلقون خلقًا جديدًا- للإشباع في الاستبعاد والتعجيب، وكذلك تقديم الظرف، والعاملُ فيه ما دلَّ عليه المذكور لا نفسُه، لِما أنّ ما بعد "إنَّ" لا يعمل فيما قبلها. و﴿جَدِيدٍ﴾ "فَعيل" بمعنى "فاعل"، مِن "جَدَّ" فهو "جَديد"، و"قَلّ" فهو "قَليل". وقيل: بمعنى "مفعول"، مِن "جَدَّ النَّسّاجُ الثوبَ" إذا قطَعَه، ثمّ شاع.

---

١ السياق: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطف... وقيل: مستأنَف...

٢ هو في م "وَأَرْهَنُهم" بضمّ "النون". وفي لسان العرب لابن منظور، «رهن»: «قال ثعلَب: الرواة كلّهم على "أرهنتُهم" إلّا الأصمعي، فإنّه رواه "وَأرهَنَهم مالِكًا" على أنّه عطف بفعل مستقبَل على فعل ماض».

٣ صدره:

فـلـمّـا خـشـيـت أظـافـيـرهـم

لعبد الله بن همّام السّلولي في الصحاح للجوهري، «رهن». ولهمّام بن مرّة في لسان العرب لابن منظور، «رهن».

٤ الطَّنْزُ: السُّخرية. الصحاح للجوهري، «طنز».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. والاستدلال بهذا الترديد على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً هو ما لا يكون مِن الإخبار عن بصيرةٍ بيّنُ الفساد، لظهور كون الافتراء أخصَّ مِن الكذب.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جواب مِن جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شِقَّيه، وإبطالِهما، وإثباتِ قسم ثالث كاشفٍ عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالهم، وابتلاءِهم بما قالوا في حقّه عليه السلام، كأنّه قيل: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدّي إليه ذلك / مِن العذاب، ولذلك يقولون ما يقولون. [٣٦١و]

وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبِعه للمسارعة إلى بيان ما يَسوءهم ويَفُتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتّبه عليه، كأنّه يُسابقه فيَسبقه. ووصفُ الضلال بالبُعد الذي هو وصف الضالّ للمبالغة. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على أنّ علّةَ ما ارتكبوه واجترءوا عليه مِن الشناعة الفظيعة كفرُهم بالآخرة وما فيها مِن فنون العقاب، ولولاه لَما فعلوا ذلك خوفًا مِن غائلته.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتهويل ما اجترءوا عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقّه عليه السلام، وأنّه مِن العظائم الموجِبة لنزول أشدّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب مِن غير رَيثٍ وتأخير. و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ بيان لِما ينبئ عنه ذِكر إحاطتهما بهم مِن المحذور المتوقَّع مِن جهتهما. وفيه تنبيه على أنّه لم يبقَ مِن أسباب وقوعه إلّا تعلّقُ المشيئة به، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن المنكَر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم مِن جميع جوانبهم بحيث لا مفرَّ لَهم عنه ولا محيصَ؟ إن نَشَأْ جَزيًا على موجَب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة، لاستيجابهم[١] ذلك بما ارتكبوه مِن الجرائم.

وقيل: هو تذكير بما يعاينون ممّا يدلّ على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحةً لاستحالتهم البعثَ حتّى جعلوه افتراء وهزؤًا وتهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، ولم يتفكّروا أهُم أشدّ خلقًا أم هي؟ وإن نشأ نَخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم كسفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيّنات، فتأمّل، وكُن على الحقّ المُبين.

وقُرئ: "يَخْسِفْ"، و"يُسْقِطْ" بـ"الياء"،[٢] لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾،[٣] و"كِسْفًا" بسكون "السين".[٤]

[٣٦١ظ] / ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن السماء والأرض مِن حيث إحاطتهما بالناظر مِن جميع الجوانب، أو فيما تُلي مِن الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَآيَةً﴾ واضحةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابةُ إلى ربّه، فإنّه إذا تأمّل فيهما أو في الوحي المذكور ينزَجر عن تعاطي القبائح، وينيب إليه تعالى.

وفيه حثّ بليغ على التوبة والإنابة، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لِحُسن إنابته وصحّةِ توبته فضلًا على سائر الأنبياء عليهم السلام، أي: نوعًا مِن الفضل، وهو ما ذُكِر بَعدُ، فإنّه معجزة خاصّة به عليه السلام، أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوّة والكتاب والملك والصوت الحسن،

---

١ س: لاستيحابهم.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

فتنكيره للتفخيم. و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ[1] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف، ٦٥/١٨]. وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا وردها يتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مِن "التأويب"، أي: رجّعي معه التسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذنب، وذلك إمّا بأن يخلقَ الله تعالى فيها صوتًا مثلَ صوته، كما خلق الكلام في الشجرة، أو بأن يتمثّل له ذلك. وقُرئ: "أُوبِي"[2] مِن "الأَوْب"، أي: ارجِعي معه في التسبيح كلّما رجَع فيه.

وكان كلّما سبّح عليه السلام يُسمَع مِن الجبال ما يُسمَع مِن المسبِّح معجزةً له عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنْبه بتَرجيعٍ وتَحزين، وكانت الجبالُ تُسعِده على نَوحه بأصدائها، والطيرُ بأصواتها.

وهو بدل مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار "قلنا"، أو مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار "قولَنا".

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾، / بمعنى: وسخّرنا له الطير؛ لأنّ [٣٦٢و] إيتاءها إيّاه عليه السلام تسخيرُها له، فلا حاجةَ إلى إضماره، كما نُقل عن الكسائي، ولا إلى تقدير مضافٍ، أي: تسبيحَ الطير، كما نقل عنه في روايةٍ.[3] وقيل: عطفًا على محلّ "الجبال"،[4] وفيه مِن التكلّف لفظًا ومعنى ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[5] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائيّة العارضة بالحركة الإعرابيّة. وقد جُوّز انتصابه على أنّه مفعول معه، والأوّل هو الوجه.

وفي تنزيل الجبال والطير منزلةَ العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعرِ بأنّه ما مِن حيَوان وجماد وصامت وناطق إلّا وهو منقاد لمشيئته

---

١ م ط س: وآتيناه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠٦٤/٢.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٨١/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

غيرُ ممتنع على إرادته مِن الفخامة المُعرِبة عن غاية[١] عظَمة شأنه تعالى وكمالِ كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولي الألباب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه ليّنًا في نفسه -كالشمع- يصرّفه في يده كيف يشاء مِن غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمِطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوّته التي آتيناها إيّاه ليّنًا -كالشمع- بالنسبة إلى سائر القوى البشريّة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعمل، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها "الباء"، وفي حملِها على المفسِّرة تكلّف لا يخفى. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعاتٍ. وقُرئ: "صَابِغَاتٍ"،[٢] وهي الدُّروع الواسعة الضافية، وهو عليه السلام أوّل مَن اتّخذها، وكانت قبلُ صفائحَ.

قالوا: كان عليه السلام حين مَلَك على بني إسرائيل يخرج متنكّرًا فيسألُ الناس: ما تقولون في داود؟ فيُثنُون عليه، فقيّض الله تعالى له مَلَكًا في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا خَصلةٌ فيه، فَرِيعَ داودُ، فسأله عنها، فقال: لولا أنّه يُطعِم عيالَه مِن بيت المال، فعند ذلك سأل ربّه أن يُسَبِّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه تعالى صنعةَ الدُّروع. وقيل: كان يبيع الدِّرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء.

[٣٦٢ظ] / ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ "السَّرْد" نسجُ الدُّروع، أي: اقتصِد في نسجها بحيث تتناسَبُ حَلَقُها. وقيل: قدِّر مساميرَها، فلا تعملها دِقاقًا ولا غِلاظًا.[٣] ورُدّ بأنّ دُروعه عليه السلام لم تكن مسمَّرة كما ينبئ عنه إلانةُ الحديد.

وقيل: معنى ﴿قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تصرِف جميع أوقاتك إليه؛ بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمّا الباقي فاصرِفه إلى العبادة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عُمِّم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولأهله. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به.

---

[١] س: عابة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح. وقُرئ برفع ﴿ٱلرِّيحَ﴾،[١] أي: ولسليمان الريحُ مسخّرة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢]

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞ﴾ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهر، وجَرْيها بالعشيّ كذلك. والجملة إمّا مستأنَفة أو حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾. وقُرئ: "غُدْوَتُهَا" و"رَوْحَتُهَا".[٣] وعن الحسن رحمه الله تعالى:[٤] «كان يغدو -أي: مِن دمشق- فيَقيلُ بإصْطَخْرَ، ثمّ يروح، فيكون رَواحه بِكابُلَ».[٥] وقيل: كان يتغدّى بالرَّيِّ، ويتعشّى بسَمرقند.

ويُحكَى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة، كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام: «نحن نزَلناه وما بنَيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدَونا مِن إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله تعالى».[٦]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس المذاب، أساله مِن معدِنه، كما ألانَ الحديد لداود عليهما السلام، فنبع منه نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمّي عينًا، وكان ذلك باليمن. وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيّام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إمّا جملة مِن مبتدأ وخبر، أو ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال متقدّمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومَن يَعدِلْ / منهم عمّا أمرناه به مِن طاعة سليمان. وقُرئ: "يُزَغْ"[٧] على البناء للمفعول، مِن "أزاغَه". [٣٦٣و]

---

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٤ ط س – تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣.

٦ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٢٢٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذابِ النار في الآخرة. ورُوي[١] عن السدّي رحمه الله: «كان معه ملَك بيده سَوط مِن نار، كلّما استعصى عليه ضربه مِن حيث لا يراه الجنّي».[٢]

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لِما ذُكر مِن عملهم. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾... إلخ بيان لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: مِن قصور حصينة، ومساكنَ شريفةٍ، سُمِّيت بذلك لأنّها يُذَبّ عنها ويُحارَب عليها. وقيل: هي المساجد.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصورِ الملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوه، فإنّها كانت تُعملُ حينئذ في المساجد ليراها الناس، ويعبدوا مثلَ عباداتهم، وحُرمةُ التصاوير شرعٌ جديد. ورُوي أنّهم عملوا أسَدَين في أسفل كرسيّه، ونَسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان ذراعَيْهما، وإذا قعَدَ أظلّه النسران بأجنحتهما.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع "جَفْنة"، وهي الصَّحفة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحِياض الكِبار، جمع "جابية"، مِن "الجِباية"، لاجتماع الماء فيها، وهي مِن الصفات الغالبة، كـ"الدابّة". وقُرئ بإثبات "الياء".[٣] قيل: كان يقعد على الجَفنة ألف رجل.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزل عنها لعِظَمها.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لِما قيل لهم. و﴿شُكْرًا﴾ نصب على أنّه مفعول له، أو مصدر لـ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾؛ لأنّ العمل للمنعِم شكر له، أو لفعله المحذوف، أي: اشكروا شكرًا، أو حال، أي: شاكرين، أو مفعول به، أي: اعملوا شكرًا.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه / ولسانه وجوارحه أكثرَ أوقاته، ومع ذلك لا يوفّي حقّه؛ لأنّ التوفيق للشكر نعمة [٣٦٣ظ]

---

١ ط س: روي.
٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٧٢/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.
٣ أثبتَها أبو عمرو وورش عن نافع وصلًا، وابن كثير ويعقوب وصلًا ووقفًا. **النشر** لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

تستدعي شكرًا آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: "الشُّكور" مَن يرى عجزَه عن الشكر. ورُوي أنّه عليه السلام جَزَّأ سَاعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة مِن الساعات إلّا وإنسان مِن آل داود قائم يصلّي.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ أو آلَه ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضةُ، أُضيفت إلى فِعلها. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهو تأثّر الخشبة مِن فعلها، يقال: "أرَضَتِ الأرَضةُ الخشبةَ أرْضًا، فأَرِضَتْ أرَضًا"، مثل: "أكَلَت القَوادِحُ[٣] أسنانَه أكْلًا، فأَكِلَتْ أكَلًا".

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، مِن "نَسَأْتُ البعيرَ" إذا طردتَه؛ لأنّها يُطرَد بها ما يُطرَد. وقُرئ: "مِنْسَاتَهُ" بـ"ألِف" ساكنة بدلًا مِن "الهمزة"،[٤] وبـ"همزة" ساكنةٍ،[٥] وبإخراجها بينَ بينَ عند الوقف،[٦] و"مِنْسَاءَتَهُ" على "مِفْعَالةٍ"،[٧] كَـ"مِيضاءة" في "مِيضَأَةٍ"، و"مِنْ سَأَتِهِ"،[٨] أي: مِن طرَف عصاه، مِنْ "سِأَةِ القَوسِ"، وفيه لغتان كما في "قِحَةٍ"[٩] بالكسر والفتح. وقُرئ: "أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ".[١٠]

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِن "تَبيّنتُ الشيءَ" إذا علمتَه بعد التباسه عليك، أي: علمَت الجنُّ علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٨٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣.

٢ أي: "الأَرَضِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والعبّاس بن الفضل. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٣ القوادح: جمع القادحة، وهي الدودة التي تأكل السنّ والشجر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قدح».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٥ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٦ قرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٩ يقال: وَقُحَ الحافِر وقاحَةً ووُقوحةً وقِحة وقَحةً، أي: صَلُبَ. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وقح».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢/١٨٨.

﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعلموا موته عليه السلام حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حَولًا في تسخيره إلى أن خرّ.

أو مِن "تَبيَّنَ الشيءُ" إذا ظهَر وتجلّى، أي: ظهرت الجنّ، و﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْجِنُّ﴾، أي: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون / الغيبَ... إلخ. [٣٦٤و]

وقُرئ: "تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ"[١] على البناء للمفعول على أنّ المُتَبيَّنَ في الحقيقة هو ﴿أَن﴾ مع ما في صلتِها؛ لأنّه بدل. وقُرئ: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ"،[٢] والضمير في ﴿كَانُوا۟﴾ لـ﴿ٱلْجِنِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾.[٣] وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ".[٤]

رُوي أنّ داود عليه السلام[٥] أسّس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى، فتوفّي قبل تمامه، فوصّى به إلى سليمان عليهم السلام، فاستعمل فيه الجنّ والشياطين، فباشَروه حتّى إذا حانَ أجله وعلِم به سأل ربّه أن يُعمِّيَ عليهم موتَه حتّى يفرغوا منه، ولِتبطل دعواهم عِلمَ الغيب، فدعاهم فبنَوا عليه صرحًا مِن قوارير ليس له باب، فقام يصلّي متّكئًا على عصاه، فقُبِض روحُه وهو متّكئ عليها، فبقي كذلك وهم فيما أُمِرُوا به مِن الأعمال حتّى أكَلَت الأرَضة عصاه فخَرّ ميّتًا، وكانت الشياطينُ تجتمع حولَ مِحرابه أينما صلّى عليه السلام، فلم يكن ينظر إليه شيطان في صلاته إلّا احترق، فمرّ به يومًا شيطان فنظر، فإذا سليمان عليه السلام قد خرّ ميّتًا، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلَتها الأرَضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرَضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنةٍ، وكان عمره عليه السلام ثلاثًا وخمسين سنةً، مَلَك وهو ابن ثلاث عشرةَ سنةً، وبقي في مُلكه أربعين سنةً، وابتدأ بناءَ بيت المَقدس لأربعٍ مَضين مِن مُلكه.[٦]

---

[١] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعلي بن الحسين والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] سبأ، ١٢/٣٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٥] م - عليه السلام.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٨١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٣.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بِنِعم الله تعالى إثرَ بيان أحوال الشاكرين لها، أي: لأولاد سبأ بنِ يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. وقُرئ بمنع الصرف[١] على أنّه اسم القبيلة. وقُرئ بقَلب "الهمزة" "ألِفًا"،[٢] ولعلّه إخراج لها بينَ بينَ.

﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ وقُرئ بكسر "الكاف"،[٣] كـ"المسجِد". وقُرئ بلفظ الجمع،[٤] / أي: مواضع سُكناهم، وهي باليمن، يقال لها:[٥] مأرِب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ. [٣٦٤ظ]

﴿ءَايَةٞ﴾ دالّة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كلّ ما يشاء مِن الأمور البديعة، المُجازِي للمحسِن والمُسيء، معاضِدةٌ للبرهان السابق، كما في قصّتَي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٞ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنّتان، وفيه معنى المدح، ويؤيّده قراءة النصب[٦] على المدح. والمراد بهما جماعتان مِن البساتين.

﴿عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ جماعة عن يمين بلدِهم، وجماعة عن شماله، كلُّ واحدة مِن تَينِكَ الجماعتين في تقاربهما وتضامِّهما كأنّهما جَنّة واحدة، أو بستان كلّ رجل منهم عن يمين مَسكنه وعن شماله.

﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ حكاية لِما قيل لهم على لسان نبيِّهم تكميلًا للنعمة، وتذكيرًا لِحُقوقها، أو لِما نطق به لسانُ الحال، أو بيانٌ لكونهم أحقّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

---

١ أي: "لِسَبَأَ". قرأ بها أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٧/٢.

٢ أي: "لِسَبَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حبيب عن اليزيدي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٢٦/٨. وقرأ بذلك حمزة الزيّات عند الوقف. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣٠/١.

٣ قرأ بها الكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٤ أي: "مَسَاكِنِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٥ ط س: له.

٦ أي: "جَنَّتَيْنِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٤/٨. وقال في توجيهها: «على أنّ ﴿ءَايَةٞ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و"جنتين" الخبر».

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف مبيِّن لِما يوجب الشكرَ المأمور به، أي: بلدتكم بلدة طيّبة، وربّكم الذي رزقكم ما فيها مِن الطيّبات وطلَب منكم الشكرَ ربٌّ غفور لِفَرطات مَن يشكره. وقُرئ الكلّ بالنصب[١] على المدح.

قيل: كان أطيبَ البلاد هواءً وأخصبَها، وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المِكتل، فتعمل بيدَيها، وتسير فيما بين الأشجار، فيمتلئ المِكتل ممّا يتساقط فيه مِن الثمار، ولم يكن فيه مِن مؤذيات الهوامّ شيء.[٢]

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه. قيل: أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيًّا فدَعَوهم إلى الله تعالى، وذكّروهم بنِعَمِه، وأنذروهم عقابَه، فكذّبوهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: سيلَ الأمرِ العَرِم، أي: الصعب، مِن "عَرِمَ الرجلُ، فهو عارِم، وعَرِمٌ"، إذا شَرِسَ خُلُقه وصَعُب، أو المطرِ الشديدِ. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ جمع "عَرِمة"، وهي الحجارة المَركومة. وقيل: هو السِّكْر[٣] الذي يحبِس الماء. وقيل: هو اسم للبناء يُجعل سَدًّا.

[٣٦٥و] / وقيل: هو البناء الرَّصين الذي بَنَتْها الملِكة بِلقيسَ بين الجبلَين بالصخر والقار، وحقَنَت به ماء العيون والأمطار، وتركَت فيها خروقًا على ما يحتاجون إليه في سقيهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ الجُرَذ الذي نقَب عليهم ذلك السدّ، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، سلّطه الله تعالى على سدّهم، فنَقَبه، فغرَّق بلادهم. وقيل: ﴿الْعَرِمِ﴾ اسم الوادي.

وقرئ:[٤] "الْعَرْمِ" بسكون "الراء".[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن وزير عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٣١٦٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٥/٣.

٣ السكر -بفتح "السين" وكسرها وسكون "الكاف" ثم "راء" مهملة-: الجسر والسّدّ على الماء. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٩٦/٧.

٤ س: وقيل.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة بن الورد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

قالوا: كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبيّ صلّى الله عليهما وسلّم.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنتيهم وآتينا بدلَهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنّ "الخَمْط" كلّ نَبْتٍ أخذ طعمًا مِن مرارة حتّى لا يُمكن أكله. وقيل: هو الحامِض والمرُّ مِن كلّ شيء.

وقيل: هو ثمرةُ شجرةٍ يقال لها: "فَسْوةُ الضَّبُع" على صورة الخَشخاش، لا يُنتفَع بها. وقيل: هو الأراك، أو كلّ شجر ذي شوك. والتقدير: "أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه.

وقُرئ: "أُكُلِ خَمْطٍ" بالإضافة،[1] وبتخفيف ﴿أُكُلٍ﴾.[2]

﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنّ "الأَثْل" هو الطَّرْفاء. وقيل: شجر يُشبهه أعظَمُ منه لا ثمرَ له. وقُرئ: "وَأَثْلًا وَشَيْئًا"،[3] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

قيل: وصف "السِّدر" بالقِلّة لِما أنّ جَناه -وهو "النَّبِق"- ممّا يَطيب أكلُه، ولذلك يُغرس في البساتين. والصحيح أنّ "السِّدر" صنفان؛ صنف يُؤكل مِن ثمره، ويُنتفع بورَقه لغَسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلًا، ولا يُنتفع بورَقه، وهو "الضالّ"، والمراد ههنا هو الثاني حتمًا. وقال قَتادةُ: «كان شجرهم خيرَ الشجر، فصيّره الله تعالى مِن شرّ الشجر بأعمالهم».[4] وتسميةُ البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكّم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ أو إلى ما ذُكر مِن التبديل، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد رُتبته في الفظاعة. ومحلّه على الأوّل النصب

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٢ أي: "أُكْلٍ" بسكون "الكاف". قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ قراءة شاذّة، حكاها الفضل بن إبراهيم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ جامع البيان للطبري، ١٩/٢٥٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٨٤.

على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المذكور، وعلى الثاني النصب على أنّه مفعول ثانٍ له، أي: ذلكَ الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم / لا جزاءً آخر، أو ذلك التبديلَ جزيناهم لا غيرَه. [٣٦٥ظ]

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ بسبب كُفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضِدَّها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وما نُجازي هذا الجزاءَ إلّا المبالِغ في الكفران أو الكفر. وقُرئ: "يُجَازِي"[١] على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ. و"هَلْ يُجَازَى" على البناءِ للمفعول ورفعِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾،[٢] و"هَلْ يُجْزَى"[٣] على البناء للمفعول أيضًا.

وهذا بيانُ ما أوتوا مِن النِّعم الحاضرة في مساكنهم، وما فَعلوا بها مِن الكفران، وما فُعِل بهم مِن الجزاء.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعم البادية في مسائرهم ومتاجرهم، وما فَعلوا بها مِن الكُفران، وما حاق بهم بسبب ذلك، تكملةً لقصّتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنّما لم يُذكر الكلّ معًا لِما في التثنية والتكرير مِن زيادة تنبيه وتذكيرٍ.

وهو عطفٌ على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾،[٤] لا على ما بعده مِن الجمل الناطقة بأفعالهم، أو بأجزيتها، أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم مِن فنون النِّعم بينهم -أي: بين بلادهم- وبين القرى الشاميّة التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن وثّاب والنخعي. المحتسب لابن جنّي، ١٨٩/٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلم بن جُندب. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ سبأ، ١٥/٣٤.

متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة غيرَ بعيدة عن مسالكهم حتّى تخفي عليهم.

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾ أي: جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معيّن يليق بحال أبناء السبيل. قيل: كان الغادي مِن قرية يَقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام. كلّ ذلك كان تكميلًا لِما أُوتوا مِن أنواع النعماء، وتوفيرًا لها في الحضر والسفر.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم مِن الليالي والأيّام ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تَطاولت مدّةُ سفركم وامتدّت لياليَ وأيّامًا كثيرةً، أو سيروا فيها لياليَ / أعماركم [٣٦٦و]
وأيّامَها، لا تلقَون فيها إلّا الأمن، لكن لا على الحقيقة؛ بل على تنزيل تمكينهم مِن السير المذكور، وتسويةِ مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلةَ أمرِهم بذلك.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝١٩﴾

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ وقُرئ: "يَا رَبَّنَا".[1] بطروا النعمةَ، وسئِمُوا أطيب العيش، وملّوا العافيةَ، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو[2] إسرائيل الثومَ والبصل مكان المنّ والسلوى. وقالوا: لو كان جَنَا جِنّاتِنا أبعدَ لكان أجدرَ أن نشتهيَه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوِز وقِفارًا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزوّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجّل الله تعالى لهم الإجابةَ بتخريب تلك القرى المتوسّطة، وجعلها بَلقعًا لا يُسمع فيه داعٍ ولا مجيب.

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٧٧/٣.

[2] م: بنوا.

وقُرِئ: "بَعِدْ"،[١] و"رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"،[٢] و"بُعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"[٣] على النداء وإسنادِ الفعل إلى "بَيْنَ" ورفعِه به، كما يُقال: "سِيرَ فرسخان"، و"بُوعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا".[٤]

وقُرِئ: "رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"،[٥] و"بَيْنَ سَفَرِنَا"،[٦] و"بَعَّدَ"[٧] برفع ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، والمعنى على خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسائرهم مع قِصَرها، ودنُوِّها وسهولة سلوكها، لفَرْط تنعّمهم، وغايةِ ترفُّههم، وعدمِ اعتدادهم بنِعم الله تعالى، كأنّهم يَتَشاجَون على الله تعالى ويتحازَنُون عليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث عرّضوها للسخط والعذاب حين بَطِرُوا النِّعمةَ،[٨] أو غَمَطوها،[٩] ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم بحيث يتحدّث الناس بهم متعجّبين مِن أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم، ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم كلَّ تفريق على أنّ "المُمزَّق" مصدر، أو كلَّ مَطْرَح ومكانِ تفريقٍ، على أنّه اسم مكانٍ. وفي عبارة التمزيق الخاصّ بتفريق المتّصل وخرقِه مِن تهويل الأمر والدلالة على شدّة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءه بحيث يُضرَب به الأمثال / في كلّ فُرقة ليس بعدها وِصال، حتّى لحِق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأَزدُ بِعُمان. [٣٦٦ظ]

وأصل قصّتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنّ عمرو بن عامرٍ مِن أولاد سبأ، وبينهما اثنا عشر أبًا، وهو الذي يقال له: مزيقيا بن ماء السماء، أخْبَرَته طُرِيفةُ الكاهنة بخراب سدّ مأرِبَ، وتفريقِ سيل العَرِم الجنّتين.[١٠]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن أبي الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني. زادالمسير لابن الجوزي، ٣/٤٩٦.

[٥] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٩.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن الحنفية وعمرو بن فائد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٨.

[٨] وفي هامش م: على القراءتين الأوليين. «منه». | وهُما: " رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"، و"رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا".

[٩] وفي هامش م: على القراءات الأواخر. «منه». | وهي: "رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"، وما بعدها.

[١٠] انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٩٢.

وعن أبي زيد الأنصاري[١] أنّ عَمرًا[٢] رأى جُرذًا يحفر السدّ، فعلم أنّه لا بقاءَ له بعدُ.[٣]

وقيل: إنّه كان كاهنًا وقد علِمه بكهانته، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف مِن بلد إلى بلد، حتّى انتهى إلى مكّة المعظّمة وأهلُها جُرْهُم، وكانوا قهروا الناس وحازوا ولايةَ البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرِهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن[٤] عامر يسألُهم المُقامَ معهم إلى أن يرجع إليه رُوّادُه الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعًا يَسَعُه ومَن معه مِن قومه، فأَبَوا، فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فانهزمت جُرْهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا الشَّرِيد، وأقام ثعلبة بمكّة وما حولها في قومه وعساكره حَولًا، فأصابتهم الحمّى، فاضطرُّوا إلى الخروج وقد رجع إليه رُوّاده، فافترقوا فرقتين، فرقة توجّهت نحو عُمانَ، وهم الأَزْدُ[٥] وكِندة وحِميَر ومَن يتلوهم، وسار ثعلبة نحو الشام، فنزل الأوْسُ وأُلخزرجُ ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة، وهم الأنصار، ومضت غسّان فنزلوا بالشام، وانخزعت خزاعة بمكّة، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو لُحَيٌّ، فولّي أمر مكّة وحِجابةَ الكعبة، ثمّ جاءهم أولادُ إسماعيل عليه السلام، فسألوهم السُّكنى معهم وحولَهم، فأذِنُوا لهم في ذلك.[٦]

---

[١] هو سعيد بن أوس الأنصاري، البصري، أبو زيد (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م). الإمام، العلّامة، حجّة العرب، النحوي، حدّث عن سليمان التيمي، ورؤبة بن العجّاج، وأبي عمرو بن العلاء، وسعيد بن أبي عروبة، وعِدّة. وحدّث عنه خلف بن هشام البزّار، وتلا عليه، وأبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وخلق كثير. مِن تصانيفه: **النوادر في اللغة، والهمز، والمطر، وخلق الإنسان، ولغات القرآن، والشجر، وبيوتات العرب، والفرق، وغريب الأسماء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٩/٤٩٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/٩٢.

[٢] م: عمروًا.

[٣] انظر: **سيرة ابن هشام**، ١/١٣؛ **وتفسير ابن كثير**، ٦/٥١٠.

[٤] س: ابن.

[٥] الأَزْد: حيّ مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأَزْد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: «ويقال فيهم: "الأَسْد" بـ"السين" المهملة بدل "الزاي"». قال الجوهري: «وهو بـ"الزاي" أفصح». والأَزْد مِن أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا، وأمدّها فروعًا. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٩١.

[٦] انظر: **جامع الآثار** للدمشقي، ٢/٣٢٥.

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغطيفي[١] سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبأ، فقال له عليه السلام: / «هو رجل كان له عشرة أولاد، ستّة منهم سكنوا اليمن، وهم مَذحِج[٢] وكِندة والأَزْد والأشعريّون[٣] وحِمير وأنمار؛[٤] منهم بَجِيلة[٥] وخَثعم،[٦] وأربعة منهم سكنوا[٧] الشام، وهم لَخم وجدام[٨] وعاملة[٩] وغسّان».[١٠] [٣٦٧و]

---

١ هو فَروة بن مُسَيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي، المرادي، أبو عمر (ت. نحو ٣٠هـ/ ٦٥٠م). صحابي، أصله مِن اليمن. وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة تسع أو عشر وأسلم. ونزل على سعد بن عبادة، وأجزاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمبلغ مِن المال، واستعمله على مراد ومذحج وزُبيد، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصدقة، فعاد إلى بلاده. وقاتل أهل الردّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبقي إلى خلافة عمر بن الخطّاب، وأقرّه عمر. سكن الكوفة في أواخر أعوامه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٨١/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٤٣/٥.

٢ مَذْحِج: لغةٌ في "مَذحِج"، بالذال معجمة، وغير معجمة، قبيلة مِن اليمن مِن ولد مالك. وهو مَذحِج بن أُدَد بن زَيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كَهلان. **شمس العلوم** للحميري، ٢٠٤٢/٤.

٣ الأشعريّون: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأشعَر بن أُدَد بن زَيد يجشب بن عريب بن زيد بن كَهلان، قال أبو عبيدة: وسمّي "الأشعَر" لأنّ أمّه ولدته وهو أشعَر. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٦٨/١.

٤ بنو أَنْمار: حيّ مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: وولد أنمار هذا خثعم، وأمّه هند بنت مالك بن العاص بن الشاهد بن علك، وعنفر والغوث وهنيّة وخُزيمة، وأمّهم بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وبها يُعرفون. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٨٧/١.

٥ بنو بَجيلة: قبيلة مِن أَنمار بن أراش مِن كَهلان مِن القحطانيّة. و"بَجيلة" أمّهم، غلب عليهم اسمها، وهي بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة. قال في **العِبر**: هم بنو بَجيلة بن أنمار بن أراش. قال: وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سَروات اليمن والحجاز إلى تبالة، ثمّ افترقوا أيّام الفتح الإسلامي في الآفاق، فلم يبقَ منهم في مواطنهم إلّا القليل. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٧١/١.

٦ بنو خَثعم: بطن مِن أنمار بن أراش مِن القحطانيّة، وكان لخثعم مِن الولد خلَف، وأمّه عاتكة بنت ربيعة بن نزار. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٤٣/١.

٧ م: سكنو.

٨ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"الدال" المهملة، والصواب "جُذام" بـ"الذال" المعجمة. وبنو جُذام: بطن مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو جُذام بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. و"الجُذام" في أصل اللغة اسم للداء المعروف، فيحتمل أنّ اسم الرجل منقول عنه، ويحتمل أنّه مأخوذ مِن "الجَذم"، وهو القطع. انظر: **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٠٦/١.

٩ بنو عاملة: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفيرة بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان. وذكر أبو عبيد: أنّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن وديعة بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٣٣٣/١.

١٠ انظر: **مسند أحمد**، ٧٥/٥ (٢٨٩٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٣٦١/٥ (٣٢٢٢).

لمّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرّقوا أيدي سبأ شَذَرَ مَذَرَ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز، فمنهم خُزاعة نزلوا بظاهر مكّة، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا أوّل مَن سكنها، ثمّ نزل عندهم ثلاث قبائل مِن اليهود؛ بنو[١] قينقاع وبنو[٢] قريظة والنضير، فَحالفوا[٣] الأوسَ والخزرجَ، وأقاموا عندهم، ونزلت طوائف أُخَرُ منهم بالشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعدُ، وهم غسّان وعاملة ولَخم وجدام وتنُوخ[٤] وتَغلِب وغيرهم، وسبأ تجمع هذه القبائل كلَّها.

والجمهور على أنّ جميع العرب قسمان: قحطانيّة، وعدنانيّة، والقحطانيّة شِعبان: سبأٌ، وحضرموت، والعدنانيّة شِعبان: ربيعة، ومُضَر، وأمّا قضاعة فمختلف فيها، فبعضهم ينسبونها إلى قَحطان، وبعضهم إلى عدنان، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قِصّتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: شأنُه الصبرُ عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاقّ الطاعات، والشكر على النِّعم، وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنّهم المنتفِعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقّق عليهم ظنّه، أو وجده صادقًا. وقُرئ بالتخفيف،[٥] أي: صدَق في ظنّه، أو صدَق بظَنٍّ ظنَّه. ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه؛ لأنّه نوع مِن القول. وقُرئ بنصب ﴿إِبْلِيسَ﴾ ورفعِ "الظَّنّ" مع التشديد،[٦]

---

[١] م: بنوا.

[٢] م: بنوا.

[٣] س: فخالفوا.

[٤] تَنُوخ: هم حيّ مِن اليمن، مِن القحطانيّة، وذكر المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: أنّهم مِن قُضاعة، وقال أبو عبيد: هم ثلاثة أبطن؛ نزار، والأحلاف أسد وعفّان، سمّوا بذلك لأنّهم حلَفوا على المُقام بمكان الشام، والتَّنُّخ المُقام. انظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ١/١٨٩.

[٥] أي: "صَدَقَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[٦] أي: "صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

بمعنى: وجده ظنُّهُ صادقًا، ومع التخفيف[١] بمعنى: قال له الصدقَ حين خيّله إغواءَهم، وبرفعهما والتخفيفِ[٢] على الإبدال، وذلك إمّا ظنّه بسبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات، / أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيّته أضعف منه عزمًا. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنّه يجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، وقال: لَأضِلّنّهم ولأُغوينّهم. [٣٦٧ظ]

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ أو الناس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلّا فريقًا هم المؤمنون لم يتّبعوه، على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفّار، أو إلّا فريقًا مِن فِرق المؤمنين لم يتّبعوه، وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّط واستيلاء بالوَسوسة والاستغواء. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العِلل. و﴿مَن﴾ موصولة، أي: وما كان تسلّطه عليهم إلّا ليَتعلّق علمنا بمَن يؤمن بالآخرة متميّزًا ممَّن هو في شكّ منها تعلّقًا حاليًا يترتّب عليه الجزاء، أو إلّا ليتميّز المؤمن مِن الشاكّ، أو إلّا ليؤمن مَن قُدّر إيمانه، ويَشكّ مَن قُدّر ضلاله، والمراد مِن حصول العلم حصول متعلَّقه مبالغةً.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافِظ عليه، فإنّ "فَعيلًا" و"مُفاعِلًا" صيغتان متآخِيتان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

[١] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمّد وأبي الجهجاه الأعرابي وبلال بن أبي برزة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠؛ وتفسير القرطبي، ١٤/٢٩٢.

[٢] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٤٠.

﴿قُلِ﴾ أي: للمشركين إظهارًا لبطلان ما هم عليه، وتَبكيتًا لهم: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، وهما مفعولا "زَعَمَ"، ثمّ حُذف الأوّل تخفيفًا لطول الموصول بصِلته، والثاني لقيام صِفته -أعني: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾- مَقامه، ولا سبيل إلى جعله مفعولًا ثانيًا؛ لأنّه لا يلتئِم مع الضمير كلامًا، وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّهم لا يزعمونه، والمعنى: ادعوهم فيما يهمّكم مِن جلب نفع أو دفع ضرّ لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

ثمّ أجاب عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب، وأنّه لا يقبل المكابَرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِن خير وشرّ، ونفع وضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ ما مِن الأمور. وذِكرُهما للتعميم عُرفًا، أو لأنّ آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيّة كالأصنام، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخير والشرّ سماويّة وأرضيّة. والجملة استئناف لبيان حالهم.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركةٍ، لا خَلقًا ولا ملكًا ولا تصرّفًا، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ مِن آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥ﴾ أي: لا توجد رأسًا، كما في قوله:

ولا تــرى الــضــبَّ بــهــا يَــنــجَــحِــر[١]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وإنّما عُلّق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحًا بنفي ما هو غرضهم مِن وقوعها.

---

١ صدره:

ولا يُـفـزِع الأرنــبَ أهـوالُـهـا

البيت لعَمرو بن أحمر الباهلي. و"الإفزاع": الإخافة. و"الأرنبَ": مفعول مقدّم. و"أهوالُها": فاعل "يفزع"، والضميرُ للمفازة والفلاة. و"الانجحار": الدخول في الجُحر؛ وهو ما حفَرَه الهوامّ والسِّباع لأنفسها. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقع الشفاعة في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لِمَن أَذِنَ له في الشفاعة مِن النبيّين والملائكة ونحوِهم مِن المستأهِلين لمَقام الشفاعة، فتبيّن حِرمان الكفرة منها بالكلّيّة، أمّا مِن جِهة أصنامهم فلِظهور انتفاءِ الإذن لها ضرورةَ استحالة الإذن في الشفاعة لجمادٍ لا يعقل ولا ينطق، وأمّا مِن جهة مَن يعبدونه مِن الملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. ومِن البيّن أنّ الشفاعة للكفرة بمَعزِل مِن الصواب.

أو لا تنفع الشفاعة مِن الشفعاء المستأهِلين لها في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لمَن أَذِن له، أي: لأجله وفي شأنه مِن المستحقّين للشفاعة، وأمّا مَن عَداهم مِن غير المستحقّين لها فلا تنفعهم أصلًا وإن فُرِض وقوعُها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يُؤذَن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة النصّ، وعن شفاعة الأصنام / بدلالته؛ [٣٦٨ظ] إذ حين حُرِمُوها مِن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلَأن يُحْرَمُوها[1] مِن جهة العجَزة عنها أولى. وقُرئ: "أُذِنَ لَهُ" مبنيًا للمفعول.[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوبِ الشفعاء والمشفوعِ لهم مِن المؤمنين، وأمّا الكفرة فهم مِن موقف الاستشفاع بمَعزِل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ مَنزل. و"التفزيع" إزالةُ الفزَع، ثمّ تُرِك ذكر الفزَع وأُسند الفعل إلى الجارّ والمجرور. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لِما ينبئ عنه ما قبلها مِن الإشعار بوقوع الإذن لمَن أَذِن له، فإنّه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقّب والانتظار للجواب، كأنّه سُئِل: كيف يُؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وجَلٍ وفزَعٍ مَلِيًا، حتّى إذا أُزيلَ الفَزَع عن قلوبهم بعد اللّتيا والتي،[3] وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُواْ﴾ أي: المشفوعُ لهم؛

١ س: يُحْرَمُوا.
٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلَف. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.
٣ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في شأن الإذن؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الشفعاء؛ لأنّهم المباشِرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه عزّ وجلّ بالشفاعة: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ في الشفاعة للمستحقّين لها. وقُرئ: "الحَقُّ" مرفوعًا،[١] أي: ما قاله الحقُّ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافًا بغاية عَظَمة جَناب العزّة عزّ وجلّ، وقُصور شأن كلّ مَن سواه، أي: هو المتفرّد بالعلوّ والكبرياء، ليس لأحد مِن أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقُرئ: "فُزِعَ" مخفّفًا[٢] بمعنى ﴿فُزِّعَ﴾. وقُرئ: "فَزَّعَ" على البناء للفاعل،[٣] وهو الله وحده. وقُرئ: "فُرِّغَ" بـ"الراء" المهملة و"الغين" المعجمة،[٤] أي: نُفِيَ الوجَل عنها وأُفنِيَ، مِن "فَرَغَ الزادُ" إذا لم يبقَ منه شيء، وهو مِن الإسناد المجازي؛ لأنّ الفراغَ -وهو الخلوّ- حالُ ظرفه عند نفاده، فأُسندَ إليه، على عكس قولهم: "جَرى النهر". وعن الحسن تخفيف "الراء"،[٥] وأصله: فَرَغَ الوَجَلُ عنها، أي: انتفى عنها وفَنِي، ثمّ حُذف الفاعل وأُسندَ إلى الجارّ والمجرور، وبه يُعرف حالُ التفريغ. وقُرئ: "افْرُنْقِعَ عَن قُلُوبِهِمْ"[٦] بمعنَى: انكُشِفَ عنها.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم / مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ عليه السلام بتبكيت المشركين، [٣٦٩و]
بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرّة فيهما، وأنّ الرازق

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٥٤٥.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٥١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحسن وأيّوب السختياني وقتادة وأبي مجلز. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/٥٤٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٩١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٩١.

هو الله تعالى، فإنّهم لا يُنكرونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾... ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ١٠/٣١].

وحيث كانوا يتلعثمون أحيانًا في الجواب مخافةَ الإلزام قيل له عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضًا. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ أحد الفريقين مِن الذين يوحِّدون المتوحِّدَ بالرزق والقدرةِ الذاتيّة، ويخصّونه بالعبادة، والذين يشركون به في العبادة الجمادَ النازلَ في أدنى المراتب الإمكانيّة، لَعَلَى أحد الأمرين مِن الهدى والضلال المبين، وهذا بعد ما سبَق مِن التقرير البليغ الناطق بتعيين مَن هو على الهدى ومَن هو في الضلال أبلغَ مِن التصريح بذلك، لجريانه على سَنن الإنصاف المُسكِت للخَصم الألدّ.

وقُرئ: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ إِمَّا عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".[١]

واختلاف الجارَّين للإيذان بأنّ الهادي كمَن استعلى مَنارًا ينظر الأشياء ويتطلّع عليها، والضالَّ كأنّه منغمِس في ظلامٍ لا يرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطمورة لا يستطيع الخروج عنها.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أبلغ في الإنصاف، وأبعد مِن الجدل والاعتساف، حيث أُسندَ فيه الإجرامُ -وإن أريدَ به الزلّةُ وتركُ الأولى- إلى أنفسهم، ومطلقُ العمل إلى المخاطَبين، مع أنّ أعمالهم أكبر الكبائر.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَحكم بيننا ويَفصل بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخل المحقّين الجنّةَ، والمبطلين النارَ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨٢.

﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾

/ ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أريدَ بأمرهم بإراءةِ [٣٦٩ظ] الأصنام مع كونها بمَرأًى منه عليه السلام إظهارُ خطئهم العظيم، وإطْلاعُهم على بطلان رأيهم، أي: أرُونِيها لأنظرَ بأيِّ صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسة؛ ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بالغلبة القاهِرة والحكمة الباهِرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها مِن هذه الرتبة العالية؟ والضمير إمّا لله عزّ وعلا، أو للشأن، كما في ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١/١١٢].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلّا إرسالةً عامّةً لهم، فإنّها إذا عمَّتْهم فقد كَفَّتْهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلّا جامعًا لهم في الإبلاغ، فهي حال مِن "الكاف"، و"التاءُ" للمبالغة، ولا سبيلَ إلى جعلها حالًا مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لاستحالة تقدّم الحال على صاحبها المجرور. ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على ما هم عليه مِن الغيّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط جهلهم وغايةِ غيّهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ بطريق الاستهزاء، يعنون به المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾.[١] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مخاطِبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به.

---

[١] سبأ، ٢٦/٣٤.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعدُ يومٍ، أو زمانُ وعدٍ، والإضافة للتبيين. وقُرئ: "مِيعَادٌ يَوْمٌ" منوَّنين[1] على البدل، و"يَوْمًا"[2] بإضمار "أعْني" للتعظيم. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾[3] عند مفاجأته ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ صفة لـ﴿مِيعَادُ﴾، وفي هذا الجواب مِن المبالغة في التهديد ما لا يخفى، حيث جُعِل الاستِئخار في الاستحالة كالاستِقدام الممتنع عقلًا، وقد مرّ بيانه مرارًا. ويجوز أن يكون نفي الاستئخار[4] والاستقدام غيرَ مقيَّد بالمفاجأة، / فيكون وصفُ "الميعاد" بذلك [٣٧٠و] لتحقيقه وتقريره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكتب القديمة الدالّة على البعث. وقيل: إنّ كفّار مكّة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروهم أنّهم يجدون نَعته في كتبهم، فغضِبوا، فقالوا ذلك.[5] وقيل: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاوَرون ويتراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ بدل مِن ﴿يَرْجِعُ﴾... إلخ، أي: يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالُكم وصدُّكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.
[3] م س ط – ساعة.
[4] س: الاستنحار.
[5] الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٤٨.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ منكِرين لكونهم هم الصادّين لهم عن الإيمان، مثبتين أنّهم هم الصادّون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ إضرابًا عن إضرابهم، وإبطالًا له: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صَدُّنا مكرُكم بنا بالليل والنهار، فحُذف المضاف إليه، وأقيمَ مُقامه الظرفُ اتّساعًا، أو جُعل ليلُهم ونهارهم ماكرَين على الإسناد المجازي.

وقُرئ: "بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" بالتنوين ونصبِ الظرفَين،[1] أي: بل صَدُّنا مكرُكم في الليل والنهار، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه، أو مكرٌ عظيمٌ، على أنّه للتفخيم. وقُرئ: / "بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" بالرفع[2] والنصب،[3] [٣٧٠ظ]
أي: تَكُرُّون الإغواءَ مَكَرًّا دائبًا لا تَفتُرون عنه، فالرفع على الفاعليّة، أي: بل صَدُّنا مَكَرُّكم الإغواءَ في الليل والنهار، على ما سبق مِن الاتّساع في الظرف بإقامته مُقام المضافِ إليه، والنصبُ على المصدريّة، أي: بل تَكُرُّون الإغواءَ مكرَّ الليل والنهار، أي: مَكَرًّا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمَكْر، أي: بل مَكرُكم الدائم وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ على أنّ المرادَ بمَكرِهم إمّا نفسُ أمرِهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن راشد القارئ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

بما ذُكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ [المائدة، ٢٠/٥]، فإنّ الجَعلين المذكورين نعمة مِن الله تعالى وأيُّ نعمة، وإمّا أمورٌ أُخَرُ مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به، مِن الترغيب والترهيب وغير ذلك.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي: أضمَر الفريقان الندامةَ على ما فعلا مِن الضلال والإضلال، وأخفاها كلّ منهما عن الآخر مخافةَ التعيير، أو أظهروها، فإنّه مِن الأضداد، وهو المناسب لحالهم.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في أعناقهم. والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذمّهم، والتنبيهِ على مُوجِب أغلالهم.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يُجزَون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه، أو إلّا بما كانوا يعملونه، على نَزع الجارّ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾ مِن القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تسليةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والكفرِ بما جاء به، والمنافسةِ بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخَرةِ
[٣٧١و] بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبّرِ بذلك / على المؤمنين، والاستهانةِ بهم مِن أجله، وقولِهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم، ٧٣/١٩]، بأنّه لم يُرسل قطّ إلى أهل قرية مِن نذير إلّا قال مترفوهم مثلَ ما قال مُترفوا أهلِ مكّة في حقّه عليه السلام، وكادوا به نحو ما كادوا به عليه السلام، وقاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزعموا أنّهم لو لم يَكرُموا على الله تعالى لَما رزقهم طيّباتِ الدنيا، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه تعالى لَما حَرَمَهُموها، وعلى ذلك الرأي الركيك بنَوا أحكامهم.

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمّا بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأسًا، أو على اعتقاد أنّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يُهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وحَسْمًا لمادّة طمَعهم الفارغ، وتحقيقًا للحقّ الذي عليه يدور أمر التكوين: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[١] له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على مَن يشاء أن يَقْدِره عليه مِن غير أن يكون لأحدٍ من الفريقين داعٍ إلى ما فُعِل به مِن البسط والقَدْر، فربّما يوسِّع على العاصي، ويضيِّق على المطيع، وربّما يعكِس الأمر، وربّما يوسِّع عليهما معًا، وقد يضيِّق عليهما، وقد يوسِّع على شخصٍ تارةً، ويضيِّق عليه أخرى، يفعل كلًّا مِن ذلك حسبَما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذَين مَناطُهما الطاعةُ وعدمُها. وقُرئ: "وَيُقَدِّرُ" بالتشديد.[٢]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أنّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدارَ القَدْر هو الهوان، ولا يدرون أنّ الأوّل كثيرًا ما يكون بطريق الاستدراج، / والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات. [٣٧١ظ]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف مِن جهته عزّ وعلا، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقّ وتقريرِ ما سبق، أي: وما جماعةُ أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قربةً، فإنّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواء في حكم التأنيث، أو بالخَصلة التي تقرّبكم. وقُرئ: "بِالَّذِي"،[٣] أي: بالشيء الذي.

---

١ س ط: يبسط.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

٣ وبالياء في: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾. قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، أي: وما الأموال والأولاد تقرِّبُ أحدًا إلّا المؤمنَ الصالح الذي أنفق أموالَه في سبيل الله تعالى، وعلّمَ أولاده الخيرَ، وربّاهم على الصلاح، ورشّحَهم للطاعة. وقيل: مِن أموالكم وأولادكم، على حذف المضاف، أي: إلّا أموالُ مَن... إلخ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد[1] بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: ثابت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرورَ خبرٌ لِما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفيه تأكيد لتكرّر الإسناد، أو يَثبت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما بعدَه مرتفع على الفاعليّة. وإضافة "الجَزاء" إلى ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: "فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ"، ثمّ "جَزاءٌ الضِّعفَ"، ثمّ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾. ومعناه: أن يضاعَف لهم حسناتُهم، الواحدةُ عشرًا فما فوقها.

وقُرئ: "جَزَاءً الضِّعْفُ"،[2] أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، و"جَزَاءٌ الضِّعْفَ"[3] / على أن يُجازَوا الضِّعفَ، و"جَزَاءٌ الضِّعْفُ"[4] بالرفع، على أنّ [٣٧٢و]
"الضِّعْفُ" بدل مِن "جَزَاءٌ".

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِن الصالحات، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرفاتِ الجنّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن جميع المَكارِه.

وقُرئ بفتح "الراء"[5] وسكونها.[6] وقُرئ: "فِي الْغُرْفَةِ"[7] على إرادة الجنس.

---

[1] س - العهد.
[2] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.
[7] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ والطّعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابقين لأنبيائنا، أو زاعمين أنّهم يفوتوننا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ لا يُجديهم ما عوّلوا عليه نفعًا.

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يوسّعه عليه تارةً، ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يضيّقه عليه تارةً أخرى، فلا تخشَوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله، وتعرّضُوا لِنفحاته تعالى.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ عوضًا إمّا عاجلًا، وإمّا آجلًا. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّ غيره واسطة في إيصال رِزقه، لا حقيقةَ لرازقيّته.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون مِن دون الله. و﴿يَوۡمَ﴾ ظرف لمُضمَر متأخّر سيأتي تقديره، أو مفعول لمُضمَر مقدَّم، نحو: "اذكر".

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تقريعًا للمشركين، وتبكيتًا لهم على نهج قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾... إلخ [المائدة، ١١٦/٥]، وإقناطًا لهم عمّا[١] علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنّهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم، ولأنّ عبادتهم مبدأ الشرك، فبظهور قُصورهم عن رتبة المعبوديّة وتنزّهِهم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولويّة. وقُرئ الفعلان بـ"النون".[٢]

---

١ س: ممّا.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا يقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: يقولون متنزّهين عن ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أي: أنت الذي نُواليه مِن دونهم، لا موالاةَ بيننا وبينهم، كأنّهم بيّنوا بذلك براءتهم مِن الرضا بعبادتهم، ثمّ أضربوا عن ذلك، ونفَوا أنّهم عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه. وقيل: كانوا يتمثّلون لهم، ويُخيّلون لهم أنّهم الملائكة، فيعبدونهم. وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعبَدون بعبادتها.

[٣٧٢ظ] ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ الضمير / الأوّل للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكلّ، والثاني للجنّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ مِن جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرُّؤ عمّا نسب إليهم الكفرة، يخاطَبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبَدتهم، وتنصيصًا على ما يوجب خَيبةَ رجائهم بالكلّيّة.

و"الفاء" ليست لترتيب ما بعدها مِن الحِكم على جواب الملائكة، فإنّه محقَّق، أجابوا بذلك أم لا؛ بل لترتيب الإخبار به عليه. ونسبة عدم النفع والضرّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبَدة بنَظمه في سِلك عدم نفع العبَدة لهم، كأنّ نفع الملائكة لعبَدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبَدة لهم. والتعرّض لعدم الضرّ مع أنّه لا بحثَ عنه أصلًا فإمّا لتعميم العجز، أو لحَمل عدم النفع على تقدير العبادة، وعدمِ الضرّ على تقدير تركها، أو لأنّ المراد دفع الضرّ على حذف المضاف. وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقّق النفع يومئذ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على "نَقُولُ[1] لِلْمَلَائِكَةِ"،[2] لا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ كما قيل،[3] لأنّه ممّا يقال يوم القيامة خطابًا للملائكة مترتِّبًا على جوابهم المَحكي، وهذا حِكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما سيُقال للعبَدة يومئذ إثرَ حكاية ما سيُقال للملائكة، أي: يومَ نحشرهم جميعًا ثمّ نقول[4] للملائكة كذا وكذا، ويقولون كذا وكذا، ونقول للمشركين: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيان لبعض آخَر مِن كَفَراتِهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم / آياتُنا الناطقة بحقّيّة [٣٧٣و]
التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتبِعكم بما يستبدِعه مِن غير أن يكون هناك دين إلهي. وإضافة "الآباء" إلى المخاطَبين -لا إلى أنفسهم- لتحريك عِرق العصبيّة منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلام مَصروف عن وجهه، لا مِصداقَ له في الواقع، ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوّة، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، على أنّ العطف لاختلاف العنوان بأن يُراد بالأوّل معناه، وبالثاني نظمُه المعجِز. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تدبّر ولا تأمّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سِحريّته.

---

[1] كذا في الأصول الخطيّة بـ"النون"، هو مبنيّ على القراءة بـ"النون"، وقد سبق بيانها في سبأ، ٣٤/٤٠.

[2] سبأ، ٣٤/٤٠.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٨٨؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٠.

[4] كذلك هو مبنيّ على القراءة بـ"النون" في الفعلين.

وفي تكرير الفعل، والتصريحِ بذكر الكفرة، وما في "اللامَين"[1] مِن الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المسارعة إلى البتّ بهذا القول الباطل؛ إنكارٌ عظيم له، وتعجيبٌ بليغ منه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحّة الإشراك كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٢١]. وقُرئ: "يُدَرِّسُونَهَا"،[2] و"يَدَّرِسُونَهَا" بتشديد "الدال"،[3] "يفتَعِلون" مِن "الدَّرْس".

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، وقد بانَ مِن قبلُ أن لا وجهَ له بوجه مِن الوجوه، فمِن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟ وهذا غاية تجهيل لهم، وتسفيهٍ لرأيهم.

ثمّ هدّدهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المتقدّمة والقرونِ الخالية كما كذّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك مِن القوّة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغَ أولئك عُشرَ ما آتينا / هؤلاء مِن البيّنات والهدى، ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ بطريق التفصيل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ[4] قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾... إلخ [القمر، ٥٤/٩]. [٣٧٣ظ]

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذَر هؤلاء مِن مثل ذلك.

---

١ أراد بهما الاسم الموصول المذكور في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولام التعريف في قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾ على سبيل التغليب. انظر: حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٦/٧١٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٥٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٥٩.

٤ م س ط - قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أُرشدكم وأنصح لكم إلّا بخَصلة واحدة، هي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنّه بدل منها، أو بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أن تَقُوموا مِن مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو تنتصبوا للأمر خالصًا لوجه الله تعالى معرضًا عن المماراة والتقليد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإنّ الازدحام يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام. وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنّه أوثَق وأقرب مِن الاطمئنان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به؛ لتعلموا حقيقتَه وحَقِّيَتَه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمّل بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته[١] مُلك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهورِ عَجزه، أو مؤيَّدٌ مِن عند الله مرشَّح للنبوّة، واثِقٌ بحجّته وبرهانه.

وإذ قد علمتم أنّه عليه السلام أرجحُ العالِمين عقلًا، وأصدقُهم قولًا، وأنزهُهم نفسًا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملًا، وأجمعُهم للكمالات البشريّة؛ وجَب أن تصدّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخِرّ لها صُمّ الجبال.

ويجوز أن يتعلّق بما قبله على معنى: ثم تتفكّروا فتعلَموا ما بصاحبكم مِن جِنّة. وقد جُوّز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاميّة على معنى: ثم تتفكّروا أيّ شيء به مِن آثار الجنون.

---

١ س: تحت.

[٣٧٤و] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ / هو عذاب الآخرة، فإنّه عليه السلام مبعوث في نَسَم الساعة.[١]

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيَّ شيء سألتكم مِن أجرٍ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأسًا، كقول مَن قال لمَن لم يعطِه شيئًا: "إن أعطيتني شيئًا فخذه". وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة، أريدَ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٣]، واتّخاذُ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقُرباه عليه السلام قُرباهم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطّلِع، يعلم صِدقي وخلوصَ نيّتي. وقُرئ: "إنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[٢]

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يُلقيه ويُنزله على مَن يجتبيه مِن عباده، أو يرمي به الباطِلَ فيدمغه، أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام، وإعلاءِ كلمة الحقّ.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدل مِن المستكِنّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقُرئ بالنصب[٣] صفةً لـ﴿رَبِّي﴾، أو مقدَّرًا بـ"أعني". وقُرئ بكسر "الغين"،[٤] وبالفتح[٥] كـ"صَبور" مبالغةِ "غائِب".

---

[١] أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء، ٤/١٦١، عن أبي جَبيرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بُعثت في نَسَم الساعة». وأخرجه البزّار في مسنده، ٨/٣٨٩ (٣٤٦٢)، بلفظ: «بُعثت في نَفَس الساعة». و"نَسَمُ الساعة" مِن "النسيم"، أوّلِ هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أوّل أشراط الساعة وضَعفِ مجيئها. النهاية لابن الأثير، «نسم».

[٢] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[٤] قرأ بها حمزة وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الإسلام والتوحيد، ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زهَقَ الشرك بحيث لم يبقَ أثره أصلًا، مأخوذ مِن هلاك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجُعل مثلًا في الهلاك بالمرّة، ومنه قول عُبيد:[1]

أقفَرَ مِن أهلِه عُبيدُ فليس يُبدِي ولا يُعيدُ[2]

وقيل: ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ إبليس، أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خَلقًا ولا يُعيد، أو لا يبدئ خيرًا لِأهله ولا يُعيد. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بما بعدها.

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ عن الطريق الحقّ / ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ فإنّ وبالَ ضلالي عليها؛ لأنّه بسببها؛ إذ هي الحاطّة بالذات، والأمّارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قُوبل الشرطيّة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ لأنّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه. وقُرئ: "رَبِّيَ" بفتح "الياء".[3] [٣٧٤ظ]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ يعلم قولَ كلٍّ مِن المهتدي والضالّ وفعلَه، وإن بالغ في إخفائهما.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عند الموت، أو البعث، أو يومَ بدر. وعن ابن عبّاس

---

[1] هو عُبيد بن الأبرص بن عَوف بن جشم الأسدي، مِن مضر، أبو زياد (ت. نحو ٢٥ق هـ/٦٠٠م). شاعر مِن دُهاة الجاهليّة وحكمائها. وهو أحد أصحاب المُجمهَرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات. عاصَر أمرَأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمّر طويلًا حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفَد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

[2] لعُبيد بن الأبرص في لسان العرب لابن منظور، «قفر». وفيه: «يُقال: "أقفَرَ فلان مِن أهله" إذا انفَرَد عنهم وبقي وحدَه».

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

رضي الله عنهما: «أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم».[١] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا هائلًا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عزّ وجلّ بهرَبٍ أو تَحصُّنٍ.

﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِن ظهر الأرض، أو مِن الموقف إلى النار، أو مِن صحراء بدر إلى قَليبها، أو مِن تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والجملة معطوفة على ﴿فَزِعُواْ﴾. وقيل: على ﴿لَا فَوْتَ﴾، على معنى: إذ فزعوا فلم يفوتوا وأُخِذوا، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَأَخْذٌ"[٢] بالعطف على محلّه، أي: فلا فوتَ هنا، وهناك أخذٌ.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد مرّ ذكره في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.[٣]

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ "التناوُش": التناول السَّهل، أي: ومِن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولًا سهلًا ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنّه في حيّز التكليف، وهم منه بمَعزِل بعيد، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبَعُد بحالِ مَن يريد أن يتناول الشيء مِن غَلوةٍ تناولَه[٤] مِن ذراعٍ في الاستحالة.

[٣٧٥و] وقُرئ بـ"الهمز"[٥] على قلب "الواو" لضمّها، وهو مِن "نَأَشْتُ الشيءَ" / إذا طلبتَه، وعن أبي عمرو: "التَّناؤُش" -بـ"الهمز"- التناول مِن بُعد، مِن قولهم: "نَأَشْتُ"

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٣/٣. وفي **الصحيحين** عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء مِن الأرض يُخسف بأوّلهم وآخِرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأوّلهم وآخِرهم وفيهم أسواقهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخِرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم». **صحيح البخاري**، ٦٥/٣ (٢١١٨)؛ **صحيح مسلم**، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

٣ سبأ، ٤٦/٣٤.

٤ قوله: "غَلْوة" هي مقدار رَمية سَهم، وهو هنا مثال للبُعد، كما أنّ الذراع مثال للقُرب بدون قصد للتخصيص. و"تَناولَه" مصدر مضاف للمفعول أو للفاعل. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٢١١/٧.

٥ أي: "التَّنَاؤُش". قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. **النشر** لابن الجزري، ٣٥١/٢.

إذا أبطأَتَ وتأخَّرتَ، ومنه قول مَن قال:

تمنّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثَت بعد الأمرِ أمورُ[١]

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك، في أوانِ التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجُمون بالظنّ، ويتكلّمون بما لم يظهر لهم في حقّ الرسول عليه السلام مِن المَطاعن، أو في العذاب المذكور مِن بَتِّ القول بنفيه، ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ مِن جهة بعيدة مِن حاله عليه السلام، حيث ينسبونه عليه السلام إلى الشِّعر والسِّحر والكذب، وأنّ أبعدَ شيء ممّا جاء به الشِّعرُ والسحرُ، وأبعدَ شيء مِن عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذبُ، ولعلّه تمثيل لحالهم في ذلك بحال مَن يرمي شيئًا لا يراه مِن مكان بعيد لا مجال للوهم في لُحوقه.

وقُرئ: "وَيُقْذَفُونَ"[٢] على أنّ الشيطان يُلقي إليهم ويُلقّنهم ذلك، وهو معطوف على ﴿قَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ على حكاية الحال الماضية، أو على ﴿قَالُوٓاْ﴾،[٣] فيكون تمثيلًا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه مِن الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفع الإيمان والنجاة مِن النار. وقُرئ بإشمام الضمّ للحاء.[٤] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم مِن كفرة الأمم الدارجة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: مُوقعٍ في الرِّيبة، أو ذي رِيبةٍ.

---

[١] لنَهشل بن حَرّي في لسان العرب لابن منظور، «نأش». وفيه: «أي: تمنّى في الأخير وبعدَ الفَوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يُستدرك بها ما فات، أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

والأوّل منقول ممَّن يصحّ أن يكون مُريبًا مِن الأعيان إلى المعنى، والثاني مِن صاحب الشكّ إلى الشكّ، كما يقال: "شِعرٌ شاعِر"، والله تعالى[١] أعلم.

[٣٧٥ظ] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسول ولا نبيٌّ إلّا كان له يومَ القيامة رفيقًا ومصافحًا».[٢]

---

[١] م - تعالى.

[٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٦٩/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٨٦/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة الملائكة[1] [٣٧٦و]

مكيّة، وآيها[2] خمس وأربعون.[3]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبدِعِهما مِن غير مِثال يَحتذيه، ولا قانونٍ يَنتحيه. مِن "الفَطْر"؛ وهو الشَّقّ. وقيل: الشَّقُّ طُولًا. كأنّه شَقَّ العدم بإخراجهما منه. وإضافته محضة؛ لأنّه بمعنى الماضي، فهو نعت للاسم الجليل، ومَن جعلها غيرَ محضة جعله بدلًا منه، وهو قليل في المشتَقّ.

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الكلام في إضافتِه وكونِه نعتًا أو بدلًا كما قبله. وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾ منصوب به على الوجه الثاني مِن الإضافة بالاتّفاق، وأمّا على الأوّل فكذلك عند الكسائي، وأمّا عند البصريّين فبمُضمَر يدلّ هو عليه؛ لأنّ اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم إلّا معرّفًا بـ"اللام". وقال أبو سعيد السيرافي: «اسم الفاعل المتعدّي إلى اثنين يعمل في الثاني؛ لأنّ بإضافته إلى الأوّل تعذّرت إضافته إلى الثاني، فتعيَّن نصبُه له».[4] وعلَّل بعضُهم ذلك بأنّه بالإضافة أشبهَ المعرَّف بـ"اللام" فعمل عملَه.[5]

وقُرئ: "جَاعِلُ" بالرفع[6] على المدح. وقُرئ: "الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ".[7]

---

[1] وتسمّى سورة فاطر. **الإتقان** للسيوطي، ١٩٤/١.

[2] ط س: وهي.

[3] ط س + آية.

[4] انظر: **شرح كتاب سيبويه** للسيرافي، ٤٣٦/١.

[5] انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٦١/٥.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٣.

[7] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٥/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٠/٩.

أي: جاعِلهم وسائطَ بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين مِن عباده، يبلّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينَه تعالى وبين خلقه أيضًا حيث يوصّلون إليهم آثار قدرته وصنعه.

هذا على تقدير كون الجَعل تصييريًا، أمّا على تقدير كونه إبداعيًا فـ﴿رُسُلًا﴾ نصب على الحاليّة.

وقُرئ: "رُسْلًا" بسكون "السين".[١]

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ صفةٌ لـ﴿رُسُلًا﴾، و"أُولُو"[٢] اسمُ جمع لِـ"ذُو"، كما أنّ "أُولاء" اسم جمع لِـ"ذا"، ونظيرهما في الأسماء المتمكّنة "المَخاض"[٣] و"الخَلِفَة".[٤]

وقوله تعالى: ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفات لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾، أي: ذوي أجنحةٍ متعدِّدةٍ متفاوتةٍ في العدد حسب تفاوت ما لهم مِن المراتب، ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها. والمعنى: أنّ مِن الملائكة خَلقًا لكلّ واحد منهم جناحان، وخَلقًا أجنحةُ كلٍّ منهم ثلاثة، وخَلقًا آخرَ لكلّ منهم أربعةُ أجنحة.

[٣٧٦ظ] ويُروى أنّ صِنفًا مِن الملائكة / لهم ستّة أجنحة، بجناحين منها يَلُفُّون أجسادَهم، وبآخرَين منها يطيرون فيما أُمِروا به مِن جهته تعالى، وجناحان منها مُرخَيان على وجوههم حياءً مِن الله عزّ وجلّ.[٥]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه رأى جبريل عليهما السلام ليلة المعراج وله ستّمائة جَناح.[٦]

ورُوي أنّه سأله عليهما السلام أن يتراءى له في صورته، فقال: «إنّك لن تطيق ذلك»، قال: «إنّي أحبّ أن تفعل»، فخرج عليه السلام في ليلة مُقمِرة، فأتاه جبريل صلوات الله عليهما[٧] في صورته، فغَشِي عليه عليه السلام،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وحميد بن قيس. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

٢ م: وأولوا.

٣ وفي هامش م: اسم جمع.

٤ وفي هامش م: واحدتها.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٩٥.

٦ صحيح البخاري، ٤/١١٥ (٣٢٣٢)؛ صحيح مسلم، ١/١٥٧ (١٧٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٧ س: عليهما السلام.

ثمّ أفاق وجبريل مُسنده، وإحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه، فقال: «سبحان الله، ما كنتُ أرى أنّ شيئًا مِن الخَلق هكذا»، فقال جبريل عليه السلام: «فكيف لو رأيتَ إسرافيل؟ له اثنا عشر جناحًا، جناح منها بالمشرق، وجناح منها بالمغرب، وإنّ العرش على كاهِله، وإنّه لَيتضاءلُ الأحايِينَ لعظَمة الله عزّ وجلّ حتّى يعود مثل الوَصَع»؛[1] وهو العصفور الصغير.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئناف مقرّر لِما قبله مِن تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة، ومؤذِنٌ بأنّ ذلك مِن أحكام مشيئته تعالى، لا لأمرٍ راجع إلى ذواتهم، ببيان حُكم كلّي ناطق بأنّه تعالى يزيد في أيّ خلقٍ كان كُلَّ ما يشاء أن يزيده بموجَب مشيئته ومقتضى حكمته مِن الأمور التي لا يحيط بها الوصف. وما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن تخصيص بعض المعاني بالذِّكر مِن "الوجه الحسَن، والصوت الحسَن، والشَّعر الحسَن"[2] فبيانٌ لبعض الموادّ المعهودة بطريق التمثيل، لا بطريق الحصر فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحُكم المذكور، فإنّ شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء ممّا يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كلَّ ما يشاؤه إيجابًا بيّنًا.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عُبّر عن إرسالها بالفتح إيذانًا بأنّها أَنْفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون، / وأعزُّها مَنالًا. وتنكيرها للإشاعة [٣٧٧و]
والإبهام، أي: أيّ شيء يفتح الله مِن خزائن رحمةٍ -أيّةَ رحمةٍ كانت- مِن نِعمة

---

[1] الزهد لابن المبارك، ٧٤/١ (٢٢١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٣.

[2] ذكره الواحدي في التفسير البسيط، ٤٠٠/١٨؛ والزمخشري في الكشّاف، ٥٩٦/٣. وقال القرطبي: «ذكره القشيري». تفسير القرطبي، ٣٢٠/١٤.

وصحّة وأمن وعِلم وحكمة إلى غير ذلك ممّا لا يُحاط به ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إمساكها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيَّ شيء يُمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ يقدِر على إرساله. واختلاف الضميرين لِما أنّ مرجع الأوّل مفسَّر بالرحمة، ومرجعَ الثاني مطلَق يتناولُها وغيرَها، كائنًا ما كان. وفيه إشعار بأنّ رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد إمساكه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلّ ما يشاء مِن الأمور التي مِن جملتها الفتح والإمساك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يفعَل كُلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه[1] الحِكمة والمصلحة. والجملة تذييل مقرّر لِما قبلها ومُعرِب عن كون كلٍّ مِن الفتح والإمساك بموجَب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين.

وبعدما بيَّن سبحانه أنّه الموجِد للمُلك والملكوت، والمتصرِّف فيهما بالقبض والبَسط مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخلٌ ما بوجه مِن الوجوه؛ أمرَ الناس قاطبةً أو أهل مكّة خاصّةً بشُكر نِعَمه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنعامَه عليكم؛ إن جُعِلَت "النعمة" مصدرًا، أو كائنةً عليكم؛ إن جُعلَت اسمًا. أي: راعُوها واحفظوها بمعرفة حقّها، والاعترافِ بها، وتخصيصِ العبادة والطاعة بمُوليها.

ولمّا كانت نِعم الله تعالى مع تشعّب فُنونها منحصرةً في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نَفَى أن يكون في الوجود شيء غيرُه تعالى يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكاري المنادي باستحالة أن يُجاب عنه بِـ"نَعَمْ"، فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجود؟ على أنّ ﴿خَـٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زِيدت عليه كلمة ﴿مِنْ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ له باعتبار محلّه، كما أنّه نعتٌ له في قراءة الجرّ[2] باعتبار لفظه. وقُرئ بالنصب[3] على الاستثناء.

---

[1] س: تقتضيه.

[2] قرأ بجرّ "غير" حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

وقوله تعالى: / ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمطر والنبات. كلام مبتدأ على التقادير، لا محلَّ له مِن الإعراب، داخلٌ في حيّز النفي والإنكار. ولا مساغَ لِما قيل[١] مِن أنّه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ مرفوعةُ المحلّ، أو مجرورتُه؛ لأنّ معناه نفيُ وجود خالقٍ موصوف بوصفَي المغايَرة والرازقيّة معًا مِن غير تعرّض لنفي وجود ما اتّصف بالمغايَرة فقط، ولا لِما قيل[٢] مِن أنّه الخبرُ للمبتدأ، ولا لِما قيل[٣] مِن أنّه مفسِّر لمُضمَرٍ ارتفع به قوله تعالى: ﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: هل يرزقكم مِن خالقٍ... إلخ، لِما أنّ معناهما نفي رازقيّة خالق مغايِر له تعالى مِن غير تعرّضٍ لنفي وجوده رأسًا مع أنّه المراد حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ فإنّه استئناف مَسوق لتقرير النفي المستفادِ منه قصدًا، وجارٍ مَجرى الجواب عمّا يوهمه الاستفهام صورةً، فحيث كان هذا ناطقًا بنفي الوجود تعيّن أن يكون ذلك أيضًا كذلك قطعًا. [٣٧٧ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرازقيّة فمِن أيّ وجه تُصرَفون عن التوحيد إلى الشرك؟

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تلوين للخِطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين خطابَي الناس مسارعةً إلى تسليته عليه السلام بعموم البليّة أوّلًا، والإشارةِ إلى الوعد والوعيد ثانيًا.

أي: وإن استمرّوا على أن يكذّبوك فيما بلّغت إليهم مِن الحقّ المبين بعد ما أقمتَ عليه الحجّةَ وألقمتَهم الحجَر فتأسَّ بأولئك الرسل في المصابَرة على ما أصابهم مِن قِبَل قومهم، فوُضع موضعَه ما ذُكر اكتفاءً بذِكر السبب عن ذكر المسبَّب.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٤.
٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٩/١٣.
٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٩٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٤.

وتنكير "الرسل" للتفخيم الموجِب لمزيد التسلية، والتوجّهِ إلى المصابَرة، [٣٧٨و] / أي: رسل أولو[١] شأن خطير، وذَوُو[٢] عددٍ كثير.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلًّا منك ومنهم بما أنتم عليه مِن الأحوال التي مِن جملتها صبرك وتكذيبهم. وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثوابًا وعقابًا مِن المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى.

وقُرِئ: "تَرْجِعُ" بفتح "التاء"،[٣] مِن "الرجوع"، والأوّل أدخلُ في التهويل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ رجوع إلى خطابهم، وتكرير النداء لتأكيد العِظة والتذكير، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ المشارَ إليه بِرَجعِ الأمور إليه تعالى[٤] مِن البعث والجزاء، ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا محالةَ مِن غير خُلف، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن يُذهِلكم التمتُّع بمتاعها، ويلهيكم التلهّي بزخارفها عن تدارك ما يهمّكم يومَ حلول الميعاد. والمراد نهيُهم عن الاغترار بها وإن توجّه النهي صورةً إليها، كما في[٥] قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود، ١١/٨٩].[٦]

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ وعفوِه وكرمِه تعالى ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي: المبالِغ في الغُرور، وهو الشيطان، بأن يمنّيكم المغفرةَ مع الإصرار على المعاصي قائلًا: "اعملوا ما شئتم، إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعًا"، فإنّ ذلك وإن أمكَن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقّع مِن قَبيل تناول السمّ تعويلًا على دفع الطبيعة. وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه، ولاختلاف الغُرورَين في الكيفيّة. وقُرِئ: "الْغُرُورُ" بالضمّ[٧] على أنّه مصدر، أو جمع "غارّ"، كـ"قُعُود" جمع "قاعِد".

---

١ م: أولوا.

٢ م: وذووا.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

٤ في الآية السابقة.

٥ ط س + "لا أرَينّك ههنا".

٦ ط س – قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ [هود، ١١/٨٩].

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن سماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٤.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةً قديمةً لا تكاد تزول. وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ للاهتمام به. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونِكم على حذَرٍ منه في مَجامع أحوالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير مِن طاعته بالتنبيه على أنّ غرضَه في دعوةِ شيعته إلى اتّباع الهوى والركونِ إلى ملاذّ الدنيا ليس تحصيلَ مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة كما هو مقصِد المتحابّين في / الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعضٍ؛ بل هو توريطُهم [٣٧٨ظ]
وإلقاؤُهم في العذاب المخلَّد مِن حيث لا يحتسبون.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتّباعهم لخطواته ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادَر قدرُه، مديدٌ لا يُبلَغ مَداه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح الذي مِن جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غايةَ لهما.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمّا تقرير لِما سبق مِن التبائُن البَيّن بين عاقبتَي الفريقين ببيان تبائُن حالَيهما المؤدِّيَين إلى تَينِك العاقبتَين، و"الفاء" لإنكار ترتّب ما بعدها على ما قبلها،[1] أي: أبَعدَ كون حالهما كما ذُكر يكون مَن زُيِّنَ له الكفر مِن جهة الشيطان فانهمك فيه كمَن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان

[1] س – على ما قبلها.

والعمل الصالح حتّى لا يكون عاقبتاهما كما ذُكِر؟ فحُذف ما حُذف لدلالة ما سبق عليه. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾... إلخ تقريرٌ له، وتحقيقٌ للحقّ ببيان أنّ الكلّ بمشيئته تعالى، أي: فإنّه تعالى يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضلّه لاستحسانِه واستحبابِه الضلالَ وصرفِ اختياره إليه، فيردّه أسفلَ سافلين، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه لصَرفِ اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عِلّيّين.

وإمّا تمهيد لِما يعقُبه مِن نهيه عليه السلام عن التحسّر والتحزّن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنّهم ليسوا بأهلٍ لذلك؛ بل لِأن يُضرَبَ عنهم صفحًا، ولا يُبالَى بهم قطعًا، أي: أبَعدَ كون حالهم كما ذُكر تتحسّر عليهم؟ فحُذف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ دلالةً بيّنةً.

وإمّا تمهيد[1] لصَرفه عليه السلام عمّا كان عليه مِن الحرص الشديد على إسلامهم، والمبالغةِ في دعوتهم إليه ببيان استحالة تحوّلهم عن الكفر، لكونه في غاية الحسن عندهم، أي: أبَعدَ ما ذُكر مَن زُيّن له الكفر مِن قِبل الشيطان فرآه حسنًا فانهمك فيه يقبل الهداية حتّى تطمع في إسلامه، وتُتعب نفسك
[٣٧٩و] في دعوته؟ / فحُذف ما حُذف لدلالة ما مرّ مِن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾... إلخ على أنّه مِمّن شاء الله تعالى أن يضلّه، فمَن يَهدي مَن أضلّ اللهُ، وما لهم مِن ناصرين.

وقُرئ: "فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ".[2]

وقوله تعالى: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ إمّا مفعول له، أي: فلا تَهلِك نفسُك للحسرات. والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجِبة للتأسّف والتحسّر. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ صلةُ ﴿تَذْهَبْ﴾، كما يقال: "هلكَ عليه حبًّا"، و"ماتَ عليه حزنًا"، أو هو بيان للمتحسَّر عليه. ولا يجوز أن يتعلّق بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته، وإمّا حال، كأنّ كلّها صارت حسرات.

---

[1] السياق: إمّا تقرير... وإمّا تمهيد... وإمّا تمهيد...

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي: مِن القبائح، تعليل لِما قبله على الوجوه الثلاثة،[١] مع ما فيه مِن الوعيد.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها نزلت في أبي جهل ومشركي مكّة.[٢]

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبتدأ وخبر. وقُرئ: "الرِّيحَ".[٣] وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالّة على كمال القدرة والحكمة، ولأنّ المراد بيان إحداثها لتلك الخاصّيّة، ولذلك أُسند إليها، أو للدلالة على استمرار الإثارة.

﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[٤] ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: بالمطر النازل منه المدلولِ عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازمًا في الذهن كما في الخارج، أو بالسحاب فإنّه سبَب السبَب، ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي: يُبْسِها.

وإيراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وإسنادهما إلى "نون" العظَمة المنبئُ عن اختصاصهما به تعالى لِما فيهما مِن مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبّه به بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربّانيّة. و"الكافُ" في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: مثلُ ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياءُ الأموات في صحّة المقدوريّة وسهولةِ التأتّي مِن غير تفاوتٍ بينهما أصلًا، سوى الإلْفِ في الأوّل دون الثاني. وقيل: في كيفيّة الإحياء؛ يرسل الله تعالى / مِن تحت العرش ماءً فينبت منه أجساد الخلق.[٥] [٣٧٩ظ]

---

١ وفي هامش م: فإنّ عِلمه تعالى بسوء صنيعهم موجِب لكلّ واحد ممّا ذُكر، مِن كونهم في العذاب الشديد، ونهيِه عليه السلام عن التحسّر، وصرفِه عليه السلام عن المبالغة في دعوتهم. «منه».

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٦.

٣ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٤ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

٥ من حديث طويل في المعجم الكبير للطبراني، ٣٥٤/٩ (٩٧٦١)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٤١/٤ (٨٥١٩). ولفظه فيه: «فيُرسل الله ماءً مِن تحت العرش كمَنيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُثمانهم مِن ذلك الماء كما ينبت الأرض مِن الثرى».

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هم المشركون الذين كانوا يتعزَّزون بعبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم، ٨١/١٩]، والذين كانوا يتعزَّزون بهم مِن الذين آمنوا بألسنتهم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء، ١٣٩/٤]. والجمع بين ﴿كَانَ﴾ و﴿يُرِيدُ﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: له تعالى وحدَه -لا لغيره- عِزّة الدنيا وعِزّة الآخرة، أي: فليطلبها منه، لا مِن غيره، فاستُغني عن ذِكره بذِكر دليله إيذانًا بأنّ اختصاص العزّة به تعالى موجِب لتخصيص طلبها به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيان لِما يُطلب به العزّة، وهو التوحيد والعمل الصالح. وصعودهما إليه مجاز عن قَبوله تعالى إيّاهما، أو صعودِ الكَتَبة بصحيفتهما. وتقديم الجارّ والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به، كقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة، ١٠٤/٩].

أي: إليه يَصل الكَلِم الطيّب الذي به يُطلَب العزّة، لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط، وهو يُعِزّ صاحِبَه، ويعطي طِلبَتَه بالذات. والمستكِنّ في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، فإنّ مدار قبول العمل هو التوحيد، ويؤيّده القراءة بنصب ﴿ٱلْعَمَلُ﴾.[١] أو لـ﴿ٱلْعَمَلُ﴾، فإنّه يُحقِّقُ الإيمان ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلّا به.

وقُرئ: "يُصْعِدُ"[٢] مِن "الإصعاد" على البناءَين، والمُصعِد هو الله سبحانه، أو المتكلِّم به، أو الملَك.

وقيل: ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتناول الذِّكرَ والدعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القرآن.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٩/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهم والسلَمي وإبراهيم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٨/٩.

وعنه عليه السلام «أنّه "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر"، إذا قاله العبد عرَج به الملَك إلى السماء، فحيّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم يُقبل».[1]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما مِن عبد مسلم يقول خمس كلمات: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، وتبارك الله"، إلّا أخذَهنّ ملَك فجعلَهنّ[2] تحت جناحه، ثمّ صعِد بهنّ، فما يَمُرّ بهنّ على جمع مِن الملائكة إلّا استغفروا لِقائلهنّ، حتّى يحيّي بهنّ وجه ربّ[3] العالمين».[4] ومصداقه قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾... إلخ.[5]

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بيان لحال الكَلِم الخبيث والعمل السيّئ وأهلِهما بعد بيان حال الكَلِم الطيّب والعملِ الصالح. وانتصابُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنّها صفة للمصدر المحذوف، أي: يمكرون المَكرات السيّئات، وهي مَكرات قريش بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم / في دار الندوة، وتدارُؤُهم الرأي [٣٨٠و] في إحدى الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب مَكراتهم ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه، ولا يُؤبَهُ عنده لِما يمكرون.

﴿وَمَكۡرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه مِن الشرّ والفساد عن سائر المفسدين واشتهارِهم بذلك. وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان، وبُعد منزلتهم في العدوان، أي: ومكرُ أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه السلام ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي: هو يَهلِك ويَفسد خاصّةً، لا مَن مكروا به، ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مَكراتهم، حيث أخرجهم مِن مكّة، وقتَلهم وأثبتهم في قليب بدرٍ، فجمع عليهم مَكراتِهم الثلاثَ التي اكتفَوا في حقّه عليه السلام بواحدة منهنّ.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٣.

[2] س: فجعله.

[3] س: الرحمن.

[4] س – العالمين. | وهو في جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ والمستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩)، بلفظ: «وجه الرحمن».

[5] جامع البيان للطبري، ٣٣٨/١٩؛ المستدرك للحاكم، ٤٦١/٢ (٣٥٨٩).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليل آخر على صحّة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه في ضِمن خَلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًا، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم منها خَلقًا تفصيليًا، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا، أو ذُكرانًا وإناثًا. وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض».[١]

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي ملتبسةً بعلمه، تابعةً لمشيئته، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: مِن أحدٍ، وإنّما سُمّي "مُعمَّرًا" باعتبار مصيره، أي: وما يُمَدُّ في عمُر أحدٍ، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: مِن عمُر أحدٍ، على طريقة قولهم: "لا يُثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلّا بحقّ"، لكن لا على معنى: لا يُنقَص عمُره بعد كونه زائدًا؛ بل على معنى: لا يُجعَلُ مِن الابتداء ناقصًا.

وقيل: الزيادة والنقص في عمُرٍ واحدٍ باعتبار أسباب مختلفة أُثبِتَت في اللوح، مثل أن يُكتَب فيه: "إن حجَّ فلان فعمره ستّون، وإلّا فأربعون"، وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «الصدقة والصِّلة تَعمُران الديار، وتزيدان / في الأعمار».[٢] [٣٨٠ظ]

وقيل: المراد بالنقص ما يمرّ مِن عمره ويَنقص، فإنّه يُكتَب في الصحيفة: "عمُره كذا وكذا سنةً"، ثمّ يُكتب تحت ذلك: "ذهبَ يوم"، "ذهبَ يومان"، وهكذا حتّى يأتي على آخره.[٣]

وقُرئ: "وَلَا يَنْقُصُ"[٤] على البناء للفاعل، و"مِنْ عُمْرِهِ" بسكون "الميم".[٥]

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه اللوح.[٦] وقيل: علم الله عزّ وجلّ. وقيل: صحيفة كلّ إنسان.

---

١ **جامع البيان** للطبري، ١٩/٣٤٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٦٠٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٦٠٤. وأخرجه أحمد في مسنده، ٤٢/١٥٣(٢٥٢٥٩)، بلفظ: «وصِلة الرحم وحُسن الخُلق وحُسن الجوار يَعمران الديار، ويزيدان في الأعمار».

٣ قاله سعيد بن جبير. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٠٢؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٥٠٢.

٤ قرأ بها يعقوب بخُلف عن رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٥٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٥.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٦٠٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٢٠.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخَلق وما بعده مع كونه مَحارًا للعقول والأفهام ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مَثَل ضُرِب للمؤمن والكافر. و"الفُرات": الذي يكسِر العطش. و"السائغ": الذي يَسهُل انحدارُه لعُذوبته. و"الأُجاج": الذي يَحرِق بمُلوحته. وقُرئ: "سَيِّغٌ"[١] كـ"سيِّدٍ"، و"سَيْغٌ" بالتخفيف.[٢] و"مَلِحٌ"[٣] كـ"كَتِفٍ".

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي: مِن المالح خاصّةً ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمّا استطراد في صفة "البحرين" وما فيهما مِن النِّعم والمنافع، وإمّا تكملةٌ للتمثيل، والمعنى: كما أنّهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان مِن حيث إنّهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات مِن الماء، لِما خالَط أحدَهما ما أفسده وغيَّره عن كمال فطرته؛ لا يساوي الكافرُ المؤمنَ وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما، لتباينهما فيما هو الخاصّيّة العظمى، لبقاء أحدهما على فطرته الأصليّة، وحِيازته لكماله اللائق دون الآخر.

أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافر مِن حيث إنّه يشارك العذبَ في منافعَ كثيرة، والكافرُ خِلْو مِن المنافع بالكلّيّة، على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٧٤].

/ والمراد بـ"الحِلية" اللؤلؤ والمرجان. [٣٨١و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلّ منهما. وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحِق لأنّ الخطاب لكلّ أحد تَتأتّى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقُّ للماء بجَريها مُقبِلة ومُدبِرة بريح واحدة، ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن فضل الله تعالى بالنُّقلة فيها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، وقد جُوّز تعلّقها بما يدلّ عليه الأفعال المذكورة، أي: فعلَ ذلك لتبتغوا مِن فضله.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولتشكروا على ذلك. وحرف الترجّي للإيذان بكونه مَرضيًا عنده تعالى.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر، بإضافة بعض أجزاء كلّ منهما إلى الآخَر. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفٌ على ﴿يُولِجُ﴾. واختلافهما صيغةً لِما أنّ إيلاج أحد المَلَوين في الآخر متَجدّد حينًا فحينًا، وأمّا تسخير النيّرين فأمرٌ لا تعدّدَ فيه، وإنّما المتعدّد والمتجدّد آثارُه، وقد أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: بحسب حركته الخاصّة وحركته القَسريّة على المدارات اليوميّة المتعدّدة حسب تعدّد أيّام السَّنة جريانًا مستمرًّا ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قدّره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسَن رحمه الله تعالى.[١]

وقيل: "جريانهما" عبارة عن حركتَيهما الخاصّتَين بهما في فلكَيهما، و"الأجَل المسمّى" عن مُنتهى دورتَيهما، ومدّةُ الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، وقد مرّ تفصيله في سورة لقمان.[٢]

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية العظَمة. وهو مبتدأ، وما بعده أخبار مترادفة، أي: ذلكم العظيم الشأنِ

---

١ س - تعالى. | الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٣ (لقمان، ٢٩/٣١).

٢ لقمان، ٢٩/٣١.

الذي أبدَعَ هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ وفيه مِن الدلالة على أنّ إبداعه تعالى لتلك البدائع ممّا يوجب ثبوت تلك الأخبار له ما لا يخفى. ويجوز أن يكون الأخيرُ كلامًا مبتدأً في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرّده تعالى بالألوهيّة والربوبيّة.

وقُرئ: "يَدْعُونَ" بـ"الياء" التحتانيّة.[١] والقِطمير: لِفافة النواة، وهو مَثَل في القِلّة والحقارة.

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، كاشفٌ عن جليّة حال ما يدعونه بأنّه جماد ليس مِن شأنه السماع، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لعجزهم عن الأفعال بالمرّة، لا لِما قيل[٢] مِن أنّهم متبرّئون / منكم وممّا تدّعون لهم، فإنّ ذلك ممّا لا يتصوّر منهم في الدنيا. [٣٨١ظ]

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ أي: يجحدون بإشراككم لهم وعبادتِكم إيّاهم بقولهم: "ما كنتم إيّانا تعبدون".[٣]

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ أي: لا يخبرك بالأمر مخبِر مثلُ خبير أخبرَك به، وهو الحقّ سبحانه، فإنّه الخبير بكُنه الأمور دون سائر المخبِرين. والمراد تحقيق ما أخبر به مِن حال آلهتهم، ونفيِ ما يدّعون لهم مِن الإلَهيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسكم وفيما يعِنّ لكم مِن أمرٍ مُهمّ أو خَطب مُلِمّ. وتعريف ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنّهم لكثرة افتقارهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى وسلام ويعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢١/٩.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦٠٥/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٥٦/٤.

٣ قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس، ٢٨/١٠].

وشدّةِ احتياجهم هم الفقراء فحسب، وأنّ افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء، ٢٨/٤].

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: المستغني على الإطلاق، المنعمُ على سائر الموجودات، المستوجبُ للحمد.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ ليسوا على صفتكم؛ بل مستمرّون على الطاعة، أو بعالَم آخر غيرَ ما تعرفونه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإذهاب بهم والإتيانِ بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بمتعذِّر ولا متعسِّر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٨﴾

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ أي: لا تحمِل نفسٌ آثمة ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ إثـمَ نفسٍ أخرى؛ بل إنّما تحمِل كلٌّ منهما وِزرَها. وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت، ١٣/٢٩] مِن حمل المضلِّين أثقالًا غيرَ أثقالهم؛ فهو حملُ أثقالِ إضلالهم مع أثقالِ ضلالهم، وكلاهما أوزارُهم ليس فيها مِن أوزار غيرهم شيء.

﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقلَها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ لِيُحمَل بعضُ أوزارها، ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ لم تُجَبْ[١] بحمل شيء منه، ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ أي:[٢] المدعوُّ المفهوم مِن الدعوة ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ ذا قرابة مِن الداعي. وقُرِئ: "ذُو قُرْبَى".[٣] وهذا نفي للحمل اختيارًا، والأوّلُ نفي له إجبارًا.

---

١ ط س: يُجَبْ.

٢ س - أي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٥.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ استئناف مَسوق / لبيان مَن يتّعظ بما ذُكر، أي: إنّما تُنذر بهذه الإنذارات ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلَواتهم، أو يخشون عذابه، وهو غائب عنهم، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: راعَوها كما ينبغي، وجعلوها مَنارًا منصوبًا، وعلَمًا مرفوعًا، أي: إنّما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء مِن قومك دون مَن عداهم مِن أهل التمرّد والعناد. [٣٨٢و]

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثّر مِن هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أنّ مَن تدنّس بها لا يتدنّس إلّا عليها. وقُرئ: "مَنِ ازَّكّى فَإِنَّمَا يَزَّكّى"،[١] وهو اعتراض مقرِّر لخَشيتهم وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما مِن معظم مبادي التزكّي.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فيجازيهم على تزكّيهم أحسنَ الجزاء.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي: ولا الباطلُ ولا الحقُّ. وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مع إفراد ﴿ٱلنُّورُ﴾ لتعدّد فنون الباطل واتّحادِ الحقّ.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ أي: ولا الثوابُ ولا العقابُ. وإدخال ﴿لَا﴾ على المتقابلَين لتذكير نفي الاستواء، وتوسيطُها بينهما للتأكيد. و﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ "فَعُول" مِن الحَرّ، غلَب على "السَّموم". وقيل: "السَّموم" ما يهبّ نهارًا، و"الحَرور" ما يهبّ ليلًا.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغُ مِن الأوّل، ولذلك كُرّر الفعل. وأوثرَ صيغةُ الجمع في الطرفين تحقيقًا للتباين بين أفراد الفريقين. وقيل: تمثيلٌ للعلماء والجهلة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٩.

[٣٨٢ظ] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يُسمِعَه ويُوفّقُه لفهم آياته / والاتّعاظِ بعِظاته. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المُصرّين على الكفر بالأموات، وإشباعٌ في إقناطه عليه السلام مِن إيمانهم.

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلّا الإنذار، وأمّا الإسماع البتّة فليس مِن وظائفك، ولا حيلةَ لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: محِقّين، أو محِقًّا أنت، أو إرسالًا مصحوبًا بالحقّ. ويجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بشيرًا بالوعد الحقّ، ونذيرًا بالوعيد الحقّ. ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: ما مِن أمّة مِن الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ أي: مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٞ﴾ مِن نبيّ أو عالمٍ يُنذرهم. والاكتفاء بذكره للعلم بأنّ النِّذارة قرينة البِشارة، لا سيّما وقد اقترَنا آنفًا، ولأنّ الإنذار هو الأنسب بالمقام.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: تمُّوا على تكذيبك، فلا تبالِ بهم وبتكذيبهم، ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِنَ الأمم العاتية، ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزاتِ الظاهرة الدلالةِ على نبوّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ كالتوارة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يُراد بهما واحد، والعطف لتغاير العنوانين.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإشعارِ بعلّةِ الأخذ، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري بالعقوبة. وفيه مزيد تشديد وتهويل لها.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استئناف مَسوق لتقرير ما قبله مِن اختلاف أحوال الناس ببيان

أنّ الاختلاف والتفاوت أمر مُطّرد في جميع المخلوقات مِن النبات والجماد والحيوان. والرؤية قلبيّة، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء. والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل، لِما فيه مِن الصنع البدِيع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة.

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أجناسُها، أو أصنافُها، على أنّ كلًّا منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتُها وأشكالُها، أو ألوانُها مِن الصُّفرة والخُضرة والحُمرة وغيرها، وهو الأوفق لِما في قوله تعالى: / ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: ذو جُدَد، [٣٨٣و]
أي: خُطَطٍ وطرائقَ، ويقال: "جُدّةُ الحِمار" للخُطّة السوداء على ظهره. وقُرِئ: "جُدُدٌ" بالضمّ،[١] جمع "جَديدة" بمعنى "الجُدّة"، و"جَدَدٌ" بفتحتين،[٢] وهو الطريق الواضح. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدّة والضعف.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على ﴿بِيضٌ﴾، أو على ﴿جُدَدٌ﴾، كأنّه قيل: ومِن الجبال مخطَّط ذو جُدَدٍ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيبُ. وهو تأكيد لمُضمَر يفسّره ما بعده، فإنّ "الغِربيب" تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، ومِن حقّ التأكيد أن يتّبع المؤكَّد، ونظيره في الصفة قول النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُهَا[٣]

وفي مثله مزيدُ تأكيدٍ لِما فيه التكرار باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه، أو وبعضُهم مختلف ألوانه، على ما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٨/٢].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٣] وفي هامش م: تمامه:
رُكبانُ مكّةَ بين الغَيلِ والسنَدِ
ديوان النابغة، ص ٢٠.

وإيراد الجملتين اسميّتَين مع مشاركتهما لِما قبلهما مِن الجملة الفعليّة في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الأحوال الباطنة لِما أنّ اختلاف الجبال والناس والدوابّ والأنعام فيما ذُكر مِن الألوان أمر مستمرّ، فعُبِّر عنه بما يدلّ على الاستمرار، وأمّا إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرًا حادثًا عُبّر عنه بما يدلّ على الحدوث، ثمّ لمّا كان فيه نوع خفاء عُلّقِ به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبئِ عن الحمل عليها والترغيبِ فيها، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنّها مشاهَدةٌ غنيّة عن التأمّل، فلذلك جُرّدت عن التعليق بالرؤية، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مصدر تشبيهي لقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾، أي: صفة لمصدره المؤكِّد، تقديره: مختلف اختلافًا كائنًا كذلك، أي: كاختلاف الثمار والجبال.

وقُرئ: "أَلْوَانُهَا".[١] وقُرئ: "وَالدَّوَابِ" بالتخفيف[٢] مبالغةً في الهرب مِن التقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[٣] بتعيين مَن يخشاه عزّ وجلّ مِن الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم، وتباينِ مراتبهم، أمّا في الأوصاف المعنويّة فبطريق التمثيل، وأمّا في الأوصاف الصوريّة فبطريق التصريح، توفيةً لكلّ واحدة منهما حقَّها اللائقَ بها مِن البيان، أي: إنّما يخشاه تعالى بالغيب العالِمون به عزّ وجلّ وبما[٤] يليق به مِن صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، لِما أنّ مدارَ الخشية معرفةُ المَخشيّ والعلمُ بشئونه، فمَن كان أعلمَ به تعالى كان أخشى منه عزّ وجلّ، كما قال عليه السلام: «أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له»،[٥] ولذلك عُقِّب بذكر أفعاله الدالّة على كمال قدرته. وحيث كان الكفرة بمَعزِل مِن هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلّيّة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠/٩.

[٣] فاطر، ١٨/٣٥.

[٤] س: وما.

[٥] صحيح البخاري، ٢/٧ (٥٠٦٣)؛ صحيح ابن حبّان، ٢١/٢ (٣١٧).

وتقديم المفعول لأنّ المقصود حصرُ الفاعليّة، ولو أُخِّر انعكس الأمر. وقُرئ برفع الاسم الجليل ونصبِ ﴿ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾،[١] على أنّ الخشية مستعارة للتعظيم، فإنّ المعظّم يكون مَهيبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على أنّه معاقِب للمصرّ على طغيانه، غفورٌ للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداوِمُون على قراءته أو متابعةِ ما فيه حتّى صارت سِمةً لهم وعنوانًا. والمراد بـ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ تعالى **القرآنُ**. / وقيل:[٢] [٣٨٣ظ] جنسُ كُتُب الله تعالى، فيكون ثناءً على المصدِّقين مِن الأمم بعد اقتصاص حال المكذِّبين منهم، وليس بذاك، فإنّ صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعيّة تلاوته والعمل بما فيه واستتباعِهما لِما سيأتي مِن توفية الأجور وزيادة الفضل. وحَملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسّفًا ظاهرًا ممّا لا سبيل إليه، كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعملِ **بالقرآن** الناسخِ لِما بين يديه مِن الكتب؟ فالتعرّض لبيان حقّيّتها قبل انتساخها والإشباعُ في ذِكر استتباعها لِما ذُكر مِن الفوائد العظيمة ممّا يُورث الرغبة في تلاوتها، والإقبالَ على العمل بها.

وتخصيص التلاوة بما لم يُنسَخ منها باطل قطعًا، لِما أنّ الباقي مشروعًا ليس إلّا حكمَها، لكن لا مِن حيث إنّه حكمها؛ بل مِن حيث إنّه حكم **القرآن**، وأمّا تلاوتها فبمَعزِل مِن المشروعيّة واستتباعِ الأجر بالمرّة، فتدبّر.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيفما اتّفق مِن غير قصدٍ إليهما. وقيل: "السرّ" في المسنونة، و"العلانية" في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٦. قال أبو حيّان: «ولعلّ ذلك لا يصحّ عنهما، وقد رأينا كُتبًا في الشواذّ، ولم يذكروا هذه القراءة». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣١/٩.

٢ قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٢٥٧/٤.

تحصيلَ ثوابٍ بالطاعة. وهو خبر ﴿إِنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسَد ولن تهلِك بالخسران أصلًا، صفةٌ للتجارة، جيء بها للدلالة على أنّها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخُسران؛ لأنّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ. والإخبارُ برجائهم مِن أكرم الأكرمين عِدَةٌ قطعيّة بحصول مرجوّهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلّق بـ﴿لَن تَبُورَ﴾،[1] على معنى أنّه ينتفي عنها الكساد، وتَنفُق عند الله تعالى، لِيوفّيَهم أجورَ أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ذلك مِن خزائن رحمته ما يشاء. وقيل: بمُضمَر دلّ عليه ما عُدَّ مِن أفعالهم المرضيّة، أي: فعلوا ذلك ليوفّيَهم... إلخ. وقيل: بـ﴿يَرْجُونَ﴾ على أنّ "اللام" للعاقبة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن التوفية والزيادة، أي: غفور لفرطاتهم، شكور لطاعاتهم، أي: مجازيهم عليها. وقيل: هو خبرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، و﴿يَرْجُونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَنفَقُوا۟﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ٣١﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، و﴿مِن﴾ للتبيين، أو الجنسُ، و﴿مِن﴾ للتبعيض. وقيل: اللوحُ، و﴿مِن﴾ للابتداء. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أحُقّه مصدِّقًا لِما تقدّمه مِن الكتب السماويّة. حال مؤكِّدة، لأنّ حقّيّته تستلزم موافقته إيّاه في العقائد وأصول الأحكام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيطٌ ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة لم يُوحِ إليك مثلَ هذا الحقّ المعجز الذي هو عِيارٌ على سائر الكتب. وتقديم "الخبير" للتنبيه على أنّ العمدة هي الأمور الروحانيّة.

---

[1] في الآية السابقة.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ / أي: قَضينا بتوريثه منك، أو نُورِثُه. والتعبير عنه بالماضي [٣٨٤و] لتقرّره وتحقّقه. وقيل: أورثناه مِن الأمم السالفة، أي: أخّرناه عنهم، وأعطيناه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم علماء الأمّة مِن الصحابة ومَن بعدهم ممّن يسير سيرتهم، أو الأمّةُ بأسرهم، فإنّ الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، وجعَلهم أمّةً وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلوات. وليس مِن ضرورة وِراثة الكتاب مراعاته حقَّ رعايته، لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ [الأعراف، ١٦٩/٧].

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به، وهو المُرْجِئُ لأمر الله، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل به في أغلب الأوقات، ولا يخلو مِن خَلط السيّئ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: هم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصار. وقيل: هم المداوِمون على إقامة مواجبه علمًا وعملًا وتعليمًا، وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ -أي: بتيسيره وتوفيقه- تنبيهٌ على عزّة مَنال هذه الرتبة، وصعوبةِ مأخذها.

وقيل: "الظالم" الجاهل، و"المقتصد" المتعلّم، و"السابق" العالم.

وقيل: "الظالم" المجرم، و"المقتصِد" الذي خلَط الصالح بالسيّئ، و"السابق" الذي ترجّحت حسناته، بحيث صارت سيّئاته مكفَّرة، وهو معنى قوله عليه السلام: «أمّا الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنّة يُرزَقون فيها بغير حساب، وأمّا المقتصِد فأولئك يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وأمّا الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يُحبَسون في طول المحشر، ثم يتلقّاهم الله تعالى برحمته».[١] وقد رُوي أنّ عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سابِقُنا سابِق، ومقتصِدُنا ناجٍ، وظالمُنا مغفور له».[٢]

---

[١] مسند أحمد، ٥٧/٣٦ (٢١٧٢٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٨.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١١١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٥/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "السبق بالخيرات"، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته في الشرف. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن الله عزّ وعلا،[١] لا يُنال إلّا بتوفيقه تعالى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إمّا بدل مِن ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٢] بتنزيل السبَب منزلةَ المسبَّب، أو مبتدأ خبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وعلى الأوّل هو مستأنَف. وجمع الضمير / لأنّ المراد بـ"السابق" الجنس. [٣٨٤ظ]

وتخصيص حال السابقين ومآلِهم بالذكر والسكوتُ عن الفريقين الآخَرين وإن لم يدلّ على حِرمانهما مِن دخول الجنّة مطلقًا، لكنّ فيه تحذيرًا لهما مِن التقصير، وتحريضًا على السعي في إدراك شَأْوِ السابقين.

وقُرئ: "جَنَّاتِ عَدْنٍ"،[٣] و"جَنَّةَ عَدْنٍ"،[٤] على النصب بفعل يفسّره الظاهر. وقُرئ: "يُدْخَلُونَهَا" على البناء للمفعول.[٥]

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثانٍ، أو حال مقدَّرة. وقُرئَ: "يَحْلَونَ"[٦] مِن "حَلِيَتِ المرأةُ، فهي حالية". ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي جمع "أَسْوِرة" جمع "سِوار" ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضيّة، والثانية بيانيّة، أي: يُحلّون بعضَ أساوِر مِن ذهب، كأنّه أفضل مِن سائر أفرادها. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب عطفًا على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ بالجرّ[٧] عطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾، أي: مِن ذهَبٍ مرصَّع مِن لؤلؤ، أو مِن ذهَبٍ في صفاء اللؤلؤ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وتغيير الأسلوب قد مرّ سِرّه في سورة الحجّ.[٨]

---

١ س: عزّ وجلّ.
٢ في الآية السابقة.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبَيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٦.
٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.
٨ الحج، ٢٢/٢٣.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يقولون، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وهو ما أهمّهم مِن خوف سوء العاقبة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَنَ الأعراض والآفات».[١] وعنه: «حَزَنَ الموت».[٢] وعن الضحّاك: «حَزَنَ وسوسة إبليس».[٣] وقيل: هَمَّ المعاش. وقيل: حَزَنَ زوال النِّعم. والظاهر أنّه الجنس المنتظِم لجميع أحزان الدين والدنيا. وقُرئ: "الْحُزْنَ".[٤]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ليس على أهل "لا إله إلّا الله" وَحشة في قبورهم ولا في مَحشَرهم، ولا في مَسيرهم، وكأنّي بأهل "لا إله إلّا الله" يخرجون مِن قبورهم، يَنفضون التراب عن وجوههم، ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾».[٥] ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ أي: للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: دارَ الإقامة التي لا انتقال عنها / أبدًا. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ مِن إنعامه وتفضّله مِن غير أن يوجبه شيء مِن قِبَلنا، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾ تعب، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ كَلال. والفرق بينهما أنّ "النَّصَب" نفس المشقّة والكُلفة، و"اللُّغوب" ما يحدث منه مِن الفتور. والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأوّل له وتكريرُ الفعل المنفيّ للمبالغة في بيان انتفاء كلّ منهما. [٣٨٥و]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وفي جامع البيان للطبري، ٣٧٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حَزَن النار».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣. وذكره البغوي في معالم التنزيل، ٤٢٣/٦، عن قتادة.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٣/١٦.

٥ المعجم الأوسط للطبراني، ١٨١/٩ (٩٤٧٨)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/٣.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ ويستريحوا. ونصبه بإضمار "أن". وقُرئ: "فَيَمُوتُونَ"[١] عطفًا على ﴿يُقْضَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات، ٣٦/٧٧].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلّما خَبَتْ زِيد إسعارها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفران، لا جزاءً أخفَّ وأدنى منه. وقُرئ: "يُجْزَى"[٢] على البناء للمفعول، وإسناده إلى "الكُلّ". وقُرئ: "نُجَازِي".[٣]

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ[٤] أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون. و"الاصطِراخ" "افتِعال" مِن "الصُّراخ"، استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوتَه.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول. وتقييدُ العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسّر على ما عملوه مِن غير الصالح والاعترافِ به، والإشعارِ بأنّ استخراجهم لتلافيه، وأنّهم كانوا يحسبونه صالحًا، والآن تبيّن خلافه.

وقوله تعالى:[٤] ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتوبيخ لهم. و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام. و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، أي: أَلَم نُمهِلكم، أو أَلَم نؤخِّركم ولم نُعمِّركم عُمُرًا يتذكّر فيه مَن تذكّر، أي: يتمكّن فيه المتذكِّر مِن التذكّر / والتفكّرِ. قيل: [٣٨٥ظ]
هو أربعون سنةً. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٥] «ستّون سنةً»،[٦] ورُوي ذلك

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[٢] قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.
[٣] كذلك وقع ضبطها في الأصول الخطّيّة، ولم أجدها كذلك في المصادر، ولعلّ الصواب "يُجَازَى" بـ"الياء" وفتح "الزاي"؛ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.
[٤] س - وقوله تعالى.
[٥] م - رضي الله عنهما.
[٦] جامع البيان للطبري، ٣٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٤/٨.

عن عليّ رضي الله تعالى عنهم،[١] وهو العمر الذي أعذَرَ الله فيه إلى ابن آدم، قال عليه السلام: «أعذَرَ الله إلى امرئ أخّر أجَله حتّى بلغ ستّين سنةً».[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ عطفٌ على الجملة الاستفهاميّة؛ لأنّها في معنى: قد عمّرناكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا﴾... إلخ [الشرح، ٩٤/١-٢]؛ لأنّه في معنى: قد شرَحْنا... إلخ، والمراد بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو ما معه مِن القرآن. وقيل: العقل. وقيل: الشيب. وقيل: موت الأقارب. والاقتصار على ذكر "النذير"؛ لأنّه الذي يقتضيه المقام.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها مِن التعمير ومجيءِ النذير.[٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ للتعليل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافة. وقُرئ بالتنوين ونصبِ "غَيْبَ"[٤] على المفعوليّة، أي: لا يخفى عليه خافية فيهما، فلا يخفى عليه أحوالهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قيل: إنّه تعليل لِما قبله؛ لأنّه إذا عَلِم مضمَرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلمَ بغيرها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يقال للمستخلَف: "خليفة"، و"خَليف"، والأوّلُ يُجمع "خَلائف"، والثاني "خُلفاء". والمعنى: أنّه تعالى جعلكم خلفاءَه في أرضه، وألقى إليكم مقاليد التصرّف فيها، وسلّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها، أو جعلكم خلفاء ممّن قبلكم مِن الأمم، وأورثكم ما بأيديهم مِن متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة.

---

[١] س: عنه. | جامع البيان للطبري، ١٩/٣٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٦/١٤٨.

[٢] مسند أحمد، ١٣/١٣٩ (٧٧١٣)؛ صحيح البخاري، ٨/٨٩ (٦٤١٩).

[٣] س + النذير.

[٤] أي: "عَالِمٌ غَيْبَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حبيش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٧.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم مثلَ هذه النعمة السنيّة وغَمِطَها ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالَ كُفرِه، لا يتعدّاه إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان لوَبال الكفر وغائلته، وهو مَقتُ الله تعالى إيّاهم، أي: بغضُه الشديد الذي ليس وراءَه خزي وصَغار، / وخَسارُ الآخرةِ الذي ما بعده شرّ وخَسار. والتكرير لزيادة التقرير، والتنبيهِ على أنّ اقتضاء الكفر لكلّ واحد مِن الأمرَين الهائلَين القبيحَين بطريق الاستقلال والأصالة. [٣٨٦و]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهتَكم، والإضافة إليهم لأنّهم جعلوهم شركاءَ لله تعالى مِن غير أن يكون له أصل ما أصلًا. وقيل: جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه،[١] ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، كأنّه قيل: أخبروني عن شركائكم، أرُوني أيَّ جزء خَلقوا مِن الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خَلق السماوات ليستحقّوا بذلك شركة في الألوهيّة ذاتيّة.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنّا اتّخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: حجّةٍ ظاهرةٍ مِن ذلك الكتاب بأنّ لهم شركةً جَعليّةً. ويجوز أن يكون ضمير ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾... إلخ [الروم، ٣٠/٣٥]. وقُرئ: "عَلَى بَيِّنَاتٍ"،[٢] وفيه إيماء إلى أنّ الشرك أمرٌ خطير لا بدَّ في إثباته مِن تعاضد الدلائل.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٦١.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٢.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمّا نُفِي أنواعُ الحجج في ذلك أُضرِبَ عنه بذِكر ما حملهم عليه، وهو تغريرُ الأسلاف للأخلاف، وإضلالُ الرؤساء للأتباع، بأنّهم شفعاء عند الله، يشفعون لهم بالتقرّب إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مَسوق لبيان غاية قُبح الشرك وهَوْلِه، أي: يُمسكهما كراهةَ زوالهما، أو يمنعهما أن تزولا؛ / لأنّ الإمساك منع. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي: ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ مِن بعد إمساكه تعالى، أو مِن بعد الزوال. والجملة سادّة مسدَّ الجوابَين، و﴿مِنْ﴾ الأولى مَزيدة لتأكيد العموم، والثانية للابتداء. [٣٨٦ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غيرَ معاجِل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتَين بأن تُهَدَّا هدًّا حسبما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم، ٩٠/١٩]. وقُرئ: "وَلَوْ زَالَتَا".[١]

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بلغ قريشًا قبلَ مَبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أَتَتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى مِن إحدى الأمم اليهودِ والنصارى وغيرِهم، أو مِن الأمّة التي يقال لها: "إحدى الأمم"، تفضيلًا لها على غيرها في الهدى والاستقامة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأيُّ نذير؛ أشرفُ الرسل عليهم السلام ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي: النذير أو مجيئُه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعدًا عن الحقّ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل مِن ﴿نُفُورًا﴾،[1] أي: مفعول له ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ أصلُه: "وأن مكَروا السَّيِّئَ"، أي: المكرَ السيِّئَ، ثمّ "ومكرًا السيِّئَ"، ثمّ ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾. وقُرئ بسكون "الهمزة" في الوصل،[2] ولعلّه اختلاس ظُنَّ سكونًا، أو وقفةٌ خفيفة.[3] وقُرئ: "مَكْرًا سَيِّئًا".[4]

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: سنّة الله فيهم بتعذيب مكذّبيهم، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [٣٨٧و] بأن يضع موضعَ العذاب غيرَ العذاب، / ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن ينقله مِن المكذّبين إلى غيرهم. و"الفاء" لتعليل ما يفيده الحكمُ بانتظارهم العذابَ مِن مجيئه. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارةٌ عن نفي وجودها بالطريق البرهاني. وتخصيص كلّ منهما بنفيٍ مستقلٍ لتأكيد انتفائهما.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استشهاد على ما قبله مِن جرَيان سنّته تعالى على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق مِن آثار دمار الأمم الماضية العاتية. و"الهمزة" للإنكار والنفي. و"الواو" للعطف على مقدَّر يليق بالمقام، أي: أَقَعَدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة مَن قبلهم؟

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٢/٢.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٦١٩/٣، ونقل القرطبي عن القشيري قوله: «وقرأ حمزة: "وَمَكْرَ السَّيِّئْ" بسكون "الهمزة"، وخطّأه أقوام، وقال قوم: لعلّه وقفَ عليه لأنّه تمام الكلام، فغلط الراوي... وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأه فلا بدّ مِن جوازه، ولا يجوز أن يُقال: إنّه لَحن، ولعلّ مراد مَن صار إلى التخطئة أنّ غيره أفصَح منه، وإن كان هو فصيحًا». تفسير القرطبي، ٣٥٩/١٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٧.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ وأطولَ أعمارًا، فما نفعهم طولُ المدَى، وما أغنى عنهم شدّة القوى. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: ليسبقَه ويفوته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراض مقرِّر لِما يُفهم ممّا قبله مِن استئصال الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ أي: مبالِغًا في العلم والقدرة، ولذلك عَلِم بجميع أعمالهم السيّئة، فعاقبَهم بموجَبها؛ تعليلٌ لذلك.

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات كما فُعل بأولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن نَسَمة تدبّ عليها مِن بني آدم. وقيل: ومِن غيرهم أيضًا مِن شؤم معاصيهم. وهو المرويّ عن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى[1] عنهما.[2] ويعضد الأوّلَ قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم، إن خيرًا فخَير، وإن شرًّا فشرّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنّة؛ أنِ ادخل مِن أيّ باب شئت».[3]

---

[1] س - تعالى.

[2] رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «كادَ الجُعل يُعذَّب في جُحره بذنب ابن آدم»، ثم قرأ هذه الآية. وروي عن أنس رضي الله عنه: «إنّ الضبّ ليموت هزلًا في جُحره بذَنب ابن آدم». **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/٣.

[3] ط س + تم. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩٧/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٠/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة يسٓ [٣٨٧ظ]

مكّيّة، وهي ثلاث وثمانون آيةً.

وعنه عليه السلام: «﴿يسٓ﴾ تُدعى المُعِمّة؛ تَعُمُّ صاحبَها خيرَ الدارَين، والدافعةَ، والقاضيةَ».[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١﴾

﴿يسٓ﴾ إمّا مسرود على نمط التعديد، فلا حظّ له مِن الإعراب، أو اسمٌ للسورة كما نصّ عليه الخليل وسيبويه،[٢] وعليه الأكثر، فمحلّه الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو النصبُ على أنّه مفعول لفعل مُضمَر، وعليهما مدارُ قراءة ياسين بالرفع[٣] والنصب،[٤] أي: هذه ياسين، أو اقرأ ياسين. ولا مساغَ للنصب بإضمار فعل القسَم؛ لأنّ ما بعده مُقسَم به، وقد أبَوا الجمع بين قسَمَين على شيء واحد قبل انقضاء الأوّل. ولا مجالَ للعطف، لاختلافهما إعرابًا.

وقيل: هو مجرور بإضمار "باء" القسَم، مفتوحٌ لكونه غير مُنصرِف، كما سلَف في فاتحة سورة البقرة مِن أنّ ما كانت مِن هذه الفواتح مفردةً، مثل: "صاد"[٥] و"قاف"[٦] و"نون"،[٧] أو كانت موازِنةً لمُفرد، نحو: طاسين[٨] وياسين وحاميم[٩]

---

[١] ط س - وعنه عليه السلام: «﴿يسٓ﴾ تُدعى المُعِمّة؛ تَعُمُّ صاحبَها خيرَ الدارين، والدافعةَ، والقاضيةَ». | الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٩٦/٤ (٢٢٣٧).

[٢] ذكره الرازي في تفسيره، ٢٥٢/٢ (البقرة، ١/٢)؛ وابن عادل في اللباب، ٢٥٦/١ (البقرة، ١/٢).

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨

[٥] ص، ١/٣٨.

[٦] ق، ١/٥٠.

[٧] القلم، ١/٦٨.

[٨] النمل، ١/٢٧.

[٩] غافر، ١/٤٠، وغيرها.

الموازِنةِ لِـ"قابيل" و"هابيل"، يتأتّى فيها الإعراب اللفظي، ذكَره سيبويه في باب "أسماء السور" مِن كتابه.[١]

وقيل: هما حركتا بناءٍ، كما في "حيثُ" و"أينَ"، حسبَما يشهد بذلك قراءة ياسين بالكسر،[٢] كَـ"جَيرِ".[٣]

وقيل: الفتح والكسر تحريكٌ للجِدّ في الهرَب مِن التقاء الساكنين.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ «معناه: "يا إنسان" في لغة طيّء».[٤] قالوا: المراد به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ولعلّ أصله: "يا أُنَيسِين"، فاقتُصِر على شَطره، كما قيل: "مُنُ اللهِ" في "ايمُنُ اللهِ".[٥]

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ بالجرّ على أنّه مُقسَم به ابتداءً. وقد جُوّز أن يكون عطفًا على ﴿يسٓ﴾ على تقدير كونه مجرورًا بإضمار "باء" القسَم.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المتضمِّنِ للحكمة، أو الناطقِ بها بطريق الاستعارة، أو المتّصفِ بها على الإسناد المجازي. وقد جُوّز أن يكون الأصل "الحكيمِ قائلُه"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فبِانقلابه مرفوعًا بعد الجرّ استكَنّ في الصفة المشبَّهة كما مرّ في صدر سورة لقمان.[٦]

---

١ انظر: الكتاب لسيبويه، ٢٥٧/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

٣ "جَيْرِ" بكسر "الراء"، وقد يُنوَّن: يَمينٌ، أي: حَقًّا، أو بمعنى: "نَعَمْ" أو "أَجَلْ". القاموس المحيط للفيروزابادي، «جير».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤. وهو في جامع البيان للطبري، ٣٩٨/١٩، بلفظ: «"يا إنسانُ" بالحَبشيّة».

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٣/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٣/٤. قال أبو حيّان: «والذي نُقِل عن العرب في تصغير "إنسان": "أُنَيسِيان" بـ"ياءٍ" بعدها ألف، فدلّ على أنّ أصله "إنسِيان"؛ لأنّ التصغير يَرُدّ الأشياءَ إلى أصولها، ولا نعلم أنّهم قالوا في تصغيره: "أُنَيسِين"، وعلى تقدير أنه يُصَغَّر كذلك فلا يجوز ذلك إلّا أن يُبنَى على الضمّ؛ لأنّه منادى مُقْبَلٌ عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حَقِّ النبوّة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨/٩.

٦ لقمان، ٢/٣١.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسَم. والجملة لردّ إنكار الكفَرة بقولهم في حقّه عليه السلام: "لَستَ مُرسلًا"،[1] وهذه الشهادة منه عزّ وجلّ مِن جملة ما أشيرَ إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد، ٤٣/١٣].

وفي تخصيص القرآن بالإقسام به / أوّلًا، وبوصفه بـ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ثانيًا، تَنْوِيةٌ بشأنه، وتنبيهٌ على أنّه كما يشهد برسالته عليه السلام مِن حيث نظمُه المعجِز المنطوي على بدائع الحِكم يشهد بها مِن هذه الحيثيّة أيضًا، لِما أنّ الإقسام بالشيء استشهادٌ به على تحقّق مضمون الجملة القسَميّة، وتَقوِيةٌ لثبوته، فيكون شاهدًا به، ودليلًا عليه قطعًا. [٣٨٨و]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر آخر لـ"إنّ"، أو حال مِن المستكِنّ في الجارّ والمجرور، على أنّه عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها، لا عن التوحيد فقط. وفائدته بيانُ أنّ شريعته عليه السلام أقوم الشرائع وأعدلُها، كما يُعرِب عنه التنكير التفخيمي، والوصفُ إثرَ بيان أنّه عليه السلام مِن جملة المرسلين بالشرائع.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نصب على المدح. وقُرِئ بالرفع[2] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وبالجرّ[3] على أنه بدل مِن القرآن. وأيًّا ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عُبّر به عن القرآن بيانًا لكمال عَراقته في كونه منزّلًا مِن عند الله عزّ وجلّ، كأنّه نفس التنزيل، وإظهارًا لِفخامته الإضافيّة بعد بيان فخامته الذاتيّة بوصفه بالحكمة.

---

١ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد، ٤٣/١٣].

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة واليزيدي والقورصي عن أبي جعفر وشيبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩/٩.

وفي تخصيص الاسمَين الكريمَين المعرِبَين عن الغلَبة التامّة والرأفة العامّة حثٌّ على الإيمان به ترهيبًا وترغيبًا، وإشعارٌ بأنّ تنزيله ناشئٌ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١].

وقيل: النصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعله المُضمَر، أي: نُزِّلَ تنزيلَ العزيز الرحيم، على أنّه استئناف مَسوق لبيان ما ذُكر مِن فخامة شأن القرآن.

وعلى كلّ تقدير ففيه فضل تأكيدٍ لمَضمون الجملة القَسَميّة.

﴿لِتُنذِرَ﴾[١] متعلّق بـ﴿تَنزِيلَ﴾ على الوجوه الأُوَل، وبعامِله المضمَر على الوجه الأخير، أي: لِتنذر به، كما في صدر الأعراف.[٢]

وقيل: هو متعلّق بما يدلّ عليه ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾،[٣] أي: إنّك مرسَل لتنذر ﴿قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ / أي: لم يُنذَر آباؤهم الأقربون لِتطاوُل مدّة الفترة، على أنّ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، فيكون صفةً مبيِّنةً لغاية احتياجهم[٤] إلى الإنذار، أو الذي أُنْذِرَهُ، أو شيئًا أُنذِرَهُ آباؤُهم الأبعدون، على أنّها موصولة أو موصوفة، فيكون مفعولًا ثانيًا لـ﴿تُنذِرَ﴾، أو إنذارَ آبائهم الأقدمين، على أنّها مصدريّة، فيكون نعتًا لمصدر مؤكِّد، أي: لتنذر إنذارًا كائنًا مثل إنذارهم. [٣٨٨ظ]

﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على الوجه الأوّل متعلّق بنفي الإنذار، مترتّب عليه، والضمير للفريقين، أي: لم يُنذَر آباؤهم فهم جميعًا لأجله غافلون، وعلى الوجوه الباقية متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾، أو بما يفيده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾،[٥] واردٌ لتعليل إنذاره عليه السلام أو إرسالِه بغفلتهم المُحوِجة إليهما، على أنّ الضمير للقوم خاصّةً، فالمعنى: فهم غافلون عنه، أي: عمّا أُنذِر آباؤُهم الأقدمون لامتداد المدّة.

﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧﴾

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ جواب القسم، أي:

---

١ س + قومًا.
٢ الأعراف، ٢/٧.
٣ يس، ٣/٣٦.
٤ س: اختياجهم.
٥ يس، ٣/٣٦.

واللهِ لقد ثبتَ وتحقّق عليهم البتّة، لكن لا بطريق الجَبر مِن غير أن يكون مِن قِبَلهم ما يقتضيه؛ بل بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر والإنكار، وعدمِ تأثّرهم مِن التذكير والإنذار، وغلوِّهم في العتوّ والطغيان، وتماديهم في اتّباع خطوات الشيطان بحيث لا يَلويهم صارِف، ولا يَثنيهم عاطف.

كيف لا والمراد بما حقّ مِن القول قولُه تعالى لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٢/٣٨]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ[١] جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود، ١١٩/١١] كما يلوّح به تقديم "الجِنّة" على "الناس"، فإنّه كما ترى قد أُوقِع فيه.الحكمُ بإدخال جهنّم على مَن تَبع إبليس، وذلك تعليل له بتبعيّته قطعًا. وثبوتُ القول على هؤلاء الذين عُبّر عنهم بـ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾ إنّما هو لكونهم مِن جملة أولئك المُصرِّين على تبعيّة إبليس أبدًا.

وإذ قد تبيّن أنّ / مناط ثبوت القول وتحقّقِه عليهم إصرارُهم على الكفر [٣٨٩و] إلى الموت ظهَرَ أنّ قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ متفرّع في الحقيقة على ذلك، لا على ثبوت القول.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، وعدمِ ارعِوائهم عنه، بتمثيل حالهم بحال الذين غُلّت أعناقهم، ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي: فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدَعهم يلتفتون إلى الحقّ، ولا يَعطفون أعناقَهم نحوه، ولا يُطَأطِئون رءوسهم له، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رءوسهم غاضّون أبصارهم بحيث لا يكادون يرَون الحقّ، أو ينظرون إلى جهته.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إمّا تتمّة للتمثيل وتكميلٌ له أيُّ تكميل، أي: وجعلنا مع ما ذُكر مِن أمامهم سدًّا عظيمًا،

---

[١] وفي هامش م: مقول "قوله تعالى".

ومِن ورائهم سدًّا كذلك، فغطّينا بهما أبصارَهم، فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلًا.

وإمّا تمثيلٌ مستقِلّ، فإنّ ما ذُكر مِن جعلهم محصورين بين سدَّين هائلين قد غطّيا أبصارَهم بحيث لا يبصرون شيئًا قطعًا كافٍ في الكشف عن كمال فَظاعة حالهم، وكونِهم محبوسين في مَطمورة الغيّ والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلّة والآيات.

وقُرئ: "سُدًّا" بالضمّ،[١] وهي لغة فيه. وقيل: ما كان مِن عمل الناس فهو بالفتح، وما كان مِن خلق الله فبالضمّ. وقُرئ: "فَأَعْشَيْنَاهُمْ"[٢] مِن "العَشا".[٣]

وقيل: الآيتان في بني مخزوم، وذلك أنّ أبا جهل حلَفَ: «لئن رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي لَيَرضخَنّ رأسه»، فأتاه وهو عليه السلام يصلّي ومعه حجَر لِيَدمغه، فلمّا رفع يده انْثَنَتْ إلى عنقه، ولَزِق الحجَر بيده حتّى فَكُّوه

[٣٨٩ظ] عنها بجُهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك، فقال / مخزومي آخَر: «أنا أقتله بهذا الحجَر»، فذهَب فأعمى الله تعالى بصره.[٤]

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بيان لشأنهم بطريق التصريح إثرَ بيانه بطريق التمثيل، أي: مستوٍ عندهم إنذارُك إيّاهم وعدمُه، حسبما مرّ تحقيقه في سورة البقرة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استئناف مؤكِّد لِما قبله مبيِّن لِما فيه مِن إجمال ما فيه الاستواء، أو حالٌ مؤكِّدة له، أو بدل منه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣١٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩٨

٣ "العَشا" مقصورٌ: مصدر "الأعشى"؛ وهو الذي لا يُبصر بالليل، ويُبصر بالنهار. **الصحاح** للجوهري، «عشا».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦/١٧٠. وانظر: **دلائل النبوّة** لأبي نعيم، ص ٢٠٥.

٥ البقرة، ٢/٦.

ولمّا بيّن كون الإنذار عندهم كعَدمه عُقِّب ببيان مَن يتأثّر منه، فقيل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنذارًا مستتبعًا للأثر ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآنَ بالتأمّل فيه، أو الوعظَ، ولم يُصِرّ على اتّباع خطوات الشيطان، ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: خاف عقابه وهو غائب عنه، على أنّه حال مِن الفاعل أو المفعول، أو خافه في سريرته، ولم يغترّ برحمته، فإنّه منتقم قهّار، كما أنّه رحيم غفّار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر، ١٥/٤٩-٥٠].

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لا يُقادَر قدرُه. و"الفاء" لترتيب البِشارة أو الأمرِ بها على ما قبلها مِن اتّباع الذِّكر والخَشية.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بيان لشأنٍ عظيم ينطوي على الإنذار والتبشير انطواءً إجماليًا، أي: نبعثهم بعد مَماتهم. وعن الحسن: «إحياؤهم: إخراجُهم مِن الشرك إلى الإيمان»،[1] فهو حينئذ عِدَة كريمة بتحقيق المبشَّر به.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي: ما أسلفوا مِن الأعمال الصالحة وغيرِها، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ التي أبقَوها مِن الحسنات، كعِلمٍ عَلّموه، أو كتابٍ ألّفوه، أو حبيسٍ وَقَفوه، أو بناءٍ بنَوه مِن المساجد والرِّباطات والقناطر، وغيرِ ذلك مِن وجوه البِرّ، ومِن السيّئات، كتأسيس قوانين الظلم / والعدوان، وترتيبِ مبادي الشرّ والفساد فيما بين العباد، وغيرِ ذلك مِن فنون الشرور التي أحدَثوها وسنُّوها لمَن بعدهم مِن المفسدين. [٣٩٠و]

وقيل: هي آثار إلى المَشّائين إلى المساجد، ولعلّ المراد أنّها مِن جملة الآثار.

وقُرئ: "وَيُكْتَبُ" على البناء للمفعول ورفعِ ﴿ءَاثَٰرُهُمْ﴾.[2]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤/٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مَسروق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء كائنًا ما كان ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أصلٍ عظيمِ الشأن، مُظهرٍ لجميع الأشياء ممّا كان وما سيكون، وهو اللوح المحفوظ. وقُرئ: "كُلُّ شَيْءٍ" بالرفع.[1]

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ضربُ المَثَل يُستعمل تارةً في تطبيق حالة غريبة بحالةٍ أخرى مثلِها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم، ١٠/٦٦]، وأخرى في ذكر حالةٍ غريبة وبيانِها للناس مِن غير قصدٍ إلى تطبيقها بنظيرةٍ لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم، ٤٥/١٤] على أحد الوجهين، أي: بيّنا لكم أحوالًا بديعةً هي في الغرابة كالأمثال.

فالمعنى على **الأوّل**: اجعل أصحاب القرية مَثلًا لهؤلاء في الغلوّ في الكفر، والإصرارِ على تكذيب الرسل، أي: طَبِّق حالَهم بحالهم، على أنّ ﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ٱضْرِبْ﴾، و﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعوله الأوّل، أُخِّر عنه ليتّصل به ما هو شرحه وبيانه.

وعلى **الثاني**: اذكُر وبيِّن لهم قصّةً هي في الغرابة كالمَثَل، وقولُه: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بدل منه بتقدير المضاف، أو بيان له. و﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ أنطاكيّة.

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، وهم رسلُ عيسى عليه السلام إلى أهلها. ونسبة إرسالهم إليه تعالى في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بناءً على أنّه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية. وهما يحيى وبولس، وقيل: غيرهما.

[٣٩٠ظ] ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فأتياهم فدعَواهم إلى الحقّ / فكذّبوهما في الرسالة، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: قوّينا، يقال: "عَزَّز المطرُ الأرضَ" إذا لبّدها. وقُرئ بالتخفيف[2]

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٨.

[2] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

مِن "عَزّه" إذا غلَبه وقهَره. وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه، ولأنّ المقصد ذِكر المعزَّز به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شمعون، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: جميعًا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مؤكِّدين كلامهم لسبق الإنكار، لِما أنّ تكذيبهما تكذيبٌ للثالث، لاتّحاد كلمتهم.

وذلك أنّهم كانوا عبَدة أصنام، فأرسَل إليهم[١] عيسى عليه السلام اثنين، فلمّا قرُبا مِن المدينة رأَيا شيخًا يرعى غُنَيمات له، وهو حبيب النجّار صاحب ياسين، فسألهما، فأخبراه، قال: «أمَعكما آية؟»، فقالا: «نشفي المريضَ، ونُبرئ الأكمه والأبرص»، وكان له ولد مريض منذ سنتين، فمَسحاه، فقام فآمن حبيب، وفشا الخبر، وشُفِي على أيديهما خَلق، وبلغ حديثهما إلى الملِك، وقال لهما: «ألَنا إله سوى آلهتنا؟»، قالا: «نعم، مَن أوجدَك وآلِهتَك»، فقال: «حتّى أنظر في أمركما»، فتبعهما الناس، وقيل: ضربوهما، وقيل: حُبِسا. ثمّ بَعث عيسى عليه السلام شمعون، فدخل متنكِّرًا، وعاشَرَ حاشيةَ الملِك حتّى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملِك، فأنِس به، فقال له يومًا: «بلغني أنّك حبست رجلين، فهل سمعت ما يقولانه؟» قال: «لا، حالَ الغضبُ بيني وبين ذلك»، فدعاهما، فقال شمعون: «مَن أرسلَكما؟»، قالا: «الله الذي خلق كلّ شيء، وليس له شريك»، فقال: «صِفَاه وأوجِزَا»، قالا: «يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»، قال: «وما آيتكما؟» قالا: «ما يتمنّى الملِك»، فدعا بغلام مطموس العينين، فَدَعَوَا الله تعالى حتّى انشقّ له بصر، فأخذا بندقتَين فوضعاهما في حدَقتيه، فصارتا مُقلتَين ينظر بهما، فقال له شمعون: «أرأيت لو سألتَ إلهك حتّى يصنع مثلَ هذا، فيكونَ لك وله الشرَف»، قال: «ليس لي عنك سرّ، / إنّ إلهنا لا يُبصر ولا يَسمع، ولا يضرّ [٣٩١و]
ولا ينفع». وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلّي ويتضرّع، ويحسبون أنّه منهم، ثمّ قال: «إن قدَر إلهُكما على إحياء ميّت آمنّا به»، فدعَوا بغلام مات مِن سبعة أيّام، فقام وقال: «إنّي أُدخِلتُ في سبعة أودية مِن النار، وأنا أحذِّركم ما أنتم فيه، فآمِنوا»، وقال: «فتحتُ أبوابَ السماء، فرأيت شابًّا حسَنَ الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة»، قال الملِك: «مَن هُم؟» قال: «شَمعون وهذان»، فتعجّب الملِك،

---

١ س: عليهم.

فلمّا رأى شمعون أنّ قوله قد أثّرَ فيه نصحه، فآمَن وآمَن قومٌ، ومَن لم يؤمن صاح عليهم جبريلُ عليه السلام فهلكوا.[١]

هكذا قالوا، ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم، حيث اقتُصِرَ فيه على حكاية تماديهم في العناد واللَّجاج، وركوبهم متنَ المكابرة في الحِجاج، ولم يُذكَر فيه مِمّن يؤمن أحدٌ سوىٰ حبيب، ولو أنّ الملِك وقومًا مِن حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم، قُبِلوا في ذلك أو قُتِلوا، كدأب النجّار الشهيد، ولكان لهم فيه ذِكرٌ ما بوجه مِن الوجوه، اللّٰهمّ إلّا أن يكون إيمانُ الملِك بطريق الخُفية على خوفٍ مِن عُتاة مَلَئه، فيعتزلَ عنهم معتذِرًا بعذرٍ مِن الأعذار.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: أهل أنطاكيّة الذين لم يؤمنوا مخاطِبين للثلاثة: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ مِن غير مزيّة لكم علينا موجِبةٍ لاختصاصكم بما تدّعونه. ورفع ﴿بَشَرٞ﴾ لانتقاض النفي المقتضي لإعمال ﴿مَا﴾ بـ﴿إِلَّا﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ ممّا تدّعونه مِن الوحي والرسالة، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ استشهَدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مَجرى القسَم، مع ما فيه مِن تحذيرهم معارضةَ علم الله تعالى. وزادوا "اللام" المؤكِّدة لِما شاهدوا منهم مِن شدّة الإنكار.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ﴾ أي: مِن جهة ربّنا ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إلّا تبليغُ رسالته تبليغًا ظاهِرًا بيّنًا[٢] بالآيات الشاهدة بالصحّة، وقد خرجنا عن عهدته، فلا مؤاخذةَ لنا بعد ذلك مِن جهة ربّنا، أو ما علينا شيء نطالَبُ به مِن جهتكم إلّا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور، وقد فعلناه، فأيُّ شيء تطلبون منّا حتّى تصدّقونا بذلك؟

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٨.

[٢] س: بيًّا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمّا ضاقت عليهم الحِيَل وعيّت بهم العِلل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ تشاءَمنا بكم، / جَريًا على دَيدَن الجهلة، حيث كانوا يَتيَمَّنون بكلّ ما يوافق [٣٩١ظ] شهواتهم، وإن كان مستجلِبًا لكلّ شرٍ ووَبال، ويتشاءَمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبِعًا لسعادة الدارَين، أو بناءً على أنّ الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه مِن إصابة ضرّ متعلّق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا، فكانوا ينفرون عنه. وقد رُوي أنّه حُبس عنهم القَطْر فقالوه.[١]

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أي: عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: سببُ شؤمكم ﴿مَّعَكُمۡ﴾ لا مِن قِبَلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقُبح أعمالكم. وقُرئ: "طَيْرُكُمْ".[٢]

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ أي: وُعِظتم بما فيه سعادتكم. وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: تطيّرتم وتوعّدتم بالرجم والتعذيب. وقُرئ بـ"ألف" بين همزتين،[٣] وبفتح "أَنْ"[٤] بمعنى: أتطيّرتم لِأَن ذُكّرتم، و"إِنْ ذُكِّرْتُمْ"،[٥] و"أَنْ ذُكِّرْتُمْ"[٦] بغير استفهام، و"أَيْنَ ذُكِرْتُمْ"[٧] بمعنى: طائركم معكم حيث جرى ذِكرُكم، وهو أبلغ.

---

[١] التفسير الوسيط للواحدي، ٥١١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٩/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[٣] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وقالون عن نافع وهشام عن ابن عامر بخلف عنه، وهم في "الهمزة" الثانية على أصولهم، فقرأ أبو عمرو وأبو جعفر وقالون بالتسهيل، وقرأ هشام بالتحقيق، وسيأتي فتح "الهمزة" الثانية لأبي جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١؛ ٣٥٣/٢.

[٤] قرأ بها أبو جعفر. وهو على أصله في تسهيل "الهمزة" الثانية، وإدخالِ "ألف" بين الهمزتين. وقرأ: "ذُكِرْتُمْ" بتخفيف "الكاف". انظر: النشر لابن الجزري، ٣٧٠/١؛ ٣٥٣/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حُبيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عمّا يقتضيه الشرطيّة مِن كون التذكير سببًا للشؤم، أو مصحِّحًا للتوعّد، أي: ليس الأمر كذلك؛ بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان، فلذلك أتاكم الشؤم، أو في الظلم والعدوان، ولذلك توعّدتم وتشاءَمتم بمَن يجب إكرامه والتبرّك به.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب النجّار، وكان ينحِت أصنامهم، وهو ممّن آمَن برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبينهما ستُّمائة سنةٍ، كما آمَن به تُبَّعٌ الأكبر، وورَقةُ بن[١] نوفل وغيرهما، ولم يُؤمن بنبيّ غيرِه عليه السلام أحدٌ قبل مَبعثه. وقيل: كان في غارٍ يَعبد الله تعالى، فلمّا بلغه خبر الرسل [٣٩٢و] عليهم السلام / أظهرَ دينه.

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية مَجيئه ساعيًا، كأنّه قيل: فماذا قال عند مَجيئه؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تَعرَّضَ لعنوان رسالتهم حثًّا لهم على اتّباعهم، كما أنّ خطابهم بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ تكرير للتأكيد وللتوسّل به إلى وصفهم بما يرغّبهم في اتّباعهم مِن التنزّه عن الغرض الدنيوي، والاهتداءِ إلى خير الدنيا والدين.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ تلطّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصَحة لنفسه، وإمحاضِ النصح، حيث أرَاهم أنّه اختار لهم ما يختار لنفسه.

---

١ س: ابن.

والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[١] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، ثمّ عاد إلى المَساق الأوّل فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إنكار ونفي لاتّخاذ الآلهة على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تَنفَعْني شيئًا مِن النفع، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ مِن ذلك الضرّ بالنصرة والمظاهَرة؛ استئناف سِيق لِتعليل النفي المذكور. وجعلُه صفةً لـ﴿ءَالِهَةً﴾ كما ذهَب إليه بعضهم ربّما يوهم أنّ هناك آلهةً ليست كذلك.

وقُرئ: "إن يَرِدْنِ" بفتح "الياء"،[٢] على معنى: إن يُورِدْني ضُرًّا، أي: يجعَلْني مَوردًا للضرّ.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إذا اتّخذتُ مِن دونه آلهةً ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنّ إشراك ما ليس مِن شأنه النفع ولا دَفعُ الضرّ بالخالق المقتدر الذي لا قادرَ غيرُه ولا خيرَ إلّا خيرُه ضلالٌ بيّن لا يخفى على أحد ممّن له تمييز في الجملة.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خطاب منه للرسل بطريق التلوين. قيل: لمّا نصح قومَه بما ذُكِر همّوا برَجمه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه، فقال ذلك. وإنّما أكّده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط. وأضاف الربَّ إلى ضميرهم رَومًا / لزيادة التقرير، وإظهارًا للاختصاص والاقتداء بهم، كأنّه قال: [٣٩٢ظ]
بربّكم الذي أرسلكم، أو الذي تدعوننا إلى الإيمان به، ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله عزّ وجلّ.[٣]

---

١ م – تعالى.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. الكشّاف للزمخشري، ١١/٤. وقال أبو حيّان: «وهذا –والله أعلم– رأى في كتب القراءات: "يردني بفتح الياء"، فتوهّم أنّها "ياء" المضارَعة، فجعل الفعلَ متعدّيًا بـ"الياء" المُعدّية كـ"الهمزة"، فلذلك أدخل عليه "همزة" التعدية، ونصبَ به اثنين. والذي في كتب القرّاء الشواذّ أنّها ياء الإضافة المحذوفة خَطًّا ونُطقًا لالتقاء الساكنين. قال في كتاب ابن خالَويه: "بفتح ياء الإضافة"». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦/٩. والقراءة بإثبات ياء الإضافة مفتوحة في الوصل، ساكنة في الوقف؛ قرأ بها أبو جعفر. وقرأ يعقوب بإثباتها ساكنة في الوقف دون الوصل. انظر: النشر لابن الجزري، ١٨٨/٢، ٣٥٦.

٣ س: تعالى.

وقيل: الخطاب للكفرة، شافَههم بذلك إظهارًا لِلتصلّب في الدين، وعدمِ المبالاة بالقتل. وإضافة الربّ إلى ضميرهم لتحقيق الحقّ على بطلان ما هم عليه مِن اتّخاذ الأصنام أربابًا. وقيل: للناس جميعًا.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞﴾

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لمّا قتلوه إكرامًا له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء. وقيل: لمّا همّوا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنّة، قاله الحسن.[١] وعن قتادة: «أدخله الله الجنّة، وهو فيها حيّ يُرزَق».[٢]

وقيل: معناه البشرى بدخول الجنّة، وأنّه مِن أهلها، وإنّما لم يُقَل: "له" لأنّ الغرض بيان المَقول، لا القولِ له، لظهوره، وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه.

والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حاله ومقالِه، كأنّه قيل: كيف كان لقاءُ ربّه بعد ذلك التصلّب في دينه، والتسخّي بروحه لوجهه تعالى؟ فقيل: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فإنّه جواب عن سؤال نشأ مِن حكاية حاله، كأنّه قيل: فماذا قال عند نَيله تلك الكرامةَ السنيّة؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾... إلخ.

وإنّما تمنّى عِلمَ قومِه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر، والدخولِ في الإيمان والطاعة جريًا على سَنن الأولياء في كَظم الغَيظ، والترحّمِ على الأعداء، أو ليعلموا أنّهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنّه كان على الحقّ، وأنّ عداوتهم لم تُكسبه إلّا سعادةً.

وقُرئ: "مِنَ المُكَرَّمِينَ".[٣] و﴿مَا﴾ موصولة، أو مصدريّة، و"الباء" صلة ﴿يَعْلَمُونَ﴾، أو استفهاميّة وردت على الأصل، / و"الباء" متعلّقة بـ﴿غَفَرَ﴾، أي: [٣٩٣و]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٦٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٧. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٢٦: وقال الحسن: «خَرقوا خَرقًا في حَلْقة فعلّقوه مِن سوق المدينة، وقبرُه في سور أنطاكيّة، فأوجب الله له الجنّة».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/١١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

بأيّ شيء غَفَر لي ربّي؟ يريد به تفخيمَ شأن المهاجَرة عن ملّتهم والمصابَرة على أذيّتهم.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ مِن بعد قتله أو رفعه ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم والانتقامِ منهم، كما فعلناه يومَ بدر والخندق؛ بل كفينا أمرهم بصيحة مَلَك. وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم، وإيماءٌ إلى تفخيم شأن الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾[1] وما صحّ في حكمتنا أن نُنْزِل لإهلاك قومه جندًا مِن السماء، لِما أنّا قدّرنا لكلّ شيء سببًا، حيث أهلكنا بعضَ مَن أهلكنا مِن الأمم بالحاصب، وبعضَهم بالصيحة، وبعضَهم بالخَسف، وبعضَهم بالإغراق، وجعلنا إنزال الجند مِن خصائصك في الانتصار مِن قومك.

وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة معطوفة على ﴿جُندٖ﴾، أي: وما كنّا منزلين على مَن قبلهم مِن حجارة وريحٍ وأمطارٍ شديدة وغيرِها.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾

﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي: ما كانت الأخْذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاحَ بها جبريل عليه السلام. وقُرئ: "إِلَّا صَيْحَةٌ" بالرفع[2] على أنّ "كان" تامّة. وقُرئ: "إلّا زَقْيَةً وَاحِدَةً"،[3] مِن "زَقَا الطائرُ" إذا صاح.

﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ ميّتون. شُبِّهوا بالنار الخامدة رمزًا إلى أنّ الحيّ كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب، والميّت كالرماد، كما قال لَبيد:

وما المرءُ إلّا كالشهابِ وضوئِه يَحورُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ[4]

---

[1] س + أي.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

[4] ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٥٦.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٠﴾

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ تعالَي، فهذه مِن الأحوال التي حقّها أن تحضري فيها، وهي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنّ المستهزئين بالناصحين الذين نِيطت بنصائحهم سعادةُ الدارين أحقّاءُ بأن يَتَحسّروا ويَتحسَّر عليهم المتحسِّرون، / أو قد تلهّف على حالهم الملائكة والمؤمنون مِن الثقلَين. [٣٩٣ظ]

وقد جُوّز أن يكون تحسُّرًا عليهم مِن جهة الله تعالى بطريق الاستعارة، لتعظيم ما جَنوه على أنفسهم، ويؤيّده قراءة: "يَا حَسْرَتَا"؛[١] لأنّ المعنى: يا حسرتِي. ونصبُها لطولها بما تعلّق بها مِن الجارّ. وقيل: بإضمار فعلها، والمنادى محذوف.

وقرئ: "يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ"[٢] بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول، و"يَا حَسْرَهْ عَلَى الْعِبَادِ"[٣] بإجراء الوصل مُجرى الوقف.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٣٢﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أَلَم يَعلموا؟ وهو معلَّق عن العمل في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ لأنّ "كَم" لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبريّةً؛ لأنّ أصلها الاستفهام، خلا أنّ معناه نافذ في الجملة، كما نفَذَ في قولك: "أَلَم ترَ إنّ زيدًا لَمنطلق؟"، وإن لم يعمل في لفظه.

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل مِن ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى، أي: أَلَم يروا كثرةَ إهلاكنا مَن قبلهم مِن المذكورين آنفًا ومِن غيرهم كونَهم غيرَ راجعين إليهم؟

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبيّ رضي الله عنهم ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ومسلم بن جندب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٩.

وقُرئ بالكسر[1] على الاستئناف. وقُرئ: "أَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا"،[2] والبدل حينئذ بدلُ اشتمال.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بيان لرجوع الكلّ إلى المَحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا. و﴿إِن﴾ نافية، وتنوين ﴿كُلٌّ﴾ عوض مِن المضاف إليه، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى "إلّا"، و﴿جَمِيعٌ﴾ "فعيل" بمعنى "مفعول"، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظرف له، أو لِما بعده. والمعنى: ما كلّهم إلّا مجموعون لَدينا مُحضرون للحساب والجزاء. وقيل: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ معذَّبون، فـ﴿كُلٌّ﴾ عبارة عن الكفرة.

وقُرئ: "لَمَا" بالتخفيف[3] على أنّ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، و"اللام" فارقة، و﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: إنّ كلّهم مجموعون... إلخ.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف، وقُرئ بالتشديد.[4] قوله تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾ خبر مقدّم للاهتمام به، وتنكيرُها للتفخيم، و﴿لَّهُمُ﴾ إمّا متعلّقة بها لأنّها بمعنى العلامة، أو بمُضمَر هو صفة لها، و﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفتها.

وقوله تعالى: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة كونها آية. وقيل: ﴿ءَايَةٌ﴾ مبتدأ، و﴿لَّهُمُ﴾ خبر، و﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ / مبتدأ موصوف، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبره، والجملة مفسِّرة [٣٩٤و] لآية. وقيل: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿ءَايَةٌ﴾. وقيل: الخبر لها هو ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفتها؛ لأنّ المراد بها الجنس، لا المعيّنة. والأوّل هو الأولى؛ لأنّ مَصبّ الفائدة هو كون الأرض آيةً لهم، لا كونُ الآية هي الأرض.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنسَ الحَبّ، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ تقديم الصلة للدلالة على أنّ الحَبّ مُعظَم ما يؤكل ويعاش به.

---

[1] أي: "إِنَّهُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. جامع البيان للطبري، ٤٣٠/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤/٤.

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف وابن وَردان عن أبي جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩١/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: مِن أنواع النخل والعنب، ولذلك جُمِعا دون الحَبّ، فإنّ الدالّ على الجنس مُشعِر بالاختلاف، ولا كذلك الدالّ على الأنواع. وذِكر "النخيل" دون التمور ليطابق "الحَبّ" و"الأعناب"، لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثارِ الصنع.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقُرئ بالتخفيف،[١] و"الفَجْر" و"التَّفجير" كـ"الفتح" و"التفتيح" لفظًا ومعنًى. ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: بعضًا مِن العيون. فحُذف الموصوف، وأقيمت الصفة مُقامه، أو العيونَ، و﴿مِن﴾ مزيدة على رأي الأخفش.[٢]

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾،[٣] وتأخيره عن "تفجير العيون" لأنّه مِن مبادي الإثمار، أي: وجعلنا فيها جنّات مِن نخيل، ورتّبنا مبادي إثمارها، ليأكلوا مِن ثمر ما ذُكر مِن الجنّات والنخيل، بإجراء الضمير مُجرى اسم الإشارة. وقيل: الضمير لله تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة، والإضافةُ لأنّ الثمر بخلقه تعالى. وقُرئ بضمّتَين،[٤] وهي لغة فيه، أو جمع "ثِمار"، وبضمّة وسكون.[٥]

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، وهو ما يُتّخذ منه مِن العصير والدبس ونحوهما. وقيل: ﴿مَا﴾ نافية. والمعنى: أنّ الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم. ومحلّ الجملة النصب على الحاليّة، ويؤكّد الأوّلَ قراءةُ: "عَمِلَتْ" بلا "هاء"،[٦] فإنّ حذف العائد مِن الصلة أحسن مِن الحذف مِن غيرها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦٧/٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

٥ أي: "ثُمْرِهِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك. النشر لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيَرَون هذه النِّعم؟ أو أيتنعّمون بها فلا يشكرونها؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

/ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ استئناف مَسوق لتنزيهه تعالى عمّا فعلوه مِن ترك شُكره على آلائه المذكورة، واستعظامِ ما ذُكر في حيّز الصلة مِن بدائع آثار قدرته، وأسرارِ حكمته، وروائعِ نَعمائه المُوجِبة للشكر، وتخصيصِ العبادة به، والتعجيبِ مِن إخلالهم بذلك والحالةُ هذه. [٣٩٤ظ]

و﴿سُبْحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقادًا وقولًا، أي: اعتقادُ البُعدِ عنه والحكمُ به، مِن "سَبَحَ في الأرض والماء" إذا أبعَدَ فيهما وأمعَنَ، ومنه "فرَسٌ سَبوح"، أي: واسع الجَري. وانتصابه على المصدريّة، ولا يكاد يُذكَر ناصبه، أي: أُسبّح سبحانه، أي: أُنزِّهه عمّا لا يليق به عَقدًا وعملًا، تنزيهًا خاصًّا به، حقيقًا بشأنه.

وفيه مبالغة مِن جهة الاشتقاق مِن "السَبْحِ"، ومِن جهة النقل إلى "التفعيل"، ومِن جهة العدول عن المصدر الدالّ على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصّةً، لا سيّما العَلَمُ المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن، ومِن جهة إقامته مُقام المصدر مع الفعل.

وقيل: هو مصدر كـ"غُفران"، أريدَ به التنزّه التامّ، والتباعد الكلّي عن السوء، ففيه مبالغة مِن جهة إسناد التنزّه إلى الذات المقدّسة، فالمعنى: تنزَّهَ بذاته عن كلّ ما لا يليق به تنزّهًا خاصًّا به. فالجملة على هذا إخبارٌ مِن الله تعالى بتنزّهه وبراءته عن كلّ ما لا يليق به ممّا فعلوه وما تركوه، وعلى الأوّل حكمٌ منه عزّ وجلّ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه، ولا يُخِلّوا به، ولا يَغفُلوا عنه.

والمراد بـ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف والأنواع. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ بيان لها، والمراد به: كلّ ما يَنبت فيها مِن الأشياء المذكورة وغيرها. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خَلَق الأزواج مِن أنفسهم، أي: الذكَرِ والأنثى.

[٣٩٥و] / ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: والأزواجَ ممّا لم يُطْلِعهم الله تعالى على خصوصيّاته، لعدم قدرتهم على الإحاطة بها، ولِما لم يتعلّق بذلك شيء مِن مصالحهم الدينيّة والدنيويّة. وإنّما أَطْلَعهم على ذلك بطريق الإجمال على منهاج قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ١٦/٨]، لِما نِيط به وقوفهم على عِظم قدرته تعالى، وسَعة مُلكه وسُلطانه.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ جملة مِن خبر مقدّم، ومبتدأ مؤخّر، كما مرّ. وقوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ جملة مبيّنة لكيفيّة كونه آيةً، أي: نُزيلُه ونكشف عن مكانه، مستعار مِن "السَّلْخ"؛ وهو إزالة ما بين الحيوان وجلدِه مِن الاتّصال. والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: "سَلَختُ الإهاب مِن الشاة"، وقد يُعكس، ومنه "الشاة المَسلوخة".

﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام مفاجأةً. وفيه رمز إلى أنّ الأصل هو الظلام، والنور عارض.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليه دورها، فشُبّه بمستقَرّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لِكَبِدِ السماء، فإنّ حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يُظَنّ أنّ لها هناك وقفةً، قال:

والشمسُ حَيرى لها في الجوّ تَدويمُ[١]

أو لا استقرارَ لها على نهجٍ مخصوص، أو لمُنتهًى مقدَّر لكلّ يوم مِن المَشارق والمَغارب، فإنّ لها في دورها ثلاثمائة وستّين مَشرقًا ومَغربًا،

---

[١] صدره:

مُعرَوريًا رَمَضَ الرَّضراضِ يركُضُه

وهو لذي الرمّة. وقوله: "معروريًا": أي: ليس دونه شيءٌ يستره. و"رمض الرضراض" أي: ركبه وعلاه، و"الرضراض": الحصى الصغار. و"الشمس حيرى"، أي: متحيّرة، كأنها لا تبرح مِن طول النهار وشدة الحرّ. وقوله: "تدويمُ"، أي: تدويرٌ. يقول: كأنّها لا تمضي وهي تدور على رأسه ولا تبرح. ديوان ذي الرمّة بشرح الباهلي، ٤١٨/١.

تطلع كلّ يومٍ مِن مَطلَع، وتَغرب مِن مَغرب، ثمّ لا تعود إليهما إلى العام القابل، أو لِمُنقَطَع جَريها عند خراب العالَم.

وقُرئ: "إِلَى مُسْتَقَرٍّ لَهَا".[1] وقُرئ: "لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا"،[2] أي: لا سكونَ لها، فإنّها متحرّكة دائمًا. وقُرئ: "لَا مُسْتَقَرٌّ لَهَا"،[3] على أنّ "لا" بمعنى "ليس".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جَريها. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العَهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته، وبُعد منزلته، أي: ذلك الجري البديع المُنطوي / على [٣٩٥ظ] الحِكَم الرائعة التي تَحار في فهمها العقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلّ مقدور، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيطِ علمُه بكلّ معلوم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ بالنصب بإضمار فعل يفسِّره الظاهر. وقُرئ بالرفع[4] على الابتداء، أي: قدّرنا له ﴿مَنَازِلَ﴾. وقيل: قدّرنا مَسيره منازل. وقيل: قدّرناه ذا منازلَ.

وهي ثمانية وعشرون: الشَّرَطان، البُطَين، الثُّريّا، الدَّبَران، الهَقْعة، الهَنْعة، الذراع، النَّثْرة، الطَّرْف، الجَبْهة، الزُّبْرة، الصَّرْفة، العَوّاء، السِّماك، الغَفْر، الزُّباني، الإكليل، القَلْب، الشَّولة،[5] النَّعائم، البَلدة، سَعْد الذابح، سَعْد بُلَع، سَعْد السعود، سَعْد الأخْبية، فَرْغ الدَّلو المقدَّم، فَرْغ الدَّلْو المؤخَّر، الرِّشاء، وهو بطن الحوت.[6]

ينزل كلّ ليلة في واحد منها، لا يتخطّاها، ولا يتقاصر عنها، فإذا كان في آخر منازله وهو الذي يكون قُبيل الاجتماع دقّ واستقوَس، ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ كالشِّمراخ[7] المِعوجّ، "فُعْلُون" مِن "الانعراج"، وهو الاعوِجاج.

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ١٦/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم ومحمّد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦٧/٩.

[4] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ورَوح. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٣/٢.

[5] ط س: الشوكة.

[6] انظر: **الأزمنة والأمكنة** للمرزوقي، ص ١٣٨.

[7] الشِّمْراخُ، بالكسر: العِثْكال عليه بُسْر أو عِنَب. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «شمرخ».

وقُرِئَ: "كَالْعِرْجَوْنِ"،[١] وهما لغتان، كـ"البُزْيُونِ" و"البِزْيَوْنِ".[٢] ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق. وقيل: هو ما مرّ عليه حول فصاعدًا.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَا﴾ أي: يصحّ ويتسهّل لها ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإنّ ذلك يُخلّ بتكوّن النبات وتعيُّش الحيوان، أو في الآثار والمنافع، أو في المكان بأن تَنزل في منزله، أو في سلطانه فتطمِسَ نوره. وإيلاء حرفِ النفي الشمسَ للدلالة على أنّها مُسخّرة، لا يَتسنّى لها إلّا ما قُدِّر لها.

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يسبقه فيفوته، ولكن يعاقبه. وقيل: المراد بهما آيتاهما النيّران، وبالسبق سبقُ القمر إلى سلطان الشمس، فيكون عكسًا للأوّل. وإيراد السبق مكانَ الإدراك لأنّه الملائِم لسرعة سيره.

[٣٩٦و] ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلُّهم، على أنّ التنوين عوض مِن المضاف إليه الذي / هو الضمير العائد إلى ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ و﴿ٱلْقَمَرَ﴾، والجمعُ باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مَطالعهما، فإنّ اختلاف الأحوال يوجب تعدّدًا ما في الذات، أو إلى الكواكب، فإنّ ذكرهما مُشعِر بها. ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون بانبساطٍ وسُهولة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادَهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصحبونهم، فإنّ الذرّيّة تطلق عليهنّ، لا سيّما مع الاختلاط، وتخصيصُهم بالذِّكر لِما أنّ استقرارهم في السفن أشقّ، واستمساكَهم فيها أبدَع.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوءِ. وقيل: هو فُلْك نوح عليه السلام، و"حملُ ذرّيّاتهم" فيها حَملُ آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذرّيّاتُهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان التيمي وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٠.

[٢] وفي هامش م: هو السندس. «منه».

وتخصيص أعقابهم بالذِّكر دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان، وأدخلُ في التعجيب الذي عليه يدور كونه آيةً.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ممّا يماثل الفُلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ مِن الإبل، فإنّها سفائن البَرّ، أو ممّا يماثل ذلك الفُلك مِن السُّفُن والزوارق. وجَعلُها مخلوقةً لله تعالى مع كونها مِن مصنوعات العباد ليس لِمجرّد كون صُنعهم بأقدار الله تعالى وإلهامِه؛ بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحِكمته، حسبما يُعرِب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود، ٣٧/١١].

والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنّها باختيارهم، كما أنّ التعبير عن ملابسة ذرّيّتهم بفُلْك نوح عليه السلام بالحَمل لكونها بغير شعورٍ منهم واختيار.[١]

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣﴾

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾... إلخ مِن تمام الآية، فإنّهم معترفون بمضمونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١]. وقُرئ: "نُغَرِّقْهُمْ" بالتشديد.[٢] وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنّه قد تكامل ما يوجب إهلاكَهم مِن معاصيهم، ولم يبقَ إلّا تعلّقُ مشيئته تعالى به، أي: إن نشأ نُغرِقْهم في اليمّ مع ما حملناهم فيه مِن الفُلْك، فحديثُ خلق الإبل حينئذ كلام جيء به في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفُلْك، فكأنّها نوع منه، أو مع ما يركبون مِن السفُن والزوارِق.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيثَ لهم يحرُسهم مِن الغرَق، ويدفعه عنهم قبل وقوعه. وقيل: فلا استغاثةَ لهم، مِن قولهم: "أتاهم الصَّريخ".

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: يُنجَون منه بعد وقوعه.

---

١ وفي هامش م: وأمّا على تقدير كون المراد بـ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ الجنس، وبـ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبلَ؛ فوجه التعبير عن مُلابستهم بالأوّل بالحمل، وعن ملابستهم بالثاني بالركوب كما مرّ، فإنّ الركوب عبارة عن الاستعلاء على شيء متحرّك، ولا ريب في أنّ حركة الإبل إراديّة، وحركة الفلك قسريّة. «منه».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العلل الشاملة للباعث المتقدّم والغايةِ المتأخّرة، أي: لا يُغاثون ولا يُنقَذون لشيء مِن الأشياء إلّا لِرحمة عظيمة مِن قِبَلنا داعيةٍ إلى الإغاثة والإنقاذ، وتمتيعٍ بالحياة مترتّب عليهما. ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارِن التمتيع مِن الرحمة الدنيويّة، فيكون كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ، أي: لنوعٍ مِن الرحمة وتمتيعٍ ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى زمانٍ قُدِّر فيه آجالهم، كما قيل:

ولـم أسـلَـم لـكـي أبـقـى ولـكـن سلِمتُ من الحِمام إلى الحِمامِ[1]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾

[٣٩٦ظ] / ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيليّة بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقيّة التي كانوا يشاهدونها، وعدمِ تأمّلهم فيها، أي: إذا قيل لهم بطريق الإنذار بما نَزَل مِن الآيات أو بغيره: اتّقوا ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ مِن الآفات والنوازل، فإنّها محيطة بكم، أو ما يصيبكم مِن المكاره مِن حيث تحتسبون، ومن حيث لا تحتسبون، أو مِن الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذابِ المُعَدِّ لكم في الآخرة، أو مِن نوازل السماء ونوائب الأرض، أو مِن عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، أو ما تقدّم مِن الذنوب وما تأخّر.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ إمّا حال مِن "واو" ﴿ٱتَّقُواْ﴾، أو غاية له، أي: راجين أن تُرحموا، أو كي تُرحموا فتَنجوا مِن ذلك، لِما عرفتم أنّ مناط النجاة ليس إلّا رحمةَ الله تعالى.

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف ثقةً بانفهامه مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ انفهامًا بيّنًا. أمّا إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النصّ، وأمّا إذا كان بغيرها فبدلالته؛ لأنّهم حين أعرضوا عن آيات ربّهم

---

[1] لأبي الطيّب المتنبي في ديوانه، ص ٣٩٥.

فلأن يُعرِضوا عن غيرها بطريق الأولويّة، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم: اتّقوا العذاب أعرَضوا حسبما اعتادوه. و﴿ما﴾ نافية، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجدّدي و﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية تبعيضيّة واقعة مع مجرورها صفةً لـ﴿ءَايَةٍ﴾.

وإضافة الآيات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقّها. والمراد بها إمّا الآيات التنزيليّة، فإتيانها نزولُها، والمعنى: ما يُنزّل إليهم آية مِن الآيات القرآنيّة التي مِن جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصّل مِن بدائع صنع الله تعالى وسَوابغ آلائه الموجِبةِ للإقبال عليها / والإيمانِ بها إلّا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء. [٣٩٧و]

وإمّا ما يعمّها وغيرَها مِن الآيات التكوينيّة الشاملة للمعجزات وغيرِها مِن تعاجيب المصنوعات التي مِن جملتها الآيات الثلاث[١] المعدودةُ آنفًا، فالمراد بإتيانها ما يعمّ نزول الوحي، وظهورَ تلك الأمور لهم، والمعنى: ما يظهر لهم آيةٌ مِن الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن شئونه الشاهدة بوحدانيّته تعالى وتفرّده بالألوهيّة إلّا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدّي إلى الإيمان به تعالى.

وإيثاره على أن يقال: "إلّا أعرضوا عنها" كما وقع مثله في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر، ٢/٥٤]، للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات.

و﴿عَنْ﴾ متعلّقة بـ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدّمت عليه مراعاةً للفواصل. والجملة في حيّز النصب على أنّها حال مِن مفعول ﴿تَأْتِي﴾، أو مِن فاعله المتخصّص بالوصف، لاشتمالها على ضمير كلّ منهما.

والاستثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: ما تأتيهم مِن آية مِن آيات ربّهم في حال مِن أحوالهم إلّا حالَ إعراضهم عنها، أو ما تأتيهم آية منها في حال مِن أحوالها إلّا حالَ إعراضهم عنها.

---

١ وفي هامش م: وهنّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾... إلخ [يس، ٣٣/٣٦]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾... إلخ [يس، ٣٧/٣٦]، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾... إلخ [يس، ٤١/٣٦]. «منه».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أعطاكم بطريق التفضّل والإنعام مِن أنواع الأموال، عُبّر عنها بذلك تحقيقًا للحقّ وترغيبًا في الإنفاق، على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص، ٧٧/٢٨]، وتنبيهًا على عِظَم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر. وكذلك "مِن" التبعيضيّة، أي: إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعضَ ما أعطاكم الله تعالى مِن فضله على المحتاجين، فإنّ ذلك ممّا يردّ البلاء ويدفع المكاره، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع عزّ وجلّ
[٣٩٧ظ] وهم زنادقة كانوا بمكّة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ / تهكّمًا بهم وبما كانوا عليه مِن تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ حسبما تَعِظوننا به ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ أي: على زعمكم.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان بمكّة زنادقة إذا أُمِروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا واللهِ، أَيُفْقِره اللهُ ونُطعِمه نحن».[1]

وقيل: قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراءُ المؤمنين مِن أموالهم التي زعموا أنّهم جعلوها لله تعالى مِن الحَرث والأنعام، يوهمون أنّه تعالى لمّا لم يَشأْ إطعامهم وهو قادر عليه، فنحن أحقّ بذلك، وما هو إلّا لفَرْط جهالتهم، فإنّ الله تعالى يُطعِم عباده بأسباب مِن جملتها حثّ الأغنياء على إطعام الفقراء، وتوفيقُهم لذلك.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بما يُخالف مشيئة الله تعالى. وقد جُوّز أن يكون جوابًا لهم مِن جهته تعالى، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تَعِدُوننا به مِن قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، لِما أنّهم أيضًا كانوا يَتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها. ومعنى القُرب في ﴿هَٰذَا﴾ إمّا بطريق الاستهزاء، وإمّا باعتبار قُرب العهد بالوعد.

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٢/٩.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى، أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ مفاجأةً ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يَخطُر ببالهم شيء مِن مَخائلها، كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم[1] بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف، ٩٥/٧]، فلا يغترّوا بعدم ظهور علائمها، ولا يزعموا أنّها لا تأتيهم.

وأصل ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ "يَختَصِمون"، فسُكّنت "التاء"، وأُدغمت في "الصاد"، ثمّ كُسرت "الخاء" لالتقاء الساكنين. وقُرئ بكسر "الياء" للإتْباع،[2] وبفتح "الخاء"[3] على إلقاء حركة "التاء" عليه. وقُرئ / على الاختلاس،[4] وبالإسكان[5] على تجويز [٣٩٨و] الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغَمًا، وإن لم يكن الأوّل حرفَ مدّ. وقُرئ: "يَخْصِمُونَ"[6] مِن "خَصَمه" إذا جادله.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء مِن أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إذا كانوا في خارج أبوابهم؛ بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، بينها وبين الأولى أربعون سنةً، أي: يُنفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق وقوعها، ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، جمع "جَدَث". وقُرئ بـ"الفاء".[7]

---

[1] م ط س: فأخذَتهم الساعة. | وفي سورة يوسف: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف، ١٠٧/١٢].

[2] قرأ بها شعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع بخُلف عن قالون، وأبو عمرو وهشام بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[4] قرأ بها أبو عمرو وقالون، وهو الوجه الثاني عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[5] قرأ بها أبو جعفر، وهو الوجه الثالث عن قالون. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[6] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

[7] أي: "الأَجْدَافِ". قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٣/٩.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالكِ أمرهم على الإطلاق ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار، لقوله تعالى: ﴿لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.[١] وقُرئ بضمّ "السين".[٢]

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: في ابتداء بَعثهم مِن القبور: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ احضر فهذا أوانك. وقُرئ: "يَا وَيْلَتَنَا".[٣] ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ وقُرئ: "مَنْ أَهَبَّنَا"[٤] مِن "هَبَّ مِن نومه" إذا انتبه. وقُرئ: "مَنْ هَبَّنَا"[٥] بمعنى "أَهَبَّنا". وقيل: أصله "هَبَّ بنا"، فحُذف الجارّ، وأُوصِل الفعل إلى الضمير. قيل: فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنّهم لاختلاط عقولهم يظنّون أنّهم كانوا نِيَامًا.

وعن مجاهد: «أنّ للكفّار هجعةً يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك».[٦]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبيّ بن كعب وقتادة رحمهم الله: «أنّ الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختَين فيَرقدون، فإذا بُعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا مِن أهوال القيامة ما شاهدوا دعَوا بالويل، وقالوا ذلك».[٧]

وقيل: إذا عاينوا جهنّم وما فيها مِن ألوان العذاب يصير عذاب القبر في جنبها مثلَ النوم، فيقولون ذلك.

[٣٩٨ظ] وقُرئ: "مِنْ بَعْثِنَا"[٨] و"مِنْ هَبِّنَا"[٩] / بـ"مِن" الجَارّة والمصدر.

---

[١] يس، ٥٣/٣٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢١٤/٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢١٤/٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٦٣/٧.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٠/٨؛ اللباب لابن عادل، ٢٤١/١٦.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

[٩] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

و"المَرقَد" إمّا مصدر، أي: مِن رُقادنا، أو اسم مكان أريدَ به الجنس، فينتظِم مراقدَ الكلّ.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، و﴿مَا﴾ موصولة محذوفةُ العائد، أو مصدريّة. وهو جواب مِن قِبَل الملائكة أو المؤمنين، عُدِلَ به عن سَنن سؤالهم تذكيرًا لكفرهم، وتقريعًا لهم عليه، وتنبيهًا على أنّ الذي يهمّهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو، دون الباعث، كأنّهم قالوا: بعثكم الرحمن الذي وَعدكم ذلك في كتبه، وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه، وليس الأمر كما تتوهّمونه حتّى تَسألوا عن الباعث.

وقيل: هو مِن كلام الكافرين حيث يتذكّرون ما سمعوه مِن الرسل عليهم السلام، فيجيبون به أنفسَهم، أو بعضُهم بعضًا.

وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ صفة لـ﴿مَّرْقَدِنَا﴾، و﴿مَا وَعَدَ﴾... إلخ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: ما وعدَ الرحمن وصدقَ المرسلون حقٌّ.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي: ما كانت النفخة التي حُكيت آنفًا ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ حصلَت مِن نفخ إسرافيل عليه السلام في الصُّور، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: مجموعٌ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ مِن غير لَبثٍ ما طرفةَ عين. وفيه مِن تهوين أمر البعث والحشر والإيذانِ باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النفوس بَرّةً كانت أو فاجرةً ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الظلم، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار مِن الكفر والمعاصي، على حذف المضاف، وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، للتنبيه على قوّة التلازم والارتباط بينهما، كأنّهما شيء واحد، أو إلّا بما كنتم تعملونه، أي: بمقابلته، أو بسببه. وتعميم الخطاب للمؤمنين يردّه أنّه تعالى يوفّيهم أجورهم، ويزيدهم مِن فضله أضعافًا مضاعفةً. وهذه حكاية لِما سيُقال لهم حينَ يرون العذاب المُعَدَّ لهم تحقيقًا للحقّ وتقريعًا لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ مِن جملة ما سيُقال لهم يومئذ زيادةً لحسرتهم وندامتهم، فإنّ الإخبار بحسن حال أعدائهم إثرَ بيان سوء حالهم ممّا يزيدهم مَساءةً على مَساءة. وفي هذه الحكاية مَزجرة لهؤلاء الكفرة عمّا هم عليه، ومَدْعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين.

[٣٩٩و] / و"الشُغُل" هو الشأن الذي يصدّ المرء ويَشغله عمّا سواه مِن شئونه، لكونه أهمّ عنده مِن الكلّ، إمّا لإيجابه كمالَ المَسرّة والبهجة، أو كمالَ المَساءة والغمّ. والمراد ههنا هو الأوّل. وما فيه مِن التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان. والمراد به ما هم فيه مِن فنون الملاذّ التي تُلهيهم عمّا عداها بالكلّيّة.

وأمّا أنّ المراد به افتضاضُ الأبكار،[١] أو السماعُ وضرب الأوتار،[٢] أو التزاوُرُ،[٣] أو ضيافةُ الله تعالى،[٤] أو شُغلُهم عمّا فيه أهل النار على الإطلاق،[٥] أو شُغلُهم عن أهاليهم في النار لا يهمّهم أمرهم، ولا يبالون بهم، كيلا يَدخل عليهم تنغيص في نعيمهم،[٦] كما رُوي كلُّ واحد منها مِن واحدٍ مِن أكابر السلف؛ فليس مرادهم[٧] بذلك حَصر شُغلهم فيما ذكروه فقط؛ بل بيان أنّه مِن جملة أشغالهم. وتخصيصُ كلّ منهم كلًّا مِن تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إيّاه.[٨]

وهو مع جارّه خبر لِـ﴿إِنَّ﴾، و﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر آخَر لها، أي: إنّهم مستقِرّون في شُغل وأيِّ شُغل، في شُغل عظيم الشأن، متنعِّمون بنعيم مقيم، فائزون بمُلك كبير. والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسميّة قبل تحقّقها بتنزيل المترقّب

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **جامع البيان** للطبري، ١٩/٤٦٠؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١.

٢ مرويّ عن وكيع بن الجراح. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٤.

٣ مرويّ عن ابن كَيسان. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٤.

٤ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣١؛ **واللباب** لابن عادل، ١٦/٢٤٥.

٥ مرويّ عن الحسن. **جامع البيان** للطبري، ١٩/٤٦١؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٥١٦.

٦ مرويّ عن الكلبي. **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٢١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٧٥.

٧ السياق: وأمّا أنّ المراد... فليس مرادهم...

٨ س - إيّاه.

المتوقَّع منزلةَ الواقع للإيذان بغاية سرعة تحقّقها ووقوعها، ولزيادة مَساءة المخاطَبين بذلك.[١]

وقُرئ: "فِي شُغْلٍ" بسكون "الغين"،[٢] و"فِي شَغَلٍ" بفتحتين،[٣] وبفتحة وسكون،[٤] والكلّ لغات. وقُرئ: "فَكِهُونَ"[٥] للمبالغة، و"فَكُهُونَ" بضمّ "الكاف"،[٦] وهي لغة، كـ"نَطُس"،[٧] و"فَاكِهِينَ"،[٨] و"فَكِهِينَ"[٩] على الحال مِن المستكِنّ في الظرف.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة شُغلهم وتفكّههم وتكميلِهما / بما يزيدهم بهجةً وسرورًا مِن شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه مِن الشغل والفَكاهة، على أنّ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَزْوَاجُهُمْ﴾ عطفٌ عليه، و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر، والجارّان صِلتان له قُدّمتا عليه لمراعاة الفواصل، أو هو والجارّان بما تعلّقا به مِن الاستقرار أخبار مترتّبة. [٣٩٩ظ]

وقيل: الخبر هو الظرف الأوّل، والثاني مستأنَف على أنّه متعلّق بـ﴿مُتَّكِئُونَ﴾، وهو خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: على أنّه خبر مقدَّم، و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ مؤخَّر.

وقُرئ: "مُتَّكِينَ"[١٠] بلا همز نصبًا على الحال مِن المستكِنّ في الظرفين أو أحدِهما.

وقيل: ﴿هُمْ﴾ تأكيد للمستكنّ في خبرِ ﴿إِنَّ﴾،[١١] و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر آخَر لها، و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ متعلّق به، وكذا ﴿فِي ظِلَالٍ﴾، أو هذا بمُضمَر هو حال مِن المعطوفِين.

---

١ وفي هامش م: أي: بالتعبير المذكور. «منه».

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٤ أي: "فِي شَغْلٍ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٥.

٧ التَّنَطُّس: المبالغة في التطهُّر. يقال منه: رجلٌ نَطُسٌ ونَطِسٌ. وقد نَطِسَ -بالكسر- نَطَسًا. الصحاح للجوهري، «نطس».

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠١.

٩ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٥.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٢.

١١ في الآية السابقة.

و"الظِّلال" جمع "ظِلّ"، كـ"شِعاب" جمع "شِعْب"، أو جمعُ "ظُلّة"، كـ"قِباب" جمع "قُبّة"، ويؤيّده قراءة "في ظُلَلٍ".[١] و"الأرائِك" جمع "أَرِيكة"، وهي السرير المزيَّن بالثياب والستور. قال ثعلب: «لا يكون أَرِيكة حتّى يكون عليها حَجَلة».[٢]

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾... إلخ بيان لِما يتمتّعون به في الجنّة مِن المآكل والمَشارب ويتلذّذون به مِن الملاذّ الجسمانيّة والروحانيّة بعد بيان ما لهم فيها مِن مجالس الأُنس، ومحافل القُدس، تكميلًا لبيانِ كيفيّة ما هم فيه مِن الشُغل والبهجة، أي: لهم فيها فاكهة كثيرة مِن كلّ نوع مِن أنواع الفواكه.

و﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ موصولة، أو موصوفة، عُبّر بها عن مدعوٍّ عظيم الشأن معيّنٍ أو مبهمٍ، إيذانًا بأنّه الحقيق بالدعاء دون ما عداه، ثمّ صُرّح به رَومًا لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه، أو هي باقية على عمومها، قُصد بها التعميم بعد تخصيصٍ بعض الموادّ المعتادة بالذكر. وأيًّا ما كان فهو مبتدأ، و﴿لَهُم﴾ خبره، والجملة معطوفة على الجملة السابقة. وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ لئلّا يُتوهّم كونُ ﴿مَا﴾ عبارةً عن توابع الفاكهة وتتمّاتها. والمعنى: ولهم ما يدّعون به لأنفسهم مِن مدعوّ عظيم الشأن، أو كلّ ما يدّعون به كائنًا ما كان مِن أسباب البهجة وموجِبات السرور. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على أنّهم في أقصى غاية البهجة والغِبطة.

و﴿يَدَّعُونَ﴾ "يفتعلون" مِن "الدعاء" كما أشيرَ إليه، مثل: "اشتَوى" و"اجتَمل" إذا شوى وجَمَل[٣] لنفسه. وقيل: بمعنى "يتداعَون"، كـ"الارتِماء" بمعنى "الترامي".
[٤٠٠و] / وقيل: بمعنى يتمنَّون، مِن قولهم: "ادَّعِ عليَّ ما شئتَ"[٤] بمعنى "تَمَنَّهُ عليّ". وقال الزجّاج: «هو مِن "الدعاء"»،[٥] أي: ما يدعو به أهل الجنّة يأتيهم، فيكون "الافتِعال"

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.
[٢] معالم التنزيل للبغوي، ٢٢/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٤٦/١٦.
[٣] وفي هامش م: أذاب الشحم. «منه».
[٤] س – بمعنى: يتمنَّون، مِن قولهم: "ادَّعِ عليَّ ما شئتَ".
[٥] معاني القرآن للزجّاج، ٢٩٢/٤.

بمعنى "الفعل"، كـ"الاحتمال" بمعنى "الحمل"، و"الارتحال" بمعنى "الرحلة"، ويعضُده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشي.[١]

وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ على التقدير الأوّل[٢] بدل مِن ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾،[٣] أو خبر لمبتدأ محذوف. و﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعلٍ هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، وما بعده مِن الجارّ متعلّق بمُضمَر هو صفة له، كأنّه قيل: ولهم سلام،[٤] أو ما يدّعون سلام.[٥]

يُقال لهم قولًا كائنًا ﴿مِن﴾ جهة ﴿رَبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي: يُسَلِّمُ عليهم مِن جهته تعالى بواسطة الملَك، أو بدونها مبالغةً في تعظيمهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[٦] عنهما: «والملائكة يدخلون عليهم بالتحيّة مِن ربّ العالمين».[٧]

وأمّا على التقدير الثاني[٨] فقد قيل: إنّه خبر لـ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾،[٩] و﴿لَهُم﴾ لبيان الجهة، كما يقال: "لزيدٍ الشرفُ متوفّر"، على أنّ "الشرَف" مبتدأ، و"متوفّر" خبره، والجارّ والمجرور لبيان مَن له ذلك. أي: ما يدّعون سالم لهم خالص، لا شوبَ فيه.

و﴿قَوْلًا﴾ حينئذ مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة، أي: عِدَةً مِن ربّ رحيم. والأوجَه أن ينتصب على الاختصاص. وقيل: هو مبتدأ محذوف الخبر، أي: لهم سلام -أي: تسليم- قولًا مِن ربّ رحيم، أو سلامةٌ مِن الآفات، فيكون ﴿قَوْلًا﴾ مصدرًا مؤكِّدًا لمضمون الجملة كما سبق. وقيل: تقديره: سلام عليهم، فيكون حكايةً لِما سيُقال لهم مِن جهته تعالى يومئذ. وقيل: خبره الفعلُ المقدَّر ناصبًا لـ﴿قَوْلًا﴾. وقيل: خبره ﴿مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرَها الكواشي مِن غير نسبة. تفسير الكواشي، ٤٤٠ظ.

٢ وفي هامش م: أي: على تقدير كون ﴿مَا﴾ عبارة عن مدعوّ عظيم الشأن. «منه».

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش م: على تقدير كون ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدلًا. «منه».

٥ وفي هامش م: على تقدير كونه خبر مبتدأ محذوف. «منه».

٦ س - تعالى.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٦/٩.

٨ وفي هامش م: على تقدير كون ﴿مَا﴾ باقية على عمومها. «منه».

٩ في الآية السابقة.

[٤٠٠ظ] / وقُرئ: "سَلَامًا"[١] بالنصب على الحاليّة، أي: لهم مُرادهم سالمًا خالصًا. وقُرئ: "سِلْمٌ"،[٢] وهو بمعنى السلام في المعنيَين.

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ عطفٌ إمّا على الجملة السابقة المَسوقة لبيان أحوال الجنّة، لكن لا على أنّ المقصود عطفُ فعل الأمر بخصوصه حتّى يُتَمحَّل له مُشاكِل يصحّ عطفه عليه؛ بل على أنّه عطفُ قصّة سوء حال هؤلاء وكيفيّةِ عقابهم على قصّة حُسن حال أولئك ووصفِ ثوابهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢٥]، وكأنّ تغيير السَّبْك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحالَيهما.

وإمّا على مُضمَر[٣] ينساق إليه حكاية حال أهل الجنّة، كأنّه قيل إثرَ بيان كونهم في شُغُلٍ عظيم الشأن، وفوزِهم بنعيم مقيم يَقصر عنه البيان: فَلْيَقِرّوا بذلك عينًا، وامتازوا عنهم ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ إلى مصيركم. وعن قتادة: «اعتزلوا عن كلّ خير».[٤] وعن الضحّاك: «لكلّ كافر بيت مِن النار يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى».[٥]

وأمّا ما قيل[٦] مِن أنّ المُضمَر "فَلْيَمتازوا" فبمَعزِل مِن السَّداد، لِما أنّ المحكيّ عنهم ليس مصيرَهم إلى ما ذُكر مِن الحال المرضيّة حتّى يتسنّى ترتيبُ الأمر المذكور عليه؛ بل إنّما هو استقرارهم عليها بالفعل، وكونُ ذلك بطريق تنزيل المترقَّب منزلةَ الواقع لا يُجدي نفعًا؛ لأنّ مناط الإضمار انسياق الأفهام إليه، وانصبابُ نظم الكلام عليه، فبعد ما نُزّلت تلك الحال منزلةَ الواقع بالفعل لِما اقتضاه المقام مِن النكتة البارعة، والحكمة الرائعة، حسبما مرّ بيانه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه والثقفي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن كعب القرظي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٢.

٣ السياق: عطفٌ إمّا على الجملة السابقة... وإمّا على مُضمرٍ...

٤ **جامع البيان** للطبري، ١٩/٤٦٩؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣٣.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/١٣٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٢٣.

٦ انظر: **فتوح الغيب** للطيبي، ٢/٣٤٦.

وأُسقِط كونُها مترقِّبةً عن درجة الاعتبار بالكلّيّة؛ يكون التصدّي لإضمار شيء يتعلّق به إخراجًا للنظم الكريم عن الجَزالة بالمَرّة.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ مِن جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمرِ بدخول / جهنّم [٤٠١و] بقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾... إلخ.[1]

و"العهد" الوصيّة، والتقدّم بأمرٍ فيه خير ومنفعة. والمراد ههنا ما كلّفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام مِن الأوامر والنواهي التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٢٧/٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة، ١٦٨/٢]، وغيرُهما مِن الآيات الكريمة الواردة في هذا المعنى.

وقيل: هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أُخرِجوا مِن ظهور بني آدم، وأُشهِدوا على أنفسهم.

وقيل: هو ما نُصِب لهم مِن الحجج العقليّة والسمعيّة الآمِرة بعبادته تعالى، الزاجرة عن عبادة غيره.

والمراد بـ"عبادة الشيطان" طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويزيّنه لهم، عُبّر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها، ولوقوعها في مقابَلة عبادته عزّ وجلّ.

وقُرئ: "إِعْهَدْ" بكسر "الهمزة"،[2] و"أَعْهِدْ" بكسر "الهاء"،[3] و"أَحْهَدْ" بـ"الحاء" مكان "العين"،[4] و"أَحَّدْ" بالإدغام،[5] وهي لغة بني تميم.

---

[1] يس، ٦٤/٣٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وابن وثّاب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٧/٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٢.

[4] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٣/٤.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن وثّاب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر العداوة. وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهيّ عنه. وقيل: تعليل للنهي.

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ عطفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ﴾،[١] على أنّ ﴿أَن﴾ فيهما مفسِّرة للعهد الذي فيه معنى القول بالنهي والأمر، أو مصدريّة حُذف عنها الجارّ، أي: ألَم أَعْهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي؟

وتقديم النهي على الأمر لِما أنّ حقّ التخلية التقدّمُ على التحلية، كما في كلمة التوحيد، ولِيتّصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فإنّه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر، ٤١/١٥]، والمقصودُ بقوله تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف، ١٦/٧]. والتنكير للتفخيم.

﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣﴾

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف، والجملة استئناف مَسوق لتشديد التوبيخ وتأكيدِ التقريع ببيان أنّ جناياتهم ليست بنقض العهد فقط؛ بل به وبعدم الاتّعاظ بما شاهدوا مِن العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان، فالخطاب لمتأخّريهم الذين مِن جملتهم كفّار مكّة، خصّوا بزيادة التوبيخ والتقريع لِتَضاعف جناياتهم.

و"الجِبِلّ" -بكسر "الجيم" و"الباء" وتشديد "اللام"- الخَلقُ. وقُرئ بضمّتين وتشديد،[٢] وبضمّتين وتخفيف،[٣] وبضمّة وسكونٍ،[٤] / وبكسرتين وتخفيف،[٥] [٤٠١ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ أي: "جُبُلًّا". قرأ بها رَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٣ أي: "جُبُلًا". قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٤ أي: "جُبْلًا". قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٥ أي: "جِبِلًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

وبكسرة وسكون.[١] والكلّ لغات. وقُرِئ: "جِبِلًا"[٢] جمع "جِبْلَةٍ"، كـ"فِطَرٍ" و"خِلَق" في جمع "فِطْرة" و"خِلْقة". وقُرِئ: "جِيلًا" بـ"الياء"؛[٣] وهو الصنف مِن الناس.

أي: وباللهِ لقد أضلّ منكم خلقًا كثيرًا أو صنفًا كثيرًا عن ذلك الصراط المستقيم الذي أمرتُكم بالثبات عليه، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم مِن العقوبات الهائلة التي ملأ الآفاقَ أخبارها، وبقي مدى الدهر آثارُها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أكنتُم تشاهدون آثارَ عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون أنّها لِضلالهم؟ أو فلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلًا حتّى ترتدعوا عمّا كانوا عليه كَيلا يَحيق بكم العقاب؟

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ استئناف يُخاطَبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنّم، أي: كنتم تُوعَدونها على ألسنة الرسل عليهم السلام بمقابلة عبادة الشيطان، مثل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ٦٣/١٧]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ[٤] لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]، وغيرِ ذلك ممّا لا يُحصى.

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أمرُ تنكيل وإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ﴾... إلخ [الدخان، ٤٩/٤٤]، أي: ادخلوها مِن فوق، وقاسوا فنونَ عذابها اليومَ بكفركم المستمرّ في الدنيا.

---

١ أي: "جِبْلًا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

٤ س – منهم.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: خَتمًا يمنعها عن الكلام، التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يُعرَض عنهم، ويُحكَى أحوالهم الفظيعة لغَيرهم، مع ما فيه مِن الإيماء إلى أنّ ذلك مِن مقتضيات الخَتم؛ / لأنّ الخطاب لتلقّي الجواب، وقد انقطع بالكلّيّة. وقُرئ: "تُخْتَمُ".[1] [٤٠٢و]

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يُروى أنّهم يَجحدون ويُخاصِمون، فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيَحلفون: ما كانوا مشركين، فحينئذ يُختَم على أفواههم، وتُكلِّم أيديهم وأرجلُهم.

وفي الحديث: «يقول العبد يومَ القيامة: "إنّي لا أجيز عليّ شاهدًا إلّا مِن نفسي"، فيُختَم على فيه، ويقال لأركانه: "انطقي" فتَنطق بأعماله، ثمّ يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: "بُعدًا لكُنّ وسُحقًا، فعنكُنّ كنتُ أُناضِل"».[2]

وقيل: تكليم الأركان وشهادتُها دلالتُها على أفعالها، وظهورُ آثار المعاصي عليها.

وقُرئ: "وَتَتَكَلَّمُ أَيْدِيهِمْ".[3] وقُرئ: "وَلِتُكَلِّمَنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدَ"[4] بـ"لام كي" والنصبِ على معنى: ولذلك نَختم على أفواههم. وقُرئ: "وَلْتُكَلِّمْنَا أَيْدِيهِمْ وَلْتَشْهَدْ"[5] بـ"لام الأمر" والجزم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ "الطَّمس" تَعفيةُ شِقّ العين حتّى تعودَ مَمسوحةً. ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرّة التي هي وقوعها شرطًا،

---

[1] كذا وقعت في الأصول الخطّيّة بـ"التاء"، ولم أجدها كذلك في المصادر، وإنّما الوارد فيها: "يُخْتَمُ" بـ"الياء"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[2] جامع البيان للطبري، ٤٤٠٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨. وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٨٠/٤ (٢٩٦٩).

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧٨/٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جدّه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

وكونُ مفعولها مضمون الجزاء، أي: لو نشاء أن نطمِس على أعينهم لَفَعلناه. وإيثار صيغة الاستقبال -وإن كان المعنى على المضيّ- لإفادة أنّ عدم الطَّمْس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة، فإنّ المضارع المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس، ١٠/١١].

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فأرادوا أن يستبِقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكَه. على أنّ انتصابه بنزع الجارّ، أو هو بتضمين الاستباق / معنى الابتدار، [٤٠٢ظ] أو بالظرفيّة. ﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ الطريقَ وجهةَ السلوك.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ بتغيير صورهم وإبطالِ قواهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ أي: مكانِهم، إلّا أنّ المكانة أخصّ، كـ"المَقامة" و"المَقام". وقُرِئ: "عَلَى مَكَانَاتِهِمْ"،[١] أي: لَمَسخناهم مَسخًا يُجمِّدهم مكانَهم، لا يقدرون أن يَبرحوه بإقبالٍ ولا إدبارٍ ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: ولا رجوعًا، فوُضع مَوضعه الفعلُ لمراعاة الفاصلة.[٢]

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قردةً وخنازير».[٣] وقيل: حجارةً. وعن قتادة: «لَأقعَدناهم على أرجلهم وأَزْمَنّاهم».[٤]

وقُرِئ: "مِضِيًّا" بكسر "الميم"[٥] وفتحها.[٦]

وليس مساق الشرطيّتين لِمجرّد بيان قدرته تعالى على ما ذُكر مِن عقوبة الطَّمس والمسخ؛ بل لبيان أنّهم بما هم عليه مِن الكفر ونقضِ العهد وعدمِ

---

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

٢ س: الفاضلة.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٥؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٩.

٤ جامع البيان للطبري، ١٩/٤٧٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٩.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٧٩.

الاتّعاظ بما شاهدوا مِن آثار دَمارِ أمثالهم أحقّاءُ بأن يُفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، كما فُعِل بهم في الآخرة عقوبةُ الختم، وأنّ المانع مِن ذلك ليس إلّا عدمَ تعلّق المشيئة الإلهيّة به، كأنّه قيل: لو نشاء عقوبتَهم بما ذُكر مِن الطَّمس والمَسخ جريًا على موجَب جناياتهم المستدعية لها لَفعلناها، ولكنّا لم نَشأها جريًا على سَنن الرحمة والحكمة الداعيتَين إلى إمهالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي: نُطِلْ عُمُرَه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نَقلِبْه فيه ونَخلُقْه على عكس ما خلقناه أوّلًا، فلا يزال يتزايد ضَعفُه، ويَتناقَصُ قوّته، وينتقض بنيته، ويتغيّر شكله وصورته، حتّى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبيّ في ضعف الجسدِ، وقِلّة العقل، والخلوّ عن الفهم والإدراك. وقُرئ: "نَنْكُسْهُ"[1] مِن الثلاثي، و"نُنْكِسْهُ"[2] مِن "الإنكاس".

[٤٠٣و] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أيَرون ذلك فلا يعقلون أنّ مَن / قدَر على ذلك يقدِر على ما ذُكر مِن الطَّمس والمَسخ، وأنّ عدمَ إيقاعهما لعدم تعلّق مشيئته تعالى بهما. وقُرئ: "تَعْقِلُونَ" بـ"التاء"[3] لجَري الخطاب قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردّ وإبطال لِما كانوا يقولونه في حقّه عليه السلام مِن أنّه شاعر، وما يقوله شعر، أي: ما علّمناه الشعر بتعليم **القرآن**، على معنى أنّ **القرآن** ليس بشِعر، فإنّ الشعر كلام متكلَّف موضوع، ومَقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبنيّ على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك مِن التنزيل الجليل الخَطَر المنزَّه عن مُماثَلة كلام البشر المَشحون بفنون الحِكَم

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن ذكوان ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

والأحكامِ الباهرة، الموصلةِ إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومِن أين اشتبه عليهم الشئون، واختلط بهم الظنون، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصحّ له الشعر، ولا يتأتّى له لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قَرْض الشعر لم يَتَأَتّ له كما جعلناه أمّيًا لا يتهدّى للخطّ، ليكون الحجّةُ أثبتَ، والشبهةُ أدحضَ. وأمّا قوله عليه السلام:

«أنا النبيّ لا كذِب أنا ابن عبد المطّلب»[1]

وقوله عليه السلام:

«هل أنتِ إلّا أصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ»[2]

فمِن قبيل الاتّفاقات الواردة مِن غير قصدٍ إليها، وعزمٍ على ترتيبها.

وقيل: الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ للقرآن، أي: وما ينبغي للقرآن أن يكون شِعرًا، ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي: ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: عِظَةٌ مِن الله عزّ وجلّ، وإرشادٌ للثقلَين، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٤].

﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي: كتابٌ سماوي، بيّنٌ كونُه كذلك، أو فارِقٌ بين الحقّ والباطل، يُقرأ في المحاريب، ويُتلى في المعابد، ويُنال بتلاوته والعملِ بما فيه فوزُ الدارين، فكم بينَه وبين ما قالوا.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: القرآن، أو الرسول عليه السلام، ويؤيّده القراءة بـ"التاء".[3] وقُرِئ: "لِيَنْذَرَ"[4] مِن "نَذِرَ به"، أي: عَلِمه، و"لِيُنْذَرَ"[5] مبنيًا للمفعول مِن "الإنذار".

﴿مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أي: عاقلًا متأمّلًا، فإنّ الغافل بمنزلة الميّت، / أو مؤمنًا في [٤٠٣ظ]
عِلم الله تعالى، فإنّ الحياة الأبديّة بالإيمان، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنّه المنتفِع به.

---

[1] صحيح البخاري، ٤/٣٠ (٢٨٦٤)؛ صحيح مسلم، ٣/١٤٠٠ (١٧٧٦).
[2] صحيح البخاري، ٤/١٨ (٢٨٠٢)؛ صحيح مسلم، ٣/١٤٢١ (١٧٩٦).
[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٥.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني والجحدري وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: تجبَ كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المُصرِّين على الكفر. وفي إيرادهم بمقابَلة مَن كان حيًا إشعارٌ بأنّهم لخُلُوِّهم عن آثار الحياة وأحكامها التي هي المعرفة أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ "الهمزة" للإنكار والتعجيب.[١] و"الواو" للعطف على جملة منفيّة مقدَّرة مستتبِعة للمعطوف، أي: أَلَم يتفكّروا؟ أو أَلَم يُلاحِظوا ولم يعلموا علمًا يقينيًا مُتاخِمًا للمعاينة؟

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: ممّا تولّينا إحداثه بالذات. وذِكر "الأيدي" وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرّد بالأحداث والاعتناءِ به.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ مفعول ﴿خَلَقْنَا﴾. وتأخيره عن الجارَّين المتعلّقَين به مع أنّ حقّه التقدّم عليهما لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر تبقى النفس مترقّبة له، فيتمكّن عند وروده عليها فضلَ تمكّن لا سيّما عند كون المقدَّم منبِئًا عن كون المؤخَّر أمرًا نافعًا خطيرًا، كما في النظم الكريم، فإنّ الجارّ الأوّل المُعرِب عن كون المؤخَّر مِن منافعهم، والثانيَ المُفصح عن كونه مِن الأمور الخطيرة؛ يزيدان النفس شوقًا إليه ورغبةً فيه، ولأنّ في تأخيره جمعًا بينه وبين أحكامه المتفرّعة عليه بقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ الآياتِ،[٢] أي: فملّكناها إيّاهم. وإيثار الجملة الاسميّة على ذلك للدلالة على استقرار مالكيّتهم لها واستمرارها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿مَٰلِكُونَ﴾ مقوّية لعمله، أي: فهم مالكون لها بتمليكنا إيّاها لهم متصرّفون فيها بالاستقلال، مختصّون بالانتفاع بها، لا يزاحمهم في ذلك غيرهم، أو قادرون على ضبطها، متمكّنون مِن التصرّف فيها بأقدارنا وتمكيننا

---

[١] س: والتعجّب.

[٢] وفي هامش م: الثلاث.

وتسخيرنا إيّاها لهم،[١] / كما في قول مَن قال: [٤٠٤و]

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملك رأسَ البعير إن نفرا[٢]

والأوّل هو الأظهر، ليكون قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ تأسيسًا لنعمةٍ على حيالها، لا تتمّةً لِما قبلها، أي: صيّرناها منقادةً لهم بحيث لا تستعصي عليهم في شيء ممّا يريدون بها حتّى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾... إلخ، فإنّ "الفاء" فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها، أي: فبعضٌ منها رَكوبهم، أي: مَركوبهم، أي: معظم منافعها الركوب. وعدم التعرّض للحمل لكونه مِن تتمّات الركوب. وقُرئ: "رَكُوبَتُهُمْ"،[٣] وهي بمعناه، كـ"الحَلوب" و"الحَلوبة". وقيل: "الرَّكوبة" اسم جَمع. وقُرئ: "رُكُوبُهُمْ"،[٤] أي: ذُو رُكُوبِهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: وبعضٌ منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأنعام بكِلا قسمَيها ﴿مَنَٰفِعُ﴾ أُخَرُ غيرُ الركوب والأكل، كالجلود والأصواف والأوبار وغيرِها، وكالحراثة بالثيران، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِن اللبن، جمع "مَشْرَب"، وهذا مجمل ما فُصّل في سورة النحل.[٥]

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أيشاهدون هذه النِّعم؟ أو أيتنعّمون بها فلا يشكرون المنعم بها؟

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين اللهَ الذي شاهدوا تفرُّدَه بتلك القدرة الباهرة، وتفضُّلَه عليهم بهاتيك النعم المتظاهِرة، ﴿ءَالِهَةً﴾ مِن الأصنام،

---

[١] ط س: لكم.

[٢] للربيع بن ضَبُع الفَزاري في لسان العرب لابن منظور، «ضمن».

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وأبيّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٣.

[٥] النحل، ١٦/٦٦.

وأشركوها به تعالى في العبادة، ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاءَ أن يُنصَروا من جهتهم فيما حزبهم مِن الأمور، أو يشفعوا لهم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾... إلخ استئناف سيق لِبيان بُطلان رأيهم، وخيبةِ رجائهم، وانعكاسِ تدبيرهم، أي: لا يقدر آلهتهم على نصرهم، ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يشيّعونهم / عند مساقهم إلى النار. [٤٠٤ظ]

وقيل: معَدُّون في الدنيا لحفظهم وخدمتهم، والذبِّ عنهم،[١] ولا يساعِده مساق النظم الكريم، فإنّ "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لترتيب النهي على ما قبله، فلا بدّ أن يكون عبارة عن خُسرانهم وحرمانهم عمّا علّقوا به أطماعهم الفارغة، وانعكاسِ الأمر عليهم بترتّب الشرّ على ما رتّبوه لرجاء الخير، فإنّ ذلك مما يهوّن الخَطب ويورث السَّلوة. وأمّا كونهم مُعَدِّين لخدمتهم وحفظهم فبمَعزِل مِن ذلك.

والنهي وإن كان بحسب الظاهر متوجِّهًا إلى قولهم، لكنّه في الحقيقة متوجّه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عليه السلام عن التأثّر منه بطريق الكناية على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدّية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني، وإبطال للسببيّة، وقد يوجَّه النهي إلى المسبَّب ويراد النهي عن السبب، كما في قوله: "لا أَرَينّك ههنا"، يريد به نهي مخاطَبه عن الحضور لديه.

والمراد بـ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ما ينبئ عنه ما ذُكر مِن اتّخاذهم الأصنام آلهة، فإنّ ذلك ممّا لا يخلو عن التفوّه بقولهم: "هؤلاء آلهتنا"، وأنّهم شركاء لله سبحانه في المعبوديّة، وغيرَ ذلك ممّا يورث الحُزن. وقُرئ: "يُحْزِنْكَ" بضمّ "الياء" وكسر "الزاء"،[٢] مِن "أَحْزَنَ" المنقول مِن "حَزِنَ" اللازم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تعليل صريح للنهي بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الإشعار، فإنّ العلم بما ذُكر مستلزم للمُجازاة قطعًا،

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٢٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧٤/٤.

[٢] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

أي: إنّا نُجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التي لا يعزُب عن علمنا شيء منها، وفيه فضل تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وتقديم السرّ على العلَن إمّا للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات، كأَنّ علمه تعالى بما يُسرّونه أقدمُ منه بما يعلنونه مع استوائهما في الحقيقة، فإنّ علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق / حصول صورها؛ بل وجودُ كلّ شيء في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة، وإمّا لأنّ[1] مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة العَلَن، إذ ما مِن شيء يُعْلَن إلّا وهو أو مَباديه مُضمَر في القلب قبل ذلك، فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأولى متقدّم على تعلّقه بحالته الثانية حقيقةً. [٤٠٥و]

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بطلان إنكارهم البعثَ بعد ما شاهدوا في أنفسهم أوضحَ دلائله وأعدلَ شواهده، كما أنّ ما سبَق مَسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام.

وأمّا ما قيل[2] مِن أنّه تسلية ثانية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشرَ؛[3] فكلّا.

و"الهمزة" للإنكار والتعجيب، و"الواو" للعطف على جملة مقدَّرة هي مستتبِعة للمعطوف، كما مرّ في الجملة الإنكاريّة السابقة، أي: أَلَم يتفكّر الإنسان ولم يعلم عِلمًا يقينيًا أنّا خلقناه مِن نطفة... إلخ، أو هي عينُ الجملة السابقة، أُعيدَت تأكيدًا للنكير السابق، وتمهيدًا لإنكار ما هو أحقّ منه بالإنكار والتعجيب، لِما أنّ المنكَر هناك عدمُ علمهم بما يتعلّق بخلق أسباب معايشهم، وههنا عدمُ علمهم بما يتعلّق بخَلق أنفسهم، ولا ريبَ في أنّ علم الإنسان بأحوال نفسه أهمّ،

---

[1] السياق: إمّا للمبالغة... وإمّا لأنّ...
[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٧٤/٤.
[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٧٤/٤.

وإحاطتَه بها أسهل وأكمل، فالإنكار والتعجيبُ مِن الإخلال بذلك أدخَلُ، كأنّه قيل: أَلَم يعلموا خَلقَه تعالى لأسباب معايشهم، ولم يعلموا خلقَه تعالى لأنفسهم أيضًا، مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهايةِ الأهميّة؟ على معنى أنّ المنكَر الأوّلَ بعيد قبيح، والثانيَ أبعدُ وأقبحُ.

ويجوز أن يكون "الواو" لعطف[1] الجملة الإنكاريّة الثانية على الأولى، على أنّها متقدِّمة في الاعتبار، وأنّ تقدّم "الهمزة" عليها لاقتضائها الصدارة في الكلام كما هو رأي الجمهور.

[٤٠٥ظ] / وإيراد ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ موردَ الضمير لأنّ مدار الإنكار متعلّق بأحواله مِن حيث هو إنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم، ٦٧/١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: شديدُ الخصومة والجدالِ بالباطل، عطفٌ على الجملة المنفيّة، داخلٌ في حيّز الإنكار والتعجيب، كأنّه قيل: أَوَلَم يرَ أنّا خلقناه مِن أخسّ الأشياء وأَمْهَنِها ففاجأ خصومتَنا في أمر يشهد بصحّته وتحقّقه مبدأ فطرته شهادةً بيّنةً.

وإيرادُ الجملة الاسميّة للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها.

رُوي أنّ جماعةً مِن كفّار قريش -منهم أبيّ بن خَلف الجُمَحي، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة- تكلّموا في ذلك، فقال لهم أبيّ بن خَلف: «ألا تَرون إلى ما يقول محمّد: "إنّ الله يبعث الأموات"»، ثمّ قال: «واللّاتِ والعزّى، لَأصيرنّ إليه، ولَأخصِمنّه»، وأخذ عظمًا باليًا، فجعَل يَفُتُّه بيده ويقول: «يا محمّد، أترى الله يُحيي هذا بعد ما رَمَّ»، قال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم، ويبعثُك ويُدخلك جهنّم»، فنزلت.[2]

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعد ما كان ماءً مَهينًا رجلٌ مميّز مِنطيق قادر على الخِصام مُبين مُعرِب عمّا في نفسه فصيح،

---

[1] س: للعطف.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٤.

فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، غيرُ داخل تحت الإنكار والتعجيب؛ بل هو مِن متمّمات شواهد صحّة البعث.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٨﴾

فقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ معطوف حينئذ على الجملة المَنفيّة، داخلٌ[1] في حيّز الإنكار والتقبيح، وأمّا على التقدير الأوّل فهو عطفٌ على الجملة الفُجائيّة، والمعنى: ففاجَأ خُصومتَنا وضرب لنا مَثلًا، / أي: أَوردَ في شأننا قصّةً [٤٠٦و] عجيبةً في نفس الأمر هي في الغرابة والبعد عن العقول كالمَثَل، وهي إنكارُ إحيائنا العظامَ، أو قصّةً عجيبةً في زعمه، واستبعدها وعدّها مِن قَبيل المَثل، وأنكرها أشدَّ الإنكار، وهي إحياؤُنا إيّاها، أو جعلَ لنا مَثلًا ونظيرًا مِن الخَلق وقاسَ قدرتنا على قدرتهم، ونَفَى الكلَّ على العموم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: خَلْقَنا إيّاه على الوجه المذكور الدالّ على بطلان ما ضَرَبه، إمّا عطفٌ على ﴿ضَرَبَ﴾، داخلٌ في حيّز الإنكار والتعجيب، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد"، أو بدونه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية ضَربه المثلَ، كأنّه قيل: أيَّ مَثلٍ ضرَب؟ أو ماذا قال؟ فقيل: قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ منكِرًا له أشدَّ النكير، مؤكِّدًا له بقوله: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: باليةٌ أشدَّ البِلَى، بعيدةٌ مِن الحياة غايةَ البُعد.

فالمَثل على الأوّل هو إنكارُ إحيائه تعالى للعِظام، فإنّه أمر عجيب في نفس الأمر، حقيقٌ لغَرابته وبُعدِه مِن العقول بأن يُعدَّ مَثلًا ضرورةَ جزم العقول ببطلان الإنكار، ووقوعِ المنكَر، لكونه كالإنشاء؛ بل أهونَ منه في قياس العقل.

وعلى الثاني هو إحياؤه تعالى لها، فإنّه أمر عجيب في زعمه، قد استبعده وعدّه مِن قَبيل المَثل، وأنكرَه أشدّ الإنكار مع أنّه في نفس الأمر أقربُ شيءٍ مِن الوقوع، لِما سبق مِن كونه مِثل الإنشاء، أو أهونَ منه.

---

[1] ط س: داخلة.

وأمّا على الثالث فلا فرقَ بين أن يكون المَثل هو الإنكارَ أو المنكرَ.

وعدمُ تأنيث "الرميم" مع وقوعه خبرًا للمؤنّث لأنّه اسم لِما بَلِي مِن العظام، غيرُ صفة، كالرُّفات.

[٤٠٦ظ] وقد تمسّك / بظاهر الآية الكريمة مَن أثبت للعَظم حياةً، وبنى عليه الحُكمَ بنجاسة عظم الميتة، وأمّا أصحابنا فلا يقولون بحياته، كالشَّعر،[١] ويقولون: المراد بإحياء العظام ردُّها إلى ما كانت عليه مِن الغَضاضة والرطوبة في بدنِ حيٍّ حسّاس.[٢]

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا له بتذكير ما نَسِيَه مِن فطرته الدالّة على حقيقة الحال، وإرشادِه إلى طريقة الاستشهاد بها: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنّ قدرته كما هي لاستحالة التغيّر فيها، والمادّةُ على حالها.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بتفاصيل كيفيّات الخلق والإيجاد إنشاءً وإعادةً، محيطٌ بجميع الأجزاء المتفتّتة المتبدِّدة لكلّ شخص مِن الأشخاص أصولِها وفروعِها وأوضاعِ بعضها مِن بعض مِن الاتّصال والانفصال، والاجتماعِ والافتراق، فيُعيد كلًّا مِن ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبلُ. والجملة إمّا اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون الجواب، أو معطوفةٌ على الصلة.

والعدول إلى الجملة الاسميّة للتنبيه على أنّ علمه تعالى بما ذُكِر أمر مستمرّ، ليس كإنشائه للمُنشَآت.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل مِن الموصول الأوّل. وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد، ولتفاوتهما في كيفيّة الدلالة، أي: خَلق لأجلكم ومنفعتكم منه نارًا، على أنّ الجَعل إبداعي،

---

[١] انظر: **بدائع الصنائع** للكاساني، ٥/١٤٢.

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣١.

والجارّان متعلّقان به، قُدِّما على مفعوله الصريح مع تأخّرهما عنه رتبةً لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر.

ووصف ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ بـ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ نظرًا إلى اللفظ. وقد قُرئ: "الْخَضْرَاءِ"[١] بالنظر إلى المعنى. وهو المَرْخُ والعَفار،[٢] يقطع الرَّجل منهما عُصيَّتَين مثلَ السواكَين وهما خَضراوان يقطُر منهما الماء، فيسحق المَرْخ -وهو ذَكَر- على العَفار -وهو أنثى- فينقدح النار بإذن الله تعالى، / وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فمَن قدر على إحداث النار مِن الشجر الأخضر مع ما فيه مِن المائيّة المضادّة لها بكيفيّته كان أقدَرَ على إعادة الغَضاضة إلى ما كان غَضًّا فطَرَأ عليه اليبوسة والبِلى. [٤٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾... إلخ استئناف مَسوق مِن جهته عزّ وجلّ لتحقيق مضمون الجواب الذي أُمِر عليه السلام بأن يخاطبهم بذلك، ويُلزمهم الحجّةَ.

و"الهمزة" للإنكار والنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَلَيس الذي أنشأها أوّلَ مرّة، وليس الذي جعل لهم مِن الشجر الأخضر نارًا، وليس الذي خلق السماوات والأرض مع كِبَر جِرمهما وعِظَم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصِغر والقَماءة بالنسبة إليهما؟ فإنّ بديهة العقل قاضية بأنّ مَن قدَر على خَلقهما فهو على خَلق الأناسي أقدَر، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر، ٤٠/٥٧]. وقُرئ: "يَقْدِرُ".[٣]

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب مِن جهته تعالى، وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري مِن تقرير ما بعد النفي، وإيذانٌ بتعيّن الجواب، نطقوا به، أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣١/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨٥/٩.

٢ المَرْخُ: شجرٌ سريعُ الوَرْيِ، وفي المَثَل: "في كلِّ شجرٍ نار، واستمجد المَرْخُ والعَفارُ"، والعَفارُ: الزند، وهو الأعلى. **الصحاح** للجوهري، «مرخ».

٣ قرأ بها رُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عطفٌ على ما يفيده الإيجاب، أي: بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخَلق والعلم كيفًا وكمًّا.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ أي: شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنْ يُعلِّقَ به قدرتَه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيَحدُث مِن غير توقّف على شيء آخَر أصلًا. وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المُطاعِ المأمورَ المطيعَ في سرعة حصول المأمور به مِن غير توقّف على شيء ما. وقُرئ: "فَيَكُونَ" بالنصب[١] عطفًا على ﴿يَقُولَ﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيه له عزّ وعلا عمّا وصفوه تعالى به، وتعجيبٌ ممّا قالوا في شأنه تعالى، وقد مرّ تحقيق معنى "سُبحانَ".

[٤٠٧ظ] و"الفاء" للإشارة إلى أنّ ما فُصِّل مِن شئونه تعالى مُوجِبة / لتنزّهه وتنزيهه أكملَ إيجاب، كما أنّ وصفه تعالى بالمالكيّة الكلّيّة المطلقة للإشعار بأنّها مقتضية لذلك أتمّ اقتضاء. و"المَلكوت" مبالغة في "المُلك"، كـ"الرَّحَموت" و"الرَّهَبوت". وقُرئ: "مَلَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ"،[٢] و"مَمْلَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ"،[٣] و"مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ".[٤]

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره. وقُرئ: "تَرْجِعُونَ" بفتح "التاء"[٥] مِن "الرجوع". وفيه مِن الوعد والوعيد ما لا يخفى.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كنت لا أعلم ما رُوي في فضائل ﴿يسٓ﴾ وقراءتِها كيف خُصّت بذلك، فإذا إنّه لهذه الآية».[٦]

---

١ قرأ بها ابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨٥.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٨.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢. قال المناوي: «لم أقف عليه». الفتح السماوي للمناوي، ٣/٩٥٣.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ لكلّ شيء قَلبًا، وإنّ قلب القرآن ياسين،[1] مَن قرأها يريد بها وجهَ الله تعالى غفر الله تعالى له، وأعطي مِن الأجر كأنّما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرّةً. وأيّما مسلم قُرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورةُ يسٓ[2] نزَل بكلّ حرف فيها عشرة أملاك، يقومون بين يديه صفوفًا، يصلّون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون غَسله، ويتّبعون جنازته، ويُصلّون عليه، ويشهدون دفنَه. وأيّما مُسلم قرأ ياسين وهو في سَكَرات الموت لم يقبض ملك الموت روحَه حتّى يُحيّيه رضوانُ خازنُ الجنّة بشِربةٍ مِن شراب الجنّة يشربها وهو على فراشه، فيقبض ملَك الموت روحَه وهو ريّان، ويمكث في قبره وهو ريّان، ولا يحتاج إلى حوض مِن حياض الأنبياء حتّى يدخل الجنّة وهو ريّان».[3]

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ في القرآن سورةً يُشَفَّعُ قارئُها ويُغفَر لمستمعها، ألا وهي سورة ياسين».[4]

---

١ س: يس.

٢ ط س: ياسين.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ مسند الشهاب للقضاعي، ١٣٠/٢.

٤ ط س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢/٤.

[٤٠٨و]

/ سورة الصافّات

مكّيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً،[1] وقيل: واثنتان وثمانون.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائفِ الملائكة الفاعلاتِ للصفوف، على أنّ المراد إيقاع نفْس الفعل مِن غير قصدٍ إلى المفعول، أو الصافّاتِ أنفُسَها، أي: الناظِماتِ لها في سِلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]، وعلى هذين المعنيَين مَدار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات، ١٦٥/٣٧]. وقيل: الصافّاتِ أقدامَها في الصلاة. وقيل: أجنحتَها في الهواء.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ أي: الفاعلاتِ للزَّجر، أو الزاجِراتِ لِما نِيط بها زَجْره مِن الأجرام العلويّة والسفليّة وغيرها على وجه يليق بالمَزجور، ومِن جملة ذلك زَجر العباد عن المعاصي، وزَجرُ الشياطين عن الوسوسة والإغواء، وعن استراق السمع كما سيأتي. و﴿صَفًّا﴾ و﴿زَجْرًا﴾ مصدران مؤكِّدان لِما قبلهما، أي: صفًّا بديعًا، وزَجرًا بليغًا.

وأمّا ﴿ذِكْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ فمفعول ﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ أي: التاليات ذكرًا عظيمَ الشأن مِن آيات الله تعالى وكُتبه المنزّلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها مِن التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد. وقيل: هو أيضًا مصدر مؤكِّد لِما قبله، فإنّ التلاوة مِن باب الذِّكر.

---

[1] ط – آية.

[2] م – سورة الصافّات مكّيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً، وقيل: واثنتان وثمانون؛ ط + آية.

ثمّ إنّ هذه الصفاتِ إن أُجريَت على الكلّ فعطفُها بـ"الفاء" للدلالة على ترتّبها في الفضل، إمّا بكون الفضل للصفّ ثمّ للزّجر ثمّ للتلاوة، أو على العكس، وإن أُجريَت كلّ واحدة منهنّ على طوائف معيّنة فهو للدلالة على ترتّب الموصوفات في مراتب الفضل، بمعنى أنّ طوائف الصافّات ذوات فضل، والزاجراتُ أفضل، والتالياتُ أبهَر فضلًا، أو على العكس.

وقيل: المراد بالمذكورات نفوس العلماءِ العُمّال؛ الصافّاتُ أنفسَها في صفوف الجماعات، / وأقدامَها في الصلوات، الزاجراتُ[1] بالمواعظ والنصائح، [٤٠٨ظ]
التالياتُ آياتِ الله تعالى، الدارساتُ شرائعَه وأحكامَه.

وقيل: طوائفُ الغزاة؛ الصافّاتُ أنفسَهم في مواطن الحروب، كأنّهم بنيان مَرصوص. أو طوائفُ قُوّادهم؛ الصافّاتُ لهم فيها، الزاجراتُ الخيلَ للجهاد سَوقًا، والعدوَّ في المعارك طَردًا، التالياتُ آياتِ الله تعالى وذِكرِه وتسبيحِه في تضاعيف ذلك.

والكلام في العطف ودلالتِه على ترتّب الصفات في الفضل أو ترتّب موصوفاتها فيه كالذي سلَف، وأمّا الدلالة على الترتّب في الوجود كما في قوله:

يا لَهفَ زَيّابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانم فالآيبِ[2]

فغير ظاهرة في شيء مِن الطوائف المذكورة، فإنّه لو سلّم تقدّم الصفّ على الزّجر في الملائكة والغزاة فتأخُّرُ التلاوة عن الزّجر غير ظاهر.

وقيل: ﴿ٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ﴾: الطير، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ [النور، ٤١/٢٤]، و﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ كلّ ما يَزجُر عن المعاصي، و﴿ٱلتَّـٰلِيَـٰتِ﴾ كلّ مَن يتلو كتابَ الله تعالى. وقيل: ﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ القوارع القرآنيّة.

وقُرئ بإدغام "التاء" في "الصاد" و"الزاء" و"الذال".[3]

---

١ س: والزاجرات.

٢ لابن زَيّابة التيمي، و"زَيّابة": اسم أمّه، أي: يا لَهفَ أمّي مِن أجل الحارث بن همّام الشيباني، قال التبريزي: معناه أنّه لهّف أمّه أن لا يلحقه في بعض غاراته فيقتله أو يأسِره. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٢/٤.

٣ قرأ بها حمزة وأبو عمرو ويعقوب بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٠٠/٢.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝﴾

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم. والجملة تحقيق للحقّ الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم مِن التأكيد القسَمي، وتمهيدٌ لِما يعقُبه مِن البرهان الناطق به، أعني: قولَه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنّ وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع مِن أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدلِ شواهد وَحدته، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢١/٢٢].

و﴿رَّبُّ﴾ خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، / أي: مالكُ السماوات والأرض [٤٠٩و] وما بينهما مِن الموجودات ومربّيها، ومبلّغُها إلى كمالاتها. والمراد بـ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مشارقُ الشمس. وإعادة "الربّ" فيها لغاية ظهور آثار الربوبيّة فيها وتجدّدِها كلّ يوم، فإنّها ثلاثُمائةٍ وستّون مَشرقًا، تشرق كلَّ يوم مِن مَشرقٍ منها، وبحسبها تختلف المَغارب، وتغرُب كلَّ يوم في مَغرب منها. وأمّا قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن، ٥٥/١٧] فهما مَشرقا الصيف والشتاء ومَغرِباهما.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝﴾

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى منكم ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبةٍ بديعةٍ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجرّ بدلٌ مِن ﴿زِينَةٍ﴾، على أنّ المراد بها الاسم، أي: ما يُزانُ به، لا المصدرُ، فإنّ الكواكب بأنفسِها وأوضاعِ بعضها مِن بعض زينةٌ وأيُّ زينةٍ.

وقُرئ بالإضافة[١] على أنّها بيانيّة، لِما أنّ "الزينة" مبهَمة صادقة على كلّ ما يُزان به، فيقع ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بيانًا لها. ويجوز أن يراد بـ"زِينَةِ الكَوَاكِبِ" ما زُيّنت هي به، وهو ضوءُها. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"بزِينَةِ الكَوَاكِبِ": بضوءِ الكواكب».[٢] هذا، وأمّا على تقدير كون "الزينة" مصدرًا فالمعنى على تقدير إضافتها إلى الفاعل: بأن زانت الكواكبُ إيّاها، وأصلُه "بزينةِ الكواكبُ"،

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٦.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٤٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥.

وعلى تقدير إضافتها إلى المفعول: بأن زَانَ اللهُ الكواكبَ وحسَّنها، وأصله "بزينةِ الكواكبَ".

والمراد هو التزيين في رأي العين، فإنّ جميع الكواكب مِن الثوابت والسيّارات تبدو للناظرين كأنّها جواهر متلألِئة في سطح السماء[1] الدنيا بصور بديعةٍ وأشكال رائعة، ولا يقدح في ذلك ارتكاز الثوابت في الفلَك / الثامن، وما عدا القمر في [٤٠٩ظ]
الستة المتوسطة إن ثبتَ ذلك.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾

﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب إمّا بعطفه على ﴿زِينَةٍ﴾ باعتبار المعنى، كأنّه قيل: إنّا خلقنا الكواكب زينةً للسماء وحِفظًا ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي: خارجٍ عن الطاعة برَمي الشُّهب، وإمّا بإضمار فِعله، وإمّا بتقدير فعل مؤخَّر معلَّل به، كأنّه قيل: وحِفظًا مِن كلّ شيطان مارد زيّنّاها بالكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك، ٦٧/٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلام مبتدأ مَسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفيّة الحفظ وما يعتريهم في أثناء ذلك مِن العذاب، ولا سبيلَ إلى جعله صفةً لـ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾،[2] ولا جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ لعدم استقامة المعنى، ولا علّةً للحفظ على أن يكون الأصل "لِئلّا يَسَّمَّعوا"، فتُحذف "اللام" كما حُذفت مِن قولك: "جِئتكَ أن تُكرمَني"، فيبقى "أن لا يَسَّمَّعوا"، ثمّ تُحذف "أن" ويُهدر عملها، كما في قول مَن قال:

أَلَا أيُّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا[3]

---

[1] ط س: سماء.
[2] في الآية السابقة.
[3] وفي هامش ط س: تمامه:
وأن أشهدَ اللذّاتِ هل أنت مُخلدي
لطرَفة بن العبد، يقول: يا مَن يلومني أن أحضرَ الحرب وأن أنفِق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات؛ هل في وُسعك أن تخلّدني فأكفّ عن ذلك وأتركه. ديوان طرَفة بشرح الأعلم الشَّنتَمري، ص ٤٥.

لِما أنّ كلّ واحد مِن ذَينك الحذفَين غيرُ منكَر بانفراده، فأمّا اجتماعهما فمِن أنكَر المنكرات التي يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها.

وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: يَتسمَّعون. و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم الكتَبة».[١] وعنه: «أشراف الملائكة عليهم السلام».[٢] أي: لا يتطلّبون السماعَ والإصغاءَ إليهم. وقُرئ: "يَسْمَعُونَ" بالتخفيف.[٣]

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يُرمَون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾

﴿دُحُورًا﴾ علّة للقذف، أي: للدُّحور؛ وهو الطرد، أو حال بمعنى: مَدحورين، أو مصدر مؤكِّد له؛ لأنّهما مِن وادٍ واحد. / وقُرئ: "دَحُورًا" بفتح "الدال"،[٤] أي: قَذفًا دَحورًا مبالِغًا في الطرد. وقد جُوّز أن يكون مصدرًا كـ"القَبول" و"الوَلوع". [٤١٠و]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة غيرَ ما في الدنيا مِن عذاب الرَّجْم بالشُّهُب عذابٌ شديد دائم غير منقطع، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك، ٦٧/٥].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء مِن "واو" ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾.[٥] و﴿مَنْ﴾ بدل منه. و"الخَطف": الاختلاس، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقةً، كما يُعرِب عنه

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٤. وبه فسّره الثعلبي دون نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٠/٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩٢/٩.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٥ الصافّات، ٨/٣٧.

تعريف ﴿ٱلۡخَطۡفَةَ﴾. وقُرئ بكسر "الخاء" و"الطاء" المشدّدة،[١] وبفتح "الخاء" وكسر "الطاء" وتشديدها،[٢] وأصلهما "اخۡتَطَفَ".

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ﴾ أي: تبعه ولحِقه. وقُرئ: "فَاتَّبَعَهُ".[٣] و"الشِّهاب": ما يُرى منقضًّا مِن السماء. ﴿ثَاقِبٞ﴾ مضيء في الغاية، كأنّه يثقب الجوّ بضوئه، يرجُم به الشياطين إذا صعِدوا لاستراق السمع، فيقتلهم أو يحرقهم أو يُخبِّلهم. قالوا: وإنّما يعود مَن يسلم منهم حيًا طمعًا في السلامة ونيلِ المراد كراكب السفينة.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ فاستخبر مُشركي مكّة: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً، وأمتنُ بُنيةً، أو أصعبُ خَلقًا، وأشقُّ إيجادًا. ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ مِن الملائكة والسماء والأرض وما بينهما، والمشارِق، والكواكبِ، والشُّهُبِ الثواقب. و﴿مَنۡ﴾ لتغليب العقلاء على غيرهم، ويدلّ عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، لا سيّما قراءةُ مَن قرأ: "أم مَنۡ عَدَدۡنَا".[٤]

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ فإنّه الفارق بينهم وبينها، لا بينهم وبين مَن قبلهم مِن الأمم، كعادٍ وثمود، ولِأنّ المراد إثبات المعاد وردُّ استحالتهم.[٥] والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى مَن قبلهم سواء. / وقُرئ: "لَازِمٌ"، و"لَاتِبٌ".[٦] [٤١٠ظ]

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾ أي: مِن قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارِهم للبعث، ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ مِن تعجّبك وتقريرك للبعث.

---

١ أي: "خِطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٢ أي: "خَطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٥ وفي هامش م: أي: عدّهم له مُحالًا. «منه».

٦ قراءتان شاذّتان، ذكرهما الزمخشري من غير نسبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧.

وقُرئ بضمّ "التاء"،[١] على معنى أنّه بلغَ كمالُ قدرتي وكثرةُ مخلوقاتي إليّ حيث عَجبتُ منها، وهؤلاء لِجهلهم يَسخرون منها. أو عجبتُ مِن أن يُنكروا البعث ممّن هذه أفاعيله، ويسخروا ممّن يجوّزه. والعَجَب مِن الله تعالى إمّا على الفَرْض والتخييل، أو على معنى الاستعظام اللازم له، فإنّه رَوعة تَعتري الإنسان عند استعظام الشيء. وقيل: إنّه مقدَّر بالقول، أي: قل يا محمّد: بل عَجبتُ.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾

﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾ أي: ودأبهم المستمرّ أنّهم إذا وُعِظوا بشيء مِن المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتّعظون، وإذا ذُكِر لهم ما يدلّ على صحّة البعث لا ينتفعون به لغاية بَلادَتهم وقُصورِ فكرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً تدلّ على صدق القائل به ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، ويقولون: إنّه سِحر، أو يستدعي بعضهم مِن بعض أن يسخَر منها.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما يرونه مِن الآية الباهرة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريّتُه.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعضِ أجزائنا ترابًا، وبعضها عِظامًا. وتقديمُ "التراب" لأنّه منقلِب مِن الأجزاء البادية. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: نُبعَث، لا نفسُه؛ لأنّ دُونَه خُطوبًا[٢] لو تفرّد واحدٌ منها لكفى في المنع. وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غايةَ المنافاة، وكذا تكرير "الهمزة" في ﴿أَءِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في ذلك، وكذا تحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٦.

[٢] وفي هامش م: هي "الهمزة" و"إنّ" و"اللام". «منه».

[٤١١و] / لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم،[١] فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارةَ، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب، كما هو المشهور. وقُرئ بطَرح "الهمزة" الأولى،[٢] وبطرح الثانية فقط.[٣]

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ رفع على الابتداء، وخبره محذوف عند سيبويه،[٤] أي: وآباؤنا الأوّلون أيضًا مبعوثون. وقيل: عطفٌ على محلّ "إنّ" واسمها. وقيل: على الضمير في ﴿مَبْعُوثُونَ﴾[٥] للفصل بهمزة الإنكار الجارية مَجرى حرف النفي في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام، ١٤٨/٦]. وأيًا ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناءً على أنّهم أقدم، فبَعثُهم أبعدُ على زعمهم. وقُرئ: "أَوْ آبَاؤُنَا".[٦]

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿نَعَمْ﴾. والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب. والجملة حال مِن فاعل ما دلّ عليه ﴿نَعَمْ﴾، أي: كلّكم مبعوثون والحال أنكم صاغِرون أذِلّاء. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر "العين"،[٧] وهي لغة فيه.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ﴿هِىَ﴾ إمّا ضمير مبهَم يفسّره خبره، أو ضمير "البَعثة". والجملة جواب شرط مضمَر، أو تعليل لنهيٍ مقدّر، أي: إذا كان كذلك فإنّما هي... إلخ، أو لا تستصعبوه فإنّما هي... إلخ. و"الزجرة": الصيحة، مِن "زَجَرَ الراعي غنَمَه" إذا صاح عليها؛ وهي النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قائمون مِن مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ يُبصرون كما كانوا، أو يَنتظِرون ما يُفعَلُ بهم.

---

١ س + الكريم.

٢ قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

٣ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.

٤ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩٥/٩.

٥ في الآية السابقة.

٦ قرأ بها أبو جعفر وابن عامر ونافع بخُلف عن وَرش. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٧ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المبعوثون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: هلاكَنا احضُر، فهذا أوان حضورك. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم الويلَ بطريق الاستئناف، / أي: اليومُ الذي نُجازَى [٤١١ظ] فيه بأعمالنا، وإنّما علموا ذلك لأنّهم كانوا يسمعون في الدنيا أنّهم يُبعَثون ويُحاسَبون ويُجزَون بأعمالهم، فلمّا شاهدوا البعثَ أيقَنوا بما بعده أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ كلام الملائكة جوابًا لهم بطريق التوبيخ والتقريع. وقيل: هو أيضًا مِن كلام بعضهم لبعض.[١] و﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ القضاء، أو الفرقُ بين فِرَق الهدى والضلال.

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ خطاب مِن الله عزّ وجلّ للملائكة، أو مِن بعضهم لبعضٍ بحَشر الظلَمة مِن مقامهم إلى الموقف. وقيل: مِن المَوقف إلى الجحيم.

﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: أشباهَهم ونُظراءَهم مِن العصاة، عابدُ الصنَم مع عَبَدته، وعابدُ الكوكب مع عَبَدته، كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة، ٧/٥٦]. وقيل: قرناءَهم مِن الشياطين. وقيل: نساءَهم اللاتي على دينهم. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ونحوِها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم. قيل: هو[٢] عامّ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ الكريمةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. وأنت خبير بأنّ الموصول عبارة عن المشركين خاصّةً، جيء به لتعليل الحُكم بما في حيّز صِلته، فلا عمومَ ولا تخصيصَ.

---

١ س - لبعض.

٢ ط س: وهو. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: عرِّفوهم طريقَها، ووجِّهوهم إليها. وفيه تهكُّم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبِسوهم في الموقف، كأنّ الملائكةَ عليهم السلام[1] سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشرهم إلى الجحيم، فأُمِرُوا بذلك، وعُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ ذلك ليس للعفو عنهم، ولا لِيستَريحوا بتأخير العذاب في الجملة؛ بل لِيُسألوا، لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل،[2] فإنّ ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم؛ بل عمّا يَنطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع والتهكّم، أي: لا يَنصر بعضُكم بعضًا كما كنتم تزعمون في الدنيا. وتأخيرُ هذا السؤال إلى ذلك الوقت
[٤١٢و] / لأنّه وقتُ تَنَجّزِ العذاب، وشدّةِ الحاجة إلى النُّصرة، وحالةُ انقطاع الرجاء عنها بالكلّيّة، فالتوبيخ والتقريع حينئذٍ أشدُّ وَقعًا وتأثيرًا. وقُرِئ: "لَا تَتَنَاصَرُونَ"،[3] و"لَا تَّنَاصَرُونَ" بالإدغام.[4]

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون، لظهور عجزهم، وانسدادِ باب الحِيَل عليهم، أو أسلَم بعضُهم بعضًا وخَذَله عن عَجْز، فكلُّهم مستسلم غير منتصِر.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَأَقْبَلَ﴾ حينئذ ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء، أو الكفرةُ والقرناء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضًا سؤالَ توبيخ بطريق الخصومة والجدال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية تساؤلِهم، كأنّه قيل: كيف تساءَلُوا؟ فقيل: قالوا، أي: الأتباع للرؤساء، أو الكلّ للقُرناء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾

---

[1] س - عليهم السلام.
[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٨.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٤٦٩.
[4] قرأ بها أبو جعفر والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٤.

في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأمتَنِها، أو عن الدين، أو عن الخَير، كأنكم تنفعوننا نفعَ السانِح،[١] فتبِعناكم فهلَكنا. مستعار مِن يمين الإنسان الذي هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعُهما، ولذلك يُسمّى يمينًا، ويُتيمَّن بالسانِح، أو عن القوّة والقَسر، فتقسروننا على الغيّ، وهو الأوفق للجواب، أو عن الحَلِف، حيث كانوا يَحلفون أنّهم على الحقّ.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما سبق، أي: قال الرؤساء أو القُرناء: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم نمنعكم مِن الإيمان؛ بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ مِن قهرٍ وتسلّطٍ نسلُبُكم به اختيارَكم؛ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ مختارين للطغيان مُصرّين عليه.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣﴾

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي: لزِمَنا وثبَت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي: العذابَ الذي وَرد به الوعيد.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ فدعوناكم / إلى الغيّ دعوةً غيرَ مُلجِئةٍ، فاستجبتم لنا [٤١٢ظ] باختياركم واستحبابِكم الغيَّ على الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتَبَ علينا في تعرُّضنا لإغوائكم بتلك المرتبة مِن الدعوة لتكونوا أمثالنا في الغواية.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأتباعَ والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية.

---

[١] السانح: ما وَلّاك مَيامِنه مِن ظبي أو طائر أو غيرهما. والعرب تتيمَّن بالسانح، وتتشاءم بالبارح. **الصحاح** للجوهري، «سنح».

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعل البديع الذي يقتضيه الحكمة التشريعيّة ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، كما يُعرِب عنه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدعوة والتلقين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيب لهم ببيان أنّ ما جاءَ به مِن التوحيد هو الحقّ الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافّة الرسل عليهم السلام، فأين الشِّعر والجنون مِن ساحته الرفيعة.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم مِن الإشراك وتكذيب الرسول عليه السلام والاستكبار ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والالتفاتُ لإظهار كمال الغضب عليهم. وقُرئ بنصب ﴿ٱلْعَذَابِ﴾[1] على تقدير النون كقوله:

ولا ذاكـــــــر اللهَ إلّا قليـــــــلا[2]

وقُرئ: "لَذَائِقُونَ الْعَذَابَ"[3] على الأصل.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كنتم تعملونه مِن السيّئات، أو إلّا بما كنتم تعملونه منها.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع مِن ضمير ﴿ذَآئِقُواْ﴾،[4] وما بينهما اعتراض جيء به مسارعةً إلى تحقيق الحقّ ببيان أنّ ذوقهم العذابَ ليس إلّا

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وأبان عن ثعلبة عن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٩٩.

٢ صدره:
فـألـفـيتـه غـيـرَ مسـتعـتـبٍ
وهو لأبي الأسود الدؤلي. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١١/٣٧٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.

٤ في الآية السابقة.

مِن جهتهم، لا مِن جهة غيرهم أصلًا. وجعلُه استثناءً مِن ضمير ﴿تُجْزَوْنَ﴾[1] على معنى أنّ الكفرة لا يُجزون إلّا بقدر أعمالهم، دون عباد الله المخلَصين، فإنّهم يُجزَون أضعافًا مضاعفةً ممّا لا وجهَ له أصلًا، لا سيّما جعلُه استثناء متّصلًا بتعميم الخطاب في ﴿تُجْزَوْنَ﴾[2] لجميع المكلّفين، فإنّه ليس في حيّز الاحتمال، فالمعنى: إنكم لذائقوا العذابِ الأليمِ، لكنّ عبادَ الله المخلَصين الموحِّدين ليسوا كذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم للإيذان بأنّهم ممتازون بما اتّصفوا به مِن الإخلاص في عبادته تعالى عمّن عداهم امتيازًا بالغًا، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمُشار إليه للإشعار بعلوّ طبقتهم، وبُعد منزلتهم / في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله [٤١٣و] تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ إمّا خبر له، وقوله تعالى: ﴿رِزْقٌ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار، أو مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدَّم، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الكبرى استئناف مبيِّن لِما أفاده الاستثناء إجمالًا بيانًا تفصيليًّا. وقيل: هي خبر للاستثناء المنقطع، على أنّه متأوَّل بالمبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿مَّعْلُومٌ﴾ أي: معلومُ الخصائص، مِن حُسن المنظَر، ولذّةِ الطَّعم، وطيبِ الرائحة، ونحوِها مِن نعوت الكمال. وقيل: معلومُ الوقت، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم، ٦٢/١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ إمّا بدل مِن ﴿رِزْقٌ﴾،[3] أو خبر مبتدأ مُضمَر، أي: ذلك الرزق فواكهُ. وتخصيصها بالذِّكر لأنّ أرزاق أهل الجنّة كلّها فواكه، أي:

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.

ما يؤكل لمجرّد التلذّذ دون الاقتيات؛ لأنّهم مُستغنون عن القُوت لكون خِلقتهم مُحكمةً محفوظة مِن التحلّل المُحوِج إلى البدل. وقِيل: لأنّ الفواكه مِن أتباع سائر الأطعمة، فذِكرها مُغنٍ عن ذِكرها.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله عزّ وجلّ، لا يلحقهم هوان، وذلك أعظم المَثوبات، وأليقُها بأولي الهِمَم. وقيل: مُكْرَمون في نَيله، حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال، كما هو شأن أرزاق الدنيا. وقُرئ: "مُكَرَّمُونَ" بالتشديد.[١]

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنّاتٍ ليس فيها إلّا النعيم، وهو ظرف، أو حالٌ مِن المستكِنّ في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ محتمل للحاليّة والخبريّة. فقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال مِن المستكنّ فيه، أو في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إمّا استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية تكاملِ مجالس أُنسِهم، أو حال مِن الضمير في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾،[٤] أو في أحد الجارَّين. وقد جُوّز كونه صفةً لـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.[٥]

[٤١٣ظ] ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمرٍ، فإنّ "الكأس" يطلق على / نفس الخمر، كما في قول مَن قال:

وكــأسٍ شـربـتُ عـلـى لـذّةٍ   وأخـرى تـداويـتُ مـنـهـا بـهـا[٦]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلّق بمُضمَر هو صفة لـ﴿كَأْسٍ﴾، أي: كائنةٍ مِن شرابٍ مَعِين، أو مِن نهرٍ مَعِين؛ وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهرُ للعيون، أو الخارجُ مِن العيون. مِن "عانَ الماءُ" إذا نَبَعَ، وُصِف به الخمر وهو للماء لأنّها تجري في الجنّة في أنهار كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد، ١٥/٤٧].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] الصافات، ٤٢/٣٧.
[٦] للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٧٣.

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفتان أيضًا لـ﴿كَأْسٍ﴾.[١] ووصفها بـ﴿لَذَّةٍ﴾ إمّا للمبالغة، كأنّها نفس اللذّة، أو لأنّها تأنيث "اللَّذّ" بمعنى "اللذيذ"، ووَزنه "فَعِل"، قال:

ولَـــذٍّ كطَعمِ الصَّـرخَـديّ[٢] تركتُهُ   بأرضِ العِدى مِن خِيفة الحَدَثانِ[٣]

يريد به النوم.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلةٌ كما في خمور الدنيا، مِن "غالَه" إذا أفسدَه وأهلكه، ومنه "الغُول".

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يَسكَرون، مِن "نُزِفَ الشاربُ فهو نَزيفٌ ومَنزوفٌ" إذا ذهب عقله، ويقال للمَطعون: "نُزِفَ فَماتَ" إذا خرجَ دمه كلّه. أُفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله مِن نفي الغَول عنها لِما أنّه مِن معظم مفاسد الخمر، كأنّه جنس برأسه.

والمعنى: لا فيها نوع مِن أنواع الفساد مِن مَغص أو صُداع أو خِمار أو عربَدة أو لغو أو تأثيم، ولا هم يَسكرون.

وقُرئ: "يُنزِفُونَ" بكسر "الزاء"،[٤] مِن "أنزَفَ الشاربُ" إذا نفِدَ عقلُه أو شرابُه. وقُرئ: "يَنْزُفُونَ" بضمّ "الزاء"،[٥] مِن "نَزُفَ يَنْزُفُ" بضمّ "الزاء" فيهما.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصرْن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمدُدن طَرْفًا إلى غيرهم، ﴿عِينٌ﴾ نُجْلُ العيون، جمع "عَيناء"، والنَّجَل: سَعة العين.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش م: الصَّرخَد بلد بالشام يُنسب إليه الخمر. «منه». | صَرخَد: بلد ملاصق لبلاد حَوران مِن أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة واسعة. معجم البلدان للحموي، ٤٠١/٣.

[٣] البيت بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «لذذ». وأورده للراعي النميري بلفظ:

ولَـــذٍّ كطعمِ الصرخديّ دفعتُهُ
عشيةَ خِمسِ القوم والعينُ عاشِقُه

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٠١/٩.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبّهن ببَيض النَّعام المَصون مِن الغبار ونحوِه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صُفرة، فإنّ ذلك أحسن ألوان الأبدان.

[٤١٤و] / ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوف على ﴿يُطَافُ﴾،[١] أي: يشربون فيتحادثون على الشراب، كما هو عادة الشرب، قال:

وما بقيت مِن اللذّات إلّا أحاديثُ الكرام على المُدامِ[٢]

فيُقبِل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف، وعمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا. فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقّق الوقوع حتمًا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ مصاحِب، ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنتُ عليه مِن الإيمان والتصديق بالبعث: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالبعث. وقُرئ بتشديد "الصاد"[٣] مِن "التصدّق". والأوّل هو الأوفق لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: لمبعوثون ومجزيّون، مِن "الدِّين" بمعنى الجزاء، أو لمَسوسون، يقال: "دانَه"، أي: ساسَه، ومنه الحديث: «العاقل مَن دانَ نفسه».[٤]

وقيل: كان رجل تصدّق بماله لوجه الله تعالى، فاحتاج، فاستَجْدى[٥] بعضَ إخوانه، فقال: «أين مالُك؟» قال: «تصدّقت به ليعوّضني الله تعالى في الآخرة خيرًا منه»، فقال: «أئنّك مِن المصدِّقين بيوم الدين؟ أو مِن المتصدّقين لطلب الثواب؟

---

[١] الصافات، ٤٥/٣٧.

[٢] بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠/٥. ونسبه الألوسي إلى محمّد بن فيّاض، بلفظ:
محادثةُ الكرامِ على الشرابِ
روح المعاني للألوسي، ٨٧/١٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كعب عن حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤. وهو في سنن الترمذي، ٦٣٨/٤ (٢٤٥٩)؛ وسنن ابن ماجه، ٣٢٨/٥ (٤٢٦٠)، بلفظ: «الكيِّس مَن دانَ نفسه».

[٥] وفي هامش م: أي: طلب الجدوى. «منه».

واللهِ لا أعطيك شيئًا».[1] فيكون التعرّض لذِكر موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنيّ على إنكار البعث.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائل بعدما حكى لجُلسائه مقالَ قرينه في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: إلى أهل النار؛ لأُريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيانَ صِدقه / فيما حكاه. وقيل: القائل هو الله تعالى، أو بعضُ الملائكة، يقول لهم: هل تحبّون أن تطّلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القَرين فتعلَموا أين منزلتكم مِن منزلتهم؟ قيل: إنّ في الجنّة كُوًى يَنظر منها أهلها إلى أهل النار. [٤١٤ظ]

﴿فَاطَّلَعَ﴾ أي: عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينَه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسَطها.

وقُرئ: "فَأَطَّلِعَ"[2] على لفظ المضارع المنصوب. وقُرئ: "مُطْلِعُونَ فَأَطْلَعَ"،[3] و"فَأُطْلِعَ"[4] بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارعِ المنصوب. يقال: "طلَعَ علينا فلان" و"اطَّلَعَ" و"أَطْلَعَ" بمعنًى واحد.

والمعنى: هل أنتم مطَّلعون إلى القرين فأطَّلِعَ أنا أيضًا، أو عرض عليهم الاطِّلاعَ فقبِلوا ما عرضه فاطَّلَع هو بعد ذلك. وإن جُعل الاطِّلاع متعدّيًا فالمعنى: أنّه لمّا شرَط في اطّلاعه اطّلاعَهم كما هو ديدَن الجُلساء فكأنّهم مُطْلِعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة.

وقُرئ: "مُطْلِعُونِ" بكسر "النون"[5] أراد مُطْلِعُونَ إيّايَ، فوُضع المتّصل موضع المنفصل، كقوله:

هــم الـفـاعـلـون الـخـيـرَ والآمِـرونَــه[6]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٦/١٦٩ (الكهف، ١٨/٣٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٠٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحَيصن. إتحاف فضلاء البشر للدمياطي، ص ٤٧٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٦ وفي هامش م: تمامه:

إذا ما خَشُوا مِن مُحدَثِ الدهر مُعظمًا

بغير نسبة في خزانة الأدب للبغدادي، ٤/٢٦٩. وهو في الكتاب لسيبويه، ١/١٨٨، بلفظ:

هُـم القـائلـون الخـيـرَ والآمِـرونـه

أو شُبّه اسم الفاعل بالمضارع، لِما بينهما مِن التآخي.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: القائل مخاطِبًا لقرينه: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: لَتُهلِكُني بالإغواء. وقُرِئ: "لَتُغْوِينِ".[1] و"التاء" فيه معنى التعجّب، و﴿إِن﴾ هي المخفّفة مِن "إنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمُها محذوف، و"اللام" فارقة، أي: تالله إنّ الشأن كِدْتَ لَتُرديني.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: مِن الذين أحضِروا العذابَ كما أُحْضِرتَهُ / أنت وأضرابُك. [٤١٥و]

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رجوع إلى محاورة جُلسائه بعد إتمام الكلام مع قَرينه تَبَجّحًا وابتهاجًا بما أتاح الله عزّ وجلّ لهم مِن الفضل العظيم والنعيمِ المقيم. و"الهمزة" للتقرير، وفيها معنى التعجّب. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه نظم الكلام، أي: أنحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بمَيّتين، أي: بمَن شأنُه الموت؟ وقُرِئ: "بِمَائِتِينَ".[2]

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا، وهي متناوِلة لِما في القبر بعد الإحياء للسؤال. قاله تصديقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤].

وقيل: إنّ أهل الجنّة أوّلَ ما دَخلوا الجنّة لا يعلمون أنّهم لا يموتون، فإذا جِيءَ بالموت على صورة كبشٍ أملَح وذُبِحَ فنُودي: «يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موتَ»؛[3] يعلمونَه فيقولون ذلك تحدّثًا بنعمة الله تعالى واغتباطًا بها.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[3] صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ صحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفّار، فإنّ النجاة مِن العذاب أيضًا نعمة جليلة مستوجِبة للتحدّث بها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمرَ العظيم الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وقيل: هو مِن قول الله عزّ وجلّ تقريرًا لقولهم وتصديقًا له. وقُرئ: "لَهُوَ الرِّزْقُ الْعَظِيمُ"،[1] وهو ما رُزِقوه مِن السعادة العُظمى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي: لنَيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيويّة السريعةِ الانصِرام، المَشوبةِ بفنون / الآلام. وهذا [٤١٥ظ] أيضًا يحتمل أن يكون مِن كلام ربّ العزّة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أصل "النُّزُل" الفضل والرِّيع، فاستعير للحاصل مِن الشيء، فانتصابُه على التمييز، أي: أذَلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذّة والسرور خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقّوم التي حاصِلها الألَم والغمّ؟ ويُقال: "النُّزُل" لِما يُقام ويُهيَّأ مِن الطعام الحاضر للنازل، فانتصابُه على الحاليّة. والمعنى: أنّ الرزق المعلوم نُزُل أهل الجنّة، وأهلُ النار نُزُلهم شجرة الزقّوم، فأيُّهما خير في كونه نُزُلًا؟ و﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ اسم شجرة صغيرة الورَق دَفِرَةٍ[2] مُرّةٍ كريهةِ الرائحة، تكون في تِهامة، سُمّيت به الشجرة الموصوفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنّهم لمّا سمعوا أنّها في النار قالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تُحرق الشجر؟ ولم يعلموا أنّ مَن قدَر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذّذ بها أقدَر على خَلق الشجر في النار، وحِفظه مِن الإحراق.

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥.

[2] أي: مُنْتِنة. والدَّفَر: النَّتْنُ خاصّة. انظر: الصحاح للجوهري، «دفر».

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۞﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَنبتُها في قَعر جهنّم، وأغصانُها ترتفع إلى دَرَكاتها. وقُرئ: "نَابِتَةٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ".[1]

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حَملُها الذي يخرج منها، مستعارٌ في طَلْع النخلة لمشاركته له في الشكل أو الطُّلوعِ مِن الشجر. قالوا: "أوّل التمر طَلْع، ثمّ خِلال، ثمّ بلَح، ثمّ بُسْر، ثمّ رُطَب، ثمّ تَمر".

﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ في تناهي القُبح والهول. وهو تشبيه بالمُخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلَك. وقيل: ﴿ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ الحيّات الهائلة القبيحة المنظر، لها أعراف. وقيل: إنّ شجرًا يُقال له: "الأَسْتَنُ" خَشِنًا مُنتِنًا مُرًّا، منكرَ الصورة، يُسمَّى ثمرُه "رءوسَ الشياطين".

﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۞﴾

[٤١٦و] ﴿فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾ / أي: مِن الشجرة، أو مِن طَلعها، فالتأنيث مكتسَب مِن المضاف إليه. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لِغلَبة الجوع، أو للقَسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك بابًا مِن العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على الشجرة التي مَلأُوا منها بطونهم بعدَ ما شبعوا منها، وغلبَهم العطش، وطال استسقاؤهم، كما يُنبئ عنه كلمة ﴿ثُمَّ﴾، ويجوز أن تكون لِما في شرابهم مِن مزيد الكراهة والبشاعة.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لَشرابًا مِن غسّاق أو صديدٍ مَشوبًا بماءِ حميم يُقَطِّع أمعاءَهم. وقُرئ بالضمّ،[2] وهو اسم لِما يُشاب، والأوّل مصدر سمّي به.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۞﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرهم. وقد قُرئ كذلك.[3] ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دَرَكاتها،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبان النحوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

أو إلى نفسِها، فإنّ الزقّوم والحميم نُزُلٌ يقدَّم إليهم قبلَ دخولها. وقيل: الحميم خارج عنها، لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٤٣/٥٥-٤٤]، يُذهَب بهم عن مَقارّهم ومنازلهم في الجحيم إلى شجرة الزقّوم، فيأكلون منها إلى أن يتملّئوا، ثمّ يُسقَون مِن الحميم، ثمّ يُردُّون إلى الجحيم. ويؤيّده أنّه قُرئ: "ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ".[١]

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذُكر مِن فنون العذاب بتقليد الآباء في الدين مِن غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسّك به أصلًا، أي: وجدوهم ضالّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يصلح شُبهةً فضلًا عن صلاحيّة الدليل.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ مِن غير أن يتدبّروا أنّهم على الحقّ أوّلًا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمّلٍ. و"الإهراع": الإسراع الشديد، كأنّهم يُزعَجُون ويُحَثُّون حثًّا على الإسراع على آثارهم. وقيل: هو إسراع فيه شِبهُ رَعدة.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ قومك قريش ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن الأمم السالفة، وهو جواب قسَم محذوف.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ / أي: أنبياءَ أولي عدد كثير، [٤١٦ظ] وذوي شأنٍ خطير، بيّنُوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبتَه الوَخيمة. وتكرير القسَم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كلٍّ مِن الجملتين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مِن الهول والفظاعة، لمّا لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأسًا. والخِطاب إمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلِّ أحدٍ ممّن يتمكّن مِن مشاهدة آثارِهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

وحيث كان المعنى أنّهم أُهلِكوا إهلاكًا فظيعًا استثنِي عنهم المخلَصون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعملِ بموجَب الإنذار. وقُرئ: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر "اللام"،[1] أي: الذين أخلَصوا دينهم لله تعالى.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيل لِما أُجمِلَ فيما قبلُ ببيان أحوال بعض المرسلين وحُسن عاقبتهم، متضمّن لبيان سُوءِ عاقبة بعض المنذَرين حسبما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس، ٧٣/١٠]، كقوم نوح وآل فرعونَ وقوم لوط وقوم إلياس، ولبيان حُسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى،[2] ووفّقهم للإيمان، كما أشار إليه الاستثناء، كقوم يونس عليهم السلام. ووجه تقديم قصّة نوح على سائر القصص غنيّ عن البيان.

و"اللام" جواب قسَم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي: وباللهِ لقد دعانا نوح حين يَئِس مِن إيمان قومه بعد ما دعاهم إليه أحقابًا ودُهورًا، فلم يزدهم دعاؤه إلّا فِرارًا ونُفورًا، فأجبناه أحسنَ الإجابة، فواللهِ لَنِعم المُجيبون نحن. فحُذف ما حُذف ثقةً بدلالة ما ذُكر عليه. والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مِن الغرَق. وقيل: مِن أذيّة قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ فحسبُ حيث أهلكنا الكفرة بموجَب دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، ٢٦/٧١]. وقد رُوي أنّه مات كلّ

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

[2] س – تعالى.

مَن كان معه في السفينة غيرَ أبنائه وأزواجهم.[١] أو هم الذين بقُوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة رضي الله عنه: «الناس كلّهم مِن ذرّية نوح عليه السلام».[٢] / وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافَثُ، فسام أبو العرب وفارسَ والروم، وحامٌ أبو السُّودان مِن المشرق إلى المغرب، ويافَثُ أبو التُّرك ويأجوجَ ومأجوجَ. [٤١٧و]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ مِن الأمم.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٨٢﴾

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: هذا الكلام بعَينه، وهو وارد على الحكاية، كقولك: "قرأتُ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور، ١/٢٤]". والمعنى: يُسلّمون عليه تسليمًا، ويدعون له على الدوام، أمّةٌ بعد أمّة. وقيل: ثَمّةَ قول مقدَّر، أي: فقلنا. وقيل: ضُمِّن ﴿تَرَكْنَا﴾[٣] معنى "قُلنا".

وقوله تعالى: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ متعلّق بالجارّ والمجرور. ومعناه الدعاء بثبات هذه التحيّة واستمرارها أبدًا في العالَمين مِن الملائكة والثقلَين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لِما فُعِل به عليه السلام مِن التكرمة السنيّة، مِن إجابة دعائه أحسنَ إجابةٍ، وإبقاءِ ذرّيّته، وتبقيةِ ذِكره الجميل، وتسليمِ العالَمين عليه إلى آخر الدهر؛ بكونه مِن زُمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه، وأنّ ذلك مِن قَبيل مُجازاة الإحسان بالإحسان، وذلك إشارة إلى ما ذُكر[٤] مِن الكرامات السنيّة التي وقعت جزاءً له عليه السلام. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته وبُعد منزلته في الفضل والشرف. و"الكاف" متعلّقة بما بعدها، أي: مثلَ ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان، لا جزاءً أدنى منه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣/٥.

٢ جامع البيان للطبري، ٥٦٠/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش م: إشارة إلى وجه التذكير. «منه».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعليل لكونه مِن المحسنين بخلوص عبوديّته، وكمال إيمانه. وفيه مِن الدلالة على جلالة قدرِهما ما لا يخفى.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: المغايرين لنوح وأهله، وهم كفّار قومه أجمعين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾

[٤١٧ظ] ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه في أصول الدين / ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شرائعهما. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتّفاق كلّي أو أكثري. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مِن أهل دينه، وعلى سنّته»،[١] أو ممّن شايَعه على التصلّب في دين الله، ومصابرةِ المكذّبين، وما كان بينهما إلّا نبيّان، هود وصالح عليهم السلام، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستُّمائة وأربعون سنةً.

﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو متعلّق بما في الشيعة مِن معنى المشايَعة، ﴿بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مِن آفات القلوب، أو مِن العلائق الشاغِلة عن التبتّل إلى الله عزّ وجلّ. ومعنى "المجيء به ربَّه" إخلاصُه له، كأنّه جاء به مُتحِفًا إيّاه بطريق التمثيل.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ بدل مِن الأولى، أو ظرف لـ﴿جَآءَ﴾، أو لـ﴿سَلِيمٍ﴾، أي: أيَّ شيء تعبدون؟

﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: أتريدون آلهةً مِن دون الله إفكًا، أي: للإفك، فقُدّم المفعول على الفعل للعناية، ثمّ المفعول له على المفعول به؛ لأنّ الأهمّ مكافحتهم بأنّهم على إفكٍ وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إِفۡكًا﴾ مفعولًا به بمعنى: أتريدون إفكًا؟ ثمّ يفسِّر "الإفك" بقوله: "آلهةً مِن دون الله" دلالةً على أنّها إفكٌ في نفسها للمبالغة، أو يُراد بها عبادتها بحذف المضاف، ويجوز أن يكون حالًا بمعنى "آفِكين".

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٤.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بمَن هو حقيق بالعبادة لكونه ربًّا للعالمين حتّى تركتم عبادته خاصّةً، وأشركتم به أخسَّ مخلوقاته؟ أو فما ظنّكم به أيُّ شيء هو مِن الأشياء حتّى جعلتم الأصنام له أندادًا؟ أو فما ظنّكم به ماذا يفعل بكم؟ وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم مِن الإشراك به؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾

/ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ قيل: كانت له عليه السلام حمّى لها نوبة معيّنة في [٤١٨و] بعض ساعات الليل، فنظر ليَعرف هل هي تلك الساعة، فإذا هي قد حضرت، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكان صادقًا في ذلك، فجعله عُذرًا في تخلّفه عن عيدهم. وقيل: أراد إنّي سقيم القلب لكفركم.

وقيل: نظر في علمها، أو في كُتبها، أو أحكامها. ولا منعَ مِن ذلك حيث كان قصده عليه السلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه السلام إلى مُعَيَّدِهم ليتركوه، فإنّ القوم كانوا نجّامين، فأوهمهم أنّه قد استدلّ بأمارةٍ في علم النجوم على أنّه سقيم، أي: مُشارِف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلبَ الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ليتفرّقوا عنه، فهربوا منه إلى مُعَيَّدِهم وتركوه في بيت الأصنام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: هاربين مخافةَ العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها في خُفْيةٍ، وأصلُه الميل بحيلةٍ، ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاءً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مِن الطعام الذي كانوا يصنعونه عندها لِتُبَرِّك عليه.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أي: بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ مستعليًا عليهم. وقوله تعالى: ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مصدر مؤكِّدٌ لِـ﴿رَاغَ عَلَيْهِمْ﴾، فإنّه بمعنى "ضَرَبهم"، أو لفعل مُضمَر هو حال مِن فاعله،

أي: فراغَ عليهم يضرِبهم ضربًا، أو هو الحال منه على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: فراغَ عليهم ضاربًا باليمين، أي: ضربًا شديدًا قويًا؛ وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتَين وأشدُّهما، وقوّة الآلة تقتضي قوّة الفعل وشدّته. وقيل: بالقوّة والمَتانة، كما في قوله:

إذا ما رايـةٌ رُفِـعَـتْ لِمَجدٍ تـلـقّـاها عَـرابـةُ بـالـيـمـينِ[1]

[٤١٨ظ] أي: بالقوّة، وعلى ذلك / مدارُ تسمية الحَلِف باليمين؛ لأنّه يقوّي الكلام ويؤكّده. وقيل: بسبب الحَلِف، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء، ٥٧/٢١].

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: المأمورون بإحضاره عليه السلام بعد ما رَجعوا عن عيدهم إلى بيت الأصنام، فوجدوها مكسورةً، فسألوا عن الفاعل، فظنّوا أنّه عليه السلام فعله، فقيل: فأْتُوا به.

﴿يَزِفُّونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَقْبَلُوٓاْ﴾، أي: يُسرعون، مِن "زَفِيف النَّعام". وقُرِئ: "يُزِفُّونَ"[2] مِن "أزَفَّ" إذا دخل في الزَّفيف، أو مِن "أَزَفَّه"، أي: حمله على الزَّفِيف، أي: يُزِفُّ بعضهم بعضًا، و"يُزَفُّونَ"[3] على البناء للمفعول، أي: يُحمَلُون على الزَّفيف، و"يَزِفُونَ"[4] مِن "وَزَفَ يَزِفُ" إذا أسرع، و"يَزْفُونَ"[5] مِن "زَفاه" إذا حَداه، كأنّ بعضهم يَزْفُو بعضًا، لتسارعهم إليه عليه السلام.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: بعد ما أتَوا به عليه السلام وجرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورات ما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾

---

١ للشمّاخ في ديوانه، ص ٣٣٦. ونسبه الجوهري للحطيئة، وقال: «وعَرابة، بالفتح: اسم رجل مِن الأنصار مِن الأوس». انظر: الصحاح للجوهري، «عرب».

٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن زيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[الأنبياء، ٦٢/٢١] إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء، ٦٥/٢١]: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه مِن الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾، مؤكِّدة للإنكار والتوبيخ، أي: والحال أنّه تعالى خلقكم وخلَق ما تعملونه، فإنّ جوهر أصنامهم ومادّتَها بخلقه تعالى، وشكلَها وإن كان بفعلهم لكنّه بإقداره تعالى إيّاهم عليه، وخلقِه ما يتوقّف عليه فعلُهم مِن الدواعي والعُدَدِ والأسبابِ.

و﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ إمّا عبارة عن الأصنام، فوضعُه موضع ضمير ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ للإيذان بأنّ مخلوقيّتها لله عزّ وجلّ ليس مِن حيث نَحْتُهم لها فقط؛ بل / مِن [٤١٩و] حيث سائرُ أعمالهم أيضًا مِن التصوير والتحلية والتزيين ونحوها، وإمّا على عمومه، فينتظم الأصنامَ انتظامًا أوّليًا مع ما فيه مِن تحقيق الحقّ ببيان أنّ جميع ما يعملونه كائنًا ما كان مخلوقٌ له سبحانه.

وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: عملَكم على أنّه بمعنى المفعول. وقيل: بمعناه، فإنّ فعلهم إذا كان بخَلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقّف على فعلهم أولى بذلك.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في النار الشديدة الاتّقاد، مِن "الجَحْمة"؛ وهي شدّة التأجُّج، و"اللام" عوض مِن المضاف إليه، أي: جحيم ذلك البنيان، وقد ذُكر كيفيّة بنائهم له في سورة الأنبياء.[١]

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنّه عليه السلام لمّا قهرهم بالحجّة وألقمهم الحجَر قصدوا ما قصدوا لئلّا يظهر للعامّة عجزهم، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلّين بإبطال كيدهم، وجعلِه برهانًا نيّرًا على علوّ شأنه عليه السلام بجعل النار عليه بردًا وسلامًا.

---

[١] الأنبياء، ٦٨/٢١.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: مهاجرٌ إلى حيث أمرَني ربّي، كما قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت، ٢٦/٢٩]؛ وهو الشام، أو إلى حيث أتجرّد فيه لعبادته تعالى.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مَقصدي. وبَتُّ القول بذلك لسبق الوعد، أو لفَرْط توكّله، أو للبناء على عادته تعالى معه، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص، ٢٢/٢٨]، ولذلك أتى بصيغة التوقّع.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: بعضَ الصالحين، يعينني على الدعوة والطاعة، ويُؤنِسُني في الغُربة، يعني الولدَ؛ لأنّ لفظ / الهبة على الإطلاق خاصّ به، وإن كان قد ورد مقيّدًا بالأخوّة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم، ٥٣/١٩]، ولقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ فإنّه صريح في أنّ المبشَّر به عينُ ما استوهبه عليه السلام. [٤١٩ظ]

ولقد جُمِع فيه بِشارات ثلاث: بشارة أنّه غلام، وأنّه يبلُغ أوانَ الحُلُم، وأنّه يكون حليمًا، وأيُّ حِلم يعادل حِلمَه عليه السلام حين عَرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.[1]

وقيل: ما نعتَ الله الأنبياءَ عليهم السلام بأقلّ ممّا نعتَهم بالحِلم لعِزّة وجوده غيرَ إبراهيمَ وابنه، فإنّه تعالى نَعَتَهُما به، وحالُهما المَحكيّة بَعدُ أعدلُ بيّنةٍ بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن مقدَّر قد حُذِف تعويلًا على شهادة الحال، وإيذانًا بعدم الحاجة إلى التصريح به

[1] في الآية التالية.

لاستحالة التخلّف والتأخّر بعد البِشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، أي: فوَهَبْناهُ له، فَنَشَأَ، فلمّا بلغ رتبةَ أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه.

و﴿مَعَهُ﴾ متعلّق بمحذوف ينبئ عنه ﴿ٱلسَّعْىَ﴾، لا بنفسه؛ لأنّ صلة المصدر لا يتقدّمه،[١] وَلا بـ﴿بَلَغَ﴾؛ لأنّ بلوغهما لم يكن معًا، كأنّه لمّا ذُكِر السعي قيل: مع مَن؟ فقيل: "معه"، وتخصيصه لأنّ الأب أكمل في الرفق والاستصلاح، فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنّه استوهبه لذلك، وكان له يومئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي: أرى هذه الصورةَ بعينها، أو ما هذه عبارتُه وتأويلُه. وقيل: إنّه رأى ليلة التروية كأنّ قائلًا يقول له: "إنّ الله يأمرك بذَبح ابنك هذا"، فلمّا أصبح روّى في ذلك مِن الصباح إلى الرَّواح؛ أمِن اللهِ هذا الحُلُم أم مِن الشيطان؟ فمِن ثمّةَ سمّي يومَ التروية، فلمّا أمسى رأى مِثل ذلك، فعَرف أنّه مِن الله تعالى، فمِن ثمّة / سُمّي [٤٢٠و]
يومَ عرفةَ، ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمّ بنحره، فسُمِّي اليومُ يومَ النحر.[٢]

وقيل: إنّ الملائكة حين بشّرتْه بغلام حليم قال: «إذَنْ ذبيح الله»، فلمّا وُلد وبلَغ حدَّ السعي معه قيل لَه: «أَوْفِ بنَذرك».[٣]

والأظهر الأشهر أنّ المخاطَب إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهِبَ إثْرَ المهاجَرة، ولأنّ البِشارة بإسحاق بعده معطوف على البِشارة بهذا الغلام، ولقوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا ابن الذبيحَين»،[٤] فأحدهما جدّه إسماعيل عليه السلام، والآخَر أبوه عبد الله، فإنّ عبدَ المطّلب نذَر أن يذبَح ولدًا إن سهّل الله تعالى له

---

[١] س: بتقدّمه.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣/٤.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٨٠/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤. وقال الزيلعي: «غريب». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٧٧/٣. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٦٠٤/٢ (٤٠٣٦)، مِن قول أعرابي للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولفظه: «فعُد عليّ بما أفاءَ الله عليك يا ابن الذبيحَين»، فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولم ينكِر عليه.

حفر بئر زمزم، أو بلغ بنوه عشرةً، فلمّا حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائةٍ مِن الإبل،[١] ولذلك سُنّت الدية مائةً.

ولأنّ ذلك كان بمكّة، وكان قرنا الكبش معلّقَين بالكعبة حتّى احترقا في أيّام ابن الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمّة، ولأنّ بشارة إسحاق كانت مقرونةً بولادة يعقوب منه، فلا يناسبه الأمر بذَبحه مراهِقًا.

وما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم سئل: «أيّ النسب أشرف؟» فقال: «يوسفُ صدّيق الله ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ الله ابنِ إسحاقَ ذبيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله»،[٢] فالصحيح أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ[٣] إبراهيمَ»،[٤] والزوائد مِن الراوي.[٥] وما رُوي مِن أنّ يعقوب كتب إلى يوسف مثلَ ذلك لم يثبت.[٦]

وقُرئ: "إِنِّيَ" بفتح "الياء" فيهما.[٧]

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مِن "الرأي"، وإنّما شاوَره فيه وهو أمر محتوم ليَعلم ما عنده فيما نزَل مِن بلاء الله تعالى فيثبّت قدمه إن جزِع، ويأمَنَ عليه إن سلِم، ليوطّنَ نفسه عليه فيهون، ويكتسبَ المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله. وقُرئ: "مَاذَا تُرِي"[٨] بضمّ "التاء" وكسر "الراء"،[٩] وبفتحها[١٠] مبنيًّا للمفعول.

---

[١] انظر حديث الأعرابي في جامع البيان للطبري، ٥٩٧/١٩؛ والمستدرك للحاكم، ٦٠٤/٢ (٤٠٣٦).

[٢] أخرج الطبراني في المعجم الكبير، ١٤٩/١٠ (١٠٢٧٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: «مَن أكرم الناس؟»، قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيحِ الله».

[٣] س: ابن.

[٤] أخرج البخاري في صحيحه، ١٥١/٤ (٣٣٩٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام».

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥/٥.

[٦] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥/٥. وانظر: تفسير ابن كثير، ٤٠٥/٤.

[٧] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

[٨] م ط س: ما تري. | وأظنه وقع سهوًا، والصواب ما أثبتُّه.

[٩] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

[١٠] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: تؤمر به، / فحُذف الجارّ أوّلًا على القاعدة المطّردة، ثمّ حُذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوبًا بإيصاله إلى الفعل، أو حُذِفا دفعةً، أو "افعَل أمرَك" على إضافة المصدر إلى المفعول وتسميةِ المأمور به أمرًا. وقُرئ: "مَا تُؤْمَرُ بِهِ".[1] وصيغة المضارع للدلالة على أنّ الأمر متعلّق به متوجّه إليه، مستمرّ إلى حين الامتثال به. [٤٢٠ظ]

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، أو على قضاء الله تعالى.[2]

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلَما لأمر الله تعالى، وانقادا وخضعا له. يقال: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسْلَمَ" و"اسْتَسْلَمَ" بمعنًى واحد، وقد قُرئ بهنّ جميعًا.[3] وأصلُها مِن قولك: "سَلِمَ هذا لِفلان" إذا خَلُص له، ومعناه: سَلِمَ مِن أن ينازِعَ فيه. وقولهم: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسْلَمَ له" منقولان منه. ومعناهما: أخلَصَ نفسه لله، وجعلها سالمةً له، وكذلك معنى "اسْتَسْلَمَ" استَخْلَص نفسه له تعالى. وعن قتادة رضي الله عنه في ﴿أَسۡلَمَا﴾: «أَسْلَمَ إبراهيمُ ابنَه، وإسماعيلُ نفسَه».[4]

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ صرَعه على شِقّه، فوقع جَبينُه على الأرض، وهو أحد جانبَي الجبهة. وقيل: كبّه على وجهه بإشارته كيلا يَرى منه ما يورث رِقّةً تحُول بينه وبين أمر الله تعالى، وكان ذلك عند الصخرة مِن مِنًى. وقيل: في الموضع المُشرِف على مسجد مِنى. وقيل: في المَنحر الذي يُنحر اليومَ.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.

٢ س - تعالى.

٣ هي ثلاث قراءات: "أَسْلَمَا" قراءة الجمهور. و"سَلَّمَا" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد والضحّاك وجعفر بن محمّد والأعمش والثوري. و"اسْتَسْلَمَا" قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٧/٩.

٤ جامع البيان للطبري، ٥٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨.

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيبِ مقدِّماته. وقد رُوي أنّه أمَرَّ السكّينَ بقوّته على حَلْقه مِرارًا فلم يقطع، ثمّ وضع السكّين على قَفاه فانقلب السكّين، فعند ذلك وقع النداء.[١]

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف إيذانًا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله، كأنّه قيل: كان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان مِن استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما مِن دفع البلاء بعد حلوله، والتوفيقِ لِما لم يوفَّق أحد
[٤٢١و] لمِثله، وإظهارِ / فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتفريج تلك الكُربة عنهما بإحسانهما. واحتجّ به مَن جوّز النسخ قبل وقوع المأمور به، فإنّه عليه السلام كان مأمورًا بالذبح لقوله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾،[٢] ولم يحصل.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاء البيّن الذي يتميّز فيه المخلِص عن غيره، أو المِحنةُ البيّنةُ الصعوبةِ؛ إذ لا شيءَ أصعب منها.

﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾

﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يُذبَح بدلَه فيتمّ به الفعل، ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: عظيمِ الجُثّة سمينٍ، أو عظيمِ القَدر؛ لأنّه يفدي به الله نبيًّا ابنَ نبي وأيِّ نبيّ مِن نسله سيّدُ المرسلين.

قيل: كان ذلك كبشًا مِن الجنّة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّه الكبش الذي قرّبه هابيل فتُقُبِّل منه، وكان يرعى في[٣] الجنّة حتّى فُدِي به إسماعيلُ عليه السلام».[٤] وقيل: فُدِي بوَعْل أُهبِطَ عليه مِن ثَبير.[٥]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤.

[٢] الصافات، ١٠٢/٣٧.

[٣] م + في.

[٤] جامع البيان للطبري، ٦٠١/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٨/٩.

[٥] جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

ورُوي أنّه هرَب مِن إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيّات حتّى أخذه،[1] فبقي سُنّةً في الرمي. ورُوي أنّه رمى الشيطانَ حين تعرّض له بالوسوسة عند ذبح ولده.[2]

ورُوي أنّه لمّا ذبحه قال جبريل عليه السلام: «الله أكبر، الله أكبر»، فقال الذبيح: «لا إلٰه إلّا الله، والله أكبر»، فقال إبراهيم: «الله أكبر، ولله الحمد»،[3] فبقي سُنّةً.

والفادي في الحقيقة هو إبراهيم، وإنّما قيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ لأنّه تعالى هو المعطي له والآمِرُ به على التجوّز في الفداء أو الإسناد.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قد سلف بيانه في خاتمة قصّة نوح.[4]

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إبقاءِ ذِكره الجميل فيما بين الأمم، لا إلى ما أشيرَ إليه فيما سبَق، فلا تكرارَ. وعدم تصدير الجملة بـ"إنّا" للاكتفاءِ بما مرّ آنفًا.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مقضيًّا بنبوّته / مقدَّرًا كونه مِن الصالحين، وبهذا الاعتبار وقعا حالَين. ولا حاجةَ إلى وجود المبشَّر به وقتَ البِشارة، فإنّ وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنّما الشرط مقارَنة تعلّقِ الفعل به لاعتبار معنى الحال، فلا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ يُجعل عاملًا فيهما مثلَ: [٤٢١ظ]

---

[1] جامع البيان للطبري، ٦٠٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤؛ تفسير القرطبي، ١٠٢/١٥.

[4] الصافات، ٧٩/٣٧.

"وبشّرناه بوجود إسحاقَ؛ أي بأن يوجدَ إسحاق نبيًّا مِن الصالحين"، ومع ذلك لا يصير نظيرَ قوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر، ٧٣/٣٩]، فإنّ الداخلين كانوا مقدِّرين خلودَهم وقت الدخول، وإسحاق عليه السلام لم يكن مقدِّرًا نبّوةَ نفسه وصلاحَها حين ما يوجد.

ومَن فسّر "الغلام" بإسحاق جعل المقصود مِن البِشارة نبوّتَه.

وفي ذِكر الصلاح بعد النبوّة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ إلى أنّه الغاية لها، لتضمّنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق.

﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ﴾ بأن أخرجنا مِن صُلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرَهم كأيّوب وشعيب عليهم السلام، أو أفَضْنا عليهما بركات الدين والدنيا. وقُرئ: "وَبَرَّكْنَا".[1]

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله، أو لنفسه بالإيمان والطاعة، ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ ظلمُه. وفيه تنبيه على أنّ النسب لا تأثيرَ له في الهداية والضلال، وأنّ الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصةٍ ولا عيبٍ.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوّة وغيرها مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ وهم بنو[2] إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو مَلَكةُ آل فرعونَ، وتسلُّطهم عليهم بألوان الغَشْم[3] والعذاب، كما في قوله تعالى:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

[2] م: بنوا.

[3] وفي هامش م: "الغَشْم": الظلم.

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الأعراف، ٧/١٤١]. وقيل: هو الغرَق،[1] وهو بعيد؛ لأنّه لم يكن عليهم كَربًا ومشقّةً.

﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: إيّاهما وقومَهما على عدوّهم، ﴿فَكَانُواْ﴾ بسبب ذلك ﴿هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ عليهم غلبةً لا غايةَ وراءَها بعدَ أن كان قومهما في أَسْرهم وقَسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوءَ العذاب. وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارِنةً لِما ذُكر مِن النصر والغلبة، لكنّها لمّا كانت / بحسب [٤٢٢و] المفهوم عبارةً عن التخليص عن المكروه بُدِئ بها ثمّ بالنصر الذي يتحقّق مدلوله بمَحض تنجية المنصور مِن عدوّه مِن غير تغليبه عليه، ثمّ بالغلَبة؛ لتوفية مَقام الامتنان حقَّه بإظهار أنّ كلّ مرتبة مِن هذه المراتب الثلاث نعمةٌ جليلة على حِيالها.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١١٨﴾

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾ بعدَ ذلك ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ أي: البليغَ في البيان والتفصيلِ، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الموصّلَ إلى الحقّ والصوابِ بما فيه مِن تفاصيل الشرائع وتفاريعِ الأحكام.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٢﴾

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: أبقَينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكرَ الجميل والثناءَ الجزيل.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاءِ الكاملِ ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين هما مِن جملتهم، لا جزاءً قاصرًا عنه.

﴿إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ سبق بيانه.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٩/٦٠٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٥٨.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين مِن سبط هارون أخي موسى عليهم السلام، بُعث بعده. وقيل: إدريس؛ لأنّه قُرئ مكانَه: "إِدْرِيسَ"،[١] و"إِدْرَاسَ".[٢] وقُرئ: "إِيلِيسَ".[٣] وقُرئ: "الْيَاسَ" بحذف "الهمزة".[٤]

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَ الله تعالى.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه وتطلبون الخيرَ منه؟ وهو اسم صنم كان لأهل بكٍّ مِن الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبكّ. قيل: كان مِن ذهَبٍ، طوله عِشرون ذراعًا، وله أربعة أوجه، فُتِنُوا به وعظّموه حتّى أخدموه أربعمائة سَادِنٍ، وجعلوهم أنبياءَ، فكان الشيطان يدخل جوفَه ويتكلّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنةُ يحفظونها ويعلّمونها الناس. وقيل: "البَعْل": الربّ بلغة اليمن، أي: أتعبدون بعض البُعول.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: وتتركون عبادتَه. وقد أشيرَ إلى المقتضي للإنكار المعنيّ بـ"الهمزة"، ثمّ صُرّح به بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب على البدليّة / مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. وقُرئ بالرفع[٥] على الابتداء. [٤٢٢ظ]

والتعرّض لذكر ربوبيّته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكارِ تركِهم عبادتَه تعالى، والإشعارِ ببطلان آراءِ آبائهم أيضًا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: العذابَ. والإطلاق للاكتفاء بالقرائن على أنّ الإحضار المطلقَ مخصوص بالشرّ عُرفًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن وثاب والأعمش والمنهال بن عمر والحكم بن عتيبة الكوفي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

٤ قرأ بها ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء مِن ضمير ﴿مُحْضَرُونَ﴾.[١]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ هو لغة في "إلياس"، كـ"سِيناء" في "سينين". وقيل: هو جمع له أريدَ به هو وأتباعه، كـ"المُهَلَّبِين" و"الخُبَيْبِين".[٢] وفيه أنّ العَلَم إذا جُمع يجب تعريفه كالمثالَين. وقُرئ بإضافة "آلِ" إلى "يَاسِينَ"؛[٣] لأنّهما في المصحف مفصولان، فيكون ياسين أبا إلياس.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مرّ تفسيره.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦﴾

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: اذكر وقت تَنْجيتنا إيّاه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو الماضين الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فإنّ في ذلك شواهد على جليّة أمره، وكونه مِن جملة المرسلين.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، وتشاهدون آثار هلاكهم، فإنّ سَذُومَ في طريق الشام، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي: ومساءً، أو نهارًا وليلًا، ولعلّها وقعت بِقُربِ مَنزلٍ يمرّ بها المرتحِل عنه صباحًا، والقاصدُ له مساءً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتّى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم؟

---

١ في الآية السابقة.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧/٥.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقُرئ بكسر "النون".[١] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هرَب.
[٤٢٣و] وأصله: الهرَبُ مِن السيّد، لكن لمّا كان هرَبُه مِن قومه / بغير إذن ربّه حَسُن إطلاقه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء.

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهلَه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار مِن المغلوبين بالقُرعة. وأصله: المُزْلَقُ عن مقام الظفَر. رُوي أنّه عليه السلام لمّا وَعد قومَه بالعذاب خرَج مِن بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به، فركِب السفينةَ، فوقفَتْ، فقالوا: «فيها عبد آبِق»، فاقترعوا، فخرجت القرعة عليه، فقال: «أنا الآبِق»، ورمى بنفسه في الماء.[٢]

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه، مِن "اللُّقمة"، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في المَلامة، أو آتٍ بما يُلام عليه، أو مُليمٌ نفسَه. وقُرئ: "مَلِيمٌ"[٣] بالفتح مبنيًا مِن "لِيمَ"، كـ"مَشِيبٍ" في "مَشوب".

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيرًا بالتسبيح مدّةَ عُمُره، أو في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء، ٨٧/٢١]. وقيل: مِن المصلّين؛ فإنّه عليه السلام كان كثيرَ الصلاة في الرخاء.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيًا. وقيل: ميتًا. وفيه حثّ على إكثار الذِّكر، وتعظيمٌ لشأنه، ومَن أقبل عليه في السرّاء أخذ بيده عند الضرّاء.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في سورة النساء من رواية ابن جمّاز عن نافع. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٣٧/٤ (النساء، ١٦٣/٤).

[٢] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٠/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٣/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١/٤.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٢٤/٩.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي عمّا يغطّيه مِن شجرٍ أو نبت.

رُوي أنّ الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبّح، ولم يفارقهم حتّى انتهَوا إلى البَرّ، فلفَظَه سالمًا لم يتغيّر منه شيء، فأسلَموا.[١] ورُوي أنّ الحوت قذَفه بساحل قرية مِن الموصل.[٢]

واختُلف في مقدار لُبثه؛ فقيل:[٣] أربعون يومًا. وقيل:[٤] عشرون، وقيل:[٥] سبعة، وقيل: ثلاثة، وقيل:[٦] لم يلبث إلّا قليلًا، ثمّ أُخرِج مِن بطنه بُعَيْدَ الوقت الذي التُقِمَ فيه. رُوي / أنّه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت: «إنّي جعلتُ بطنك له سِجنًا، ولم أجعله لك طعامًا».[٧] [٤٢٣ظ]

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ممّا ناله، قيل: صار بدَنه كبدَن الطفل حين يُولَد.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: فوقَه مُظِلّةً عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهو كلّ ما ينبسط على الأرض، ولا يقوم على ساق، كشجر البطّيخ والقثّاء والحنظل، وهو "يَفْعِيل" مِن "قَطَنَ بالمكان" إذا أقام به، والأكثرون على أنّه الدُّبّاء غطّته بأوراقها عن الذباب، فإنّه لا يقع عليه، ويدلّ عليه أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨/٥.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ تفسير القرطبي، ١٢٨/١٥. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «ثمّ انطلق به حتّى ألقاه في نِينَوى».

٣ وفي هامش م: كلبي. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٤ وفي هامش م: ضحّاك. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٥ وفي هامش م: عطاء. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٦ وفي هامش م: حسن البصري. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤، من غير نسبة إلى عطاء. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «فنُودي الحوت: أيا حوت، إنّا لم نجعل يونس لكَ رزقًا، إنّما جعلناك له حوزًا ومسجدًا».

وسلّم: «إنّك تُحِبّ القَرع؟»، قال: «أجَل، هي شجرةُ أخي يونس عليه السلام».[١] وقيل: هي التين. وقيل: المَوز، تَغَطّى بوَرقه، واستظلّ بأغصانه، وأفطر على ثماره. وقيل: كان يستظلّ بالشجرة، وكانت وَعْلَةٌ تختلف إليه، فيشرب مِن لبنها.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرَب منهم، وهم أهلُ نِينَوَى، والمراد به إرساله السابق، أُخبِر أوّلًا بأنّه مِن المرسلين على الإطلاق، ثمّ أُخبِر بأنّه قد أرسل إلى أمّة جمّةٍ. وكأنّ توسيط تذكير وقت هرَبه عليه السلام إلى الفُلك وما بعده بينهما لتذكير سببه، وهو ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه مِن إنذاره إيّاهم عذابَ الله تعالى، وتعيينِه لوقت حلوله، وتعلُّلِهم وتعليقِهم لإيمانهم بظهور أَماراته، كما مرّ تفصيله في سورة يونس؛[٢] ليُعلَم أنّ إيمانهم الذي سيُحكَى بعدُ لم يكن عَقيبَ الإرسال كما هو المتبادر مِن ترتيب الإيمان عليه بـ"الفاء"؛ بل بعدَ اللَّتيا والتي.[٣]

وقيل: هو إرسال آخَر إليهم. وقيل: إلى غيرهم،[٤] وليس بظاهر.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: في مَرأَى الناظر، فإنّه إذا نظر إليهم قال: إنّهم مائةُ ألف أو يزيدون، والمراد هو الوصف بالكَثرة. وقُرئ بـ"الواو".[٥]

[٤٢٤و] ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي: بعد ما شاهَدوا علائم حلول العذاب إيمانًا / خالصًا، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: بالحياة الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قدّره الله سبحانه لهم.

---

١ س - عليه السلام. | الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥. قال الولي العراقي: لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قصّة يونس، قال النبيّ عليه السلام: «واليقطين القَرع». الفتح السماوي للمناوي، ٩٥٧/٣. وفي صحيح البخاري، ٧٩/٧ (٥٤٣٩)، مِن حديث أنس رضي الله عنه: «فرأيت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يتتبّع الدبّاء مِن حول الصَّحفة»، فلم أزَل أحبُّ الدبّاءَ مِن يومئذ.

٢ يونس، ٩٨/١٠.

٣ اللَّتيا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللَّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمد وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أمر الله عزّ وجلّ في صدر السورة الكريمة رسولَه صلّى الله عليه وسلّم بتبكيت قريش، وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء، وساقَ البراهينَ القاطعة الناطقة بتحقّقه لا محالةَ، وبيّنَ وقوعَه وما سيلقونه عند ذلك مِن فنون العذاب، واستثنى منهم عباده المخلَصين، وفصّل ما لهم مِن النعيم المقيم، ثمّ ذكَر أنّه قد ضلّ مِن قبلهم أكثرُ الأوّلين، وأنّه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال، ثمّ أوردَ قصصَ كلٍّ واحد منهم على وجه التفصيل مُبيّنًا في كلّ قصّةٍ منها أنّهم مِن عباده تعالى، واصِفًا لهم تارةً بالإخلاص، وأخرى بالإيمان.

ثمّ أمره صلّى الله عليه وسلّم ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمرٍ منكَرٍ خارجٍ عن العقول بالكلّيّة، وهي القسمة الباطلة اللازمة لِما كانوا عليه مِن الاعتقاد الزائغ، حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جُهَينةَ وبني سلمة وخُزاعة وبني مُلَيح: "الملائكةُ بناتُ الله".

و"الفاء" لترتيب الأمر على ما سبق مِن كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخَلق عليهم السلام عبادَه تعالى، فإنّ ذلك ممّا يؤكّد التبكيت، ويُظهِرُ بطلان مذهبهم الفاسد، ثمّ بتبكيتهم بما يتضمّنه كفرهم المذكور مِن الاستهانة بالملائكة بجعلِهم إناثًا، ثمّ أبطَلَ أصلَ كفرهم المنطوي على هذَين الكُفرين، وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا،[1] ولم ينظِمه في سِلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك.

أي: فاستخبِرْهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ / اللاتي هنّ أوضعُ الجنسين، ﴿وَلَهُمُ [٤٢٤ظ]
ٱلْبَنُونَ﴾ الذين هم أرفعهما؟ فإنّ ذلك ممّا لا يقول به مَن له أدنى شيء مِن العقل.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ إضراب وانتقال مِن التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشيرَ إليه، أي: بل أخلقنا الملائكة الذين هم

---

[1] س: كبير.

مِن أشرف الخلائق وأبعدهم مِن صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثًا، والأنوثةُ مِن أخسّ صفات الحيوان؟

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم، كقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف، ٥١/١٨]، فإنّ أمثال هذه الأمور لا تُعلم إلّا بالمشاهدة؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتها بطريق العقل. وانتفاءُ النقل ممّا لا ريب فيه، فلا بدّ أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدًا عند خَلقهم.

والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أخلقناهم إناثًا والحال أنّهم حاضرون حينئذ؟ أو عطفٌ على ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أهُم شاهدون؟

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ استئناف مِن جهته غيرُ داخل تحت الأمر بالاستفتاء، مَسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أنّ مَبناه ليس إلّا الإفكَ الصريحَ والافتراءَ القبيحَ، مِن غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعًا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم ذلك كذبًا بيّنًا لا ريب فيه.

وقُرئ: "وَلَدُ اللهِ"[١] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: الملائكة ولَدُه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فإنّ "الولَد" "فَعَلٌ" بمعنى "مفعول"، يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذِبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيّن الاستحالة، هو اصطفاؤه تعالى البناتِ على البنين، و"الاصطفاءُ" أخذ صفوة الشيء لنفسه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

وقُرِئ بكسر "الهمزة"[1] على حذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة القرائن عليه. وجعلُه بدلًا[2] مِن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾[3] ضعيف. وتقديرُ القول -أي: لكاذبون في قولهم: "اصْطَفى"... إلخ-[4] / تعسّفٌ بعيد. [٤٢٥و]

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحُكم الذين يقضي ببطلانه بديهةُ العقل؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءَين مِن "تَتذكَّرون". وقُرِئ: "تَذْكُرُونَ"[5] مِن "ذَكَرَ". و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: ألَا تلاحظون ذلك فلا تتذكّرون بطلانه، فإنّه مَركوز في عقل كلِّ ذكيّ وغبيّ.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ إضراب وانتقال مِن توبيخهم وتبكيتهم بما ذُكر إلى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلًا، أي: بل ألَكم حجّة واضحة نزلت عليكم مِن السماء بأنّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورةَ أنّ الحكم بذلك لا بدَّ له مِن سنَدٍ حِسّي أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما فلا بدَّ مِن سَنَدٍ نقلي، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الناطقِ بصحّة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيها.

وفي هذه الآيات مِن الإنباء عن السخط العظيم، والإنكارِ الفظيع لأقاويلهم، والاستبعادِ الشديد لأباطيلهم، وتسفيهِ أحلامهم، وتركيكِ عقولهم وأفهامهم، مع استهزاءٍ بهم، وتعجيبٍ مِن جهلهم؛ ما لا يخفى على مَن تأمّل فيها.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطِهم عن درجة الخطاب، واقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم، وتُحكى جناياتهم لآخَرين.

---

١ قرأ بها أبو جعفر ووَرش مِن طريق الأصبهاني. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥.

٣ في الآية السابقة.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

والمراد بـ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ الملائكة، قالوا: الجنس واحد، ولكنّ مَن خَبُثَ مِن الجنّ ومَرَدَ وكان شرًّا كلُّه فهو شيطان، ومَن طَهُر منهم ونسَكَ وكان خيرًا كلُّه فهو ملَك.

وإنّما عُبِّر عنهم بذلك الاسم وَضعًا منهم وتقصيرًا بِهم مع عِظَم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلُغوا منزلة المناسَبة التي أضافوها إليهم، فجَعْلُهم هذا عبارةٌ عن قولهم: "الملائكة بنات الله"، وإنّما أُعيد ذِكره تمهيدًا لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: وباللهِ لقد علِمَت الجِنّة التي عظّموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسَبًا -وهم الملائكة- إنّ الكفرة لَمحضَرون النار، معذَّبون بها لكذِبهم وافترائهم في قولهم ذلك. والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أنّ الذين يدّعي هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلَمون / أنّهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذّبونهم في ذلك، ويحكمون بأنّهم معذَّبون لأجله حكمًا مؤكّدًا. [٤٢٥ظ]

وقيل: إنّ قومًا مِن الزنادقة يقولون: "الله تعالى وإبليس أخوان، فالله هو الخيِّر الكريم، وإبليس هو الشرّير اللئيم"، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. قال الإمام الرازي: «وهذا القول عندي أقرب الأقاويل، وهو مذهب المَجوس القائلين بيَزْدان وأهْرَمَن».[١]

وقال مجاهد: «قالت قريش: "الملائكة بنات الله"، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: "فمَن أمّهاتُهم؟" تبكيتًا لهم، فقالوا: "سَروات الجنّ"».[٢]

وقيل: معنى ﴿جَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: جعلوا بينهما مناسبةً، حيث أشركوا به تعالى الجنّ في استحقاق العبادة.

فعلى هذه الأقاويل يجوز أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾، فالمعنى: لقد علِمَت الشياطين أنّ الله تعالى يُحضِرهم النار، ويعذّبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاءَ في استحقاق العبادة لَما عذّبهم. والوجه هو الأوّل.

---

١ تفسير الرازي، ٣٦٠/٢٦.

٢ تفسير مجاهد، ص ٥٧١؛ جامع البيان للطبري، ٦٤٥/١٩.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾

فإنّ قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إيّاه تعالى عمّا وصفه المشركون به بعدَ تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قولٍ معطوفٍ على ﴿عَلِمَتْ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ شهادة منهم ببراءة المخلَصين مِن أن يَصِفوه تعالى بذلك، متضمّنة لتبرُّئهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلَصين على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، على أنّه استثناء منقطع مِن "واو" ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنّه قيل: ولقد علمَت الملائكة أنّ المشركين لَمُعذَّبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحان الله عمّا يصفونه به، لكنّ عبادَ الله الذين نحن مِن جملتهم بُرَآء مِن ذلك الوصف.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ تعليل وتحقيق لبراءة المخلَصين ممّا ذُكر ببيان عجزِهم عن إغوائهم وإضلالهم. والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام.

و﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ عبارة عن الشياطين الذين أغوَوهم. وفيه إيذان بتبرُّئهم عنهم وعن عبادتهم، كقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ، ٣٤/٤١]. و﴿مَا﴾ [٤٢٦و]
نافية، و﴿أَنتُمْ﴾ خطاب لهم ولمَعبوديهم تغليبًا. و"على" متعلّقة بـ﴿فَٰتِنِينَ﴾، يقال: "فَتَنَ فلان على فلانٍ امرأتَه"، أي: أفسَدَها عليه.

والمعنى: فإنكم ومعبوديكم أيّها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ منهم، أي: داخلُها لِعلمه تعالى بأنّه يُصِرّ على الكفر بسوءِ اختياره، ويصير مِن أهل النار لا محالةَ، وأمّا المخلَصون منهم فأنتم بمَعزِل مِن إفسادهم وإضلالهم، فهم لا جرَمَ بُرَآءُ مِن أن يَفْتَتِنوا بكم ويسلكوا مَسلَككم في وصفه تعالى بما وصفتموه به.

---

[١] في الآية السابقة.

وقُرِئ: "صَالُ" بضمّ "اللام"[١] على أنّه جمع محمول على معنى ﴿مَنْ﴾، قد سقط واوه لالتقاء الساكنين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تبيين لجَليّة أمرهم، وتعيينٌ لحيِّزهم في موقف العبوديّة بعدَ ما ذُكر مِن تكذيب الكفرة فيما قالوا، وتنزيهِ الله تعالى عن ذلك، وتَبْرئةِ المخلَصين عنه، وإظهارٌ لقصور شأنهم وقَماءَتِهم.

أي: وما منّا أحدٌ إلّا له مقام معلوم في العبادة، والانتهاءُ إلى أمر الله عزّ وجلّ مقصور عليه لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزِلّ عنه خضوعًا لعظَمته، وخشوعًا لهَيبته، وتواضعًا لجَلاله، كما رُوي: «فمنهم راكع لا يُقيم صُلبَه، وساجدٌ لا يرفع رأسه».[٢]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما في السماوات موضع شِبر إلّا وعليه ملَك يصلّي أو يسبّح».[٣]

ورُوي أنّه قال عليه السلام: «أطَّت السماء، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وفيه ملَك واضع جبهتَه ساجد لله تعالى».[٤]

وقال السدّي: «﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في القُربة والمشاهَدة».[٥]

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في مواقف الطاعة ومواطِنِ الخدمة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المقدِّسونَ لله سبحانه عن كلّ ما لا يَليق بجناب كبريائه. وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لإبراز أنّ صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط، هذا هو

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٢٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٢؛ اللباب لابن عادل، ١٦/٣٥٧.

٤ سنن الترمذي، ٤/٥٥٦ (٢٣١٢)؛ سنن ابن ماجه، ٥/٢٨٣ (٤١٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٢؛ اللباب لابن عادل، ١٦/٣٥٧.

الذي يقتضيه جزالة التنزيل. وقد ذُكر في تفسير الآيات الكريمة وإعرابها وجوهٌ أُخَر، فتأمّل، والله الموفّق.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ / ﴿إِن﴾ هي المخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: إنّ الشأن كانت قريش تقول: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتابًا مِن كُتب الأوّلين مِن التوارة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لأخلَصنا العبادة لله تعالى، ولَما خالَفْنا كما خالفوا، وهذا كقولهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر، ٤٢/٣٥]. [٤٢٦ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ فصيحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فجاءَهم ذِكرٌ وأيُّ ذِكر، سيّدُ الأذكار، وكتابٌ مهيمَنٌ على سائر الكتب والأسفار، فكفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ كفرهم وغائلتَه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئناف مقرِّر للوعيد، وتصديرُه بالقَسَم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وباللهِ لقد سبَق وَعدُنا لهم بالنصرة والغلَبة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة. ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، فإنّ قاعدة أمرهم وأساسه الظفَر والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شَوبٌ مِن الابتلاء والمِحنة، والحكمُ للغالب.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إن لم يُنصَرُوا في الدنيا نُصِروا في الآخرة».[2]

---

[1] م ط س: فقلنا. | وهي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢].

[2] الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

وقُرئ: "عَلَى عِبَادِنَا"[١] بتضمين ﴿سَبَقَتْ﴾ معنى "حقّت". وتسميتها "كلمةً" مع أنّها كلمات لانتظامها في معنًى واحد. وقُرئ: "كَلِمَاتُنَا".[٢]

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عنهم واصبر ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدّة يسيرة، وهي مدّة الكَفّ عن القتال. وقيل: يوم بدر. وقيل: يوم الفتح. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على أسوإِ حالٍ، وأفظعِ نَكالٍ حلّ بهم مِن القتل والأسر. والمراد بالأمر بإبصارهم الإيذانُ بغاية قُربه، كأنّه بين يديه.

[٤٢٧و] ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذ مِن الأمور، / و"سوف" للوعيد دون التبعيد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ رُوي أنّه لمّا نزل: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾،[٣] قالوا: متى هذا؟ فنزل.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: فإذا نزل العذاب الموعود بفِنائِهم كأنّه جيش قد هجمهم فأناخ بفِنائهم بغتةً، فشَنَّ عليهم الغارة وقطع دابِرَهم بالمرّة. وقيل: المراد نزول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح. وقُرئ: "نُزِلَ بِسَاحَتِهِمْ"[٤] على إسناده إلى الجارّ والمجرور. وقُرئ: "نُزِّلَ"[٥] مبنيًا للمفعول مِن "التنزيل"، أي: نُزِّل العذاب.

﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ فبِئس صباح المنذَرين صباحُهم. و"اللام" للجنس. و"الصباح" مستعار مِن صباح الجيش المُبَيِّتِ لوقت نزول العذاب. ولمّا كثُرت منهم الغارة في الصباح سَمَّوها صباحًا وإن وقعت ليلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٩/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا أتى خيبرَ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، قالوا: «محمّدٌ والخَمِيس»، ورجعوا إلى حصنهم، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «الله أكبرُ، خَرِبَت خَيْبَرُ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صباح المنذَرين».[1]

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ۝١٧٩ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تسليةٍ، وتأكيدٌ لوقوع الميعاد غِبَّ تأكيد، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول مِن الإيذان بأنّ ما يُبصره عليه السلام حينئذ مِن فنون المسارّ، وما يبصرونه مِن ألوان المَضارّ، لا يحيط به الوصف والبيان. وقيل: أريدَ بالأوّل عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تَنزيه لله سبحانه عن كلّ ما يصفه المشركون به ممّا لا يَليق بجَناب كبريائه وجَبروته ممّا ذُكر في السورة الكريمة وما لم يُذكر مِن الأمور التي مِن جُملتها تركُ إنجازِ الموعود على / موجَب كلمته السابقة لا سيّما في حقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما [٤٢٧ظ] يُنبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة المُعرِبة عن التربية والتكميل والمالكيّة الكلّيّة، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام أوّلًا، وإلى العزّة ثانيًا، كأنّه قيل: سبحان مَن هو مربّيك ومكمِّلك ومالكُ العزّة والغلبة على الإطلاق عمّا يصفه المشركون به مِن الأشياء التي منها ترك نُصرتك عليهم، كما يدلّ عليه استعجالُهم بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عمّا ذُكر، وتَنوِيهٌ بشأنهم، وإيذانٌ بأنّهم سالِمون عن كلّ المكارِه، فائزون بجميع المآرب.

---

[1] صحيح البخاري، ١٢٥/١ (٦١٠)؛ صحيح مسلم، ١٠٤٥/٢ (١٣٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى وصفه عزّ وجلّ بصفاته الكريمة الثبوتيّة بعد التنبيه على اتّصافه بجميع صفاته السلبيّة، وإيذانٌ باستتباعها للأفعال الجميلة التي مِن جملتها إفاضتُه عليهم مِن فنون الكرامات السنيّة والكمالات الدينيّة والدنيويّة، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تبعهم مِن صنوف النَّعماء الظاهرة والباطنة، الموجِبةِ لحمده تعالى، وإشعارٌ بأنّ ما وعده عليه السلام مِن النصرة والغلبة قد تحقّقت، والمرادُ تنبيه المؤمنين على كيفيّة تسبيحه تعالى وتحميده، والتسليمِ على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عزّ وعلا في فيضان الكمالات الدينيّة والدنيويّة عليهم.

ولعلّ توسيطَ التسليم على المرسلين بينَ تسبيحه تعالى وتحميده لخَتم السورة الكريمة بحمده تعالى، مع ما فيه مِن الإشعار بأنّ توفيقه تعالى للتسليم عليهم مِن جملة نِعَمه المُوجِبة للحمد.

عن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «مَن أحبّ أن يُكتال بالمِكيال الأوفى مِن الأجر يوم القيامة فليكن آخِرُ كلامه إذا قام مِن مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».[2]

وعن رسول صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أُعطِي مِن الأجر عَشرُ حسنات بعدَد كلّ جنّي وشيطان، وتباعدَت عنه مرَدة الشياطين، وبَرئَ مِن الشرك، وشهِد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمِنًا بالمرسلين».[3]

---

١ ط س - تعالى.

٢ مصنّف عبد الرزّاق، ٢٣٦/٢ (٣١٩٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٤/٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٨/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢١/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة صٓ [٤٢٨و]

مكّيّة، وهي ستّ وثمانون[1] آيةً.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

﴿صٓ﴾ بالسكون على الوقف. وقُرئ بالكسر[3] والفتح[4] لالتقاء الساكنَين، ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلَنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكر" أو "اقرأ"، لا فتحًا كما مرّ في فاتحة سورة البقرة. وامتناعُ الصرف للتعريف والتأنيث؛ لأنّها عَلَم للسورة، وقد صرَفها مَن قرأ "صَادٍ" بالتنوين[5] على أنّه اسم الكتاب أو التنزيل.

وقيل: هو في قراءة الكسر أمْرٌ مِن "المُصاداة"، وهي المعارَضة والمقابَلة، ومنها "الصَّدَى" الذي ينعكس مِن الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت، ومعناه: عارِضِ القرآن بعملك، فاعمل بأوامره، وانتَهِ عن نواهيه، وتخلَّقْ بأخلاقه.

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مَسرودًا على منهاج التحدّي، أو الرمزِ إلى كلامٍ مِثل: "صدَق الله" أو "صدَق محمّد" كما نُقل عن أكابر السلَف،[6] أو اسمًا للسورة خبرًا لِمبتدأ محذوف، أو نصبًا على إضمار "اذكر" أو "اقرأ"، أو أمرًا مِن "المُصاداة"؛ فـ"الواو" في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقَسَم.

---

[1] ط + وقيل: ثمان وثمانون.

[2] م – سورة ص، مكّيّة، وهي ستّ وثمانون آيةً.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه وابن أبي إسحاق والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٥/٩.

[6] انظر: جامع البيان للطبري، ٧/٢٠؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٨/٣.

وإن جُعِل مقسَمًا به فهي للعطف عليه. فإن أريدَ بـ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ كلُّه فالمغايرة بينهما حقيقيّة، وإن أريدَ عينُ السورة فهي اعتباريّة، كما في قولك: "مرَرتُ بالرجل الكريم وبالنسَمة المباركة". وأيًّا ما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسَم عليها.

و﴿ٱلذِّكْرِ﴾ الشرَف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أو الذكرى والموعظة، أو ذِكرُ ما يُحتاج إليه في أمر الدين مِن الشرائع والأحكام وغيرها مِن أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، وأخبارِ الأمم الدارجة، والوعدِ والوعيد.

وجواب القسَم على الوجه الأوّل والرابع والخامس محذوف، هو ما يُنبئ عنه التحدّي والأمرُ والإقسامُ به مِن كون المتحدَّى به معجِزًا، وكونِ المأمور به واجبًا، وكونِ المقسَم به حقيقًا بالإعظام، / أي: أقسمُ **بالقرآن** أو بِـ"صَادْ" وبِه إنّه لَمعجِز، أو لَواجبُ العمل، أو لَحَقيقٌ بالإعظام. [٤٢٨ظ]

وأمّا على الوجهَين الباقيَين فهو الكلام المرموز إليه، ونفسُ الجملة المذكورة قبل القسَم، فإنّ التسمية تنويه بشأن المسمَّى، وتنبيه على عِظَم خطَره، أي: إنّه لصادق **والقرآنِ** ذي الذِكر، أو هذه السورة عظيمة الشأن **والقرآنِ**... إلخ، على طريقة قولهم: "هذا حاتِمٌ واللهِ".

ولمّا كان كلّ واحد مِن هذه الأجوبة مُنبِئًا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلّيّة إنباءً بيّنًا كان قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنّه قيل: لا ريبَ فيه قطعًا، وليس عدمُ إذعان الكفرة له لِشائبة ريبٍ ما فيه؛ بل هم في استكبارٍ وحميّةٍ شديدةٍ وشقاقٍ بعيد لله تعالى ورسوله، ولذلك لا يُذعنون له.

وقيل: الجواب ما دلّ عليه الجملة الإضرابيّة، أي: ما كفَر به مَن كفَر لِخلَل وجده فيه؛ بل الذين كفروا... إلخ.

وقُرئ: "فِي غِرَّةٍ"،[١] أي: في غفلة عمّا يجب عليهم التنبّهُ له مِن مبادئ الإيمان ودواعيه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣﴾

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَن قبلهم مِن المستكبرين. و﴿كَمۡ﴾ مفعول ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، و﴿مِن قَرۡنٖ﴾ تمييز. والمعنى: وقَرْنًا كثيرًا أهلكنا مِن القرون الخالية، ﴿فَنَادَواْ﴾ عند نزول بأسنا وحلولِ نقمتنا استغاثةً وتوبةً، لينجوا مِن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ حال مِن ضمير ﴿نَادَواْ﴾، أي: نادَوا واستغاثوا طلَبًا للنجاة، والحال أن ليس الحينُ حينَ مناصٍ، أي: فَوتٍ ونجاةٍ، مِن "ناصَهُ"، أي: فاتَه، لا مِن "ناصَ" بمعنى: تأخَّر، ولا هي المشبَّهة بـ"ليس" زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على "رُبَّ" و"ثَمَّ". وخُصَّت بنفي الأحيان، ولم يَبرُزْ إلّا أحد مَعمولَيها، / والأكثر حذف اسمها. [٤٢٩و]

وقيل: هي النافية للجنس، زيدت عليها "التاء"، وخُصّت بنفي الأحيان، و﴿حِينَ مَنَاصٖ﴾ منصوب على أنّه اسمها، أي: ولا حينَ مناصٍ لهم، أو بفعل مضمَر، أي: ولا أرَى حينَ مناصٍ.

وقُرئ بالرفع،[1] فهو على الأوّل اسمُها، والخبر محذوف، أي: ليس حينُ مناصٍ حاصلًا لهم، وعلى الثاني مبتدأ محذوف الخبر، أي: ولا حينُ مناصٍ كائنٌ لهم. وقُرئ بالكسر،[2] كما في قوله:

طلبوا صُلحَنا ولاتَ أوانٍ ... فأجبنا أن لاتَ حينَ بقاءِ[3]

إمّا لأنّ "لاتَ" تَجرّ الأحيانَ، كما أنّ "لولا" تَجرّ الضمائر في نحو قوله:

لولاكَ هذا العامَ لم أحجُجِ[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتُ حِينُ" بضمّ "التاء" ورفع "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٦/٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتِ حِينِ" بكسر "التاء" وجرّ "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٦/٩.

[3] لأبي زُبيد الطائي في الكشّاف للزمخشري، ٧١/٤. وهو كذلك في لسان العرب لابن منظور، «لا»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٦٤٠/٢، بلفظ: "أن ليس حينَ بقاءِ".

[4] صدره:
أوْمَتْ بكفَّيها مِن الهَودجِ
وهو في شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٤٧٩، في قسم الشعر المنسوب إليه.

أو لأنّ "أوانٍ" شُبِّه بـ"إذٍ" في قوله:

نَهَيتُكَ عن طِلابِكَ أمَّ عمرو   بعاقِبةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ[1]

في أنّه زمانٌ قُطع منه المضاف إليه، وعُوِّض التنوينَ؛ لأنّ أصله "أوانَ صلحٍ"، ثمّ حُمِل عليه "حينَ مناصٍ" تنزيلًا لقطع المضاف إليه مِن "مَناصٍ" -إذ أصله "حينَ مَناصِهم"- منزلةَ قطعه مِن "حين"، لِما بين المضافَين مِن الاتّحاد، ثمّ بُني "الحينُ" لإضافته إلى غير متمكِّن.

وقُرئ: "لَاتِ" بالكسر،[2] كـ"جَيْرِ".[3] ويقف الكوفيّون عليها بـ"الهاء"[4] كالأسماء، والبَصريّة بـ"التاء" كالأفعال.

وما قيل[5] مِن أنّ "التاء" مزيدة على "حِينَ" لاتّصالها به في الإمام ممّا لا وجهَ له، فإنّ خطَّ المصحف خارج عن القياس.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرّعة على ما حُكي مِن استكبارهم وشِقاقهم، أي: عجِبوا مِن أن جاءهم رسولٌ مِن جنسهم؛ بل أدوَنُ منهم في الرياسة الدنيويّة والمال، على معنى أنّهم عدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارجًا عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشدّ الإنكار، لا أنّهم اعتقدوا وقوعَه وتعجّبوا منه.

[٤٢٩ظ] / ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وُضع فيه الظاهر موضعَ الضمير غضبًا عليهم، وإيذانًا بأنّه لا يَتجاسر على مِثل ما يقولونه إلّا المتوغِّلون في الكفر والفسوق:

---

١ لأبي ذُؤيب الهذلي في الصحاح للجوهري، «إذ»؛ ولسان العرب لابن منظور، «أذذ». و"الطِّلاب" بمعنى الطَّلَب. و"بِعاقبة": حال مِن "الكاف" الأولى والثانية، والاسميّة حال ثانية. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١/٢٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ "جَيْرِ" بكسر "الراء"، وقد يُنوَّن، وكـ"أَيْنَ": يَمين، أي: حقًّا، أو بمعنى: نعَم أو أجَل. القاموس المحيط للفيروزابادي، «جير».

٤ وبذلك قرأ الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/١٣٢.

٥ قاله أبو عبيد القاسم بن سلّام، وقال: «فالوقف عندي على "لا"، والابتداء "تَحِين"؛ لأنّي نظرتها في الإمام "تَحِين" "التاء" متّصلة». انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٥٠.

﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ فيما يُظهره مِن الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يُسنده إلى الله تعالى مِن الإرسال والإنزال.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأن نَفَى الألوهيّة عنهم وقَصَرها على واحدٍ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجَب، وذلك لأنّه خلاف ما أَلِفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيّتهم، وواظبوا على عبادتهم كابِرًا عن كابِر، فإنّ مدار كلّ ما يأتون وما يذَرون مِن أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدّون ما يخالف ما اعتادوه عجيبًا؛ بل مُحالًا.

وأمّا جعلُ مدارِ تعجّبهم عدمَ وفاءِ علمِ الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة[1] فلا وجهَ له، لِما أنّهم لا يدّعون أنّ لآلهتهم عِلمًا وقدرةً ومدخلًا في حدوث شيء مِن الأشياء حتّى يلزم مِن نفي أُلوهيّتهم بقاءُ الآثار بلا مؤثِّر.

وقُرئ: "عُجَّابٌ" بالتشديد،[2] وهو أبلَغ، كـ"كُرَّام" و"كُرام".[3]

رُوي أنّه لمّا أسلم عمر رضي الله عنه شقّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون مِن صناديدهم، فأتَوا أبا طالب فقالوا: «أنتَ شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك»، فاستحضرَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤالَ، فلا تَمِل كلَّ المَيل على قومك»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ماذا تسألونني؟»، قالوا: «ارفُضْنا وارفُضْ ذكرَ آلهتِنا ونَدَعُك / وإلهَك»، فقال [٤٣٠و]
صلّى الله عليه وسلّم: «أرأيتم إن أعطيتُكم ما سألتم أمُعطيَّ أنتم كلمةً واحدةً

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي وعيسى وابن مقسم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٣٨.

٣ "الكُرام" بالضمّ مثل "الكَريم"، فإذا أفرَط في الكَرَم قيل: "كُرَّام" بالتشديد. الصحاح للجوهري، «كرم».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٧٢.

تملكون بها العربَ وتدينُ لكم بها العجَم؟» قالوا: «نعم، وعَشرًا»، فقال: «قولوا: "لا إله إلّا الله"»، فقاموا، وقالوا ذلك.[٤]

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: وانطلق الأشراف مِن قريش عن مجلس أبي طالب بعد ما بَكَّتَهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجواب العتيد، وشاهَدوا تصلّبه عليه السلام في الدين، وعزيمتَه على أن يُظهره على الدين كلّه، ويَئِسوا ممّا كانوا يرجونه بتوسّط أبي طالب مِن المصالحة على الوجه المذكور.

﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: قائلين بعضهم لبعضٍ على وجه النصيحة: امْشوا ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: واثبتوا على عبادتها متحمّلين لِما تسمعونه في حقّها مِن القَدح. و﴿أَن﴾ هي المفسِّرة؛ لأنّ الانطلاق عن مجلس التقاوُل لا يخلو عن القول. وقيل: المراد بـ"الانطلاق" الاندفاعُ في القول. و﴿ٱمْشُوا۟﴾ مِن "مَشَت المرأة" إذا كثُرَت وِلادتُها، ومنه "الماشية" لِلتفَؤُّل،[١] أي: اجتَمِعوا واكثُروا. وقُرئ: ﴿ٱمْشُوا۟﴾ بغير ﴿أَن﴾[٢] على إضمارِ القول. وقُرئ: "يَمْشُونَ أَنِ اصْبِرُوا".[٣]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أو لوجوب الامتثال به، أي: هذا الذي شاهدناه مِن محمّد صلّى الله عليه وسلّم مِن أمر التوحيد ونفيِ آلهتنا وإبطالِ أمرها لَشيءٌ[٤] يُراد -أي: مِن جهته عليه السلام- إمضاؤُه وتنفيذُه لا محالةَ، مِن غير صارِف[٥] يَلوِيه، ولا عاطِفٍ يَثْنِيه، لا قولٌ يُقال مِن طرَف اللسان، أو أمرٌ يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله مِن رَأيه / بوساطة أبي طالب وشفاعته، وحسبُكم أن لا تُمنَعوا مِن [٤٣٠ظ]
عبادة آلِهتكم بالكلّيّة، فاصبروا عليها، وتحمّلوا ما تسمعونه في حقّها مِن القَدح وسُوءِ القالة.

---

١ التَّفَؤُّل والتَّفاؤل ضدّ الطِّيَرة، يقال: "تَفاءَلْتُ بكذا" و"تَفأَّلْتُ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «فأل».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤/٧٣.

٤ س: بشيء.

٥ س: ضارف.

وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه، وما أراد الله كونَه فلا مردَّ له، ولا ينفع فيه إلّا الصبر. وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء مِن نوائب الدهر يرادُ بنا، فلا انفكاكَ لنا منه. وقيل: إنّ دينكم لَشيء يُراد -أي: يُطلب- لِيؤخذ منكم وتُغلَبوا عليه. وقيل: إنّ هذا الذي يدّعيه مِن التوحيد أو يقصِده مِن الرياسة والترفّع على العرب والعجَم لَشيء يُتمنّى ويريده كلُّ أحد.

فتأمّل في هذه الأقاويل، واختر منها ما يساعده النظم الجليل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: المِلّة النصرانيّة التي هي آخر المِلَل، فإنّهم مُثلِّثة، أو في المِلّة التي أدركنا عليها آباءَنا. ويجوز أن يكون الجارّ والمجرور حالًا مِن ﴿هَٰذَا﴾، أي: ما سمعنا بهذا مِن أهل الكتاب ولا الكُهّان كائنًا في المِلّة المترقَّبة، ولقد كذَبوا في ذلك أقبَح كذِبٍ، فإنّ حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور قبل الظهور.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: كذِبٌ اختلَقَه.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافُهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، ومرادُهم إنكارُ كونه ذِكرًا منزَّلًا مِن الله عزّ وجلّ، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]. وأمثالُ هذه المقالات الباطلة دليل على أنّ مَناط تكذيبهم ليس إلّا الحسَدَ وقَصْرَ النظر على الحطام الدنيوي.

[٤٣١و] ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: مِن القرآن، أو الوحي، / لمَيلهم إلى التقليد، وإعراضِهم عن النظر في الأدلّة المؤدّية إلى العلم بحقّيته، وليس في عقيدتهم ما يبتّون به، فهم مذَبذَبون بين الأوهام، ينسبونه تارةً إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق.

---

[1] وفي هامش م: مكّة وطائف. «منه».

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: بل لم يذوقوا بعدُ عذابي، فإذا ذاقوه تبيّن لهم حقيقة الحال. وفي ﴿لَمَّا﴾ دلالة على أنّ ذوقهم على شرَف الوقوع. والمعنى: أنّهم لا يصدِّقون به حتّى يمسّهم العذاب. وقيل: لم يذوقوا عذابي الموعودَ في القرآن، ولذلك شكّوا فيه.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ بل أعِندهم خزائن رحمته تعالى يتصرّفون فيها حسبما يشاءون، حتّى يصيبوا بها مَن شاءوا، ويصرفوها عمّن شاءوا، ويتحكّموا فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيّروا للنبوّة بعضَ صناديدهم؟ والمعنى: أنّ النبوّة عطيّة مِن الله عزّ وجلّ، يتفضّل بها على مَن يشاء مِن عباده المصطفَين، لا مانعَ له، فإنّه العزيز، أي: الغالبُ الذي لا يُغالَب، الوهّاب الذي له أن يهَبَ كلَّ ما يشاء لكلِّ مَن يشاء.

وفي إضافة اسم "الربّ" المنبئِ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ترشيح لِما سبَق، أي: بل ألَهُم مُلك هذه العوالم العلويّة والسفليّة حتّى يتكلّموا في الأمور الربّانيّة، ويتحكّموا في التدابير الإلهيّة التي يستأثر بها ربّ العزّة والكبرياء؟

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إن كان لهم ما ذُكر مِن المُلك فليَصعَدوا في المعارج والمناهج التي يُتوصّل بها إلى العرش / حتّى [٤٣١ظ] يستووا عليه، ويدبّروا أمر العالَم، ويُنزلوا الوحي إلى مَن يختارون ويستصوِبون. وفيه مِن التهكّم بهم ما لا غايةَ وراءه. و"السبب" في الأصل هو الوُصلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ السماواتُ؛ لأنّها أسباب الحوادث السفليّة. وقيل: أبوابُها.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢﴾

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: هم جندٌ ما مِن الكفّار المتحزّبين على الرسل، مهزومٌ مكسور عمّا قريبٍ، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترِث بما يَهذُون. و﴿مَا﴾ مزيدة للتعليل[١] والتحقير، نحو قولك: "أكلْتُ شيئًا ما". وقيل: للتعظيم على الهُزْء. و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وَضعوا فيه أنفسَهم مِن الانتداب لمِثل[٢] ذلك القول العظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العُتاة الطُّغاة الذين هؤلاء جندٌ ما مِن جنودهم، ممّا[٣] فَعلوا مِن التكذيب، وفُعِل بهم مِن العقاب. و﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ معناه: ذو المُلك الثابت، أصله مِن ثباتِ البيت المُطنَّب[٤] بأوتاده، فاستُعير لثبات المُلك ورسوخِ السلطَنة واستقامةِ الأمر، قال الأسود بن يَعفُر:[٥]

ولقد غَنُوا فيها[٦] بأنعَمِ عيشةٍ ... في ظلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ[٧]

أو ذو الجموع الكثيرة، سُمُّوا بذلك لأنّ بعضهم يشدّ بعضًا كالوَتَد يشدّ البناء.

وقيل: نصَبَ أربع سَوارٍ، وكان يمدّ يدَي المعذَّب ورجليه إليها، ويضرب عليها أوتادًا، ويتركه حتّى يموت. وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسِل عليه العقارب / والحيّات. وقيل: كانت له أوتاد وحِبال يُلعَب بها بين يديه. [٤٣٢و]

---

١ ط س: للتقليل.

٢ ط س: بمثل.

٣ س: بما.

٤ "الطُّنُب": حَبل الخِباء، والجمع "أطناب". يقال: "خِباءٌ مُطنَّب" و"رِواق مُطنَّب"، أي: مشدودٌ بالأطناب. الصحاح للجوهري، «طنب».

٥ هو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، وأبو الجرّاح (ت. نحو ٢٢ق هـ/٦٠٠م). شاعر جاهلي، مِن سادات تميم، مِن أهل العراق. كان فصيحًا جوادًا. نادَم النعمان بن المنذر. ولمّا أسنّ كُفّ بصره. ويقال له: "أعشى بني نهشل"، أشهر شعره داليّته التي مطلعها:

نام الخَليّ وما أحسّ رُقادي ... والهمّ محتضر لديّ وِسادي

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٤٨/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

٦ وفي هامش م: ضمير "فيها" راجع إلى "المنازل" فيما قبله مِن قوله:

ماذا أُؤَمِّل بعد آلِ مُحرِّق ... تركوا منازلهم وبعد إيادِ

٧ للأسود بن يَعفُر النهشلي في المفضّليّات للمفضّل الضبّي، ص ٢١٧.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أصحاب الغَيضة مِن قوم شعيب عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ إمّا بدل مِن الطوائف المذكورة، كما أنّ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة، ٢/٢] بدل مِن ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة، ١/٢] على أحد الوجوه، وفيه فضل تأكيد وتنبيهٌ على أنّهم الذين جُعل الجندُ المَهزوم منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ استئناف جيء به تقريرًا لِتكذيبهم، وبيانًا لكيفيّته، وتمهيدًا لِما يَعقُبه، أي: ما كلّ أحدٍ مِن آحاد أولئك الأحزاب، أو ما كلّ حزب منهم إلّا كذّب الرسل؛ لأنّ تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعًا، لاتّفاق الكلّ على الحقّ. وقيل: ما كلّ حزب إلّا كذّب رسولَه، على نهج مقابَلة الجمع بالجمع.

وأيًّا ما كان فالاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ العامّ في خبر المبتدأ، أي: ما كلّ أحد منهم محكومًا عليه بحكمٍ إلّا محكومٌ عليه بأنّه كذّب الرسل. وقيل:[1] ما كلّ واحد منهم مخبَرًا عنه بخبَرٍ إلّا مخبَرٌ عنه بأنّه كذّب الرسل.

وفي إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام **أوّلًا**، والإيذانِ بأنّ كلًّا منهم حِزب على حِياله تحزَّب على رسوله **ثانيًا**، وتبيينِ كيفيّة تكذيبهم بالجملة الاستثنائيّة **ثالثًا**؛ فنونٌ مِن المبالغة مُسَجِّلةٌ عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأفظَعِه، ولذلك رُتّب عليه قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: ثبَتَ ووقَع على كلٍّ منهم عقابي الذي كانت توجبُه جناياتهم مِن أصناف العقوبات المفصّلة في مواقعها.

وإمّا مبتدأ،[2] وقولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ خبره بحذف العائد، أي: إن كلٌّ منهم... إلخ، والجملة استئناف مقرِّر لِما قبله، مؤكِّد لمضمونه، مع ما فيه مِن بيان كيفيّة تكذيبهم، والتنبيهِ على أنّهم الذين جُعل الجُند المهزوم منهم كما ذُكر.

---

[1] وفي هامش م: الفاضل التفتازاني. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٦و.

[2] وفي هامش م: عطف على "إمّا بدل". «منه».

وقيل: هو[١] مبتدأ وخبر، / والمعنى: أنّ الأحزاب الذين جُعل الجُند المهزومُ منهم هُمْ هُمْ، وأنّهم الذين وُجِد منهم التكذيب، فتدبّر. [٤٣٢ظ]

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّه خبر، والمبتدأ قوله: ﴿وَعَادٌ﴾... إلخ،[٣] أو قوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾... إلخ؛[٤] فممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ شروع في بيان عِقاب كفّار مكّة إثرَ بيان عقاب أضرابهم مِن الأحزاب الذين أُخبِر فيما سبق بأنّهم جُند حقير منهم مهزوم عن قريب، فإنّ ذلك ممّا يوجب انتظار السامع وترقُّبَه إلى بيانه قطعًا. وفي الإشارة إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقير لشأنهم، وتهوينٌ لأمرهم.

وأمّا جعله إشارة إلى "الأحزاب" باعتبار حضورهم بحسب الذكر، أو حضورِهم في علم الله عزّ وجلّ؛[٥] فليس في حيّز الاحتمال أصلًا، كيف لا والانتظارُ سواء كان حقيقةً أو استهزاءً إنّما يُتصوّر في حقّ مَن لم يترتّب على أعماله نتائجُها بعدُ؟

وبعدَ ما بُيِّن عقابُ الأحزاب واستئصالهم بالمرّة لم يبقَ ممّا أريدَ بيانه مِن عقوباتهم أمر منتظَر، وإنّما الذين في مرصد الانتظار كفّار مكّة، حيث ارتكبوا مِن عظائم الجرائم وكبائرِ الجَرائر الموجِبة لأشدّ العقوبات مثلَ ما ارتكب الأحزابُ أو أشدَّ منه، ولمّا يلاقوا بعدُ شيئًا مِن غوائلها. أي: وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلَكة في الكفر والتكذيب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الثانية، لا بمعنى أنّ عقابهم نفسُها بما فيها مِن الشدّة والهَول، فإنّها داهية يعمّ هولُها جميعَ الأمم برَّها وفاجرَها؛ بل بمعنى أنّه ليس بينهم وبين حلول

---

١ أي: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.

٢ قاله أبو البقاء في التبيان، ١٠٩٨/٢.

٣ ص، ١٢/٣٨.

٤ ص، ١٣/٣٨.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥.

ما أُعِدّ لهم مِن العقاب الفظيع إلّا هي، حيث أُخّرت عقوبتهم إلى الآخرة لِما أنّ تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقّونه والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بين أَظهُرِهم خارجٌ عن السنّة الإلهيّة / المبنيّةِ على الحِكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣]. [٤٣٣و]

وأمّا ما قيل[1] مِن أنّها النفخة الأولى فمِمّا لا وجهَ له أصلًا، لِما أنّه لا يشاهِد هولَها ولا يصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا عند وقوعها، وليس عقابهم الموعودُ واقعًا عَقيبَها، ولا العذابُ المطلق مؤخّرًا إليها؛ بل يحُلّ بهم مِن حين موتهم.

﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: مِن توقّفٍ مقدارَ فَواق، وهو ما بين الحَلْبَتَين. وقُرئ بضمّ "الفاء"،[2] وهما لغتان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ حكاية لِما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة، أي: قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية: عجّل لنا قِسطنا مِن العذاب الذي تُوعِدُنا به، ولا تؤخّره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة. و"القِطّ": القطعة مِن الشيء، مِن "قَطَّه" إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: "قِطّ"؛ لأنّها قطعة مِن القرطاس، وقد فُسّر بها،[3] أي: عجّل لنا صحيفةَ أعمالنا لننظر فيها.

وقيل: ذكَرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعْدَ الله تعالى المؤمنين الجنّةَ، فقالوا على سبيل الهُزْء به: عجّل لنا نصيبنا منها.

وتصديرُ دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء، كأنّهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن أمثال هذه المقالات الباطلة، ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي: قصّتَه تهويلًا لأمر المعصية في أعينهم، وتنبيهًا لهم على كمال قُبح

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٦.
[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.
[3] فسّره بها أبو العالية والكلبي. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٨٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٤٣.

ما اجترءوا عليه مِن المعاصي، فإنّه عليه السلام مع علوّ شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لمّا أَلَمَّ بصغيرةٍ نزَل عن منزلته ووَبّخَتْه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتّى / تفطّن فاستغفرَ ربّه وأناب، ووُجِد منه ما يُحكَى مِن بكائه الدائب، وغمِّه الواصب، وندمِه الدائم، فما الظنّ بهؤلاء الكفرة الأذلّين مِن كلّ ذليل، المرتكبين لأكبر الكبائر، المصرّين على أعظم المعاصي. [٤٣٣ظ]

أو تذكّرْ قصّتَه عليه السلام، وصُنْ نفسَك أن تزِلّ فيما كُلِّفتَ مِن مصابرتهم وتحمّلْ أذيّتَهم كيلا يلقاك ما لقيَه مِن المعاتبة.

﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي: ذا القوّة. يقال: "فلان أيّدٌ" و"ذو أَيدٍ" و"آدٍ" بمعنًى، وإيادُ كلّ شيء: ما يتقوّى به. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل لكونه ذَا الأيْدِ، ودليل على أنّ المراد به القوّة في الدين، فإنّه عليه السلام كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ويقوم نصف الليل.[1]

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئناف مَسوق لتعليل قوّته في الدين، وأوّابيّتِه إلى مرضاته تعالى. و"مع" متعلِّقة بالتسخير، وإيثارُها على "اللام" لِما أشيرَ إليه في سورة الأنبياء[2] مِن أنّ تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرّف الكلّي فيها إليه عليه السلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام؛ بل بطريق التبعيّة له عليه السلام والاقتداءِ به في عبادة الله تعالى.

وقيل: متعلِّقة بما بعدها، وهو أقرب بالنسبة إلى ما في سورة الأنبياء.[3]

﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ أي: يقدّسن الله عزّ وجلّ بصوت يتمثّل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام، أو بلسان الحال. وقيل: يَسِرن معه، مِن "السباحة". وهو حال مِن ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾،

---

[1] في صحيح البخاري، ١٦١/٤ (٣٤٢٠)؛ وصحيح مسلم، ٨١٦/٢ (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحبّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه».

[2] الأنبياء، ٧٩/٢١.

[3] الأنبياء، ٧٩/٢١.

وُضع موضع "مسبِّحاتٍ" للدلالة على تجدّد التسبيح حالًا بعد حال، أو استئنافٌ مبيّن لكيفيّة التسخير.

[٤٣٤و] ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أي: ووقتِ الإشراق، وهو / حين تُشرِق الشمس، أي: تُضيء ويَصفو شعاعها، وهو وقت الضحى، وأمّا شُروقها فطُلوعُها، يقال: "شَرَقت الشمس ولمّا تُشْرِق". وعن أمّ هانئ رضي الله عنها أنّه عليه السلام صلّى صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق».[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما عرفتُ صلاة الضحى إلّا بهذه الآية».[٢]

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾

﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾[٣] ﴿مَحۡشُورَةٗ﴾ حال مِن ﴿ٱلطَّيۡرَ﴾، والعامل ﴿سَخَّرۡنَا﴾،[٤] أي: وسخّرنا الطير حالَ كونها محشورة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا سبّح جاوبَتْه الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت، وذلك حشرُها».[٥] وقُرئ: "وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ" بالرفع[٦] على الابتداء والخبريّة.

﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ استئناف مقرِّر لمَضمون ما قبله مصرِّح بما فُهم منه إجمالًا مِن تسبيح الطير، أي: كلّ واحدٍ مِن الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاعٌ إلى التسبيح. ووضعُ "الأوّاب" موضع المسبِّح إمّا لأنّها كانت تُرجّع التسبيح، والمرجِّعُ رجّاع؛ لأنّه يَرجِع إلى فِعله رجوعًا بعد رجوع، وإمّا لأنّ "الأوّاب" هو التوّاب الكثيرُ الرجوع إلى الله تعالى، ومِن دأبه إكثارُ الذِّكر وإدامةُ التسبيح والتقديس. وقيل: الضمير لله عزّ وعلا،[٧] أي: كلٌّ مِن داود والجبال والطير لله أوّابٌ، أي: مسبِّح مُرجِّع للتسبيح.

---

[١] المعجم الكبير للطبراني، ٤٠٦/٢٤ (٩٨٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.
[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] س: حشرنا. | التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.
[٧] ط س: عزّ وجلّ.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرةِ الجنود. وقُرئ بالتشديد[١] للمبالغة. قيل: كان يَبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئِم.[٢] وقيل: ادّعى رجل على آخَرَ بقرةً وعجزَ عن إقامة البيّنة، فأوحيَ إليه في المنام أن اقتُلِ المدّعَى عليه، فتأخَّر، فأُعِيد الوحي في اليقظة، فأعلمه الرجلَ، فقال: «إنّ الله تعالى لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأنّي قتلتُ أبا هذا غِيلةً»، فقتله، فقال الناس: «إن أذنبَ أحد ذنبًا أظهره الله تعالى / عليه»، فقتله، فهابوه وعظمت [٤٣٤ظ] هيبته في القلوب.[٣]

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوّةَ وكمالَ العلم وإتقانَ العمل. وقيل: الزبورَ وعلمَ الشرائع. وقيل: كلُّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: فصلَ الخصام بتمييز الحقّ عن الباطل، أو الكلامَ الملخَّص الذي ينبّه المخاطبَ على المَرام مِن غير التباس، لِما قد رُوعي فيه مظانّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار. وإنّما سُمّي به "أمّا بَعدُ"[٤] لأنّه يفصل المقصود عمّا سِيق تمهيدًا له، كالحمد والصلاة. وقيل: هو الخطاب الفَصلُ الذي ليس فيه إيجاز مُخِلّ، ولا إطنابٌ مُمِلّ، كما جاء في نعت كلام النبوّة: «فَصْلٌ، لا نَزْرٌ، ولا هَذْر».[٥]

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما في حيّزه لإيذانه بأنّه مِن الأنباء البديعة التي حقّها أن تشيع فيما بين كلّ حاضر وبادٍ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤. و"مُستَلْئِم": لَابِس اللأمةِ، وهي الدِّرع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «لأم».

٣ تفسير السمرقندي، ١٦١/٣؛ غرائب التفسير للكرماني، ٩٩٥/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٥١/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٥/٨.

٥ من حديث أمّ مَعبد في المعجم الكبير للطبراني، ٤٨/٤ (٣٦٠٥)؛ والمستدرك للحاكم، ١٠/٣ (٤٢٧٤)؛ وشرح السنّة للبغوي، ٢٦١/١٣ (٣٧٠٤).

و"الخَصم" في الأصل مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجمع، كـ"الضيف". ومعنى ﴿خَصْمَانِ﴾:[١] فريقان.

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي تصعّدوا سُورَه، ونزلوا إليه. و"السُّور" الحائط المرتفِع، ونظيره "تَسَنَّمَه" إذا علا سَنامه، و"تَذَرَّاه" علا ذِروته. و﴿إِذْ﴾ متعلّقة بمحذوف، أي: نَبأُ تحاكُمِ الخصم إذ تسوَّروا، أو بـ"النَّبأ" على أنّ المراد به الواقعُ في عهد داود عليه السلام، وأنّ إسناد الإتيان إليه على حذف مضافٍ، أي: قصّةُ نبأِ الخصم، أو بـ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ لِما فيه مِن معنى الخصومة، لا بـ"أتَى"؛ لأنّ إتيانه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم لم يكن حينئذ.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل ممّا قبله، أو ظرف لـ﴿تَسَوَّرُواْ﴾.[٢]

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي أنّه تعالى بَعَث إليه ملَكَين في صورة إنسانَين -قيل:[٣] هما جبريل وميكائيل عليهما السلام- فطلَبا أن يدخلا عليه، فوَجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرَس، فتسوَّرا عليه المحراب بمَن معهما مِن الملائكة، فلم يشعُر إلّا وهما بين يدَيه جالسان، ففَزِع منهم؛ لأنّهم نزلوا عليه مِن فوقُ على خلاف العادة، والحرسُ حولَه، وفي غير يومِ الحكومة والقضاء.[٤]

[٤٣٥و] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ داود عليه السلام[٥] جَزَّأَ زمانَه أربعةَ أجزاء، يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء، ويومًا للاشتغال بخاصّة نفسه، ويومًا للوعظ والتذكير».[٦]

﴿قَالُواْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأَ مِن حكاية فَزَعِه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفَزَعه عليه السلام؟ فقيل: قالوا إزالةً لفَزَعه:

---

[١] في الآية التالية.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] وفي هامش م: قاله الكواشي في تفسيره. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٥٢ظ.
[٤] جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٨.
[٥] م - عليه السلام.
[٦] الكشّاف للزمخشري، ٨٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٧/٩. وذكر نحوه السمرقندي في تفسيره، ١٦٢/٣، عن الحسن البصري.

﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي: نحن فَوجان متخاصمان، على تسمية مصاحب الخَصم خَصمًا، ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هو على الفَرْض وقَصدِ التعريض، فلا كذبَ فيه، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُرْ في الحكومة. وقُرئ: "وَلَا تَشْطُطْ"،[١] أي: لا تَبعُدْ عن الحقّ. وقُرئ: "وَلَا تُشَطِّطْ"،[٢] و"لَا تُشَاطِطْ"،[٣] وكلّها مِن معنى "الشَّطَطِ"، وهو مجاوزة الحدّ، وتخطّي الحقّ.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى وسط طريق الحقّ بزَجْرِ الباغي عمّا سلكه مِن طريق الجَور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ استئناف لبيان ما فيه الخصومة، أي: أخي في الدين، أو في الصُّحبة، والتعرّضُ لذلك تمهيد لبيان كمال قُبح ما فعَل به صاحبه. ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي الأنثى مِن الضأن، وقد يُكْنَى بها عن المرأة، والكنايةُ والتعريضُ أبلَغ في المقصود. وقُرئ: "تَسْعٌ وَتَسْعُونَ" بفتح "التاء"،[٤] و"نِعْجَةٌ" بكسر "النون".[٥] وقُرئ: "وَلِي نَعْجَةٌ" بسكون "الياء".[٦]

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: مَلِّكْنِيها، وحقيقته: اجعلني أكفَلُها كما أكفَلُ ما تحت يدي. وقيل: اجعلها كِفْلِي، أي: نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني في مخاطبته إيّايَ محاجَّةً بأن جاء بحِجاجٍ لم أقدر على ردّه، أو في مغالبته إيّاي في الخِطبة، يقال: "خَطَبتُ المرأة، وخَطَبَها هو، فخاطَبَني خِطابًا"، أي: غالَبَني في الخِطبة، فغلَبَني حيث زُوِّجَها دوني.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن أبي عبلة وأبي حَيوة. المحتسب لابن جنّي، ٢٣١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٨/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حبيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٦ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير روايتَي حفص عن عاصم وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

[٤٣٥ظ] وقُرئ: "وَعَازَّنِي"،[١] أي: غالَبَني، و"عَزَنِي" بتخفيف / "الزاء"[٢] طلبًا للخِفّة، وهو تخفيف غريب، كأنّه قِيس على "ظَلْتَ" و"مَسْتَ".

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ جواب قسم محذوف، قَصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعلِ صاحبه، وتهجينِ طمَعه في نعجة مَن[٣] ليس له غيرُها، مع أنّ له قطيعًا منها، ولعلّه عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادّعاه عليه، أو بناه على تقدير صِدق المدّعي. و"السؤال" مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعول آخَر بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمّنه معنى الإضافة والضمّ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاءِ الذين خلطوا أموالهم ﴿لَيَبْغِي﴾ لَيتعدّى. وقُرئ بفتح "الياء"[٤] على تقدير "النون" الخفيفة وحذفِها،[٥] وبحذف "الياء"[٦] اكتفاءً بالكسر. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غيرَ مُراعٍ لحقّ الصحبة والشركة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ منهم، فإنّهم يتحامَون عن البغي والعدوان، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهُم قليل، و﴿مَا﴾ مزيدة للإبهام والتعجّبِ مِن قِلّتهم، والجملة اعتراض.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ الظنّ مستعار للعِلم الاستدلالي، لِما بينهما مِن المشابهة الظاهرة، أي: علِمَ بما جرى في مجلس الحكومة. وقيل: لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحِك، ثمّ صَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلِمَ عليه السلام أنّه تعالى ابتلاه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وطلحة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٤٩.

٣ س - مَن.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الذِّماري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٥ س: وحَذفها.

٦ أي: "لَيَبْغِ". قراءة شاذّة، نسبها الكرماني إلى أهل الشام. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه السلام دونَ غيره بتوجيه القصر المستفاد مِن كلمة ﴿أَنَّمَا﴾ إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى متعلّقات الفعل وقيودِه باعتبار النفي فيه والإثبات فيها، كما في مثل قولك: "إنّما ضربت زيدًا، وإنّما ضربته تأديبًا"؛ بل على تخصيص حاله عليه السلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يُغايره مِن الأفعال، لكن لا باعتبار النفي والإثبات معًا في خصوصيّة الفعل، فإنّه غير ممكن قطعًا؛ بل باعتبار النفي فيما فيه مِن معنى مطلَقِ الفعل، واعتبارِ الإثبات فيما يُقارنه مِن المعنى المخصوص، فإنّ كلّ فعل مِن الأفعال المخصوصة ينحلُّ / عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل، وإلى معنى مخصوص يقارنه ويُقَيِّده، وهو أثره في الحقيقة، فإنّ معنى "نَصَرَ" مثلًا: فَعَلَ النصرَ، يرشدك إلى ذلك قولهم: معنى "فلانٌ يُعطي ويَمنع": يفعل الإعطاءَ والمنع، فمَورد القصر في الحقيقة ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي فيه والإثبات فيما يتعلّق به. [٤٣٦و]

فالمعنى: وَعَلِمَ داود أنّما فعلنا به الفِتنةَ لا غيرُ. قيل: ابتليناه بامرأة أُوريّا. وقيل: امتحنّاه بتلك الحكومة؛ هل يتنبّه بها لِما قُصِد منها.

وإيثارُ طريق التمثيل لأنّه أبلغ في التوبيخ، فإنّ التأمّل فيه إذا أدّاه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقَعَ في نفسه، وأعظمَ تأثيرًا في قلبه، وأدعَى إلى التنبّه للخطأ، مع ما فيه مِن مراعاة حُرمته عليه السلام بترك المجاهَرة، والإشعارِ بأنّه أمر يُستَحيَى مِن التصريح به. وتصويرُه بصورة التحاكم لإلجائه عليه السلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم، وتنبيهِه عليه السلام على أنّ أوريّا بصَدَد الخِصام.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ إثرَ ما عَلِمَ أنّ ما صدَر عنه ذنب، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا، على تسمية السجود ركوعًا؛ لأنّه مَبدؤه، أو خرّ للسجود راكعًا، أي: مصلّيًا، كأنّه أحرَم بركعتَي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجَعَ إلى الله تعالى بالتوبة.

وأصل القصّة أنّ داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له: أُوريّا، فمال قلبُه إليها، فسأله أن يُطلِّقها، فاستحيى أن يَرُدّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أمّ سليمان عليهما السلام، وكان ذلك جائزًا في شريعته، معتادًا فيما بين أمّته، غيرَ مُخِلّ بالمروءة،

حيث كان يسأل بعضهم بعضًا أن يَنزِل له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبته. وقد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك مِن غير نكيرٍ، خلا أنّه عليه السلام لعِظَم منزلته وارتفاع مرتبته وعلوّ شأنه نُبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمّته، ويسأل رجلًا ليس له إلّا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوّجها مع كثرة نسائه؛ بل كان يجب عليه أن يُغالِب هواه، ويقهَر نفسَه، ويصبر على ما امتُحِن به.

وقيل: لم يكن أوريّا تزوّجها؛ بل كان خطَبها، ثمّ خطَبها داود عليه السلام، فآثره عليه السلام أهلُها، فكان ذنبُه عليه السلام أن خَطَب على خِطبة أخيه المسلم.

هذا، وأمّا ما يُذكَر[1] مِن أنّه عليه السلام دخلَ ذات يوم مِحرابه، وأغلق بابه، / وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان في صورة [٤٣٦ظ] حمامةٍ مِن ذهب، فمدّ يده ليأخذها لابنٍ له صغير، فطارت، فامتدّ إليها فطارت، فوقعت في كُوّةٍ، فتبِعها، فأبصرَ امرأةً جميلةً قد نقضَت شَعرَها، فغطّى بدنها، وهي امرأة أوريّا، وهو مِن غُزاة البلقاء، فكتب إلى أيّوب بن صوريا، وهو صاحب بَعْث البلقاء، أنِ «ابْعَثْ أُوريّا، وقدِّمْه على التابوت»، وكان مَن يتقدّم على التابوت لا يحِلّ له أن يرجع حتّى يفتح الله تعالى على يده أو يُستشهَد، ففتح الله تعالى على يده، وسلِم، فأمر بردِّه مرّةً أخرى وثالثةً حتّى قُتِل، وأتاه خبر قتله فلم يحزَن كما كان يَحزَن على الشهداء، وتزوّج امرأتَه؛ فَإفكٌ[2] مُبتدَع مَكْروه، ومَكرٌ مختَرَع بئسما مَكَرُوه، تمجّه الأسماع، وتنفِر عنه الطباع، ويل لمَن ابتدعه وأشاعه، وتبًّا لمَن اخترعه وأذاعه، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه: «مَن حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القُصّاص جَلَدتُه مائةً وستّين»،[3] وذلك حدّ الفِرية على الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم.

---

[1] عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠. وعن السدّي والكلبي ومقاتل في الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٥/٨.

[2] السياق: وأمّا ما يُذكر... فإفك...

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٠/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧/٥.

هذا، وقد قيل: إنّ قومًا قصدوا أن يقتلوه عليه السلام، فتسوّروا المِحراب، ودخلوا عليه، فوجدوا عنده أقوامًا، فتصنّعوا بهذا التحاكم، فعلِم عليه السلام غرضهم، فهَمّ بأن ينتقم منهم، فظنّ أنّ ذلك ابتلاء له مِن الله عزّ وجلّ، فاستغفر ربّه ممّا هَمّ به فأناب.[١]

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استغفر منه. ورُوي أنّه عليه السلام بقي ساجدًا أربعين يومًا وليلةً لا يرفع رأسه إلّا لصلاةٍ مكتوبة أو لِما لا بدَّ منه، ولا يَرقأُ دمعه حتّى نبتَ منه العُشب إلى رأسه، ولم يشرب ماءً إلّا ثُلثاه دمع، / وجهد نفسه راغبًا إلى الله تعالى في العفو عنه حتّى كادَ يهلك، واشتغل بذلك عن المُلك حتّى وثَب ابنٌ له يقال له: إيشا على مُلكه، ودعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزَّيغ مِن بني إسرائيل، فلمّا غُفِر له حارَبه فهزمه.[٢] [٤٣٧و]

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُربةً وكرامةً بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسنَ مرجعٍ في الجنّة.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا حِكايةٌ لِما خُوطب به عليه السلام مبيِّنةٌ لِزُلفاه عنده عزّ وجلّ، وإمّا مَقول لقَولٍ مقدَّر هو معطوف على ﴿غَفَرْنَا﴾،[٣] أو حال مِن فاعله، أي: وقلنا له، أو قائلين له: يا داود... إلخ، أي: استخلفناك على المُلك فيها والحُكمِ فيما بينَ أهلها، أو جعلناك خليفةً ممَّن كان قبلك مِن الأنبياء القائمين بالحقّ، وفيه دليل بيّن على أنّ حاله عليه السلام بعد التوبة كما كانت قبلَها لم يتغيّر قطّ.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٥. وانظر: تفسير الرازي، ٣٧١/٢٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٨٨/٤. وأوّله في جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٩١/٨.

٣ في الآية السابقة.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ بحُكم الله تعالى، فإنّ الخلافة بكِلا معنيَيه مقتضية له حتمًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في الحكومات وغيرِها مِن أمور الدين والدنيا، ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على أنّه جواب النهي. وقيل: هو مجزوم بالعطف على النهي، مفتوح لالتقاء الساكنَين. أي: فيكونَ الهوى أو اتّباعُه سببًا لضلالك عن دلائله التي نصَبَها على الحقّ تكوينًا وتشريعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لِما قبله ببيان غائلته. وإظهار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإيذانِ بكمال شناعة الضلال عنه. ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ جملة مِن خبرٍ ومبتدأ وقعَت خبرًا لِـ﴿إِنَّ﴾، أو الظرفُ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿عَذَابٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار.

﴿بِمَا نَسُواْ﴾ بسبب نسيانهم. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ إمّا مفعول لِـ﴿نَسُواْ﴾، فيكون تعليلًا صريحًا لِثبوت العذاب الشديدِ لهم بِنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلّيّة ما يستتبعه ويستلزمه، أعني: الضلالَ عن سبيل الله، فإنّه مستلزِم لنسيان يوم الحساب بالمرّة؛ بل هذا فرد مِن أفراده، / أو ظرفٌ لقوله [٤٣٧ظ]
تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾، أي: لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذي هو عبارة عن ضلالهم، ومِن ضرورته أن يكون مفعولُه "سبيلَ الله"، فيكون التعليل المصرَّحُ به حينئذ عينَ التعليل المشعَرِ به بالذات، غيرَه بالعنوان، ومَن لم يتنبّه لهذا السرّ السَّرِيّ[١] قال:[٢] بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإنّ تذكّره يقتضي ملازمة الحقّ ومخالفةَ الهوى، فتدبّر.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله مِن أمر البعث والحساب والجزاء، أي: ما خلقناهما وما بينهما مِن المخلوقات

[١] السَّري: الرفيع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سرو».

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٨٩؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٨.

على هذا النظام البديع الذي يَحار في فهمه العقول خلقًا باطلًا، أي: خاليًا عن الغاية الجليلة والحِكمة الباهرة؛ بل منطويًا على الحقّ المبين والحِكَم البالغة حيث خلقنا مِن بين ما خلقنا نفوسًا أودعناها العقل والتمييز بين الحقّ والباطل والنافع والضارّ، ومكّنّاها مِن التصرّفات العلميّة والعمليّة في استجلاب منافعها، واستدفاع مضارّها، ونصبنا للحقّ دلائل آفاقيّة وأنفسيّة، ومنحناها القدرةَ على الاستشهاد بها، ثمّ لم نقتصر على ذلك المقدار مِن الألطاف؛ بل أرسلنا إليها رسلًا، وأنزلنا عليها كتبًا بيّنّا فيها كلّ دقيق وجليل، وأزحنا عِللَها بالكلّيّة، وعرّضناها بالتكليف للمنافع العظيمة، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُفِيَ مِن خلقِ ما ذُكِر باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مظنونُهم، فإنّ جحودهم بأمر البعث والجزاء الذي عليه يدور فَلَك تكوين العالَم قولٌ منهم ببطلان خلق ما ذُكر وخلوِّه عن الحكمة، سبحانه وتعالى عمّا يقولون / علوًّا كبيرًا. [٤٣٨و]

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ وخبر، و"الفاء" لإفادة ترتّب ثبوت الويل لهم على ظنّهم الباطل كما أنّ وضع الموصول موضعَ ضميرهم للإشعار بما في حيّز الصلة بعلّيّة كفرهم له، ولا تَنافي بينهما؛ لأنّ ظنّهم مِن باب كفرهم.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تعليليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة، ٧٩/٢] ونظائرِه، مفيدةٌ لعلّيّة النار لثبوت الويل لهم صريحًا بعد الإشعار بعلّيّة ما يؤدّي إليها مِن ظنّهم وكفرهم، أي: فويل لهم بسبب النار المترتّبة على ظنّهم وكفرهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مرّ مِن نفي خلق العالم خاليًا عن الحِكَم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه

بما في "الهمزة" مِن إنكار التسوية بين الفريقين، ونفيِها على أبلغ وجه وآكَدِه، أي: بل أنجعل المؤمنين المصلِحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتّب عليه مِن الجزاء، لاستواء الفريقين في التمتّع بالحياة الدنيا؛ بل الكفرة أوفر حظًّا منها مِن المؤمنين؟ لكن ذلك الجعل مُحال، فتعيّن البعث والجزاء حتمًا لرفع الأوّلِين إلى أعلى عِلّيّين، ورَدِّ الآخرين إلى أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إضراب وانتقال عن إثبات ما ذُكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقَين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالةً، وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة.

وحملُ ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ على فجَرة المؤمنين[١] ممّا لا يساعده المقام. ويجوز أن يراد بهذَين الفريقين عينُ الأوّلَين، ويكونَ التكرير باعتبار وصفَين آخرَين، هما أدخل في إنكار التسوية مِن الوصفَين الأوّلَين.

وقيل: قال كفّار قريش للمؤمنين: إنّا نُعطَى في الآخرة مِن الخير / ما تُعطَون، فنزلَت.[٢] [٤٣٨ظ]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، هو عبارة عن القرآن، أو السورة. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفته، وقوله تعالى: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو صفةٌ لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ عند مَن يُجوّز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح. وقُرِئ: "مُبَارَكًا"[٣] على أنّه حال مِن مفعول ﴿أَنزَلْنَا﴾، ومعنى "المُبارَك": الكثير المنافع الدينيّة والدنيويّة.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلناه ليتفكّروا في آياته التي مِن جملتها هذه الآيات المُعرِبة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٥.

٢ تفسير السمرقندي، ١٦٥/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٠/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

ما يَدْبُرُ ظاهرَها مِن المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة. وقُرئ: "لِيَتَدَبَّرُوا"[١] على الأصل، و"لِتَدَبَّرُوا"[٢] على الخطاب، أي: أنتَ وعلماءُ أمّتك، بحذف إحدى التاءَين.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ولِيتّعظ به ذَوو العقول السليمة، أو لِيستحضِروا ما هو كالمَركوز في عقولهم مِن فَرْط تَمكّنهم مِن معرفته، لِما نُصب عليه مِن الدلائل، فإنّ الكتب الإلهيّة مبيّنة لِما لا يُعرف إلّا بالشرع، ومُرشدة إلى ما لا سبيلَ للعقل إليه.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وقُرئ: "نَعِمَ الْعَبْدُ"،[٣] أي: سليمانُ، كما يُنبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولًا صريحًا لـ﴿وَهَبْنَا﴾، ولأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة، أو إلى التسبيح مرجّع له؛ تعليل للمدح، وهو مِن حاله، لِما أنّ الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ راجع إليه عليه السلام قطعًا.

و﴿إِذْ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أي: اذكر ما صدَر عنه إذ عُرض عليه ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ هو مِن الظُّهر إلى آخر النهارِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ فإنّه يشهَد بأنّه أوّاب. وقيل: ظرف لـ﴿أَوَّابٌ﴾.[٤] وقيل: لـ﴿نِعْمَ﴾.[٥] وتأخير ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظرفين لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر.

و"الصافِنُ" مِن الخيل: الذي يقوم على طرَف سُنْبُك[٦] يدٍ أو رِجلٍ، وهو مِن الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد / يتّفق إلّا في العِراب الخُلَّص. وقيل: [٤٣٩و]
هو الذي يجمع يديه ويسوّيهما، وأمّا الذي يقف على سُنبُكه فهو "المُتَخَيِّم".

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.
٤ في الآية السابقة.
٥ في الآية السابقة.
٦ السُّنْبُك: طرَف مُقدَّم الحافر، والجمع: السنابِك. الصحاح للجوهري، «سبك».

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع "جوادٍ" و"جَوْدٍ"، وهو الذي يُسرع في جَريه. وقيل: الذي يجود عند الركض. وقيل: وُصِفَت بالصُّفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفَين المحمودَين واقفةً وجاريةً، أي: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنّة في مواقفها، وإذا جرَت كانت سِراعًا خِفافًا في جَريها. وقيل: هو جمع "جيّدٍ".

رُوِيَ أنّه عليه السلام غزا أهلَ دمشق ونصيبين،[١] وأصاب ألفَ فرَس.[٢] وقيل: أصابها أبوه مِن العمالقة، فوَرِثها منه.[٣]

وقيل: خرجت مِن البحر لها أجنحة، فقعَد يومًا بعد ما صلّى الظهر على كرسيّه، فاستعرضها، فلم تَزَلْ تُعرَضُ عليه حتّى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو عن وِردٍ كان له مِن الذكرِ وقتئذٍ، وتهيّبوه فلم يُعلِموه، فاغتمّ لِما فاته، فاستردّها فعقَرها مقرِّبًا لله تعالى، وبقي مائة، فما في أيدي الناس مِن الجِياد فمِن نَسلها.[٤] وقيل: لمّا عقَرها أبدله الله عزّ وجلّ خيرًا منها، وهي الريح تجري بأمره.[٥]

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافًا بما صدَر عنه مِن الاشتغال بها عن الصلاة، وندَمًا عليه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الأمر بردِّها وعَقْرِها، والتعقيبُ باعتبار أواخر العَرْض المستمرّ دون ابتدائه، والتأكيدُ للدلالة على أنّ اعترافه وندَمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر.

---

[١] نصيبين: ضُبط في المصادر بفتح النون وكسر الصاد، واشتهر استعماله اليوم بضمّ النون وفتح الصاد. مدينة عامرة مِن بلاد الجزيرة على جادّة القوافل مِن الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستّة أيّام، وعليها سور كانت الروم بنَته وأتمّه أنوشروان الملك عند فتحه إيّاها. معجم البلدان للحموي، ٢٨٨/٥.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٥] جامع البيان للطبري، ٩٤/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤.

وأصل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ أن يُعدّى بـ"على"؛ لأنّه بمعنى "آثَرتُ"، لكن لمّا أُنِيبَ مَناب "أَنَبتُ" عُدِّي تعديتَه. و﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مفعولُه، كأنّه قيل: أنَبتُ حبَّ الخير عن ذِكر ربّي، ووضعتُه موضعَه. و﴿ٱلْخَيْرِ﴾ المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغَلَته عليه السلام، ويحتمل أنّه سمّاها خيرًا لتعلّق الخير بها، قال عليه السلام: «الخيرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة».[١] وقُرئ: "إنِّيَ".[٢]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ﴾ باعتبار استمرار المحبّة ودوامها حسب استمرار العَرْض، أي: أنَبتُ حبّ الخير عن ذكر ربّي، واستمرّ ذلك حتّى توارت، أي: غربَت الشمس تشبيهًا لغروبها في مَغربها بتواري المُخبّأة بحِجابها. وإضمارها مِن غير ذكرٍ لدلالة / العشيّ عليها. وقيل: [٤٣٩ظ] الضمير لـ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾،[٣] أي: حتّى توارت بحِجاب الليل، أي: بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣﴾

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ مِن تمامِ مقالة سليمان عليه السلام، ومَرمى غرضه مِن تقديم ما قدّمه، ومَن لم يتنبّه له مع ظهوره تَوهّم أنّه متّصل بمُضمَر هو جواب لمُضمَر آخَر، كأنّ سائلًا قال: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: رُدّوها...، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فصيحةٌ مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذفت ثِقةً بدلالة الحال عليها، وإيذانًا بغاية سرعة الامتثال بالأمر، أي: فَرَدُّوها عليه فأخذَ يمسح السيف مَسحًا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: بسُوقها وأعناقها يقطعها، مِن قولهم: "مَسَحَ عِلاوتَه"، أي: ضرَبَ عُنقَه.

وقيل: جعلَ يمسح بيده أعناقها وسُوقَها حُبًّا لها، وإعجابًا بها،[٤] وليس بذاك. وقُرئ: "بِالسُّؤقِ" على همز "الواو"[٥] لِضمّتها،[٦] كما في "أَدْؤُر". وقُرئ:

---

[١] صحيح البخاري، ٢٨/٤ (٢٨٥٠)؛ صحيح مسلم، ١٤٩٣/٣ (١٨٧٢).

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] جامع البيان للطبري، ٨٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٥] قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٦] س: لضمّها.

"بِالسُّؤْقِ"[١] تنزيلًا لضمّة "السين" منزلةَ ضمّة "الواو". وقُرئ: "بِالسَّاقِ"[٢] اكتفاءً بالواحد مِن الجمع لأمْن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهَرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما رُوي مرفوعًا أنّه قال: «لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى»، ولم يقل: "إن شاء الله"، فطاف عليهنّ، فلم تحمِل إلّا امرأة واحدة؛ جاءت بشِقّ رَجل، والذي نفسي بيده لو قال: "إن شاء الله" لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون.[٣]

وقيل: وُلد[٤] له ابن، فاجتمعت الشياطين على قتله، فعلِمَ ذلك، فكان يغذوه في السحاب، فما شعر به إلّا أن أُلقِي على كرسيّه ميّتًا، فتنبّه لخَطئِه حيث لم يتوكّل على الله عزّ وعلا.

وقيل: إنّه غزا صيدون مِن الجزائر، فقتَل مَلِكَها، وأصاب بنتًا له تسمّى جرادة، مِن أحسن الناس، فاصطفاها لنفسه، وأسلمَت، وأحبّها، وكان لا يرقَأ دمعها جزَعًا على أبيها، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورتَه، وكانت تغدو إليها وتروح مع وَلائدها يسجدن لها كعادتهنّ في ملكه، فأخبرَه آصف بذلك، / فكسر الصورة، وعاقب [٤٤٠و]
المرأة، ثمّ خرج وحده إلى فلاة، وفُرِشَ له الرماد، فجلسَ عليه تائبًا إلى الله تعالى باكيًا متضرِّعًا، وكانت له أمّ ولدٍ يُقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة يعطيها خاتَمه، وكان مُلكُه فيه، فأعطاها يومًا، فتمثّل لها بصورته شيطان اسمه صخر، وأخذ الخاتم فتختّم به، وجلس على كرسيّه فاجتمع عليه الخلق، ونفّذ حكمه في كلّ شيء إلّا في نسائه، وغُيِّر سليمانُ عن هيئته، فأتى أمينةَ لطلب الخاتم،

---

١ قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو الوجه الثاني عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٣ صحيح البخاري، ٤/٢٢ (٢٨١٩)؛ صحيح مسلم، ٣/١٢٧٦ (١٦٥٤).

٤ س – وُلد.

فأَنْكرَته وطردَته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركَته، فكان يدور على البيوت يتكفّف، وإذا قال: "أنا سليمان" حَثَوا عليه الترابَ وسَبّوه، ثمّ عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمَكَ، فيعطونه كلّ يوم سمكتَين، فمكث على ذلك أربعين صباحًا، عددَ ما عُبِد الوَثَنُ في بيته، فأنكر آصفُ وعظماء بني إسرائيل حكمَ الشيطان، ثمّ طار اللعين، وقذف الخاتمَ في البحر، فابتلعه سمكة، فوقعت في يد سليمان، فبَقَرَ بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختّم به، وخرّ ساجدًا، وعاد إليه مُلكُه، وجابَ صَخرةً لصخرٍ، فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى، ثمّ أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر.[1]

وعلى هذا فـ"الجَسَد" عبارة عن صخر، سمّي به -وهو جسم لا روحَ فيه- لأنّه تمثّل بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عليه السلام عن حال أهله؛ لأنّ اتّخاذ التماثيل لم يكن محظورًا حينئذ، وسجود الصورة بغير عِلم منه لا يضرّه.

﴿قَالَ﴾ بدل مِن ﴿أَنَابَ﴾ وتفسير له ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أي: ما صدَرَ عنّي مِن الزلّة، ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ لا يتسهّل له ولا يكون، ليكون معجزةً لي مناسبةً لِحالي، فإنّه عليه السلام / لمّا نشأ في بيت المُلك والنبوّة ووَرِثَهما معًا [٤٤٠ظ] استدعى مِن ربّه معجزة جامعة لحُكمهما، أو لا ينبغي لأحد أن يسلُبه منّي بعد هذه السلبة، أو لا يصحّ لأحد مِن بعدي لعظَمته، كقولك: "لفلانٍ ما ليس لأحد مِن الفضل والمال" على إرادةِ وصفِ المُلك بالعظَمة، لا أن لا يُعطى أحد مثله فيكونَ منافسةً.

وقيل: كان مُلكًا عظيمًا، فخاف أن يُعطى مثلَه أحد، فلا يحافِظ على حدود الله تعالى.

وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريًا على سَنَن الأنبياء عليهم السلام والصالحين. وكونِ ذلك أدخلَ في الإجابة. وقُرئ: "لِيَ" بفتح "الياء".[2]

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٩٤/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[2] لم أجد مَن ذكَر هذه القراءة. وخلافهم المشهور في ياء ﴿بَعۡدِيٓ﴾، قرأ بفتحها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو، وأسكنها باقي القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٦٧/٢؛ ٣٦٢.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معًا، لا بالأخيرة فقط، فإنّ المغفرة أيضًا مِن أحكام وصف الوهّابيّة قطعًا.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي: فذلّلناها لطاعته إجابةً لدعوته، فعاد أمره عليه السلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة. وقُرِئ: "الرِّيَاحَ".[١] ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ بيان لتسخيرها له ﴿رُخَآءً﴾ أي: ليّنةً، مِن "الرّخاوة"، طيّبة لا تُزَعْزِعُ. وقيل: طَيِّعةً لا تمتنع عليه، كالمأمور المنقاد، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث قصَد وأراد. حكى الأصمعي عن العرب: "أصابَ الصواب، فأخطأ الجواب".[٢]

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾[٣] ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾. ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ عطفٌ على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، داخل في حكم البدل. كأنّه عليه السلام فصَل الشياطين إلى عَمَلةٍ استعملهم في الأعمال الشاقّة مِن البِناء والغَوص ونحو ذلك، وإلى مَرَدةٍ قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل لكفِّهم عن الشرّ والفساد. ولعلّ أجسامَهم شفّافة فلا تُرَى، صُلْبةٌ فيمكن تقييدها، ويقدرون على الأعمال الصعبة. وقد جُوّز أن يكون الإقران في الأصفاد / عبارة [٤٤١و]
عن كفّهم عن الشرور بطريق التمثيل.

و"الصَّفَد" القَيد، وسُمِّي به العطاء؛ لأنّه يرتبط بالمنعَم عليه، وفرّقوا بين فعليهما، فقالوا: "صَفَدَه" قيّده، و"أَصْفَدَه" أعطاه، على عكس "وَعَدَ" و"أَوعَدَ".

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾... إلخ إمّا حكاية لِما خوطب به سليمان عليه السلام، مبيِّنةٌ لِعِظَم شأن ما أوتِي مِن المُلْك، وأنّه مفوَّض إليه تفويضًا كلّيًّا، وإمّا مَقولٌ

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٢ تفسير السمرقندي، ٣/١٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٩٥. قال أبو بكر الأنباري: «معناه: أراد الصواب». الزاهر للأنباري، ٢/١٩٤.

٣ في الآية السابقة.

لقَول مقدّرٍ هو معطوفٌ على ﴿سَخَّرْنَا﴾،[١] أو حالٌ مِن فاعله، كما مرّ في خاتمة قصّة داود عليه السلام، أي: وقلنا له، أو قائلين له: هذا الذي أعطيناكه مِن المُلك العظيم والبَسطة والتسلّطِ على ما لم يُسلَّطْ عليه غيرك ﴿عَطَآؤُنَا﴾ الخاصُ بك، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعطِ مَن شئتَ وامنَع مَن شئتَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال مِن المستكِنّ في الأمر، أي: غيرَ محاسَب على منّه وإمساكه، لتفويض التصرّف فيه إليك على الإطلاق، أو مِن "العطاء"، أي: هذا عطاؤنا ملتبِسًا بغير حساب لغاية كَثرته، أو صلةٌ له،[٢] وما بينهما اعتراض على التقديرَين. وقيل: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بـ"المَنّ والإمساك" الإطلاقُ والتقييد.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع ما له مِن المُلك العظيم في الدنيا، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنّة.

قيل: فُتِنَ سليمان عليه السلام بعد ما ملَك عشرين سنةً، وملَك بعد الفتنة عشرين سنةً.

وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري[٣] في **تاريخه** أنّ سليمان عليه السلام ورِث مُلك أبيه في عصر كيخسرو بن سياوش، وسار مِن الشام إلى العراق، فبلغَ خبره كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبَث حتّى هلك، ثمّ سار سليمان عليه السلام إلى مرو، ثمّ إلى بلاد الترك، فوغل فيها، ثمّ جاز بلاد الصين، ثمّ عطف إلى أن وافى بلاد فارس، فنزلها أيّامًا، ثمّ عاد إلى الشام، ثمّ أُمِر ببناء بيت المقدس، فلمّا فرغ منه سار إلى تِهامة، ثمّ إلى صنعاء،

---

١ ص، ٣٨/٣٦

٢ وفي هامش م: على أنّ "العطاء" مصدر. «منه».

٣ هو أحمد بن داود الدينوري، أبو حنيفة (ت. ٢٨٢هـ/٨٩٥م). العلّامة، النحوي، ذو الفنون، تلميذ ابن السكّيت. كبير الدائرة، طويل الباع. ألّف في النحو واللغة والهندسة والهيئة والوقت وأشياء، له تصانيف نافعة، منها الأخبار الطِّوال، والأنواء، والنبات، وتفسير القرآن، وما تلحن فيه العامّة، والشعر والشعراء، والفصاحة، والجبر والمقابلة، والبلدان، وإصلاح المنطق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣/٤٢٢؛ والأعلام للزركلي، ١/١٢٣.

وكان مِن حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى، وغزا بلاد المغرب، الأندلس وطنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.[1] وعدم تصدير قصّة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتّصال بينه وبين داود عليهما السلام. وأيّوب عليه السلام هو ابن عيص بن إسحاق عليه السلام.[2]

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿عَبْدَنَا﴾، و﴿أَيُّوبَ﴾ عطفُ بيان له. ﴿أَنِّى﴾ بأنّي ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بفتح ياء ﴿مَسَّنِىَ﴾. وقُرئ بإسكانها وإسقاطها.[3] ﴿بِنُصْبٍ﴾ أي: تَعبٍ. وقُرئ بفتح "النون"،[4] وبفتحتين،[5] وبضمّتين للتثقيل.[6] ﴿وَعَذَابٍ﴾ أي: ألَمٍ ووَصَبٍ، يريد مرضَه وما كان يقاسيه مِن فنون الشدائد، وهو المراد بـ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء، ٨٣/٢١]. وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به بعبارته، وإلّا لَقيل: "أنّه مَسّه"... إلخ.

[٤٤١ظ] والإسناد إلى الشيطان إمّا لأنّه تعالى مَسّه بذلك لِما فَعَل / بوسوسته، كما قيل: إنّه أُعجِب بكَثرة ماله، أو استغاثَهُ مظلوم فلم يُغِثه، أو كانت مواشيه في ناحية مَلِكٍ كافرٍ فداهَنه ولـم يَغزُه، أو لامتحانِ صبرِه،[7] فيكون اعترافًا بالذنب، أو مراعاةً للأدب، أو لأنّه وسوس إلى أتباعِه حتّى رفضوه وأخرجوه مِن ديارهم، أو لأنّ المراد بـ"النُّصْب والعذاب" ما كان يوسوس به إليه في مرضه مِن تعظيم ما نزَل به مِن البلاء، والقنوطِ مِن الرحمة، ويُغريه على الكراهة والجزَع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيَه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق لدفعه وردّه بالصبر الجميل. وليس هذا تمام دعائه عليه السلام بل مِن جُملته قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

---

١ ص، ١٧/٣٨.

٢ س – عليه السلام.

٣ أي: وإسقاط "الياء" في الوصل دون الوقف. قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة ويعقوب وهبيرة عن حفص. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٦٢/٩.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

٧ وفي هامش م: عطفٌ على "لِما فعل". «منه».

[الأعراف، ١٥١/٧]، فاكتُفِي ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء،[١] كما تُرك هناك ذِكر الشيطان ثقةً بما ذُكر ههنا.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾... إلخ إمّا حكاية لِما قيل له، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّر، معطوفٍ على ﴿نَادَىٰ﴾،[٢] أي: فقلنا له: اركُض برِجلك، أي: اضرِب بها الأرض، وكذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فإنّه أيضًا إمّا حكاية لِما قيل له بعد امتثاله بالأمر وبنوعِ الماء، أو مقولٌ لقَول مقدَّر معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فضرَبها، فنبَعت عين، فقلنا له: هذا مغتَسَل تَغتَسِلُ به وتشربُ منه، فيَبرأُ ظاهرك وباطنك. وقيل: نبعَت عَينان، حارّة للاغتسال، وباردة للشرب،[٣] ويأباه ظاهر النظم الكريم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ معطوف على مقدَّر، مترتّبٌ على مقدَّر آخَر يقتضيه القولُ المقدَّر آنفًا، كأنّه قيل: فاغتسلَ وشرِبَ، فكشَفنا بذلك ما به مِن ضرّ، كما في سورة الأنبياء،[٤] ووَهبنا له أهله، إمّا بإحيائهم بعدَ هلاكهم، وهو المرويّ عن الحسن رضي الله عنه،[٥] أو بجَمعهم بعد تفرّقهم كما قيل.[٦]

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَهُۥ﴾، فكان له مِن الأولاد ضِعف ما كان له قبل، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ / أي: لِرحمةٍ عظيمةٍ عليه مِن قِبَلنا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٤٤٢و] ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبَر، ويلجأوا إلى الله عزّ وجلّ فيما يَحيق بهم كما لجَأَ لِيُفعَلَ بهم ما فُعِل به مِن حسن العاقبة.

---

١ الأنبياء، ٨٣/٢١.
٢ في الآية السابقة.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٩٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥.
٤ الأنبياء، ٨٤/٢١.
٥ س - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ١١٠/٢٠؛ اللباب لابن، ٤٣٠/١٦.
٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٠/١٦.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ معطوف على ﴿ٱرۡكُضۡ﴾،[١] أو على ﴿وَهَبۡنَا﴾[٢] بتقدير "قلنا"، أي: وقلنا: خُذْ بيدك... إلخ، والأوّل أقرب لفظًا، وهذا أنسب معنًى، فإنّ الحاجة إلى هذا الأمر لا تمسّ إلّا بعد الصحّة، فإنّ امرأته رحمة بنت افرائيم بن يوسف -وقيل: ليّا بنت يعقوب، وقيل: ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام- ذهبت لحاجة، فأبطأت، فحلَفَ: إن برِئ لَيَضربنّها مائةَ ضربةٍ، فأمره الله تعالى بأخذ الضِغث -و"الضِغثُ"[٣] الحُزمة الصغيرة مِن الحشيش ونحوِه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قبضة مِن الشجر»-[٤] وقال: ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ أي: بذلك الضِغثِ، ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ في يمينك، فإنّ البِرّ يتحقّق به.

ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمةً عليه وعليها لِحُسن خدمتها إيّاه، ورضاه عنها، وهي باقية، ويجب أن يصيب المضروبَ كلُّ واحد مِن المائة، إمّا بأطرافها قائمة، أو بأعراضها مبسوطةً على هيئة الضرب.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. وليس في شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك، فإنّه لا يسمّى جَزَعًا، كتمنّي العافية، وطلبِ الشفاء، على أنّه قال ذلك خِيفةَ الفتنة في الدين، حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنّه لو كان نبيًّا لَما ابتُلِي بمِثل ما ابتُلِي به، وإرادةَ القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمرُه إلى أن لم يبقَ منه إلّا القلب واللسان.

ويُروى أنّه عليه السلام قال في مناجاته: «إلهي قد علمتَ أنّه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتّبع قلبي بصري، ولم يَهَبْني[٥] ما ملكَت يميني، ولم آكُل إلّا ومعي يتيم، ولم أبِتْ شبعانَ ولا كاسيًا ومعي جائع أو عريان، فكشف الله تعالى عنه».[٦]

---

١ ص، ٤٢/٣٨.

٢ في الآية السابقة.

٣ س: والغضث.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٩٨/٤. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ١٩٥/٧.

٥ مِن الهيبة والرَّوع، وهو كناية عن التعظيم والإعجاب. فتوح الغيب للطيبي، ٢٩٦/١٣.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٩٨/٤؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٣٨٥/٧.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: أيّوب، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي: رجّاع إلى الله تعالى.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطفُ بيان لـ﴿عِبَٰدَنَا﴾. وقُرئ: "عَبْدَنَا"،[1] إمّا على أنّ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وحده --لمزيد شرفه- عطفُ بيان، وقيل: بدل، وقيل: نصب بإضمار "أعني"، والباقيان عطفٌ على "عَبدَنا"، وإمّا على أنّ "عَبدَنا" اسم جنس وُضع مَوضع الجمع.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوّة في الطاعة، والبصيرة في الدِّين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعُبِّر بـ﴿ٱلْأَيْدِى﴾ عن الأعمال؛ لأنّ أكثرها تُباشَر بها، وبـ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عن المعارف؛ لأنّها أقوى مباديها. / وفيه [٤٤٢ظ] تعريض بالجهَلة البطّالين أنّهم كالزَّمْنَى والعُماة، وتوبيخٌ على تركهم المجاهدةَ، والتأمّلَ مع تمكّنهم منهما. وقُرئ: "أُولِي الْأَيْدِ" بطرح "الياء"، والاكتفاءِ بالكسر.[2] وقُرئ: "أُولِي الْأَيَادِي"[3] على جمع الجمع.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ تعليل لِما وُصِفُوا به مِن شرَف العبوديّة وعلوّ الرتبة في العلم والعمل، أي: جعلناهم خالِصين لنا بخَصلة خالِصة عظيمة الشأن كما يُنبئ عنه التنكير التفخيمي.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان لِلخالصة بعد إبهامها للتفخيم، أي: تَذَكُّرٍ للدار الآخرة دائمًا، فإنّ خلوصهم في الطاعة بسبب تذكّرهم لها، وذلك لأنّ مَطمح أنظارهم ومَطرح أفكارهم في كلّ ما يأتون وما يَذَرُون جِوارُ الله عزّ وجلّ والفوزُ بلقائه، ولا يتسنّى ذلك إلّا في الآخرة. وقيل: أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللطفِ بهم في اختيارها. ويعضُد الأوّلَ قراءة مَن قرأ: "بِخَالِصَتِهِمْ".[4]

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار بأنّها الدار في الحقيقة، وإنّما الدنيا مَعْبَر.

وقُرئ بإضافة ﴿خَالِصَةٍ﴾ إلى ﴿ذِكْرَى﴾،[١] أي: بما خَلُصَ مِن ذكرى الدار، على معنى: أنّهم لا يَشُوبُون ذِكراها بِهَمٍّ آخَر أصلًا.

أو تذكيرِهم[٢] الآخرةَ، وترغيبِهم فيها، وتزهيدِهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ الثناء الجميل في الدنيا، ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ لَمِن المختارِين مِن أمثالهم المصطفَين عليهم في الخير. و﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع "خَير"، كـ"شرّ" و"أشرار". وقيل: جمعُ "خيِّر" أو "خَيْرٍ" مخفَّفٍ منه، كـ"أموات" في جمع "مَيِّت" و"مَيْت".

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذكرُه عن ذكر أبيه وأخيه للإشعار بعَراقته في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوب بن العجوز، استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استُنبِئ، و"اللام" فيه حرف تعريف دخل على "يَسَع"، كما في قول مَن قال:

/ رأيتُ الوليدَ بنَ اليَزيدَ مباركًا[٣] [٤٤٣و]

وقُرئ: "وَاللَّيْسَعَ"،[٤] كأنّ أصله "لَيْسَع"، "فَيْعَل" مِن "اللَّسْع" دخل عليه حرف التعريف. وقيل: هو على القراءتَين علَم أعجمي دخل عليه "اللام". وقيل: هو يوشع.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[٢] السياق: وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار... أو تذكيرِهم.

[٣] تمامه:

شديدًا بأعباء الخِلافة كاهلُه

وهو لابن ميّادة، الرمّاح بن أبرد، مِن قصيدة يمدح بها الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٢٢٦/٢؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١٦٤/١.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ هو ابن عمّ يَسَع، أو بشر بن أيّوب. واختلف في نبوّته ولقَبِه، فقيل: فرّ إليه مائة نبيّ مِن بني إسرائيل مِن القتل فآواهم وكفَلهم. وقيل: كفَل بعملِ رجل صالح كان يصلّي كلّ يوم مائةَ صلاة.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلّهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ المشهورين بالخيريّة.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن الآيات الناطقة بمَحاسنهم ﴿ذِكۡرٌ﴾ أي: شرَف لهم وذِكر جميل يُذكَرون به أبدًا، أو نوع مِن الذِّكر الذي هو القرآن، وباب منه مشتمِل على أنباء الأنبياء. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هذا ذِكر مَن مضى مِن الأنبياء».[1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ شروع في بيان أجرهم الجزيل في الآجل بعدَ بيان ذكرهم الجميل في العاجل، وهو باب آخَر مِن أبواب التنزيل. والمراد بـ"المتّقين" إمّا الجنسُ، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًّا، وإمّا نفسُ المذكورين عُبّر عنهم بذلك مدحًا لهم بالتقوى التي هي الغاية القاصية مِن الكمال.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿حُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[2] عند مَن يُجوّز تخالُفهما تعريفًا وتنكيرًا، فإنّ "عَدْنًا" معرفة، لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ [مريم، ٦١/١٩]، أو بدل منه، أو نصب على المدح.

وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ حال مِن ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، والعامل فيها ما في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3] مِن معنى الفعل. و﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ مرتفعة باسم المفعول، والرابط بين الحال وصاحبها إمّا ضمير مقدَّر كما هو رأي البصريّين، أي: الأبوابُ منها، أو "الألِف" و"اللام" القائمة مَقامه كما هو رأي الكوفيّين؛ إذ الأصل "أبوابُها".

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٠٠/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٦/٩.

[2] في الآية السابقة.

[3] في الآية السابقة.

[٤٤٣ظ] وقُرِئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر،[١] أو على أنّهما / خبران لمحذوف، أي: هي جنّات عدن، هي مفتَّحةٌ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال مِن ضمير[٢] ﴿لَهُمُ﴾،[٣] والعاملُ فيها ﴿مُّفَتَّحَةً﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ استئناف لبيان حالهم فيها. وقيل: هو أيضًا حال ممّا ذُكر، أو مِن ضمير ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأنّ مَطاعمهم لِمَحض التفكّه والتلذّذ دون التغذّي، فإنّه لتحصيل بدَل المُتحلِّل، ولا تحلُّلَ ثمّة.

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي: على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿أَتۡرَابٌ﴾ لِدَات لهم، فإنّ التحابّ بين الأقران أرسَخ، أو بعضُهنّ لبعض، لا عجوزَ فيهنّ ولا صبيّة. واشتقاقه مِن "التراب"، فإنّه يَمسّهم في وقت واحد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لأجله، فإنّ الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقُرئ بـ"الياء"[٥] ليوافق ما قبله، والالتفاتُ أليَق بمقام الامتنان والتكريم.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن ألوان النِّعم والكرامات ﴿لَرِزۡقُنَا﴾ أعطيناكُموه، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاعٍ أبدًا.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمرُ هذا، أو هذا كما ذُكر، أو هذا ذِكرٌ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ شروع في بيان أضداد الفريق السابق.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وعبد الله بن رفيع وأبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٧/٩.

٢ م ط س - ضمير ["صح" في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه كما سلف ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يَدخلونها، حال مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهو المهدُ والمَفرش، مستعار مِن فراش النائم، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو "جهنّم"، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف، ٧/٤١].

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه، كقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ[1] فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]، أو العذابُ هذا فليذوقوه، أو ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ خبره: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، وما بينهما اعتراض، وهو على الأوّلَين خبر مبتدأ محذوف، أي: هو حميم. و"الغسّاق" ما يَغسَق مِن صديد أهل النار، مِن "غَسَقَت العَين" إذا سالَ دمعها.

وقيل: "الحميم" يُحرِق بحَرِّه، / و"الغسّاق" يُحرِق ببَرده. وقيل: لو قَطرت منه قطرة في المَشرق لنتّنتْ أهلَ المَغرب، ولو قَطرَت قطرة في المَغرب لنتّنتْ أهلَ المشرق.[2] وقيل: "الغسّاق" عذاب لا يعلمه إلّا الله تعالى. [٤٤٤و]

وقُرئ بتخفيف "السين".[3]

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: ومَذوقٌ آخَر أو عذابٌ آخَر مِن مِثل هذا المَذوق أو العذاب في الشدّة والفظاعة. وقُرئ: "وَأُخَرُ"،[4] أي: ومَذوقاتٌ أُخَرُ، أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. وتوحيدُ ضمير ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾ بتأويل[5] "ما ذُكر"، أو الشرابِ الشاملِ للحميم والغسّاق، أو هو راجع إلى "الغسّاق".

﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أجناس، وهو خبر لـ﴿ءَاخَرُ﴾؛ لأنّه يجوز أن يكون ضُروبًا، أو صفةً له، أو للثلاثة، أو مرتفِعٌ بالجارّ، والخبرِ محذوف، مِثل: "لهم".

---

١ م ط س: فإيّاي.

٢ جامع البيان للطبري، ٢٠/١٢٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠١.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

٤ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

٥ وفي هامش م: بعد استعارته لاسم الإشارة، كما مرّ في سورة يوسف عليه السلام. «منه». | يوسف، ١٢/٣٦.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكاية ما يقال مِن جهة الخزَنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النارَ واقتحَمها معهم فوجٌ كانوا يتّبعونهم في الكفر والضلالة. و"الاقتحام" الدخول في الشيء بشدّة. قال الراغب: «"الاقتِحام" توسّط شدّة مُخِيفة».[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ مِن تمام كلامِ الخزَنة بطريق الدعاء على الفوج، أو صفةٌ للفوج، أو حال منه، أي: مقولٌ، أو مقولًا في حقّهم: لا مرحبًا بهم، أي: لا أتيتم[٢] مرحبًا، أو لا رَحُبَتْهم[٣] الدارُ مرحبًا.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل مِن جهة الخزَنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم، أو وصفِهم بما ذُكر.

وقيل: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ إلى هنا كلام الرؤساء في حقّ أتباعهم عند خطاب الخزَنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجّرًا مِن مقارنتهم، وتنفّرًا مِن مصاحبتهم. وقيل: كلّ ذلك كلام الرؤساء بعضِهم مع بعضٍ في حقّ الأتْباع.

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباعُ عند سماعهم ما قيل في حقّهم. ووجهُ خطابِهم للرؤساء في قولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾... إلخ على الوجهين الأخيرين ظاهرٌ، وأمّا على / الوجه الأوّل فلعلّهم إنّما خاطبوهم مع أنّ الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزَنة: "بل هم لا مرحبًا بهم"... إلخ قصدًا منهم إلى إظهار صِدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكمِ إلى الخزَنة طمعًا في قضائهم بتخفيف عذابهم، أو تضعيفِ عذاب خصمائهم. أي:[٤] بل أنتم أحقّ بما قيل لنا أو قلتم. [٤٤٤ظ]

---

١ المفردات للراغب الأصفهاني، «قحم».

٢ س: لا أتوا.

٣ ط: رحبتكم؛ س: رحبت بهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه غيّر العبارة بعد نسخ ط س. والأصل في "رَحُبَ" أن يتعدّى بالحرف، فيقال: "رَحُبَ بكَ المكان"، ثمّ كثُر حتّى تعدّى بنفسه، فقيل: "رَحُبَتْكَ الدارُ"، وهذا شاذّ في القياس، فإنّه لا يوجد "فَعُلَ" بالضمّ إلّا لازمًا، مثل: "شَرُفَ" و"كَرُمَ". المصباح المنير للفيّومي، «رحب».

٤ وفي هامش م: تفسير على الوجوه الثلاثة. «منه».

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليل لأحقّيّتهم بذلك، أي: أنتم قدّمتم العذاب أو الصُّلِيَّ لنا، وأوقعتمونا فيه بتقديم ما يؤدّي إليه مِن العقائد الزائغة والأعمال السيّئة، وتزيينِها في أعيننا، وإغرائنا عليها، لا أنّا باشرناها مِن تِلقاء أنفسنا، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المَقرُّ جهنّمُ، قصَدوا بذمّها تغليظَ جِناية الرؤساء عليهم.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الأتباعُ أيضًا، وتوسيطُه بين كلامَيهم لِما بينهما مِن التباين البيّن ذاتًا وخطابًا، أي: قالوا معرِضين عن خُصومتهم متضرّعين إلى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، أي: عذابًا مضاعَفًا، أي: ذا ضِعف، وذلك بأن يزيد عليه مِثله، ويكون ضِعفين، كقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]. وقيل: المراد بـ"الضعف" الحيّات والأفاعي.

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الطاغون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يستَرذِلونهم ويسخَرون منهم.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بهمزة استفهام سقَطت لأجلها همزة الوَصل. والجملة استئناف لا محلَّ لها مِن الإعراب. قالوه إنكارًا على أنفسهم، وتأنيبًا لها في الاستِسخار منهم.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ متّصل بـ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿أَمْ﴾ متّصلة، والمعنى: أيَّ الأمرين فعَلْنا بهم؛ الاستسخارَ منهم أم الازدراءَ بهم وتحقيرَهم، وأنّ أبصارنا كانت تَزيغُ عنهم وتقتحمهم؟ على معنى إنكار كلٍّ واحدٍ مِن الفعلين على أنفسهم توبيخًا لها.

أو على أنّها منقطعة، والمعنى: أَتَّخذناهم سِخريًّا بل أزاغَت عنهم أبصارنا؟
[٤٤٥و] كقولك: "أزيدٌ عندك أم عندك عمرو؟" على معنى توبيخ أنفسهم / على الاستِسخار ثمّ الإضرابِ والانتقالِ منه إلى التوبيخ على الازدِراء والتحقير.

وقُرِئ: "اتَّخَذْنَاهُمْ" بغير همزة[1] على أنّه صفة أخرى لـ﴿رِجَالًا﴾،[2] فقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾،[3] والمعنى: ما لنا لا نراهم في النار، أَلَيسُوا فيها فلذلك لا نراهم، أم زاغَت عنهم أبصارُنا وهم فيها؟ وقد جُوِّز أن تكون "الهمزة" مقدَّرة على هذه القراءة. وقُرِئ: "سُخْرِيًّا" بضمّ "السين".[4]

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي حُكي مِن أحوالهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ مِن وقوعه البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفي الإبهام أوّلًا والتبيين ثانيًا مزيدُ تقرير له. وقيل: بدل مِن محلّ ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿حَقٌّ﴾، أو عطف بيان له. وقُرِئ بالنصب[5] على أنّه بدل مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾. وما قيل:[6] مِن أنّه صفة له، فقد قيل عليه: إنّ اسم الإشارة لا يُوصف إلّا بالمعرَّف بـ"اللام"، يقال: "بهذا الرجلِ"، ولا يقال: "بهذا غلامِ الرجل".

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مِن جهته تعالى أنذركم عذابه، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركةَ والكثرةَ أصلًا، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء سِواه.

[1] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.
[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٢.
[6] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٠٣/٤.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَبُ في أمر مِن أموره، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، يغفر ما يشاء لمَن يشاء. وفي هذه النعوت مِن تقرير التوحيد والوعد للموحِّدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى. وتثنيةُ ما يُشعر بالوعيد مِن وصفَي القَهر والعزّة وتقديمُهما على وصف المغفرة لتَوفية مَقام الإنذار حقَّه.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾

﴿قُلْ﴾ / تكريرُ الأمر للإيذان بأنّ المَقول أمر جليل له شأن خَطير، لا بدَّ مِن الاعتناء به أمرًا وائتمارًا: ﴿هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به مِن أنّي منذر مِن جهته تعالى، وأنّه تعالى واحد لا شريكَ له، وأنه متّصف بما ذُكر مِن الصفات الجليلة. والأظهر أنّه القرآنُ، وما ذُكر داخل فيه دخولًا أوّليًا كما يشهد به آخِر السورة الكريمة، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة. ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ وارد مِن جهته تعالى. [٤٤٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئناف ناعٍ عليهم سوءَ صنيعهم به ببيان أنّهم لا يقدّرون قَدرَه الجليلَ، حيث يُعرضون عنه مع عظمته وكونِه موجِبًا للإقبال الكلّي وتلقّيه بحُسن القَبول. وقيل: صفة أخرى لـ﴿نَبَؤٌا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق أنّه نبأ عظيم وارد مِن جهته تعالى بذِكر نبأٍ مِن أنبائه على التفصيل مِن غير سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ مِن أسبابها المعتادة، فإنّ ذلك حجّة بيّنة دالّة على أنّ ذلك بطريق الوحي مِن عند الله تعالى، وأنّ سائر أنبيائه أيضًا كذلك. و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يقتضيه المقام؛ إذ المراد نفي علمه عليه السلام بحالهم، لا بذواتهم. والتقدير: ما كان لي فيما سبَق عمل ما بوجه مِن الوجوه بحال الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم. وتقديرُ[١] الكلام

---
[١] وفي هامش م: لفظ الكلام.

كما اختاره الجمهور تحجير للواسع، فإنّ علمه عليه السلام غيرُ مقصور على ما جرى بينهم مِن الأقوال فقط؛ بل عامّ لها وللأفعال أيضًا، مِن سجود الملائكة عليهم السلام، واستكبار إبليس وكفره، حسبما ينطق به الوحيُ، فلا بدّ مِن اعتبار العموم في نَفيِه أيضًا لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اعتراض وُسِّط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريرًا لِثبوت علمه عليه السلام، وتعيينًا لسببه، إلّا أنّ بيان انتفائه فيما سبق لمّا كان / منبئًا عن ثبوته الآنَ، ومِن البيِّن عدم ملابَسته [٤٤٦و] عليه السلام بشيء مِن مَباديه المعهودة؛ تعيّن أنّه ليس إلّا بطريق الوحي حتمًا، فَجُعِل ذلك أمرًا مسلّمَ الثبوت، غنيًّا عن الإخبار به قصدًا، وجُعِل مَصَبّ الفائدة والمقصود إخبارُه ما هو داعٍ إلى الوحي ومصحِّحٌ له تحقيقًا لِقوله تعالى:[١] ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[٢] في ضِمن تحقيق علمه عليه السلام بقصّة الملأ الأعلى.

فالقائم مَقام الفاعل لِـ﴿يُوحَىٰٓ﴾ إمّا ضمير عائد إلى الحال المقدَّر، أو ما يَعُمّه وغيرَه، فالمعنى: ما يُوحى إليَّ حالُ الملأ الأعلى، أو ما يُوحى إليَّ ما يُوحى مِن الأمور الغيبيّة التي مِن جملتها حالُهم إلّا لِأنّما أنا نذير مبين مِن جهته تعالى. فإنّ كونَه عليه السلام كذلك مِن دواعي الوحي إليه[٣] وموجِباته حتمًا.

وأمّا أنّ القائم مَقام الفاعل هو الجارّ والمجرور، أو هو ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بلا تقدير الجارّ، وأنّ المعنى: ما يوحى إليَّ إلّا للإنذار، أو ما يُوحى إليَّ إلّا أن أُنْذِر وأُبَلِّغ ولا أُفَرِّطَ في ذلك كما قيل؛[٤] فمَع ما فيه مِن الاضطرار إلى التكلّف في توجيه قَصر الوحي على كونه للإنذار في الأوّل، وقَصره على الإنذار في الثاني، فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه، كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيًّا ممّا توسّط بينهما مِن إجمال الاختصام وتفصيله؟ فتأمّل، والله المرشد.

وقُرِئ: "إِنَّمَا" بالكسر[٥] على الحكاية.

---

[١] س - تعالى.

[٢] ص، ٣٨/٦٥.

[٣] وفي هامش م: ويجوز أن يكون ذلك مصدر الفعل، أي: ما يُفعَل الوحي إليّ إلّا لأنّما أنا نذير مبين. «منه».

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠٤.

[٥] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمل مِن الاختصام الذي هو ما جرى بينهم مِن التقاوُل، وحيث كان تكليمه تعالى إيّاهم بواسطة الملَك صحّ إسناد الاختصام إلى الملائكة. و﴿إِذۡ﴾ بدل مِن ﴿إِذۡ﴾ الأولى، وليس مِن ضرورة البدليّة دخولها على نفس الاختصام؛ بل يكفي اشتمال ما في حيّزها عليه، فإنّ القصّة ناطقة بذلك / تفصيلًا. [٤٤٦ظ]

والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، والإيذانِ بأنّ وَحي هذا النبأ إليه تربيةٌ وتأييدٌ له عليه السلام.

و"الكاف" وارد باعتبار حال الآمِر، لكونه أدلّ على كونه وحيًا منزّلًا مِن عنده تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾... إلخ [الزمر، ٥٣/٣٩] دون حال المأمور، وإلّا لَقيل: "ربّي"؛ لأنّه داخل في حيّز الأمر.

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾ أي: فيما سيأتي، وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّة مِن غير صارِف يَلويه، ولا عاطف يَثنيه. ﴿بَشَرٗا﴾ قيل: أي: جسمًا كثيفًا يُلاقَى ويُباشَر. وقيل: خَلْقًا باديَ البشَرة بلا صوف ولا شَعر. ولعلّ ما جرى عند وقوع المَحكيّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَق مسمّاه حينئذ فضلًا عن تسميته به؛ بل عبارةٌ كاشفة عن حاله، وإنّما عُبّر عنه بهذا الاسم عند الحكاية. ﴿مِّن طِينٖ﴾ لم يُتعرَّض لأوصافه مِن التغيّر والاسوِداد والمَسنونيّة اكتفاءً بما ذُكر في مواقع أُخَر.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوّيت أجزاء بدَنه بتعديل طبائعه، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ "النفخ": إجراء الريح إلى تجويف جسمٍ صالح لإمساكها والامتلاءِ بها. وليس ثَمّةَ نفخٌ ولا مَنفوخٌ، وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمّلت استعداده وأفضتُ عليه ما يَحيى به مِن الروح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾

أمرٌ مِن "وَقَعَ"، وفيه دليل على أنّ المأمور به ليس مجرّدَ الانحناء كما قيل،[١] أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّةً له وتكريمًا.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه، فنفخ فيه الروح، فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحد إلّا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي: بطريق المعيّة، [٤٤٧و] / بحيث لم يتأخّر في ذلك أحد منهم عن أحد. ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا. وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغةً في التعميم.

هذا، وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكِي مِن الأمر التعليقي كما يقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة الحِجر،[٢] فإنّ ظاهرهما يستدعي ترتّبه عليه مِن غير أن يتوسّط بينهما شيء غيرُ ما يفصح عنه "الفاء" الفصيحة مِن الخَلق والتسوية ونفخِ الروح، أو على الأمر التنجيزي كما يقتضيه ما في سورة البقرة،[٣] وما في سورة الأعراف،[٤] وما في سورة بني إسرائيل،[٥] وما في سورة الكهف،[٦] وما في سورة طه،[٧] مِن الآيات الكريمة؛ فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله عزّ وجلّ في سورة البقرة[٨] وسورة الأعراف.[٩]

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متّصل لِما أنّه كان جنّيًا مُفرَدًا مغمورًا[١٠] بألوفٍ مِن الملائكة، موصوفًا بصفاتهم، فغُلّبوا عليه، ثمّ استثني استثناءَ واحد منهم، أو لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، وهو منهم، أو منقطع.

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٠/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٢٠/١ (البقرة، ٣٤/٢).
٢ الحجر، ٣٠/١٥.
٣ البقرة، ٣٤/٢.
٤ الأعراف، ١١/٧.
٥ الإسراء، ٦١/١٧.
٦ الكهف، ٥٠/١٨.
٧ طه، ١١٦/٢٠.
٨ البقرة، ٣٤/٢.
٩ الأعراف، ١١/٧.
١٠ س: مغمور.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ على الأوّل استئناف مبيّن لكيفيّة ترك السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ تركه يحتمل أن يكون للتأمّل والتروّي، وبه يتحقّق أنّه للإباء والاستكبار. وعلى الثاني يجوز اتّصاله بما قبله، أي: لكنّ إبليس استكبر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وصار منهم بمخالفته للأمر، واستكبارِه عن الطاعة، أو كان منهم في علم الله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: خلقتُه بالذات مِن غير توسّطِ أبٍ وأمٍّ. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقِه عليه السلام المُستدعي لإجلاله وإعظامه قصدًا إلى تأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ / بهمزة الإنكار وطرحِ همزة الوصل، أي: أتكبّرتَ مِن غير استحقاق، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المستحِقّين للتفوّق؟ وقيل: أَستكبرتَ الآن أم لم تزَل منذُ كنتَ مِن المستكبرين؟ وقُرئ بحذف همزة الاستفهام[١] ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليها. [٤٤٧ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ادّعاءٌ منه لشيء مستلزِم لمنعه مِن السجود على زعمه، وإشعارٌ بأنّه لا يليق أن يسجد الفاضل للمَفضول، كما يُعرِب عنه قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر، ١٥/٣٣].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لِما ادّعاه مِن فضله عليه عليه السلام، ولقد أخطأ اللعينُ حيث خصّ الفَضل بما مِن جهة المادّة والعنصر، وزلّ عنه ما مِن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾،[٢] وما مِن جهة الصورة، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٧٥.

[٢] في الآية السابقة.

[الحجر، ٢٩/١٥]، وما مِن جهة الغاية، وهو مَلاك الأمر، ولذلك أُمِر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهَر لهم أنّه أعلَم منهم بما يدور عليه أمر الخِلافة في الأرض، وأنّ له خواصّ ليست لغيره.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ "الفاء" لترتيب الأمر على ما ظهر مِن اللعين مِن المخالفة للأمر الجليل، وتعليلِها بالأباطيل، أي: فاخرج مِن الجنّة، أو مِن زُمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط،[1] لا الهبوطُ مِن السماء كما قيل،[2] فإنّ وسوَسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، وقد بيّن كيفيّة وسوَسته في سورة البقرة.[3]

وقيل: اخرج مِن الخِلقة التي كنتَ فيها وانسلِخ منها، فإنّه كان يفتخر بخِلقته، فغيّر الله تعالى خِلقَته؛ فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقَبُح بعد ما كان حَسنًا، وأظلَمَ بعد ما كان نورانيًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالخروج، أي: مطرودٌ مِن كلّ خير وكرامة، فإنّ مَن يُطرَد يُرجَم بالحجارة، أو شيطان يُرجَم / بالشهُب. [٤٤٨و]

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي عن الرحمة. وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر، ٣٥/١٥] لِما أنّ لعنةَ اللاعنِين مِن الملائكة والثقلَين أيضًا مِن جهته تعالى، وأنّهم يَدعون عليه بلعنة الله تعالى[4] وإبعادِه مِن الرحمة.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومِ الجزاء والعقوبة. وفيه إيذان بأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لجنايته؛ بل هي أنموذج ممّا سيَلقاه مستمرًّا إلى ذلك اليوم،

---

[1] في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧].

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٠/٤ (الأعراف، ١٣/٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٩٠/٢ (الأعراف، ١٣/٧).

[3] البقرة، ٣٦/٢.

[4] س – تعالى.

لكن لا على أنّها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت؛ بل على أنّه سيَلقى يومئذ مِن ألوان العذاب وأفانين العقاب ما يَنسى عنده اللعنة، وتصير كالزائل، ألا يُرى إلى قوله تعالى:[١] ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم[٢] بَعْضًا﴾ [العنكبوت، ٢٥/٢٩].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أمهِلني وأخِّرني. و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا فأمهلني ولا تُمِتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّتُه للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجو مِن الموت بالكلّيّة؛ إذ لا موتَ بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله لآخَرين على وجهٍ يُشعر بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ واضح على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصّ به، قد وقع إجابةً لدعائه، وأنّ استنظارَه كان طلبًا لتأخير الموت؛ إذ به يتحقّق كونه منهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل،[٣] فإنّ ذلك معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين"، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرَت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمةُ التكوين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الذي قدّره الله تعالى وعيّنه لفَناء الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول. فـ"الفاء" ليست لربط نفْس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كقول[٤] مَن قال:

فــإن تَــرْحَــمْ فــأنــتَ لــذاكَ أهــلٌ[٥]

---

[١] س - تعالى.

[٢] م ط س: بعضهم.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧/٣ (الأعراف، ١٣/٧).

[٤] ط س: كما في قول.

[٥] تمامه:

وإن تطرُد فمَن يَرحَم سواكا

وهو بغير نسبة في عروس الأفراح للسبكي، ٢٦٧/١؛ ومعاهد التنصيص لأبي الفتح العبّاسي، ١٧٠/١، بلفظ: "فإن تغفر"...

[٤٤٨ظ] فإنّه لا إمكان / لجَعل "الفاء" فيه لرَبط ما له تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لربط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها.

هذا، وقد تُرِكَ التوقيت في سورة الأعراف[١] كما تُرِكَ النداء و"الفاء" في الاستِنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر ههنا وفي سورة الحجر،[٢] وإن خطر ببالك أنّ كلّ وجه مِن وجوه النظم الكريم لا بدَّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمَقام غيره، وأنّ ما حُكِي مِن اللعين إنّما صدَر عنه مرّة، وكذا جوابه لم يقع إلّا دفعةً، فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحدَ الوجوه المَحكيّة فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال، والبالغُ إلى رتبة البلاغة وذِروة[٣] الإعجاز، وأمّا ما عداه مِن الوجوه فهو بمَعزِل[٤] مِن بلوغ درجة[٥] البلاغة فضلًا عن العروج إلى معارج الإعجاز؛ فقد سلَفَ تحقيقه في سورة الأعراف[٦] بفضل الله تعالى وتوفيقه.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ "الباء" للقسَم، و"الفاء" لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف، ١٦/٧]، وقولُه تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر، ٣٩/١٥]، فإنّ إغواءه تعالى إيّاه أثرٌ مِن آثار قدرته تعالى وعزّته، وحكمٌ مِن أحكام قَهره وسَلطنته، فمآل الإقسام بهما واحد، ولعلّ اللعينَ أقسَم بهما جميعًا، فحُكي تارةً قسَمه بأحدهما، وأخرى بالآخر، أي: فأقسِمُ بعزّتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ذريّةَ آدم بتزيين المعاصي لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلَصَهم الله تعالى لطاعته، وعصَمَهم مِن الغواية. وقُرئ: "المُخْلِصِينَ"[٧] على صيغة الفاعل، أي: الذين أخلَصوا قلوبهم أو أعمالَهم[٨] لله تعالى.

---

١ الأعراف، ١٥/٧.
٢ الحجر، ٣٨/١٥.
٣ ط س: ودرجة.
٤ س: فبمعزل.
٥ ط س: طبقة.
٦ الأعراف، ١٥/٧.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.
٨ س: وأعمالهم.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ برفع الأوّل على أنّه مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، ونَصبِ الثاني على أنّه مفعول لِما بعده قُدّم عليه للقصر، أي: لا أقول إلّا الحقَّ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: فالحقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أنّ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إمّا اسمه تعالى، أو نقيض الباطل؛ عظّمه الله تعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحقُّ، / أو فقَولي الحقُّ. وقوله تعالى: [٤٤٩و] ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾... إلخ حينئذ جواب لقسمٍ محذوف، أي: واللهِ لَأملَأنّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾[١] على كلّ تقديرٍ اعتراض مقرّر على الوجهَين الأوّلين[٢] لِمَضمون الجملة القَسَميّة، وعلى الوجه الثالث[٣] لِمَضمون الجملة المتقدّمة، أعني: فقَولي الحقُّ.

وقُرئا منصوبَين[٤] على أنّ الأوّل مُقسَم به، كقولك: "اللهَ لَأفعلَنّ"، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وما بينهما اعتراض. وقُرئا مجرورَين[٥] على أنّ الأوّل مُقسَم به قد أُضمِر حرف قَسَمِه، كقولك: "اللهِ لَأفعلَنّ"، و"الْحَقِّ أَقُولُ" على حكاية لفظ المقسَم به على تقدير كونه نقيض الباطل، ومعناه التأكيد والتشديد. وقُرئ بجرّ الأوّل على إضمار حرف القسَم، ونصبِ الثاني على المفعوليّة.[٦]

﴿مِنكَ﴾[٧] مِن جنسك مِن الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال ﴿مِنْهُمْ﴾ مِن ذرّيّة آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه، أي: لأملأنّها مِن المَتبوعين والأتباع أجمعين، كقوله تعالى: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]. وهذا القولُ هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

---

١ في الآية السابقة.
٢ وفي هامش س: هما: "فالحقُّ قَسَمي"، "فأنا الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٣ وفي هامش س: هو "فقولي الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٨/٤.
٧ ط س + أي.

وحيث كان مَناط الحكم ههنا اتّباع الشيطان اتّضح أنّ مَدار عدم المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] اتّباعُ الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم، لا تحقّقُ القول، فليس في ذلك شائبة الجَبر، فتدبّر.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن، أو على تبليغ ما يوحَى إليّ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ دنيوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتَصنّعين بما ليسوا مِن أهله حتّى أنتحِل النبوّةَ وأتقوَّل القرآنَ.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلَين كافّةً.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: ما أنبَأ به مِن الوعد والوعيد وغيرِهما، أو صحّةَ خبره وأنّه الحقُّ والصِّدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو يومَ القيامة، أو عند ظهور الإسلام وفُشوّه. وقيل: مَن بقي علِم ذلك إذا ظهَر[١] وعلا، ومَن ماتَ علِمَه بعد الموت. وفيه مِن التهديد ما لا يخفى.

عن رسول الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿صَ﴾ كان له بوَزن كلِّ جبل سخّره الله تعالى[٣] لداود عليه السلام عشر حسنات، وعُصم أن يُصرّ على ذنب صغير أو كبير».[٤] وقال أبو أمامة:[٥] «عصَمه الله تعالى مِن كلّ ذنب صغير أو كبير».[٦] والله تعالى[٧] أعلم.

---

١ ط س + أمره.

٢ م - تعالى.

٣ م - تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٥/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥ هو صُدَيّ بن عَجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة (ت. ٨١هـ/٧٠٠م)، الصحابي. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن عمر وعثمان وعليّ وأبي عبيدة ومعاذ وغيرهم. كان مع عليّ في صِفّين. وسكن الشام، فتوفّي في أرض حمص. وهو آخر مَن مات مِن الصحابة بالشام. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٣٩/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٣/٣.

٦ اللباب لابن عادل، ٤٦٣/١٦.

٧ س - تعالى.

/ سورة الزمر [١ظ]

سورة الزمر مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ الآية.[١]
وهي خمس وسبعون، أو ثنتان وسبعون[٢] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[٣]

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر لِمبتدأ محذوف هو اسم إشارةٍ أُشير به إلى السورة تنزيلًا لها منزلةَ الحاضر المُشارِ إليه لكونها على شرف الذِّكرِ والحضورِ كما مرّ مرارًا. وقد قيل: هو ضمير عائد إلى "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.[٤]

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ صِلة لـ"التنزيل"، أو خبر ثانٍ، أو حال مِن "التنزيل"، عامِلُها معنى الإشارة، أو مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو مفعولٌ معنًى، عامِلُها المضاف. وقيل: هو خبرٌ لـ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. والوجه الأوّل أوفى بمقتضى المقام الّذي هو بيانُ أنّ السورة أو القرآنَ تنزيل الكتاب مِن الله تعالى، لا بيانُ أنَّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوجه الأخير. وقُرِئ: "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب[٥] على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ.

والتعرّض لوصفَي العزّة والحكمة للإيذان بظهور أثَرَيْهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبِابتِناءِ جميع ما فيه على أساس[٦] الحِكَم الباهرة.

---

١ س ي - إلّا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ الآية. | تمامها: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

٢ س ي - أو ثنتان وسبعون.

٣ س - الرحيم.

٤ ص، ٣٨/٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

٦ م - أساس. [وثبتت في النصّ المكرّر. انظر التعليق التالي].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

[٢و] وقوله تعالى:[١] / ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ شروع في بيان شأن المُنزَل إليه وما يجب عليه إثرَ بيان شأن المُنزَلِ وكونِه مِن عند الله تعالى. والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو القرآن، وإظهاره -على تقدير كونِه هو المراد بالأوّل أيضًا- لتعظيمه ومزيدِ الاعتناءِ بشأنه. والباء إمّا متعلِّقة بالإنزال، أي: بسبب الحقِ وإثباته وإظهارِه، أو بداعية الحقّ واقتضائه للإنزال، وإمّا بمحذوف هو حال مِن نون العظمة، أو مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: أنزلناه إليك مُحقِّين في ذلك، أو أنزلناه مُلتبِسًا بالحقّ والصواب، أي: كلُّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه موجِبٌ للعمل به حَتمًا.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه السلام بالحقّ، أي: فاعْبُده تعالى مُمحِّضًا له الدِّينَ مِن شوائب الشِّرك والرِّياء حسبما بُيِّن في تضاعيف ما أُنزِل إليك.

وقُرئ برفع "الدِّينُ"[٢] على أنّه مبتدأ خبرُه الظرف المقدَّمُ عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد مِن اللام. والجملة استئناف وقَع تعليلًا للأمر بإخلاص العبادة.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الأمر بإخلاص الدِّين له تعالى، ووجوبِ الامتثالِ به. وعلى القراءة الأخيرة مؤكِّدٌ لاختصاصِ الدِّين به تعالى، أي: ألا هو الذي يجب أنْ يُخصَّ بإخلاص الطاعة له؛[٣] لأنّه المُتفرِّد بصفات الألوهيّة التي مِن جُملتها الاطِّلاعُ على السرائر والضمائر.

---

١ م + مِن الله تعالى، لا بيانُ أنّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوَجه الأخير. وقُرئ: "تَنزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ. والتعرُّض لوصفَي العزّةِ والحكمةِ للإيذان بظهور أثَرَيهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبابتِناءِ جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة. وقوله تعالى. [كُتب فوقها بالمداد الأحمر: مكرّر].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

٣ س – له.

وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾... إلخ[1] تحقيقٌ لحقّيّة ما ذُكر مِن إخلاص الدِّين / الّذي هو عبارة عن التوحيد ببيان بُطلان الشِّرك الذي هو عبارة عن ترك إخلاصه. والموصول عبارة عن المشركين ومَحلُّه الرفعُ على الابتداء خبرُه ما سيأتي مِن الجملة المُصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾. والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام. [٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ حال بتقدير القَول مِن واوِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، مبيّنةٌ لكيفيّة إشراكِهم وعدمِ خُلوصِ دينهم. والاستثناء مفرَّغ مِن أعمِّ العِلل. و﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ مصدر مؤكّد على غير لفظ الصدرِ، مُلاقٍ له في المعنى، أي: والّذين لم يُخلِصوا العبادةَ لله تعالى؛ بل شَابُوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدُهم لشيءٍ مِن الأشياء إلّا ليقرّبونا إلى الله تعالى تقريبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: وبين خُصَمائهم الذين هم المُخلِصون للدِّين. وقد حُذف لِدلالة الحال عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢]، على أحد الوجهينِ، أي: بين أحدٍ منهم وبين غيره، وعليه قول النابِغة:[2]

فمَا كانَ بينَ الخيرِ لو جاءَ سالمًا ... أبُو حَجَرٍ[3] إلّا ليالٍ قلائلُ[4]

أي: بين الخيرِ وبَيني.

وقيل: ضمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ للفريقينِ جميعًا.

---

[1] س ي - الخ.

[2] هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى (ت. نحو ٥٠هـ/٦٧٠م)، شاعر مفلق، صحابي مِن المعمّرين. اشتهر في الجاهليّة. وسمّي النابغة لأنّه أقام ثلاثين سنةً لا يقول الشعر ثمّ نبغ فقاله. وكان ممّن هجَر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام. ووفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلم. وأدرك صِفّين، فشهدها مع عليّ. ثمّ سكن الكوفة، فسيّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها، وقد كُفّ بصره، وجاوز المائة. وأخباره كثيرة. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٢٨٠/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٠٨/٥.

[3] كذا وقع ضبطها في "م" بفتح الحاء والجيم، وضبَطها العيني "أبو حُجُر" بالضمّ فيهما. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ١٦٥٣/٤. وهو النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث الغسّاني (ت. نحو ٤٣ق هـ/٥٨١م)، مِن ملوك الغسّانيّين في أطراف الشام. كان ممدوحًا في الجاهليّة. ملك بعد أبيه نحو سنة ٥٧٠م. **الأعلام** للزركلي، ٣٧/٨.

[4] للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ١١٩. مِن قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث الغسّاني. وأبو حُجُر: كنية النعمان. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ١٦٥٣/٤.

﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الدِّين الَّذي اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك، وادَّعى كلّ فريقٍ صحَّةَ ما انتحَله. وحُكمُه تعالى في ذلك إدخالُ الموحِّدين الجنّةَ، والمشركين النّارَ. فالضّمير للفريقين، هذا هو الذي يَستدعيه مَساقُ النظم الكريم.

وأمّا تجويز أن يكون الموصول عبارةً عن المعبودين -على حذف العائد إليه وإضمارِ المشركين مِن غير ذِكرٍ تَعويلًا على دلالة المَساق عليهم- ويكونَ التقديرُ: والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ قائلين: ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله تعالى، إنّ الله يَحكم بينهم -أي: بين العَبَدة والمَعبودين- فيما هم فيه يختلفون، حيثُ يرجُو العَبَدةُ شفاعتَهم وهم يلعنونهم، فبَعد الإغضاءِ عمّا فيه مِن التعسُّفاتِ بمَعزِل مِن السَّداد. كيف لا، وليس فيما ذُكِر مِن طلب الشفاعة واللَّعن مادّةٌ يَختلف فيها الفريقان اختلافًا مُحوِجًا إلى الحُكمِ والفَصلِ؟ وإنّما ذاك ما بين فريقَي الموحِّدين والمشركين في الدّنيا مِن الاختلاف في الدِّين الباقي إلى يوم القيامة.

وقُرئ: "قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ"،[1] فهو بدل مِن الصِّلة، لا خبر للموصول، كما قيل؛[2] إذ ليس في / الإخبار بذلك مزيد مزيّة. [٣و]

وقُرئ: "مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقرِّبُونَا"؛[3] حكايةً لِما خاطبوا به آلهتَهم. وقُرئ: "نُعْبُدُهُمْ"[4] إتْباعًا للباء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لا يُوفِّق للاهتداء إلى الحقّ الذي هو طريق النجاةِ عن المكروه والفوزِ بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: راسخ في الكذِب مبالِغ في الكفر، كما يُعرِب عنه قراءةُ "كَذَّابٌ"[5] و"كَذُوبٌ"،[6] فإنّهما فاقدان للبصيرة

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١١١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٢/٤١٤؛ معاني القرآن للزجّاج، ٤/٣٤٤.

[4] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١١١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٣٦.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

غيرُ قابلَين للاهتداء لتغييرهما الفِطرةَ الأصليّة بالتمرُّن في الضَّلالة والتَّمادي في الغَيِّ. والجملة تعليل لِما ذُكر مِن حُكمه تعالى.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ④﴾

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ وإبطالِ القول بأنّ الملائكة بنات الله[1] وعيسى ابنُه -تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا- ببيان استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى على الإطلاق ليَندرج فيه استحالة ما قيل اندراجًا أوّليًّا، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ وَلَدًا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ أي: لاتَّخذَ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مِن جملة ما يخلقه، أو مِن جنس ما يخلقه ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يتّخذَه؛ إذ لا موجودَ سواه إلّا وهو مخلوق له تعالى؛ لامتناعِ تعدُّد الواجب، ووجوب استناد جميع ما عَداه إليه.

ومِن البيِّن أنّ اتّخاذ الولد مَنوط بالمماثلة بين المتّخِذ والمتّخَذ، وأنّ المخلوق لا يُماثل خالقَه حتّى يمكن اتّخاذُه ولدًا، فما فرضناه اتّخاذَ ولدٍ لم يكن اتّخاذَ ولدٍ؛ بل اصطفاءَ عَبدٍ. وإليه أُشير حيث وُضع الاصطفاء موضع الاتّخاذ الذي يقتضيه الشرطيّة تنبيهًا على استحالة مُقدَّمها لاستلزام فرْضِ وقوعه -بل فرضِ إرادةِ وقوعِه- انتفاءَه، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ ولدًا لفَعَل شيئًا ليس هو مِن اتّخاذ الولد في شيء أصلًا؛ بل إنّما هو اصطفاء عَبدٍ، ولا ريب في أنّ ما يستلزم فرضُ وقوعه انتفاءَه فهو ممتنع قطعًا، فكأنّه قيل: لو أراد الله أن يتّخذ ولدًا لَامتنع ولم يصحّ، لكن لا على أنّ الامتناع مَنوط بتحقُّق الإرادة؛ بل على أنّه مُتحقِّق عند عدمها بطريق الأَولويّة، على مِنوال: «لو لم يخَفِ الله لم يعصِه».[2]

---

[1] س + تعالى.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٦٠٧/٢ (النحل، ٤١/١٦)، مِن قول عمر: «نِعمَ الرجل صُهيب، لو لم يخَفِ الله لم يعصِه». قال السيوطي: لم نظفَر به في شيء مِن كتب الحديث. قال ابن حجر: إنّه ظفِر به لابن قتيبة، لكن بغير سنَد. **الفوائد المجموعة** للشوكاني، ص ٤٠٩، وقال السخاوي: «أراد أن صهيبًا إنّما يُطيع الله حبًّا، لا لمخافةِ عقابه». **الأجوبة المرضيّة** للسخاوي، ١٠٠/١.

[٣ظ] / وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تقرير لِما ذُكر مِن استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى، وتأكيد له ببيان تَنَزّهِه تعالى عنه. أي: تنزّه بالذّات عن ذلك تَنَزُّهَهُ الخاصَّ به، على أنّ السُّبْحان مصدر مِن "سبَحَ" إذا بَعُدَ. أو أُسبِّحه تسبيحًا لائقًا به، على أنّه عَلَمٌ للتسبيح مَقولٌ على ألسنة العباد، أو سَبِّحوهُ تسبيحًا حقيقًا بشأنه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ استئناف مبيِّن لتَنزّهه تعالى بحسب الصِّفات إثرَ بيان تَنزّهه تعالى عنه بحسب الذّات، فإنّ صفة الأُلوهيّة المستتبِعة لسائر صفات الكمال النافيةِ لِسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدة الذّاتيّة الموجبة لامتناعِ المُماثلة والمُشاركة بينه تعالى[١] وبين غيره على الإطلاق؛ ممّا يقضِي بتَنزّهه تعالى عمّا قالوا قضاءً مُتقَنًا، وكذا وصف القَهّاريّة؛ لِما أنّ اتّخاذ الولد شأنُ مَن يكون تحت ملكوت الغير عُرضةً للفَناء ليَقومَ ولَده مقامَه عند فَنائِه، ومَن هو مستحيلُ الفَناء قهّارٌ لكلِّ الكائنات كيفَ يُتصوَّر أن يتّخذ مِن الأشياء الفانية ما يقوم مقامَه؟!

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدّالّةِ على تفرّده تعالى بما ذُكر مِن الصفات الجليلة، أي: خلَقهما وما بينهما مِن الموجودات ملتبِسةً بالحقّ والصواب، مشتملة على الحِكَم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان لكيفيّة تصرُّفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما، فإنّ حدوث اللّيل والنهار في الأرض مَنوطٌ بتَحريك السّماوات، أي: يغشّي كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ كأنّه يلفّه عليه لفَّ اللباسِ على اللّابس أو يُغيّبه به كما يُغيَّبُ الملفوف باللفافة، أو يجعله كارًّا عليه كُرُورًا متتابعًا تتابُعَ أكوارِ العمامة. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد.

---

[١] م - تعالى.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جعلهما منقادين لأمره تعالى. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ / مُّسَمًّى﴾ بيان لكيفيّة تسخيرهما، أي: كلّ منهما يجري لمُنتهى [٤و]
دَورتِه أو مُنقطَعِ حركتِه، وقد مرَّ تفصيلُه غيرَ مرّة.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جُملتها عقاب العُصاة. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، ولذلك لا يُعاجل بالعقوبة وسلبِ ما في هذه الصنائع البديعة مِن آثار الرّحمة. وتصدير الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، وتركُ عطفِه على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للإيذان باستقلاله في الدّلالة ولتعلُّقه بالعالم السّفلي، والبدايةُ بخلق الإنسان لعَراقته في الدّلالة لِما فيه مِن تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة، وأصالتِه في المعرفة، فإنّ الإنسان بحال نفسه أعرف. والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على محذوف، هو صفة لـ﴿نَفْسٍ﴾، أي: مِن نفسٍ خلَقها ثمّ جعل منها زوجَها أو على معنَى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، أي: مِن نفس وَحَدَتْ ثمّ جعل منها زوجها فَشَفَعَهَا، أو على ﴿خَلَقَكُم﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة، فإنّهما وإن كانتا آيتينِ دالّتينِ على ما ذُكر لكنّ الأُولى لاستمرارها صارت معتادة، وأمّا الثانية فحيث لم تكن معتادةً خارجةً عن قياس الأُولى -كما يشعر به التعبيرُ عنها بالجَعل دون الخلق- كانت أدخلَ في كونها آيةً وَأَجْلَبَ لِلتعجّب مِن السامع، فعطفت على الأُولى بـ﴿ثُمَّ﴾ دلالةً على مباينتها لها فضلًا ومزيّةً وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آيةً فهو مِن التراخي في الحال والمنزلة.

وقيل: أخرج ذريّة آدم مِن ظهره كالذرّ ثمّ خلق منه حوّاء، ففيهِ ثلاث آيات مترتّبة: خلقُ آدمَ عليه السلام بلا أب وأمّ، وخلقُ حوّاء مِن قُصَيْراه،[١] ثمّ تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، / أي: قضى، أو قسم لكم، فإنّ قضاياه وَقِسَمَهُ توصفُ بالنزول مِن السماء حيث تُكتَبُ في اللّوح المحفوظ. أو أحدَث لكم بأسباب نازلة مِن السماء كالأمطار وأشعّة الكواكب ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ ذكَرًا وَأنثى، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. وقيل: خلقَها في الجنّة ثمّ أنزلها. [٤ظ]

وتقديم الظرفين على المفعول الصريحِ لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر فإنّ كون الإنزال لمنافعهم وكونه مِن الجهة العالية مِن الأمور المهمّة المشوِّقة إلى ما أُنزِل لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة خلقهم وأطواره المختلفةِ الدالّة على القدرة الباهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التدرّج والتجدّد. وقوله تعالى: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ مصدر مؤكِّد، أي: يخلقكم فيها خلقًا كائنًا مِن بعد خلقٍ، أي: خلقًا مدرَّجًا؛ حيوانًا سَويًا مِن بعد عظام مَكسوّة لحمًا مِن بعد عظام عارية مِن بعد مُضَغ مُخلَّقة مِن بعد مُضَغ غير مخلَّقة مِن بعد علقة مِن بعد نطفة. ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ متعلِّق بـ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرَّحِم، وظُلمة المَشِيمَةِ. أو ظلمة الصُّلب، والبطن، والرَّحِم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء. ومحلّه الرفع على الابتداء، أي: ذلكم العظيم الشأن الذي عُدّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبر آخَر، أي: مربّيكم فيما ذكر مِن الأطوار وفيما بعدها، وَمالكُكم المستحِقّ لتخصيص العبادةِ به.

---

[١] القُصَيرَى: أسفل الأضلاع. لسان العرب لابن منظور، «قصر».

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه. والجملة خبر آخَر، وكذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذُكر مِن شئونه تعالى، أي: فكيف تُصْرَفُون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلّيّة إلى عبادة غيره مِن غير داعٍ إليها مع كثرة / الصوارف عنها. [٥و]

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذُكر مِن فنون نَعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي: فاعلموا أنّه تعالى غنيّ عن إيمانكم وشُكركم، غير متأثّر مِن انتفائهما. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: عدمُ رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفعِ مَضرّتهم رحمةً عليهم، لا لتضرّره تعالى به.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يَرضَ الشكرَ لأجلكم ومنفعتكم؛ لأنّه سبب لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به. وإنّما قيل: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ لَا لَكُم لتعميم الحُكم وتعليله بكونهم عبادَه تعالى. وقُرئ بإسكان الهاء.[١]

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بيان لعدم سِراية كفر الكافر إلى غيره أصلًا، أي: لا تَحمل نفس حاملة للوِزر حِملَ نفسٍ أخرى. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنتم تعملونه في الدنيا مِن أعمال الكفر والإيمان، أي: يجازيكم بذلك ثوابًا وعقابًا.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظّاهرة؟ وهو تعليل للتّنبئة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن الدُّوري عنه، وكذا هو أحد الوجهين عن كلّ مِن هشام وشعبة وابن جمّاز. والوجه الثاني للدُّوري وابن جمّاز: إشباع ضمّة الهاء. ولهشام وشعبة: ضمّ الهاء مِن غير إشباع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٧/١.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ⑧﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ﴾ مِن مرض وغيره ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعًا إليه ممّا كان يدعوه في حالة الرَّخاء لعلمه بأنّه بمَعزِل مِن القدرة على كشف ضرّه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ٣٤/١٤].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه نعمةً عظيمةً مِن جنابه تعالى، مِن التخوّل، وهو التعهّد، أي: جَعلَه خائلَ مال، مِن قولهم: فلان خائلُ مال إذا كان متعهِّدًا له حسَنَ القيام به. أو مِن الخَول، وهو الافتخار، أي: جعلَه يخول، أي: يختال ويَفتَخرُ.

﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضرّ الذي كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل التخويل، أو نسي ربّه الذي كان يدعو ويتضرّع إليه، إمّا بناءً على أنّ ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل، ٣/٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون، ٣/١٠٩]. وإمّا إيذانًا بأنّ نسيانه بلغ إلى حيثُ لا يعرف مَدعُوَّه مَا هُو، فضلًا مِن أن يعرفه مَن هو، / كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج، ٢/٢٢]. [٥ظ]

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقُرِئَ: "لِيَضِلَّ" بفتح الياء،[1] أي: ليزداد ضلالًا أو يثبت عليه، وإلّا فأصلُ الضلال غيرُ متأخِّر عن الجعل المذكور. واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٨/٢٨]، خلا أنّ هذا أقرب إلى الحقيقة؛ لأنّ الجاعل ههنا قاصِد بجعله المذكور حقيقةَ الإضلال والضلال، وإن لم يعرف لجهله أنّهما إضلال وضلال. وأمّا آلُ فرعونَ فهم غيرُ قاصدين بالتقاطهم العداوةَ أصلًا.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩٩/٢.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لذلك الضالّ المُضِلّ، وبيانًا لحاله ومآله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتُّعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مِن مُلازميها والمعذَّبين فيها على الدوام، وهو تعليل لقِلّة التمتّع. وفيه مِن الإقناط مِن النجاة ما لا يخفى، كأنّه قيل: إذ قد أبيْتَ قبولَ ما أُمِرتَ به مِن الإيمان والطاعة فمِن حقّك أن تؤمَر بتركه لتذوق عقوبته.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾... إلخ مِن تمام الكلام المأمور به. و"أم" إمّا متّصلة قد حُذف معادلُها ثقةً بدلالة مَساق الكلام عليه، كأنّه قيل له تأكيدًا للتهديد وتهكّمًا به: أأنتَ أحسنُ حالًا ومآلًا أم مَن هو قائمٌ بمَواجب الطاعاتِ ودائمٌ على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتَي السّرّاء والضّرّاء -لا عند مساس الضرّ فقط كدأبك- حال كونه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي: جامعًا بين الوصفين المحمودينِ؟ وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة. وقُرئ كلاهما بالرفع[1] على أنّه خبر بعد خبر.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ حال أُخرى على الترادف أو التداخل. أو استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية حاله مِن القنوت والسجود والقيام، كأنّه قيل: ما بالُه يفعل ذلك؟ فقيل: يحذَر عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ / فينجو بذلك [٦و] ممّا يحذره، ويفوز بما يرجوه، كما يُنبئ عنه التعرّض لعُنوان الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي، لا أنّه يحذر ضُرَّ الدنيا ويرجو خيرَها فقط.

وإمّا منقطعة،[2] وما فيها مِن الإضراب للانتقال مِن التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب المُلجئ إلى الاعتراف بما بينهما مِن التباين البيّن، كأنّه قيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[2] السياق: و"أم" إمّا متّصلة... وإمّا منقطعة...

بل أَمَنْ هو قانت... إلخ أفضل أم مَن هو كافر مثلك؟ كما هو المعنى على قراءة التخفيف.[١]

﴿قُلْ﴾ بيانًا للحقّ وتنبيهًا على شرَف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حقائقَ الأحوال فيعملون بموجَب علمهم، كالقانت المذكور، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما ذُكر، أو شيئًا، فيعمَلون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدَأبك؟ والاستفهام للتنبيه على أنّ كون الأوّلِين في أعلى معارج الخير وكون الآخِرين في أقصى مدارج الشرّ مِن الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحدٍ مِن منصِف ومُكابر. وقيل: هو وارد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالِمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلام مستقِلّ غير داخل في الكلام المأمور به واردٌ مِن جهته تعالى بعد الأمر بما ذُكر مِن القَوارعِ الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم، كما في قَول مَن قال:

عُوجُوا فَحَيُّوا[٢] لِنُعْمٍ[٣] دِمنةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأَحْجارِ[٤]

أي: إنّما يتّعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وهؤلاء بمَعزِل مِن ذلك. وقُرئ: "إنَّمَا يَذَّكَّرُ" بالإدغام.[٥]

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أُمِر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بتذكير المؤمنين وحملِهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكّر بأولي الألباب

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٢/٤١٦.

٢ م: فحيّو.

٣ م س: لنُعمى [صُحّح في هامش م س].

٤ للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٠٢. والعَوْج: عطف رأس البعير بالزِّمام. ونُعْم: اسم المحبوبة. والدِّمنة: ما تلبّد مِن البعر والقمامة، وربّما نبَت فيها النبات. والنُؤي: الحاجز حول الخِباء لئلّا يدخله ماء المطر. **شرح شواهد الكشّاف** لمحبّ الدين أفندي، ص ١٠٥.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١١٧.

إيذانًا بأنّهم هم كما سيُصرِّح به، / أي: قُل لهم قَولِي هذا بعينه. وفيه تشريف لهم [٦٦ظ]
بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيدُ اعتناء بشأن المأمور به، فإنّ نَقْلَ عين أمرِ الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به. وإيراد الإحسان في حيّز الصِّلة دون التقوى للإيذان بأنّه مِن باب الإحسان، وأنّهما متلازمان، وكذا الصبر كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل، ١٦/١٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف، ١٢/٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلّق بـ﴿أَحْسَنُواْ﴾، أي: عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عَبّر عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين سُئل عن الإحسان بقوله عليه السلام: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: حسنة عظيمة لا يُكتَنَه كُنهُها، وهي الجنّة.

وقيل: هو متعلّق بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ على أنّه بيان لمكانها، أو حال مِن ضميرها في الظرف، فالمراد بها حينئذٍ الصحّة والعافية.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمَن تعسّر عليه التوفّر على التقوى والإحسانِ في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكّن فيه مِن ذلك كما هو سنّة الأنبياء والصالحين، فإنّه لا عذر له في التفريط أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾... إلخ ترغيب في التقوى المأمور به. وإيثار الصابرين على المتّقين للإيذان بأنّهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان؛ لِما أشير إليه مِن استلزام التقوى لهما مع ما فيه مِن زيادة حثٍّ على المصابرة والمجاهدة في تحمّل مشاقّ المهاجَرة ومتاعبها، أي: إنّما يوفّى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرِّطوا في مراعاة حقوقه

---

[١] صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).

لِما اعتراهم في ذلك مِن فُنون الآلامِ والبَلايا التي مِن جُملتها[١] مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا مِن الصبرِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بحيث لا يُحصَى ولا يُحصَر.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يهتدي إليه حسابُ الحُسّاب ولا يعرف».[٢] وفي الحديث أنّه «يُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة / والصدقة [٧و] والحجّ فيُؤتَوْن بها أجورَهم، ولا تُنصَبُ لأهل البلاء؛ بل يُصَبُّ عليهم الأجر صبًّا، حتّى يتمنّى أهلُ العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تُقرَضُ بالمقاريضِ ممّا يذهب به أهل البلاء مِن الفضل».[٣]

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مِن كلّ ما ينافيه مِن الشرك والرياء وغير ذلك. أُمِرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان ما أُمِر به نفسُه مِن الإخلاص في عبادة الله تعالى الذي هو عبارة عمّا أُمِر به المؤمنون مِن التقوى مبالغة في حثّهم على الإتيان بما كُلِّفوه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه ممّا خُوطب به المشركون.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٢﴾

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأُمرت بذلك لأجل أن أكون مقدِّمَهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّ إحراز قصَب السَّبق في الدِّين بالإخلاص فيه. والعطف لمغايرة الثاني الأوّلَ بتقيّده بالعلّة، والإشعارِ بأنّ العبادة المذكورة كما تقتضي الأمرَ بها لذاتها تقتضيه لِما يلزمها مِن السَّبق في الدِّين. ويجوز أن تُجعلَ اللام مزيدة كما في: أردتُ لأن أقوم، بدليل قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ[٤] أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾

---

[١] س – جملتها.
[٢] الكشّاف للزمخشري، ١١٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٥.
[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١١٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٥.
[٤] م س ي: وأُمِرتُ.

[الأنعام، ١٤/٦]، فالمعنى وأُمرتُ أن أكون أوّل مَن أسلم مِن أهل زماني، أو مِن قومي، أو أكون أوّلَ مَن دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسَه.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه مِن الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، وُصِف بالعظَمة لعظَمة ما فيه مِن الدواهي والأهوال.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غيرَه لا استقلالًا ولا إشراكًا[1] ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ مِن كلّ شَوب. أُمر عليه السلام أوّلًا ببيان[2] كونه مأمورًا بعبادة الله تعالى وإخلاصِ الدين له، ثمّ بالإخبار بخوفه مِن العذاب على تقدير العصيان، ثمّ بالإخبار بامتثاله بالأمرِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لتصلُّبه في الدِّين، وحسمًا لِأطماعهم الفارغة، / وتمهيدًا لتهديدهم بقوله تعالى: [٧ظ]

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾

﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم﴾ أن تَعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى. وفيه مِن الدلالة على شدّة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنّهم لمّا لم ينتهوا عمّا نُهُوا عنه أُمِرُوا به كي يحِلّ بهم العقاب.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخُسران، الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمّه، وإتلافِ ما لا بدّ منه، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ باختيارِهم الكفر لهما، أي: أضاعوهما وأتلفوهما ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النار حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي، وأوقعوهما في هلَكةٍ لا هلكةَ وراءَها.

وقيل: خسروا أهليهم لأنّهم إنْ كانوا مِن أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا مِن أهل الجنّة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا إيابَ بعده.

---

[1] س ي: اشتراكًا.

[2] م س - ببيان ["صح" في هامش م س].

وفيه أنّ المحذور ذهابُ مَا لَو آبَ لانتفع به الخاسرُ، وذلك غير متصوَّرٍ في الشِّقّ الأخير.

وقيل: خَسِرُوهم لأنّهم لم يدخلُوا مدخل الذين لهم أهل في الجنّة، وخسِروا أهليهم الذين كانوا يتمتّعون بهم لو آمنوا.

وأيًا ما كان فليس المرادُ مجرّد تعريف الكاملين في الخُسران بما ذُكر؛ بل بيانُ أنّهم هُمْ، إمّا بجعل الموصول عبارةً عنهم، أو عمّا هم مندرجون فيه اندراجًا أوّليًا.

وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مِن استئناف الجملة، وتصديرِها بحرف التنبيه، والإشارةِ بذلك إلى بُعد منزلة المشار إليه في الشرّ، وتوسيطِ ضمير الفَصل، وتعريف الخسران، ووصفِه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، مِن الدلالة على كمال هَولِه وفظاعته وأنّه لا خسرانَ وراءه ما لا يخفى.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾... إلخ نوعُ بيانٍ لخُسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أنّ ﴿لَهُم﴾ خبرٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾. و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف، قيل: هو حال مِن ﴿ظُلَلٌ﴾. والأظهر أنّه حال مِن الضميرِ في الظرفِ المقدَّم. و﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ صفةٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾، أي: لهم كائنةٌ مِن فوقهم ظُلَل كثيرة مُتراكبة بعضها فوق بعضٍ كائنةٌ مِن النار. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ / أيضًا ﴿ظُلَلٌ﴾ أي: أطباق كثيرة [٨و] بعضُها تحت بعض ظُلَلٌ لِآخرين؛ بل لهم أيضًا عند تَرَدِّيهم في درَكاتها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ويحذّرهم إيّاه بآيات الوعيد؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرّضوا لِما يوجب سَخَطي. وهذه عِظة مِن الله تعالى بالغة مُنطوية على غاية اللّطف والمَرحمة. وقُرئ: "يَا عِبَادِي".[١]

---

١ قرأ بذلك رُويس بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: البالِغَ أقصى غاية الطغيان، "فَعَلُوت" منه بتقديم اللام على العين، بُني للمبالغة في المصدر، كالرَّحَموت والعَظَموت، ثمّ وُصِف به للمبالغة في النعت. والمراد هو الشَّيطان. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ الاشتمال منه، فإنّ عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان؛ إذ هو الآمر بها والمزيّنُ لها. ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه معرضين عمّا سواه إقبالًا كلّيًا.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسِنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يُحشرون وبعد ذلك. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وُضِع موضعَ ضميرهم الظاهرُ تشريفًا لهم بالإضافة، ودلالةً على أنّ مدار اتّصافهم بالوصفَين الجليلَين كونهم نُقّادًا في الدِّين، يميّزون الحقّ مِن الباطل، ويُؤْثرون الأفضلَ فالأفضل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبارِ اتّصافهم بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره ما بعده مِن الموصول، أي: أولئك المَنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ للدِّين الحقّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحِقّون للهداية لا غيرُهم. وفيه دلالة على أنّ الهداية / تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها. [٨ظ]

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بحرمان الهداية، وهم عبَدة الطاغوت، ومُتَّبِعُوا خُطواتِها كما يلوّح به التعبير عنهم بـ﴿مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾،

فإنّ المراد بها قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧].

وأصل الكلام: أَمَن حقّ عليه كلمة العذاب فأنت تُنقِذه، على أنّها شرطيّة دخل عليها الهمزة لإنكار مضمونها. ثمّ الفاءُ لعطفها على جملة مستتبِعة لها مقدَّرةٍ بعدَ الهمزة ليتعلّق الإنكار والنفي بمضمونَيهما معًا، أي: أأنتَ مالكُ أمرِ الناس، فمَن حقّ عليه كلمةُ العذاب فأنت تُنقذه؟ ثمّ كُرِرَت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيرِه لِما طال الكلام، ثمّ وُضع موضع الضميرِ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أنّ المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقعِ في النار، وأنّ اجتهاده عليه السلام في دعائهم إلى الإيمان سَعْيٌ في إنقاذهم مِن النار.

ويجوز أن يكون الجزاء محذوفًا، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾... إلخ جملة مستقلّة مَسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حُذِف منها وتشديدِ الإنكار بتنزيل مَن استَحقّ العذابَ منزلةَ مَن دخل النار، وتصوير الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ مِن النار، كأنّه قيل أوّلًا: أفمَن حقّ عليه العذاب فأنت تخلّصه منه، ثمّ شُدِّد النكير فقيل: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾. وفيه تلويح بأنّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ لا غير.

وحيث كان المراد بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ الذين قيل في حقّهم: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ
[٩و] مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾[1] استُدرك عنهم بقوله تعالى: / ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾،[2] ووُصفوا بما عُدِّد مِن الصفات الفاضلة، وهم المخاطَبون أيضًا فيما سبَق بقوله تعالى: ﴿قُلۡ[3] يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الآيةَ،[4] وبيّن أنّ لهم درجات عالية في جنّات النعيم بمقابلة ما للكفرة مِن دركات سافلة في الجحيم، أي: لهم علاليّ بعضها فوق بعض، ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بناءَ المنازل المبنيّة المؤسّسة على الأرض

---

[1] الزمر، ١٦/٣٩.
[2] الزمر، ١٦/٣٩.
[3] م س ي - قل.
[4] الزمر، ١٠/٣٩.

في الرصانة والإحكام، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ مِن تحت تلك الغُرف ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِن غير تفاوت بين العلوّ والسفل.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾... إلخ، فإنّه وَعدٌ، وأيّ وعد. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لاستحالتِه عليه سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استئناف وارد إمّا لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمِحلال بما ذُكر مِن أحوال الزرع؛ ترغيبًا عن زخارفها وزينتها، وتحذيرًا مِن الاغترار بزهرتها، كما في نظائر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ [يونس، ١٠/٢٤]، أو للاستشهاد على تحقّق الموعود مِن الأنهار الجارية مِن تحت الغُرَف بما يشاهَد مِن إنزال الماء مِن السماء، وما يترتّب عليه مِن آثار قدرته تعالى، وأحكام حِكمته ورحمته.

والمراد بالماء المطر. وقيل: كلّ ماء في الأرض، فهو مِن السماء، ينزل منها إلى الصخرة، ثمّ يقسمه الله تعالى بين البِقاع. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عيونًا ومجاري كالعُروق في الأجساد. وقيل: مياهًا نابعةً فيها، فإنّ الينبوع يُطلَق على المَنْبَع والنابع، فنصبُها على الحال، وعلى الأوّل بنزع الجارِّ، أي: في ينابيعَ.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه مِن بُرّ وشعير وغيرهما، أو كيفيّاته مِن الألوان والطعوم / وغيرِهما. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة أو الزمان. [٩ظ]
وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يتمّ جفافه ويشرف على أن يثور مِن منابته. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ مِن بعد خُضرته ونُضرته. وقُرئ: "مُصْفَارًّا".[١] ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا متكسِّرةً كأن لم يَغنَ بالأمس. ولكون هذه الحالة مِن الآثار القويّة عُلِّقَت بجعلِ الله تعالى كالإخراج.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٢/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٨/١٨. وفي سورة الروم تُعزَى إلى جَناح بن حُبيش. انظر: اللباب لابن عادل، ٤٢٨/١٥ (الروم، ٥١/٣٠).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر تفصيلًا، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قُصِد بيانه. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيرًا عظيمًا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلَل وتنبيهًا لهم على حقيقة الحال، يتذكّرون بذلك أنّ حال الحياة الدنيا في سرعة التقضّي والانصِرام كما يشاهدونه مِن حال الحُطام كلّ عام، فلا يغترّون ببهجتها، ولا يُفتتنون بفتنتها. أو يَجزمون بأنّ مَن قدَر على إنزال الماء مِن السماء وإجرائِه في ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار مِن تحت الغُرَف.

هذا، وأمّا ما قيل:[1] إنّ في ذلك لَتذكيرًا وتنبيهًا على أنه لا بدّ مِن صانع حكيم، وأنّه كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال، فبمَعزِل مِن تفسير الآية الكريمة، وإنّما يَليق ذلك بما لو ذُكِر مَا ذُكِر مِن الآثار الجليلة والأفعال الجميلة مِن غير إسنادٍ لها إلى مؤثّر ما، فحيث ذُكِرت مسنَدةً إلى الله عزّ وجلّ تعيّن أن يكون متعلَّقُ التذكير والتنبيه شُئونَه تعالى أو شئونَ آثارِه حسبما بيِّن، لا وجودَه تعالى.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾... إلخ استئناف جارٍ مَجرى التعليلِ لِما قبله مِن تخصيص الذكرى بأولي الألباب. وشرحُ الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له، فإنّه محلّ للقلب الذي[2] هو منبع للروح التي تتعلّق بهَا النفس القابلة للإسلام، فانشراحه مستدعٍ لاتّساعِ القلب واستضاءتِه بنوره، فإنّه رُوي أنّه عليه السلام قال: «إذا دخل النور القلبَ انشرَح وانفسَح»، فقيل: فما علامة ذلك؟ قال عليه السلام: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهّبُ للموت قبل نزوله».[3]

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٢/٤.
[2] س – الذي.
[3] جامع البيان للطبري، ٥٤١/٩ (الأنعام، ١٢٥/٦)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٧٧/٧ (٣٤٣١٥).

والكلام في الهمزة والفاء كالذي مرّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾.[١] وخبر ﴿مَن﴾ محذوف لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: أَكُلُّ الناس سوَاء؟ فمَن شرح الله صدرَه -أي: خلَقَه متَّسِع الصدر مستعِدًّا للإسلام- فبقي على الفطرة الأصليّة ولم يتغيّر بالعوارض / المكتسَبة القادحة فيها، ﴿فَهُوَ﴾ بموجب [١٠و]
ذلك مستقِرّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينيّة والتنزيليّة، والتوفيقُ للاهتداء بها إلى الحقّ، كمَن قَسَا قَلبُه وحَرِجَ صدرُه بسبب تبديل فطرة الله بسوءِ اختيارِه، واستولى عليه ظلمات الغَيّ والضّلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلّيّة حتّى لا يتذكّرُ بها ولا يغتنمها؟

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أجل ذِكره الذي حقّه أن تنشَرِح له الصدور وتطمئنّ به القلوب، أي: إذا ذُكر الله تعالى عندهم أو آياتُه اشمأزّوا مِن أجله وازدادت قلوبهم قساوةً، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة، ١٢٥/٩]. وقُرئ: "عَنْ ذِكْرِ اللهِ"،[٢] أي: عن قَبوله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ الموصوفون بما ذُكر مِن قساوَة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ بعيدٍ مِن الحقّ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ كونه ضلالًا لكلّ أحدٍ. قيل: نزلت الآية في حمزة وعليّ رضي الله عنهما، وأبي لهبٍ وولده.[٣] وقيل: في عمّار بن ياسرٍ رضي الله عنه، وأبي جهلٍ وذَوِيه.[٤]

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم. رُوي أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَلُّوا ملَّةً فقالوا له عليه السلام: حَدِّثنا حدِيثًا[٥] -وعن ابن مسعود

---

[١] الزمر، ١٩/٣٩.
[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.
[٣] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٧/٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٢٧/٤.
[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٩/٨؛ تفسير القرطبي، ٢٤٧/١٥.
[٥] الكشّاف للزمخشري، ١٢٣/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠/٥. وانظر: جامع البيان للطبري، ٨/١٣ (يوسف، ٣/١٢).

وابن عبّاس: قالوا: لو حدّثتنا-[1] فنزلت. والمعنى: أنّ فيه مندوحةً عن سائر الأحاديث. وفي إيقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه مِن تفخيمِ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ورفعِ محلِّه والاستشهادِ على حُسنه وتأكيدِ استناده إليه تعالى وأنّه مِن عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيهِ على أنّه وحي معجِز، ما لا يخفى.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، أو حال منه سواء اكتسب مِن المضاف إليه تعريفًا أو لا، فإنّ مَساغ مجيء الحال مِن النكرة المضافة اتفاقي، ووقوعه حالًا مع كونه اسمًا لا صفة إمّا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، أو لكونه في قوّة "مكتوبًا". ومعنى كونه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: تشابه معانيه في الصحّة والإحكام والابتناءِ على الحقّ والصِّدق واستتباع منافعِ الخلق في المعاد والمعاش وتناسبِ ألفاظه في الفصاحة وتجاوبِ نظمه في الإعجازِ.

[١٠ظ] ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى / لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال أُخرى منه، وهو جمعُ "مُثنًّى"، بمعنى: مُردَّد ومُكرَّر لِما ثُنّي مِن قَصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه. وقيل: لأنّه يثنّى في التلاوة. وقيل: هو جمع "مَثْنَى"، مَفْعَل مِن التثنية بمعنى التكريرِ والإعادة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ[2] ٱرْجِعِ[3] ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك، ٦٧/٤]، أي: كرّةً بعدَ كرّة.

وقوعه[4] صفةً لـ﴿كِتَٰبًا﴾ باعتبار تفاصيله، كما يقال: القرآن سُوَر وآيات. ويجوز أن ينتصب على التمييز مِن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، كما يُقال: رأيت رجلًا حسنًا شمائلَ، أي: شمائله، والمعنى متشابهة مَثانيه.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: صفة لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال منه لتخصّصه بالصفة، والأظهر أنّه استئناف مَسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه، ولتقرير كونه "أحسنَ الحديث". والاقشعرار: التقبّض، يقال: اقشعَرّ الجلد إذا تقبّض تقبّضًا شديدًا، وتركيبه مِن القَشع؛ وهو الأديم اليابس،

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٩٣/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٨.
[2] م س ي - ثمّ.
[3] م س ي: "فارْجِع".
[4] س ي: ووقوعه.

قد ضُمّ إليه الراء ليكون رباعيًا ودالًا على معنًى زائدٍ، يقال: اقشعَرّ جلده وقَفّ شعرُه إذا عرض له خوف شديد مِن منكرٍ هائلٍ دَهِمَهُ بَغْتةً.

والمراد إمّا بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضِها لهم بطريق التحقيق. والمعنى: أنّهم إذا سمعوا القرآن وقوارعَ آيات وعيده أصابتهم هَيبة وخشية تقشعِرّ منها جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدّلت خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ساكنة مطمئنّة إلى ذكر رحمته تعالى، وإنّما لم يصرّح بها إيذانًا بأنّها أوّلُ ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتاب الذي شُرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أنْ يهديه لصَرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمّله فيما في تضاعيفه مِن شواهد الحقّيّة ودلائل كونه مِن عند الله تعالى. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾[١] أي: يخلق فيه الضّلالة / لصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضِه عمّا يُرشده إلى الحقّ بالكلّيّة، وعدمِ تأثّره بوعيده ووعده أصلًا. أو ومَن يخذل ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلّصه مِن وَرطة الضلال. وقيل: ذلك الذي ذُكر مِن الخشية والرجاء أثرُ هداه تعالى، يهدي بذلك الأثر مَن يشاء مِن عباده، ومَن يُضلل -أي: ومَن لم يُؤثّر فيه لطفه، لقسوة قلبه، وإصراره على فُجوره- فما له مِن هادٍ؛ مِن مُؤثّر فيه بشيء قطّ. [١١و]

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾... إلخ استئناف جارٍ مجرى التعليل لِما قبله مِن تباين حالَي المهتدي والضالّ. والكلام في الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذي مرّ في نَظِيرَيه. والتقدير: أكُلُّ الناسِ سواء؟! فمَن شأنه أنّه يقِي نفسَه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيّء الشديد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لكون يده التي بها كان يتّقي المَكاره والمَخاوف مغلولةً إلى عُنقه

---

١ م - ﴿ٱللَّهُ﴾.

كمَن هو آمِن لا يَعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتّقاء بوجهٍ مِن الوجوه. وقيل: نزلت في أبي جهلٍ.[١]

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف على ﴿يَتَّقِى﴾، أي: ويقال لهم مِن جهة خزَنة النار. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر. وقيل: هو حال مِن ضميرِ ﴿يَتَّقِى﴾ بإضمار "قد"، ووضع المُظهر في مَقام المُضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلّة الأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام مِن الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة مِن العذاب الدنيوي إثرَ بيان ما يُصيب الكلّ مِن العذاب الأخروي. أي: كذّب الذين مِن قبلهم مِن الأمم السالفة. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المقدَّر لكلّ أمّة منهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مِن الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشرّ منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[١١١ظ] ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي: الذُّلّ والصَّغارَ / ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمَسخ والخَسف والقتل والسبي والإجلاءِ ونحو ذلك مِن فنون النَّكال. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدّته وسَرْمديّته. ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان مِن شأنهم أن يعلموا شيئًا لَعلِموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور دينه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كَي يتذكّروا به ويتّعِظوا.

---

[١] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٩/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٥/٤.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكِّدة مِن هذا على أنّ مدار التأكيد هو الوصف، كقولك: جاءني زيد رجلًا صالِحًا، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلافَ فيه بوجهٍ مِن الوجوه، فهو أبلغُ مِن المستقيم، وأخصُّ بالمعانِي. وقيل: المراد بالعِوَج: الشكّ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلّة أُخرى مترتِّبةٌ على الأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ إيراد لمَثَلٍ مِن الأمثال القرآنيّة بعدَ بيان أنّ الحكمة في ضربِها هو التذكّر والاتّعاظ بها وتحصيل التقوى. والمراد بـ"ضرب المَثَل" ههنا: تطبيقُ حالة عجيبة بأُخرى مثلِها، وجعلُها مِثلَها كما مرّ في سورة يس.[1]

و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿رَجُلًا﴾ مفعولُه الأوّل أُخِر عن الثّاني للتشويق إليه، وليتّصل به ما هو مِن تَتمّته التي هي العمدة في التمثيل. و﴿فِيهِ﴾ ليس بصلة لـ﴿شُرَكَآءُ﴾ كما قيل؛[2] بل هو خبر له،[3] وبيانُ أنّه في الأصل كذلكَ[4] ممّا لا حاجة إليه. والجملة في حيّز النصب على أنّه وصف لـ﴿رَجُلًا﴾، أو الوصف هو الجارّ والمجرور، و﴿شُرَكَآءُ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة لاعتماده على الموصوف، فالمعنى: جعَل الله تعالى مَثلًا للمُشرك حسبما يقود إليه مذهبه مِن ادّعاء كلٍّ مِن مَعبوديه عبوديّتَه عبدًا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاوَرونه في مهمّاتهم المتباينة في تحيّره وتوزّعِ قلبه.

---

١ عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس، ١٣/٣٦].

٢ قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ١٢٦/٤؛ والبيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٤٢/٥.

٣ قال الشهاب الخفاجي: «الظاهر أنّه خبر مقدّم؛ لأنّ النكرة وإن وصفت يحسُن تقدّم خبرها، ولو كان صلة لم يكن لتقديمه نكتة ظاهرة». **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٣٣٧/٣.

٤ أي: أنه في الأصل يتعدّى بـ"في"، كما تقول: اشتركوا فيه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٦/٤.

﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وجَعَل للموحِّد مَثَلًا رجلًا ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلًا. وقُرئ: "سِلْمًا" بفتح السين[١] وكسرها[٢] مع سكون اللام. والكلّ مصادرُ مِن "سَلِم له كذا"، أي: خلَص، نُعِتَ بها مبالغةً، أو حُذِف منها "ذُو". / وقُرئ: "سَالِمًا"[٣] و"سَالِمٌ"،[٤] أي: وهناك رجل سالم. [١٢و] وتخصيص الرجل لأنّه أفطَن لِما يجري عليه مِن الضرّ والنفع.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما، ونفيٌ له على أبلغ وجه وآكدِه، وإيذان بأنّ ذلك مِن الجلاء والظهور بحيث لا يقدِر أحد أن يتفوَّه باستوائهما أو يتلعثَم في الحكم بتباينهما ضرورة أنّ أحدهما في أعلى علّيّين والآخرَ في أسفل سافلين. وهو السرّ في إبهام الفاضل والمفضول.

وانتصابُ ﴿مَثَلًا﴾ على التميز، أي: هل يستوي حالاهما وصفتاهما؟ والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقُرئ: "مَثَلَيْنِ"[٥] -كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ[٦] أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [التوبة، ٩/٦٩]- للإشعار باختلاف النوع، أو لأنّ المراد: هل يستويان في الوصفين؟ على أنّ الضمير للمَثَلَين؛ لأنّ التقدير: مَثَل رجلٍ فيه... إلخ، ومَثَل رجلٍ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير لِما قبله مِن نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحِّدين على أنّ ما لهم مِن المزيّة بتوفيق الله تعالى، وأنّها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو على أنّ بيانه تعالى بضرب المَثل -أنّ لهم المَثل الأعلى، وللمشركين مَثل السَّوء- صنع جميل ولطف تامّ منه عزّ وجلّ مستوجِب لحَمده وعبادته.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان عدم الاستواء

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٦ م س ي: أَكْثَرَ.

على الوجه المذكور إلى بيان أنّ أكثرَ الناس -وهم المشركون- لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيَبقَوْن في وَرطةِ الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ تمهيد لِما يَعقُبه مِن الاختصام يوم القيامة. وقُرئ: "مَائِتٌ" و"مَائِتُونَ".[١] وقيل: كانوا يتربّصونَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم موتَه.[٢] أي: إنّكم جميعًا بصدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمورِكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجّ أنت[٣] عليهم بأنّك بلّغتهم ما أُرسِلتَ به مِن الأحكام والمواعظ التي مِن جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات، واجتهدْتَ في الدّعوة إلى الحقّ / حقَّ الاجتهاد، [١٢ظ] وهم قد لَجّوا في المكابرة والعناد. وقيل: المراد به الاختصام العامّ الجاري في الدنيا بين الأنام.[٤] والأوّل هو الأظهر الأنسب بقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنّه إلى آخره مَسوق لبيان حال كلٍّ مِن طرفَي الاختصام الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غيرُ. أي: أظْلَمُ مِن كلّ ظالم مَن افترى على الله سبحانه[٥] بأن أضاف إليه الشريكَ والولد. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمر الذي هو عين الحقّ ونفس الصدق، وهو ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ﴿إِذْ جَآءَهُۥ﴾ أي: في أوّل مجيئه مِن غير تدبّر فيه ولا تأمّل.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق مِن أوّلِ الأمر. والجمع باعتبار معنى "مَن"،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير وابن مُحيصن وعيسى. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٤.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١٢٧.

٣ س – أنت.

٤ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٤٢.

٥ س + وتعالى.

كما أنّ الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها. أو لجنس الكفَرة، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًّا.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن تبعه كما أنّ المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون، ٤٩/٢٣] هو عليه السلام وقومُه. وقيل: عن الجنس المتناوِل للرسل والمؤمنين بهم. ويؤيّدُه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ".[1] وقيل: هو صفة لموصوف محذوف، هو الفوج أو الفَريق.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن المجيء بالصِّدق والتصديقِ به ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المنعوتون بالتقوى الذي هو[2] أجلّ الرّغائب. وقُرئ: "وَصَدَقَ بِهِ" بالتخفيف،[3] أي: صدَق به الناسَ فأدّاه إليهم كما نزل عليه مِن غيرِ تغيير. وقيل: وصار صادقًا به، أي: بسببه؛ لأنّ ما جاء به مِن القرآن معجزة دالّة على صِدقه عليه السلام. وقُرئ: "صُدِّقَ بِهِ"[4] على البناء للمفعول.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بيان لِما لَهم فِي الآخرة مِن حُسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا مِن محاسن الأعمال، أي: لهم كلّ ما يشاءونه مِن جلب المنافع ودفعِ المضارّ في الآخرة، لا في الجنّة فقط؛ لِما أنّ بعض ما يشاءونه مِن تكفير السيئات والأمن مِن الفزَع الأكبر، وسائر أهوال القيامة إنّما يقع قبل دخول الجنّة.

[١٣و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن حصول كلّ ما يشاءونه ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ / أي: الذين أحسنوا أعمالهم، وقد مرّ تفسير الإحسان غيرَ مرّة.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

[2] س: التي هي.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن حجار وعكرمة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾... إلخ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؛[١] لكن لا باعتبارِ منطوقه ضرورةَ أنّ التكفير المذكور لا يُتصوّر كونه غايةً لثبوت ما يشاءون لهم في الآخرة. كيف لا، وهو بعض ما سَيَثبت لهم فيها؟ بل باعتبار فَحواه، فإنّه حيث لم يكن إخبارًا بما ثبت لهم فيما مضى -بل بما سَيَثبت لهم فيما سيأتي- كان في معنى الوعد به كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾،[٢] فإنّه مصدر مؤكِّد لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾،[٣] فإنّه في معنى: وعدَهم اللهُ غُرفًا، فانتصب به: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾،[٤] كأنّه قيل: وعدهم اللهُ جميعَ ما يشاءونه مِن زوال المضارّ وحصولِ المسارّ؛ ليكفِّر عنهم بموجَب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عمِلوا دفعًا لمضارّهم.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إعطاءً لمنافعهم. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام.

وإضافة "الأسوء" و"الأحسن" إلى ما بعدهما ليست مِن قبيل إضافة المفضَّل إلى المفضَّل عليه؛ بل مِن إضافة الشيء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيحِ مِن غير اعتبار تفضيله عليه. وإنّما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة، لا على المضاف إليه المعيَّن بخصوصه، كما في قولهم: «الناقص[٥] والأشَجّ[٦] أعدَلا بني مروان».

---

[١] في الآية السابقة. | وفي هامش م: وقيل: متعلِّق بمحذوف، أي: يسِّر لهم ذلك ليكفِّر، وقيل:(١) بنفس ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، كأنّه قيل: الذين أحسنوا ليكفِّر... إلخ، وليس بذلك «منه». | (١) اللباب لابن عادل، ١٦/٥١٥.

[٢] الزمر، ٣٩/٢٠.

[٣] الزمر، ٣٩/٢٠.

[٤] الزمر، ٣٩/٢٠.

[٥] هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي، أبو خالد (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). تمّ ليزيد أمر الخلافة في مستهلّ رجب ١٢٦هـ ومات في ذي الحجّة بالطاعون، وقيل: مسمومًا. قال اليعقوبي: «كانت ولايته خمسة أشهر، والفتنة عامّة في البلاد». وكان يزيد مِن أهل الورع والصلاح. قال نشوان الحِميري: «لم يكن في بني أميّة مثله ومثلُ عمر بن عبد العزيز»، كان لقبه "الشاكر لأنعُم الله"، ويقال له: "الناقص"؛ لأنّ سلفه الوليد بن يزيد كان قد زاد في أُعطيات الجند، فلمّا ولي يزيد نقص الزيادة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٣٧٤؛ والأعلام للزركلي، ٨/١٩٠.

[٦] هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشي، الأموي، المدني، أبو حفص (ت. ١٠١هـ/٧٢٠م)، ≫

خلا أنّ الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة؛ بل هي في الأوّل بالنظر إلى ما يَليق بحالهم مِن استعظام سيّئاتهم وإن قلَّت، واستصغار حسناتهم وإن جلَّت. والثاني بالنظرِ إلى لُطف أكرم الأكرمين مِن استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة.

وحَملُ الزيادة على الحقيقة وإن أمكن في الأوّل بناءً على أنّ تخصيص الأسوء بالذكر لبيان تكفيرِ ما دونه بطريق الأولويّة ضرورةَ استلزام تكفير الأسوء لتكفير السيّء، لكن لمّا لم يمكن ذلك في الأحسن كان الأحسنُ نظمَهما في سِلك واحد مِن الاعتبار.

[١٣ظ] والجمع / بين صيغتَي الماضي والمستقبل في صِلة الموصول الثاني دون الأوّل للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيّئة.

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغِ وجه وآكَدِه، كأنّ الكفاية مِن التحقّق والظهورِ بحيث لا يقدِر أحد على أن يتفوَّه بعدمها، أو يتلعثَم في الجواب بوجودها. والمراد بـ"العبد" إمّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو الجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا. ويُؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "عِبَادَهُ".[١] وفُسّر بالأنبياء عليهم السلام. وكذا قراءةُ مَن قرأ: "بِكَافِي عِبَادِهِ"[٢] على الإضافة، و"يُكَافِي عِبَادَهُ"[٣] على صيغة المغالبة، إمّا مِن الكفاية لإفادة المبالغة فيها، وإمّا مِن المكافأة بمعنى المُجازاة.

< الخليفة، الصالح، الزاهد، الراشد. ولي الخلافة بعهد مِن سليمان سنة ٩٩هـ، فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيّامه، ولم تطل مدّته، قيل: دُسّ له السمّ وهو بدير سمعان مِن أرض المعرّة، فتوفّي به. ومدّة خلافته سنتان ونصف. وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. كان يُدعى "أشجّ بني أميّة"؛ لأنّ دابّة رمَحته وهو غلام فشجّته. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١١٤/٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٥٠/٥.

١ قرأ بها أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٩/٤؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٠٥/٩.

وهذه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] عمّا قالت له قريش: إنّا نخاف أن يُخبّلك آلهتنا ويصيبك مَعرّتها[٢] لعَيبك إيّاها.[٣] وفي رواية: قالوا: لتكُفّنّ عن شَتم آلهتنا أو ليُصيبنّك منهم خَبَل أو جنون،[٤] كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود، ٥٤/١١]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأوثان التي[٥] اتّخذوها آلهة مِن دونه تعالى. والجملة استئناف، وقيل: حال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتّى غفل عن كفايته تعالى وعِصمته له عليه السلام وخوّفه بما لا ينفع ولا يضرّ أصلًا ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى خيرٍ ما.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفه عن مقصده، أو يصيبه بسوءٍ يُخلّ بسلوكه؛ إذ لا رادّ لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالَب، منيع لا يُمانَع ولا يُنازَع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم مِن أعدائه لأوليائه. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل، وسنوح السبيل. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ/ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ [١٤و] بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: بعد ما تحقّقتم أنّ خالق العالَم العلوي والسفلي هو الله عزّ وجلّ فأخبروني أنّ آلهتكم إن أرادني الله بضرٍّ هل يَكْشِفْن عنّي ذلك الضرّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي: أو إن أرادني بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾

---

١ م – وسلّم.
٢ المعرّة: الأذى. لسان العرب لابن منظور، «عرر».
٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٥.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٨٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥١٧/١٦.
٥ س: الذي.

فَيَمْنَعْنَها عنّي؟ وقُرئ: "كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ" و"مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ" بالتنوينِ فيهما ونصبِ "ضُرَّهُ" و"رَحْمَتَهُ".[١]

وتعليقُ إرادة الضرّ والرحمة بنفسه عليه السلام للردّ في نحورهم حيث كانوا خوّفوه معرّةَ الأوثان، ولِما فيه مِن الإيذان بإمحاض النصيحة. ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: في جميعِ أموري مِن إصابة الخير ودفعِ الشرّ. رُوي أنّه عليه السلام لمّا سألهم سكتوا فنزل ذلك.[٢] ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا لعلمهم بأنّ كلّ ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها مِن العداوة التي تمكّنتم فيها، فإنّ المكانة تُستَعارُ مِن العين للمعنى كما يستعار "هنا" و"حيث" للزمان مع كونهما للمكان. وقُرئ: "عَلَى مَكَانَاتِكُمْ".[٣]

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، فحُذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأنّ حاله لا تزال تزداد قوّةً بنصر الله عزّ وجلّ وتأييده؛ ولذلك توعّدهم بكونه منصورًا عليهم في الدارين بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، فإنّ خزي أعدائه دليل غلبته عليه السلام، وقد عذّبهم الله تعالى وأخزاهم يومَ بدر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم، هو عذاب النار.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنّه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿أَنزَلْنَا﴾، أو مِن مفعوله. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل

---

[١] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤.

[٣] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنّما نفع به نفسه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجَبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِما أنّ وبال ضلاله مقصور عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتُجبِرهم على الهدى، وما وظيفتك إلّا البلاغ، وقد بلّغت أيّ بلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ / حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: يقبضها مِن الأبدان بأن يقطع تعلُّقها عنها وتصرُّفَها فيها، إمّا ظاهرًا وباطنًا كما عند الموت، أو ظاهرًا فقط كما عند النوم. [١٤ظ]

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردّها إلى البدن. وقُرئ: "قُضِيَ" على البناء للمفعولِ ورفعِ "المَوْتُ".[1] ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: النائمة إلى بدنها عند التيقّظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروب لمَوته، وهو غاية لجنس الإرسال الواقعِ بعد الإمساك، لا لفرد منه، فإنّ ذلك ممّا لا امتداد فيه ولا كمّيّةَ.

وما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ في ابن آدم نَفْسًا وروحًا، بينهما مِثل شعاع الشمس، فالنفْس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفَس والتحرّك، فَتُتوفّيان عند الموت، وتُتَوفّى النَّفْسُ وحدَها عند النوم»[2] قريب ممّا ذُكر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التوفّي على الوجهين، والإمساكِ في أحدهما، والإرسالِ في الآخَر، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبةً دالّة على كمالِ قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفيّة تعلُّقها بالإبدان وتوفّيها عنها، تارةً بالكلّيّة كما عند الموت، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفَنائها، وما يعتريها مِن السعادة والشقاوة، وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم، وإرسالِها حينًا بعد حين إلى انقضاء آجالها.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٤.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: بل اتّخذ قُريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن دون إذنه تعالى ﴿شُفَعَآءَ﴾ تَشفع لهم عنده تعالى؟

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخِ عليه، أي: قل: أتتَّخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئًا مِن الأشياء ولا يعقلونه فضلًا عن أنْ يَملكوا الشفاعة عند الله تعالى؟ أو هي لإنكارِ الوقوع ونَفيه على أنّ المراد بيان أنّ ما فَعلوا ليس مِن اتّخاذ الشفعاءِ في شيء؛ لأنّه فرعُ كون الأوثان شفعاءَ، وذلك أظهر المُحالات، / فالمقدَّر حينئذٍ غير ما قُدِّر أوّلًا. [١٥و]

وعلى أيّ تقدير كان فالواو للعطف على شرطيّةٍ قد حُذفت لدلالة المذكورة عليها، أي: أيشفعون لو كانوا يملكون شيئًا ولو كانوا لا يملكون... إلخ. وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه، وقد مرّ تحقيقه مرارًا.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾

﴿قُل﴾ بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذُكر تحقيقًا للحقّ: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أي: هو مالكها، لا يستطيع أحدٌ شفاعةً مّا إلّا أن يكون المشفوعُ له مرتضًى، والشفيع مأذونًا له، وكلاهما مفقود ههنا.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تقرير له وتأكيد، أي: له ملكهما وما فيهما مِن المخلوقات، لا يملك أحد أن يتكلّم في أمر مِن أموره بدونِ إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيفعل يومئذ ما يريد.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفَرت، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء، ١٧/٤٦].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى أو مع ذكرِ الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفَرط افتتانهم بها ونسيانهم حقّ الله تعالى، ولقد بُولغ في بيان حالَيْهم القبيحتين حيث بُيّن الغايةُ فيهما، فإنّ الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورًا حتّى ينبسط له بشَرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلئ غيظًا وغمًّا ينقبض منه أديم الوجه. والعامل في ﴿إِذَا﴾ الأولى ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾، وفي الثانية ما هو العامل في "إذا" المفاجأة، تقديره: وقتَ ذكر الذين مِن دونه فاجئوا وقتَ الاستبشار.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: التجِئ إليه تعالى بالدعاء لمّا تحيّرتَ في أمر الدعوة وضجِرتَ مِن شدّة شكيمتهم في المكابرة والعناد، فإنّه القادر على الأشياء بجملتها / والعالِمُ بالأحوال برُمّتها. [١٥ظ]

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: حُكمًا يسلّمه كلّ مكابر معانِد، ويخضع له كلّ عاتٍ مارد، وهو العذابُ الدنيوي أو الأخروي.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان آثار الحُكم الذي استدعاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغايةِ شدّته وفظاعته، أي: لو أنّ لهم جميع ما في الدنيا مِن الأموال والذخائر. ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لجعلوا كلّ ذلك فدية لأنفسهم مِن العذاب الشديد، وهيهات، ولاتَ حينَ مَناص. وهذا كما ترى وعيد شديد، وإقناط كلّي لهم مِن الخلاص.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم مِن فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم. وهذه غاية مِن الوعيد لا غايةَ وراءها، ونظيره في الوعد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة، ١٧/٣٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ سيّئات أعمالهم أو كسبِهم حين يُعرض عليهم صحائفهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالبُ أفراده. والفاء لترتيب ما بعدها مِن المناقضة والتعكيس على ما مرّ مِن حالَتَيْهم القَبيحتين. وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإنكار عليهم، أي: إنّهم يشمئِزّون عن ذِكر الله تعالى وحدَه، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّهم ضرّ دعَوا مَن اشمأزّوا عن ذكره دون مَن استبشَروا بذكره.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إيّاها تفضّلًا، فإنّ التخويل مختصّ به لا يطلق على ما أُعطي جزاءً، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على عِلم منّي بوجوه كسبه، أو بأنّي سأُعطَاه لِما لي مِن الاستحقاق، أو على عِلمٍ مِن الله تعالى بي وباستحقاقي. والهاء لِـ"مَا" إن جُعلت موصولة، وإلّا فلِ﴿نِعْمَةً﴾. والتذكير لِما أنّ المراد: شيئًا مِن النعمة.

[١٦و] ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ / أي: مِحنة وابتلاء له أيَشكر أم يكفر؟ وهو ردّ لِما قاله. وتغيير السَّبك للمبالغة فيه، والإيذانِ بأنّ ذلك ليس مِن باب الإيتاء المُنْبئ عن الكرامة، وإنّما هو أمر مباين بالكلّيّة. وتأنيث الضمير باعتبار لفظ "النعمة"، أو باعتبار الخبر. وقُرئ بالتذكير.[١]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك. وفيه دلالة على أنّ المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛[1] لأنّها كلمة أو جملة. وقُرئ بالتذكير.[2] والموصول عبارة عن قارونَ وقومه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص، ٧٨/٢٨]، وهم راضون به. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن متاع الدنيا ويجمعون منه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ٥١﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ جزاء سيّئات أعمالهم، أو أجزيةُ ما كسبوا. وتسميتها ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ لأنّها في مقابلة سيّئاتهم، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى، ٤٠/٤٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين. و﴿مِنْ﴾ للبيان أو للتبعيض، أي: أفرطوا في الظلم والعتوّ.

﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ مِن الكفر والمعاصي كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم أيَّ إصابة حيث قُحِطوا سبعَ سنينَ، وقُتل صناديدهم يوم بدر. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: أقَالوا ذلك ولم يعلموا، أو أغفلوا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[3] له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمَن يشاء[4] أن يقدره له مِن غير أن يكون لأحد مَدخل مّا في ذلك، حيث حُبس عنهم الرزق سبعًا، ثمّ بسطه[5] لهم سبعًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دالّةً على أنّ الحوادث كافّةً مِن الله عزّ وجلّ.[6] ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ هم المستدِلّون بها على مدلولاتها.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٥/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢١١/٩.
[3] س: يبسط.
[4] س + له.
[5] س: بسط.
[6] س: تعالى.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي. وإضافة "العباد" / تُخصِّصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم. [١٦ظ]

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا مِن مغفرته أوّلًا وتفضّله ثانيًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفوًا لمَن يشاء ولو بَعد حينٍ بتعذيبٍ في الجملة وبغيره حسبما يشاء. وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر، كيف لا وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، ٤/٤٨] ظاهر في الإطلاق فيما عدا الشركَ؟

وممّا يدلّ عليه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على المبالغة، وإفادةِ الحصر، والوعدِ بالرحمة بعد المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرة ممّا في "عبادي" مِن الدلالة على الذلّة والاختصاصِ المُقتضيَينِ للترحّم، وتخصيصُ ضرر الإسراف بأنفسهم، والنهيُ عن القنوط مطلقًا عن الرحمة فضلًا عن المغفرة، وإطلاقُها، وتعليلُه بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾، ووضعُ الاسم الجليل موضعَ الضمير لدلالته على أنّه[١] المستغني والمنعِم على الإطلاق، والتأكيدُ بالجميع.[٢]

وما رُوي مِن أسباب النزول الدالّة على ورود الآية فيمَن تاب[٣] لا يقتضي اختصاص الحُكم بهم. ووجوب حَمل المطلق على المقيّد في كلام واحد -مثل: أكرِم الفضلاءَ أكرِم الكاملين- غير مسلَّم، فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد؟ ولا يُخِلّ بذلك الأمرُ بالتوبة والإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ إذ ليس المدَّعى أنّ الآية تدلّ على حصول المغفرة لكلّ أحد مِن غير توبة وسبْقِ تعذيب لِتُغني عن الأمر بهما وتنافيَ الوعيد بالعذاب.

---

١ س: أن.

٢ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٤٦.

٣ رُوي: أنّ أهل مكّة قالوا: يزعم محمّد أنّ مَن عبَد الوثن وقتل النفس بغير حقّ لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس؟ فنزلت. **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٢٤١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١٣٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٤٦.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: القرآنَ، أو المأمورَ به دون المنهيّ عنه، أو العزائم دون الرُّخَص، أو الناسخ دون المنسوخ. ولعلّه ما هو أَنْجَى وأَسْلَمُ كالإنابة والمواظبة / على الطاعة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ [١٧و]
وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه لتتداركوا وتتأهّبوا له.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ أي: كراهةَ أن تقول. والتنكير للتكثير كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، فإنّه مسلك ربّما يُسلَكُ عند إرادة التكثير والتعميم، وقد مرّ تحقيقه في مطلع سورة الحِجر.

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ بالألِف بدلًا مِن ياء الإضافة. وقُرِئ: "يَا حَسْرَتَاهْ" بهاء السَّكتِ وقفًا.[١] وقُرِئ: "يَا حَسْرَتَايَ" بالجمع بين العوضَين.[٢] وقُرِئ: "يَا حَسْرَتِي"[٣] على الأصل، أي: احضري فهذا أوانُ حضورِكِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: جانبه، وفي حقّه وطاعته، وعليه قول مَن قال:

أَمَـا تتّقيـنَ الله فـي جنـب وامـق ... لـه كبِـد حَـرَّى وعَيـنٌ تَـرَقْـرَقُ[٤]

وهو كناية فيها مبالغة.

وقيل: في ذات الله، على تقدير مضاف، كالطاعة. وقيل: في قربه، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء، ٣٦/٤]. وقُرِئ: "فِي ذِكْرِ اللهِ".[٥]

---

١ قرأ بها رُويس عن يعقوب بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٦/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني بخُلف عن ابن وَردان، والوجه الثاني لابن وَردان بإسكان الياء بعد الألف مع إشباع المدّ. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

٤ لجميل بثينة في ديوانه، ص ١١٩، بلفظ:
أمـا تتّقيـنَ الله فـي قتـلِ عاشـق ... لـه كبِـد حَـرّى عليـكِ تقطّـعُ

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وحفصة رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٤.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: المُستهزئين بدين الله تعالى وأهله. ومحلّ الجملة النصب على الحال، أي: فرّطتُ وأنا ساخر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشاد إلى الحقّ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الشرك والمعاصي.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعةً إلى الدنيا، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّها لا تخلو عن هذه الأقوال تحسّرًا وتحيّرًا وتعلّلًا بما لا طائل تحته.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ردّ مِن الله تعالى عليه لِما تضمّنه قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾[1] مِن معنى النفي. وفصلُه عنه لِما أنّ تقديمه يُفرّق القرائن، وتأخيرَ المردود يُخلّ بالترتيب الوجودي؛ لأنّه
[١٧ظ] يتحسّر بالتفريط ثمّ / يتعلّلُ بفَقد الهداية ثمّ يتمنّى الرجعةَ. وهو لا يمنع تأثير قُدرة الله في فعل العبد، ولا ما فيه مِن إسناد الفعل إليه كما عرفت.[2] وتذكير الخطاب باعتبار المعنى. وقُرئ بالتأنيث.[3]

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصَفوه بما لا يليق بشأنه كاتّخاذ

---

١ الزمر، ٥٧/٣٩.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧/٥. قال الشهاب الخفاجي: «جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآيات على أنّ العبد مستقِلّ في إيجاد أفعاله، فأشار إلى أنّه لا ينافي مذهب أهل الحقّ مِن أنّ فعل العبد بقدرة مِن الله وتأثيره». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٤٧/٧.

٣ بكسر الكاف مِن "جَاءَتْكِ"، والتاءات مِن "فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجحدري، ونُسبت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم مِن الشدّة، أو بما يتخيّل عليها مِن ظلمة الجهل. والجملة حال قد اكتُفي فيها بالضمير عن الواو على أنّ الرؤية بصريّة، أو مفعول ثانٍ لها على أنّها عِرفانيّة.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة، وهو تقرير لِما قبله مِن رؤيتهم كذلك.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي، أي: مِن جهنّم. وقُرئ: "يُنْجِي"[1] مِن الإنجاء. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مصدر ميمي إمّا مِن "فاز بالمطلوب"، أي: ظفِر به، والباء متعلِّقة بمحذوف هو حال مِن الموصول، مفيدة لِمقارَنة تنجيتهم مِن العذاب لنيل الثواب، أي: ينجّيهم الله تعالى مِن مثوى المتكبّرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إمّا حال أخرى مِن الموصول، أو مِن ضميرِ ﴿مَفَازَتِهِمْ﴾، مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنّة غيرَ مسبوقة بمساس العذاب والحُزن.

وإمّا مِن "فاز منه"،[2] أي: نجا منه، والباء للملابسة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾... إلخ تفسير وبيان لـ"مَفازتهم"، أي: يُنجّيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصّة بهم، أي: بنفي السوء والحُزن عنهم. أو للسببيّة، إمّا على حذف المضاف، أي: يُنجّيهم بسبب مفازتهم التي هي تقواهم، كما يُشعر به إيراده في حيّز الصلة، وإمّا على إطلاق المَفازة على سببها الذي هو التقوى. وليس المراد نفيَ دوام المساس والحُزن؛ بل دوامُ نفيهما كما مرّ مرارًا.

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن خير وشرّ، وإيمان وكفر، لكن لا بالجبر؛ بل بمباشرة الكاسب لأسبابها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولّى التصرّف فيه كيفما يشاء.

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

[2] السياق: مصدر ميميّ إمّا مِن "فاز بالمطلوب"... وإمّا مِن "فاز منه"...

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكّن مِن التصرّف فيها غيره، وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظِه لها. وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد؛ لأنّ الخزائن لا يدخلها ولا يتصرّف فيها إلّا مَن بيده مفاتيحها. وهو
[١٨و] جمع مِقليد أو مِقلاد، مِن "قلّدتُه" إذا ألزمتَه. وقيل: / جمعُ إقليد، معرّب: كِليد على الشذوذ، كالمذاكير.

وعن عثمان رضي الله عنه أنّه سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن المقاليد، فقال عليه السلام: «تفسيرها: لا إله إلّا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، هو الأوّل والآخِر، والظّاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير».[١] والمعنى على هذا: أنّ لله هذه الكلمات، يوحَّدُ بها ويمجَّد، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض، مَن تكلّم بها أصابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ متّصل بما قبله. والمعنى: أنّ الله تعالى خالق لجميع الأشياء ومتصرّف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة، بيده مقاليد العالَم العلوي والسفلي. والذين كفروا بآياته التكوينيّة المنصوبة في الآفاق والأنفس والتنزيليّة التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانًا لا خَسار وراءه. هذا، وقيل: هو متّصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض، فتدبّر.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: أبَعد مشاهدة هذه الآيات غيرَ الله أعبُد؟ و﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ اعتراض للدلالة على أنّهم أمروه به عقيب ذلك، وقالوا: استَلِمْ بعض آلهتنا نؤمِن بإلهِك لفَرط غباوتهم. ويجوز أن ينتصب "غيرَ"

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧/٥. وأخرجه ابن السنّي في عمل اليوم والليلة، ص ٦٨. قال الحافظ المنذري: «وفيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد». انظر: اتحاف الخيرة للبوصيري، ٣٩٩/٦.

٢ الزمر، ٦١/٣٩.

بما يدلّ عليه ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾؛ لأنّه بمعنى: تُعَبِّدُونَنِي، وتقولون لي: أُعبُدْ، على أنّ أصله: تأمرونني أن أعبُد، فحُذف "أن"، ورُفع ما بعدها، كما في قوله:

ألا أيّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا وأن أشهد اللذّاتِ هل أنت مُخلدي[١]

ويؤيِّده قراءة "أَعْبُدَ" بالنصب.[٢] وقُرئ: "تَأْمُرُونَنِي" بإظهارِ النُّونَينِ على الأصلِ،[٣] وبحذف الثانية.[٤]

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: مِن الرسل عليهم السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٥] / كلام وارد على طريقة الفَرْض [١٨ظ] لتهييج الرسل، وإقناطِ الكفَرة، والإيذانِ بغاية شَناعة الإشراك وقُبحه، وكونه بحيث يُنهى عنه مَن لا يكاد يمكن أن يُباشره، فكيف بمَن عداه؟

وإفراد الخطاب باعتبار كلّ واحد. واللام الأولى موطّئة للقسم، والأخريانِ للجواب. وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون مِن خصائصهم؛ لأنّ الإشراك مِنهم أشدّ وأقبح، وأن يكون مقيّدًا بالموت، كما صُرّح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ[٦] حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة، ٢/٢١٧]. وعطف الخسران عليه مِن عطف المسبَّب على السبب.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردّ لِما أَمروه. ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك. وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه.

---

١ لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. ومعنى البيت: يا مَن يلومني في حضور الحرب لئلّا أُقتل، وفي أن أُنفق مالي لئلّا أفتقر، ما أنت بمخلدي إن قبلت منك، فدعني أنفق مالي في الفتوّة ولا أخلفه لغيري. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٨٢/٦.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالويه عن بعضهم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٥ س - ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٦ م س ي: أولئك.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حقّ عظمته، حيث جعلوا له شريكًا، ووصَفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. وقُرئ بالتشديد.[1]

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيه على غاية عظمته، وكمال قدرته، وحقارة الأفعال العظام التي تتحيّر فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى. ودلالة على أنّ تخريب العالَم أهون شيء عليه. على طريقة التمثيل والتخييل مِن غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازًا، كقولهم: شابت لِمّة الليل.

والقَبضة: المرّة مِن القَبض، أُطلقت بمعنى القُبضة -وهي المقدار المقبوض بالكفّ- تسميةً بالمصدر، أو بتقدير: ذاتُ قَبضة. وقُرئ بالنصب[2] على الظرف تشبيهًا للموقَّت بالمبهَم. وتأكيد ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بالجميع لأنّ المراد بها الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادِية والغائرة. وقُرئ: "مَطْوِيَّاتٍ"[3] على أنّها حال، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، منظومة في حكمها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعَد وما أعلى مَن هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكهم أو عمّا يشركونه مِن الشركاء!

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[١٩و] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الأولى، ﴿فَصَعِقَ/ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خرّوا أمواتًا أو مغشيًّا عليهم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: هم[4] جبريل وميكائيل وإسرافيل، فإنّهم لا يموتون بعدُ. وقيل: حمَلة العرش. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن البصري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[4] س ي – هم.

نفخة أخرى، هي النفخة الثانية. و﴿أُخْرَىٰ﴾ يحتمل النصب والرفع. ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون مِن قبورهم، أو متوقِّفون. وقُرئ بالنصب[1] على أنّ الخبر ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهو حال مِن ضميره، والمعنى: يقلِّبون أبصارهم في الجوانب كالمَبهوتين،[2] أو ينتظرون ما يُفعَلُ بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها مِن العدل، استعير له النور لأنّه يزيِّن البِقاع ويُظهر الحقوق، كما يسمّى الظلم ظُلمة. وفي الحديث: «الظُّلم ظلمات يوم القيامة»،[3] ولذلك أضيف الاسم الجليل إلى ضمير ﴿ٱلْأَرْضُ﴾. أو بنور خلَقَه فيها بلا توسّط أجسام مضيئة، ولذلك أُضيف إلى الاسم الجليل.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الحساب والجزاء، مِن وضع المحاسِب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمّال. واكتفى باسم الجنسِ عن الجمعِ. وقيل: اللوح المحفوظ يقابَلُ به الصحائف.

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ للأمم وعليهم مِن الملائكة والمؤمنين، وقيل: المستشهَدون. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءَه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيءٌ مِن أفعالهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

٢ بَهِتَ الرجل -بالكسر- إذا دَهِش وتَحيّر. وبَهُتَ بالضمّ مثله، وأفصَحُ منهما بُهِتَ، يقال: رجل مَبْهوت. انظر: الصحاح للجوهري، «بهت».

٣ صحيح البخاري، ٣/١٢٩ (٢٤٤٧)؛ صحيح مسلم، ٤/١٩٩٦ (٢٥٧٨).

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾... إلخ تفصيل للتوفية، وبيان لكيفيّتها، أي: سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرّقةً بعضها في إثر بعض، مترتّبة حسب تَرتُّب طبقاتهم في الضلالة والشرارة. والزُّمَر: جمع زُمرة، واشتقاقها مِن الزَّمرِ، وهو الصوت؛ إذ الجماعة لا تخلو عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ليَدخلوها. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تُحكى بعدها الجملة. وقُرئ بالتشديد.[1] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ مِن جنسكم. وقُرئ: "نُذُرٌ مِنْكُمْ".[2] ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنّه لا تكليف قبل الشرعِ مِن حيث إنّهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسلِ وتبليغ الكتب.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد أتونا وأنذرونا، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]، وقد كنّا ممّن تبعه وكذّبنا الرسل، وقلنا: ما نزّل مِن شيء، إن أنتم إلّا تكذبون.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدَّرًا خلودُكم فيها. وإبهام القائلِ لتهويل المَقول. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس. والمخصوص بالذمّ محذوف ثقةً بذكره آنفًا، أي: فبئس مثواهم جهنّم. ولا يقدح ما فيه مِن الإشعار بأنّ كون مثواهم جهنّم لتكبّرهم عن الحقّ في أنّ دخولهم النار

---

[1] أي: "فُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٤.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري مِن غير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٤٦.

لسبق كلمة العذاب عليهم، فإنّها إنّما حقّت عليهم بناءً على تكبّرهم وكفرهم. وقد مرّ تحقيقه في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[١]

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ مساقَ إعزاز وتشريف للإسراعِ بهم إلى دار الكرامة. وقيل: سيق مراكبهم؛ إذ لا يُذهب بهم إلّا راكبين. ﴿زُمَرًا﴾ متفاوتين حَسْبَ تفاوت مراتبهم في الفضل وعلوِّ الطبقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وقُرئ بالتشديد.[٢] وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف للإيذان بأنّ لهم حينئذٍ مِن فُنون الكرامات ما لا يُحدِق به نطاق العبارات، كأنّه قيل: حتّى إذا جاءوها وقد فُتحت أبوابها. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مِن جميع المكاره والآلام، ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهُرتم مِن دنس المعاصي، أو طِبتم نفْسًا بما أُتيح لكم مِن النعيم. ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ كان ما كان ممّا يقصر عنه البيان.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

/ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [١٩ظ]
يريدون المكان الذي استقرّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلّفة عليهم مِن أعمالهم، أو تمكينُهم مِن التصرّف فيها تمكينَ الوارث فيما يرِثه.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوّء كلّ واحد منّا في أيّ مكان أراده مِن جنّته الواسعة، على أنّ فيها مقاماتٍ معنويّةً لا يتمانع وارِدوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنّةُ.

---

١ عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

٢ أي: "وَفُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: حولَه. و﴿مِنْ﴾ مزيدة، أو لابتداء الحُفوف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية، أو مقيِّدة للأولى. والمعنى: ذاكرين له تعالى بوصفَي جلاله وإكرامه تلذّذًا به. وفيه إشعار بأنّ أقصى درجات العلّيّين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في شئونه عزّ وجلّ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين الخَلق، بإدخال بعضهم النارَ وبعضهم الجنّة. أو بين الملائكة، بإقامتهم في منازلهم على[1] حسب تفاضلهم.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على ما قضى بيننا بالحقّ، وأنزَل كلًّا منّا منزلته التي هي حقّه. والقائلون هم المؤمنون ممّن قضي بينهم، والملائكة، وطيّ ذكرهم لتعيّنهم وتعظيمهم.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزُّمر لم يقطعِ الله تعالى رجاءه يومَ القيامة، وأعطاه ثواب الخائفين».[2]

وعن عائشة رضي الله عنها أنّه عليه السلام كان يقرأ كلَّ ليلة: بني إسرائيل، والزُّمر.[3]

---

١ س - على.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٢٠/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٦٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٨/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٠/٥. وهو في **سنن الترمذي**، ٤٧٥/٥ (٣٤٠٥)، بلفظ: قالت عائشة: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا ينام حتى يقرأ: الزمر، وبني إسرائيل». | وسورة بني إسرائيل هي سورة الإسراء.

سورة المؤمن

مكّيّة،[1] وهي خمس وثمانون، أو ثنتان وثمانون[2] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألِف[3] وتَسكين الميم. وقُرئ بإمالة الألِف،[4] وبإخراجِها بينَ بينَ،[5] وبفتح الميم[6] لالتقاء الساكنين، أو نصبِها بإضمارِ "اقرأ" ونحوِه. ومنع الصرف للتعريف والتأنيث، أو للتعريف وكونها على زِنة قابيل وهابيل. وبقيّة الكلام فيه وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كالذي سلَف في ﴿الٓمٓ﴾ السجدة. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ كما في مطلعِ سورة الزمر في الوجوه كلّها. ووَجه التعرّض لنعتيِ العزّة والعِلم ما ذُكِر هناك.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ إمّا صفاتٌ أُخَرُ لتحقيق ما فيها مِن الترغيب والترهيب، والحثِّ على ما هو المقصود. والإضافة فيها حقيقيّة على أنّه لم يُرَد بها زمان مخصوص، وأريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ مُشدِّدِه،[7] أو الشديدِ عِقابُه بحذف اللام للازدواجِ[8] وأمْنِ الالتباس. أو أبدالٌ،[9] وجعلُه وحده بدلًا

---

١ س + قال الحسَن: إلّا قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [غافر، ٥٥/٤٠]؛ لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة.

٢ س ي – أو ثنتان وثمانون.

٣ المراد بتفخيم الألف هنا فتحها الذي هو ضدّ الإمالة.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف وابن ذكوان وشعبة. النشر لابن الجزري، ٧٠/٢.

٥ قرأ بها ورش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو، والوجه الثاني له الفتح. النشر لابن الجزري، ٧٠/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٧ كذا ضبطه المصنّف تبعًا بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

٨ أي: إنّما حذف الألف واللام مِن شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٩/٤.

٩ السياق: إمّا صفاتٌ أُخَرُ... أو أبدالٌ...

-كما فعله الزجّاج-[١] مشوِّش للنظم.

وتوسيط الواو بين الأوَلَين لإفادة الجمعِ بين "مَحو الذنوب" و"قبول التوبة"، أو تغايرِ الوصفين؛ إذ ربّما يُتوهّم الاتّحاد، أو تغايرِ موقعِ الفعلين؛ لأنّ "الغَفْر" هو السَّتر مع بقاء الذنب، وذلك لمَن لم يتب، «فإنّ التائب مِن الذنب كمَن لا ذنبَ له».[٢]

و﴿ٱلتَّوْبِ﴾ مصدر كالتوبة، وقيل: هو جمعها.[٣] و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ الفضل بترك العقاب المُستَحَقّ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورةً بصفات الرحمة دليل سَبقها ورُجحانها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلّي على طاعته في أوامره ونواهيه. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فحَسْب، لا إلى غيره، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالطعن فيها، واستعمالِ المقدّمات الباطلة [٢٠ظ] / لإدحاض الحقّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر، ٥/٤٠].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بها، وأمّا الذين آمنوا فلا يَخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلًا عن الطعن فيها. وأمّا الجدالُ فيها لحَلّ مشكلاتها وكشف مُعضلاتها واستنباطِ حقائقها الكلّيّة وتوضيحِ مناهجِ الحقّ في مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطالِ شُبَه أهل الزيغ والضلال فمِن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه السلام: «إنّ جدالًا في القرآن كُفر»[٤] بالتنكير للفرق بين جدالٍ وجدالٍ.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ لترتيب النهي أو وجوبِ الانتهاء على ما قبلها مِن التسجيل عليهم بالكفر الذي لا شيء أمقَتُ منه عند الله تعالى، ولا أجلَبُ لخُسران الدنيا والآخرة، فإنّ مَن تحقّق ذلك

---

[١] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣٦٦/٤.
[٢] حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في سنن ابن ماجه، ١٤١٩/٢ (٤٢٥٠)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٥٩/١٠ (٢٠٥٦١).
[٣] أي: جمع التوبة، والمراد إنّه اسم جمعي، كتَمر وتَمرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٥٦/٧.
[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٤. وهو في مسند أحمد، ٤٨٦/١٢ (٧٥٠٨)، بلفظ: «جدالٌ في القرآن كُفر».

لا يكاد يغترّ بما لهم مِن حظوظ الدنيا وزخارفها، فإنّهم مأخوذون عمّا قليل أخذَ مَن قبلهم مِن الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوحٍ، مثل عاد وثمود وأضرابهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ مِن تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: "بِرَسُولِهَا"[1] ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا مِن تعذيب أو قتل، مِن الأخذ بمعنى الأسْر.

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا أصلَ ولا حقيقةَ له أصلًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا مَحيد عنه كما فعل هؤلاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذَ عزيز مُقتدِر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي عاقبتهم به، فإنّ آثار دمارهم عُرضة للناظرين، ولآخُذَنَّ هؤلاء أيضًا لاتّحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجَريرة، كما يُنبئُ عنه قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما وجَب وثبَت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذِّبة المُتحزِّبة على رسلهم المجادِلةِ بالباطل لإدحاض الحقّ به، وجَب أيضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: كفروا بك وتحزّبوا عليك وهمّوا بما لم ينالوا، كما يُنبئ عنه إضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام، / فإنّ ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب عليهم مِن أحكام تربيته [٢١و]
التي مِن جملتها نُصرته عليه السلام وتعذيب أعدائه، وذلك إنّما يتحقّق بكون الموصول عبارة عن كفّار قومه، لا عن الأمم المهلَكَة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في حيّز النصب بحذف لام التعليل، أي: لأنّهم مستحِقّو[2] أشدِّ العقوبات وأفظعِها التي هي عذاب النار، وملازموها أبدًا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[2] في الأصول الخطّيّة: "مستحقّوا" بألف بعد الواو.

لكونهم كفّارًا معاندين متحزّبين على الرسول عليه السلام، كدأب مَن قبلهم مِن الأمم المُهلَكة، فهم لِسائر فنون العقوبات أشدُّ استحقاقًا وأحقُّ استيجابًا. وقيل: هو في محلّ الرفع على أنّه بدل مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والمعنى: مثل ذلك الوجوب وجَب على الكفَرة المُهلَكة كونَهم مِن أصحاب النار، أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة. ومحلّ الكاف على التقديرين النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام، وأوّلهم وجودًا. وحَملُهم إيّاه وحَفيفُهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، وكنايةٌ عن زُلفاهم[١] مِن ذي العرش جلّ جلاله ومكانتِهم عنده. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، خبره: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، والجملة استئناف مَسوق لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية مَن معه مِن المؤمنين ونصرتِهم واستدعاءِ مَا يُسْعِدُهم في الدارَين، أي: ينزّهونه تعالى عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نَعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيمانًا حقيقًا بحالهم. والتصريح به مع الغِنَى عن ذكره رأسًا لإظهار فضيلةِ الإيمان، وإبرازِ شرف أهلِه، والإشعارِ بعلّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإنّ المشاركة في الإيمان أقوى
[٢١ظ] المناسبات وأتمّها وأَدْعَى الدواعي إلى النصحِ والشفقة. / وفي نظم استغفارهم لهم في سِلك وظائفهم المفروضة عليهم مِن تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذانٌ بكمال اعتنائهم به، وإشعارٌ بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

---

١ أي: قُربِهم. والزلفة والزلفى: القربة والمَنزلة. **الصِّحاح** للجوهري، «زلف».

رُوي أنّ حملة العرش أرجلُهم في الأرض السفلى، ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خُشوع لا يرفعون طرفهم.[١]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تتفكّروا في عِظَم ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق الله مِن الملائكة، فإنّ خلقًا مِن الملائكة يقال له: إسرافيل، زاويةٌ مِن زوايا العرش على كاهِله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرَق رأسه[٢] مِن سبع سماوات، وإنّه لَيتضاءل مِن عظَمة الله حتّى يصير كأنّه الوَصَعُ».[٣]

وفي الحديث: «إنّ الله أمرَ جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلًا لهم على سائرهم».[٤]

وقيل: خلق الله تعالى العرش مِن جوهرة خضراء، وبين القائمتين مِن قوائمه خفَقان الطيرِ المُسرِعِ ثمانين ألفَ عامٍ.[٥]

وقيل: حول العرش سبعون ألفَ صفٍّ مِن الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألفَ صفٍّ قيامٌ قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مائةُ ألفِ صفٍّ، قد وضعوا أيمانهم على الشمائل، ما منهم أحد إلّا وهو يُسبّح بما لا يُسبّح به الآخر.[٦]

﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول، أي: يقولون: ربّنا، على أنّه إمّا بيان لاستغفارهم أو حال. ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعَتْ رحمتُك وعلمك، فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعِلم، والمبالغةِ في عمومهما. وتقديم الرحمة لأنّها المقصودة بالذات ههنا.

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥١/٤.

٢ أي: خَرَقها وخرج مِن الجانب الآخر. انظر: **الصّحاح** للجوهري، «مرق».

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤. قال الزيلعي: "غريب". **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢١٨/٣. | والوَصَع: طائر أصغر مِن العصفور. **الصّحاح** للجوهري، «وصع».

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤؛ **تفسير القرطبي**، ٢٩٤/١٥.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤؛ **تفسير القرطبي**، ٢٩٤/١٥. ونحوه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٧/٨.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: للذين علمتَ منهم التوبةَ واتّباعَ سبيل الحقّ؛ لترتيب الدعاء على ما قبلها مِن سَعة الرحمة والعِلم. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه، وهو تصريح بعد إشعارٍ للتأكيد.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿قِهِمْ﴾.[١] وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجُؤار.[٢] ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: وعدتَهم إيّاها. وقُرئ: "جَنَّةَ عَدْنٍ".[٣]

[٢٢و] ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ/ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: صلاحًا مصحِّحًا لدخول الجنّة في الجملة، وإن كان دون صلاحِ أصولهم. وهو عطفٌ على الضمير الأوّل، أي: وَأَدخِلها[٤] معهم هؤلاء؛ ليتِمّ سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. أو على الثاني، لكن لا بناءً على الوعد العامّ للكلّ كما قيل؛[٥] إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه؛ بل بناءً على الوعد الخاصّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]، بأن يكونوا أعلى درجة مِن ذرّيّتهم.

قال سعيد بن جُبير: «يدخل المؤمن الجنّة فيقول: "أين أبي؟ أين ولدي؟ أين زوجي؟" فيقال: "إنّهم لم يعملوا مثل عملك"، فيقول: "إنّي كنت أعمل لي ولهم"، فيقال: "أَدْخِلوهم الجنّة"».[٦]

وسبْقُ الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعي حصول الموعود بلا توسّط شفاعةٍ واستغفارٍ، وعليه مبنى قولِ مَن قال: فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ الدعاء بالإدخال فيه صريح، وفي الثاني ضِمني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الجُؤار: رفع الصوت مع تضرّع واستغاثة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأر».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ وفي هامش م: أي: جنّات عدن «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٢/٥.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٨٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٨.

وقُرئ: "صَلُحَ" بالضمّ،[١] و"ذُرِّيَّتِهِمْ" بالإفراد.[٢]

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة الباهرة مِن الأمور التي مِن جملتها إنجاز الوعد. فالجملة تعليل لِما قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوباتِ؛ لأنّ جزاء السيّئة سيّئة، أو جزاءَ السيّئات على حذف المضاف، وهو تعميم بعد تخصيص، أو مخصوصٌ بالأَتباع، أو المعاصِيَ في الدنيا، فمعنى قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: ومَن تَقِهِ المعاصيَ في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، كأنّهم طلبوا لَهم السببَ بعدما سألوا المسبَّبَ.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة مِن ﴿رَحِمْتَهُۥ﴾، أو إليها وإلى الوقاية. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد درجة المشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مَطمَع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في بيان أحوال الكفَرة بعد دخولهم النار بعد ما بُيّن فيما سبق ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.[٣] ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: مِن مكان بعيد، وهم في النار، وقَد مقَتُوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتّباعِ هواها، أو مقَتَ بعضُهم بعضًا مِن الأحباب، كقوله تعالى: / ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [٢٢ظ] [العنكبوت، ٢٥/٢٩]، أي: أبغضوها أشدّ البغض، وأنكروها أبلغ الإنكار، وأظهروا ذلك على رءوس الأشهاد، فيقال لهم عند ذلك: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمَقت الله أنفسَكم الأمّارةَ بالسوء، أو مَقتُه إيّاكم في الدُّنيا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٣ غافر، ٦/٤٠.

﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ﴾ مِن جهة الأنبياءِ ﴿إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فتأبَونَ قَبوله ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾ اتّباعًا لأنفسكم الأمّارة، ومسارعةً إلى هواها، أوِ اقتداءً بأخِلّائكم المضلّين، واستحبابًا لآرائهم أكبرَ مِن مَقتكم أنفسَكم الأمّارة، أو مِن مَقت بعضكم بعضًا اليوم. فـ﴿إِذۡ﴾ ظرف للمَقت الأوّل وإن توسّط بينهما الخبر، لِما في الظروف مِن الاتّساعِ. وقيل: لمصدر آخَر مقدّر، أي: مقتُه إيّاكم إذ تُدعَون. وقيل: مفعول لـ"اذكروا". والأوّل هو الوجه.

وقيل: كلا المَقتَين في الآخرة، و﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ﴾ تعليل لِما بين الظرف والسبب مِن علاقة اللزوم. والمعنى: لَمَقتُ الله إيّاكم الآن أكبر مِن مَقتكم أنفسَكم لِما كنتم تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون. وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بـ"أنفسهم" أضرابَهم ممّا لا داعي إليه.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ⑪﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ صفتان لمصدرَي الفعلين المذكورين، أي: إماتتَين وإحياءتَين، أو موتتَين وحياتَين، على أنّهما مصدران لهما أيضًا بحذف الزوائد، أو لفعلين يدلّ عليهما المذكوران، فإنّ الإماتة والإحياء يُنبئانِ عن الموت والحياة[1] حتمًا، كأنّه قيل: أمتَّنا فمُتنا موتتَين اثنتَين، وأحيَيتَنا فحَيِينا حياتَين[2] اثنتين، على طريقة قول مَن قال:

وعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع ... مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[3]

أي: لَم يدَع فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ.

---

[1] م س: والحيوة.

[2] م س: حيوتين.

[3] للفرزدق في ديوانه، ص ١١٧، بلفظ:

وعضّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَع ... مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ

والمُسحَت: الذي لم يبق منه بقيّة. والمجلّف: الذي ذهَب معظمه، وبقي منه شيء يسير. قال الزمخشري: «هذا البيت ما تزال الرُكَب تصطكّ في تسوية إعرابه». الكشّاف للزمخشري، ٧٢/٣. وقال ابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورةً، وأتعبَ أهل الإعراب في طلب العلّة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا منه بشيء يُرتضى». الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٨٩/١.

قيل: أرادوا بالإماتة الأولى خَلْقَهم أمواتًا، وبالثانية إماتتَهم عند انقضاء آجالهم، على أنّ الإماتة جعل الشيء عادِم الحياة، أعمّ مِن أن يكون بإنشائه كذلك، كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياءَ الأوّلَ وإحياءَ البعث.

وقيل: أرادُوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا، وبالثانية ما بعد حياة القبر، وبالإحياءين: ما في القبر وما عند البعث، / وهو الأنسب بحالهم. وأمّا [٢٣و] حديث لزوم الزيادة على النصّ[1] ضرورة تحقّق حياة الدنيا فمدفوع، لكن لا بما قيل مِن عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاعِ آثارها وأحكامها؛ بل بأنّ مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا يُنكرونه في الدنيا كما ينطق به قولهم: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ والتزام العمل بموجَب ذلك الاعتراف؛ ليتوسّلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة مِن الرَجْعِ إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به حيث قالوا: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، وهو الذي أرادوه بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ مع نوعِ استبعادٍ له واستشعار يأسٍ منه، لا أنّهم قالوهُ بطريق القنوط البحت كما قيل.[2]

ولا ريب في أنّ الذي كانوا ينكرونه ويفرّعون عليه فنون الكفر والمعاصي ليس إلّا الإحياءَ بعد الموت، وأمّا الإحياء الأوّل فلم يكونوا ينكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أنّ الاعتراف به يُجديهم نفعًا، وإنّما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقّف حياة القبر عليها، وكذا حال الموتة في القبر، فإنّ مقصدهم الأصلي هو الاعتراف بالإحياءين، وإنّما ذكروا الإماتتين لترتيبهما عليهما ذِكرًا حسب ترتّبهما عليهما وجودًا.

وتنكيرُ ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي: مِن سبيلٍ مّا كيفما كان.

---

[1] وفي هامش م: بناء على أنّ لفظ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ نصّ في مدلوله. «منه». | قال الزمخشري: «ومَن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزِمَه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلّا أن يتَمحّل فيجعل إحداها غيرَ معتدّ بها، أو يزعم أنّ الله تعالى يُحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها». الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾... إلخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها مِن أعمالهم السيّئة، أي: ذلكم الذي أنتم فيه مِن العذاب مطلقًا -لا مقيّدًا بالخلود كما قيل-[1] ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسبب أنّ الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي: عُبِد ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ أي: منفردًا ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ أي: بتوحيده، ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ / أي: بالإشراك به وتَسارعوا فيه. [٢٣ظ]

وفي إيراد ﴿إِذَا﴾ وصيغةِ الماضي في الشرطيّة الأُولى و﴿إِن﴾ وصيغةِ المضارعِ في الثانية ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال سوء حالهم.

وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلّا بالحقّ، ولا يقضي إلّا بما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مُعقِب لحُكمه، وقد حكَم بأنّه لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته، كما لا نهاية لشَناعته، فلا سبيل لكم إلى الخروج أبدًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرُّده بالألوهيّة لتستدلّوا بها على ذلك، وتعملوا بموجَبها فتوحِّدوه تعالى، وتَخُصُّوه بالعبادة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد. وقُرئ بالتخفيف[2] مِن الإنزال. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ أي: سببَ رزق، وهو المطر، وإفرادُه بالذكر مع كونه مِن جملة الآيات الدالّة على كمال قدرته تعالى لتفرُّده بعنوان كونه مِن آثار رحمته وجلائل نعمته المُوجبة للشكر. وصيغة المضارعِ في الفعلين للدلالة على تجدّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة.

---

[1] انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٧.

[2] أي: "وَيُنْزِلُ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة ولا يَعمل بمقتضاها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، ويتفكّر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته مِن شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَن ليس كذلك فهو بمَعزِل مِن التذكّر والاتّعاظ.

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١٤﴾

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر مِن اختصاص التذكّر بمَن ينيب فاعبدوه أيّها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجَب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ذلك وغاظَهم إخلاصُكم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ نحو: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [البقرة، ١١٧/٢] على أنّه صفة مشبَّهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فَعُل بالضمّ كما هو المشهور -وتفسيره بـ"الرافع" ليكون مِن إضافة اسم الفاعل إلى المفعول[١] بعيدٌ في الاستعمال- أي: رفيع درجات ملائكتِه، / أي: معارِجهم ومصاعدِهم إلى العرش. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مالكه. [٢٤و]

وهما خبران آخران لقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾،[٢] أُخبِر عنه بهما إيذانًا بعلوّ شأنه تعالى وعِظَم سلطانه الموجِبَين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له، إمّا بطريق الاستشهاد بهما عليهما، فإنّ ارتفاع معارج ملائكته إلى العرشِ وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضةِ قدرته ممّا يَقْضِي بكونِ علوّ شأنه وعِظَم سلطانه في غايةٍ لا غايةَ وراءها. وإمّا بجعلهما عبارةً عنهما بطريق المجاز المتفرّعِ على الكناية، كالاستواء على العرش. وتمهيدًا[٣] لِمَا يعقُبهما مِن قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، فإنّه خبر آخر لِما ذكر،

---

١ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٣/٩؛ وتفسير القرطبي، ٢٩٩/١٥.

٢ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الآيةَ [غافر، ١٣/٤٠].

٣ وفي هامش م: عطفٌ على "إيذانًا". «منه».

مُنبئ عن إنزال الرزق الروحاني الذي هو الوحي بعد بيان إنزال[١] الرزق الجسماني الذي هو المطر، أي: ينزل الوحي الجاري مِن القلوب منزلةَ الروح مِن الأجساد.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان لـ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الذي أريد به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدِئًا مِن أمره، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الروح الكائن مِن أمره، أو متعلّق بـ﴿يُلْقِى﴾، و﴿مِنْ﴾ للسببيّةِ كالباء، مثلَ ما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح، ٢٥/٧١]، أي: يُلقي الوحي بسبب أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو الملقَى عليه، أو الروح. وقُرئ: "لِتُنْذِرَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الرسول عليه السلام، أو الروحُ؛ لأنّها قد تؤنّث. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمّا ظرف للمفعول الثاني، أي: لِيُنذر الناس العذابَ يومَ التلاقي، وهو يوم القيامة؛ لأنّه يتلاقى فيه الأرواح والأجساد وأهل السماوات والأرض. أو هو المفعول الثاني اتّساعًا أو أصالةً، فإنّه مِن شدّة هَوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالةً. وقُرئ: "لِيُنْذَرَ" على البناء للمفعول ورفعِ "اليوم".[٣]

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

[٢٤ظ] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾،[٤] أي: خارجون مِن قبورهم، / أو ظاهرون لا يسترهم شيء مِن جبل أو أَكَمةٍ أو بناءٍ، لكون الأرض يومئذ قاعًا صفصفًا، ولا عليهم ثياب، إنّما هم عُراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عُراةً حُفاةً غُرْلًا».[٥] وقيل: ظاهرةٌ نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالُهم وسرائرُهم.

---

١ م س - إنزال ["صح" في هامش م س].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن واليماني. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ في الآية السابقة.

٥ صحيح البخاري، ١٦٨/٤ (٣٤٤٧)؛ صحيح مسلم، ٢١٩٤/٤ (٢٨٦٠). | "غُرْلًا" -بضمّ الغين المعجمة وإسكان الراء- معناه: غير مختونين. شرح صحيح مسلم للنووي، ١٩٣/١٧.

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ استئناف لبيان بُروزهم، وتقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يتوهّمه المتوهِّمون في الدنيا مِن الاستتار توهّمًا باطلًا، أو خبر ثانٍ. وقيل: حال مِن ضمير ﴿بَٰرِزُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه تعالى شيءٌ مّا مِن أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجليّة والخفيّة السابقةِ واللّاحِقة.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ حكاية لِما يقع حينئذ مِن السؤال والجواب بتقدير قولٍ معطوف على ما قبله مِن الجملة المَنفيّة المستأنَفة، أو مستأنَف يقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية بروزهم وظهور أحوالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يُقال... إلخ، أي: ينادي منادٍ: لمَن المُلك اليوم؟ فيُجيبه أهل المَحشر: لله الواحد القهّار.

وقيل: المجيب هو السائل بعينه، لما رُوي أنّه يَجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء، كأنّها سبيكة فضّة، لم يُعصَ اللهُ فيها قطُّ،[1] فأوّلُ ما يتكلّم به أن ينادِيَ منادٍ: لمَن الملك اليومَ؟ لله الواحد القهّار.[2]

وقيل: هي حكايةٌ لِما يَنطق به لسان الحال مِن تقطُّع أسباب التصرّفات المجازيّة، واختصاص جميع الأفاعيل بقَبضة القدرة الإلهيّة.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾... إلخ إمّا مِن تتمّة الجواب لبيان حكم اختصاص المُلك به تعالى ونتيجتِه التي هي الحُكم السَّويّ والقضاء بالحقّ، أو حكايةٌ لِما سيقوله تعالى يومئذ عَقيب السؤال والجواب، أي: تُجزَى كلُّ نفس مِن النفوس البَرّة والفاجرة بما كسبت مِن خير أو شرّ.

﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: سريعٌ حسابُه تمامًا؛ إذ لا يشغله تعالى[3] شأن عن شأن، فيحاسِب الخلائق قاطبةً في أقرب زمان، كما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / أنّه تعالى إذا أخذ [٢٥و]

---

[1] س – قطّ.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٤. وهو في الزهد والرقائق لابن المبارك، ١١٥/٢.

[3] س – تعالى.

في حسابهم لم يَقِلْ[١] أهلُ الجنّة إلّا فيها ولا أهلُ النار إلّا فيها.[٢] فيكون تعليلًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾... إلخ، فإنّ كون ذلك اليوم بعينه يومَ التلاقي ويومَ البُروز ربّما يوهِم استبعادَ وقوعِ الكلّ فيه. أو سريعٌ[٣] مَجيئًا، فيكون تعليلًا للإنذار.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: القيامة. سمّيت بها لأُزُوفِها؛ وهو القُرْب، غيرَ أنّ فيه إشعارًا بضيق الوقت. وقيل: الخُطّةِ الآزفةِ؛ وهي مشارفة أهل النار دخولَها. وقيل: وقتَ حضور الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة، ٨٣/٥٦]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ [القيامة، ٢٦/٧٥].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾، فإنّها ترتفع مِن أماكنها، فتلتصق بحُلوقهم، فلا تعود فيَتروَّحوا، ولا تَخرجُ فيَستريحوا بالموت. ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ على الغمّ، حال مِن أصحاب ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ على المعنى؛ إذ الأصل: قلوبُهم، أو مِن ضميرها في الظرف. وجمع السلامة باعتبار أنّ الكَظْم مِن أحوال العقلاء، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤/٢٦]، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ على أنها حال مقدَّرة، أي: أنذرهم مُقَدَّرًا كَظْمُهم، أو مُشارفين الكَظْم.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مُشفِق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: لا شفيعٍ مُشفَّع،[٤] على معنى نفي الشفاعة والطاعة معًا، على طريقة قوله:

على لَاحِبٍ لا يُهتَدَى بمَنارِهِ[٥]

---

[١] مِن القيلولة؛ وهي النوم في الظهيرة. انظر: **الصِّحاح** للجوهري، «قيل».

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٧/٤. وفي **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٨/٣، عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم: «لا ينتصف النهار مِن يوم القيامة حتّى يَقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار». وهو في **جامع البيان** للطبري، ٥٥٦/١٩ (الصافات، ٦٨/٣٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[٣] السياق: أي: سريعٌ حسابُه... أو سريعٌ مَجيئًا...

[٤] وفي هامش م: والجملة حال أخرى. «منه».

[٥] تمامه:

إذا سافَهُ العَودُ النباطيُّ جَرْجرا

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٦٦. وقوله: "على لاحِب" أي: على طريق واضح. وسافه: شمّه. والعَود: البعير الهرم. والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنّما يُجرجر في الطريق إذا شمّه، لِما يعرف مِن شدّته وصعوبة مَسلكه. انظر: **أمالي ابن الشجري**، ٢٩٩/١.

والضمائر إن عادت إلى الكفّار -وهو الظاهر- فوضعُ ﴿الظَّٰلِمِينَ﴾ مَوضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم، وتعليلِ الحكم به.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة الثانية إلى غير المَحرم، واستراقِ النظر إليه، أو خيانةَ الأعين على أنّها مصدر كالعافية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضمائر والأسرار. والجملة خبر آخر -مثل: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾-[1] للدلالة على أنّه ما مِن خفيّ إلّا وهو متعلَّقُ العِلم والجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنّه المالك الحاكم / على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلّا وهو حقّ وعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ تهكُّم بهم؛ لأنّ الجماد لا يقال في حقّه: يَقضي أوْ لا يَقضي. وقُرئ: "تَدْعُونَ" على الخطاب[2] التِفاتًا، أو على إضمار "قل". [٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعيُن، وقضائِه بالحقّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحال ما يدعون مِن دونه تعالى.[3]

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: مآل حال مَن قبلَهم مِن الأُمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمودَ وأضرابِهم.

﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكّنًا مِن التصرّفات. وإنّما جيء بضمير الفصل -مع أنّ حقّه التوسّط بين معرفتين- لمضاهاة "أفعلَ مِنْ" للمعرفة في امتناعِ

---

١ غافر، ١٥/٤٠.

٢ قرأ بها نافع وابن عامر بخُلف عن ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

٣ س - تعالى.

دخول اللام عليه. وقُرئ: "أَشَدَّ مِنكُمْ" بالكاف.[١] ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثل: القِلاع الحصينة، والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثرَ آثارًا، كقوله:

متقلِّدًا سيفًا ورُمحًا[٢]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذًا وَبيلًا[٣] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مِن واقٍ يقيهم عذابَ الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بالأحكام الظاهرة، ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ متمكِّن ممّا يريد غايةَ التمكّن، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ عند عقابه بعقاب.[٤]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وحجّة قاهرة، وهي إمّا عين الآياتِ والعطفُ لتغاير العنوانين، وإمّا بعض مشاهيرها كالعصا، أُفردَت بالذِكر مع اندراجها تحت الآيات لإنافتها إفرادَ جبريل وميكال به مع دخولِهما في الملائكة عليهم السلام.[٥]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: فيما أظهره مِن المعجزات، وفيما ادّعاه مِن رسالة ربّ العالمين.

---

١ قرأ بها ابن عامر، وكذا هو في المصحف الشامي. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

٢ صدره:

يا ليت زوجَك قد غدا

وهو بغير نسبة في الصِّحاح للجوهري، «قلد»؛ ولسان العرب لابن منظور، «قلد».

٣ مِن قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل، ١٦/٧٣]. وسيأتي في تفسير سورة المزّمّل: الوَبيل: الثقيل الغليظ، مِن قولِهم: "كلأٌ وَبيلٌ" أي: وَخيم.

٤ وفي هامش م: يقال: لا يُؤبَهُ بِهِ، ولا يُؤبَهُ له، أي: لا يُبالَى به. «منه».

٥ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝٢٥﴾

/ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وهو ما ظهر على يده مِن المعجزات القاهرة ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أوّلًا. وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بُعِث عليه السلامُ وأحسّ بأنّه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظًا وحنَقًا وزغمًا منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منهم أنّه المولود الذي حكم المُنجِّمون والكهَنةُ بذهاب مُلكهم على يده. [٢٦و]

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلان لا يغني عنهم شيئًا، ويَنفُذ عليهم لا محالة القَدَرُ المقدورُ والقضاءُ المحتومُ. واللام إمّا للعهد، والإظهارُ في موقعِ الإضمار لِذمِّهم بالكفر والإشعارِ بعلّة الحكم، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حُكي عنهم مِن الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه مِن الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٦﴾

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ كان مَلَؤُه إذا همّ بقتله عليه السلام كفُّوه بقولهم: ليس هذا بالذي تخافه، فإنّه أقلّ مِن ذلك وأضعف، وما هو إلّا بعض السحَرة، وبقولهم: إذا قتلتَه أدخلتَ على الناس شبهةً، واعتقدوا أنّك عجزت عن معارضته بالحُجّة، وعدَلت إلى المقارعة بالسيف.

والظاهر مِن دهاء اللعين ونكارَته أنّه كان قد استيقن أنّه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ باهرة، وما هو بسحرٍ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجَل بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهًا على قومه وإيهامًا أنّهم هم الكافّون له عن قتله، ولولاهم لَقتله،

وما كان الذي يكفّه إلّا ما في نفسه مِن الفزع الهائل، وقولُه: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تَجلُّد منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنّه أَخْوفُ ما يخافه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ أي: يُغيّر ما أنتم عليه مِن الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادةِ الأصنام لتُقرّبهم إليه، ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ / ٱلۡفَسَادَ﴾ ما يفسدِ دنياكم مِن التحارُب والتهارُجِ إن لم يقدِر على تبديل دينكم بالكلّيّة. وقُرئ بالواو الجامعة.[1] وقُرئ بفتحِ الياء والهاء ورفع ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾.[2] وقُرئ: "يَظَّهَّرَ" بتشديد الظاء والهاء،[3] مِن "تَظَهَّر" بمعنى "تظاهَر"، أي: تتابَع وتعاوَن. [٢٦ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومه حين سمع بمَا تَقوَّله اللعين مِن حديث قتله عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ صدَّر عليه السلام كلامه بـ"إنّ" تأكيدًا لَه وإظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه وفرطِ الرغبة فيه. وخصّ اسم الربّ المُنبئ عن الحفظ والتربية لأنّهما الذي يستدعيه، وأَضافَهُ إليه وإليهم حثًّا لهم على موافقته في العياذ به تعالى والتوكّل عليه، فإنّ في تظاهر النفوس تأثيرًا قويًّا في استجلاب الإجابة، ولم يسمِّ فرعون؛ بل ذكَرَه بوصفٍ يعمّه وغيره مِن الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعِلّة القساوة والجُرأة على الله تعالى. وقُرئ: "عُذتُّ"[4] بالإدغام.[5]

﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾

---

١ أي: "وَأَن يُظهِرَ" بدَل ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ﴾. قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

٢ أي: "يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ". قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ في الأصول الخطّيّة: "عدت" بالدال، لعلّ ذلك إشارةً إلى قَلبها عند الإدغام، إلّا أنّها عند الإدغام تُقلب تاءً، وليس دالًا.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ١٦/٢.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قِبطيًا ابنَ عمّ لفرعون آمَن بموسى سرًّا، وقيل: كان إسرائيليًا، أو غريبًا، موحِّدًا ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ أي: مِن فرعون ومَلَئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتلَه؟ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لِأَن يقولَ، أو كراهةَ أن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير رَويّة وتأمّلٍ في أمره، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحال أنّه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها وعهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذكر البيّنات احتجاجًا عليهم واستنزالًا لهم عن رتبة المكابرة.

ثمّ أخذهم بالاحتجاجِ مِن باب الاحتياط، فقال: ﴿وَإِن[1] يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كذِبه فيُحتاجَ في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يصبكم كلُّه فلا أقلّ مِن إصابة بعضه، لا سيّما إن تعرّضتم له بسُوءٍ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف / وعدم التعصّب، [٢٧و] ولذلك قدَّم مِن شِقَّي الترديد كونَه كاذبًا. أو يُصِبْكم ما يعدكم مِن عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم، كأنّه خوّفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم. وتفسير "البعض" بالكلّ مستدِلًّا[2] بقول لَبيد:

تَــرّاك أمكـنَـةٍ إذا لـم أرضَـهـا أو يرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حمامُها[3]

مردود[4] لِما أنّ مراده بـ"البعض" نفسُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وَجهين:

أحدهما: أنّه لو كان مُسرفًا كذّابًا لَما هداه الله إلى البيّنات، ولَما أيّده بتلك المعجزات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذَله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

---

[1] م س ي: "فإن".

[2] قال ذلك أبو عبيدة مَعمر بن المثنّى في مجاز القرآن، ٢٠٥/٢. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٣/٤.

[3] ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١١٣. قال الزوزني: «يقول: إنّي ترّاك أماكن إذا لم أرضها إلّا أن يرتبط نفسي حمامها فلا يمكنها البَراح، وأراد بـ"بعض النفوس" هنا نفسَه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل "بعض النفوس" بمعنى: كلّ النفوس؛ فقد أخطأ؛ لأنّ بعضًا لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن التي أجتويها وأقلوها إلّا أن أموت». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ١٩٣.

[4] السياق: وتفسير "البعض" بالكلّ... مردود.

ولعلَّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأوّل لِتَلين شكيمتُهم. وقد عرّض به لفرعون بأنّه مُسرف كذّاب، لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرضِ مِصر، لا يُقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم، ولا تتعرّضوا لِبأس الله بقتله، فإنّه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنّما نسبَ ما يَسرُّهم مِن المُلك والظهور في الأرض إليهم خاصّة ونظَم نفسه في سِلكهم فيما يَسُوءُهم مِن مجيء بأس الله تعالى تطييبًا لقلوبهم، وإيذانًا بأنّه مناصح لهم ساعٍ في تحصيل ما يُجديهم ودفع ما يُرْديهم سعْيَه في حقّ نفسه ليتأثّروا بنُصحه.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ بعدما سمع نصحه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾ أي: ما أُشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَستصوبه مِن قتله، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: الصواب. أو لا أُعلِمكم إلّا ما أَعلم، ولا أُسِرّ عنكم خلافَ ما أُظهِره. ولقد كذَب حيث كان مستشعِرًا للخَوف الشديد، ولكنّه كان يَتجلَّد، ولولاه لَما استشار أحدًا أبدًا.

وقُرِئ بتشديد الشين[1] للمبالغة مِن "رَشِد" كـ"عَلّام"، أو مِن "رَشَد" كـ"عبّاد"، لا مِن "أرشَد" كـ"جَبّار" مِن "أجبَر"؛ لأنّه مقصور على السماع، أو للنسبة إلى الرُّشد كـ"عَوّاج" و"بَتّاتٍ" غيرَ منظور فيه إلى فعلٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مخاطبًا لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في تكذيبه والتعرّض له بالسوء[2] ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مثلَ أيّام الأمم الماضية، يعني: وقائعهم. وجَمعُ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مع التفسير أغنى عن جمع "اليوم".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

[2] س: بسوء.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

/ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاء ما كانوا عليه مِن الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلّي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت، ٤١/٤٦]، لِما أنّ المنفيّ فيه إرادةُ ظلمٍ مّا، فينتفي الظلم بطريق الأولويّة. [٢٧ظ]

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ[١] إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي. و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه ينادي فيه بعضهم للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحابُ الجنّة وأصحاب النار حسبما حُكي في سورة الأعراف.[٢] وقُرِئ بتشديد الدال،[٣] وهو أن يَنِدَّ[٤] بعضهم مِن بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس، ٨٠/٣٤]. وعنِ الضحّاك: «إذا سمعوا زفير النار نَدُّوا هرَبًا، فلا يأتون قُطرًا مِن الأقطار إلّا وجدوا ملائكةً صفوفًا، فبينا هم يموج بعضهم في بعضٍ إذ سمعوا مناديًا: أقبِلوا إلى الحساب».[٥]

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾،[٦] أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارّين منها حسبما نُقل آنفًا.[٧] ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم مِن عذابه. والجملة حال أخرى مِن ضمير ﴿تُوَلُّونَ﴾.

---

[١] م س ي: يا قوم.

[٢] وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾... الآيات [الأعراف، ٧/٥٠].

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والكلبي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

[٤] مِن نَدَّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادًا ونُدودًا: نفَرَ وذهب على وجهه شاردًا. انظر: الصّحاح للجوهري، «ندد».

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٥. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٧٥؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/١١.

[٦] في الآية السابقة.

[٧] على قراءة التشديد في الدال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أنّ فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد. وقيل: سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدّيق. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ مِن الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَن بعده، أو جزمًا بأن لا يُبعث بعدَه رسول مع الشكّ في رسالته. وقُرئ: "أَلَن يَبْعَثَ اللهُ"[1] على أنّ بعضهم يقرّر بعضًا بنفي البعث.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما يشهد به / البينات لِغلبة الوهم والانهماك في التقليد. [٢٨و]

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو بيان له، أو صفة باعتبار معناه، كأنّه قيل: كلُّ مُسرِفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، أي: بغير حجّة صالحة للتمسّك بها في الجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةُ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضرب مِن التعجّب والاستعظام. وفي ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾،[2] وتذكيره باعتبار اللفظ. وقيل: إلى الجدال المستفاد مِن ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: تفسير السمعاني، ١٩/٥.

[2] في الآية السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذُكر مِن الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل. وقُرئ بتنوينِ "قَلْبٍ".[١] ووصفُه بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفًا عاليًا، مِن "صرّح الشيءُ" إذا ظَهر. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي: الطرق.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها. وفي إبهامها ثمّ إيضاحِها تفخيم لشأنها، وتشويق للسامع إلى معرفتها، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جواب الترجّي. وقُرئ بالرفع[٢] عطفًا على ﴿أَبْلُغُ﴾.

ولعلّه أراد أن يبني له رصَدًا في موضع عالٍ ليَرصُد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماويّة تدلّ على الحوادث الأرضيّة، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إيّاه؟ أو أن يُرِيَ فساد قوله عليه السلام بأنّ إخباره مِن إله السماء يتوقّف على اطّلاعه عليه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتّى إلّا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه الإنسان، وما ذاك إلّا لجهله بالله سبحانه، وكيفيّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التزيين البليغ المُفرط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه انهماكًا لا يَرعوي عنه / بحالٍ، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: [٢٨ظ]
سبيل الرشاد. والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، ويُؤيّده قراءة "زَيَّنَ" بالفتح،[٣]

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

وبالتوسّط الشيطانُ. وقُرئ: "وَصَدٌّ"،[١] على أنّ فرعون صَدّ الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشُّبُهَات، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وهلاك، أو على أنّه مِن "صَدَّ صدودًا"، أي: أعرَض. وقُرئ بكسر الصاد[٢] على نقل حركة الدال إليه. وقُرئ: "وَصَدٌّ"[٣] على أنّه عطفٌ على ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقُرئ: "وَصُدُّوا"،[٤] أي: هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أي: مؤمن آل فرعونَ. وقيل: موسى عليه السلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلتُكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: سبيلًا يصِل سالكه إلى المقصود. وفيه تعريض بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّع يسير لسرعة زوالها. أجملَ لَهم أوّلًا ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها رأس كلّ شرّ، ومنه يتشعّب فنون ما يؤدّي إلى سَخط الله تعالى، ثمّ ثنّى بتعظيم الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن الله سبحانه. وفيه دليل على أنّ الجنايات تُغرَم بأمثالها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٢ أي: "وَصِدٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن أبي بَكرة وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل؛ بل أضعافًا مضاعفة فضلًا مِن الله عزّ وجلّ ورحمةً. وجعلُ العملِ عمدةً والإيمانِ حالًا للإيذان بأنّه لا عبرة بالعمل بدونِه، وأنّ ثوابه أعلَى مِن ذلك.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرّر نداءهم إيقاظًا لهم عن سِنة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصحه. ومدار التعجّب الذي يُلوِّحُ به الاستفهامُ دعوتُهم إيّاه إلى النار، لا دعوتُه إيّاهم إلى النجاة، كأنّه قيل: أخبروني كيف هذه الحال؟ / أدعوكم إلى الخير، وتدعونني إلى الشرّ. وقد جعلَه بعضهم مِن قَبيل "ما لي أراك حزينًا؟"، أي: ما لك تكون حزينًا. [٢٩و]

وقوله تعالى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل. والدعاء كالهداية في التعدية بـ"إلى" واللام. ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ﴾ بشركته له تعالى في المعبوديّة، وقيل: بربوبيّته ﴿عِلۡمٞ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأنّ الألوهيّة لا بدّ لها مِن برهان موجِب للعلم بها.

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الجامع لجميع صفات الألوهيّة مِن كمال القدرة والغلبة، وما يتوقّف عليه مِن العِلم والإرادة، والتمكّنِ مِن المُجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿لَا﴾ رَدٌّ لِما دعَوه إليه، و﴿جَرَمَ﴾ فعل ماضٍ بمعنى "حَقَّ"، وفاعلُه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: حقَّ ووَجَب عدمُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلًا، أو عدمُ دعوة مستجابة، أو عدمُ استجابة دعوة لها. وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى "كسَب"، وفاعله مستكِنّ فيه، أي: كسَب ذلك الدعاءُ إليه بطلانَ دعوته، بمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ بطلان دعوته.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ مِن الجَرْم وهو القطع، كما أنَّ "بُدًّا" مِن "لا بُدَّ" فُعْلٌ مِنَ التبديد، أي: التفريق، والمعنى: لا قطعَ لبطلان ألوهيّة الأصنام، أي: لا ينقطع في وقتٍ مّا فينقلِبَ حقًّا، ويؤيّده قولهم: "لا جُرْم أنّه يفعل" بضمّ الجيم وسكون الراء. وفُعْلٌ وفَعَلٌ أخوان، كرُشْد ورَشَدٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: بالموت، عطف على ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي﴾، داخل في حكمه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرئ: "فَسَتُذَكِّرُونَ"،[1] أي: فسيُذكِّر بعضكم بعضًا عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النصائح، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / قالَه لِما أنّهم كانوا توعّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرُس مَن يَلوذ به مِن المكاره. [٢٩ظ]

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مَكرهم وما همّوا به مِن إلحاق أنواع العذاب بمَن خالفهم. قيل: نَجا مع موسى عليه السلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعون وقومه، وعدمُ التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذِكره ضرورةَ أنّه أَولى منهم بذلك. وقيل: بِطَلَبَةِ المؤمن مِن قومه، لِما أنّه فرّ إلى جبل فاتّبعه طائفة ليأخذوه، فوجدوه يصلّي والوحوشُ صفوفٌ حولَه، فرجعوا رُعبًا، فقتلَهم فرعون. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق والقتل والنار.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان كيفيّة سوء العذاب. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل:

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

هو النار، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ استئناف للبيان. أو بدل[١] مِن ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ حال منها، أو مِن "الآل". ولا يُشترط في الحَيْق أن يكونَ الحائق ذلك السوءَ بعينه حتّى يَرِدَ أنّ آلَ فرعونَ لم يهمّوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها مِن قَبيل رجوعِ ما همّوا به عليهم؛ بل يكفي في ذلك أن يكون[٢] ممّا يُطلَق عليه اسم السوء.

وقُرئت منصوبة[٣] على الاختصاص، أو بإضمار فِعل يفسّره ﴿يُعْرَضُونَ﴾، مثل: يَصْلَوْنَ، فإنّ عَرْضهم على النار بإحراقهم بها، مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف إذا قُتِلوا به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: «أنّ أرواحهم في أجواف طيرٍ سُودٍ تُعرض على النار بُكرةً وعَشِيًّا إلى يوم القيامة».[٤] وذِكر الوقتين إمّا للتخصيص، وإمّا فيما بينهما، فالله تعالى أعلم بحالهم، وإمّا للتأبيد، هذا ما دامت الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذابَ جهنّم، فإنّه أشدّ ممّا كانوا فيه، أو أشدَّ عذاب جهنّم، فإنّ عذابها ألوان، بعضها أشدّ مِن بعض. وقرئ: "ادْخُلوا"[٥] مِن الدخول، أي: يقال لهم: ادخُلوا يا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: واذكر لقومك وقتَ تخاصمهم فيها، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتْباعًا، كـ"خَدَم" في جمعِ خادم، أو ذَوِي تَبَعٍ، أي: اتّباعٍ، على إضمار المضاف، أو تَبَعًا

---

١ السياق: أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر... أو بدل...

٢ وفي هامش م: أي: الحائق. «منه».

٣ أي: "النّارَ". قراءة شاذّة، جوّزها الكرماني ولم يذكر قارئًا لها. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٣/١٧. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٣٣٨/٢٠، عن السدّي.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

[٣٠و] على الوصف / بالمصدر مبالغةً، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع أو بالحمل، و﴿نَصِيبًا﴾ منصوب بمضمر يدلّ عليه ﴿مُّغْنُونَ﴾، أي: دافعون عنّا نصيبًا... إلخ، أو بـ﴿مُّغْنُونَ﴾ على تضمينه معنى الحمل، أي: مغنون عنّا حاملين نصيبًا... إلخ، أو نصب على المصدريّة كـ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ٣/١٠]، فإنّه في موقع "غِنًى"، فكذلك ﴿نَصِيبًا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. وقُرِئ: "كُلًّا"[١] على التأكيد لاسم "إنّ"، بمعنى "كُلَّنا". وتنوينُه عوض عن المضاف إليه، ولا مساغَ لجَعله حالًا مِن المستكِنّ في الظرف، فإنّه لا يعمل في الحال المتقدّمة كما يعمل في الظرف المتقدّم، فإنّك تقول: كلَّ يوم لك ثوب، ولا تقول: جديدًا لك ثوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ وقضى قضاءً مُتقنًا لا مردّ له، ولا معقِّبَ لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ مِن الضعفاء والمستكبرين جميعًا لمّا ضاقت حِيَلُهم وعيَّتْ بهم عِلَلُهم ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقُوّام بتعذيب أهل النار. ووضع ﴿جَهَنَّمَ﴾ موضع الضمير للتهويل والتفظيع، أو لبيان محلِّهم فيها بأن تكون جهنّم أبعدَ دركات النار، وفيها أعتى الكفَرة وأطغاهم، أو لكون الملائكة الموكَّلينَ بعذاب أهلها أقدرَ على الشفاعة لمزيد قربهم مِن الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم، أو في يوم مّا مِن الأيّام، على أنّه ظرف لا معيارٌ، شيئًا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ واقتصارُهم في الاستدعاء على ما ذُكر مِن تخفيف قَدر يسير مِن العذاب في مقدار قصير مِن الزمان دون رفعه رأسًا، أو تخفيفِ قَدر كثير منه في زمان مديد؛ لأنّ ذلك عندهم ممّا ليس في حيّز الإمكان، ولا يكاد يدخل تحت أمانيّهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزَنة ﴿أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ألم تُنبَّهوا على هذا؟ ولم تكُ تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحججِ الواضحة الدالّة على سُوء مَغَبَّةِ ما كنتم عليه مِن الكفر والمعاصي؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الزمر، ٧١/٣٩]، أرادوا بذلكَ إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أتَوْنَا بها فكذَّبناهم، / كما نطق به قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك، ٩/٦٧]. والفاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ فصيحة، كما في قول مَن قال: [٣٠ظ]

فـــقـــد جِـــئـــنـــا خُـــراســـانـــا[١]

أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنّ الدعاء لمَن يفعل ذلك ممّا يستحيل صدوره عنّا، وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه -مع عَرائه عن بيان أنّ سببه مِن قِبَلِهم كما يُفصح عنه الفاء- ربّما يوهم أنّ الإذن في حيّز الإمكان، وأنّهم لو أُذِن لهم فيه لفعلوا. ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعَهم في الإجابة؛ بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيبتهم حسبما صرّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: ضياعٍ وبطلانٍ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق مِن جهته تعالى لبيان أنّ ما أصاب الكفَرة مِن العذاب المحكي مِن فروعِ حُكم كلّي

---

[١] تمامه:

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا
ثـمّ القفولُ فقد جئنا خُراسانا

وهو للعبّاس بن الأحنف حين خرج مع الرشيد إلى خراسان، وهو في ديوانه، ص ٢٧٩. | قال ابن الأثير: «وحقيقتها [أي: "الفاء" في "فقد"] أنّها في جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام، كأنّه قال: إن صحّ ما قلتم: إنّ خراسان أقصى ما يُراد بنا، فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص». المثل السائر لابن الأثير، ٢٤٩/٢.

يقتضيه الحكمة، وهو أنّ شأننا المستمرّ أنّا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجّة والظفر والانتقام لهم مِن الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك مِن العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم مِن صورة الغلبة امتحانًا؛ إذِ العبرة إنّما هي[1] بِالعواقبِ وغالب الأمر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة. عُبّر عنه بذلك للإشعار بكيفيّة النصرة، وأنّها تكون عند جمع الأوّلين والآخِرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل مِن الأوّل، وعدمُ نفعِ المعذرة لأنّها باطلة. وقُرئ: "لَا تَنْفَعُ" بالتاء.[2] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدَى به مِن المعجزات والصحف والشرائع، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركنا عليهم مِن بعده التوراة.

[٣١و] ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هداية وتذكرة، أو هاديًا ومذكِّرًا / ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما نالك مِن أذيّة المشركين، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. أو وعدَه الخاصّ بكَ،

---

[1] س – إنّما هي.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

أو جميعَ مواعيده التي مِن جملتها ذلك ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلًا، واستشهد بحال موسى وفرعون.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تداركًا لِما فرَط منك مِن ترك الأَولى في بعض الأحايين، فإنّه تعالى كافيك في نصرة دينك وإظهارِه على الدّين كلِّه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ أي: ودُم على التسبيح ملتبِسًا بحمده تعالى. وقيل: صلِّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكّة ركعتين بُكرة وركعتين عَشِيًّا. وقيل: صلِّ شُكرًا لِربّكَ بالعَشِيّ والإبكار. وقيل: هما صلاة العصر وصلاة الفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٥٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحدون بها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ في ذلك مِن جهته تعالى. وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأنّ التكلّم في أمر الدين لا بدّ مِن استناده إلى سلطان مبين البتّةَ، وهذا عامّ لكلّ مجادِل مبطلٍ، وإن نزل في مشركي مكّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: ما فِي قلوبهم إلّا تكبّر عن الحقّ وتعظّم عن التفكّر والتعلّم، أو إلّا إرادةُ الرياسة والتقدّم على الإطلاق، أو إلّا إرادةُ أن يكون النبوّة لهم دونك حسدًا وبغيًا حسبما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، ولذلك يجادلون فيها، لا أنّ فيها موقعَ جدالٍ مّا، أو أنّ لهم شيئًا يُتوهّم أن يصلح مدارًا لِمُجادلتهم في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾. قال مجاهد: «ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه مِن الرياسة / أو النبوّة». وقيل: المجادلون [٣١ظ] هم اليهود، وكانوا يقولون: «لست صاحبَنا المذكور في التوراة؛ بل هو المسيح بن داود -يريدون الدجّال- يخرج في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه البرّ والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية مِن آيات الله تعالى، فيرجع إلينا المُلك». فسمّى الله تعالى تمنّيهم ذلك كِبرًا، ونفى أن يبلغوا مُتمنّاهم.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالتجئ إليه مِن كيد مَن يحسدك ويبغي عليك، وفيه رمز إلى أنّه مِن همزات الشياطين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحقّ، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه مِن أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقصورهم في النظر والتأمّل لفرط غفلتهم واتّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أي: والمحسِن والمسيء، فلا بدّ أن يكون لهم حال أُخرى يظهر فيها ما بين الفريقين مِن التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادةِ، لا في المسيء، لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة، ولأنّ المقصود نفي مساواته للمُحسن فيما له مِن الفضل والكرامة، والعاطفُ الثاني عَطف الموصول بما عُطف عليه على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات، أي: تذكّرًا قليلًا تَتذَكّرون. وقُرئ على الغيبة،[1] والضمير للناس أو الكفّار.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها لوضوحِ شواهدها وإجماعِ الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٦٥/٢.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ أي: اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أُثِبْكم، لقوله
تعالى: / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين [٣٢و]
أذِلّاء، وإن فسّر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارِف عنه منزّلًا منزلةَ الاستكبار عن العبادة للمبالغة، أو المرادُ بالعبادة الدعاء، فإنّه مِن أفضل أبوابها. وقُرئ: "سَيُدْخَلُونَ"[١] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن الإدخال.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بأن خلَقه باردًا مُظلِمًا ليُؤدّيَ إلى ضَعف المحرّكات وهُدُوءِ الحواسّ لتستريحوا فيه. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول قد مرّ سرّه مرارًا. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُبْصَرًا فيه أو بِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ لا يوازيه ولا يدانيه فضل. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمُنعِم، وإغفالِهم مواضع النعم، وتكريرُ الناس لتخصيص الكُفران بهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتفرّد بالأفعال المقتضية للألوهيّة والربوبيّة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصّص اللّاحقةُ منها السابقةَ وتُقرِّرها. وقُرئ: "خَالِقَ" بالنصب[٢] على الاختصاص، فيكون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف ومِن أيِّ وجه تُصرَفون عن عبادته خاصّةً إلى عبادة غيره؟

﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحِّح أصلًا يُؤفَك كلُّ مَن جحد بآياته تعالى أيَّ آية كانت، لا إفكًا آخر له وجهٌ ومصحِّح في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ بيان لفضله تعالى المتعلِّق بالمكان بعد بيان فضله المتعلِّق بالزمان. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ بيان لفضله المتعلِّق بأنفسهم، والفاء في ﴿فَأَحۡسَنَ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإحسان عين التصوير، أي: صوّركم أحسنَ تصوير حيث خلَقكم منتصبَ القامة، باديَ البشرة،[1] متناسبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيّئًا لمُزاولة الصنائعِ واكتساب الكمالات.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعت بما ذُكر مِن [٣٢ظ] / النعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ خبران لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى بذاته ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالكهم ومربّيهم، والكلّ تحت ملكوته مفتقر إليه في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعًا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنًا لَانعدم بالكلّيّة.

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ المتفرِّد بالحياة الذاتيّة الحقيقيّة. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يُدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ فاعبدوه خاصّةً، لاختصاص ما يوجبه[2] به تعالى، ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ مِن الشرك الجليّ والخفيّ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مَن قال: لا إله إلّا الله، فليقل على إثْرها: الحمد لله ربّ العالمين».[3]

---

[1] س: البشريّة.
[2] س: يوجب.

[3] **جامع البيان للطبري**، ٣٥٧/٢٠؛ **التفسير الوسيط للواحدي**، ٢٠/٤؛ **الكشّاف للزمخشري**، ١٧٦/٤.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ مِن الحُجج والآيات، أو مِن الآيات لكونها مؤيِّدة لأدلّة العقل منبِّهة عليها، فإنّ الآيات التنزيليّة مفسِّرات للآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بأن أنقادَ له وأُخلِص له ديني.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: في ضِمن خلق آدَم عليه السلام منه حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثـمّ خلقكـم خلقًا تفصيليًّا مِن نطفة، أي: مَنيّ. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا. والإفراد لإرادة الجنس، أو لإرادة كلّ واحد مِن أفراده. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ معطوفة على علّة أخرى له مناسِبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ يخرجكم طِفلًا لِتكبُروا شيئًا فشيئًا، ثـمّ لتبلغوا كمالكم في القوّة والعقل، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، ويجوز عطفه على ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾. وقُرئ: "شَيْخًا"[١] كقوله تعالى: ﴿طِفْلًا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشدّ أو قبله أيضًا. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ متعلّق بفعل مقدّر بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ / ولكي تعقلوا ما في ذلك مِن فنون الحِكَم والعِبَر. [٣٣و]

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ﴾ الأمواتَ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو الذي يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد أمرًا مِن الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٦٣.

مِن غير توقّف على شيء مِن الأشياء أصلًا، وهذا تمثيل لتأثير قُدرته تعالى في المقدورات عند تعلّق إرادته بها، وتصوير لسرعة ترتّب المكوَّنات على تكوينه مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور.[1] والفاء الأولى للدلالة على أنّ ما بعدها مِن نتائج ما قبلها مِن اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ تعجيب مِن أحوالهم الشنيعة وآرائِهم الركيكة، وتمهيد لِما يعقُبه مِن بيان تكذيبهم بكلّ القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾...[2] إلخ [غافر، ٥٦/٤٠] بيان لابتناء جدالهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخل تحت الوجود، هو الأمنيّة الفارغة،[3] فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يُصرَفون عنها مع تعاضدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصوارف عنها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: بكلّ القرآن، أو بجنس الكتب السماويّة، فإنّ تكذيبه تكذيبٌ لها. في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن الموصول الأوّل، أو في حيّز النصب أو الرفع على الذمّ، وإنّما وُصِل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادَلة لأنّ المعتاد وقوع المجادَلة في بعض الموادّ لا في الكلّ. وصيغة الماضي للدلالة / على التحقّق كما أنّ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدّد المجادَلة وتكرّرها. [٣٣ظ]

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن سائر الكتب أو مطلَق الوحي والشرائع، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ما فعلوا مِن الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته.

---

[1] س: ولا مأمور.
[2] س - ٱللَّهِ.
[3] س: الفارعة.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾،[1] إذ المعنى على الاستقبال، ولفظُ الماضي لتيقّنه. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾. والجارّ في نيّة التأخير، وقيل: مبتدأ حُذف خبره لدلالة خبر الأوّل عليه. وقيل: قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بحذف العائد، أي: يسحبون بها، وهو على الأوّلَين حال مِن المستكِنّ في الظرف. وقيل: استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقيل: يُسحبون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وقُرئ: "والسَّلَاسِلَ يَسْحَبُونَ" بالنصب وفتح الياء[2] على تقديم المفعول وعطفِ الفعليّة على الاسميّة، و"السَّلَاسِلِ" بالجرّ[3] حملًا على المعنى؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ في معنى: أعناقُهم في الأغلال، أو إضمارًا للباء، ويدلُّ عليه القراءة به.[4]

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُحرَقون، مِن "سَجَر التنّورَ" إذا ملأَه بالوَقود، ومنه "السَّجِير" للصَّديق، كأنّه سُجِر بالحبّ، أي: مُلئ، والمراد بيانُ أنّهم يعذَّبون بألوان العذاب ويُنقَلون مِن باب إلى باب.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، ومعنى ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابوا عنّا، وذلك قبل أن يُقرَن بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنّا فلم نجد ما كنّا نتوقّع منهم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧١/٩.

٤ أي: "وَبِالسَّلَاسِلِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٩.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تَبيَّن لنا أنّا لم نكن نعبد شيئًا بعبادتهم لِما ظهَر لنا اليوم أنّهم لم يكونوا شيئًا يُعتدّ به، كقولك: حسبته شيئًا فلم يكن.

[٣٤و] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ / حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة، أو كما ضلّ عنهم آلهتهم يُضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو تَطالَبوا لم يتصادفوا.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَبطَرون وتتكبّرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسّعون في البِطَر والأَشَرِ. والالتفات للمبالغة في التوبيخ.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أبوابها السبعة المقسومة لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرًا خلودكم فيها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن الحقّ جهنّمُ. والتعبير عن مَدخلهم بـ"المَثوى" لكون دخولهم بطريق الخلود.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ إلى أن يلاقوا ما أُعِدّ لهم مِن العذاب، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالةَ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِك، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد الشرطيّة، ولذلك لحِقت النونُ الفعل، ولا تلحقه مع "إنْ" وحدَها. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، مثل: فذاك، ويجوز أن يكون جوابًا لهما، بمعنى: إن نُعَذِّبهم في حياتك أو لم نُعَذِّبهم فإنّا نعذِّبهم في الآخرة أشدَّ العذاب وأفظعَه، كما يُنبئ عنه

الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المِعرَض.[1]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل: عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألفٍ[2] وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمذكور قَصصهم أفرادٌ معدودة. وقيل: أربعة آلاف مِن بني إسرائيل، وأربعة آلاف مِن سائر الناس.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لرسول منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنّ المعجزاتِ على تشعّب فنونها عطايا مِن الله تعالى قسمَها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنيّة على الحِكَم / البالغة كسائر القِسَم، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبدادِ بإتيان المقترَح بها. [٣٤ظ]

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المُحِقّ وإثابته، وإهلاك المُبطل وتعذيبه، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت مجيء أمر الله، اسم مكان استعير للزمان. ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المتمسّكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترِحون دخولًا أوّليًّا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ قيل: هي الإبل خاصّة، أي: خلقها لأجلِكم ومصلحتكم. وقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تفصيل لِما دلّ عليه اللام إجمالًا، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ومعناها ابتداءُ الركوب والأكل منها، أي: تعلّقُهما بها. وقيل: للتبعيض، أي: لتركبوا بعضَها وتأكلوا بعضَها، لا على أنّ كلًّا

---

[1] كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٦٤. وقال الشهاب الخفاجي: «المِعرض بكسر الميم، ووقع في شرح الشافية ضبطه بالفتح، والصحيح الأوّل، ومعناه: هذا القبيل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٧/٣٨٣.

[2] س - ألف.

مِن الركوب والأكل مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ كلّ بعض منها صالح لكلّ منهما. وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ٨٠﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أُخَر غير الركوب والأكل، كألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم مِن بلد إلى بلد. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لعلّ المرادَ به حمل النساء والولدان عليها بالهَودج، وهو السرّ في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفُلك في الحمل لِما بينهما مِن المناسبة التامّة حتّى سمّيت سفائنَ البَرّ.

وقيل: هي الأزواج الثمانية، فمعنى الركوب والأكل منها تعلّقُهما بالكلّ، لكن لا على أنّ كلًّا منهما يجوز تعلّقه بكلّ منها، ولا على أنّ كلًّا منهما مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ بعضها يتعلّق به الأكل فقط كالغنم، وبعضَها يتعلّق به كلاهما كالإبل والبقر، والمَنافع تعمّ الكلّ، وبلوغ الحاجة عليها يعمّ البقر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله الدالّةَ على كمال قدرته وَوُفور رحمته، ﴿فَأَىَّ
[٣٥و] ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ / أي: فأيّ آية مِن تلك الآيات الباهرة ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ فإنّ كلًّا منها مِن الظهورِ بحيثُ لا يكاد يَجترئ على إنكارها مَن له عقل في الجملة. وهو ناصب لـ﴿أَىَّ﴾، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة وتهويل إنكارها. وتذكير ﴿أَىَّ﴾ هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء غيرِ الصفات -نحو: حِمار وحمارة- غريبٌ، وهي في ﴿أَىَّ﴾ أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي: أقعدوا فلم يسيروا ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المهلَكة؟ وقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾... إلخ استئناف مَسوق لبيان مبادي أحوالهم وعواقبها. ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ باقيةً بعدهم مِن الأبنية والقصور والمصانع. وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض لعِظَم أجرامهم.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى نافية أو استفهاميّة منصوبة بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والثانية موصولة أو مصدريّة مرفوعة، أي: لم يُغنِ عنهم -أو أيَّ شيء أغنى عنهم- مكسوبُهم، أو كسبُهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات، أو بالآيات الواضحة ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بذلك، وهو ما لهم مِن العقائد الزائغة والشُّبَهِ الداحضة. وتسميتها عِلمًا للتهكّم بهم، أو عِلمُ الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو هو علمُ الأنبياء الذي أظهره رسلُهم على أنّ معنى فرحهم به ضحكُهم منه واستهزاؤهم بهِ، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. وقيل: الفرح أيضًا للرسل، فإنّهم لمّا شاهدوا تماديَ جهلِهم وسوءَ عاقبتهم فرحوا بما أُوتوا مِن العِلم المؤدّي إلى حسن العاقبة، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائِهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدّةَ عذابنا، / ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف، ١٦٥/٧]. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يَعنون الأصنام. [٣٥ظ]

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابنا لامتناعِ قبوله حينئذ، ولذلك قيل: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحّ ولم يستقِم.

والفاء **الأولى**[1] بيان عاقبة كثرتهم وشدّة قوّتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعمًا منهم أنّ ذلك يغني عنهم، فلم يترتّب عليه إلّا عدمُ الإغناء، فبهذا الاعتبار جرى مَجرى النتيجة، وإن كان عكسَ الغرض ونقيضَ المطلوب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظ. **والثانية**[2] تفسير وتفصيل لِما أُبهِم وأُجمِل مِن عدم الإغناء، وقد كثر في الكلام مِثل هذه الفاء، ومبناها على أنّ التفسير بعد الإبهامِ والتفصيلَ بعد الإجمال. **والثالثة**[3] لِمجرّد التعقيب وجعلِ ما بعدها تابعًا لِما قبلها واقعًا عقيبه؛ لأنّ مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾... إلخ[4] هو أنّهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال: فكفروا ثمّ لمّا رأَوا بأسنا آمنوا. **والرابعة**[5] للعطف على "آمَنوا"، كأنّه قيل: فآمنوا فلم ينفعهم؛ لأنّ النافع هو الإيمان الاختياري.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنّ الله[6] ذلك سنّةً ماضية في العباد، وهو مِن المصادر المؤكِّدة. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم البأسَ، على أنّه اسم مكان قد استُعير للزمان كما سلف آنِفًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمن لم يبقَ روح نبيّ ولا صِدّيق ولا شهيد ولا مؤمن إلّا صلّى عليه واستغفر له».[7]

---

[1] في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ [غافر، ٨٢/٤٠].
[2] في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر، ٨٣/٤٠].
[3] في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ في الآية السابقة.
[4] غافر، ٨٣/٤٠.
[5] في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ في هذه الآية.
[6] س + تعالى.
[7] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[٣٦و] / سورة السجدة[١]

مكّيّة، وآيُها[٢] ثلاث أو[٣] أربع وخمسون.[٤]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

﴿حمٓ﴾ إن جُعل اسمًا للسورة فهو إمّا خبر لمبتدأ محذوف -وهو الأظهر لِما مرّ سرّه مِرارًا- أو مبتدأ خبرُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾، وهو على الأوّل خبر بعد خبر، وخبرٌ لمبتدأ محذوف إن جعل مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متعلّق به مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أو خبر آخر، أو ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأٌ لِتخصّصه بالصفة، خبره: ﴿كِتَٰبٌ﴾. وهو على الوجوه الأُوَل بدل منه، أو خبر آخر، أو خبر لِمحذوف.

ونسبة "التنزيل" إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للإيذان بأنّه مدار للمصالح الدينيّة والدنيويّة، واقع بمقتضى الرحمة الربّانيّة حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١].

﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيّزتْ بحسَب النظم والمعنى، وجُعلت تفاصيلَ في أساليبَ مختلفة ومعانٍ متغايرة مِن أحكام وقَصص ومواعظ وأمثال ووعدٍ ووعيد. وقُرئ: "فَصَلَتْ"،[٥] أي: فرَقت بين الحقّ والباطل، أو فَصَل بعضها مِن بعض باختلاف الأساليب والمعاني، مِن قولك: فَصَل مِن البلد فُصولًا.

---

[١] وهي سورة فُصّلت، ومِن أسمائها كذلك: سورة المصابيح. انظر: **الإتقان** للسيوطي، ١٩٤/١.

[٢] س ي: وهي.

[٣] س ي - ثلاث أو.

[٤] س ي + آية.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. وهي في سورة هود مرويّة عن عكرمة والضحّاك والجحدري وابن كثير. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٨٤/٤؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٨٤/٩؛ **والمحتسب** لابن جنّي، ٣١٨/١.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ نصب على المدح، أو الحاليّة مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِتخصُّصه بالصفة، أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: معانيَه لكونه على لسانهم. وقيل: لأهل العِلم والنظر؛ لأنّهم المنتفعون به. واللام متعلِّقة بمحذوف هو صفة أخرى لـ﴿قُرۡءَانًا﴾، أي: كائنًا لقوم... إلخ، أو بِـ﴿تَنزِيلٌ﴾ على أنّ ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست بصفةٍ له، أو بـ﴿فُصِّلَتۡ﴾.

﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤﴾

﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ صفتان أُخريان لـ﴿قُرۡءَانًا﴾،[١] أي: بشيرًا لِأهل الطاعة، ونذيرًا لأهل المعصية، أو حالان مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾،[٢] أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾.[٣] وقُرِئَا بالرفع[٤] على الوصفيّة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾،[٥] أو الخبريّة لِمحذوف.

﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن تدبّره مع كونه على لغتهم، ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ تفكّر وتأمّل حتّى يفهموا جلالةَ قدره فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند دعوته إيّاهم إلى الإيمان
[٣٦ظ] والعمل بما في القرآن: / ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أي: أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صَمَم، وأصلُه الثِّقل. وقُرئَ بالكسر.[٦] وقُرئَ بفتحِ القاف.[٧] ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل. و﴿مِنۢ﴾ للدلالة

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] أي: "بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] أي: "وِقْرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

[٧] أي: "وَقَرٌ". قراءة شاذّة، ولم أجد مَن ذكرها قبل أبي السعود. وذكرها الشوكاني في فتح القدير، ٥٧٩/٤.

على أنّ الحجاب مبتدئ مِن الجانبين بحيث استوعب ما بينهما مِن المسافة المتوسّطة ولم يبقَ ثمّة فراغ أصلًا، وهذه تمثيلات لنُبوّ قلوبهم عن إدراك الحقّ وقبوله، ومَجّ أسماعهم له كأنّ بها صَمَمًا، وامتناعِ مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم.[1]

﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ أي: على دينك. وقيل: في إبطال أمرنا. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على ديننا. وقيل: في إبطال أمرك. والأوّل هو الأظهر؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ تلقِين للجواب عنه، أي: لستُ مِن جنسٍ مُغاير لكم حتّى يكونَ بيني وبينكم حجاب وتباين مُصحِّح لتباين الأعمال والأديان كما يُنبئ عنه قولكم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ بل إنّما أنا[2] بشر مثلكم، مأمور بما أُمرتُم به، حيث أُخبِرنَا جَميعًا بالتوحيد بخطابٍ جامعٍ بيني وبينكم، فإنّ الخطاب في ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾ مَحكيّ مُنتظِم للكلّ، لا أنّه خطابٌ منه عليه السلام للكفَرة كما في ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾.

وقيل: المعنى: لستُ ملَكًا ولا جِنّيًا لا يمكنكم التلقّي منه، ولا أدعوكم إلى ما يَنبُو عنه العقول والأسماع، وإنّما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدلّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل.

وقيل: المعنى: إنّي لستُ بمَلَك، وإنّما أنا بشر مثلكم، وقد أُوحي إليّ دونكم، فصَحَّت بالوحي إليّ وأنا بشَرٌ نُبوّتِي، وإذا صَحَّت نُبوَّتي وجب عليكم اتّباعي، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن إيحاء الوحدانيّة، فإنّ ذلك موجِب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص في الأعمال. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ ممّا كنتم عليه مِن سوء العقيدة والعمل.

/ وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثرَ ترغيبهم في التوحيد. [٣٧و]

---

[1] س ي: عليه السلام.
[2] س - أنا.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

ووصفُهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة، حيث جُعل مِن أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة حيث قيل: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، وهو عطف على ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾، داخل في حيّز الصلة. واختلافهما بالفعليّة والاسميّة لِما أنّ عدم إيتائها متجدّد، والكفر أمر مستمرّ.

ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه فسّر ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بقوله: «لا يقولون: لا إله إلّا الله، فإنّها زكاة الأنفُس».[1] والمعنى: لا يُطهِّرون أنفسهم مِن الشرك بالتوحيد، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس، ٩١/٧].

وقال الضحّاك ومُقاتل: «لا ينفقون في الطاعة، ولا يتصدَّقون».[2] وقال مجاهد: «لا يزكّون أعمالهم».[3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم، مِن المَنّ، وأصله: الثِّقل. أو لا يُقطع، مِن "مَنَنتُ الحَبْل" قطعتُه. وقيل: نزلَت في المرضى والهَرمى إذا عجزوا عن الطاعة كُتب لهم الأجر كأصحِّ ما كانوا يعملون.[4]

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩﴾

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم. و"إنّ" و"اللام" إمّا لِتأكيد الإنكار، وتقديمُ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ، لا لإنكار التأكيد، وإمّا للإشعار بأنّ كفرهم مِن البُعد بحيث يُنكِر العقلاءُ وقوعَه، فيحتاج إلى التأكيد، وإنّما عُلّق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ لتفخيم شأنه تعالى، واستعظامِ كفرهم به، أي: بالعظيم الشأن الذي قدّر وجودَها -أي:

---

[1] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[2] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[3] **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٨٦/٨؛ **اللباب لابن عادل**، ١٠٢/١٧.

[4] **الكشّاف للزمخشري**، ١٨٧/٤؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٦٧/٥.

حكم بأنّها سَتُوجدُ- في مقدار يومين، أو في نَوبتَين، على أنّ ما يُوجد في كلّ نَوبة يوجد بأسرعِ ما يكون، وإلّا فاليوم الحقيقي إنّما يتحقّق بعد وجودِها وتسويةِ السماوات وإبداعِ نيّراتها وترتيبِ حركاتها.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ عطف على ﴿تَكْفُرُونَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتوبيخ. وجمعُ "الأنداد" / باعتبار ما هو الواقع، لا بأن يكون مدارُ الإنكار [٣٧ظ]
هو التعدّدَ، أي: وتجعلون له أندادًا والحال أنّه لا يمكن أن يكون له نِدٌّ واحد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في العظمة. وإفراد الكاف لِما مرّ مرارًا مِن أنّ المراد ليس تعيين المخاطبين. وهو مبتدأ خبره ما بعدَه، أي: ذلك العظيم الشأنِ الذي فعل ما ذُكر ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق جميع الموجودات ومربّيها دون الأرض خاصّةً، فكيف يُتصوَّرُ أن يكون أخسُّ مخلوقاته نِدًّا له؟

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَ﴾،[١] داخل في حُكم الصلة. والجَعل إبداعي. وحديثُ لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيّز الصلة[٢] مدفوعٌ بأنّ الأُولى متّحدة بقوله تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ﴾، فهو بمنزلة الإعادة له، والثانية اعتراضيّة مقرّرة لمَضمون الكلام بمنزلة التأكيد، فالفصلُ بهما كلَا فصلٍ، على أنّ فيه فائدةَ التنبيه على أنّ مجرّد المعطوف عليه كافٍ في تحقّق ربوبيّتِه للعالمين، واستحالةِ أن يُجعل له نِدّ، فكيف إذا انضمّ إليه المعطوفات؟

وقيل: هو عطفٌ على مقدَّر، أي: خلَقها وجعلَ... إلخ. وقيل: هو كلام مستأنَف. وأيًا ما كان فالمراد تقدير الجَعلِ، لا الجَعلُ بالفعل.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قال البيضاوي: «استئناف غير معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ للفصل بما هو خارج عن الصِلة». أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٥.

وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾، أو بمضمَر هو صفة لـ﴿رَوَٰسِيَ﴾، أي: كائنةً مِن فوقها مرتفعةً عليها؛ ليكون منافعها مُعْرَضَةً[١] لأهلها، ويظهرَ للنُّظّارِ ما فيها مِن مراصد الاعتبار، ومطارح الأفكار.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: قدّر أن يُكثِر خيرَها، بأن يخلق أنواع الحيوان التي مِن جملتها الإنسان وأصناف النبات التي منها معايشهم.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: حكم بالفعل بأن يُوجِد فيما سيأتي لأهلها مِن الأنواع المختلفة أقواتَها المناسبةَ لها على مقدار معيَّن يقتضيه الحكمة. وقُرئ: "وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا".[٢] ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ متعلِّق بحصول الأمور المذكورة، / لا [٣٨و] بتقديرها، أي: قدّر حصولَها في يومين. وإنّما قيل: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ -أي: تتمّة أربعة أيّام- تصريحًا بالفَذلَكة.[٣]

﴿سَوَآءٗ﴾ مصدر مؤكِّد لمضمَر، هو صفة لـ﴿أَيَّامٖ﴾، أي: استوَتْ سواءً، أي: استواءً، كما يُنبئ عنه القراءة بالجرّ.[٤] وقيل: هو حال مِن الضمير في ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾، أو في ﴿فِيهَا﴾. وقُرئ بالرفع،[٥] أي: هو سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّق بمحذوف، تقديره: هذا الحَصر للسائلين عن مدّة خلق الأرض وما فيها. أو بـ﴿قَدَّرَ﴾، أي: قدّر فيها أقواتَها لأجل السائلين، أي: الطالبين لها، المحتاجين إليها مِن المُقتاتين.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ⑪﴾

---

١ م: "مُعْرِضَة" [بكسر الراء]. | وقال الشهاب الخفاجي: «مُعْرَضَة: بوزن اسم المفعول، مِن الإفعال مِن: أعرَضَه لك إذا أظهره، ومكّنك مِن أخذه، أو مِن التفعيل، وهو قريب منه معنًى». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٠/٢٠.

٣ قال الشهاب الخفاجي: «الفَذلكة بمعنى: جملة الحساب، وهو لفظ منحوت مِن قولهم بعد العدَد لشيء: "فذلك يكون كذا"، فاشتقّوا منه فَعْلَلَة مصدر، لكنّه قيل عليه: إنّ الفَذلكة يُذكر فيها تفاصيل أعداد ثمّ يُؤتى لها بجملة، فيقال مثلًا هنا: يومان ويومان فهي أربعة، وما هنا ليس كذلك، فكيف يكون فذلكة، وهو لم يذكر فيه أحدَ المقدارين؟ فإمّا أن يقال: إنّه للعِلم به نُزِّل مَنزلة المذكور، أو يقال: المراد إنّه جارٍ مَجرى الفَذلكة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ شروع في بيان كيفيّة التكوين إثْرَ بيان كيفيّة التقدير. ولعلّ تخصيصَ البيان بما يتعلّق بالأرض وأهلها لِما أنّ بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيبِ مبادي معايشهم قبلَ خلقهم ممّا يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والطغيان، أي: ثمّ قصدَ نحوها قصدًا سويًّا لا يلوي على غيره.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: أمر ظلماني، عبّر به عن مادّتها، أو عن الأجزاء المتصغّرة التي رُكّبت هي منها، أو دخانٌ مرتفع مِن الماء كما سيأتي. وإنّما خُصَّ الاستواء بالسماء -مع أنّ الخطاب المترتّب عليه متوجِّه إليهما معًا حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾- اكتفاءً بذِكر تقديرها وتقديرِ ما فيها، كأنّه قيل: فقال لها وللأرض التي قَدّر وجودَها ووجودَ ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾، أي: كُونا واحْدُثا على وجه معيّن وفي وقت مقدّر لكلّ منكما. وهو عبارة عن تعلّق إرادته تعالى بوجودهما تعلّقًا فعليًا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور، كما في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة، ٢/١١٧].

وقوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتُّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالةِ امتناعهما مِن ذلك، لا إثباتِ الطَّوع والكَره لهما. وهما مصدران وقعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: منقادِين. تمثيل لكمال تأثّرهما بالذات عن القدرة الربّانيّة، وحصولِهما كما أُمِرتا به، وتصويرٌ لكون وجودهما كما هما عليه جاريًا على مقتضى الحكمة البالغة، فإنّ الطَّوع مُنبِئ عن ذلك، والكَره مُوهِمٌ لخلافهِ. وإنّما قيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾ / باعتبار كونهما في مَعرض الخطاب والجواب، كقوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢٠]. [٣٨ظ]

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المُجمَلِ المعبَّر عنه بالأمر وجوابِه، لا أنّه فعل مترتّب على تكوينها، أي: خلقَهنّ خلقًا إبداعيًّا

وأتقنَ أمرهنّ حسبما يقتضيه الحكمة. والضمير إمّا لـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على المعنى، أو مبهَم. و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حال على الأوّل، تمييز على الثاني.

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ في وقت مقدّر بيومين. وقد بُيّن مقدارُ زمان خلق الأرض وخلقِ ما فيها عند بيان تقديرهما، فكان خلقُ الكلّ في ستّة أيام حسبما نُصّ عليه في مواقعَ مِن التنزيل.[1]

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ عطفٌ على ﴿قَضَىٰهُنَّ﴾، أي: خلَق في كلّ منها ما فيها مِن الملائكة والنيّرات وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى، كما قاله قتادة والسدّي.[2] فالوحي عبارةٌ عن التكوين كالأمر، مقيّدٌ بما قُيّد[3] به المعطوف عليه مِن الوقت. أو أوحى إلى أهل كلٍّ منها أوامره، وكلّفهم ما يليق بهم مِن التكاليف، فهو بمعناه، ومطلَق عن القيد المذكور. وأيًّا مّا كان فعلى ما قُرّر مِن التفصيل لا دلالةَ في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وإنّما الترتيب بين التقدير والإيجاد.

وأمّا على تقدير كون الخلق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة[4] على معانيها الظاهرة فهي وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] تدلّان على تقدّم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير.

وقد رُوِي أنّ العرش العظيم كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدث في الماء اضطرابًا فأَزْبَدَ فارتفع منه دخان، فأمّا الزبَد فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليُبوسة فجعله أرضًا واحدةً، ثمّ فتَقَها فجعلها أرضين، وأمّا الدخان فارتفع / وعلا فخلق منه السماوات.[5] [٣٩و]

---

[1] منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٥٤/٧].

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٣/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٨.

[3] س – بما قُيّد.

[4] وفي هامش س: وهي: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، ﴿وَبَٰرَكَ﴾، ﴿وَقَدَّرَ﴾.[(1)] «منه». | [(1)] فصلت، ١٠/٤١.

[5] الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٦٢/١.

ورُوي أنّه تعالى خلق جِرم الأرض يومَ الأحد ويومَ الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلق السماوات وما فيهنّ يومَ الخميس ويومَ الجمعة، وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[١]

وقيل: إنّ خلْق جِرم الأرض مقدَّم على خلق السماوات، لكنّ دَحْوَها وخلْق ما فيها مؤخَّر عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٧٩/٣٠]، ولِما رُوي عن الحسَن رحمه الله مِن أنّه تعالى خلَق الأرض في موضعِ بيت المَقدس كهيئة الفِهْر[٢] عليه دخان ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخانَ، وخلَق منه السماوات، وأمسك الفِهر في موضعها، وبسط منها الأرض،[٣] وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٢١/٣٠].

وليس المراد بنظمها مع السماء في سِلك الأمر بالإتيان إنشاءَها وإحداثها؛ بل إنشاءُ دَحْوِها، وجعلُها على وجه خاصّ يليق بها مِن شكل معيّن ووصف مخصوص، كأنّه قيل: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه، ائتي يا أرض مدحوّةً قرارًا ومِهادًا لِأهلِكِ، وائتي يا سماء مُقبَّبةً سقفًا لهم.

ومعنى الإتيان الحصولُ على ذلك الوجه، كما يُنبئ عنه قراءةُ "آتِيَا" و"آتَيْنَا"[٤] مِنَ المواتاة، وهي الموافقة. وأنت خبير بأنّ المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرّدَ خلق جِرم الأرض حتّى يتأتّى ما ذُكر؛ بل خَلْقُ ما فيها أيضًا مِن الأمور المتأخّرة عن دَحوها قطعًا.

فالأظهر أن يُسلك مسلكَ الأوّلَين ويُحملَ الأمر بالإتيان على تكوينِهما متوافقتين على الوجه المذكور، وليس مِن ضرورته أن يكون دحوها مترتّبًا على ذلك التكوين، وإنّما اللازم ترتّب حصول التوافق عليه، ولا ريب في أنّ تكوين السماء على الوجه اللائق بها كافٍ في حصولِهِ. ولا يقدح في ذلك

---

[١] انظر: **جامع البيان** للطبري، ١/٤٦٤ (البقرة، ٢/٢٩)؛ ٢٠/٣٨٢؛ و**الدرّ المنثور** للسيوطي، ٧/٣١٥.

[٢] الفِهر: الحجَر ملء الكفّ. **الصِّحاح** للجوهري، «فهر».

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١/١٢٤ (البقرة، ٢/٢٩).

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد. انظر: **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٥/٧.

[٣٩ظ] / تكوينُ الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك. وأنْ يُجعلَ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩] منصوبًا بمضمَر قد حُذف على شريطة التفسير، ويُجعلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء ورفعِ سمكها وتسويتها وغيرِها لا إلى أنفسِها، ويُحملَ البعديّة إمّا على أنّه قاصر عن الأوّل في الدلالة على القُدرة القاهرة كما قيل. وإمّا على أنّه أدخل في الإلزام، لِما أنّ المنافع المَنوطة بما في الأرض أكثر، وتعلُّقَ مصالحِ الناس بذلك أظهر، وإحاطتَهم بتفاصيلها أكمل.

وليس ما رُوي عنِ الحسَن رضي الله عنه نصًّا في تأخرِ دَحْو الأرض عن خلْق السماء، فإنّ بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلقِ السماء بالواو، فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعًا.

وقد نَقل الإمام الواحدي عن مُقاتل رحمهما الله: أنّ خلق السماء مقدَّم على إيجاد الأرض فضلًا عن دَحْوها.[١] فلا بدّ مِن حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضًا على ما ذُكر مِن التوافقِ والمُواتاة. ولا يقدح في ذلك تقدّم خلق السماء على خلق الأرض كما لم يقدح فيه تقدّم خلق الأرض على خلق السماء.

هذا كلُّه على تقدير كون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزمانيّ، وأمّا على تقدير كونها للتراخي الرُّتبيّ -كما جنَح إليه الأكثرون-[٢] فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأوّل، وعلى ذلك بُني الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآيةَ [البقرة، ٢٩/٢]. وإنّما لم يُحمَل الخلق هناك على معنى التقدير كما حُمِل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقّه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ مِن الكواكب، فإنّها كلَّها تُرى مُتلألئةً عليها

[٤٠و] كأنّها فيها. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر. / وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعل معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفِظناها مِن الآفات،

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٤٣٠/١٩. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٥٧٨/٤.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٥.

أو مِن المُسترِقة حفظًا. وقيل: مفعول له على المعنى، كأنّه قيل: وخلقنا المصابيح زينةً وحِفظًا. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر بتفاصيله ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعِلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾... إلخ،[١] أي: فإن أعرضوا عن التدبّر فيما ذُكر مِن عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان، أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: أُنذِركم، وصيغةُ الماضِي للدلالة على تحقّق الإنذارِ المُنبئ عن تحقّق المنذَرِ. ﴿صَٰعِقَةً﴾ أي: عذابًا هائلًا شديدَ الوَقع كأنّه صاعقة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. وقُرئ: "صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ"،[٢] وهي المرّة مِن الصَّعْق أو الصَّعَقِ، يقال: صَعَقَتْهُ الصاعقةُ صَعْقًا فَصَعِقَ صَعَقًا، وهو مِن باب فَعَلْتُه فَفَعِلَ.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حال مِن ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾،[٣] ولا سدادَ لجعله ظرفًا لـ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾[٤] أو صفة لـ﴿صَٰعِقَةً﴾[٥] لفساد المعنى. وأمّا جعلُه صفةً لـ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾[٦] -أي: الكائنة إذ جاءتهم- ففيه حذف الموصول مع بعض صلته.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلّق بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾، أي: مِن جميع جوانبهم، واجتهَدوا بهم مِن كلّ جهة، أو مِن جهة الزمان الماضي بالإنذار عمّا جرى فيه على الكفّار، ومِن جهة المستقبل بالتحذير عمّا سيَحيق بهم مِن عذاب الدنيا ومِن عذاب الآخرة.

---

١ فصلت، ٤١/٩.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر والزبير بن العوام وعبد الله بن الزبير وابن مُحيصن والنخعي. شواذّ القراءات، ص ٤٢١.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ في الآية السابقة.
٦ في الآية السابقة.

وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدِّمون والمتأخِّرون، على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحقّ منزلةَ مجيء أنفسهم، فإنّ هُودًا وصالحًا كانا داعيَين لهم إلى الإيمان بهما وبجميعِ الرسل ممّن جاء مِن بين أيديهم، أي: مِن قبلهم، وممّن يجيء مِن خلفهم، أي: مِن بعدهم، فكأنّ الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا، على أَنّ "أنْ" مصدريّة، أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مفسِّرة.

[٤٠ظ] / ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾[1] أي: إرسالَ الرسل، لا إنزالَ الملائكة كما قيل؛[2] فإنّه عارٍ عن إفادة ما أرادوه مِن نفي رسالة البشر، وقد مرّ فيما سلف. ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ أي: لأرسلهم، لكن لمّا كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾. ﴿فَإِنَّا[3] بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم. وفيه ضرب تهكّمٍ بهم. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لِما أنّكم بشر مثلنا مِن غير فضل لكم علينا.

رُوي أنّ أبا جهل قال في ملأ مِن قريش: «قد التبس علينا أمر محمّد، فلو التمستم لنا رجلًا عالِمًا بالشِّعر والكهانة والسحر فكلّمه ثمّ أتانا ببيانٍ مِن أمره»، فقال عتبة بن ربيعة: «واللهِ لقد سمعت الشِّعر والكهانة والسحر، وعلمت مِن ذلك علمًا، وما يخفى عليّ»، فأتاه فقال: «أنت يا محمّد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطّلب، أنت خير أم عبد الله، فبِم تشتم آلهتنا وتضلّلنا، فإن كنتَ تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنتَ رئيسَنا، وإن تكُ بكَ الباءة زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ، أيّ بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني»، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساكت، فلمّا فرَغ عتبة قال عليه السلام: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حم﴾...[4] إلى قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾،[5] فأمسك عتبة على فيه عليه السلام وناشدَه بالرَّحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلمّا احتبس عنهم قالوا: «ما نرى عتبةَ إلّا قد صبأَ»، فانطلقوا إليه، وقالوا: «يا عتبة ما حبَسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت»،

---

[1] م س: الله.

[2] قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٢٩٥/٩؛ وابن عادل في اللباب، ١١٨/١٧.

[3] م س ي: إنّا.

[4] فصّلت، ١/٤١.

[5] فصّلت، ١٣/٤١.

فغضِب ثمّ قال: «واللهِ لقد كلّمته فأجابني بشيء، واللهِ ما هو بشِعر ولا كَهانة ولا سِحر، ولمّا بلغ ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكتُ بفيه، وناشَدْتُه بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أنّ محمّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخِفت أن ينزل بكم العذاب».[1]

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⑮﴾

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ شروع في حكاية ما يخصّ بكلّ واحدة مِن الطائفتين مِن الجناية والعذاب إثْر حكاية ما يعمّ الكلّ مِن الكفر المطلق، أي: فتَعظّموا فيها على أهلها، أو استعلَوا فيها واستولَوا على أهلها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بغير استحقاق للتعظّم والوِلاية، ﴿وَقَالُوا﴾ مدلّين بشدّتهم وقوّتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حيث كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم، وقد بلغ مِن قوّتهم أنّ الرجل كان ينزع الصخرةَ / مِن الجبل فيقتلعها بيده. [٤١و]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أغفِلوا، أَو أَلَمْ ينظروا وَلم يعلموا عِلمًا جليًا شبيهًا بالمشاهدة والعِيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: قدرةً، فإنّه تعالى قادر بالذات، مقتدِر على ما لا يتناهى، قويّ على ما لا يقدر عليه غيره، مُفِيضُ للقُوَى والقُدَرِ على كلّ قويّ وقادر. وإنّما أُورِد في حيّز الصلة خلقُهم دون خلْق السماوات والأرض لادّعائهم الشدّة في القوّة. وفيه ضرب مِن التهكّم بهم.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ المُنزَلة على الرسل ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي: يُنكرونها، وهم يعرفون حقّيّتَها، وهو عطفٌ على ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾. وما بينهما اعتراض للردّ على كلمتهم الشّنعاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ⑯﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردة تُهلِك وتحرق بشدّة بردها، مِن الصِّرّ؛ وهو البرد الذي يُصِرّ، أي: يجمع ويقبض. أو عاصفةً تصوِّت في هُبوبها،

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩٢/٤. وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك، ٢٧٨/٢ (٣٠٠٢).

مِن الصَّرير. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ جمعُ "نحِسَة"، مِن نحِسَ نَحْسًا، نقيض سَعِد سعدًا. وقُرئ بالسكون على التخفيف،[١] أو على أنّه نعت على فَعْلٍ، أو وصف بمصدرٍ مبالغةً. قيل: كُنّ آخرَ شوّال مِن الأربعاء إلى الأربعاء. وما عُذّب قوم إلّا في يوم الأربعاء.[٢]

﴿لِّنُذِيقَهُمۡ[٣] عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقُرئ: "لِتُذِيقَهُم"،[٤] على إسناد الإذاقة إلى الريح، أو إلى الأيّام. وأُضيف العذاب إلى الخزي الذي هُو الذلّ والاستكانة على أنّه وصف له -كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾- وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، قد وُصف به العذاب للمبالغة. ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ فدلَلناهم على الحقّ بنصب الآيات التكوينيّة، وإرسال الرسل، وإنزال الآيات التشريعيّة، وأزَحنا عِلَلهم بالكلّيّة، وقد مرّ تحقيق معنى الهدى في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. وقُرئ: "ثَمُودَ" بالنصب[٥] بفعل يفسّره ما بعده، ومنوّنًا في الحالين،[٦] وبضمّ الثاء.[٧]

﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهداية ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ/ ٱلۡهُونِ﴾ داهيةُ العذاب، وقارعة العذاب. و﴿ٱلۡهُونِ﴾ الهَوان، وُصف [٤١ظ]
به ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ مبالغة، أو أُبدِل منه. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مِن اختيار الضلالة.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٩/٥. وهو عن ابن عبّاس في غرائب التفسير للكرماني، ١٠٤١/٢.

[٣] م س ي: ليذيقهم. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مرويّة عن زياد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السُّلمي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٤٠/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

[٦] أي: في الرفع والنصب. وهما قراءتان شاذّتان، أمّا التنوين مع الرفع فعَن يحيى والأعمش، وأمّا التنوين مع النصب فعن ابن أبي إسحاق. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

[٧] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٤.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مِن تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ شروع في بيان عقوباتهم الآجلة إثرَ بيان عقوباتهم العاجلة. والتعبير عنهم بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ لذمّهم والإيذانِ بعِلّة ما يَحيق بهم مِن ألوان العذاب. وقيل: المراد بهم الكفّار مِن الأوّلين والآخرين.[1] ويَرُدّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.[2] وقُرئ: "يَحْشُرُ" على بناء الفاعل ونصب "أَعْدَاءَ اللهِ"،[3] وبنون العظمة وضمّ الشينِ[4] وكسرها.[5]

﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى موقف الحساب؛ إذ هناك يتحقّق الشهادة الآتية، لا بعد تمام السؤال والجواب، وسَوقِهم إلى النار. والتعبير عنه بـ﴿ٱلنَّارِ﴾ إمّا للإيذان بأنّها عاقبة حَشرِهم وأنّهم على شرف دخولها، وإمّا لأنّ حسابهم يكون على شفيرها.

و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخّر قد حُذف إيهامًا لقصور العبارة عن تفصيله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]. وقيل: ظرف لِما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرتهم. وقيل: يُساقون ويُدفَعون إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جميعًا، غاية لـ﴿يُحْشَرُ﴾،[6] أو لـ﴿يُوزَعُونَ﴾،[7] أي: حتّى إذا حضروها. و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد اتّصال الشهادة بالحضور.

﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن فنون الكفر والمعاصي، بأن يُنطِقها الله تعالى، أو يُظهِرَ عليها آثارَ ما اقترفوا بها.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٩٥/٤.
٢ فصّلت، ٢٥/٤١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٤ أي: "نَحْشُرُ أَعداءَ الله". قرأ بها نافع ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.
٥ أي: "نَحْشِرُ أَعداءَ الله". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٦ في الآية السابقة.
٧ في الآية السابقة.

وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: أنّ المراد بـ"شهادةِ الجُلود" شهادةُ الفروج.[٢] وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فإنّ ما تشهد به مِن الزنا أعظم جنايةً وقُبحًا وأجلَب للخِزي والعقوبة ممّا يشهد به السمع والأبصار مِن الجنايات المكتسبة بتوسّطهما. وقيل: المراد بـ"الجلود" الجوارح، أي: سألوها سؤالَ توبيخٍ لِما رُوي أنّهم قالوا لَها: «فعنكُنّ كنّا نُناضِل».[٣] وفي روايةٍ: / «بُعدًا لكُنّ وسُحقًا، عنكُنّ كنتُ أجادل».[٤] وصيغة جمع العقلاء في خطاب "الجلود" وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لِوقوعها في موقعِ السؤال والجواب المختصَّين بالعقلاء، أي: أنطقَنا الله الذي أنطق كلَّ ناطق، وأقدَرَنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا مِن القبائح وما كَتمناها. [٤٢و]

وقيل: ما نطقْنا باختيارنا؛ بل أنطقَنا الله الذي أنطق كلّ شيء.[٥] وليس بذاك لِما فيه مِن إيهام الاضطرار في الإخبار.

وقيل: سألوها سؤالَ تعجّبٍ، فالمعنى حينئذ: ليس نُطقُنا بعجَب مِن قدرة الله[٦] الذي أنطق كلَّ حيّ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإنّ مَن قدَر على خلقكم وإنشائكم أوّلًا وعلى إعادتكم ورَجْعكم إلى جزائه ثانيًا لا يُتَعَجّبُ مِن إنطاقه لجَوارحكم. ولعلّ صيغةَ المضارع مع أنّ هذه المحاورة بعد البعث والرَّجْعِ لِما أنّ المراد بالرَّجعِ

---

١ س - تعالى.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٨/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٢٧/١٧. وهو في جامع البيان للطبري، ٤٠٦/٢٠، عن عبيد الله بن أبي جعفر.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٤/٤، بلفظ: "فعنكنّ كنت أناضل". وكذا أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٨٠/٤ (٢٩٦٩).

٤ جامع البيان للطبري، ٤٠٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٦٩/٥.

٦ س - الله.

ليس مجرّد الرَّدِّ إلى الحياة بالبعث؛ بل ما يعمّه وما يترتّب عليه مِن العذاب الخالد المترقَّبِ عند التخاطب، على تغليب المتوقَّع على الواقع، على أنّ فيه مراعاةَ الفواصل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حكاية لِما سَيُقالُ لهم يومئذ مِن جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرًا لِجَواب الجلود، أي: ما كنتم تستَترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافةَ أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون الناسَ مخافةَ الافتضاحِ عندهم؛ بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسًا.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن القبائحِ المخفيّة فلا يُظهرها في الآخرة، ولذلك اجترأتم على ما فعلتم.[1] وفيه إيذان بأنّ شهادة الجوارح بإعلامه تعالى حينئذ، لا بأنّها كانت عالِمةً بما شهدت به عند صدوره عنهم.

عن ابن مسعود رضي الله تعالى[2] عنه: / كنت مستتِرًا بأستار الكعبة، فدخل ثلاثةُ نفَرٍ، ثَقَفِيّان وقرشي، أو قرشيّان وثقفي،[3] فقال أحدهم: «أترَون أنّ الله يسمع ما نقول؟» قال الآخر: «يسمع إن جَهرنا، ولا يسمع إن أخفينا». فذكرت ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾... الآيةَ. [٤٢ظ]

فالحُكم المَحكيّ حينئذ يكون خاصًّا بمَن كان على ذلك الاعتقاد مِن الكفَرة. ولعلّ الأنسبَ أن يُراد بالظنّ معنًى مجازي يعمّ معناه الحقيقي وما يجري مَجراه مِن الأعمال المُنبئة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤]؛ ليعمّ ما حُكي مِن الحال جميعَ أصناف الكفَرة، فتدبّر.

---

[1] وفي هامش م: ولولاه لاتّقيتم أن يُظهرها الله تعالى بوجهٍ مِن الوجوه التي مِن جملتها إشهاد الجوارح. «منه».

[2] س – تعالى.

[3] وفي هامش م: قيل: الثقفيّان: عبد ياليل وختَنه، والقُرشيّان: ربيعة وصفوان بن أميّة. «منه». | وعبارة الثعلبي: "والثقفي عبد ياليل، وختناه القريشيان: ربيعة، وصفوان بن أمية". الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ظنّهم. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية بُعد منزلته في الشرّ والسوء. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبران له. ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلًا، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرًا. ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظنّ السّوء الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذ صار ما مُنِحوا لنيل سعادة الدارين سببًا لشقاء النشأتين.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: محلّ ثواءٍ وإقامةٍ أبديّةٍ لهم بحيث لا بَراحَ لهم منها. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم ويُحكَى سوءُ حالهم لغيرهم، أو للإشعارِ بإبعادهم عن حيّز الخطاب وإلقائهم في غيابة دركات النار.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي: يسألوا العُتبى، وهو الرجوع إلى ما يُحبّونه جَزعًا ممّا هم فيه. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها. ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم، ٢١/١٤]، وقُرئ: "إن يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتِبِينَ"،[١] أي: إن يُسألوا أن يُرضُوا ربّهم فما هم فاعلون لِفوات المُكنة.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدّرنا وقَرّنّا للكفَرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قَرين، أي: أَخْدانًا مِن الشياطين يستولون عليهم استيلاءَ القَيْض على البَيض، وهو القِشر. وقيل: أصل القَيض البدَل، ومنه المقايضة للمعاوضة.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أمور الدنيا واتّباعِ الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمور الآخرة حيث أَرَوْهم أن لا بعثَ ولا حسابَ ولا مكروهَ قطّ. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ/ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتقرّر عليهم كلمة العذاب وتَحقّق مُوجَبُها ومصداقُها، [٤٣و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٤-٨٥]. وقوله تعالى:[١] ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٨] كما مرّ مرارًا.

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أممٍ. وقيل: ﴿فِى﴾ بمعنى مع، وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾[٢] فيما سبَق المعهودون مِن عاد وثمود، لا الكفّار مِن الأوّلين والآخرين كما قيل.[٣]

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾، أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للأوّلين والآخرين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِن رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تُنصِتوا له، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وعارِضوه بالخرافات مِن الرَّجَز والشِّعر والتَّصدية والمُكاء،[٤] أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوّشوه على القارئ. وقُرئ بضمّ الغين،[٥] والمعنى واحد، يقال: لَغِيَ يَلغَى -كلَقِيَ يَلقَى- ولَغا يَلغُو، إذا هَذَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فوالله لَنُذيقنّ هؤلاء القائلين واللاغين، أو جميعَ الكفّارِ وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقادَر قدرُه،

---

١ م س ي + ﴿ٱذْهَبْ﴾. | وهذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٦٣].

٢ س + تعالى. | فصلت، ٤١/١٩.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/١٩٥.

٤ سبق في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال، ٨/٣٥]: ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقًا.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب السهمي وعيسى وابن عمير وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سيّئات أعمالهم، التي هي في أنفُسها أسوَأ. وقيل: إنّه لا يجازيهم بمَحاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقِرَى الأضياف؛ لأنّها مُحْبَطَة بالكفر. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بَدرٍ، و﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة».[1]

﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره، أي: ما ذُكر مِن الجزاء جزاءٌ مُعَدّ لأعدائه تعالى. وقوله تعالى: ﴿النَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاء. أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك، على أنّه عبارة عن مضمون الجملة، لا عن الجزاء، وما بعده جملة مستقلّة مُبيِّنةٌ / لِما قبلها. [٤٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ جملة مستقلّة مقرِّرة لِما قبلها. أو ﴿النَّارُ﴾ مبتدأ هي خبره، أي: هي بعينها دار إقامتهم، على أنّ ﴿فِي﴾ للتجريد؛ وهو أن يُنتزع مِن أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مثلُه مبالغةً لكماله فيها، كما يقال: في البَيضة عشرون مَنًّا حديد.[2] وقيل: هي على معناها، والمراد أنّ لهم في النار المشتملة على الدركات دَارًا مخصوصة هم فيها خالدون.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ منصوب بفعلٍ مقدّر، أي: يُجزَوْن جزاءً، أو بالمصدر السابق، فإنّ المصدر يَنتصب بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ٦٣/١٧]، والباء الأولى متعلِّقة بـ﴿جَزَاءً﴾، والثانية بـ﴿يَجْحَدُونَ﴾ قُدِّمت عليه لمراعاة الفواصل، أي: بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقّة، أو يُلغون فيها. وذِكر الجحود لكونه سببًا للّغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩٨/٤. وذكره ابن عطية في تفسيره، ١٣/٥، دون أن يعزوه إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[2] أي: هي في نفسها هذا المبلغ مِن الحديد. الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم متقلِّبون فيما ذكر مِن العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون فريقَيْ شياطين النوعين المُقَيِّضِين لهم، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين. وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنّهما سَنَّا الكفر والقتل بغير حقّ. وقُرئ: "أَرْنَا" تخفيفًا،[1] كفَخْذ في فَخِذٍ. وقيل: معناه: أعطِناهما. وقُرئ باختلاس كسرة الراء.[2]

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: نَدُسْهما انتقامًا منهما. وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: ذُلًّا ومهانةً، أو مكانًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفَرة فيهما، أي: قالوه اعترافًا بربوبيّته تعالى وإقرارًا بوحدانيّته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: ثبَتوا على الإقرار ومقتضياته، على أنّ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة، فإنّ الاستقامة لها الشأنُ كلّه. وما روي عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى[3] عنهم في معناها -مِن الثبات / على الإيمان، وإخلاص العمل، وأداء الفرائض-[4] بيانٌ لجزئيّاتها. [٤٤و]

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن جهته تعالى يُمدّونهم فيما يَعِنّ لهم مِن الأمور الدينيّة والدنيويّة بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحُزنَ بطريق الإلهام، كما أنّ الكفَرة يُغويهم ما قُيِّض لهم مِن قرناء السَّوء بتزيين القبائح. وقيل: تَتنزَّل عند الموت بالبشرى. وقيل: إذا قاموا مِن قبورهم. وقيل: البشرى في مواطنَ ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث. والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه.

---

١ قرأ بها ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٢ هو الوجه الثاني عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٣ س - تعالى.

٤ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/١٩٩.

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدَمون عليه، فإنّ الخوف غمٌّ يَلحق لتوقّعِ المكروه. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلّفتم، فإنّه غمّ يَلحق لوقوعه، مِن فوات نافع أو حصول ضارّ. وقيل: المراد نَهيُهم عن الغموم على الإطلاق، والمعنى: أنّ الله تعالى كتب لكم الأمن مِن كلّ غمّ، فلن تذوقوه أبدًا.

و"أنْ" إمّا مفسِّرة، أو مخفَّفة مِن الثقيلة، والأصل: بأنّه لا تخافوا. والهاء ضمير الشأن. وقُرئ: "لَا تَخَافُوا"،[١] أي: يقولون: لا تخافوا، على أنّه حال مِن ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾، أو استئناف.

﴿وَأَبْشِرُوا﴾ أي: سُرُّوا ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسِنة الرسل. هذا مِن بِشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... إلخ مِن بِشاراتهم في الدنيا، أي: أعوانكم في أموركم، نُلهمكم الحَقَّ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحُكم. ولعلّ ذلك عبارة عمّا يخطر ببال المؤمنين المستمِرّين على الطاعات مِن أنّ ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ نُمِدّكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع مِن التعادي والخصام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِن فنون الطيّبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنَّون. افتعال مِن الدعاء، بمعنى الطلب، أي: تدّعون لأنفسكم وهو أعمّ مِن الأوّل. و﴿لَكُمْ﴾ في الموضعين خبر، و﴿مَا﴾ مبتدأ، و﴿فِيهَا﴾ حال مِن ضميره في الخبر. وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِىٓ﴾ للإشباع في البِشارة والإيذان باستقلال كلّ منهما.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٩٩.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ/ رَّحِيمٍ﴾ حال مِن ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾، مفيدة لكون ما يتمنّونه [٤٤ظ]
بالنسبة إلى ما يُعطَون مِن عظائم الأجور كالنُّزُل للضيف.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده تعالى وطاعته. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا إلى الإسلام».[١] وعنه: «أنّهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[٢] وقيل: نزلت في المؤذِّنين.[٣] والحقّ أنّ حكمها عامّ لكلّ مَن جمع ما فيها مِن الخصال الحميدة، وإن نزلت فيمَن ذُكر.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربّه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجًا بأنّه منهم، أو اتّخاذًا للإسلام دينًا ونِحلةً، مِن قولهم: هذا قولُ فلانٍ، أي: مذهَبُه، لا أنّه تكلّم بذلك. وقُرئ: "إنّي" بنون واحدة.[٤]

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثْرَ بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الربّ عزّ وجلّ ترغيبًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصبر على أذيّة المشركين، ومقابلةِ إساءتِهم بالإحسان، أي: لا يستوي الخصلة الحسنة والسيّئة في الآثار والأحكام. و﴿لَا﴾ الثانيةُ مزيدة لتأكيد النفي.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾... إلخ استئناف مبيّن لحُسن عاقبة الحسنة، أي: ادفع السيّئة حيث اعترضَتْك مِن بعض أعاديك بالتي هي أحسن

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠٥/٩.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤، عن عائشة رضي الله عنها.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن شنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

ما يمكن دفعها به مِن الحسنات، كالإحسان إلى مَن أساء، فإنّه أحسنُ مِن العفو. وإخراجه مُخرج الجواب عن سؤال مَن قال: "كيف أصنع؟" للمبالغة، ولذلك وُضِع ﴿أَحْسَنُ﴾ موضع الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به، أي: فإذا فعلت ذلك صار عدوّك المُشاقّ مثلَ الوليّ الشفيق.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا﴾ أي: ما يُلقّى هذه الخصلةَ والسجيّةَ التي هي مقابَلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: شأنهم الصبر، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِن الخير وكمال النفس. وقيل: الحظّ العظيم: الجنّة، وقيل: هو الثواب. قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب،[1] / وكان مُؤذيًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فصار وليًّا مصافيًا. [٤٥و]

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النَّزغ والنَّسغ بمعنًى، وهو شِبهُ النَّخس، شُبّه به وسوسةُ الشيطان لأنّها بعث على الشرّ، وجُعل نازغًا على طريقة "جَدَّ جِدُّه"، أو أريدَ: "وإمّا ينزغنّك نازغ" وصفًا للشيطان بالمصدر، أي: وإن صرَفك الشيطان عمّا وُصِيتَ به مِن الدفعِ بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ مِن شرّه، ولا تطعه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ باستعاذتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّتك أو بصلاحك. وفي جَعل تَركِ الدفع بالأحسن مِن آثار نزَغات الشيطان مزيد تحذيرٍ وتنفير عنه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كلّ منها مخلوق مِن مخلوقاته مُسخّر لأمره.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٧/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٦/٤.

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ لأنّهما مِن جملة مخلوقاته المسخَّرة لأوامره مثلَكم. ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة؛ لأنّ حكم جماعةِ ما لا يعقل حكمُ الأنثى أو الإناث، أو لأنّها عبارة عن الآيات. وتعليق الفعل بالكلّ مع كفاية بيان مخلوقيّة الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المَسجوديّة بنَظمهما في المخلوقيّة في سِلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها، وهو السرّ في نظم الكلّ في سِلك آياته تعالى.

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فإنّ السجود أقصى مراتب العبادة، فلا بدّ مِن تخصيصه به سبحانه. وهو موضع السجود عند الشافعي.[1] وعندنا آخرَ الآية الأخرى؛ لأنّه تمام المعنى.[2]

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ٣٨﴾

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الامتثال ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مِن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: دائمًا ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ لا يفتُرون ولَا يَملُّون. وقُرئ: "لَا يِسأَمونَ" بكسر الياء.[3]

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً مُتطامنةً. مستعار مِن الخشوع بمعنى التذلّل. ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ / أي: المطر ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ أي: تحرّكت [٤٥ظ] بالنبات وانتفخت؛ لأنّ النبت إذَا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثمّ تصدّعت عن النبات. وقيل: تزخرفت بالنبات. وقُرئ: "رَبَأَتْ"، أي: ارتَفعت.

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ بما ذُكر بعد موتها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ بالبعث. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإحياءُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة.

---

[1] أصحّ الوجهين مِن مذهب الشافعي أنّ السجدة عند قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾. انظر: المجموع للنووي، ٤/٦٠؛ ومغني المحتاج للخطيب الشربيني، ١/٤٤٢.

[2] انظر: رد المحتار على الدرّ المختار لابن عابدين، ٢/١٠٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة. وقُرئ: "يَلْحَدُونَ".[١] ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعن فيها وتحريفها بحَملها على المَحامل الباطلة ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنجازيهم بإلحادهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تنبيه على كيفيّة الجزاء. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ مِن الأعمال المؤدّية إلى ما ذُكر مِن الإلقاء في النار والإتيان آمِنًا. وفيه تهديد شديد. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾...[٢] إلخ. وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو الخبر السابق. وقيل: مستأنَف، وخبرُها محذوف. وقال الكسائي: سدّ مسدّه الخبر السابق.[٣] والذِّكر: القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: كثير المنافع عديم النظير، أو مَنيع لا يتأتّى معارضته. جملة حاليّة مفيدة لغاية شناعة الكفر به.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يتطرّق إليه الباطل مِن جهة مِن الجهات. صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ خبر لمبتدإ محذوف، أو صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مفيدةٌ لفخامته الإضافيّة كما أنّ الصفتين السابقتين مفيدتان

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٣.

٢ في الآية السابقة.

٣ وهو قوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣١٠؛ اللباب لابن عادل، ١٧/١٤٥.

٤ في الآية السابقة.

لفخامته الذاتيّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ﴾... إلخ اعتراض عند مَن لا يجوِّز تقديم غير الصريح مِن الصفات على الصريح. كلّ ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾... إلخ تسلية / لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم [٤٦و]
عمّا يصيبه مِن أذيّة الكفار، أي: ما يقال في شأنك وشأن ما أنزل إليك مِن القرآن مِن جهة كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: إلّا مثل ما قد قيل في حقّهم ممّا لا خير فيه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، وقد نَصر مَن قبلك مِن الرسل، وانتقم مِن أعدائهم، وسيفعل مِثل ذلك بك وبأعدائك أيضًا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هلّا أُنزل القرآن بلغة العجم. والضمير لـ﴿ٱلذِّكْرِ﴾. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥ﴾ أي: بُيّنت بلسان نفقهه.

وقوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ إنكار مقرِّر للتحضيض. و"الأعجميّ" يقال لكلامٍ لا يُفهَم، وللمتكلِّم به. و"الياء" للمبالغة في الوصف كأحمري، والمعنى: أكلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي، على أنّ الإفراد -مع كون المرسَلِ إليهم أمّةً جمّةً- لِما أنّ المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطَب به، لا بيانُ كون المخاطَب واحدًا أو جمعًا.

وقُرئ: "أَعَجَمِيٌّ"،[١] أي: أكَلام منسوب إلى أمّة العَجم. وقُرئ: "أَعْجَمِيٌّ"[٢] على الإخبار بأنّ القرآن أعجمي والمتكلِّم أو المخاطَب عربي. ويجوز أن يراد:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن ميمون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

[٢] قرأ بها قنبل وهشام ورُويس باختلاف عنهم. النشر لابن الجزري، ١/٣٦٦.

هلّا فُصِّلت آياته، فجُعلَ بعضها أعجميًا لإفهام العجَم، وبعضها عربيًا لإفهام العرب. وأيًّا ما كان فالمقصود بيانُ أنّ آيات الله تعالى على أيّ وجهٍ جاءتهم وجدوا فيها مُتَعنَّتًا يتعلّلون به.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾ يهديهم إلى الحقّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن شكٍّ وشبهةٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ، خبره: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على أنّ التقدير: هو -أي: القرآن- في آذانهم وَقْر، على أنّ ﴿وَقْرٌ﴾ خبر للضمير المقدّر، و﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿وَقْرٌ﴾. وهُو أوفَق لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. وقيلَ: خبر الموصول ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، و﴿وَقْرٌ﴾ فاعل الظرف. وقيل: ﴿وَقْرٌ﴾ مبتدأ، والظرف خبره، والجملة خبر للموصول. وقيل: التقدير: والذين لا يؤمنون / في آذانهم منه وَقرٌ. ومَن جوّزَ العطف على عاملين عطَف الموصولَ على الموصول الأوّل، أي: هو للأوّلين هدًى وشفاء، وللآخِرين وَقْر في آذانهم. [٤٦ظ]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتّصافه بما في حيّز صلته، وملاحظةِ ما أُثبِت له. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الشرّ مع ما فيه مِن كمال المناسبة للنداء مِن بعيد، أي: أولئك البُعَداء الموصوفون بما ذُكر مِن التَّصامّ عن الحقّ الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قَبولهم واستماعهم له بمَن ينادَى مِن مسافة نائية، لا يكاد يُسمَع مِن مِثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غيرُ مختصّ بقومك، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت، ٤١/٤٣]، أي: وباللهِ لقد آتيناه التوراة فاختُلف فيها، فمِن مصدِّقٍ لها ومكذِّبٍ، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك مِن القرآن، فمِن مؤمن به وكافر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقّ أمّتك المكذِّبة، وهي العِدَة بتأخير عذابهم وفَصلٍ ما بينهم وبين المؤمنين مِن الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر، ٤٦/٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل، ٦١/١٦].

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذّبين كما فُعِل بمكذّبِي الأمم السالفة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفّارَ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[1] أي: مِن القرآن. وجعلُ[2] الضمير الأوّل لليهود والثاني للتوراة[3] ممّا لا وجه له.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجَبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه يعمله، أو نفَعُه لنفسه لا لغيره. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضررُه، لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض تذييلي، مقرّر لمضمون ما قبله، مبنيّ على تنزيل تركِ إثابة المحسن بعمله أو إثابةِ الغير بعمله وتنزيلِ التعذيب بغير إساءةٍ أو بإساءة غيره منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه،[4] وقد مرّ ما في المقام مِن التحقيق والتفصيل في سورة آل عمران وسورة الأنفال.[5]

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئل عنها يقال: الله يعلم، أو لا يعلمها إلّا الله. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: مِن أوعيتها، / جمعُ "كِمّ" بالكسر؛ [٤٧و] وهو وِعاء الثمرة كجِفّ الطَّلعة. وقُرئ: "مِن ثَمَرَةٍ"[6] على إرادة الجنس،

---

[1] س - ﴿مُرِيبٍ﴾.

[2] س: وتعميم.

[3] ذكره مع الوجه الأوّل البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٣/٥.

[4] س + وتعالى.

[5] في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ١٨٢/٣؛ الأنفال، ٥١/٨].

[6] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وتُرسم بالتاء المبسوطة على القراءتين، ويُوقف عليها بالتاء. انظر: النشر لابن الجزري، ١٣٠/٢.

والجمعُ لاختلاف الأنواع. وقد قُرِئَ بجمعِ الضمير أيضًا،[١] و﴿مَا﴾ نافية، و﴿مِن﴾ الأولى مَزيدة للاستغراق، واحتمالُ أن تكون موصولةً معطوفةً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ و﴿مِن﴾ مبيّنة[٢] بعيد.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: حَملَها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما يحدث شيء مِن خروجِ ثمرةٍ ولا حملِ حاملٍ ولا وضعِ واضعٍ ملابسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملابسًا بعلمه المحيط.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: بزعمكم، كما نَصّ عليه في قوله تعالى: ﴿نَادُواْ[٣] شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف، ٥٢/١٨]. وفيه تهكّم بهم، وتقريع لهم. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخّر قد تُرك إيذانًا بقُصور البيان عنه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥].

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أخبرناكَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ مِن أحد يشهد لهم بالشركة؛ إذ تبرَّأنا منهم لِما عايَنَّا الحال، وما منّا أحدٌ إلّا هو موحِّد لك، أو ما منّا مِن أحدٍ يشاهدهم؛ لأنّهم ضلّوا عنهم حينئذ. وقيل: هو قول الشركاء، أي: ما منّا مِن شهيد يشهد لهم بأنّهم كانوا محقّين. وقولهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إمّا لأنّ هذا التوبيخ مَسبوق بتوبيخ آخر مُجابٌ بهذا الجواب، أو لأنّ معناه: إنّك علمتَ مِن قلوبنا وعقائدنا الآن أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنّه إذا علمه مِن نفوسهم فكأنّهم أعلموه، أو لأنّ معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: غابوا عنهم، أو ظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغَيبتهم. ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مَهرب. والظنّ معلّق عنه بحرف النفي.

---

١ أي: "مِنْ أَكْمَامِهِنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٢ ذكَر هذا الاحتمال البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٤/٥.

٣ م س ي: أين. | وهي في سورة القصص: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص، ٦٢/٢٨].

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي: لا يَمَلُّ ولا يَفْتُر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ مِن طلب السَّعة في النعمة وأسباب المعيشة. وقُرِئ: "مِن دُعَاءٍ بِالخَيرِ".[١]

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: العُسر والضيقة، ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فيه مبالغة مِن جهة البناء، ومِن جهة التكرير، ومِن جهة أنّ القُنوط عبارة عن يأس مُفرِط يَظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر، أي: مبالِغ في قطع الرجاء مِن فضل الله تعالى ورحمته. وهذا وصف للجنس بوصفِ غالبِ أفراده، لِما أنّ اليأس مِن رحمته تعالى لا يتأتّى إلّا مِن الكافر، وسيُصَرَّحُ به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: حقّي أستحقّه لِما لِي مِن الفضل والعمل، أو لي لا لغيري، فلا يزول عنّي أبدًا، / ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم فيما سيأتي، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لَلحالةَ الحسنى مِن الكرامة؛ وذلك لاعتقاده أنّ ما أصابه مِن نِعم الدنيا لاستحقاقه له، وأنّ نِعم الآخرةِ كذلك. [٤٧ظ]

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنُعلِمنّهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقيّة، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس، ٢٣/١٠] مِن سورة يونس. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يقادَر قدرُه ولا يُبلَغ كُنهُه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤؛ ومعاني القرآن للفرّاء، ٢٠/٣.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ أي: عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ذهبَ بنفسه وتباعد بكلّيّته تكبّرًا وتعظّمًا. والجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٦]. ويجوز أن يُراد به عِطْفُه، ويكون عبارةً عن الانحراف والازْوِرار كما قالوا: "ثَنى عِطْفَه وتولّى برُكْنِه".

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير. مستعار ممّا له عَرض متّسِع للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ مِن الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنّك بطوله؟ ولعلّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط، أو شأن الكلّ في بعض الأوْقات.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: مَن أضَلُّ منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلًا لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدّالّةَ على حقّيّته وكونه مِن عند الله ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ هو ما أخبرهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسّر الله تعالى له ولخُلفائه مِن الفتوح والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاءِ على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارقٍ للعادة. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هو ما ظهر فيما بين أهل مكّة وما حلّ بِهِمْ.

وَقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية وآثارهم، ﴿وَفِىٓ / أَنفُسِهِمْ﴾ يومَ بدر».[1] وقال مجاهد والحسَن والسدّي: «﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [٤٨و]

١ كأنّ في الكلام سقطًا، ففي الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٠٠؛ واللباب لابن عادل، ١٧/١٥٨: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلاء والأمراض». وقال قتادة: «يعني: وقائع الله تعالى في الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر».

ما يفتح الله مِن القرى عليه عليه السلام والمسلمين، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة».[١]

وقيل:[٢] ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أي: في أقطار السماوات والأرض مِن الشمس والقمر والنجوم، وما يترتّب عليها مِن الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات، ومِن النبات والأشجار والأنهار، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن لطيف الصنعة وبديع الحكمة في تكوين الأجِنّة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات، ٢١/٥١]. وَاعْتُذِرَ بأنّ معنى السين -مع أنّ إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك- أنّه تعالى سيُطلِعُهم على تلك الآيات زمانًا فزمانًا، ويزيدهم وقوفًا على حقائقها يومًا فيومًا ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ بذلك ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو الإسلام والتوحيد.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على تردّدهم في شأن القرآن، وعنادِهم المُحوِجِ إلى إراءة الآيات وعدمِ اكتفائهم بإخباره تعالى. و"الهمزة" للإنكار. و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألَم يُغْنِ ولَمْ يكفِ ربّك؟ و"الباء" مزيدة للتأكيد، ولا يكاد يزاد إلّا مع "كفى". وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، أي: ألم يُغْنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيّنة لحقّيّة القرآن ولم يكفِهم في ذلك أنه تعالَى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنّه مِن عنده؟

وقيل: معناه: أنّ هذا الموعود مِن إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبيّنون عند ذلك أنّ القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كلّ شيء شهيدٌ، أي: مطَّلع يستوي عنده غَيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا على أنّه حقّ، وأنّه مِن عنده، ولو لم يكن كذلك لَما قوي هذه القوّة، ولَما نُصِر حامِلوه هذه النُّصرةَ، فتأمّل.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "أوَلم يكفِكَ أنّه تعالى على كلّ شيء شهيدٌ محقِّق له، فيحقِّقُ / أمرَكَ بإظهار الآيات الموعودة كما حقّق سائر الأشياء الموعودة؟"[٣] [٤٨ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥٨/١٧.

٢ وفي هامش م س: قاله عطاء وابن زيد.[١] «منه». | [١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٩/٧.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٥/٥.

-فمَع إشعاره بما لا يليق بجلالة مَنصبه عليه السلام مِن التردّد فيما ذُكر مِن تحقيق الموعود- يردّه قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شكّ عظيم مِن ذلك بالبعث والجزاء، فإنّه صريح في أنّ عدم الكفاية معتَبر بالنسبة إليهم. وقُرئ: "مُرْيَةٍ" بالضمّ،[1] وهي لغة فيها.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالم بجميع الأشياء جُمَلِها وتفاصيلها، وظواهرها وبواطنها، فلا يخفَى عليه خافية منهم، وهو مُجازيهم على كفرهم ومِريتِهم لا محالةَ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة السجدة[2] أعطاه الله تعالى بكلّ حرف عشرَ حسنات».[3]

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم يذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤.

[2] يعني: سورة فصّلت. انظر أوّل السورة.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٥. قال الخطيب الشربيني: «حديث موضوع». السراج المنير للشربيني، ٥٢٦/٣.

سورة حمٓ[1] عٓسٓقٓ[2]

مكّيّة،[3] وهي ثلاث وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④﴾

﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة، ولذلك فُصِل بينهما، وعُدّا آيتين. وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائرَ الحواميم. وقُرئ: "حم سق".[4] فعلى الأوّل هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ ﴿عٓسٓقٓ﴾ خبره. وعلى الثاني الكلّ خبر واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كلام مستأنَف وارد لتحقيق أنّ مضمون السورة موافق لِما في تضاعيف سائر الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمة في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقّ، أو أنّ إيحاءها مثلُ إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها، والتنبيهِ على فخامة شأنها. والكاف في حيّز النصب على أنّه مفعول لـ﴿يُوحِىٓ﴾ عَلى الأوّل، وعلى أنّه نعت لمصدر مؤكِّد له على الثاني.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأوّل إشارة إلى ما فيها، وعلى الثاني إلى إيحائها. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل، أي: مثلَ ما في هذه السورة مِن المعاني / أوحي إليك في سائر السور وإلى مَن قبلك مِن [٤٩و]
الرسل في كتبهم، على أنّ مَناط المماثلة ما أُشيرَ إليه مِن الدعوة إلى التوحيد

---

[1] س ي – حم.

[2] س + وتسمّى سورة الشورى.

[3] س – مكّيّة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٦٤/٢٠؛ والمحتسب لابن جنّي، ٢٤٩/٢.

والإرشاد[1] إلى الحقّ وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد. أو مثلَ إيحائها أوحي إليك عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم، لا إيحاءً مغايرًا له كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الآية [النساء، ١٦٣/٤]، على أنّ مدار المِثليّة كونه بواسطة المَلَك.

وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحي، وأنّ إيحاء مثله عادتُه. وفي جعل مضمون السورة أو إيحائِها مشبَّهًا به مِن تفخيمها ما لا يخفى، وكذا في وصفه تعالى بوصفَي العزّة والحكمة. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه مِن التشويق.

وقُرئ: "يُوحَى"،[2] على البناء للمفعول، على أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و"يُوحَى" خبره المسنَد إلى ضميره. أو مصدر، و"يُوحَى" مسنَد إلى ﴿إِلَيْكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مرتفِع بما دلّ عليه "يُوحَى"، كأنّه قيل: مَن يُوحِي؟ فقيل: الله. و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان له، أو مبتدأ -كما في قراءة "نُوحِي"-[3] و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وما بعده خبَران له، أو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان له، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبران له. وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرِّر لعزّتِه وحِكمته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقُرئ بالياء.[4] ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقّقن مِن عظمة الله تعالى.[5] وقيل: مِن دعاء الولد له، كما في سورة مريم.[6] وقُرئ: "يَنْفَطِرْنَ".[7] والأوّل أبلغ؛

---

١ س: والإشهاد؛ ي: والإشارة.
٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.
٣ قراءة شاذّة، قرأ بها أبو حَيوة وبِشر عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.
٤ قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.
٥ م - تعالى.
٦ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ الآيات [مريم، ٨٨/١٩-٩٠].
٧ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

لأنّه مطاوِع "فَطَّر"، وهذا مطاوِع "فَطَر". وقُرئ: "تَتَفَطَّرْنَ" بالتاء[١] لتأكيد التأنيث، وهو نادر.[٢]

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطّر مِن جهتهنّ الفوقانيّة. وتخصيصُها على الأوّل[٣] لِما أنّ أعظم الآيات[٤] وأدلَّها على العظمة والجلال مِن تلك الجهة، وعلى الثاني[٥] للدلالة على التفطّر مِن تحتهنّ بالطريق الأولى؛ لأنّ تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثّرت في جهة الفوق فَلَأن تؤثّر في جهة التحت أَولى. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾،[٦] / فإنّها في معنى الأَرَضِين. [٤٩ظ]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم مِن الشفاعة والإلهام، وترتيبِ الأسباب المقرِّبة إلى الطاعة، واستدعاءِ تأخير العقوبة طمَعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. وهذا يعمّ المؤمن والكافر؛ بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلَل المتوقَّع عَمَّ الحيوانَ؛ بل الجمادَ، وحيث خُصَّ بالمؤمنين -كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر، ٧/٤٠]- فالمراد به الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مخلوق إلّا وله حظّ عظيم مِن رحمته تعالى. والآية على الأوّل زيادةُ تقرير لعظمته تعالى، وعلى الثاني بيان لكمال تقدّسه عمّا نُسب إليه، وأنّ ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاءِ بسبب استغفار الملائكة وفَرط غفرانه ورحمته، فَفيها رمز إلى أنّه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدُهم على ما طلبوه مِن المغفرة رحمةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٢ قال ابن خالويه: «وهذا حرف نادر؛ لأنّ العرب لا تجمع بين علامتَي التأنيث، لا يقال: النساء تقُمنَ، ولكن: يقُمنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة، ٢٣٣/٢]، ولا يقال: تُرضِعن. وقد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تَتَشمُمنَ، فأنكرناه، فقد قوّاه الآن هذا». مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٣ أي: على القول الأوّل في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن عظمة الله تعالى.

٤ وفي هامش م: عرش وكرسي. «منه».

٥ أي: على القول الثاني في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن دعاء الولد له.

٦ في الآية السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم، أو بموكول إليه أمرهم، وإنّما وظيفتك الإنذار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ومحلّ الكاف النصب على المصدريّة. و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مفعول لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيّن المُفْهِم أوحينا إليك قرآنا عربيًا، لا لَبس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى معنى الآية المتقدِّمة مِن أنّه تعالى هو الحفيظ عليهم، وإنّما أنت نذير فحسبُ. فالكاف مفعول به لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن المفعول به، أي: أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي بيّن.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وهي مكّة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، ﴿وَتُنذِرَ
[٥٠و] يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ / أي: يوم القيامة؛ لأنّه يُجمع فيه الخلائق، قال[1] تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤]. وقيل: يُجمع فيه الأرواح والأشباح. وقيل: الأعمال والعمّال. والإنذار يتعدّى إلى مفعولَين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف ههنا ثاني مفعولَي الأوّل وأوّلُ مفعولَي الثاني للتهويل وإيهام التعميم. وقُرئ: "لِيُنْذِرَ" بالياء[2] على أنّ فاعله ضمير القرآن.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: بعد جمعهم في الموقِف، فإنّهم يُجمعون فيه أوّلًا ثمّ يُفرَّقون بعد الحساب. والتقدير: منهم فريق. والضمير للمجموعِين

---

١ س ي + الله.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/٥.

لدلالة ﴿ٱلۡجَمۡعِ﴾ عليه. وقُرِئا منصوبَين[١] على الحاليّة منهم، أي: وتُنذِر يوم جمعهم متفرّقين، أي: مشارفين للتفرّق، أو متفرّقين[٢] في دارَي الثواب والعقاب.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ قيل: مهتدين أو ضالّين. وهو تفصيل لِما أجمَله ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: «على دينٍ واحد».[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ أنّه تعالى يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، ويُدخل في عذابه مَن يشاء أن يُدخله فيه، ولا ريب في أنّ مشيئته تعالى لكلٍّ مِن الإدخالَين تابعة لاستحقاق كلٍّ مِن الفريقين لدخول مدخله. ومِن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخلين فيهما قطعًا، فلم يشأ جَعْلَ الكلّ أمّة واحدة؛ بل جعلهم فريقين.

وإنّما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب مِن جهة الداخلين بموجَب سوء اختيارهم، لا مِن جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة، لا لِما قيل مِن المبالغة في الوعيد.[٤]

وقيل: مؤمنين كلّهم، وهو ما قاله مقاتل: «على دين الإسلام»،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام، ٣٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢]. والمعنى: ولو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ لقَسَرهم على الإيمان، ولكنّه شاء مشيئةَ حكمةٍ، / وكلّفهم وبنى أمرهم على ما [٥٠ظ] يختارون ليُدخل المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وترَك الظالمين بغير وليّ ولا نصير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٩.

٢ م س – متفرّقين ["صح" في الهامش].

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٠/١٧.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٧/٥.

٥ تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٦٤/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤.

وأنت خبير بأنّ فرضَ جعْل الكلّ مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته؛ إذ الكلّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسب حينئذ تصديرَه بإخراج بعضِهم مِن بينهم وإدخالِهم في عذابه، فالذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقُه أن يُراد الاتّحاد في الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢١٣] على أحد الوجهين، بأن يُراد بهم الذين هم في فترة إدريسَ أو في فترة نوح عليهما السلام.

فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الكفر، بأن لا يرسل إليهم رسولًا ليُنذرهم ما ذُكر مِن يوم الجَمع وما فيه مِن ألوان الأهوال، فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكفر، ولكن يُدخل مَن يشاء في رحمته، أي: شأنُه ذلك، فيُرسل إلى الكلّ مَن يُنذرهم ما ذُكر، فيتأثّر بعضهم بالإنذار، فيَصرِفون اختيارهم إلى الحقّ، فيوفِّقهم الله تعالى للإيمان والطاعة، ويدخلهم في رحمته، ولا يتأثّر به الآخَرون ويتمادَون في غَيّهم، وهم الظالمون، فيبقَون في الدنيا على ما هم عليه مِن الكفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير مِن غير وليّ يَلي أمرَهم، ولا نصيرٍ يخلِّصهم مِن العذاب.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها مِن انتفاء أن يكون للظالمين وليّ أو نصير. و﴿أَم﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل،[1] إذ المراد بيان أنّ ما فعلوا ليس مِن اتّخاذ الأولياء في شيء؛ لأنّ ذلك فرع كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهر الممتنِعات. أي:
[٥١و] بل أَتَخذُوا[2] / متجاوزين الله تعالى[3] أولياء مِن الأصنام وغيرها؟ هيهات!

---

[1] هو مفهوم كلام الزمخشري في الكشّاف، ٢١١/٤.

[2] م: أَاِتّخذوا. [بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة]؛ س: اتّخذوا. | الصواب فيها ما أثبتُه بهمزة واحدة مقطوعة مفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم، ٧٨/١٩]، وهو ما تحتمله نسخة س.

[3] م - تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرطٍ محذوف، كأنّه قيل بعد إبطال وَلاية ما اتّخذوه أولياء: إن أرادوا وليًا في الحقيقة فالله هو الوليّ، لا وليَّ سِواه.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ومِن شأنه ذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يُتّخذ وليًا، فليَخُصّوه بالاتّخاذ دون مَن لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكفّار فيه مِن أمور الدين فاختلفتم أنتم وهمْ، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهو إثابة المُحِقّين وعقاب المُبطلين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العظيمُ الشأنِ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أمورِي خاصّةً، لا على غيره. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كلّ ما يَعِنُّ لي مِن مُعضلات الأمور، لا إلى أحد سِواه. وحيث كان التوكّل أمرًا واحدًا مستمرًّا والإنابةُ متعدّدةً متجدّدةً حسب تجدّد موادّها أُوثِر في الأوّل صيغة الماضي، وفي الثانية صيغة المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم مِن شيء مِن الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا تُؤثِروا على حكومته حكومةَ غيره.

وقيل: وما اختلفتم فيه مِن تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم مِن كتاب الله[1] والظّاهرِ مِن سنّة رسول الله.[2]

وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه مِن العلوم التي لا تتعلّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. ولا مساغَ لحَمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه السلام.[3]

---

١ س + تعالى.

٢ س + صلّى الله عليه وسلّم.

٣ س: عليه الصلاة والسلام. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢١٢.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر آخَر لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾،[١] أو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبرُه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾. وقُرئ بالجرّ[٢] على أنّه بدل مِن الضمير، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾،[٣] وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح قد مرّ سرّه غيرَ مرّة. / ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وجعل للأنعام مِن [٥١ظ]
جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أو خلق لكم مِن الأنعام أصنافًا، أو ذكورًا وإناثًا. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم مِن الذَّرْء؛ وهو البَثّ، وفي معناه: الذَّرْوُ وَالذَّرّ. ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التدبير، فإنّ جعْل الناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد كالمنبَع للبثّ والتكثير.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ أي: ليس مثلَه شيء في شأن مِن الشئون التي مِن جملتها هذا التدبير البديع. والمراد مِن ﴿مِثْلِهِ﴾ ذاتُه، كما في قولهم: مِثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه، فإنّه إذا نُفِي عمَّن يناسبه كان نفيه عنه أَولى. ثمّ سُلِكت هذه الطريقة في شأن مَن لا مِثلَ له. وقيل: ﴿مِثْلِهِ﴾ صفته، أي: ليس كصفته صفَة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالِغُ في العِلم بكلّ ما يُسمَع ويُبصَر.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائنهما ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسّع ويضيّق حسبما يقتضيه مشيئته المؤسّسة على الحِكَم البالغة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٢٥.

٣ في الآية السابقة.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ مبالِغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يَفعل على ما ينبغي أن يُفعل عليه. والجملة تعليل لِما قبلها، وتمهيد لِما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، وإيذان بأنّ ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أنّ بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قديمًا أجمعَ عليه الرسل.

والخطاب لأمّته صلّى الله عليه وسلّم،[1] أي: شرع لكم مِن الدين ما وصّى به نوحًا ومَن بَعْده مِن أرباب الشرائع وأُولي العزائم مِن مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمَرهم به أمرًا[2] مؤكّدًا. على أنّ تخصيصهم بالذِّكر لِما ذُكر مِن علوّ شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه؛ لاتّفاقِ الكلّ على نبوّة بعضهم، وتفرّدِ اليهود في شأن موسى عليه السلام، وتفرّدِ النصارى في حقّ عيسى عليه السلام، وإلّا فما مِن نبيّ إلّا وهو مأمور بما أمِروا به، وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدّل الأعصار مِن أصول الشرائع والأحكام، كما يُنبئ عنه التوصية، فإنّها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناءِ بشأن المأمور به.

والمراد بإيحائه إليه عليه السلام إمّا ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾ الآيةَ،[3] أو ما يعمّهما وغيرَهما ممّا وقع في سائر المواقع التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل، ١٦/١٢٣]، / وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف، ١٨/١١٠]، وغيرُ ذلك. والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه السلام بـ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ لزيادة تفخيم شأنه مِن تلك الحيثيّة. [٥٢و]

وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده مِن التوصية لِمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِما في الإيحاء مِن التصريح برسالته عليه السلام القامع لإنكار الكفرة.

---

[1] س: عليه السلام.
[2] س – أمرًا.
[3] الشورى، ٤٢/٧.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناءِ بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدّمه عليه زمانًا.

وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينًا قديمًا. وتوجيه الخطاب إليه عليه السلام بطريق التلوين[1] للتشريف والتنبيه على أنّه تعالى شَرَعَه لَهم على لسانه عليه السلام.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائرِ ما يكون الرجل به مؤمنًا. والمراد بإقامته تعديلُ أركانه وحفظُه مِن أن يقع فيه زَيغ، أو المواظبةُ عليه، أو التشمُّرُ له.

ومحلّ ﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ إمّا النصب على أنّه بدل مِن مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفِين عليه، أو الرفعُ على أنّه جواب عن سؤال نشأ مِن إبهام المشروع، كأنّه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو إقامة الدين. وقيل: بدل مِن ضمير ﴿بِهِ﴾،[2] وليس بذاك، لِما أنّه مع إفضائه إلى خروجه عن حيّز الإيحاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[3] مستلزمٌ لكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم السلام. وتوجيه النهي إلى أممهم تمحُّل[4] ظاهر، مع أنّ الأظهر أنّه متوجّه إلى أمّته عليه السلام وأنّهم المتفرّقون كما ستحيط به خُبرًا. أي: لا تتفرّقوا في الدين الذي هو عبارة عمّا ذُكر مِن الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شروع في بيان أحوال بعض مَن شُرِع لهم ما شُرِع مِن الدين القديم، أي: عَظُم وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعَدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص، ٥/٣٨].

[1] التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

[2] س: ضميريه. | قاله البيضاوي، في أنوار التنزيل، ٧٨/٥.

[3] س: عليه السلام.

[4] التَّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٦/٥.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ / استئناف وارد لتحقيق الحقّ. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يُجيب إلى الدعوة، أي: الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه مَن يشاء أن يجتبيَه إليه، وهو مَن صرف اختيارَه إلى ما دُعِي إليه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يُقبِل إليه حيث يُمِدّه بالتوفيق والإلطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجماليّة إلى أحوال أهل الشرك. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم اليهود والنصارى»،[2] لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة، ٩٨/٤]، أي: وما تفرّقوا في الدين الذي دُعُوا إليه ولم يؤمنوا كما آمَن بعضُهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقّيّته بما شاهدوا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ مِن دلائل الحقّيّة حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلمُ بمبعثه عليه السلام.

وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرقوا في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات إلّا حالَ مجيء العلم أو إلّا وقتَ مجيء العلم ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ وحميّةً وطلبًا للرياسة، لا لأنّ لهم في ذلك شبهةً.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأُوقع القضاءُ بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾...[3] إلخ بيان لكيفيّة كفر المشركين بالقرآن إثرَ بيان كيفيّة كفر أهل الكتاب. وقُرئ: "وُرِّثُوا"،[4] وَ"وَرِثُوا".[5]

---

[1] س - تعالى.

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٧٨/١٧.

[3] م س ي - ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٩/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في الكشّاف، ٢١٦/٤.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٦/٤.

أي: وإنّ المشركين الذين أُورِثوا القرآنَ مِن بعد ما أُورِث أهلُ الكتاب كتابَهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في القلق أو في الرِّيبة، ولذلك لا يؤمنون به، لا لِمَحض البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقّيّته كدأب أهل الكتابَين.

[٥٣و] هذا، وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ ضمير ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ لأمم الأنبياء / عليهم السلام وأنّ المراد تفرّقُ كلّ أمّة بعد نبيّها مع علمهم بأنّ الفرقة ضلال وفساد وأمرٌ متوعَّد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فيردّه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

وكذا ما قيل[٢] مِن أنّ الناس كانوا أمّة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان، فلمّا مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله تعالى النبيّين مبشّرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنّما اختلفوا للبغي بينهم، فإنّ مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال مِن غير إنظارٍ وإمهالٍ. على أنّ مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمّة، وإنّما ذُكِر مَن ذُكِر مِن الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنّ ما شُرِع لهؤلاءِ دينٌ قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم السلام تأكيدًا لِوجوب إقامته، وتشديدًا للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرّض لبيان تفرّق أممهم عنه ربّما يوهم الإخلال بذلك المرام.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٥﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: فلأجل ما ذُكر مِن التفرّق والشكّ المريب، أو فلأجل أنّه شُرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ أي: الناسَ كافّةً إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجَبه، فإنّ كلًّا مِن تفرّقهم وكونهم في شكٍّ مُريب، ومِن شَرْع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سببٌ للدعوة إليه والأمرِ بها. وليس المشار إليه ما ذُكر مِن التوصية والأمرِ بالإقامة والنهي عن التفرّق حتّى يتوهّم شائبة التكرار.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٧٨.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١٦.

وقيل: المشار إليه نفس الدين المشروع، و"اللام" بمعنى "إلى"، كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، أي: فإلى ذلك الدين فادع ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحِي إليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيّ كتابٍ كان مِن الكتب المنزَّلة، لا كالذين / آمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ. وفيه تحقيق للحقّ، وبيان [٥٣ظ] لاتّفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوبِ أهل الكتابَين، وتعريض بهم. وقد مرّ بيان كيفيّة الإيمان بها في خاتمة سورة البقرة.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصلِ القضايا عند المحاكمة والخِصام. وقيل: معناه: لأُسَوّي بيني وبينكم، ولا آمرَكم بما لا أعمله، ولا أُخالفَكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرِّقَ بين أكابركم وأصاغركم. و"اللام" إمّا على حقيقتها والمأمورُ به محذوف، أي: أُمرتُ بذلك لأعدل، أو زائدةٌ، أي: أُمرتُ أن أعدِل، والباء محذوفة.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُنا جميعًا ومتولّي أمورنا، ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطّانا جزاؤها ثوابًا كان أو عقابًا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوِزكم آثارُها لنستفيد بحسناتكم ونتضرّرَ بسيّئاتكم، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجّة ولا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر ولم يبق للمُحاجّة حاجة، ولا للمخالفة مَحمل سوى المكابرة.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذا كما ترى مُحاجَزة في مواقف المُجاوبة، لا مُتارَكةٌ في مواطن المُحارَبة حتّى يُصارَ إلى النسخ بآية القتال.[1]

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

---

[1] قال بالنسخ الثعلبي في الكشف والبيان، ٣٠٨/٨. وآية القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ مِن بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه. والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه، أو مِن بعد ما استجاب الله لرسوله عليه السلام وأيّده بنصره، أو مِن بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقرّوا بنُعوته عليهِ السلام، واستفتحوا به قبل مبعثه عليه السلام. وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم وأولى بالحقّ.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زالّة زائلة باطلة؛ بل لا حجّة لهم أصلًا. وإنّما عبّر عن أباطيلهم بالحجّة مُجاراةً معهم على زعمهم الباطل. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لمكابرتِهم الحقّ بعد ظهوره، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسًا به في أحكامه / وأخباره، أو بما يحقّ إنزاله مِن العقائد والأحكام. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي يُوازَن به الحقوق ويستوي بين الناس، أو نفسَ العدل بأن أنزل الأمْرَ به، أو آلةَ الوزن. [٥٤و]

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيّ شيء يجعلك عالمًا؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يُخبِر بمجيئها الكتاب الناطق بالحقّ ﴿قَرِيبٌ﴾ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئُها. وقيل: "القريب" بمعنى: ذات قربٍ، أو ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ بمعنى البعث. والمعنى: أنّها على جناح الإتيان، فاتّبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئَك اليومُ الذي يوزن فيه الأعمال ويُوَفَّى جزاؤها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاء. كانوا يقولون: متى هي؟ ليتها قامت حتّى يظهر لنا الحقّ، أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمّد وأصحابه؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اعتناءٍ بها لتوقّع الثواب، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي: الكائنُ لا محالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، مِن المِزية، أو مِن "مَرَيتُ الناقة" إذا مَسَحْتَ ضَرعَها بشدّةٍ للحَلب؛ لأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدّة. ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ، فإنّ البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات، فمَن لم يهتدِ إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعدُ.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بَرّ بليغ البِرِّ بهم، يُفيض عليهم مِن فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه كيفما يشاء، فيختصّ كلًّا مِن عباده بنوعٍ مِن البِرّ على ما يقتضيه / مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة. [٥٤ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كلّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلَب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل: إلقاء البَذْر في الأرض، يُطلَق على الزرع الحاصل منه، ويُستَعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنيّة على تَشبيهها بالغِلال الحاصلة مِن البذور المتضمِّن لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له ثوابه بالواحد عشرةً إلى سبعِمائة فما فوقها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئًا منها حسبما قسمنا له، لا ما يريدُه ويَبتغيه، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت هِمّته مقصورةً على الدنيا، وقد مرّ تفصيله في سورة الإسراء.[١]

[١] عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآيات [الإسراء، ١٧/١٨-٢٠].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: بل أَلَهم شركاءُ مِن الشياطين؟ والهمزة للتقرير والتقريع. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتسويل ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإضافتُها إليهم لأنّهم الذين جعلوها شركاءَ لله تعالى. وإسناد الشرع إليها لأنّها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤]، أو تماثيلُ مَن سَنّ الضلالةَ لهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءِ السابق بتأخير الجزاء، أو العِدَة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقُرئ بالفتح[1] عطفًا على ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ولولا كلمة الفصل وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا، فإنّ العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

[٥٥و] ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة. / والخطاب لكلّ أحد ممَّن يصلح له، للقصد إلى أنّ سوء حالهم غير مختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.[2] ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وَوَبالُه لاحق بهم لا محالةَ، أشفقوا أو لم يُشفقوا. والجملة حال مِن ضمير ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أو اعتراض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ مستقِرّون في أطيبِ بِقاعها وأنزهِها، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يشتهونه مِن فنون المستلَذّات حاصلٌ لهم عند ربّهم، على أنّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾. وقيل: ظرف لـ﴿يَشَآءُونَ﴾.

---

[1] أي: بفتح همزة "وأنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج بن مسلم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

[2] وفي هامش م: وهذا ليس مِن قَبيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢] ونظائره، فتدبّر. «منه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن حال المؤمنين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بِبُعد منزلة المُشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايته.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الكبير هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أي: يبشّرهم به. فحُذف الجارّ ثمّ العائد إلى الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان، ٤١/٢٥]، أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله[1] عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وقُرئ: "يُبْشِرُ"،[2] مِن "أَبشَر".

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ رُوي أنّه اجتمع المشركون في مَجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أنّ محمّدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا، فنزلت.[3] أي: لا أطلب منكم على ما أنا عليه مِن التبليغ والبِشارة ﴿أَجْرًا﴾ نفعًا ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلّا أن تَوَدّوني لقرابتي منكم، أو تَودّوا أهل قرابتي.

وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجرًا قطّ، ولكن أسألكم المودّة. و﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حال منها، أي: إلّا المودّةَ ثابتة في القربى متمكّنة في أهلها أو في حقّ القرابة. و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مصدر كالزلفى بمعنى القَرابة.

رُوي أنّها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما».[4]

[٥٥ظ] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حَرمتِ الجنّة / على مَن ظلم أهل بيتي، وآذاني في عِترتي، ومَن اصطنع صنيعةً إلى أحد مِن ولد عبد المطّلب ولم يُجازِه فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لَقِيَني يوم القيامة».[5]

---

[1] س + تعالى.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٦١/٣. وأمّا "يَبْشُرُ" بفتح الياء وضمّ الشين وتخفيفها فقراءة صحيحة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٩/٤.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٧/٣ (٢٦٤١).

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤.

وقيل: ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ التقرّب إلى الله تعالى،[١] أي: إلّا أن تَودّوا الله ورسولَه في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقُرِئ: "إلّا مَوَدَّةً فِي القُرْبَى".[٢]

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسِبْ أيَّ حسنة كانت، فتتناول مودّةَ ذي القربى تناولًا أوّليًا، وعن السدّي: أنّها المرادة.[٣] وقيل: نزلت في الصِّدّيق رضي الله عنه ومودّته فيهم.[٤] ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسۡنًا﴾ بمضاعفة الثواب. وقُرِئ: "يَزِدْ"،[٥] أي: يَزِدِ الله، وقُرِئ: "حُسْنَى".[٦]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لِمَن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاع بتوفية الثواب، والتفضّل عليه بالزيادة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ محمّد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ بدعوى النبوّة وتلاوة القرآن؟ على أنّ الهمزة للإنكار التوبيخي، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام -وهو هو- إلى الافتراء لا سيّما الافتراء على الله الذي هو أعظم الفِرَى وأفحشُها؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنّه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه مِن ذلك قطعًا. وتحقيقه أنّ دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنّه تعالى لا يشاء صدوره

---

[١] م - تعالى.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٣٥/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في **الكشّاف**، ٢٢١/٤.

[٣] أي: المودّة لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٤/٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٤. وفي **جامع البيان** للطبري، ٥٠٣/٢٠، عن السدّي، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ قال: «يعمل حسنة».

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨٠/٥. والعبارة في **أنوار التنزيل**: "ومودّته لهم" [أي: لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم].

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٣٥/٩.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥.

عن النبيّ عليه السلام؛ بل يشاء عدمَ صدورِه عنه، ومِن ضرورته منعُه عنه قطعًا، فكأنّه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالىٰ لَشاءَ عدم صدوره عنك، وإن يَشَأْ ذلك يَخْتِم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنًى مِن معانيه ولم تنطق بحرفٍ مِن حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك -بل تواتر الوحي حينًا فحينًا- تبيّن أنّه مِن عند الله عزّ وجلّ.[1]

هذا، وقيل: المعنى: إن يَشأْ يجعلك مِن المختوم على قلوبهم، فإنّه لا يجترئ على الافتراء عليه تعالى إلّا مَن كان كذلك، ومؤدّاه استبعاد الافتراء مِن مثله عليه السلام، وأنّه في البعد مثلُ الشرك بالله والدخولِ في جملة المختوم على قلوبهم. وعن قتادة: «﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يُنسِكَ القرآنَ، ويَقطَعْ عنك الوحي».[2] يعني: لو افترى على الله الكذب لَفعل به ذلك. وهذا معنى ما قيل: لو كذَب على الله لأنساه القرآن. وقيل: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر حتّى لا يشقّ عليك أذاهم.[3]

[٥٦و] / ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرِّر لنفي الافتراء، غيرُ معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ كما يُنبئ عنه إظهار الاسم الجليل. وسقوط الواو[4] -كما في بعض المصاحف-[5] لاتّباع اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]. أي: ومِن عادته تعالى أنّه يمحو الباطل ويُثبِت الحقّ بوحيه أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ[6] بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء، ١٨/٢١]، فلو كان افتراءً كما زعموا لَمحَقَه ودمَغه.

---

١ س: تعالى.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.
٣ عن مجاهد في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.
٤ أي: الواو مِن: ﴿وَيَمْحُ﴾.
٥ بل اتّفقت جميع المصاحف العثمانيّة على ذلك. نقل أبو عمرو الداني عن ابن الأنباري قوله: «وحُذفت الواو مِن أربعة أفعال مرفوعة، أوّلها في سبحان: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]، وفي عسق: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]، وفي القمر: ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، وفي العلق: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق، ١٨/٩٦]». قال أبو عمرو: «ولم تختلف المصاحف في أنّ الواو مِن هذه المواضع ساقطة». المُقنع لأبي عمرو الداني، ص ٤٢.
٦ م س ي: يقذف.

أو عِدَةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه مِن البَهْتِ والتكذيب، ويثبت الحقّ الذي هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مردّ له بنُصرته عليهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيُجرِي عليها أحكامها اللائقة بها مِن المَحو والإثبات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التوبة: هو الرجوع عنِ المعاصي بالندم عليها، والعزمُ على أن لا يعاودها أبدًا. وروى جابر رضي الله عنه أنّ أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «اللّٰهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك»، وكبّر، فلمّا فرغ مِن صلاته قال له عليّ رضي الله عنه: «يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين، وتوبتُك هذه تحتاج إلى التوبة»، فقال: «يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟» قال: «اسمٌ يقع على ستّة معانٍ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما رَبَّيْتَها في المعصية، وإذاقتُها مرارةَ الطاعة كما أذَقْتَها حلاوة المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحك ضحكتَه».[1]

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرها لمَن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2] كائنًا ما كان مِن خير وشرّ، فيُجازي ويتجاوز حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. وقُرئ: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.[3]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤.

٢ م س ي: يَفْعَلُونَ. | و"يَفْعَلُونَ" بالياء قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب بخلف عن رُويس وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وقد جعل المصنِّف هنا القراءة بالياء أصلًا ثمّ أشار إلى القراءة بالتاء الموافقة لرواية حفص بقوله: "وقُرئ"، وذلك على خلاف منهجه في الكتاب.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، وهي رواية حفص عن عاصم، وهي الوجه الثاني لرُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ / أي: يستجيب الله لهم، فحذف [٥٦ظ] اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أي: كالوا لَهم، والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم، فإنّها كدعاء وطلبٍ لِما يترتّب عليها، ومنه قوله عليه السلام: «أفضل الدعاء الحمد لله».[١] أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم[٢] أنّه قيل له: ما بالُنا ندعو فلا نُجابَ؟ قال: «لأنّه دعاكم ولم تجيبوه»، ثمّ قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس، ٢٥/١٠].[٣]

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألوا واستحقّوا بموجَب الوعد. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين مِن الثواب والفضل المزيد.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبّروا وأفسدوا فيها بطَرًا، ولَعَلا بعضُهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء، كما عليه الجِبلّة البشريّة. وأصل البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى مِن حيث الكمّيّة أو الكيفيّة.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقدير ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ أن ينزّله ممّا يقتضيه مشيئته.

---

١ سنن الترمذي، ٤٦٢/٥ (٣٣٨٣)؛ سنن ابن ماجه، ٧١٢/٤ (٣٨٠٠).

٢ هو إبراهيم بن أدهَم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، البلخي، نزيل الشام، أبو إسحاق (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م)، الإمام، العارف، سيّد الزهاد. كان أبوه مِن أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير مِن علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش مِن العمل بالحصاد والحَمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. جاءه إلى المصيصة عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أنّ أباه قد مات، وخلّف له مالًا عظيمًا، فأعتق العبد ووَهبه الدراهم، ولم يَعبأ بمال أبيه. رُوي أنّه كان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعِظ أوجَز سفيانُ في كلامه مخافة أن يزِلّ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٧/٧؛ والأعلام للزركلي، ٣١/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدّر لكلّ واحد منهم في كلّ وقت مِن أوقاتهم ما يليق بشأنهم، فيُفقِر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبِض ويبسط، حسبما يقتضيه الحكمة الربّانيّة. ولو أغناهم جميعًا لبغَوا، ولو أفقرهم لهلَكوا. ورُوي أنّ أهل الصفّة تمنّوا الغِنَى، فنزلت.[١] وقيل: نزلت في العرب كانوا إذا أخصَبوا تحارَبوا، وإذا أَجْدَبوا انتجَعوا.[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم مِن الجَدْب، ولذلك خُصّ بالنافع منه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"،[٣] مِن الإنزال. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ يئِسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحقّقه بدونه أيضًا لتذكير كمال النعمة. وقُرئ بكسر النون.[٤]

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ أي: بركاتِ الغيث ومنافعَه في كلّ شيء مِن السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمتَه الواسعةَ المنتظِمةَ لِما ذُكر انتظامًا أوّليًا. ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يتولّى عبادَه بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد على ذلك لا غيرُه.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما هما عليه مِن تعاجيب[٥] الصنائع، فإنّها بذاتها / وصفاتها تدلّ على شئونه العظيمة، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ [٥٧و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨١/٥. و"انتجعوا" بمعنى: ارتحلوا للنجعة؛ وهي طلب الكلأ في غير بلادهم؛ لعدم ما تتعيّش به دوابّهم، فإذا تفرّقوا اشتغلوا عن القتال. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٢٠/٧.

٣ م: يُنزّل [بتشديد الزاي، وهو سهو] | قرأ: "يُنْزِلُ الْغَيْثَ" بإسكان النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ كذلك: "يُنْزِلُ بِقَدَرٍ" في الآية السابقة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٤ أي: "قَنِطُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٤.

٥ التعاجيب: العجائب، لا واحد لها مِن لفظها. الصّحاح للجوهري، «عجب».

عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو "الخلق" ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مِن حيّ، على إطلاق اسم المسبَّب على السبب،[١] أو ممّا يدبّ على الأرض، فإنّ ما يختصّ بأحد الشيئين المتجاورين يصحّ نسبته إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وإنّما يخرج مِن المِلح. وقد جُوّز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشيٌ مع الطيران فيوصفوا بالدبيب، وأن يخلق الله في السماء حيوانًا يمشون فيها مشيَ الأناسيّ على الأرض، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ٨/١٦]، وقد رُوي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فوقَ السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك ثمانية أَوْعال[٢] بين رُكَبِهنّ وأظلافهنّ[٣] كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك العرشُ العظيم».[٤]

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البعث للمحاسبة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ متعلّق بما قبله، لا بقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾، فإنّ المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرتُه، و﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضيَ تدخل المضارعَ.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيّ مصيبة كانت ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتُموها. و"الفاء" لأنّ ﴿مَا﴾ شرطيّة، أو متضمّنة لمعنى الشرط. وقُرئ بدونها[٥] اكتفاءً بما في الباء مِن معنى السببيّة.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ مِن الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإنّ ما أصاب غيرَهم لأسباب أُخَر، منها تعريضه للثواب بالصبر عليه.

---

١ وفي هامش م: فإنّ الحياة سبب للدّبيب. «منه».

٢ أَوْعال: جمع وَعْل بالفتح، وككَتِف؛ وهو تَيس الجبَل. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وعل».

٣ أظلاف: جمع ظِلْف بالكسر؛ وهو للبقرة والشاة والظبي، وشبهها بمنزلة القدم لنا. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «ظلف».

٤ مسند الإمام أحمد، ٢٩٢/٣ (١٧٧٠)؛ سنن أبي داود، ١٠٥/٧ (٤٧٢٣).

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضي عليكم مِن المصائب وإن هربتم مِن أقطارها كلَّ مَهرب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحميكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وقُرئ: "الجَوَارِي".[١] ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال على الإطلاق لا التي عليها النار للاهتداء خاصّةً.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

[٥٧ظ] ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تُجريها. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢] / ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَين ثوابتَ على ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات، لا غيرَ متحرّكات أصلًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن السفن اللاتي يجرين تارةً ويَركُدْنَ أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد، دالّةً على ما ذُكر مِن شئونه تعالى. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلّ مَن حبس نفسه عن التوجّه إلى ما لا ينبغي، ووكَل همّتَه بالنظر في آيات الله تعالى[٣] والتفكّر في آلائه، أو لكلّ مؤمِن كامل، فإنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يُسْكِنِ﴾، والمعنى: إن يشَأْ يسكنِ الريح فيركُدنَ، أَوْ يُرسِلْها فَيَغرَقنَ بِعَصْفِها. وإيقاعُ الإيباق عليهنّ مع أنّه حالُ أهلهنّ للمبالغة والتهويل. وإجراء حُكمه على العفو في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

---

[١] قرأ بإثبات الياء وصلًا نافع وأبو جعفر أبو عمرو، وقرأ بإثباتها وصلًا ووقفًا ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

[٣] م - تعالى.

لِما أنّ المعنى: أو يُرسلْها فيُوبِقْ ناسًا ويُنجِ آخرين بطريق العفو عنهم. وقُرئ: "وَيَعْفُو"[1] على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٣٥﴾

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطفٌ على علّة مقدّرة، مثل: لِينتقم منهم وليعلمَ... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم، ٢١/١٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف، ٢١/١٢]، ونظائرِهما. وقُرئ بالرفع[2] على الاستئناف، وبالجزم[3] عطفًا على ﴿يَعْفُ﴾،[4] فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمَعْ بين إهلاكِ قوم وإنجاءِ قوم وتحذير قوم. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[5] مِن مَهرب مِن العذاب. والجملة معلَّق عنها الفعل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ممّا ترغبون وتتنافسون فيه. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعها تتمتّعون به مدّةَ حياتكم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتًا لِخلوص نفعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زمانًا حيث لا يزول ولا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا. والموصول الأوّل لِما كان متضمّنًا لمعنى الشرط مِن حيث إنّ إيتاء ما أُوتوا سبب للتمتّع بها في الحياة الدنيا. دخلت جوابَها الفاءُ بخلاف الثاني. وعن عليّ رضي الله عنه / أنّه تصدّق أبو بكر رضي الله عنه[6] بماله كلّه، فَلَامَه جمعٌ مِن المسلمين، فنزلت.[7] [٥٨و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وعن أهل المدينة بنصب الواو. انظر: البحر المحيط لأبي حيان، ٣٤٠/٩؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

٣ أي: "وَيَعْلَمِ الَّذِينَ" بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٤ في الآية السابقة.

٥ س ي + أي.

٦ س – رضي الله عنه.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٥.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: الكبائر مِن هذا الجنس ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ مع ما بعده عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[1] أو مدح بالنصب أو الرفع. وبناءُ ﴿يَغۡفِرُونَ﴾ على الضمير خبرًا له للدلالة على أنّهم الأخصّاء بالمغفرة حال الغضب لعِزّة منالِها. وقُرئ: "كَبِيرَ الإِثْـمِ".[2] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: كَبِيرَ الإِثـمِ: الشرك.[3]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نزَل في الأنصار، دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان فاستجابوا له، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ذو شورى، لا ينفردون برأيٍ حتّى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزَبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي: في سبيل الخير، ولعلّ فصلَه عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ينتقمون ممَّن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهةَ التذلّل، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمّات الفضائل، وهذا لا ينافي وصفَهم[4] بالغفران، فإنّ كلًّا منهما فضيلة محمودة في موقعِ نفسِه، ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه، فإنّ الحِلم عن العاجز وعَوْرَاءِ الكرام محمود، وعن المتغلِّب ولَغواءِ اللِّئام مذموم، فإنّه إغراءٌ على البَغي، وعليه قول مَن قال:

إذا أنـت أكـرمـتَ الـكـريـمَ مـلَـكْـتَـهُ   وإن أنـت أكـرمـتَ الـلّـئـيـمَ تـمـرّدَا
فوضعُ الندى في موضع السيفِ بالعُلَى   مضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندَى[5]

---

[1] في الآية السابقة.
[2] أي: بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧/٤.
[4] س - بسائر مهمّات الفضل وهذا لا ينافي وصفهم؛ ي: وصفها.
[5] للمتنبي في ديوانه، ص ١٦٣.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1] بيان لوجه كون الانتصار مِن الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءةً إلى الغير، بالإشارة إلى أنّ البادئ هو الذي فعَله لنفسه، فإنّ الأفعال مستتبِعةٌ لِأجزيتها حتمًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. وفيه تنبيه على حُرمة التعدّي. وإطلاق السيّئة على الثانية لأنّها تسوء مَن نزلت به.

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عنِ المسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين مَن يعاديه / بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت، ٣٤/٤١]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَة مبهمة مُنبئة عن عِظَم شأن الموعود وخروجه عن الحدّ المعهود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البادئين بالسيّئة،[2] والمتعدّين في الانتقام. [٥٨ظ]

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: بعد ما ظُلِم، وقد قُرئ به.[3] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، كما أنّ الضميرَين لَها باعتبار اللفظ. ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة أو المعاقبة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرار،[4] أو يعتدون في الانتقام. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبّرون فيها تجبّرًا وفسادًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الظلم والبغي بغير الحقّ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

---

[1] س – ﴿مِثْلُهَا﴾.
[2] س: بالسنة.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
[4] س: بالإصرار.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لِمَن ظَلمه ولم ينتصر، وفوّض أمره إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إنّ ذلك منه، فحُذف ثقةً بغاية ظهوره، كما في قولهم: السَّمْن مَنَوان بدرهم.[1] وهذا في الموادّ التي لا يؤدّي العفو إلى الشرّ كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن ناصر يتولّاه مِن بعد خذلانه تعالى إيّاه. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رجعةٍ إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ حتّى نؤمِن ونعملَ صالحًا.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب. والخطاب في الموضعين لكلّ مَن يَتأتّى منه الرؤية. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلّلين متضائلين ممّا دهاهم. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدئ نظرهم إلى النار مِن تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ، كالمَصبور[2] ينظر إلى السيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المتّصفين بحقيقة الخُسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا ظرف لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقول في الدنيا، أو لـ﴿قَالَ﴾، أي: يقولون حين يرونهم على تلك الحال. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه.

---

[1] تقديره: مَنَوان منه بدرهم. و"مَنَوان" مثنّى "منا"، وهو ما يوزن به. انظر: الصِّحاح للجوهري، «منا».

[2] المصبور: هو المحبوس على القتل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صبر».

/ وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ إمّا مِن تمام كلامهم، أو تصديق مِن الله تعالى لهم. [٥٩و]

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدّي سلوكُه إلى النجاة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذ دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيّه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يردّه الله بعد ما حكم به، على أنّ ﴿مِنَ﴾ صلةُ ﴿مَرَدَّ﴾، أو مِن قبل أن يأتي مِن الله يومٌ لا يمكن ردّه.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: مفرّ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: إنكار لِما اقترفتموه؛ لأنّه مدوَّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تلوين للكلام،[1] وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرِهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول عليه السلام، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمّا تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد فعلتَ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً مِن الصحّة والغنى والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريدَ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي:

---

[1] التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

بلاء مِن مرضٍ وفقرٍ وخوفٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأسًا، ويذكر البليّة ويستعظمها ولا يتأمّل سببها؛ بل يزعم أنّها أصابَتْها بغير استحقاق لها. وإسنادُ هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها مِن خواصّ المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد.

وتصدير الشرطيّة الأُولى بـ﴿إذا﴾ مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أنّ إيصال النعمة محقَّق الوجود كثير الوقوع، وأنّه مقتضى الذات. كما أنّ تصدير الثانية بـ﴿إن﴾ وإسنادَ الإصابة إلى السيّئة وتعليلَها بأعمالهم للإيذان بنُدرة وقوعها، وأنّها بمَعزِل مِن الانتظام في سلك الإرادة بالذات. ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النِّعم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فمِن قضيّته أن يملك التصرّف فيهما وفي كلّ ما فيهما / كيفما يشاء، ومِن جملته أن يقسم النعمة والبليّة حسبما يريده. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ممّا تعلمه وممّا لا تعلمه، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ مِن الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ منهم مِن غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد. [٥٩ظ]

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرن بين الصنفين فيَهَبُهما جميعًا ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ قالوا:[١] معنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أن تلِد غلامًا ثمّ جاريةً ثمّ غلامًا، أو تلد ذكرًا وأُنثى توأمين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ والمعنى: يجعل أحوال العباد في حقّ الأولاد مختلفة على ما يقتضيه المشيئة فيهنّ، فيهب لبعضٍ إمّا صِنفًا واحدًا مِن ذكر أو أنثى، وإمّا صِنفين، ويُعْقِم آخرين.

---

[١] وفي هامش م: كواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٨٢ظ. | وهذا القول مرويّ عن مجاهد. انظر: تفسير مجاهد، ص ٥٩١؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٨/٢٠.

ولعلّ تقديمَ الإناث لأنّها أكثر لتكثير النسل، أو لأنّ مساق الآية للدلالة على أنّ الواقع ما يتعلّق به مشيئته تعالى، لا ما يتعلّق به مشيئة الإنسان، والإناث كذلك، أو لأنّ الكلام في البلاء، والعربُ تعدُّهنّ أعظمَ البلايا، أو لتطييب قلوب آبائهنّ، أو للمحافظة على الفواصل، ولذلك عُرّف، أو لجَبر التأخير.

وتغيير العاطف في الثاني لأنّه قسيم المشترَك بين القسمين، ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأنّه قسيم المشترَك بين الأقسام المتقدّمة.

وقيل: المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، وللنبيِّ صلوات الله عليهم[1] ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: وما صحّ لفردٍ مِن أفراد البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ بوجه مِن الوجوه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلّا بأن يُوحِيَ إليه، ويلهمه، ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أمّ موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وقد رُوي عن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره».[2]

أو بأن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام مِن غير أن يُبصر السامعُ مَن يكلّمه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، فإنّه تمثيل له بحال الملِكِ المحتجِب / الذي يكلّم بعض خواصّه مِن وراء الحجاب، يُسمع صوته [٦٠و] ولا يُرى شخصه، وذلك كما كلّم موسى، وكما يكلّم الملائكةَ عليهم السلام.

أو بأن يكلّمه بواسطة الملَك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملَكًا ﴿فَيُوحِىَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسَل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾

---

[1] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٤٩.

أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحيَه إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام في عامّة الأوقات مِن الكلام.

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَحْيًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ مصدران واقعان موقع الحال. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ ظرف واقع موقعها، والتقدير: وما صحّ أن يكلّم إلّا مُوحِيًا أو مُسمِعًا مِن وراء حجاب أو مرسِلًا. وقُرئ: "أَوْ يُرْسِلُ" بالرفع[١] على إضمار مبتدأ.

ورُوي أنّ اليهود قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «أَلَا تُكَلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه، فإنّا لَن نؤمِن حتّى تفعلَ ذلك»، فقال عليه السلام: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»، فنزلت.[٣]

وعن عائشة رضي الله عنها: «مَن زعم أنّ محمّدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِريةَ»، ثمّ قالت: «أَوَلم تسمعوا ربّكم يقول...» فتَلَتْ هذه الآية.[٤]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعالٍ عن صفات المخلوقين لا يتأتّى جَريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلّا بأحد الوجوه المذكورة، ﴿حَكِيمٌ﴾ يُجري أفعاله على سَنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة، وأخرى بدونها، إمّا إلهامًا، وإمّا خطابًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومِثل ذلك الإيحاء البديع ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياةً أبديّةً. وقيل: هو جبريل عليه السلام، ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحي.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي:
[٦٠ظ] الإيمانُ بتفاصيل ما في تضاعيف / الكتاب مِن الأمور التي لا يهتدي إليها العقول،

---

١ قرأ بها نافع وابن ذكوان بخلف عنه، وقرَآ كذلك: "فيوحي" بإسكان الياء. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

٢ س: عليه السلام.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٤.

٤ صحيح البخاري، ١٤٠/٦ (٤٨٥٥)؛ صحيح مسلم، ١٥٩/١ (١٧٧).

لا الإيمانُ بما يستقلّ به العقل والنظر، فإنّ درايته عليه السلام له ممّا لا ريب فيه قطعًا.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيّتها. ومفعول ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ محذوف ثقةً بغاية الظهور، أي: وإنّك لتَهدي بذلك النور مَن نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام. وقُرئ: "لَتُهْدَى"،[1] أي: لَيَهدِيك الله، وقُرئ: "لَتَدْعُو".[2]

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الأوّل. وإضافته إلى الاسم الجليل ثمّ وصْفُه تعالى بقوله تعالى:[3] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه، فإنّ كون جميع ما فيهما مِن الموجودات له تعالى خلقًا ومِلكًا وتصرّفًا ممّا يوجب ذلك أتمّ إيجابٍ. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور ما فيهما قاطبة، لا إلى غيره، ففيه مِن الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالّين عنه ما لا يَخفى.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ عسق﴾ كان ممَّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حَوشب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

[3] م - تعالى.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الزخرف

مكّيّة، وقال مقاتل: "إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]"،[١] فهي[٢] تسع وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في فاتحة سورة ﴿يسٓ﴾، خلا أنّ الظاهر على تقدير اسميّته كونه اسمًا للقرآن، لا للسورة كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مُخِلّ بجزالة النظم الكريم.[٤]

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ بالجرّ على أنّه مُقسَم به إمّا ابتداءً أو عطفًا على ﴿حمٓ﴾ على تقدير كونه مجرورًا بإضمار باء القسَم، على أنّ مدار العطف المغايرةُ في العنوان، ومَناطُ تكرير القسَم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسميّة.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البيّن لمَن أنزلَ عليهم؛ لكونه بلُغتهم وعلى أساليبهم، أو المبيِّن لطريق / الهدى مِن طرق الضلالة المُوضح لكلّ ما يُحتاج إليه في [٦١و]
أبواب الديانة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جواب للقسم، لكن لا على أنّ مرجع التأكيد جعلُه كذلك كما قيل؛[٥] بل ما هو غايته التي يُعرِب عنها قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

---

١ س ي – وقال مقاتل: «إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]». | الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٥؛ تفسير القرطبي، ١٦/٦١.

٢ س ي: وهي.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ١٧/٢٢٧.

٤ وفي هامش م: مِن جهة المعنى. «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٨٦.

فإنّها المحتاجة إلى التّحقيق والتأكيد لكونها مُنبئةً عن الاعتناء بأمرهم وإتمامِ النعمة عليهم وإزاحةِ أعذارهم، أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربيًّا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه مِن النظم الرّائق والمعنى الفائق، وتَقِفوا على ما يتضمّنه مِن الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حقّ النعمة في ذلك، وتنقطع أعذاركم بالكلّيّة.

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، فإنّه أصل الكتب السماويّة. وقرئ: "إِمِّ الكِتَابِ" بالكسر.[١] ﴿لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حِكمة بالغة، أو محكَم. وهما خبران لـ﴿إِنَّ﴾، وما بينهما بيان لمحلّ الحِكَم، كأنّه قيل بعد بيان اتّصافه بما ذكر مِن الوصفَين الجليلَين: هذا في أمّ الكتاب ولدينا.

والجملة إمّا عطف على الجملة المقسَم عليها، داخلة في حُكمها، ففي الإقسام بالقرآن على علوّ قدره عنده تعالى براعةٌ بديعة، وإيذانٌ بأنّه مِن علوّ الشأن بحيث لا يحتاج في بيانه إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره؛ بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك مِن حيث الإقسامُ به، كَما أنّه كافٍ فيها مِن حيث إعجازُه، ورمزٌ إلى أنّه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به. وإمّا مستأنَفة مقرّرة لعلوّ شأنه الّذي أنبأَ عنه الإقسامُ به على منهاجِ الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٧٦].

وبعد ما بُيّن علوّ شأن القرآن العظيم، وحُقّق أنّ إنزالَه على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجَبه عُقّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل:

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: ننحّيه ونبعّده عنكم. مجاز مِن قولهم:

---

[١] قرأ بكسر الهمزة في حالة الوصل حمزة والكسائي، ويبدآن بها بهمزة مضمومة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

"ضَرَب الغرائبَ عن الحوض"،[١] وفيه إشعار باقتضاء الحِكمة تَوجُّهَ الذِّكر إليهم وملازمتَه لهم، كأنّه يتهافَت عليهم. و"الفاء" للعطف على محذوف يقتضيه المقام، أي: أنُهمِلكم فنُنَحِّي الذِّكر عنكم ﴿صَفْحًا﴾ أي: إعراضًا عنكم، على أنّه مفعول له للمذكور، أو مصدر مؤكِّد لِما دلّ هو عليه، فإنّ / التنحية مُنبئة عن الصفح والإعراض قطعًا، كأنّه قيل: أفنصفَح عنكم صفحًا؟ أو بمعنى الجانب، فينتصب على الظرفيّة، أي: أفنُنحّيه عنكم جانبًا؟ [٦١ظ]

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لِأن كنتم مُنهمِكين في الإسراف مُصرّين عليه، على معنى: إنّ حالكم وإن اقتضى تخليتَكم وشأنكم حتّى تموتوا على الكفر والضلالة وتَبْقَوا في العذاب الخالد، لكنّا لِسَعة رحمتنا لا نفعل ذلك؛ بل نهديكم إلى الحقّ بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين. وقُرئ: ﴿إن﴾ بالكسر[٢] على أنّ الجملة شرطيّة مُخرِجة للمُحقَّق مُخرج المشكوك لاستجهالهم، والجزاءُ محذوف ثقةً بدلالة ما قبلَه عليه.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تقرير لِما قبله ببيان أنّ إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى مِن إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله عليه السلام[٣] عن استهزاء قومه به.[٤]

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: مِن هؤلاء القوم المسرفين. عِدَة له عليه السلام، ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأوّلين، ووَصْفُهم بأشدّيّة البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولويّة.

---

[١] وفي مجمع الأمثال للميداني، ٤١٩/١: «ضَرَبه ضرْبَ غرائب الإبل. وذلك أنّ الغريبة تزدحم على الحياض عند الورد، وصاحب الحَوض يطردها ويضربها بسبب إبله».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

[٣] م: عليه وسلّم.

[٤] س – به.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلَف في القرآن غيرَ مرّة ذِكر قصّتهم التي حقُّها أن تسير مسير المَثَل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لَيُسنِدُنّ خلقَها إلى مَن هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الأمر، لا أنّهم يعبّرون عنه بهذا العنوان. وسلوكُ هذه الطريقة للإشعار بأنّ اتّصافه تعالى بما سُرِدَ مِن جلائل الصفات والأفعال وبما يستلزمه ذلك مِن البعث والجزاء أمرٌ بيّن لا ريب فيه، وأنّ الحجّة قائمة عليهم شاءوا أو أبَوا. وقد جُوِّز أن يكون ذلك عينَ عبارتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ استئناف مِن جهته تعالى، أي: بسطها لكم تستقرّون فيها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها في أسفاركم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكّر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

[٦٢و] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يقتضيه[١] مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خاليًا عن النَّماء والنبات بالكلّيّة. وقُرئ: "مَيِّتًا" بالتشديد.[٢] وتذكيره لأنّ البلدة في معنى البلد والمكان. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعارِ بعظم خطره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات مِن الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي: تُبعَثون مِن قبوركم أحياءً. وفي التعبير عن إخراج النّبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، لتقويم سَنن الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

---

[١] س: تقتضيه.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: أصناف المخلوقات. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: الضروب والأنواع، كالحُلو والحامِض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى».[١] وقيل: كلّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تركبونه تغليبًا للأنعام على الفُلك، فإنّ الركوب متعدٍّ بنفسه، واستعمالُه في الفُلك ونحوها بكلمة "في" للرّمز إلى مكانيّتها وكون حركتها غير إراديّة، كما مرّ في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ [هود، ٤١/١١].

﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه مِن الفُلك والأنعام. والجمع باعتبار المعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظِمين لها، ثمّ تحمدوا عليها بألسنتكم، ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ متعجّبين مِن ذلك، كما يُروَى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان إذا وضع رجله في الرِّكاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابّة / قال: «الحمد لله على كلّ حال، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾... إلى [٦٢ظ] قوله تعالى: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾»،[٢] وكبّر ثلاثًا، وهلّل ثلاثًا.[٣]

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين، مِن "أقرَن الشيءَ" إذا أطاقه. وأصله وجدَه قرينته؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينةً للضعيف. وقُرئ بالتشديد،[٤] والمعنى واحد. وهذا مِن تمام ذِكر نعمته تعالى؛ إذ بدون اعتراف المُنعَم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حقَّ المُنعِم بها.

---

١ تفسير الرازي، ٦٢٠/٢٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٥/١٧.
٢ في الآية التالية.
٣ سنن أبي داود، ٢٤٣/٤ (٢٦٠٢)؛ سنن الترمذي، ٥٠٨/٥ (٣٤٤٦).
٤ أي: "مُقَرِّنِينَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون. وفيه إيذان بأنّ حقّ الرّاكب أن يتأمّل فيما يلابسه مِن المسير، ويتذكّرَ منه المسافرةَ العظمى التي هو الانقلاب إلى الله تعالى، فيبنِيَ أمورَه في مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يُخطِرَ بباله في شيء ممّا يأتي ويذَرُ أمرًا ينافيها، ومِن ضرورته أن يكون ركوبه لأمرٍ مشروع.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾...[١] إلخ، أي: وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف مِن عباده ولدًا. وإنّما عُبِّر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حقّ الواحد الحقِّ مِن جميع الجهات. وقرئ: "جُزُءًا" بضمّتين.[٢]

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكُفران مبالغ فيه؛ ولذلك يقولون ما يقولون، سبحان الله عمّا يصفون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة. وما فيها مِن معنى "بَل" للانتقال مِن بيان بطلان جَعلهم له تعالى ولَدًا على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولدَ مِن أخسّ صِنفَيه. والهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجيبِ مِن شأنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إمّا عطفٌ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتعجيب، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور. والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، أي: بل اتّخذ مِن خلقه أخسّ الصنفَين، واختار لكم أفضلهما؟[٣] على معنى: هَبُوا أنكم اجترأتم على إضافة اتّخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه، / أَمَا [٦٣و]
كان لكم شيء مِن العقل ونَبْذ مِن الحياء حتّى اجترأتم على التّفوّه بالعظيمة الخارقة للعقول مِن ادّعاء أنّه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفَين وأعلاهما

---

[١] الزخرف، ٩/٤٣.
[٢] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.
[٣] س ي: أفضلها.

وترَك له شرّهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ لتربية ما اعتُبِر فيهما مِن الحقارة والفخامة.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾... إلخ استئناف مقرّر لِما قبلَه، وقيل: حال، على معنى أنّهم نسبوا إليه ما ذُكر، ومِن حالهم أنّ أحدهم إذَا بُشّر به اغتمّ. والالتفات للإيذان باقتضاء ذِكر قبائحهم أن يُعرَض عنهم وتُحكى لغيرهم تعجيبًا منها، أي: إذا أُخبِر أحدهم بوِلادة ما جعله مَثَلًا له سبحانه؛ إذ الولد لا بدّ أن يجانس الوالد ويماثله.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار أسودَ في الغاية مِن سوء ما بُشّر به، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الكرب والكآبة. والجملة حال. وقرئ: "مُسْوَدٌّ"[١] و"مُسْوَادٌّ"،[٢] على أنّ في ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشَّر، و"وَجْهُهُ مُسْوَدٌّ" جملة وقعت خبرًا له.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تكرير للإنكار، وتثنية للتوبيخ. و﴿مَن﴾ منصوبة بمضمَر معطوفٍ على ﴿وَجَعَلُواْ﴾،[٣] أي: أَوَجعلوا مَن شأنه أن يُرَبَّى في الزِّينة وهو عاجز عن أن يتولّى لأمره بنفسه؟ فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وقد جُوّز انتصابها بمضمَر معطوف على ﴿ٱتَّخَذَ﴾،[٤] فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده، وإقحامُها بين المعطوفين لتذكير ما في ﴿أَمِ﴾[٥] المنقطعة مِن الإنكار وتأكيده. والعطف للتغاير العنواني، أي: أَوَاتّخذ مَن هذه الصفة الذميمة صفتُه؟

﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذُكر مِن القُصور ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي: الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامةِ حجّته

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ الزخرف، ٤٣/١٥.

٤ الزخرف، ٤٣/١٦.

٥ الزخرف، ٤٣/١٦.

لنقصانِ عقله وضعفِ رأيه. وإضافة ﴿غَيْرُ﴾ لا يمنع عمل ما بعده في الجارّ المتقدّم؛ لأنّه بمعنى النفي. وقُرئ: "يُنْشَأُ"،[١] و"يُناشَأُ"[٢] / مِن الإفعال والمفاعلة، والكلّ بمعنًى، ونظيره: غلّاه وأغلاه وغالاه. [٦٣ظ]

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ بيان لتضمّن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريعٌ لهم بذلك، وهو جعلهم أكملَ العباد وأكرمهم على الله عزّ وجلّ أنقصَهم رأيًا وأخسَّهم صنفًا. وقرئ: "عُبَيْدُ الرَّحْمَنِ"،[٣] وقُرئ: "عِنْدَ الرَّحْمَنِ"[٤] على تمثيل زُلفاهم. وقرئ: "أُنُثًا"،[٥] وهو جمع الجمع.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أحضروا خلقَ الله تعالى إيّاهم فشاهدوهم إناثًا حتّى يحكموا بأنوثتهم، فإنّ ذلك ممّا يُعلم بالمشاهدة؟ وهو تجهيل لهم وتهكّم بهم. وقُرئ: "أَأُشْهِدُوا" بهمزتين مفتوحة ومضمومة،[٦] و"آأُشْهِدُوا"[٧] بألف[٨] بينهما.[٩] ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة. وقُرئ: "سَيُكْتَبُ"[١٠] و"سَنَكْتُبُ"[١١] بالياء والنون. وقُرئ: "شَهَادَاتِهِمْ".[١٢] وهي قولهم: إنّ لله جزءًا، وإنّ له بناتٍ، وأنّها الملائكة. وقُرئ: "يُسَاءَلُونَ"[١٣] مِن المُساءلة للمبالغة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٤.
[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٤.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهْسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.
[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢.
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.
[٦] قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية ورش عن نافع. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢. وأمّا القراءة بهمزتين محقّقتين فقراءة شاذّة مرويّة عن عليّ والمفضّل عن عاصم. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٦٥/٩.
[٧] س: آاأشهدوا.
[٨] س ي: بالألف.
[٩] قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية أبو جعفر وقالون عن نافع. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢.
[١٠] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.
[١١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرَهْسَم وزيد بن عليّ وأبي حيوة وعميرة عن حفص. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.
[١٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥. وهي بكسر التاء على قراءة "سَنَكْتُبُ" بالنون والبناء للفاعل.
[١٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٦.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ بيان لفنّ آخر مِن كفرهم، أي: لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئةَ ارتضاءٍ ما عبدناهم. أرادوا بذلك بيانَ أنّ ما فعلوه حقّ مرضيّ عنده تعالى، وأنّهم إنّما يفعلونه بمشيئته تعالى، لا الاعتذارَ مِن ارتكاب ما ارتكبوه بأنّه بمشيئته تعالى إيّاه منهم مع اعترافهم بقُبحه حتّى ينتهض ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة.

ومبنى كلامهم الباطل على مقدّمتَين: إحداهما: أنّ عبادتهم لهم بمشيئته تعالى. والثانية: أنّ ذلكَ مستلزم لكونها مرضيّةً عنده تعالى.

ولقد أخطئوا في الثانية حيث جهلوا أنّ المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعضٍ كائنًا ما كان مِن غير اعتبار الرّضا أو السخط في شيء مِن الطرفين. ولذلك جُهّلوا بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما أرادوا بقولهم ذلك مِن كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة، فإنّ ذلك محقَّق ينطق به ما لا يُحصَى / مِن الآيات الكريمة. ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما. [٦٤و]

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحّلون تمحّلًا[١] باطلًا. وقد جُوّز أن يُشارَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أصل الدعوى، كأنّه لمّا أُظهِر وجوه فسادها وحُكِي شُبَههم المزيّفة نُفِي أن يكون لهم بها علم مِن طريق العقل.

ثمّ أُضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند مِن جهة النقل، فقيل: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قَبل القرآن أو مِن قَبل ادّعائهم، ينطق بصحّة ما يدّعونه، ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معوّلون.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: لم يأتوا بحجّة عقليّة أو نقليّة؛ بل اعترفوا بأن لا سندَ لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة مثلهم.

---

[١] التّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٦/٥.

والأمّة: الدين والطريقة التي تُؤَمّ، أي: تُقصَد، كالرُّحْلة لما يُرحَل إليه. وقُرئ: "إِمَّةٍ" بالكسر،[١] وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ، أي: القاصد. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ خبَرَانِ،[٢] أو الظرفُ صلة لـ﴿مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: والأمر كما ذُكر مِن عجزهم عن الحجّة وتشبّثهم بذيل التقليد. وقوله تعالى: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ[٣] مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ استئناف مبيّن لذلك دالّ على أنّ التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضًا سند غيره. وتخصيص المُترَفين بتلك المقالة للإيذان بأنّ التنعّم وحبّ البطالة هو الذي صرَفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَـٰلَ﴾ حكاية لِما جرى بين المنذِرين وبين أممهم عند تعلّلهم بتقليد آبائهم، أي: قال كلّ نذير مِن أولئك المنذِرين لأممهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ مِن الضلالة التي ليست مِن الهداية في شيء، وإنما عبّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مسلك الإنصاف.

[٦٤ظ] وقُرئ: "قُلْ"[٤] على أنّه حكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حينئذ / إلى كلّ نذير، لا على أنّه خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم كما قيل،[٥] لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ فإنّه حكاية عن الأمم قطعًا، أي: قال كلّ أمّة لنذيرها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز ومجاهد والجحدري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٦.

٢ س: خبر إنّ.

٣ م س ي – فِى قَرْيَةٍ.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٩/٥.

إنّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ، وقد أُجمِل عند الحكاية للإيجاز كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

وجعلُه حكايةً عن قومه عليه السلام بحملِ صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذِرين عليهم السلام وتوجيهُ كفرهم إلى ما أُرسل به الكلّ مِن التوحيد لإجماعهم عليه كما في نظائر قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء، ١٢٣/٢٦] تمحُّلٌ بعيد يردّه بالكلّيَة قولُه تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي: بالاستئصال ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مِن الأمم المذكورين، فلا تكترِث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ المُكبِّين على التقليد، كيف تبرّأ ممّا هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ وتمسّك بالبرهان ليسلكوا مَسلكه في الاستدلال، أو ليقلّدوه إن لم يكن لهم بدٌّ مِن التقليد، فإنّه أشرفُ آبائهم. و﴿بَرَآءٞ﴾ مصدر نُعِت به مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدّد، والمذكّر والمؤنّث. وقُرئ: "بَرِيءٌ"،[١] و"بُرَاءٌ" بضمّ الباء،[٢] ككَرِيم وكُرام. و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة أو موصولة حُذف عائدها، أي: إنّني بريء مِن عبادتكم أو معبودكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، أو متّصل على أنّ ﴿مَا﴾[٣] تَعمّ أُولي العلم وغيرَهم، وأنّهم كانوا يعبدون الله والأصنامَ، أو صفةٌ على أنّ ﴿مَا﴾ موصوفة، أي: إنّني براء مِن آلهةٍ تعبدونها غيرِ الذي فطرني، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيُثبّتني على الهداية، أو سيهدينِ إلى ما وراءَ الذي هداني إليه إلى الآن. والأوجَه أنّ "السين" للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٣ في الآية السابقة.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨﴾

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: جعل إبراهيم كلمة التوحيد التي ما تكلّم به عبارة عنها ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي: في ذرّيّته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الآيةَ [البقرة، ١٣٢/٢]، فلا يزالُ فيهم مَن يوحِّد
[٦٥و] الله تعالى / ويدعو إلى توحيده. وقُرئ: "كِلْمَةً"[1] و"في عَقْبِهِ"[2] على التخفيف.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ علّة للجَعل، أي: جعلها باقية في عقبه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ٢٩﴾

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: جعلها كلمة باقية في عقبه بأن وصّى بها بنيه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد، فلم يحصل ما رجاه؛ بل متّعتُ منهم هؤلاء المعاصرين للرسول عليه السلام مِن أهل مكّة ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمدّ في العمر والنعمة، فاغترّوا بالمُهلة وانهمكوا في الشهوات وشُغِلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾ أي: هؤلاء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أيّ رسول ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة واضحُها بالمعجزات الباهرة، أو مبينٌ للتوحيد بالآيات البيّنات والحجج.

وقُرئ: "مَتَّعْنَا"[3] و"مَتَّعْتَ" بالخطاب[4] على أنّه تعالى اعترض به على ذاتِه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾... إلخ[5] مبالغةً في تعييرهم، فإنّ التمتيع بزيادة النِّعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببًا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، فجعله سببًا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال.

---

١ م: كَلْمَة. | لم أجد مَن قرأها بفتح الكاف، إنّما هي بكسر الكاف وسكون اللام قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إسحاق الأزرق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزهري ويعقوب عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ لينبهّهم عمّا هم فيه مِن الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفرًا وعُتوًّا، وضمّوا إلى كفرهم السابق معاندةَ الحقّ والاستهانةَ به حيث ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فسمّوا القرآن سِحرًا، وكفروا به، واستحقروا رسولَ الله عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ أي: مِن إحدى القريتين؛ مكّة والطائف، على نهج قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن، ٥٥/٢٢]. ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: بالجاه والمال، كالوليد بن المغيرة المخزومي، وعروة بن مسعود الثقفي.[١] وقيل: حبيب بن عمر بن عمير الثقفي.[٢] وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبدِ يَالِيلَ.[٣]

ولم يتفوّهوا بهذه العظيمة حسدًا على نزوله إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم دون مَن ذُكِرَ مِن عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته؛ بل استدلالًا على عدمها، بمعنى أنّه لو كان قرآنًا لنزل إلى أحدِ هؤلاء بناءً على ما زعموا مِن أنّ الرسالة

---

١ هو عروة بن مسعود بن معتّب بن مالك الثقفي (ت. ٩هـ/٦٣٠م). كان أحد الأكابر مِن قومه. وثبت ذكر عروة بن مسعود في قصّة الحديبية، وكانت له اليد البيضاء في تقرير الصلح. رَوى ابن إسحاق أنّه اتّبع أثَر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا انصرف مِن الطائف، فأسلَم، واستأذنه أن يرجع إلى قومه، فقال: «إنّي أخاف أن يقتلوك». قال: «لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، فأذِن له فدعاهم إلى الإسلام، ونصح لهم فعصَوه، وأسمعوه مِن الأذى، فلمّا كان مِن السَّحَر قام على غرفة له فأذّن، فرماه رجل مِن ثقيف بسهم فقتله، فلمّا بلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَثَل عُروة مَثَل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤/٤٠٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٢٧.

٢ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٢٠/٥٨٠؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٣٣٢.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٢٠/٥٨٠؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٣٣٢. | هو كِنانة بن عبد ياليل الثقفي (ت. نحو ١٥هـ/٦٣٦م). كان رئيس ثقيف، واختلف في إسلامه، قال ابن عبد البرّ: «كان مِن أشراف ثقيف الذين قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد حصار الطائف، فأسلموا». وذكر المدائني أنّ وفد ثقيف أسلموا إلّا كِنانة، فإنّه قال: «لا يرثني رجل مِن قريش»، وخرج إلى نجران، ثمّ توجّه إلى الروم فمات بها كافرًا. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥/٤٩٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٣٤.

مَنصب جليل لا يليق به إلّا مَن له جلالة مِن حيث المالُ والجاهُ، ولم يَدْرُوا أنّها رتبة روحانيّة لا يترقّى إليها إلّا هِمم الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة، المُتحلّين بالفضائل / الأُنسيّة. وأمّا المتزخرفون بالزخارف الدنيويّة المتمتّعون بالحظوظ الدنيّة فهم مِن استحقاق تلك الرتبة بألف منزل. [٦٥ظ]

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب مِن تحكّمهم. والمراد بـ"الرحمة" النبوّة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي: أسباب معيشتهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قسمةً يقتضيها مشيئتنا المَبنيّةُ على الحِكَم والمصالح، ولم نفوِّض أمرها إليهم علمًا منّا بعجزهم عن تدبيرها بالكلّيّة.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادي المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوتةً بحسب القُرب والبُعد حسبما يقتضيه الحِكمة، فمِن ضعيفٍ وقويّ، وفقير وغنيّ، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرَف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مِهَنِهم، ويتسخَّروهم في أشغالهم، حتّى يتعايَشُوا ويترافَدوا ويَصلوا إلى مرافقهم، لا لكمالٍ في الموسِع ولا لنقصٍ في المُقتِر. ولو فوّضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيْصَّةِ[1] أمرهم وما يُصلِحهم مِن متاع الدنيا الدنيّة، وهو في طرف الثُّمام[2] على هذه الحالة فما ظنّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدّين، وهو أبعد مِن مناط العيّوق.[3] ومِن أين لهم البحث عن أمر النبوّة والتّخيُّر لها مَن يصلح لها ويقوم بأمرها؟

---

١ خُوَيْصَّة: تصغير خاصّة. لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٢ الثُّمام: نبت معروف في البادية. والعرب تقول للشيء الذي لا يعسر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثُّمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

٣ العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، يتلو الثريّا لا يتقدّمه. الصِّحاح للجوهري، «عوق».

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة وما يتبعها مِن سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن حطام الدنيا الدنيّة الفانية.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ استئناف مبيّن لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره عند الله عزّ وجلّ. والمعنى: أنّ حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبّهم الدنيا في الكفر إذا رأَوا أهلَه في سَعةٍ وتنعّمٍ فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره مَن هو شرُّ الخلائق وأدناهم منزلةً، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: متّخذةً منها.

و﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمالٍ مِن ﴿لِمَن﴾. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد المستكنّ في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها.

و"السَقُف" جمع سَقْف، كـ"رُهُن" جمع "رَهْن"، وعن الفرّاء أنّه جمع "سَقيفة"،[1] كـ"سُفُن" و"سفينة". وقرئ: "سُقْفًا" بسكون القاف[2] تخفيفًا، و"سَقْفًا"[3] اكتفاءً / بجمع "البيوت"، و"سَقَفًا"،[4] كأنّه لغة في سَقْف، و"سُقُوفًا".[5] [٦٦و]

﴿وَمَعَارِجَ﴾ أي: جعلنا لهم معارج مِن فضّة، أي: مصاعد، جمع "مِعرَج". وقُرئ: "مَعَارِيجَ"[6] جمع "مِعراج". ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يعلُون السطوح والعلاليّ.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤﴾

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ مِن فضّة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على السُرُر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾. ولعلّ تكريرَ ذِكر "بيوتهم" لزيادة التقرير.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٣/٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

﴿وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾

﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: زينةً عطفًا على ﴿سُقُفًا﴾،[١] أو ذهبًا عطفًا على محلّ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾.[٢] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وما كلّ ما ذُكر مِن البيوت الموصوفة بالصفات المفصّلة إلّا شيء يُتمتّع به في الحياة الدنيا. وفي معناه ما قُرئ: "وَمَا كُلُّ ذَلِكَ إلّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا".[٣]

وقُرئ بتخفيف "مَا"[٤] على أنّ ﴿إن﴾ هي المخفّفة، واللام هي الفارقة. وقُرئ بكسر اللام[٥] على أنها لام العلّة و"مَا" موصولة قد حُذف عائدها، أي: لَلذي هو متاع... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام، ١٥٤/٦].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ بما فيها مِن فنون النعيم التي يقصُر عنها البيان. ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي، وبهذا تبيّن أنّ العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يَتَعامَ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن. وإضافته إلى اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للإيذان بنزوله رحمةً للعالمين. وقُرئ: "يَعْشَ" بالفتح،[٦] أي: يَعْمَ، يقال: عَشِيَ يَعْشَى إذا كان في بصره آفة، وعَشا يَعشُو إذا تَعَشّى بلا آفةٍ، كعَرِجَ وعَرَجَ. وقُرئ: "يَعْشُو"[٧] على أنّ ﴿مَن﴾ موصولة غير مضمّنة معنى الشرط.

والمعنى: ومَن يُعرِضْ عنه لفَرط اشتغاله بزَهرة الحياة الدنيا وانهماكه في حظوظها الفانية والشهوات ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ لا يفارقه،

---

١ الزخرف، ٣٣/٤٣.

٢ الزخرف، ٣٣/٤٣.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٩/٤.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وخلف وابن عامر بخُلف عن هشام وابن وَردان عن أبي جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.

ولا يزال يوسوسه ويُغويه. وقُرئ: "يُقَيِّضْ" بالياء[١] على إسناده إلى ضمير ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾. ومَن رفَع "يَعْشو" فحقُّه أن يَرفع "يُقَيِّضُ".

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي: الشّياطين الذين / قُيِّض كلّ واحد منهم لكلّ واحدٍ ممَّن [٦٦ظ] يَعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ﴾ أي: قرناءَهم. فمدار جمع الضميرين اعتبارُ معنى ﴿مَن﴾،[٢] كما أنّ مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبارُ لفظها. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم﴾ أي: الشياطين ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى السبيل المستقيم، وإلّا لَما اتّبعوهم. أو يحسَبون أنّ أنفسهم مهتدون؛ لأنّ اعتقاد كونِ الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتّحاد مَسلكهما. والجملة حال مِن مفعول ﴿يَصُدُّونَ﴾ بتقدير المبتدأ، أو مِن فاعله، أو منهما لاشتمالها على ضميريهما، أي: وإنّهم لَيصدّونهم عن الطريق الحقّ وهم يحسبون أنّهم مهتدون إليه.

وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجدّدي لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، فإنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وإن كانت ابتدائيةً داخلةً على الجملة الشرطية لكنّها تقتضي حتمًا أن تكون غايةً لأمر ممتدّ كما مرّ مرارًا. وإفراد الضمير في ﴿جَآءَ﴾[٣] وما بعده لِما أنّ المراد حكاية مقالةِ كلِّ واحدٍ[٤] واحدٍ مِن العاشِين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال. والمعنى: يستمرّ العاشون على ما ذُكر مِن مقارنة الشياطين والصدِّ والحسبانِ الباطل، حتّى إذا جاءنا كلّ واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ مخاطِبًا له: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ أي: بُعدَ المشرق والمغرب، أي: تباعد كلّ منهما عن الآخر. فغُلِّب "المَشرقُ" وثُنِّي، وأضيف "البُعد" إليهما. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ أي: أنت.

---

[١] قرأ بها يعقوب وشعبة بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] س: جاءه.

[٤] س: وحد.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾... إلخ حكاية لِما سيقال لهم حينئذ مِن جهة الله عزّ وجلّ توبيخًا وتقريعًا، أي: لن ينفعكم ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ -أي: يوم القيامة- تمنّيكم لمباعدتهم ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: لأجل ظلمكم أنفسَكم في الدنيا باتّباعكم إيّاهم في الكفر والمعاصي.

وقيل: ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: إذ تبيّن عندكم وعند الناس جميعًا أنّكم ظلمتم أنفسَكم في الدنيا، وعليه قول مَن قال:

إذا ما انتسبنا لم تلِدني لئيمةٌ[1]

أي: تبيّن أنّي لم تلدني لئيمة؛ بل كريمة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع، أي: لأنّ [٦٧و] حقّكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب / كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا. ويجوز أن يُسنَد الفعل إليه، لكن لا بمعنى: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها وتقسُّمِهم لعَنائها، لأنّ لكلٍّ منهم ما لا يبلغه طاقتُه كما قيل؛[2] لأنّ الانتفاع بذلك الوجه ليس ممّا يخطر ببالهم حتّى يُرَدّ عليهم بنَفْيِه؛ بل بمعنى: لن يحصل لكم التّشفِّي بكون قرنائكم معذَّبين مثلكم حيث كنتم تدْعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ[3] ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]، وقولِكم: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، ونظائرِهما؛ لِتَتَشفَّوا بذلك.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه،

---

[1] تمامه:

ولم تَجدي مِن أن تَقرّي بها بدّا

وهو لزائد بن صعصعة الفقعَسي، يقول: إذا انتسبنا معًا تبيّن لكِ أنّي كريم مِن نسل كريم. أطلق الفعل، وأريدَ به ظهوره والعلم به اللازم له، فإنّ "لم تلدني" جواب إذا، أي: إذا انتسبنا علمتِ يا فلانة وتبيّنتِ أنّي لست بابن لئيمة. والبدّ: الفراق والخلاص، ومِن متعلّقة به، أي: لم تجِدِي خلاصًا مِن إقرارك بما قلته. انظر: شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٦/١.

[2] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩١/٥.

[3] م س ي: وآتِهم.

وهم لا يزيدون إلّا غَيًّا وتعاميًا عمّا يشاهدونه مِن شواهد النبوّة وتَصَامًّا عمّا يسمعونه مِن بيّنات القرآن، فنزل: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِی ٱلۡعُمۡیَ﴾. وهو إنكارُ تعجيبٍ مِن أن يكون هو الذي يَقدر على هدايتهم وهم قد تمرّنوا في الكفر واستغرقوا في الضلال، بحيث صار ما بهم مِن العَشَا عَمًى مقرونًا بالصَّمَم.

﴿وَمَن كَانَ فِی ضَلَـٰلࣲ مُّبِینࣲ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡعُمۡیَ﴾ باعتبار تغاير الوصفَين. ومدار الإنكار هو التمكّن والاستقرار في الضلال المُفرط بحيث لا ازعِواء له منه، لا توهُّمُ القصور مِن قِبَل الهادي، ففيه رمز إلى أنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله تعالى وحدَه بالقَسر والإلجاء.

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١﴾

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: فإن قبضناك قبل أن نُبَصِّرَكَ عذابَهم ونشفِيَ بذلك صدرَك وصدورَ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالةَ في الدنيا والآخرة. فـ﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسَم في أنّها لا تفارق النون المؤكِّدة.

﴿أَوۡ نُرِیَنَّكَ ٱلَّذِی وَعَدۡنَـٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَیۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ۝٤٢﴾

﴿أَوۡ نُرِیَنَّكَ ٱلَّذِی وَعَدۡنَـٰهُمۡ﴾ أي: أو أردنا أن نُريك العذاب الذي وعدناهم، ﴿فَإِنَّا عَلَیۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناصَ لهم مِن تحت ملَكتنا وقهرنا، ولقد أرَاه عليه السلام ذلك يوم بدر.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِیۤ أُوحِیَ إِلَیۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَ ٰطࣲ مُّسۡتَقِیمࣲ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرࣱ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤﴾

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِیۤ أُوحِیَ إِلَیۡكَ﴾ مِن الآيات والشرائع، سواء عجّلنا لك الموعود أو أخّرناه إلى اليوم الآخر. وقُرِئ: "أَوْحَى" على البناء للفاعل،[1] وهو الله عزّ وعلا.[2] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَ ٰطࣲ مُّسۡتَقِیمࣲ﴾ تعليل للاستمساك، أو للأمرِ به.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

[2] س: عزّ وجلّ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ﴾ لشرفٌ عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عنه / وعن قيامكم بحقوقه. [٦٧ظ]

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: واسأَلْ أمَمَهم وعلماءَ دينهم كقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس، ٩٤/١٠]. وفائدة هذا المجاز التنبيهُ على أنّ المسئول عنه عين مَا نطقت به ألسنة الرسل، لا ما يقوله أممُهم وعلماءهم مِن تلقاء أنفسهم. قال الفرّاء: «هم إنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء عليهم السلام».[1]

﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ أي: هل حكَمنا بعبادة الأوثان؟ وهل جاءت في ملّة مِن مِلَلِهم؟ والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنّه ليس ببِدعٍ ابتدعه حتّى يُكذَّب ويُعادَى.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ملتبِسًا بها ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أريدَ باقتصاصه تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، إثرَ ما أشيرَ[2] إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ أي: فاجَئُوا وقت ضحكهم منها، أي: استهزءوا بها أوّلَ ما رَأوها، ولم يتأمّلوا فيها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ أي: آيةً[3] مِن الآيات ﴿إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ أي:

---

[1] معاني القرآن للفرّاء، ٣٤/٣.
[2] س: يشير.
[3] س ي - أي: آيةً.

إلّا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسَب كلّ مَن ينظر إليها أنّها أكبر مِن كلّ ما يُقاس بها مِن الآيات. والمراد وصف الكلّ بغاية الكبَر مِن غير ملاحظة قُصور في شيء منها، أو إلّا وهي مختصّة بضرب مِن الإعجاز مفضّلة بذلك الاعتبار على غيرها.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسِّنين والطوفان والجراد وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم عليه مِن الكفر.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوّهم ونهاية حماقتهم. وقيل: كانوا يقولون للعالِم الماهر: ساحر؛ لاستعظامهم علم السِّحر. وقُرئ: "أَيُّهُ السَّاحِرُ" بضمّ الهاء.[1]

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك مِن النبوّة، / أو مِن استجابة دعوتك، أو مِن كشف العذاب عمَّن اهتدى، أو بما عهِد عندك [٦٨و] فوفَّيت به مِن الإيمان والطّاعة. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: لَمؤمنون، على تقدير كشف العذاب عنّا بدعوتك، كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف، ١٣٤/٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعوته ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجئوا وقت نكْث عهدهم بالاهتداء، وقد مرّ تفصيله في الأعراف.[2]

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مَجمعهم وفيما بينهم بعد أن كُشف العذاب عنهم مخافةَ أن يؤمنوا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

---

[1] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ١٤٢/٢.

[2] عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف، ١٣٥/٧].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تِنِّيس. ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ أي: مِن تحت قَصري، أو أمري. وقيل: مِن تحت سريري لارتفاعه. وقيل: بين يديّ في جِناني وبَساتيني. و"الواو" إمّا عاطفة لـ﴿هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ على ﴿مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ فتجري حال منها، أو للحال فـ﴿هَٰذِهِ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفتها و﴿تَجۡرِي﴾ خبر للمبتدأ. ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام مُلكه.

﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾

﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيف حقير، مِن المَهانة، وهي القِلّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: الكلامَ. قاله افتراءً عليه عليه السلام وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام مِن نوع رُتّة،[1] وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ [طه، ٢٠/٣٦].

و﴿أَمۡ﴾ إمّا منقطعة والهمزة للتقرير، كأنّه قال إثرَ ما عدّد أسباب فضله ومباديَ خيريّته: أَثَبَتَ عندكم واستقرّ لديكم أنّي أنا خير وهذه حالي مِن هذا... إلخ؟

وإمّا متّصلة، فالمعنى: أفلا تُبصرون أَم تبصرون؟ خلا أنّه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٌ﴾ مَوضع / "تبصرون"؛ لأنّهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بُصراءُ، [٦٨ظ]
وهذا مِن باب تنزيل السبب منزلة المسبَّب، ويجوز أن يُجعل مِن تنزيل المسبَّب منزلة السبب، فإنّ إبصارهم لِما ذُكر مِن أسباب فضله سببٌ على زعمه لحُكمهم بخيريّته.

﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣﴾

﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلّا أُلقي إليه مقاليد المُلك إن كان صادقًا، لِما أنّهم كانوا إذا سَوَّروا رجلًا سَوّروه وطوّقوه بطَوق مِن ذهب.

---

١ الرُتّةُ، بالضمّ: العُجمة في الكلام والحُكْلَة فيه. رجلٌ أَرَتُّ بيِّن الرَتَتِ. وفي لسانه رُتّة. الصّحاح للجوهري، «رتت».

و﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع "سِوار". وقُرِئ: "أَسَاوِرُ"[1] جمع "أَسْوِرة"، وقُرِئ: "أَسَاوِرَةٌ"[2] جمع "إسْوار" بمعنى السِّوار، على تعويض التاء مِن ياء "أساوِير"، وقد قُرِئ كذلك،[3] وقُرِئ: "وَأَلْقَى عَلَيهِ أَسْوِرَةً"[4] و"أَسَاوِرَ"،[5] على البناء للفاعل وهو الله تعالى.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يُعينونه أو يصدّقونه، مِن "قَرنتُه به فاقترَن"، أو متقارِنين، مِن "اقترَن" بمعنى تَقارن.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزّهم وطلب منهم الخِفّة في مطاوَعته، أو فاستخفّ أحلامهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغَويّ.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا أشدَّ الغضب. منقول مِن "أَسِفَ" إذا اشتدّ غضبه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمّ.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمَن بعدَهم مِن الكفّار يسلكون مَسلكهم في استيجاب مثلِ ما حلّ بهم مِن العذاب. وهو إمّا مصدر نُعِت به، أو جمع "سالف"، كخدَم جمع خادم. وقُرِئ بضمّ السين واللام،[6] على أنّه جمع "سَليف"،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[2] قرأ بها جميع القرّاء العشرة غير يعقوب وحفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى الضحّاك. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٩/٥.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٥.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

أي: فريق قد سلَف، كرُغُف، أو "سالِف" كصُبُر، أو "سَلَف" كأُسُد. وقُرئ: "سُلَفًا"[1] بإبدال ضمّة اللام فتحةً، أو على أنّه جمع "سُلْفة"، أي: ثُلّة قد سلَفت.

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي: عِظةً لهم، أو قصّةً عجيبة تسير مسيرَ الأمثال لهم فيقال: مَثَلكم مَثَل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

[٦٩و] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ/ مَثَلًا﴾ أي: ضرَبه ابن الزِّبَعْرَى حين جادل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١]، حيث قال: «أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟» فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال اللعين: «خصَمتُك وربِّ الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عُزيرًا، وبنو مُليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم.» ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم.[2] وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك المَثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يرتفع لهم جلَبة وضجيج فرَحًا وجدلًا.

وقُرئ: "يَصُدُّونَ"،[3] أي: مِن أجل ذلك المَثَل يُعرِضون عن الحقّ، أي: يَثبتون على ما كانوا عليه مِن الإعراض أو يزدادون فيه. وقيل: هو أيضًا مِن الصديد، وهما لغتان فيه، نحو: يعكِف ويعكُف، وهو الأنسب بمعنى المفاجأة.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ حكاية لطرفٍ مِن المَثَل المضروب، قالوه تمهيدًا لِما بنَوا عليه مِن الباطل المُمَوَّهِ بما يغترّ به السفهاء، أي: ظاهر أنّ عيسى خير مِن آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤١٧/١٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١).

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

واعلم أنّ ما نُقِل عنهم مِن الفرح ورفع الأصوات لم يكن لِما قيل: مِن أنّه عليه السّلام سكَت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. فإنّ ذلك -مع إيهامه لِما يجب تنزيهُ ساحته عليه السلام عنه مِن شائبة الإفحام مِن أوّل الأمر- خلاف الواقع. كيف لا، وقد رُوي أنّ قول ابنِ الزِّبَعْرَى: «خصمتُك وربِّ الكعبة»، صدر عنه مِن أوّل الأمر عند سماع الآية الكريمة، فردّ عليه النبيّ بقوله عليه السلام: «ما أجهَلَكَ بلغة قومك، أما فهمتَ أنّ "مَا" لِمَا لا يعقل»؟[١] وإنّما لم يخصّ عليه السلام هذا الحكم بآلِهتهم حين سأل الفاجرُ عن الخصوص والعموم عملًا بما ذُكر مِن اختصاص كلمة "مَا" بغير / العقلاء؛ لأنّ إخراج بعض المَعبودين عنه عند [٦٩ظ] المُحاجّة موهِم للرخصة في عبادته في الجملة، فعمّمه عليه السلام[٢] للكلّ، لكن لا بطريق عبارة النصّ؛ بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، ثمّ بيّن عليه السلام بقوله: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمَرَتْهم بذلك»[٣] أنّ الملائكة والمسيح بمَعزِل مِن أن يكونوا معبوديهم، كما نطق به قوله تعالى:[٤] ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الآيةَ [سبأ، ٤١/٣٤]. وقد مرّ تحقيق المقام عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. بل[٥] إنّما كان ما أظهروه مِن الأحوال المنكرة لمَحض وَقاحتهم وتَهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ أي: ما ضربوا لك ذلك المَثل إلّا لأجل الجِدال والخِصام، لا لطلب الحقّ حتّى يُذعِنُوا له عند ظهوره ببَيانك.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: لُدٌّ شِدادُ الخصومة، مَجبولون على المَحْكِ واللَّجاج.

---

١ قال الحافظ ابن حجر: «وقع في كلام كثير مِن فضلاء العجم ما نصّه: نُقل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لابن الزِّبَعْرَى: ما أجهلك بلغة قومك، إن "مَا" لِما لا يعقل. انتهى. وهذا لا أصل له مِن طريق ثابتة ولا واهية، وكأنّ المُوقع في ذلك قول ابن الحاجب: وأجيب بأن "ما" لِما لا يعقل، فظنّوا أنّه مِن جواب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم». موافقة الخبر لابن حجر، ١٧٥/٢.

٢ س – عليه السلام.

٣ مِن حديث ابن الزِّبَعرَى السابق.

٤ س – تعالى.

٥ وفي هامش م: عطف على قوله: "لم يكن". «منه».

وقيل: لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣] قالوا: «نحن أهدى مِن النصارى؛ لأنّهم عبدوا آدميًا، ونحن نعبد الملائكة»، فنزلَت.[١] فقولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام؛ لأنّ المراد بهم الملائكة. ومعنى ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾... إلخ: ما قالوا هذا القول إلّا للجَدل.

وقيل: لمّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٥٩/٣]، قالوا: «ما يريد محمّد بهذا إلّا أن نعبده، وأنّه يستأهل أن يُعبَد وإن كان بشَرًا كما عبَدت النصارى المسيح وهو بشَر».[٢]

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضجّون ويَضجَرون. والضمير في ﴿أَمْ هُوَ﴾ لمحمّد عليه السلام.

وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به. وقد جُوّز أن يكون مرادهم التنصّلَ عمّا أُنكِرَ عليهم مِن قولهم: "الملائكة بنات الله تعالى"، ومِن عبادتهم لهم، كأنّهم قالوا: "ما قلنا بِدعًا مِن القول، ولا فَعلنا مُنكرًا مِن الفعل، فإنّ النصارى جعلوا المسيحَ ابنَ الله وعبدوه، فنحن أشفّ[٣] منهم قولًا وفعلًا حيث نسَبنا إليه الملائكة، / وهم نسبوا إليه الأناسيَّ". [٧٠و]

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

فقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بالنبوّة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أمرًا عجيبًا حقيقًا بأن يُسيَّرَ ذِكره كالأمثال السائرة؛ على الوجه الأوّل استئناف مَسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن يُنسَب إليه ما نُسِب إلى الأصنام بطريق الرمز، كما نطق به صريحًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. وفيه تنبيه على بطلان رأي مَن رفعه عن رتبة العبوديّة، وتعريضٌ بفساد رأي مَن يرى رأيهم في شأن الملائكة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.

٣ الشفّ: الربح والزيادة، وفلان أشَفّ مِن فلان، أي: أكبر منه قليلًا، وأشفّ عليه: فضَلَه في الحسن وَفاقه. لسان العرب لابن منظور، «شفف».

وعلى الثاني والرابع لبيان أنّه قياس باطلٍ بباطلٍ، أو بأبطلَ على زعمهم، وما عيسى إلّا عبد كسائر العبيد، قُصارى أمره أنّه ممّن أنعمنا عليهم بالنبوّة، وخصَصناه ببعض الخواصّ البديعة؛ بأن خلقناه بوجه بديع، وقد خلقنا آدمَ بوجه أبدَعَ منه، فأين هو مِن رتبة الربوبيّة؟ ومِن أين يُتوهّم صحّة مذهب عَبَدته حتى يَفتخر عَبَدةُ الملائكة بكونهم أهدى منهم، أو يعتذروا بأنّ حالَهم أَشَفُّ أو أخفُّ مِن حالهم؟

وأمّا على الوجه الثالث فهو لِرَدّهم وتكذيبهم في افترائهم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ عيسى في الحقيقة وفيما أُوحِي إلى الرسول عليهما السلام ليس إلّا أنّه عبد مُنعَم عليهِ كما ذُكر، فكيف يرضى عليه السلام بمَعبوديّته؟ أو كيف يُتوهّم الرضى بمعبوديّة نفسه؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾... إلخ لتحقيق أنّ مَثَل عيسى عليه السلام ليس ببِدْعٍ مِن قدرة الله تعالى، وأنّه تعالى قادر على أبدَعَ مِن ذلك وأبدَعَ، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضًا مِن درجة المَعبوديّة، أي: قدرتنا بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي: لَخَلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ وأنتم رجال ليس مِن شأنكم الولادة ﴿مَّلَـٰٓئِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستقرّين فيها كما جعلناهم مستقرّين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي: يخلفونكم مِثلَ أولادكم فيما تأتون وما تذَرون، ويباشرون الأفاعيل المَنوطةَ بمباشرتكم / مع أنّ شأنهم التسبيح [٧٠ظ] والتقديس في السماء، فمَن شأنهم بهذه المَثابة بالنسبة إلى القدرة الربّانيّة كيف يتوهّم استحقاقهم للمعبوديّة، أو انتسابهم إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنّه بنزوله شَرط مِن أشراطها. وتسميته "عِلْمًا" لحصوله به، أو بحدوثه بغير أبٍ، أو بإحيائه الموتَى دليل على صحّة البعث الذي هو مُعظم ما يُنكره الكفرة مِن الأمور الواقعة في الساعة.

وقُرئ: "لَعَلَمٌ"،[١] أي: علامة. وقُرئ: "لَلْعَلَمُ".[٢] وقُرئ: "لَذِكْرٌ"[٣] على تسمية ما يُذكَر به ذِكرًا، كتسمية ما يُعلم به عِلمًا.

وفي الحديث: «إنّ عيسى عليه السلام ينزل على ثنيّة بالأرض المقدّسة، يقال لها: أَفِيقُ، وعليه مُمَصَّرتان،[٤] وبيده حَرْبة، وبها يقتل الدجّال، فيأتي بيتَ المقدس، والناسُ في صلاة الصبح، فيتأخّر الإمام، فيقدّمه عيسى عليه السلام ويصلّي خلفَه على شريعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرّب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا مَن آمن به».[٥]

وقيل: الضمير للقرآن، لِما أنّ فيه الإعلام بالساعة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تَشُكُّنّ في وقوعها، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: واتّبعوا هُدايَ، أو شرعي، أو رسولي. وقيل: هو قولُ الرسول مأمورًا مِن جهته تعالى. ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي أدعوكم إليه، أو القرآنُ على أنّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ له، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مُوصل إلى الحقّ.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن اتّباعي. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّنُ العداوة، حيث أخرج أباكم مِن الجنّة، وعرّضكم للبَليّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الإنجيلِ، أو الشريعةِ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ عطفٌ على مقدَّر يُنبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنّه قيل:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم وعكرمة والضحّاك وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي نصر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٤] المُمَصَّرة مِن الثياب: التي فيها صُفرة خفيفة. النهاية لابن الأثير، «مصر».

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦١/٤. قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ، وهو مفرّق في غُضون الأحاديث». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٤/٣.

قد جئتكم بالحكمة لأعلِّمكم إيّاها، ولأبيّن لكم ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ وهو ما يتعلّق بأمور الدين، وأمّا ما يتعلّق بأمور الدنيا فليس بيانه مِن وظائف الأنبياء عليهم السلام، كما قال عليه السلام: «أنتم أعلَمُ بأمور دنياكم».[١] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مُخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما / أبلّغه عنه تعالى. [٧١و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ بيان لِما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبّدُ بالشرائع. ﴿هَٰذَا﴾ أي: التوحيد والتعبّد بالشرائع ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ لا يضِلّ سالكه، وهو إمّا مِن تتمّة كلامه عليه السلام، أو استئناف مِن جهته تعالى مقرِّر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزِّبة ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ أي: مِن بين مَن بُعِث إليهم مِن اليهود والنصارى. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِن المختلِفين ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظر الناس ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم﴾ أي: إلّا إتيانَ الساعة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ أي: فُجاءةً، لكن لا عند كونهم مترقّبين لها؛ بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ المتحابّون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيويّة ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يومَ إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم مِن علائق الخُلّة والتحابّ، لظهور كونها أسبابًا للعذاب، ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فإنّ خُلّتهم

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٥. وهو بعض حديث أخرجه مسلم في صحيحه، ١٨٣٦/٤ (٢٣٦٣).

في الدنيا لمّا كانت في الله تبقى على حالها؛ بل تزداد بمشاهدة كلٍّ منهم آثارَ خُلّتهم مِن الثواب ورفعِ الدرجات. والاستثناء على **الأوّل** متّصل، وعلى **الثاني** منقطع.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ حكاية لِما ينادَى به المتّقون المتحابّون في الله يومئذ تشريفًا لهم، وتطييبًا لِقلوبهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفة للمنادى، أو نصب على المدح، ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مخلِصين وجوههم لنا،[١] جاعلين أنفسهم سالمةً لطاعتنا. وهو حال مِن "واو" ﴿ءَامَنُواْ﴾.

عن مقاتل: «إذا بعث الله الناس فزع كلّ أحد، فينادي منادٍ: "يا عبادي"، فيرفع الخلائق رءوسهم / على الرجاء، ثمّ يتبعها: "الذين آمنوا"... الآيةَ، فينكّس أهل الأديان الباطلة رءوسهم».[٢] [٧١ظ]

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُسرّون سرورًا يظهر حُبارُه -أي: أثره- على وجوهكم، أو تُزَيَّنون، مِن "الحَبْرة" وهو حُسن الهيئة، أو تُكرَمون إكرامًا بليغًا، و"الحَبْرة" المبالغة فيما وُصِفَ بجميل.

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ بعد دخولهم الجنّة حسبما أُمِروا به ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ كذلك. و"الصِحاف" جمع "صَحْفة". قيل: هي كالقَصعة. وقيل: أعظم القِصاع الجَفنة ثمّ القَصعة ثمّ الصَّحفة ثمّ المَكيلة. و"الأكواب" جمع "كُوب"، وهو كُوز لا عُروةَ له.

---

١ س - لنا.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٨١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٩/١٧.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ مِن فنون المَلاذّ. وقُرِئ: "مَا تَشْتَهِي".[١] ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: تستَلِذُّه وتَقَرّ بمشاهدته. وقُرِئ: "وَتَلَذُّهُ".[٢]

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمام للنعمة، وإكمال للسرور، فإنّ كلّ نعيم له زوال بالآخرة مقارِن لخَوفه لا محالةَ. والالتفات للتشريف.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ وقُرِئ: "وُرِّثْتُمُوهَا"[٣] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، شُبِّه جزاء العمل بالميراث لأنّه يَخلُفه العامل عليه. وقيل: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وصفة، والموصول مع صِلته خبرُه. وقيل: هو صفة ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ كالوجه الأوّل، والخبر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فتتعلّق "الباء" بمحذوف، لا بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ كما في الأوّلَين.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: بعضَها تأكلون في كلّ نَوبة، وأمّا الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرةً خلَتْ عن ثَمرها لحظةً، فهي مزيّنة بالثمار أبدًا، مُوقَرة بها.[٤] وعن النبيّ عليه السلام:[٥] «لا ينزِع رجل في الجنّة مِن ثمرها إلّا نبَتَ مِثلاها مكانها».[٦]

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، وهم الكفّار جسبما يُنبئ عنه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٨٨.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٦٣.

٤ أَوقَرَت النخلةُ؛ أي: كثُر حَملها. الصحاح للجوهري، «وقر».

٥ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ مسند البزّار، ١٠/١٢٣ (٤١٨٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٤٤.

[٧٢و] إيرادُهم في مقابلة المؤمنين / بالآيات. ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أو ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ هو الخبَر، و﴿فِي﴾ متعلّقة به.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفّف العذاب عنهم، مِن قولهم: "فَتَرَت عنه الحمّى" إذا سكنَت قليلًا، والتركيب للضَّعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب. وقُرِئ: "فِيهَا"،[١] أي: في النار ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيِسون مِن النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بذلك، ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لتعريضهم أنفسَهم للعذاب الخالد.

﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَنَادَوْا۟﴾ خازنَ النار: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ﴾ وقُرِئ: "يَا مَالُ" على الترخيم بالضمّ[٢] والكسر،[٣] ولعلّه رمز إلى ضَعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا حتى نستريح، مِن "قَضَى عليه" إذا أماته. والمعنى: سَلْ ربَّك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذُكر مِن إبلاسهم؛ لأنّه جُؤارٌ وتمنٍّ للموت لفَرط الشدّة.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ أي: في العذاب أبدًا، لا خلاصَ لكم منه بموت ولا بغيره. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه لا يُجيبهم إلّا بعد ألف سنةٍ.[٤] وقيل: بعد مائة. وقيل: بعد أربعين سنةً.

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو خطابُ توبيخٍ وتقريعٍ مِن جهة الله تعالى مقرِّرٌ لجواب مالِك، ومبيِّنٌ لسبب مكثهم. وقيل: في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله تعالى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٨/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السرار الغنوي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما وابن وثّاب والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٤ جامع البيان للطبري، ٦٤٩/٢٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٨٦/١٠.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ﴾ أيِّ حقٍّ كان ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفِرون منه، وأمّا الحقّ المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلُّهم كارهون له مشمَئزّون منه.

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾ كلام مبتدأ ناعٍ على المشركين ما فعلوا مِن الكيد برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، و"الهمزةِ" للإنكار، فإن أُريدَ بالإبرام الإحكامُ حقيقةً فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أُريدَ الإحكامُ صورةً فهي لإنكار الواقع / واستقباحِه، أي: أَأَبرَم مشركو[1] مكّة أمرًا مِن كيدهم ومَكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ [٧٢ظ]

﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ كَيدَنا حقيقةً، لا هُم، أو فإنّا مبرِمون كيدَنا بهم حقيقةً كما أبرَموا كيدَهم صورةً، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور، ٤٢/٥٢]، وكانوا يتناجَون في أنديتهم، ويتشاورون في أموره عليه الصلاة والسلام.[2]

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ﴾ أي: بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ وهو ما حدّثوا به أنفسَهم أو غيرَهم في مكان خالٍ ﴿وَنَجۡوَىٰهُم﴾ أي: ما تكلّموا به فيما بينهم بطريق التناجي.

﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما ونطّلع عليهما، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ عندهم ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كلَّ ما صدَرَ عنهم مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما ذُكر مِن سرّهم ونجواهم. والجملة إمّا عطفٌ على ما يتَرجِم عنه ﴿بَلَىٰ﴾، أو حال، أي: نسمَعُهما، والحال أنّ رسلنا يكتبونه.

[1] م س ي: مشركوا.

[2] س: عليه السلام.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: للكفرة تحقيقًا للحقّ، وتنبيهًا لهم على أنّ مخالفتك لهم بعدم عبادتك لِما يعبدونه مِن الملائكة عليهم السلام ليست لبُغضك وعداوتك لهم، أو لمعبوديهم؛ بل إنّما هو لجَزْمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنَوا عليه عبادتهم مِن كونهم بنات الله سبحانه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: له، وذلك لأنّه عليه السلام أعلَم الناس بشئونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومِن مَواجِب تعظيم الوالد تعظيم ولده.

وفيه مِن الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها، وعلى كون رسول الله عليه السلام[1] على قوّة يقين وثباتِ قدَم في باب التوحيد ما لا يخفى، مع ما فيه مِن استنزال الكفرة عن رتبة المكابَرة حسبما يُعرِب عنه إيراد ﴿إِن﴾ مكان "لو" المنبئةِ عن امتناع مقدّم الشرطيّة.

وقيل: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الموحِّدين لله تعالى. وقيل: فأنا أوّل الآنفين، أي: المستنكِفين منه أو مِن أن يكون له ولد، مِن "عَبِدَ يَعبَد" إذا اشتدّ أَنَفُه.

[٧٣و] وقيل: ﴿إِن﴾ نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أوّلُ / مَن قال بذلك. وقُرئ: "وُلْدٌ".[2]

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه به مِن أن يكون له ولد. وفي إضافة اسم "الرَّبّ" إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنّها وما فيها مِن المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيّته، كيف يُتوهَّم أن يكون شيء منها جُزءًا منه سبحانه؟ وفي تكرير اسم "الرَّبّ" تفخيم لشأن العرش.

---

[1] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ حيث لم يُذعنوا للحقّ بعد ما سمعوا هذا البرهان الجليّ ﴿يَخُوضُواْ﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم، فإنّ ما هم فيه مِن الأفعال والأقوال ليست إلّا مِن باب الجهل واللعِب. والجزم في الفعل لجواب الأمر. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ مِن يوم القيامة، فإنّهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يُفعَلُ بهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ الظرفان متعلّقان بالمعنى الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل مِن معنى المَعبوديّة بالحقّ بناءً على اختصاصه بالمعبود بالحقّ، كما مرّ في تفسير البسملة، كأنّه قيل: وهو الذي مستحِقّ لأن يُعبَد فيهما، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[1]

وقُرئ: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللّٰهُ وَفِي الْأَرْضِ اللّٰهُ".[2]

والراجع إلى الموصول مبتدأ قد حُذِف لطول الصِّلة بمتعلّق الخبر والعطفِ عليه، ولا مساغَ لكون الجارّ خبرًا مقدَّمًا، و﴿إِلَٰهٞ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا؛ لِلزوم عَراء الجملة حينئذ عن العائد، نعم يجوز أن يكون صِلةً للموصول، و﴿إِلَٰهٞ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، على أنّ الجملة بيان للصِّلة، وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهيّة لا على سبيل الاستقرار. وفيه نفي للآلهة السماويّة والأرضيّة، وتخصيصٌ لاستحقاق الإلهيّة به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالدليل على ما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ إمّا على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير. ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: العلمُ بالساعة التي فيها

---

[1] الأنعام، ٣/٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر وابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهم وابن يَعمر ونصر بن عاصم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٧٣ظ] تقوم القيامة، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء. والالتفات للتهديد. / وقُرئ على الغيبة.[١] وقُرئ: "تُحْشَرُونَ" بـ"التاء".[٢]

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعونه، وقُرئ بـ"التاء" مخفّفًا[٣] ومشدّدًا[٤] ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الّذي هو التوحيد، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد أوّلًا باعتبار لفظها. والاستثناء إِمّا متّصل والموصولُ عامّ لكلّ ما يُعبَدُ مِن دون الله، أو منفصل على أنّه خاصّ بالأصنام.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ أي: سألتَ العابدين والمعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِتعذُّر الإنكار لغاية بطلانه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكَون الكلّ مخلوقًا له تعالى؟

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرّ، إِمّا على أنّه عطفٌ على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[٥] أي: عنده علمُ الساعة وعلمُ قولِه عليه السلام: ﴿يَٰرَبِّ﴾... إلخ، فإنّ "القَول" و"القِيل" و"القال" كلّها مصادر، أو على أنّ "الواو" للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جوابُه. وفي الإقسام به مِن رَفعِ شأنه عليه السلام وتفخيمِ دعائه والتجائه إليه تعالى ما لا يخفى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأسود بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠؛ اللباب لابن عادل، ١٧/٣٠١.
٥ الزخرف، ٤٣/٨٥.

وقُرئ بالنصب[1] بالعطف على ﴿سِرَّهُمْ﴾،[2] أو على محلّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[3] أو بإضمار فعله، أو بتقدير فعل القسَم. وقُرئ بالرفع[4] على الابتداء، والخبرُ ما بعده. وقد جُوّز عطفُه على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.[5]

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن دَعوتهم وَاقْنَطْ عن إيمانهم، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: أمري تَسَلّمٌ منكم ومُتارَكة. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حالَهم البتّةَ وإن تأخّر ذلك. وهو وعيد مِن الله تعالى لهم، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "تَعْلَمُونَ"[6] على أنّه داخل في حيّز ﴿قُلْ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له يوم القيامة: "يا عبادِ، لا خوف عليكم اليوم[7] ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّة بغير حساب"».[8]

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢.

[2] الزخرف، ٨٠/٤٣.

[3] الزخرف، ٨٥/٤٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

[5] الزخرف، ٨٥/٤٣.

[6] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢.

[7] س - اليوم.

[8] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الدخان

مكيّة إلّا قولَه: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾[1] الآية [الدخان، ١٥/٤٤]،
وهي[2] سبع وخمسون، أو[3] تسع وخمسون آيةً.[4]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٧٤و]

﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾

﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الكلام فيه كالذي سلَف في السورة السابقة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المبينَ الذي هو القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القَدْر. وقيل: ليلة البَراءة. ابتُدِئ فيها إنزالُه، أو أُنزلَ فيها جملةً إلى السماء الدنيا مِن اللوح، وأملاه جبريل عليه السلام على السَّفَرة، ثمّ كان يُنزله على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نُجومًا في ثلاث وعشرين سنةً، كما مرّ في سورة الفاتحة.

ووصفُها بالبركة لِما أنّ نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينيّة والدنيويّة بأجمَعها، أو لِما فيها مِن تَنزّل الملائكة والرحمة، وإجابةِ الدعوة، وقَسمِ النعمة، وفَصلِ الأقضية، وفَضيلةِ العبادة، وإعطاءِ تمام الشفاعة لرسول الله عليه السلام.[5] وقيل: يزيد في هذه الليلة ماءُ زمزم زيادةً ظاهرة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبيّن لِما يقتضي الإنزال، كأنّه قيل: إنّا أنزلناه لأنّ مِن شأننا الإنذار والتحذير مِن العقاب. وقيل: جواب للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾... إلخ اعتراض. وقيل: جواب ثانٍ بغير عاطِف.

---

[1] س ي - قليلًا.
[2] ي - وهي
[3] س: وقيل.
[4] ي: سبع أو تسع وخمسون آيةً.
[5] س: صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف كما قبله، فإنّ كونها مَفرِق الأمور المُحكمة، أو الملتبِسة بالحكمة الموافِقة لها يستدعي أن يَنزل فيها القرآن الذي هو مِن عظائمها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿لَيْلَةٍ﴾،[1] وما بينهما اعتراض، وهذا يدلّ على أنّها ليلة القدر.

ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ أنّه يُكتب ويُفصَل كلّ أمر حكيم مِن أرزاق العباد وآجالِهم وجميع أمورهم مِن هذه الليلة إلى الأخرى مِن السنة القابلة.

وقيل: يُبدأ في استنساخ ذلك مِن اللوح في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القَدْر، فتُدفع نسخةُ الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذا الزلازل والخَسف والصواعق، ونسخةُ الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى ملَك الموت عليهم السلام.[2]

وقُرئ: "يُفَرِّقُ" بالتشديد.[3] وقُرئ: "يَفْرُقُ"[4] على البناء للفاعل، أي: يَفرُق الله تعالى كلَّ أمر حكيم. وقُرئ: / "نَفْرِقُ" بنون العظَمة.[5] [٧٤ظ]

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص، أي: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا مِن عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافيّة بعد بيان فخامته الذاتيّة، ويجوز كونه حالًا مِن ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾[6] لتخصّصه بالوصف، أو مِن ضميره في ﴿حَكِيمٍ﴾.[7] وقد جُوّز أن يراد به مقابل النهي، ويُجعلَ مصدرًا مؤكِّدًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾[8] لاتّحاد الأمر والفرقان في المعنى، أو لفعله المُضمَر لِما أنّ الفَرق به، أو حالًا مِن أحد ضميرَي ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾،[9] أي: آمرين، أو مأمورًا.

---

[1] في الآية السابقة.
[2] الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣١١/١٧.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
[6] في الآية السابقة.
[7] في الآية السابقة.
[8] في الآية السابقة.
[9] الدخان، ٣/٤٤.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل مِن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.[1] وقيل: جواب ثالث. وقيل: مستأنَف.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ غاية للإرسال متأخّرة عنه، على أنّ المراد بها الرحمةُ الواصلة إلى العباد، وباعث متقدِّم عليه، على أنّ المراد مبدؤها، أي: إنّا أنزلنا القرآن لأنّ مِن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالَهم. ووضعُ "الربّ" موضعَ الضمير للإيذان بأنّ ذلك مِن أحكام الربوبيّة ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره عليه السلام لتشريفه.

أو[2] تعليلٌ لـ﴿يُفْرَقُ﴾،[3] أو لقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾،[4] على أنّ قوله تعالى:[5] ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول للإرسال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر، ٢/٣٥]، أي: يُفرَقُ فيها كلّ أمر، أو يُصدَر الأوامر مِن عندنا؛ لأنّ مِن عادتنا إرسالَ رحمتنا.

ولا ريبَ في أنّ كلًّا مِن قسمة الأرزاق وغيرِها والأوامرِ الصادرة عنه تعالى مِن باب الرحمة، فإنّ الغاية لتكليف العباد تعريضُهم للمنافع.

وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع،[6] أي: تلك رحمةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تحقيق لربوبيّته تعالى، وأنّها لا تحِقّ إلّا لمَن هذه نُعوته.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾،[7] أو بيان، أو نَعت. وقُرئ بالرفع[8] على أنّه خبر آخَر، أو استئناف على إضمار مبتدأ.

---

[1] الدخان، ٣/٤٤.
[2] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "بدل". «منه».
[3] الدخان، ٤/٤٤.
[4] في الآية السابقة.
[5] م – تعالى.
[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
[7] في الآية السابقة.
[8] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل الإيقان في العلوم، أو إن كنتم موقنين في إقراركم بأنّه تعالى / ربّ السماوات والأرض وما بينهما إذا سُئلتُم: مَن خلَقَها؟ فقلتم: الله، عَلِمتم أنّ الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك. [٧٥و]

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها. وقيل: خبر لقوله تعالى:[١] "رَبُّ السَّمَاوَاتِ"... إلخ،[٢] وما بينهما اعتراض.

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنَفة كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بإضمار مبتدأ، أو بدل مِن "رَبُّ السَّمَاوَاتِ" على قراءة الرفع، أو بيان، أو نَعت له. وقيل: فاعل لـ﴿يُمِيتُ﴾، وفي ﴿يُحۡيِۦ﴾ ضمير راجع إلى ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.[٣] وقُرِئا بالجرّ[٤] بدلًا مِن ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥] على قراءة الجرّ.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣﴾

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ ممّا ذُكر مِن شئونه تعالى غيرُ موقنين في إقرارهم، ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جِدٍّ وإذعان؛ بل مخلوطًا بهُزءٍ ولعِب.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمرِ به على ما قبلها، فإنّ كونهم في شكّ ممّا يوجب ذلك حتمًا، أي: فانتظر لهم ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: يومَ شدّةٍ ومجاعةٍ، فإنّ الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إمّا لضَعف بصره، أو لأنّ في عام القحط يُظلِم الهواء لقِلّة الأمطار وكثرة الغُبار، أو لأنّ العرب تُسمّي الشرّ الغالبَ دخانًا.

---

[١] م – تعالى.
[٢] في الآية السابقة، على قراءة الرفع.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
[٥] في الآية السابقة.

وذلك أنّ قريشًا لمّا استعصت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا عليهم فقال: «اللّهمّ اشدُد وَطْأتكَ على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف»، فأخذَتْهم سَنة حتّى أكلوا الجِيَفَ والعظامَ والعِلْهِزَ، وكان الرجل يَرى بين السماء والأرض الدخانَ، وكان يحدِّث الرجلَ ويسمع كلامه ولا يراه مِن الدخان. وذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قائلين ذلك. فمَشى إليه عليه السلام أبو سفيان ونفَرٌ معه، وناشدوه اللهَ تعالى والرحِمَ، وواعدوه إن دعا لهم وكُشِف عنهم أن يؤمنوا،[١] وذلك قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا قول ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله تعالى[٢] عنهم، / وبه أخذ مجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفرّاء والزجّاج.[٣] [٧٥ظ]

وقيل: هو دخان يأتي مِن السماء قَبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأسُ الواحد كالرأس الحَنيذ،[٤] ويَعتري المؤمنَ منه كهيئة الزكام، ويكون الأرض كلّها كبيت أُوقِد فيه ليس فيه خَصاص.[٥]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أوّلُ الآيات الدخان، ونزولُ عيسى بن مريم عليه السلام،[٦] ونارٌ تخرج مِن قَعر عَدَنِ أَبْيَنَ[٧] تسوق الناس إلى المَحشر، قال حذيفة:[٨] «يا رسول الله، وما الدخان؟»، فتلا الآية، وقال: «يَملأ ما بين المَشرق والمَغرب، يمكث أربعين يومًا وليلةً، أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فهو كالسكران يخرج مِن مَنْخِرَيهِ وأُذُنيه ودُبره».[٩]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٣. وانظر: صحيح البخاري، ١/١٦٠ (٨٠٤)؛ ٢/٢٦ (١٠٠٧)؛ وصحيح مسلم، ١/٤٦٦ (٦٧٥)؛ ٤/٢١٥٥ (٢٧٩٨).

٢ س - تعالى.

٣ وفي هامش م: كذا في اللباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ١٧/٣١٥.

٤ الحَنِيذ: المَشوي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حنذ».

٥ الخَصاص: الفُرَج، مفرده: خَصاصة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٦ س - عليه السلام.

٧ عَدَن أَبْيَن: بلد باليمن، نُسب الى "أَبيَن"، وهو رجل مِن حِميَر أقام بها. الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري، ١/٢٣٧.

٨ س: خذيفة.

٩ جامع البيان للطبري، ٢١/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥١.

والأوّل هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعًا، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾... إلخ ردّ لكلامهم واستدعائِهم الكشفَ، وتكذيبٌ لهم في الوعد بالإيمان المنبئ عن التذكّر والاتّعاظ بما اعتراهم مِن الداهية، أي: كيف يتذكّرون. أو مِن أين يتذكّرون بذلك، ويَفُون بما وعدوه مِن الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: والحال أنّهم شاهدوا مِن دواعي التذكّر وموجِبات الاتّعاظ ما هو أعظم منه في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحقّ بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تَخِرّ لها صُمُّ الجبال؟

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو، رَيثما شاهدوا منه ما شاهدوا مِن العظائم الموجِبةِ للإقبال إليه، ولم يقتنعوا بالتولّي، ﴿وَقَالُوا۟﴾ في حقّه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: قالوا تارةً: "يُعلّمه غلام أعجمي لبعض ثقيف"، وأخرى: "مجنون"، أو يقول بعضهم كذا، وآخرون كذا، فهل يُتوقّع مِن قوم هذه صفاتهم أن يتأثّروا بالعِظة والتذكير؟ وما مَثَلُهم إلّا كمَثَل الكلب، إذا جاعَ ضَغا،[١] وإذا شَبع طَغا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى عن قولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[٢] بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد، وما بينهما اعتراض، أي: إنّا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، إنكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتم عليه مِن العتوّ والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة.

وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحقّقهما لا محالةَ، ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فما لبِثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه مِن العتوّ والعِناد. ومَن فسّر "الدخان" بما هو مِن الأشراط قال: إذا جاء الدخان تضوّر المعذّبون به مِن الكفّار والمنافقين وغوّثوا، وقالوا:

---

١ ضَغَا يَضغُو ضَغْوًا وضُغاءً: صَوّتَ وصاحَ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضغا».

٢ الدخان، ١٢/٤٤.

﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾،[١] فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يومًا، فرَيثما يكشفه عنهم يرتدّون ولا يتمهّلون.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي: يومَ القيامة. وقيل: يومَ بدر. وهو ظرف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لِـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾؛ لأنّ "إنّ" مانعة عن ذلك، أي: يومئذ ننتقم، إنّا منتقمون. وقيل: هو بدل مِن ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾... إلخ.[٢]

وقُرئ: "نُبطِش"،[٣] أي: نَحمل الملائكة على أن يَبطِشوا بهم البطشةَ الكبرى؛ وهو التناول بعُنف وصَولة، أو نَجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم. وقُرئ: "نَبطُش" بضمّ "الطاء"،[٤] وهي لغة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: امتحنّاهم بإرسال موسى عليه السلام، أو أوقَعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم. وقُرئ بالتشديد،[٥] للمبالغة، أو لكثرة القوم.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلّا مِن سَراة قومه وكِرامهم.

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨﴾

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أدُّوا إليّ بني إسرائيل، وأرسِلوهم معي، أو بأن أدُّوا إليّ يا عبادَ الله حقَّه مِن الإيمان وقَبول الدعوة. وقيل: ﴿أَنْ﴾ مفسِّرة؛ لأنّ مجيء الرسول لا يكون إلّا برسالة ودعوة. / وقيل: مخفّفة مِن الثقيلة، أي: [٧٦ظ]
جاءهم بأنّ الشأن أدّوا إليّ... إلخ.

---

١ الدخان، ٤٤/١٢.
٢ الدخان، ٤٤/١٠.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب المأمور به، أي: رسولٌ غيرُ ظَنِين، قد ائتمنَني الله تعالى على وَحيِه وصدَّقني بالمعجزات القاهرة.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبّروا عليه تعالى بالاستهانة بوَحيه وبرسوله. و﴿أَن﴾ كالتي سلَفت.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آتِيكُم﴾ أي: مِن جهته تعالى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل للنهي، أي: آتيكم بحجّة واضحة لا سبيلَ إلى إنكارها. و﴿آتِيكُم﴾ على صيغة الفاعل أو المضارع. وفي إيراد الأداء مع الأمين والسلطانِ مع العَلاء مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأتُ إليه وتوكّلت عليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ مِن أَن تَرجُموني، أي: تُؤذوني ضَربًا أو شَتمًا، أو أن تقتلوني. قيل: لمّا قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾[1] توعّدوه بالقتل. وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإن كابَرتم مقتضى العقل، ولم تؤمنوا لي، فخلّوني كَفافًا، لا عليّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بشرٍّ ولا أذًى، فليس ذلك جزاءَ مَن يدعوكم إلى ما فيه فَلاحكم. وحملُه على معنى: فاقطعوا أسباب الوصلة عنّي، فلا موالاةَ بيني وبين مَن لا يؤمن؛[3] يأباه المقام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد ما تَموا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: بأنَّ هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذِكر ما استوجبوه به،

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف، وهشام بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/١٦.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢٧٤.

ولذلك سُمّي دعاءً. وقُرئ بالكسر[١] على إضمار القول. قيل: كانَ دعاؤه: "اللّٰهمّ عجّل لهم ما يستحقّونه بإجرامهم".[٢] وقيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس، ٨٥/١٠].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ بإضمار القول، إمّا بعد "الفاء"، أي: فقال ربُّه: أسْرِ بعبادي، وإمّا قبلَها، كأنّه قيل: قال: إن كان الأمر كما تقول فأَسْرِ بعبادي، أي: ببني إسرائيل، فقد دبّر الله تعالى أن تتقدّموا. وقُرئ بوَصل "الهمزة"،[٣] مِن "سَرَى". ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتّبعكم فرعون وجنوده بعد ما علِموا بخروجكم.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ مفتوحًا، ذا فجوة واسعةٍ، أو ساكنًا على هيئته بعد ما جاوزته، / ولا تضرِبه بعصاك لينطبق، ولا تغيّره عن حاله ليدخله القِبط. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقُرئ: "أَنَّهُمْ" بالفتح،[٤] أي: لأنّهم. [٧٧و]

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾

﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي: كثيرًا تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافلَ مزيّنةٍ، ومنازلَ محسّنة.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: تنعُّم ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ متنعّمين. وقُرئ: "فَكِهِينَ".[٥]

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ "الكاف" في حيّز النصب، وذلك إشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه ﴿تَرَكُوا۟﴾،[٦] أي: مثلَ ذلك السَّلب سلبناهم إيّاها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير والحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٥/٤.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٤.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

٦ الدخان، ٢٥/٤٤.

وقيل: مثلَ ذلك الإخراج أخرجناهم منها. وقيل: في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: الأمرُ كذلك، فحينئذ يكون ﴿أَوْرَثْنَٰهَا﴾ معطوفًا على ﴿تَرَكُواْ﴾،[1] وعلى الأوّلَين على الفعل المقدَّر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهَلاكهم، والاعتدادِ بوجودهم. فيه تَهكّم بهم وبحالهم المنافيةِ لحال مَن يعظم فَقْدُه، فيُقال له: "بكَت عليه السماء والأرض"، ومنه ما رُوي: «إنّ المؤمن لَيَبكي عليه مُصَلّاه، ومحلُّ عبادته، ومصاعِدُ عمله، ومَهابطُ رزقه، وآثارُه في الأرض».[2] وقيل: تقديره: أهلُ السماء والأرض.

﴿وَمَا كَانُواْ﴾ لمّا جاء وقتُ هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾ مُمهَلين إلى وقتٍ آخَر، أو إلى الآخرة؛ بل عُجِّل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومِه ما فعلنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ مِن استعباد فرعون إيّاهم، وقتلِ أبنائهم، واستحياءِ نسائهم على الخَسف والضَّيم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْعَذَابِ﴾،[3] إمّا على جعله نفسَ العذاب لإفراطه فيه، وإمّا على حذف المضاف، أي: عذابِ فرعون، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فرعون. وقُرِئ: "مَن فِرْعَونُ"،[4] على معنى: هل تعرفونه مَن هو في عُتوّه وتَفرعُنه؟

---

١ الدخان، ٤٤/٢٥.

٢ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوف عليه في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٥٩/٤ (٣٠١٨).

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٠٤/٩.

وفي إبهام أمره أوّلًا وتبيينه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثانيًا مِن / الإفصاح عن كُنه أمره في الشرّ والفساد ما لا مزيد عليه. [٧٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿كَانَ﴾، أي: كان متكبّرًا مُسرفًا، أو حال مِن الضمير في ﴿عَالِيًا﴾، أي: كان رفيع الطبقة مِن بين المسرفين، فائقًا لهم بليغًا في الإسراف.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمين بأنّهم أحِقّاء بالاختيار، أو عالِمين بأنّهم يَزيغون في بعض الأوقات، ويكثُر منهم الفرَطات، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميعًا لكثرة الأنبياء فيهم، أو على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفَلْق البحر، وتظليلِ الغَمام، وإنزالِ المَنّ والسلوى، وغيرِها مِن عظائم الآيات التي لم يُعهَد مِثلُها في غيرهم ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نِعمةٌ جليّة، أو اختبارٌ ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّارَ قريش؛ لأنّ الكلام فيهم، وقصّةُ فرعونَ وقومِه مَسوقة للدلالة على تماثلهم في الإصرار على الضلالة، والتحذيرِ عن حُلول مثل ما حلّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلّا الموتةَ الأولى المزيلةَ للحياة الدنيويّة. ولا قصدَ فيه إلى إثبات موتةٍ أخرى، كما في قولك: "حَجّ زيد الحِجّة الأولى ومات".

وقيل: لمّا قيل لهم: إنّكم تموتون موتةً تعقُبها حياة، كما تقدّمَتكم موتة كذلك، قالوا: "ما هي إلّا موتتنا الأولى"، أي: ما الموتة التي تعقُبها حياةٌ إلّا الموتةَ الأولى. وقيل: المعنى: ليست الموتةُ إلّا هذه الموتةَ دون الموتةِ التي تعقُب حياةَ القبر كما تزعمون. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمَبعوثين.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا﴾ خطاب لمَن وعدهم بالنشور مِن الرسول عليه السلام والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعِدونه مِن قيام الساعة وبعثِ الموتى، ليظهر أنّه حقّ. وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى فيُنْشِرَ لهم قصيَّ
[٧٨و] بن كلاب ليشاوروه، وكان كبيرَهم ومَفزعَهم / في المهمّات والملمّات.[١]

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ردّ لقولهم، وتهديد لهم، أي: أهُم خير في القوّة والمنَعَة اللَّتين يُدفَع بهما أسباب الهلاك، ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبّع الحِميَري الذي سار بالجيوش وحَيّر الحِيرة[٢] وبنى سمرقندَ. وقيل: هدَمها.[٣] وكان مؤمنًا، وقومُه كافرين، ولِذلك ذمّهم الله تعالى دونه، وكان يكتب في عنوان كتابه: "بسم الذي ملَك بحرًا وبحرًا"، أي: بحارًا كثيرةً.

وعنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تسبّوا تُبّعًا، فإنّه كان قد أسلم».[٤] وعنه عليه السلام: «ما أدري أكان تُبّعٌ نبيًّا أو غير نبيّ».[٥] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٦] «أنّه كان نبيًّا».[٧]

وقيل لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنّهم يُتبَعون، كما يقال لهم: الأقيال؛ لأنّهم يُتَقَيّلون.[٨]

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، والمرادُ بهم: عاد وثمود وأضرابُهم مِن كلّ جبّار عنيد أولي بأسٍ شديد. والاستفهام لتقرير أنّ أولئك أقوى مِن هؤلاء.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٩/٤.

٢ "الحِيرة" مدينة بقُرب الكوفة، ومعنى "حَيّرها": بناها ونظّمَ أمرَها وصيّرها مدينةً، كما يقال: مَدَّن المدينةَ، ومَصَّرَ مِصرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٠/٨.

٣ فسمّيت لذلك "سمرقند"؛ إذ معناها الحَفر والتخريب. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٠/٨. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٩/٢١.

٤ مسند أحمد، ٥١٩/٣٧ (٢٢٨٨٠)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٩٦/١١ (١١٧٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٠/٣.

٦ م - رضي الله عنهما.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٠/٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٥٩/٥.

٨ "يُتَقَيّلون" بالبناء للمجهول، مِن قولهم: "تَقَيّلَ فلان أباه" إذا اقتدى به كما قاله الراغب في مفرداته، ص ٦٨٩. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٠/٨.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرِهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم، ليُعلَم أنّ أولئك حيث أُهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا في غاية القوّة والشدّة فلَأنْ يُهلَكَ هؤلاء وهم شركاء لهم في الإجرام أضعفُ منهم في الشدّة والقوّة أولى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين الجنسين. وقُرئ: "وَمَا بَيْنَهُنَّ".[١] ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهِينَ مِن غير أن يكون في خلقها غرض صحيح وغاية حميدة.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَا﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو أعمِّ الأسباب، أي: ما خلقناهما ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ، أو ما خلقناهما بسببٍ مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيُنكرون البعثَ والجزاء.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: فصلِ الحقّ عن الباطل، وتمييزِ المُحقّ مِن المُبطِل، وفصلِ الرجل عن أقاربه وأحبّائه ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقتُ موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. / وقُرئ: [٧٨ظ] "مِيقَاتَهُمْ"[٢] بالنصب على أنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ خبرُها، أي: إنّ ميعاد حسابهم وجزائِهم في يوم الفَصل.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾،[٣] أو صفة لـ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾،[٤] أو ظرف لِما دلّ عليه ﴿ٱلْفَصْلِ﴾، لا لنفسه. ﴿مَوْلًى﴾ مِن قَرابة أو غيرها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أيّ مولًى كان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.

﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لـ﴿مَوْلًى﴾ الأوّل باعتبار المعنى؛ لأنّه عامّ.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقَبول الشفاعة في حقّه. ومحلّه الرفع على البدل مِن "الواو"، أو النصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنصَرُ مَن أراد تعذيبه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمَن أراد أن يرحمه.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقُرئ بكسر "الشين".[١] وقد مرّ معنى "الزقّوم" في سورة الصافّات.[٢]

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: الكثيرِ الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يُمهَلُ في النارِ حتّى يذوب. وقيل: هو دُرديّ الزيت.[٣] ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ وقُرئ بـ"التاء"[٤] على إسناد الفعل إلى "الشجرة". ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانًا كغَلْيه.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول، والخطابُ للزبانية. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جرُّوه، و"العَتْلُ" الأخذ بمَجامع الشيء وجَرّه بقَهرٍ وعنف. وقُرئ بضمّ "التاء"،[٥] وهي لغة فيه. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصل: "يُصَبّ مِن فوق رءوسهم الحميم"، فقيل: "يُصبّ مِن فوق رءوسهم عذاب هو الحميم" للمبالغة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ الصافات، ٣٧/٦٢.

٣ دُرديّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله. الصحاح للجوهري، «درد».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

ثمّ أضيفَ "العذاب" إلى "الحَميم" للتخفيف، وزِيدَ "مِن" للدلالة على أنّ المصبوب بعضُ هذا النوع.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً به وتقريعًا له على ما كان يزعُمه، رُوي أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما بين جبلَيها[١] أعزُّ ولا أكرمُ منّي، فواللهِ ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئًا».[٢] وقُرئ بالفتح،[٣] أي: لِأنّك، أو عذابَ أنّك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تشكّون / وتمارون فيه. [٧٩و]
والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّ المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي ﴿فِي مَقَامٍ﴾ في موضع قيام، والمراد المكان على الإطلاق، فإنّه مِن الخاصّ الذي شاع استعماله في معنى العموم. وقُرئ بضمّ "الميم"،[٤] وهو موضع إقامة. ﴿أَمِينٖ﴾ يأمَن صاحبُه الآفات والانتقالَ عنه، وهو مِن "الأمْن" الذي هو ضدّ الخيانة، وصفَ به المكان بطريق الاستعارة، كأنّ المكان المُخيف يخون صاحبَه بما يَلقى فيه مِن المكاره.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ بدل مِن ﴿مَقَامٍ﴾[٥] جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيّبات المآكل والمشارب.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ خبر ثانٍ، أو حال مِن الضمير في الجارّ، أو استئناف. و"السُّندُس" ما رَقّ مِن الحرير، و"الإستَبرق" ما غلُظ منه، مُعرّب.

---

[١] وفي هامش م: أي: جبلَي مكّة؛ وهما أبو قُبيس وثَور. «منه».
[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٩٢/١٠ (القيامة، ٣٤/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٤.
[٣] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.
[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.
[٥] في الآية السابقة.

﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك، أو كذلك أَثَبْناهم، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ على الوصف. وقُرئ بالإضافة،[1] أي: قَرنّاهم بهِنّ. و"الحُور" جمع "الحَوراء"، وهي البيضاء، و"العِين" جمع "العَيناء"، وهي العظيمة العينَين. واختُلِف في أنّهنّ نساء الدنيا أو غيرُها.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتَهونه مِن الفواكه، لا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما يسُوءهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يستمرّون على الحياة أبدًا. والاستثناء منقطع، أو متّصل على أنّ المراد بيان استحالة ذَوق الموت فيها على الإطلاق، كأنّه قيل: لا يذوقون فيها الموتَ إلّا إذا أمكَن ذَوق الموتة الأولى حينئذ. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقُرئ مشدَّدًا[2] للمبالغة في الوقاية.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

[٧٩ظ] ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطُوا ذلك كُلَّه عطاءً وتفضّلًا منه تعالى. / وقُرئ بالرفع،[3] أي: ذلك فضل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه؛ إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونَيلٌ لكلّ المطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فذلَكة للسورة الكريمة، أي: إنّما أنزلنا الكتاب المبين بلُغتك كي يفهمه قومك، ويتذكّروا به،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

ويعملوا بموجَبه، وإذ لم يفعلوا ذلك **﴿فَٱرْتَقِبْ﴾** فانتظر ما يحُلّ بهم، **﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾** ما يحُلّ بك.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الدخان ليلةَ جمعة أصبح مغفورًا له».[1]

---

[1] مسند أبي يعلى، ١١/١٠٥ (٦٢٣٢)؛ عمل اليوم والليلة لابن السنّي، ص ٦٢٩.

سورة الجاثية

مكّيّة، وهي سبع أو[1] ستّ وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ③ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ④﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كما مرّ في فاتحة سورة المؤمن، فإن جُعل اسمًا للسورة فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿حمٓ﴾، والإشارة إلى السورة قبل جرَيان ذكرها قد وقفتَ على سِرّه مرارًا. وإن جُعِل مسرودًا على نمَط التعديد فلا حظَّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبر بعد خبر، على أنّه مصدر أُطلِق على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبر لمبتدأ مضمَر يُلوِّحُ به ما قبله، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: هو خبر لـ﴿حمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيلُ... إلخ. وقد مرّ مِرارًا أنّ الذي يُجعلُ عنوانًا للموضوع حقّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية بَعدُ فحقُّها الإخبارُ بها، وأمّا جعلُه خبرًا له بتقدير المضاف وإبقاءِ "التنزيل" على أصله -أي: تنزيل حم تنزيل الكتاب- فمَع عَرائه عن إفادة فائدة يُعتدّ بها تمحُّل على تمحُّل.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ كما مرّ في صدر سورة الزمر[2] على التفصيل.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ مُقسَم به، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ صفته، وجواب القسَم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. / وهو على الوجوه المتقدّمة كلام مستأنَف مَسوق للتنبيه على الآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة. [٨٠و]

---

[1] س: وقيل.

[2] الزمر، ١/٣٩.

ومحلّ "الآيات" إمّا أنفُس السماوات والأرض، فإنّهما مُنطويتان مِن فنون الآيات على ما يَقْصر عنه البيان، وإمّا خلقُهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: مِن نطفة ثمّ مِن علَقةٍ متقلِّبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على المضاف، دون المضاف إليه، أي: وفيما ينشره ويفرّقه مِن دابّة.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره الظرف المقدَّم، والجملةُ معطوفة على ما قبلها مِن الجملة المصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾.[١] وقيل: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ عطفٌ على ما قبلها مِن ﴿ءَايَٰتٍ﴾ باعتبار المحلّ عند مَن يُجوِّزه. وقُرئ: "آيَةٌ" بالتوحيد.[٢] وقُرئ: "آيَاتٍ" بالنصب[٣] عطفًا على ما قبلها مِن اسم ﴿إِنَّ﴾،[٤] والخبرُ هو الخبر، كأنّه قيل: وإنّ في خَلقكم وما يَبثّ مِن دابّة آياتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالجرّ على إضمار الجارّ المذكور في الآيتين قبله. وقد قُرئ بذكره.[٥] والمراد باختلافِهما إمّا تعاقُبهما أو تفاوتُهما طُولًا وقِصَرًا.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ أي: مِن مطر هو[٦] سبب للرزق، عُبّر عنه بذلك تنبيهًا على كونه آيةً مِن جهتَي القدرة والرحمة. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصنافَ الزروع والثمرات والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وعَرائِها عن آثار الحياة وانتفاءِ قوّة التنمية عنها وخلوِّ أشجارها عن الثمار.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٢٨٥/٤.

٦ س ي: وهو.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مِن جهة إلى أخرى، ومِن حال إلى حال. وقُرئ بتوحيد ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾.[١] وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدّمه عليه في الوجود إمّا للإيذان بأنّه آية مستقلّة حيث لو رُوعي الترتيب الوجودي لَربّما تُوهِّم أنّ / مجموع تصريف [٨٠ظ] الرياح وإنزالِ المطر آيةٌ واحدة، وإمّا لأنّ كون التصريف آيةً ليس لِمجرّد كونه مبدأً لإنشاء المطر؛ بل له ولسائر المنافع التي مِن جملتها سَوق السفُن في البحار.

﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ما تقدّم مِن الجارّ والمجرور، والجملة معطوفة على ما قبلها.

وقُرئ بالنصب[٢] على الاختصاص. وقيل: على أنّها اسم ﴿إِنَّ﴾،[٣] والمجرور المتقدّم خبرُها بطريق العطف على معمولَي عاملَين مختلفَين، هما ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي﴾،[٤] أقيمت "الواو" مُقامَهما فعَمِلت الجرَّ في ﴿ٱخۡتِلَٰفِ﴾، والنصبَ فِي "آيَاتٍ".

وتنكير ﴿ءَايَٰت﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم كمًّا وكَيفًا. واختلاف الفواصِل لاختلاف مراتب "الآيات" في الدقّة والجَلاء.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارة. وقيل: هو الخبر و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو عطفُ بيان. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال مِن فاعل "نَتلو"، أو مِن مفعوله، أي: نَتلوها مُحقِّين، أو ملتبسةً بالحقّ.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ﴾ مِن الأحاديث ﴿بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعدَ آيات الله، وتقديمُ الاسم الجليل لتعظيمها، كما في قولهم: "أعجبَني زيدٌ وكرمُه"، أو بعدَ حديثِ الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، وهو المراد بـ﴿ءَايَٰتِهِ﴾ أيضًا، ومناطُ العطف التغاير العنواني. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغة الغيبة. وقُرئ بـ"التاء".[٥]

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧١.

[٣] الجاثية، ٣/٤٥.

[٤] الجاثية، ٣/٤٥.

[٥] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧١.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذّابٍ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثام.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أَفَّاكٍ﴾. وقيل: استئناف. وقيل: حال مِن الضمير في ﴿أَثِيمٍ﴾. ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال مِن ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ولا مَساغَ لجعله مفعولًا ثانيًا لـ﴿يَسْمَعُ﴾؛ لأنّ شرطه أن يكون ما بعده ممّا لا يُسمَع، كقولك: "سمعتُ زيدًا يَقرأُ".

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: يُقيم على كفره، وأصله مِن "إصرار الحمارِ على العانة".[1]

[٨١و] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ / عن الإيمان بما سمعه مِن آيات الله تعالى، والإذعانِ لِما تنطِق به مِن الحقّ مُزدريًا لها مُعجَبًا بما عنده مِن الأباطيل.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري مِن أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن،[2] لكنّها وردت بعبارة عامّة، ناعيةٍ عليه وعلى كلّ مَن يسير سيرته ما هم فيه مِن الشرّ والفساد.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقّها أن تُذعِن لها القلوب، وتخضعَ لها الرقاب، كما في قول مَن قال:

يرى غمراتِ الموت ثمّ يزورها[3]

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنّه لم يسمعها، فخُفّف وحُذف ضمير الشأن. والجملة حال مِن ضمير[4] ﴿يُصِرُّ﴾، أي: يصرّ شبيهًا بغير السامع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره واستكباره.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ أي: إذا بلغه مِن آياتنا شيء، وعلِمَ أنّه مِن آياتنا، لا أنّه عَلِمه كما هو عليه، فإنّه بمَعزِل مِن ذلك العلم. وقيل: إذا علمَ منها شيئًا

---

١ العانة: القطيع مِن حُمُر الوحش، والجمع عُون. الصحاح للجوهري، «عون».

٢ تفسير مقاتل، ٣/٨٣٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٨٦.

٣ وفي هامش م: صدره:
ولا يكشف الغمّاءَ إلّا ابنُ حرّة
لجعفر بن عُلبة الحارثي في الحماسة للبصري، ١/٤٦.

٤ س – ضمير.

يمكن أن يتشبّث به المعاند ويجدَ له مَحملًا فاسدًا يتوسّل به إلى الطعن والغميزة ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ أي: الآياتِ كلَّها ﴿هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، لا ما سمعه فقط. وقيل: الضمير للشيء، والتأنيثُ لأنّه في معنى الآية.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "كلّ أفّاك" مِن حيث الاتّصافُ بما ذُكر مِن القبائح، والجمعُ باعتبار الشمول للكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون، ٥٣/٢٣]، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر باعتبار كلٍّ واحدٍ واحد. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وصف العذاب بالإهانة توفيةً لحقّ استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[1] أي: مِن قُدّامهم؛[2] لأنّهم متوجّهون إلى ما أُعِدّ لهم، أو مِن خلفهم؛ لأنّهم معرِضون عن ذلك مقبلون على الدنيا، فإنّ "الوراء" اسم للجهة التي يواريها الشخص مِن خلفٍ وقُدّام.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم﴾ ولا يدفع ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ مِن الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن عذاب الله تعالى، أو شيئًا / مِن الإغناء، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: [٨١ظ] الأصنامُ. وتوسيط حرف النفي بين المعطوفَين مع أنّ عدم إغناء الأصنام أظهرُ وأجلى مِن عدم إغناء الأموال والأولاد قطعًا مبنيٌّ على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمَعون في شفاعتهم. وفيه تهكُّم.

﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم مِن جهنّم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قَدرُه.

﴿هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿هَـٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿هُدًى﴾ في غاية الكمال مِن الهداية، كأنّه نفسُها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بالقرآن، وإنّما وُضِع موضع ضميره قوله تعالى:

---

[1] س - جهنّم.

[2] س + جهنّم.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لزيادة تشنيع كفرهم به، وتفظيعِ حالهم. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: مِن أشدّ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾. وقُرئ بالجرّ[1] على أنّه صفة ﴿رِجْزٍ﴾.

وتنوين ﴿عَذَابٌ﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعُه إمّا على الابتداء، وإمّا على الفاعليّة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأن جعلَه أملس السطح، يطفو عليه ما يتخَلخَل كالأخشاب، ولا يمنع الغوصَ والخَرقَ لِمَيَعانه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وأنتم راكبوها، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعَم المترتّبة على ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الموجودات، بأن جعلها مدارًا لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ إمّا حال مِن "ما في السماوات والأرض"، أو توكيد له. ﴿مِّنْهُ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾، أو حال مِن ﴿مَا﴾، أي: جميعًا كائنًا منه تعالى، أو سخّر لكم هذه الأشياء كائنةً منه، مخلوقةً له تعالى، أو خبرٌ لمحذوف، أي: هي جميعًا منه تعالى.

وقُرئ: "مِنَّةً"[2] على المفعول له، و"مَنُّهُ"[3] على أنّه فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك مَنُّه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأمور العظام ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةَ الشأن كثيرةَ العَددِ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صُنع الله تعالى، فإنّهم يقِفون بذلك على جلائل نِعَمه تعالى ودقائقها، ويُوَفَّقُون لشكرها.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حذف المَقول لدلالة ﴿يَغْفِرُواْ﴾ عليه، فإنّه جواب للأمر[1] باعتبار تعلّقه به، / لا باعتبار نفسه فقط،[2] أي: قل لهم: "اغفروا" يغفروا [٨٢و] ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقّعون وقائعه تعالى بأعدائه، مِن قولهم: "أيّام العرب" لوقائعها. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوزَ فيها.

قيل: نزلت قبل آية القتال[3] ثمّ نُسخت بها. وقيل: نزلت في عمر رضي الله تعالى[4] عنه حين شتمه غِفاري، فهَمّ أن يَبطِش به.[5]

وقيل: حين قال ابن أبيّ ما قال، وذلك أنّهم نزلوا[6] في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها: المُرَيسِيع، فأرسل ابنُ أبيّ غلامَه يستقي، فأبطأ عليه، فلمّا أتاه قال له: «ما حبَسَك؟»، قال: «غلامُ عمر، قعد على طرف البئر، فما ترك أحدًا يستقي حتّى ملأ قِرَبَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقِرَبَ أبي بكر رضي الله عنه»،[7] فقال ابن أبيّ: «ما مَثلُنا ومَثلُ هؤلاء إلّا كما قيل: سمِّن كلبك يأكُلْك»، فبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه، فاشتمل سيفه يريد التوجّه إليه، فأنزلها الله تعالى.[8]

---

١ س – للأمر.

٢ وفي هامش م: كما في قول مَن قال:
تِهْ أَحتَمِلْ واستَطِلْ أَخْضَعْ وعِزّ أَهُن
وأَعرِضْ أُقبِلْ وقُلْ أَسمَعْ ومُرْ أُطِعِ
وبعده:
ناهيكَ أنّك لو حمّلتَ قلبيَ ما
لم تستطِعه قلوبُ الناس يستطِعِ
«منه». | لابن زيدون في المطرِب لابن دِحية الكلبي، ص ١٦٥.

٣ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة، ٣٦/٩].

٤ س – تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٩/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٥.

٦ س – نزلوا.

٧ م – رضي الله عنه.

٨ أسباب النزول للواحدي، ص ٣٧٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٤/١٧.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، والمراد بـ"القوم" المؤمنون، والتنكير لمدحهم والثناءِ عليهم، أي: أُمِروا بذلك ليجزي يوم القيامة قومًا -أيَّما قوم، قومًا مخصوصين- بما كسبوا في الدنيا مِن الأعمال الحسنة التي مِن جملتها الصبرُ على أذيّة الكفّار، والإغضاءُ عنهم بكَظم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصُر عنه البيان مِن الثواب العظيم.

هذا، وقد جُوّز أنْ يُراد بـ"القوم" الكفرةُ، وبـ﴿مَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ سيّئاتُهم التي مِن جملتها ما حُكي مِن الكلمة الخبيثة. والتنكير للتحقير. وفيه أنّ مطلق الجزاء لا يصلح تعليلًا للأمر بالمغفرة، لتحقّقه على تقديرَي المغفرة وعدمِها، فلا بدَّ مِن تخصيصه بالكلّ، بأن لا يتحقّق بعض منه في الدنيا، أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك مِن التكلّف ما لا يخفى، وأن يُرادَ كِلا الفريقين، وهو أكثر تكلّفًا، وأشدّ تَمحّلًا.

وقُرئ: "لِيُجْزَى قَومٌ"،[1] و"لِيُجْزَى قَوْمًا"،[2] أي: ليُجزَى الجزاءُ قومًا. وقُرئ: "لِنَجْزِيَ" بنون العظَمة.[3]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

[٨٢ظ] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ / لا يكاد يَسري عمل إلى غير عامله. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ مالِكِ أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحكمةَ النظريّة والعمليّة، والفقهَ في الدين، أو فصلَ الخصومات بين الناس؛ إذ كان المُلكُ فيهم. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثُر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ممّا أحلّ الله تعالى مِن اللّذائذ، كالمَنّ والسَّلوى، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٩/٤.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

[3] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

حيث آتيناهم ما لم نُؤتِ مَن عداهم مِن فَلْقِ البحر وإظلالِ الغَمام ونظائرهما. وقيل: على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، ومعجزاتٍ قاهرةً. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو العِلم بمَبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وما بُيّن لهم مِن أمره، وأنّه يهاجر مِن تهامة إلى يثرب، ويكونُ أنصارُه أهلَ يثرب».[١]

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقِيقَته وحَقِّيَّته، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف موجِبًا لرسوخه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً وحسدًا، لا شكًّا فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: سنّةٍ وطريقةٍ عظيمةِ الشأن ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك مِن غير إخلال بشيء منها، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: آراءَ الجهَلة واعتقاداتِهم الزائغةَ التابعةَ للشهوات، وهم رؤساء قريش، كانوا يقولون له عليه السلام: "ارجع إلى دين آبائك".

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ممّا أراد بك إن اتبعتَهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم ولا يتّبع أهواءهم إلّا مَن كان ظالمًا مثلَهم،

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٢٠؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٧.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت قِدوتُهم، فَدُمْ على ما أنت عليه مِن تولّيه خاصّةً، والإعراضِ عمّا سواه بالكلّيّة.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾

[٨٣و] ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو اتّباعُ الشريعة / ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإنّ ما فيه مِن معالم الدين وشعائرِ الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، ﴿وَهُدًى﴾ مِن وَرْطة الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ مَن شأنهم الإيقان بالأمور.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ استئناف مَسوق لبيان تباين حالَي المسيئين والمحسنين إثرَ بيان تباين حالَي الظالمين والمتّقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى[١] "بل" للانتقال مِن البيان الأوّل إلى الثاني، و"الهمزةِ" لإنكار الحسبان، لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص، ٢٨/٣٨]؛ بل بطريق إنكار الواقع واستقباحِه والتوبيخِ عليه. والاجتراح: الاكتساب.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أي: نصيّرَهم في الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه مِن مساوي الأحوال ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم فيما هم فيه مِن محاسن الأعمال، ونُعامِلَهم معاملتَهم في الكرامة ورفعِ الدرجة.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: مَحيا الفريقين جميعًا ومَماتُهم، حال مِن الضمير في الظرف والموصول معًا لاشتماله على ضميرَيهما على أنّ "السواء" بمعنى المُستوي. و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان به على الفاعليّة.

والمعنى: أم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلَهم حالَ كون الكلّ مستويًا محياهم ومماتهم، كلّا، لا يستوُون في شيء منهما، فإنّ هؤلاء في عزّ الإيمان والطاعة

---

[١] س + من.

وشرفهما في المَحيا، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في المَمات، وأولئك في ذُلّ الكفر والمعاصي وهَوانِهما في المَحيا، وفي لعنة الله والعذاب الخالد في المَمات، شتّانَ بينهما.

وقد قيل: المراد إنكار أن يستَوُوا في المَمات كما استَوَوا في الحياة؛ لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحّة، وإنّما / يفترقون في المَمات. [٨٣ظ]

وقُرِئ: "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ"[١] بالنصب على أنّهما ظرفان، كـ"مَقْدَم الحاجّ"، و﴿سَوَآءً﴾ حال على حاله، أي: حالَ كونهم مستوين في محياهم ومماتِهم.

وقد ذكِر في الآية الكريمة وجوهٌ أُخَر مِن الإعراب، والذي يليق بجَزالة التنزيل هو الأوّل، فتدبّر.

وقُرِئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مبتدأٌ، فقيل: الجملة بدل مِن "الكاف". وقيل: حال.

وأيًا ما كان فنسبة حِسبان التساوي إليهم في ضمن الإنكار التوبيخي مع أنّهم بمَعزِل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة في الإنكار، والتشديدِ في التوبيخ، فإنّ إنكار حِسبان التساوي والتوبيخَ عليه إنكارٌ لحِسبان الجزم بالفضل وتوبيخٌ عليه على أبلغ وجه وآكَدِه.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساءَ حكمهم هذا، أو بئس شيئًا حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ استئناف مقرّر لِما سبق مِن الحكم، فإنّ خلق الله تعالى لهما ولِما فيهما بالحَقّ المقتضي للعدل يستدعي لا محالةَ تفضيلَ المحسن على المسيء في المَحيا والمَمات، وانتصارَ المظلوم مِن الظالم، وإذ لم يطّرد ذلك في المَحيا فهو بعد المَمات حتمًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطفٌ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ فيه معنى التعليل؛ إذ معناه خلقها مقرونةً بالحكمة والصوابِ، دون العبث والباطل، فحاصله خلقها لأجل ذلك ولِتُجزَى... إلخ، أو على علّة محذوفة، مِثل: لِيَدلّ بها على قدرته، أو لِيَعدلَ ولِتُجزَى.

﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثواب، أو بزيادة عقاب. وتسمية ذلك ظلمًا -مع أنّه ليس كذلك على ما عُرف مِن قاعدة أهل السنّة- لبيان غاية تنزّه ساحة لُطفه تعالى عمّا ذُكر بتنزيله منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه.[١]

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب مِن حال مَن ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنّه عبده، أي: أَنَظرتَ[٢] فرأيتَه؟ فإنّ ذلك ممّا يُقضَى منه العجب. وقُرئ: "آلِهَةً هَوَاهُ"؛[٣] لأنّ أحدهم كان / يستحسن حجَرًا فيعبده، فإذا [٨٤و] رأى أحسن منه رفضه إليه، فكأنّه اتّخذ آلهةً شتّى.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذَلَه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمًا بضلاله وتبديلِه لِفطرة الله التي فطَر الناس عليها، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثّر بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات والنُّذُر. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعةً عن الاستبصار والاعتبار. وقُرئ بفتح "الغين"،[٤] وضمِّها.[٥] وقُرئ: "غِشْوَةً".[٦]

---

١ س: تعالى.

٢ وفي هامش م: فيه إشارة إلى أنّ المعطوف عليه محذوف. «منه».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤. وأمّا: "غَشْوَةً" بفتح "الغين" وإسكان "الشين" مِن غير "ألف" فقرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن بعد إضلاله تعالى إيّاه بموجَب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغيّ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ألَا تلاحظون فلا تذكّرون. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل.

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ بيان لأحكام ضلالهم المَحكي، أي: قالوا مِن غاية غيّهم وضلالهم: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وَراءَ ذلك حياة. وقيل: نكون نُطَفًا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاءِ أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقد جُوِّز أن يريدوا به التناسخ، فإنّه عقيدة أكثر عبَدة الأوثان. وقُرئ: "نُحْيَا".[2]

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلّا مرورُ الزمان، وهو في الأصل مدّة بقاء العالَم، مِن "دَهَرَه"، أي: غلَبه. وقُرئ: "إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ".[3] وكانوا يزعمون أنّ المؤثّر في هلاك الأنفس هو مرور الأيّام والليالي، وينكرون ملَك الموت وقبضَه للأرواح بأمر الله تعالى، ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان. ومنه قوله عليه السلام: «لا تسبّوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر»،[4] أي: فإنّ الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهرَ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما ذُكر مِن اقتصار الحياة على ما في الدنيا، واستنادِ الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ما مستنِدٍ إلى عقل أو نقلٍ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلّا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليد مِن غير أن يكون لهم شيء يصحّ أن يتمسّك به في الجملة، هذا معتقدُهم الفاسد / في أنفسهم. [٨٤ظ]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٣/٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. جامع البيان للطبري، ٩٦/٢١.

[4] صحيح مسلم، ١٧٦٣/٤ (٢٢٤٦). ونحوه في صحيح البخاري، ٤١/٨ (٦١٨٢).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بالحقّ الذي مِن جملته البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على ما نطقَت به، أو مبيّنات له ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، أي: ما كان متمسَّكًا لهم شيء مِن الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نُبعَث بعد الموت، أي: إلّا هذا القولُ الباطل الذي يستحيل أن يكون مِن قَبيل الحجّة. وتسميته "حجّة" إمّا لسَوقهم إيّاه مساقَ الحجّة على سبيل التهكّم بهم، أو لأنّه مِن قَبيل:

تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ[١]

وقُرئ برفع ﴿حُجَّتَهُمْ﴾[٢] على أنها اسم ﴿كَانَ﴾، فالمعنى: ما كان حجّتُهم شيئًا مِن الأشياء إلّا هذا القولَ الباطلَ.[٣]

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداءً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، لا كما تزعمون مِن أنكم تَحيَون وتموتون بحكم الدهر. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإنّ مَن قدَر على البَدء قدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالةَ، والوعد المصدَّق بالآيات دلّ على وقوعها حتمًا، والإتيانُ بآبائهم حيث كان مزاحمًا للحكمة التشريعيّة امتنع إيقاعه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك مِن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهو إمّا مِن تمام الكلام المأمور به، أو كلام مَسوق مِن جهته تعالى تحقيقًا للحقّ،

---

[١] صدره:
وخيلٍ قد دلَفتُ لها بخيلٍ
وهو منسوب لعمرو بن معدي كرب. انظر: شعر عمرو بن معدي كرب لمطاع الطرابيشي، ص ١٤٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[٣] وفي هامش م: وقد أشيرَ مرارًا إلى أنّه أقصر بحسب المعنى. «منه».

وتنبيهًا على أنّ ارتيابهم لجهلهم وقُصورهم في النظر والتفكّر، لا لأنّ فيه شائبةَ ريبٍ ما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيان لاختصاص المُلك المطلق والتصرّف الكلّي فيهما وفيما بينهما بالله عزّ وجلّ إثرَ بيان تصرّفه تعالى في الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْسَرُ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الرُّكَب مُستوفِزةً.[١] وقُرئ: "جَاذِيَةً"،[٢] أي: جالسةً على أطراف الأصابع. / و"الجُذُوُّ" أشدّ استيفازًا مِن "الجُثُوّ". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿جَاثِيَةً﴾: مجتمِعة».[٣] وقيل: جماعاتٍ، مِن "الجُثْوة"؛ وهي الجماعة. [٨٥و]

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها. وقُرئ: "كُلَّ"[٤] بالنصب على أنّه بدل مِن الأوّل، و﴿تُدْعَىٰ﴾[٥] صفة، أو حال، أو مفعول ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا[٦] كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾... إلخ مِن تمام ما يقال حينئذ. وحيث كان كتابُ كلّ أمّة مكتوبًا بأمر الله تعالى أُضيفَ إلى نون العظَمة تفخيمًا لشأنه،

---

١ وفي هامش م: "استوفَزَ في قَعدَته": انتصب فيها غيرَ مطمئنّ، أو وَضَع ركبتيه ورفع إليَتَيه، أو استقلّ على رجليه ولمّا يَستوِ قائمًا، وقد تهيّأ للوثوب. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «وفز».

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٩/٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٧٠/١٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

٥ س: ويدعى.

٦ م س: بما.

وتهويلًا لأمره. فـ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿كِتَٰبُنَا﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مِن غير زيادة ولا نقصٍ، خبرٌ آخر، أو حال. و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنطِقُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾... إلخ تعليل لنُطقه عليهم بأعمالهم مِن غير إخلال بشيء منها، أي: إنّا كنّا فيما قَبلُ نَستكتِب الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال، حسنةً كانت أو سيّئةً.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في جنّته، تفصيل لِما يُفعَل بالأمم بعد بيان ما خُوطبوا به مِن الكلام المنطوي على الوعد والوعيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الإدخال في رحمته تعالى[١] ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ كونُه فوزًا لا فوزَ وراءَه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع: ألَم يكن تأتيكم[٢] رُسلي فلم تكُن آياتي تُتلى عليكم؟ فحُذف المعطوف عليه ثقةً بدلالة القرينة عليه. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: قومًا عادتُهم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

---

[١] س – تعالى.

[٢] س: يأتيكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما وعدَه مِن الأمور الآتية، أو وَعْدُه بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي: واقع لا محالةَ، أو مطابق للواقع، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي أشهَر ما وعدَه ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في وقوعها. وقُرئ: "وَالسَّاعَةَ" بالنصب[1] عطفًا على اسم ﴿إِنَّ﴾. / وقراءة الرفع للعطف على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها. [٨٥ظ]

﴿قُلْتُم﴾ لغاية عُتوّكم: ﴿مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ استغرابًا لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نفعل إلّا ظنًّا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦]. وقيل: ما نعتقد إلّا ظنًّا، أي: لا عِلمًا. وقيل: ما نحن إلّا نظنّ ظنًّا. وقيل: ما نظنّ إلّا ظنًّا ضعيفًا،[2] ويردّه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لإمكانه، فإنّ مقابل الاستيقان مطلقُ الظنّ، لا الضعيفُ منه. ولعلّ هؤلاء غيرُ القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.[3]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهَرَ لهم حينئذ ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ على ما هي عليه مِن الصورة المنكَرة الهائلة، وعايَنوا وَخامةَ عاقبتها، أو جزاءَها، فإنّ جزاء السيّئة سيّئةٌ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب تركَ المَنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ أي: كما تركتم عُدَّتَه ولم تبالوا به. وإضافة "اللقاء" إلى "اليوم" إضافةُ المصدر إلى ظرفه.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي: ما لأَحدٍ منكم ناصر واحد يخلّصكم منها.

---

[1] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

[2] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٦/٩.

[3] الجاثية، ٢٤/٤٥.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، ولم ترفعوا لها رأسًا، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسِبتم أن لا حياةَ سواها، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: مِن النار. وقُرِئ: "يَخْرُجُونَ"[١] مِن "الخروج". والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانةً بهم أو بنقلهم مِن مقام الخطاب إلى غَيابة النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يُطلب منهم أن يُعتِبوا ربّهم، أي: يُرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦﴾

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ خاصّةً، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يستحقّ الحمدَ أحدٌ سواه. وتكرير "الربّ" للتأكيد والإيذانِ بأنّ ربوبيّته تعالى لكلّ منها بطريق الأصالة. وقُرئ برفع الثلاثة[٢] على المدح بإضمار "هو".

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾

[٨٦و] ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ / لظهور آثارها وأحكامِها فيهما. وإظهارُهما في موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلّ ما قضى وقدَّر، فاحمَدوه، وكبِّروه، وأطيعوه.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الجاثية سترَ الله تعالى عَورته، وسكَّن رَوعته يوم الحساب».[٣]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/٩٠.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٩٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الأحقاف

مكّيّة، وهي أربع -وقيل: خمس-[1] وثلاثون[2] آيةً.[3]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ③﴾

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في مطلع السورة السابقة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيهما مِن حيث الجزئيّةُ منهما، ومِن حيث الاستقرارُ فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل، أي: إلّا خَلقًا ملتبِسًا بالحقّ[4] الذي يقتضيه الحكمة التكوينيّة والتشريعيّة، أو مِن أعمّ الأحوال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أو مِن مفعوله، أي: ما خلقناها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابَستنا بالحقّ، أو حالَ ملابستها به. وفيه مِن الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفاتِ كماله وابتناءِ أفعاله على حِكم بالغةٍ وانتهائِها إلى غايات جليلة ما لا يخفى.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بتقدير مضاف، أي: وبتقدير أجلٍ مسمًّى ينتهي إليه أمور الكلّ، وهو يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤].

وقيل: هو آخر مدّة البقاء المقدَّر لكلّ واحد،[5] ويأباه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾، فإنّ ما أُنذِروه يومُ القيامة وما فيه مِن الطامّة التامّة والأهوالِ العامّةِ لا آخِرُ أعمارهم.

---

١ س - وقيل: خمس؛ ي - وهي أربع، وقيل: خمس.

٢ ي: ثلاثون وخمس.

٣ س + وقيل: خمس؛ ي: آيات.

٤ وفي هامش م: فإنّ عدم جواز تفريغ العامل في المصدر المؤكّد دون المخصِّص. «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١١١/٥.

وقد جُوِّز كونُ ﴿مَا﴾ مصدريّة، والجملة حاليّة. أي: ما خلقنا الخلقَ إلّا بالحقّ وتقديرِ الأجَل الذي يُجازَون عنده، والحالُ أنّهم غير مؤمنين به، معرضون عنه وعن الاستعداد له.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، وقُرئ: "أرَأيْتَكُمْ"،[1] ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ﴿أَرُونِى﴾ تأكيدٌ لـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟/ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان للإبهام في ﴿مَاذَا﴾، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركة مع الله تعالى ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خَلقِها، أو مُلكها وتدبيرها حتّى يُتوهَّم أن يكون لهم شائبةُ استحقاق للمعبوديّة، فإنّ ما لا مدخلَ له في وجود شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه فهو بمَعزِل مِن ذلك الاستحقاق بالمرّة، وإن كان مِن الأحياء العقلاء، فما ظنّكم بالجماد؟ [٨٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾... إلخ تَبكيتٌ لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسندٍ نقلي بعد تَبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسندٍ عقلي، أي: ائتوني بكتاب إلهيّ كائنٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتابِ، أي: القرآنِ الناطقِ بالتوحيد وإبطالِ الشرك، دالّ على صحّة دينكم، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيّةٍ مِن عِلمٍ بَقِيَت عليكم مِن علوم الأوّلين شاهدةٍ باستحقاقهم للعبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنّها لا تكاد تصِحّ ما لم يقُم عليها برهان عقلي، أو سلطان نقلي، وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خِلافها أدلّة العقل والنقل تبيّنَ بطلانها.

وقُرئ: "إِثَارَةٍ" بكسر "الهمزة"،[2] أي: مناظَرةٍ، فإنّها تُثير المعاني، و"أَثَرَةٍ"،[3] أي: شيءٍ أُوثِرتُم به وخُصِصْتُم مِن علمٍ مَطوِيّ مِن غيركم، و"أُثْرَةٍ" بالحركات الثلاث

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٣/٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة وعمرو بن ميمون والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

مع سكون "الثاء"،[١] أمّا المكسورة فبمعنى "الأَثَرة"، وأمّا المفتوحة فهي المرّة مِن "أَثَرَ الحديثَ"، أي: رَواه، وأمّا المضمومة فاسم ما يُؤثَر، كـ"الخُطبة" التي هي اسم ما يُخطب به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكار ونفي لِأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، وإن كان سَبك التركيب لنفي الأضلّ منهم مِن غير تعرّض لنفي المساوي كما مرّ غيرَ مرّة. أي: هم أضلّ مِن كلّ ضالّ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميعِ القادرِ المجيبِ الخبيرِ إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ الضمير الأوّل لمفعول ﴿يَدْعُوا۟﴾، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق باعتبار لفظها ﴿غَٰفِلُونَ﴾ / لكونهم جماداتٍ. وضمائر العقلاء لإجرائهم إيّاها مُجرى العقلاء. ووصفُها [٨٧و] بما ذُكر مِن ترك الاستجابة والغفلةِ مع ظهور حالها للتهكّم بها وبعَبَدتها، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآيةَ [فاطر، ١٤/٣٥].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيام القيامة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: مكذِّبين بلسان الحال أو المَقال، على ما يُروى أنّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتتبرّأُ عن عبادتهم.

وقد جُوّز أن يراد بهم كلُّ مَن يُعبَد مِن دون الله مِن الملائكة والجنّ والإنس وغيرهم، ويُبنَى إرجاعُ الضمائر وإسنادُ العداوة والكفر إليهم على التغليب،

---

[١] القراءات الثلاث شاذّة؛ "أَثَرَةٍ" بفتح "الهمزة" مرويّة عن عليّ والسلمي، و"أُثْرَةٍ" بضمّ الهمزة" مرويّة عن السلمي وابن عُمير، وإِثْرَةٍ" بكسر "الهمزة" عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

ويُرادَ بذلك تبرّؤهم عنهم وعن عبادتهم. وقيل: ضمير ﴿كَانُواْ﴾ للعَبَدة، وذلك قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ أو مبيّناتٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأجلِه وفي شأنِه، وهو عبارة عن الآيات المتلُوّة، وُضع مَوضع ضميرها تنصيصًا على حقّيّتها ووجوبِ الإيمان بها، كما وُضع الموصول موضعَ ضمير المتلوّ عليهم تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: في أوّل ما جاءهم مِن غير تدبّر وتأمّل: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سِحرًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب وانتقال مِن حكاية شَناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنَع منها. وما في ﴿أَمْ﴾ مِن "الهمزة" للإنكار التوبيخي المتضمّن للتعجيب، أي: بل أيَقولون: افترى القرآنَ، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفَرْض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذ لا ريبَ في أنّه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة، فكيف أجتَرئُ على أن أفْتَري عليه تعالى كذبًا، وأعرّض نفسي للعقوبة التي لا مناصَ عنها، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَندفعون فيه مِن القَدح في وحي الله، والطعنِ في آياته، وتسميتِه "سِحرًا" تارةً، و"فِريةً" أخرى.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود. وهو وعيد بجزاء إفاضتهم.

[٨٧ظ] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ/ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمَن تاب وآمَن، وإشعارٌ بحِلمِ الله تعالى عنهم مع عِظَم جرائمهم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ "البِدْع" بمعنى "البديع"، كـ"الخِلّ" بمعنى "الخليل"، وهو ما لا مثلَ له. وقُرئ بفتح "الدال"[1] على أنّه صفة، كـ"قِيَم" و"زِيَم"،[2] أو جمع مقدّر بمضاف، أي: ذا بِدَعٍ، وقد جُوّز ذلك في القراءة الأولى أيضًا على أنّه مصدر.

كانوا يقترحون عليه عليه السلام آياتٍ عجيبةً ويسألونه عن المغيَّبات عنادًا ومكابرةً، فَأُمِر عليه السلام بأن يقول لهم: ما كنت بديعًا مِن الرسل قادرًا على ما لم يقدروا عليه حتّى آتِيَكُم بكلّ ما تقترحونه، وأخبركم بكلّ ما تسألون عنه مِن الغيوب، فإنّ مَن قبلي مِن الرسل عليهم السلام ما كانوا يأتون إلّا بما آتاهم الله تعالى مِن الآيات، ولا يخبرونهم إلّا بما أُوحَى إليهم.

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: أيّ شيء يُصيبنا فيما يُستقبَل مِن الزمان مِن أفعاله تعالى، وماذا يُقدَّر لنا مِن قضاياه. وعن الحسن رحمه الله: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا.[3] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ما يُفعَل بي ولا بكم في الآخرة. وقال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح، ٤٨/٢].[4] وقيل: يجوز أن يكون المنفيُّ هي الدراية المفصَّلة.

والأظهر الأوفق لِما ذُكر مِن سبب النزول أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا ليس عَلِمَه مِن وظائف النبوّة مِن الحوادث والواقعات الدنيويّة دون ما سيقع في الآخرة، فإنّ العلم بذلك مِن وظائف النبوّة، وقد ورَد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يُفعل بالجانبين.

هذا، وقد رُوي عن الكلبي أنّ أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا له عليه السلام، وقد ضَجِروا مِن أذيّة المشركين: «حتّى متى نكون على هذا؟»، فقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم، أَأُترَك بمكّة، أم أُومَر بالخروج إلى أرضٍ ذاتِ نخيل وشجر، قَد رُفِعَت لي ورأيتها؟»، يعني في منامه.[5]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي حَيوة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

[2] وفي هامش م: أي: متفرّق. «منه».

[3] جامع البيان للطبري، ١٢٢/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٩.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٢١/٢١.

[5] الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٤. وانظر: التفسير البسيط للواحدي، ١٦٦/٢٠.

[٨٨و] وجُوِّز أن تكون[١] ﴿مَا﴾ موصولةً، والاستفهاميّةُ / أقضى لِحَقّ مقام التبرُّءِ عن الدراية. وتكريرُ ﴿لَا﴾ لتذكير النفي المنسحِب إليه وتأكيده. وقُرئ: "مَا يَفْعَلُ"[٢] على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل إلّا اتباعَ ما يُوحَى إليّ، على معنى قَصرِ أفعاله عليه السلام على اتّباع الوحي، لا قَصرِ اتّباعه على الوحي كما هو المتسارِع إلى الأفهام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[٣] وقُرئ: "يُوحِي"[٤] على البناء للفاعل، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبارَ عمّا لم يُوحَ إليه عليه السلام مِن الغيوب. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلّصوا عن أذيّة المشركين. والأوّل هو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذِركم عقابَ الله تعالى حسبما يوحَى إليّ، ﴿مُبِينٌ﴾ بيّنُ الإنذار بالمعجزات الباهرة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي: ما يوحَى إليّ مِن القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سِحرًا ولا مفترًى كما تزعمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار "قد" مِن الضمير في الخبر، وُسّطت بين أجزاء الشرط مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر، أو عطفٌ على ﴿كَانَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت، ٥٢/٤١]، لكن لا على أنّ نظمه في سِلك الشرط المتردّد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبارِ حاله في نفسه؛ بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم، فإنّ كفرهم به أمر محقَّق عندهم أيضًا، وإنّما تردّدهم في أنّ ذلك كفر بما مِن عند الله تعالى[٥] أم لا، وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعده مِن الفعلَين،

---

١ س: يكون.
٢ قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
٣ الأنعام، ٥٠/٦.
٤ قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
٥ م - تعالى.

فإنّ الكلّ أمور متحقِّقة عندهم، وإنّما تردّدهم في أنّها شهادة وإيمان بما مِن عند الله تعالى[١] واستكبار منه أو لا.

والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة مِن عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيمُ الشأن مِن بني إسرائيل الواقفِين على شئون الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا مِن التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مثلِ القرآن مِن المعاني المنطوية في التوراة المطابقةِ لِما في القرآن مِن التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، فإنّها عينُ ما فيه في الحقيقة كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء، ١٩٦/٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ[٢] هَٰذَا[٣] لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى، ١٨/٨٧].

والمثليّة باعتبار تأديتها / بعبارات أُخَر، أو على مِثْل ما ذُكِر مِن كونه مِن عند الله تعالى، والمثليّة لِما ذُكر. وقيل: "المِثْل" صلة. [٨٨ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ للدلالة على أنّه سارع إلى الإيمان بالقرآن لِما علِمَ أنّه مِن جنس الوحي الناطق بالحقّ، وهو عبد الله بن سلام، لمّا سمع بمَقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينةَ أتاه، فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنّه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقّق أنّه النبيّ المنتظَر، فقال له: «إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبيّ؛ ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟»، فقال عليه السلام: «أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم مِن المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبِد حوتٍ، وأمّا الولد فإن سبَق ماءُ الرجل نزَعه، وإذا سبَق ماءُ المرأة نزعَتْه»، فقال: «أشهد أنّك رسول الله حقًّا»، فقام، ثمّ قال: «يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألَهم عنّي بهَتوني عندك»، فجاءت اليهود، فقال لهم النبيّ عليه السلام: «أيّ رجل عبد الله فيكم؟»، فقالوا: «خَيرنا وابن خَيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وأعلَمنا وابن أعلَمنا»، قال: «أرأيتم إن أسلَم عبد الله»، قالوا: «أعاذه الله مِن ذلك»، فخرج إليهم عبد الله،

---

١ م - تعالى.
٢ م س ي: وإنّه.
٣ م س ي - هذا.

فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله»، فقالوا: «شرّنا وابن شرّنا»، وانتقصوه، قال: «هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذَر».[١]

قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: «ما سمعت رسول الله عليه السلام يقول لأحد يمشي على الأرض: "إنّه مِن أهل الجنّة" إلّا لعبد الله بن سلام، وفيه نزَل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾... الآية».[٢]

وقيل: الشاهد موسى عليه السلام، وشهادته ما في التوراة مِن بعثة النبيّ عليهما السلام، وبه قال الشعبي.[٣]

وقال مسروق: «والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، فإنّ آل ﴿حمٓ﴾ نزلت بمكّة، وإنّما أسلَم عبد الله بالمدينة».[٤] وأجاب الكلبي بأنّ الآية مدنيّة، وإن كانت السورة مكّيّة.[٥]

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وجواب الشرط محذوف. [٨٩و] والمعنى: أخبروني / إن كان مِن عند الله تعالى[٦] وشهِد على ذلك أعلَم بني إسرائيل، فآمن به مِن غير تلعثُمٍ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة؛ مَن أضلّ منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت، ٥٢/٤١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّ عدم الهداية ممّا يُنبئ عن الضلال قطعًا. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم، فإنّ تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾

---

١ مسند أحمد، ١١٣/١٩ (١٢٠٥٦)؛ صحيح البخاري، ١٩/٦ (٤٤٨٠).

٢ صحيح البخاري، ٣٧/٥ (٣٨١٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٣٠/٤ (٢٤٨٣).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٢/٥، مِن غير نسبة إلى الشعبي، ولم أجده عنه، ولعلّه وقع سهو في عبارة المؤلّف، والصواب: وقال الشعبي: قال مسروق... انظر: جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٤ جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩.

٥ تفسير الرازي، ١١/٢٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٦ س – تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لبعضٍ آخَر مِن أقاويلهم الباطلةِ في حقّ القرآن العظيم والمؤمنين به، أي: قال كفّارُ مكّة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأجلهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما جاء به عليه السلام مِن القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، فإنّ معالي الأمور لا ينالها أيدي الأراذِل، وهم سُقّاط،[1] عامّتهم فقراء ومَوالٍ ورُعاة، قالوه زعمًا منهم أنّ الرياسة الدينيّة ممّا يُنال بأسباب دنيويّة، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وزلّ عنهم أنّها مَنوطة بكمالات نفسانيّة ومَلَكات روحانيّة، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنيّة، والإقبالُ على الآخرة بالكلّيّة، وأنّ مَن فاز بها فقد حازَها بحذافيرها، ومَن حُرِمَها فما له منها مِن خلاق.

وقيل: قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجَع لمّا أسلَم جُهَينة ومُزَينة وأسْلَم وغِفار.[2] وقيل: قالَته اليهود حين أسلَم عبد الله بن سلام وأصحابه.[3] ويأباه أنّ السورة مكّيّة لا بدّ حينئذ مِن الالتجاء إلى ادّعاء أنّ الآية نزلت بالمدينة.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ظرف لمحذوف يدلّ عليه ما قبله، ويترتّب عليه ما بعده، أي: وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غيرَ مُكتَفِينَ بنَفْي خيريّته: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل، ٢٤/١٦]. وقيل:[4] المحذوف "ظهَرَ عِنادهم"، وليس بذاك.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومِن قبل القرآن، وهو خبر لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. قيل: والجملة حاليّة أو مستأنَفة. وأيًّا ما كان / فهي[5] لردّ قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾،[6] وإبطالِه، فإنّ كونه مصدِّقًا لكتاب موسى مقرِّر لحقّيّته قطعًا. [٨٩ظ]

---

١ الساقط والساقطة: اللئيم في حَسَبه ونفسه. وقوم سَقْطَى وسُقّاط. الصحاح للجوهري، «سقط».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣٠٠/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١١٣/٥.

٥ س ي: فهو.

٦ في الآية السابقة.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان مِن ﴿كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: إمامًا يُقتدى به في دين الله تعالى[1] وشرائعِه كما يُقتَدى بالإمام، ورحمةً مِن الله تعالى لِمَن آمَن به وعمِل بموجَبه.

﴿وَهَـٰذَا﴾ الذي يقولون في حقّه ما يقولون ﴿كِتَـٰبٌ﴾ عظيمُ الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، أو لِما بين يديه مِن جميع الكتب الإلهيّة. وقد قُرِئ كذلك.[2]

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن ضمير ﴿كِتَـٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو مِن نفسه لتخصّصه بالصفة، وعاملُها معنى الإشارة، وعلى الأوّل ﴿مُّصَدِّقٌ﴾. وقيل: مفعول لـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: يصدّق ذا لسانٍ عربي.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متعلِّق بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، وفيه ضمير الكتاب، أو اللهِ، أو الرسولِ عليه السلام. ويؤيّد الأخير القراءة بتاء الخطاب.[3]

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيّز النصب عطفًا على محلّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾. وقيل: في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ مضمَر، أي: وهو بُشرى. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿مُّصَدِّقٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي: جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العِلم، والاستقامةِ في أمور الدين التي هي منتهى العمل. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقّفِ الاعتداد به على التوحيد.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لُحوق مكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات محبوب. و"الفاء" لتضمّن الاسم معنى الشرط. والمراد بيان دوام نفي الحزن، لا نفيُ دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعًا، وقد مرّ بيانه مرارًا.

---

١ م - تعالى.

٢ أي: "مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٥١/٣.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الوصفَين الجليلَين ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿أَصۡحَٰبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب إمّا بعامل مقدَّر، أي: يُجزَون جزاءً، أو بمعنى ما تقدَّم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في معنى: جازَيناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ / مِن الحسنات العلميّة والعمليّة. [٩٠و]

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بأن يُحسِن ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ وقُرئ: "حُسْنًا"،[١] أي: بأن يفعل بهما حُسْنًا، أي: فِعلًا ذا حُسن، أو كأنّه في ذاته نفس الحُسن لفَرط حُسنه. وقُرئ بضمّ "السين"[٢] أيضًا، وبفتحهما،[٣] أي: بأن يفعل بهما فعلًا حسَنًا، أو وصّيناه إيصاءً حسَنًا.

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾ أي: ذاتَ كُره، أو حملًا ذا كُره، وهو المشقّة. وقُرئ بالفتح،[٤] وهما لغتان، كـ"الفَقْر" و"الفُقْر". وقيل: المضموم اسم، والمفتوح مصدر.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: مدّة حَمله وفِصاله، وهو الفِطام. وقُرئ: "وَفَصْلُهُ".[٥] و"الفَصل" و"الفِصال" كـ"الفَطْم" و"الفِطام" بناءً ومعنًى، والمراد به الرضاع التامّ

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٤ أي: "كَرْهًا". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٣.

المنتهي به. كما أراد بـ"الأمَد" المدّةَ مَن قال:

كـلّ حـيّ مستكـمِلٌ مـدّةَ العمـ ـر فَـمُـودٍ إذا انـتـهـى أمَـدُهُ[1]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ يمضِي عليها بمُعاناة المَشاقّ، ومُقاساة الشدائد لأجله.

وهذا دليل على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر لِما أنّه إذا حُطّ عنه للفِصال حولان لقوله تعالى: ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة، ٢/٢٣٣]، يبقى للحمل ذلك. قيل: ولعلّ تعيينَ أقلّ مدّة الحمل وأكثرِ مدّة الرضاع لانضباطهما، وتحقّقِ ارتباط النسب والرضاع بهما.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: اكتمل واستحكم قوّته وعقله، ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل: لم يُبعث نبيّ قبل أربعين. وقُرئ: "حَتّى إِذَا اسْتَوَى وَبَلَغَ أَشُدَّهُ".[2] ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: ألهِمْني، وأصلُه: "أَوْلِعْنِي"، مِن "أوزَعتُه بكذا" ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: نعمةَ الدين، أو ما يعمُّها وغيرَها.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير، ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذرّيّتي راسخًا فيهم، كما في قوله:

يَـجْـرَحْ فِـي عَـراقِـيـبـهـا نَـصْـلـي[3]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[4] «أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر رضي الله عنهم،[5] فأعتق تسعةً مِن المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيرةَ،[6] ولم يُرِد شيئًا

---

١ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١١٣. و"مُودٍ"، أي: هالك، مِن "أَودى" إذا هلَك، يقول: كلّ حيّ يَستكمل مدّةَ عمره، ويهلَك إذا انتهى عمره. فتوح الغيب للطيبي، ١٤/٢٨٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٢.

٣ تمامه:

وإن تَعتذِر بالمَحلِ مِن ذي ضُروعها
على الضيف يَجرحْ في عَراقيبها نَصلي

لذي الرمّة في ديوانه، ١/١٥٦. الضمير في "تَعتذِر" للناقة، و"الباء" في "بالمَحل" للتشبيه، يقال: اعتذر به، والمراد بـ"ذي ضُروعها" اللبَن، "يجرح" متعدّ بنفسه، وقد عُدّي بـ"في" لإجرائه مُجرى اللازم، نحو: فلان يُعطي ويمنع، ثم عومل به معاملة اللازم في تعديته بالجار للمبالغة، أي: مَا أوقَع الجُرح في عَراقيبها وأوجدَه فيها. فتوح الغيب للطيبي، ٩/٣٦.

٤ م - رضي الله عنهما.

٥ س: عنه.

٦ هو عامر بن فُهيرة، أبو عمرو (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. كان مملوكًا ←

مِن الخير إلّا أعانه الله تعالى[1] عليه، ودعا أيضًا فقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى﴾، فأجابه الله عزّ وجلّ، فلم يكن له ولد إلّا آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلام أبوَيه وأولاده جميعًا، فأدرك أبوه أبو قُحافة رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، / وابنُه [٩٠ظ] عبد الرحمن بن أبي بكر[2] وابنُ عبد الرحمن أبو عتيق[3] كلّهم أدركوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولم يكن ذلك لأحد مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم».[4]

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عمّا لا ترضاه، أو عمّا يَشغلني عن ذِكرك، ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾،[5] والجمعُ لأنّ المراد به الجنس المتّصف بالوصف المحكي عنه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ رُتبته، وبُعد منزلته، أي: أولئك المَنعوتون بما ذُكر مِن النعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ مِن الطاعات، فإنّ المباح حَسَن لا يثاب عليه، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

< للطفيل بن عبد الله بن سَخبرة، فأسلم، فاشتراه أبو بكر فأعتقه. أسلَم قبل أن يدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم، وكان يرعى الغنم في ثَور، يروح بها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر في الغار، وكان رفيقهما في هجرتهما إلى المدينة. شهِد بدرًا وأحُدًا، ثمّ قُتل يوم بئر معونة. عن عُروة قال: «طُلب عامر بن فهيرة يومئذ في القتلى فلم يوجد. فيَرَوْن أنّ الملائكة دفنته أو رفعته». انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٧٩٦/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٤٨٢/٣.

١ م - تعالى.

٢ هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو محمّد (ت. ٥٣هـ/٦٧٣م). حضَر بدرًا مع المشركين، ثمّ إنّه أسلم، وهاجر قُبيل الفتح. وكان أسنّ أولاد الصدّيق، وكان مِن الرماة المذكورين والشجعان. قَتل يومَ اليمامة سبعةً مِن كبارهم، وشهِد وقعة الجمل مع أخته عائشة أمّ المؤمنين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٧٢/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٢٧٥/٤.

٣ هو محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو عتيق. قال ابن حِبّان: «رأى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم. ومحمّد ومَن فوقه أربعةٌ في نسَق رأَوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهم: محمّد، وعبد الرحمن، وأبو بكر، وأبو قُحافة». انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٧٤/٣؛ والإصابة لابن حجر، ١٩٧/٦.

٤ س ي + أجمعين. | التفسير الوسيط للواحدي، ١٠٨/٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٨/٧.

٥ في الآية السابقة.

وقُرِئ الفعلان بـ"الياء" على إسنادهما إلى الله عزّ وجلّ،[١] وعلى بنائهما للمفعول، ورفعِ ﴿أَحْسَنَ﴾ [٢] على أنّه قائم مَقام الفاعل، وكذا الجارّ والمجرور.

﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: كائنين في عِدادهم، منتظمين في سِلكهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكِّد لِما أنّ قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ و﴿نَتَجَاوَزُ﴾ وعد مِن الله تعالى لهم بالتفضّل والتجاوز ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل عليهم السلام.[٣]

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ هو صوت يَصدر عن المرء عند تضجّره. و"اللام" لبيان المؤفَّف له، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]. وقُرِئ: "أُفَّ" بالفتح[٤] والكسر[٥] بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين.[٦]

والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القولَ، ولذلك أُخبرَ عنه بالمجموع كما سبق. قيل: هو في الكافر العاقّ لوالديه المكذِّبِ بالبعث. وعن قتادة: «هو نعت عبدِ سَوءٍ، عاقٍّ لوالديه، فاجرٍ لربّه».[٧]

وما رُوي مِن أنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قبل إسلامه؛[٨] يردّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ الآية.[٩]

---

١ س: تعالى.

٢ أي: "يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

٣ م - عليهم السلام.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٦ أمّا ﴿أُفٍّ﴾ بالجرّ مع التنوين فقرأ بها نافع وأبو جعفر وحفص، وأمّا "أُفًّا" بالنصب مع التنوين فقراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ، وأمّا "أُفٌّ" بالرفع مع التنوين فقراءة شاذّة، حكاها هارون. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧/٧.

٧ جامع البيان للطبري، ١٤٥/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٤.

٨ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣/٩؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٠٨/٤.

٩ في الآية التالية.

فإنّه كان مِن أفاضل المسلمين وسَرَواتهم، وقد كَذَّبَت الصدِّيقةُ رضي الله عنها مَن قال ذلك.[1]

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أُبعَثَ مِن القبر بعد الموت. وقُرئ: "أَخْرُجَ"،[2] مِن "الخروج". ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ ولم يُبعث منهم أحد.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يسألانه أن يُغيثه ويوفّقه للإيمان، ﴿وَيۡلَكَ﴾ أي: قائلين له: وَيلَك، وهو في الأصل / دعاء عليه بالثبور أُريدَ به الحثّ والتحريض [٩١و]
على الإيمان، لا حقيقةُ الهلاك.

﴿ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي: البعث، أضافاه إليه تعالى تحقيقًا للحق، وتنبيهًا على خطئه في إسناد الوعد إليهما. وقُرئ: "أَنَّ وَعْدَ اللهِ"،[3] أي: آمِن بأنّ وعد الله حقّ. ﴿فَيَقُولُ﴾ مُكذِّبًا لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تسمّيانه "وعْدَ الله" ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أباطيلُهم التي سطّروها في الكتب، مِن غير أن يكون لها حقيقةٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، وقد مرّ تفصيله في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[4]

﴿إِنَّهُمۡ﴾ جميعًا ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قد ضيّعوا فِطرتهم الأصليّة الجارية مَجرى رءوس أموالهم باتّباع الشيطان. والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي.

---

[1] انظر: صحيح البخاري، ١٣٣/٦ (٤٨٢٧)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٢٨/٤ (٨٤٨٣).

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن يعمر ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعمرو بن فائدة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٢/٩.

[4] السجدة، ١٣/٣٢.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٩﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ مراتبُ مِن أجزيةِ ما عملوا مِن الخير والشرّ. و"الدرجات" غالبة في مراتب المَثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أجزيةَ أعمالهم. وقُرئ بنون العظمة.[1]

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب الأوّلين، وزيادة عقاب الآخرين. والجملة إمّا حال مؤكِّدة للتوفية، أو استئناف مقرِّر لها، و"اللام" متعلّقة بمحذوف مؤخَّر، كأنّه قيل: ولِيوفّيهم أعمالهم ولا يظلمَهم حقوقَهم فعَل ما فَعَل مِن تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات، والعقابَ دركات.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يعذَّبون بها، مِن قولهم: "عُرِضَ الأُسارى على السيف"، أي: قُتِلوا. وقيل: يُعرَض النار عليهم، بطريق القلب مبالغةً.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك. وهو الناصب للظرف. وقُرئ: "أَأَذْهَبْتُمْ" بهمزتين وبألِف بينهما[2] على الاستفهام التوبيخي، أي: أَصَبتم وأخذتم

[٩١ظ] / ما كُتب لكم مِن حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبقَ لكم بعد ذلك شيء منها.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخَلف وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

٢ قرأ بهمزتين مفتوحتين كلٌّ مِن ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وكلٌّ على أصله في التسهيل والتحقيق، وإدخالِ ألِف بينهما وعدمِه، فابن كثير ورُويس عن يعقوب بتسهيل الهمزة الثانية وإدخال ألِف بينهما، وابن ذكوان عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب بتحقيق الهمزتين مع عدم الإدخال، وأبو جعفر بتسهيل الثانية والإدخال، وهشام له ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٢/١-٣٦٦.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهَوان. وقد قُرئ كذلك.[١] ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: تَخرجون مِن طاعة الله عزّ وجلّ، أي: بسبب استكباركم وفِسقكم المستمرَّين. وقُرئ: "تَفْسِقُونَ" بكسر "السين".[٢]

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ أي: لكفّار مكّة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ أي: هودًا عليه السلام، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ بدل اشتمال منه، أي: وقتَ إنذاره إيّاهم ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع "حِقْف"، وهو رمل مستطيل مرتفِع فيه انحناء، مِن "احقَوقَفَ الشيءُ" إذا اعوَجّ. وكانت عاد أصحاب عَمَدٍ، يسكنون بين رمال مُشرفة على البحر بأرضٍ يقال لها: "الشِّحْر" مِن بلاد اليمن. وقيل: بَيْنَ عُمان[٣] ومهرة.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، جمع "نذير" بمعنى "المنذِر". ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن قَبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: مِن بعده. والجملة اعتراض مقرّر لِما قَبله، مؤكِّد لوجوب العمل بموجَب الإنذار، وُسِّط بين ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مسارعةً إلى ما ذُكر مِن التقرير والتأكيد، وإيذانًا باشتراكهم في العبارة المَحكيّة.

والمعنى: واذكر لقومك إنذارَ هود قومَه عاقبةَ الشرك والعذابَ العظيم، وقد أنذر مَن تقدّمه مِن الرسل ومَن تأخّر عنه قومَهم مثلَ ذلك، فاذكرهم.

وأمّا جعلُها حالًا مِن فاعل ﴿أَنذَرَ﴾ على معنى أنّه عليه السلام أنذرَهم وقال لهم: لا تعبدوا إلّا الله، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقد أَعْلَمهم أنّ الرسل الذين بُعِثُوا قبله والذين سيُبعثون بعده كلّهم منذِرون نحوَ إنذاره؛[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٣ وفي هامش م: خف. | أي: بتخفيف "الميم".

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

فمَعَ ما فيه مِن تكلّفِ تقدير الإعلام لا بدّ في نسبة الخلوّ إلى مَن بعده مِن الرسل مِن تنزيل الآتي منزلةَ الخالي.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾

[٩٢و] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: تَصرِفَنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتها؟ / ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب العظيم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك بنزوله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بوقت نزوله، أو العلمُ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحدَه، لا علمَ لي بوقت نزوله، ولا مدخلَ لي في إتيانه وحُلوله، وإنّما علمه عند الله تعالى، فيأتيكم به في وقته المقدَّر له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ مِن مَواجب الرسالة التي مِن جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك، مِن غير وقوف على وقت نزوله. وقُرئ: "أُبْلِغُكُمْ"[١] مِن "الإبلاغ".

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ حيث تقترحون عليّ ما ليس مِن وظائف الرسل مِن الإتيان بالعذاب وتعيينِ وقته.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ فصيحة. والضمير إمّا مبهَم يوضّحه قوله تعالى: ﴿عَارِضٗا﴾ إمّا تمييزًا أو حالًا، أو راجع إلى ما استعجلوه بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾،[٢] أي: فأتاهم، فلمّا رأَوه سحابًا يَعرض في أفُقِ السماء ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: متوجّهَ أوديتهم. والإضافة فيه لفظيّة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾، ولذلك وقعا وَصفين للنكرة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٢ الأحقاف، ٤٦/٢٢.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ: "قُلْ".[٢] وهو رَدّ عليهم، أي: ليس الأمر كذلك؛ بل هو ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ مِن العذاب، ﴿رِيحٌ﴾ بدل مِن ﴿مَا﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لـ﴿رِيحٌ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلِك ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِن نفوسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. وقُرئ: "يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ"[٣] مِن "دَمَرَ دَمارًا" إذا هلَك، فالعائد إلى الموصوف محذوف، أو هو "الهاء" في ﴿رَبِّهَا﴾. ويجوز أن يكون استئنافًا واردًا لبيان أنّ لكلّ ممكنٍ فناءً مَقضيًّا مَنوطًا بأمر بارِئِه، ويكون "الهاء" لـ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾، لكونه بمعنى "الأشياء". وفي ذكر "الأمر" و"الربّ" والإضافةِ إلى "الريح" مِن الدلالة على عظَمة شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ / فصيحة، أي: فجاءتهم الريح فدمّرتهم، فأصبحوا بحيث لا يُرى إلّا مساكنُهم. وقُرئ: "تُرَى" بـ"التاء" ونصبِ ﴿مَسَٰكِنَهُمْ﴾[٤] خطابًا لكلّ أحد يَتأتّى منه الرؤية تنبيهًا على أنّ حالهم بحيث لو حضر كلُّ أحدٍ بلادَهم لا يَرى فيها إلّا مساكنَهم. [٩٢ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وقد مرّ تفصيل القصّة في سورة الأعراف.[٥]

وقد رُوي أنّ الريح كانت تحمل الفُسطاط والظَّعينة، فترفعها[٦] في الجوّ حتّى تُرى كأنّها جرادة.[٧] قيل: أوّل مَن أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: «رأيت ريحًا فيها كشُهب النار».[٨]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ أي: "قُلْ بَلْ هُوَ". قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٥ الأعراف، ٦٥/٧ وما بعدها.

٦ س: وترفعهما.

٧ جامع البيان للطبري، ١٥٧/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

٨ جامع البيان للطبري، ٢٦٩/١٠ (الأعراف، ٦٨/٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

ورُوي أنّ أوّل ما عرَفوا به أنّه عذاب ما رأوا ما كان في الصحراء مِن رِحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم، وغلّقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب، وصَرعَتْهم، فأمال الله تعالى الأحقاف، فكانوا تحتها سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام لهم أنين، ثمّ كشفت الريحُ عنهم، فاحتملَتْهم فطرحتهم في البحر.[١]

ورُوي أنّ هودًا عليه السلام لمّا أحسّ بالريح خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عينٍ تَنبَع.[٢]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «اعتزل هود عليه السلام ومَن معه في حظيرة، ما يصيبهم مِن الريح إلّا ما يلين على الجلود، وتلذّه الأنفس، وإنّها لتَمُرّ مِن عادٍ بالظُّعُن بين السماء والأرض، وتَدمغُهم بالحجارة».[٣]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي: قرّرنا عادًا، أو أقدرناهم، و﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ موصولة، أو موصوفة، و﴿إِن﴾ نافية، أي: في الذي، أو في شيء ما[٤] مكنّاكم فيه مِن السَّعة والبسطةِ وطولِ الأعمار وسائرِ مبادي التصرّفات، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟[٥] كَمْ[٦] أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم[٧] مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]. وممّا يُحسِّن موقع ﴿إِن﴾ ههنا التفصّي عن تكرّر لفظة ﴿مَا﴾، وهو الداعي إلى قلب ألِفها هاءً في "مَهما". وجعلُها شرطيّة أو زائدة[٨] ممّا لا يليق بالمقام.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٧.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٨؛ اللباب لابن عادل، ١٧/٤٠٩.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٨. وأخرجه الدينوري في المجالسة، ٧/٢٩، عن وهب.

[٤] وفي هامش م: نفي. «منه».

[٥] م س ي - ألم يروا.

[٦] م س ي: وكم.

[٧] م س ي: قبلكم.

[٨] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١١٦.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليستعملوها / فيما خُلِقت هي له، [٩٣و]
ويعرِفوا بكلٍّ منها ما نِيطت به معرفته مِن فنون النِّعم، ويستدلّوا بها على شئون مُنعِمها عزّ وجلّ، ويداوِموا على شُكره.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينيّة المَنصوبة في صحائف العالَم، ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء. و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾، وهو ظرف جَرى مَجرى التعليل مِن حيث إنّ الحكم مرتَّب على ما أضيفَ إليه، فإنّ قولك: "أكرَمتُه إذ أكرَمَني" في قوّة قولك: "أكرَمتُه لإكرامه"؛ لأنّك إذا أكرمتَه وقت إكرامه فإنّما أكرمتَه فيه لوجود إكرامه فيه، وكذا الحال في "حيث".

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.[١]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحِجْر ثمود، وقُرى قومِ لوط. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ كرّرناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم فيه مِن الكفر والمعاصي.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القُربان: ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى. وأحَدُ مفعولَي ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ ضميرُ الموصول المحذوف، والثاني ﴿ءَالِهَةًۢ﴾، و﴿قُرْبَانًا﴾ حال، والتقدير: فهلّا نصَرهم وخلَّصهم مِن العذاب الذين اتّخذوهم

[١] الأحقاف، ٤٦/٢٢.

آلِهةً حالَ كونها مُتقرَّبًا بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[١] و"هؤلاء شفعاؤنا عند الله".[٢] وفيه تهكّم بهم.

ولا مساغَ لجعلِ ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعولًا ثانيًا، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدلًا منه؛[٣] لفساد المعنى، فإنّ البدلَ وإن كان هو المقصودَ لكنّه لا بدّ في غير بدل الغلط مِن صحّة المعنى بدونه، / ولا ريبَ في أنّ قولنا: "اتّخذوهم مِن دون الله قُربانًا"، أي: مُتقَرَّبًا به؛ ممّا لا صحّةَ له قطعًا؛ لأنّه تعالى مُتقرَّب إليه، لا مُتقرَّبٌ به، فلا يصحّ أنّهم اتّخذوهم قُربانًا متجاوِزين اللهَ في ذلك. وقُرئ: "قُرُبَانًا" بضمّ "الراء".[٤] [٩٣ظ]

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم. وفيه تهكّم آخر بهم، كأنّ عدم نَصرهم لغَيبتهم، أو ضاعوا عنهم، أي: ظهَر ضياعهم عنهم بالكلّيّة. وقيل: امتنَع نصرهم امتناعَ نصر الغائب عن المنصور.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ضياعُ آلهتهم عنهم، وامتناعُ نُصرتهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: أثرُ إفكهم الذي هو اتّخاذهم إيّاها آلهةً، ونتيجةُ شِركهم.

وقُرئ: "أَفَكُهُمْ"،[٥] وكلاهما مصدر، كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقُرئ: "أَفَكَهُمْ" على صيغة الماضي،[٦] فذلك إشارة حينئذ إلى الاتّخاذ، أي: وذلك الاتّخاذ الذي هذه ثمرتُه وعاقبتُه صَرَفَهم عن الحقّ. وقُرئ: "أَفَّكَهُمْ" بالتشديد[٧] للمبالغة، و"آفَكَهُمْ"[٨] مِن "الإفعال"، أي: جعلهم آفِكين. وقُرئ: "آفِكُهُمْ"[٩] على صيغة[١٠] الفاعل مضافًا إلى ضميرهم، أي: قولهم الآفِكُ، أي: ذو الإفك، كما يقال: قولٌ كاذب.

---

١ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس، ١٠/١٨].

٣ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١٦/٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة، حكاها الفرّاء. انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٥٦/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

١٠ س ي + اسم.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِفْكُهُمْ﴾، أي: وأَثَرُ افترائهم على الله تعالى، أو أثَرُ ما كانوا يفترونه عليه تعالى. وقُرئ: "وَذَلِكَ إِفْكٌ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ"،[١] أي: بعضُ ما كانوا يفترون مِن الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَمَلْناهم إليك، وأقْبَلنا بهم نَحوَك. وقُرئ: "صَرَّفْنَا" بالتشديد[٢] للتكثير؛ لأنّهم جماعة، وهو السرّ في جمع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وما بعده، وهو حال مقدَّرة مِن ﴿نَفَرًا﴾ لتخصُّصه بالصفة، أو صفة أخرى له، أي: واذكر لقومك وقتَ صَرَفنا إليك نفرًا كائنًا مِن الجنّ مُقَدِّرًا استماعُهم القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآنَ عند تلاوته، أو الرسولَ عند تلاوته له على الالتفات، والأوّل هو الأظهَر. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي: اسكُتوا لنَسمعه.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أُتِمَّ وفُرغ عن تلاوته. وقُرئ على البناء للفاعل،[٣] وهو ضمير الرسول عليه السلام، وهذا يؤيّد عودَ ضمير ﴿حَضَرُوهُ﴾ إليه عليه السلام. ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ مقدِّرين إنذارَهم عند رجوعهم إليهم.

[٩٤و] رُوي أنّ الجنّ كانت / تَسترِق السمع، فلمّا حُرِست السماء ورُجِموا بالشهُب قالوا: "ما هذا إلّا لِنَبأ حدَث"، فنهَض سبعةُ نفرٍ أو تسعةُ نفرٍ مِن أشراف جنّ نُصيبين أو نينوى، منهم زَوبعة، فضربوا حتّى بلغوا تِهامة، ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة، فوافقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم في جوف الليل يصلّي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرَفِه مِن الطائف.[٤]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن حبيب بن عبد الله بن الزبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٥. ونحوه في صحيح البخاري، ١٥٤/١ (٧٧٣)؛ وصحيح مسلم، ٣٣١/١ (٤٤٩).

وعن سعيد بن جبير: «ما قرأ رسول الله عليه السلام[1] على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمرّوا به فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر بهم، فأنبأه الله تعالى باستماعهم».[2]

وقيل: بل أمره الله تعالى أن يُنذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليهم[3] نفرًا منهم جمعهم له، فقال عليه السلام: «إنّي أُمِرت أن أقرأ على الجنّ الليلةَ، فمَن يتبعُنِي؟» قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلّا عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة في شِعْب الحَجُونِ خطّ لي خطًّا، فقال: "لا تخرج منه حتّى أعودَ إليك"، ثمّ افتتح القرآن وسمعتُ لَغَطًا شديدًا حتّى خِفت على رسول الله عليه السلام، وغَشِيَتْه أَسْوِدة كثيرة حالَت بيني وبينه حتّى ما أسمع صوته عليه السلام، ثمّ انقطعوا كقِطع السحاب، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "هل رأيت شيئًا؟"، قلت: "نعم، رجالًا سودًا مستثغري[4] ثيابٍ بيضٍ"، فقال: "أولئك جنُّ نصيبين، وكانُوا اثنَي عشر ألفًا"».[5] والسورة التي قرأها عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق، ١/٩٦].[6]

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: قالوه لأنّهم كانوا على اليهوديّة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام».[7]

---

[1] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[2] **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤. وهو بنحوه في **صحيح مسلم**، ٣٣١/١ (٤٤٩)، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[3] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤: "فصرف إليه"، وهو الصواب.

[4] وفي هامش م: الاستثفار: أن يُدخل الرجل ثوبه بين رِجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. «منه».

[5] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠/٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ١٦٨/٢١.

[6] **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٢/٤.

[7] **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٢/٤. وقال أبو حيّان: «وهذا لا يصحّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمّة عظيمة لا تنحصر على ملّته؟ فيبعد عن الجنّ كونهم لم يسمعوا به». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٥٠/٩.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أرادوا به التوراة، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ مِن العقائد الصحيحة، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إليه، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أرادوا به ما سمعوه مِن الكتاب، وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحقّ والصراط المستقيم لتلازمهما. دعَوهم إلى ذلك بعد بيان حقّيّته واستقامته / ترغيبًا لهم [٩٤ظ] في الإجابة، ثمّ أكّدوه بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَ ذنوبكم، وهو ما كان في خالِص حقّ الله تعالى، فإنّ حقوق العباد لا تُغفَر بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُعَدٍّ للكفَرة. واختُلف في أنّ لهم أجرًا غيرَ هذا أو لا، والأظهَر أنّهم في حكم بني آدم ثوابًا وعقابًا.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثرَ إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيقٌ لكونهم منذرين. وإظهار داعي الله مِن غير اكتفاءٍ بأحد الضميرين[1] للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة. وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرَب، وإن هرَب كلَّ مَهرَب[2] مِن أقطارها، أو دخَل في أعماقها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثرَ بيان استحالة نَجاته بنفسه. وجمع "الأولياء" باعتبار معنى ﴿مَن﴾، فيكون مِن باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما أنّ الجمع

---

١ وفي هامش م: أي: ضمير الداعي وضمير الجلالة، بأن يقال: ومَن لا يُجبه، أو ومَن لا يجب داعيَه. «منه».

٢ س – كلّ مهرب.

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بذلك الاعتبار. أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ كونُه ضلالًا بحيث لا يخفى على أحدٍ، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنه.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على مقدَّر يستدعيه المقام، والرؤيةُ قلبيّة، أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا عِلمًا جازمًا مُتاخِمًا للمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ابتداءً مِن غير مثالٍ يَحتذيه، ولا قانونٍ ينتحيه ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أي: لم يتعب ولم ينصَب بذلك أصلًا، أو لم يعجز عنه، يقال: "عَيِيتُ بالأمر" إذا لم تَعرِف وجهَه.

وقوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في حيّز الرفع؛ لأنّه خبر ﴿أَنَّ﴾، كما يُنبئ عنه القراءة بغير باء.[1] ووجه دخولها في القراءة الأولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها، كأنّه قيل: أَوَليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾،
[٩٥و] ولذلك أجيبَ عنه بقوله تعالى: / ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تقريرًا للقدرة على وجه عامّ يكون كالبرهان على المقصود.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤﴾

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمَر، مقوله: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ على أنّ الإشارة إلى ما يشاهدونه حينئذ مِن حيث هو مِن غير أن يخطر بالبال لفظ يدلّ عليه، فضلًا عن تذكيره وتأنيثه؛ إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقد مرّ في سورة الأحزاب.[2] وقيل: هي إلى "العذاب".

---

١ أي: "قادر". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤. وقرأ يعقوب: "يَقْدِرُ". النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٢ الأحزاب، ٢٢/٣٣.

وفيه تهكّم بهم، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولِهم: "وما نحن بمُعذَّبين".

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكّدوا جوابهم بالقسَم، كأنّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقّيتها كما في الدنيا، وأنّى لهم ذلك. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بها في الدنيا. ومعنى الأمرِ الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكر فاصبر على ما يصيبك مِن جهتهم كما صبَر أولو الثبات والحَزم مِن الرسل، فإنّك مِن جُملتهم؛ بل مِن عِلْيَتهم، و﴿مِن﴾ للتبيين. وقيل: للتبعيض. والمراد بـ"أولي العزم" أصحابُ الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبَروا على تحمّل مشاقِّها، ومُعاداةِ الطاعنين فيها. ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وقيل: هم الصابرون على بلاء الله، كنوح صبَرَ على أذيّة قومه، كانوا يضربونه حتّى يُغشى عليه، وإبراهيمَ صبَرَ على النار وعلى ذبح ولَده، والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الجُبّ والسجن، وأيّوب على الضرّ، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦١-٦٢]، وداود بكى على خطيئته أربعين سنةً، وعيسى لم يضع لَبِنةً على لَبِنة صلوات الله تعالى[١] عليهم أجمعين.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لكفّار مكّة بالعذاب، فإنّه على شَرَف النزول بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرةً ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لِما يشاهدون مِن شدّة العذاب، وطولِ مدّته.

---

[١] م - تعالى.

[٩٥ظ] وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ / خبر مبتدإٍ محذوف، أي: هذا الذي وُعِظتم به كفاية في الموعظة، أو تبليغٌ مِن الرسول، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بَلِّغْ".[١] وقُرئ: "بَلَاغًا"،[٢] أي: بُلِّغوا بلاغًا.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارِجون عن الاتّعاظ أو عن الطاعة. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "اللام"،[٣] وبفتحهما،[٤] مِن "هَلَكَ" و"هَلِكَ"، وبنون العظمة، مِن "الإهلاك"، ونصبِ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ ووصفِه.[٥]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأحقاف كُتب له عشر حسنات بعدد كلّ رَملة في الدنيا».[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مجلز وأبي سراج المدني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والثقفي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٨.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/٥؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/١٠٢. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة محمّد عليه السلام

مدنيّة،[1] وقيل:[2] مكّيّة، وهي[3] تسع[4] وثلاثون آيةً،[5]
وقيل: ثمانٍ وثلاثون.[6] وتسمّى سورة القتال أيضًا.[7]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا عن الإسلام وسلوكِ طريقه، مِن "صَدَّ صُدودًا"، أو مَنَعوا الناس عن ذلك، مِن "صَدَّه صَدًّا"، كالمُطعِمين يوم بدر.[8] وقيل: هم اثنا عشر رجلًا مِن أهل الشرك، كانوا يصدّون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر. وقيل: أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا مَن أراد منهم ومِن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عامّ في كلّ مَن كفَر وصدّ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلَها وأحبطَها، وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها أصلًا، لكن لا بمعنى أنّه أبطلَها وأحبطَها بعد أن لم يكن كذلك؛ بل بمعنى أنّه حكم ببطلانها وضَياعها، فإنّ ما كانوا يعملونها مِن أعمال البرّ كصِلة الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرِها مِن المكارم ليس لها أثر مِن أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطلَ ما عملوه مِن الكيد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

١ س + عند مجاهد. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٤.
٢ س: وقال الضحّاك وسعيد بن جبير. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١٤.
٣ ي - مدنيّة، وقيل: مكّيّة، وهي.
٤ ي: سبع. | و"تسع" أصحّ. قال الداني: «وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيّين والمكّي والشامي، وأربعون آيةً في البصري». البيان للداني، ص ٢٢٨.
٥ س ي - آية.
٦ س + آية؛ ي + آية مدنيّة.
٧ س ي - وتسمّى سورة القتال أيضًا.
٨ المطعِمون يومَ بدر اثنا عشر رجلًا، كلّهم مِن قريش، كان يطعم كلّ واحد منهم عشرَ جزر. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤/٣٥٥ (الأنفال، ٨/٣٦)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٤٥٨ (الأنفال، ٨/٣٦).

والصدِّ عن سبيله بنصر رسوله وإظهارِ دينه على الدّين كلّه. وهو الأوفق لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾،[١] وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾... إلخ.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيل: هم ناسٌ مِن قريش. وقيل: مِن
[٩٦و] الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. / وقيل: عامّ للكلّ. ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ خُصّ بالذكر الإيمانُ بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه، وتنبيهًا على سموّ مكانه مِن بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنّه الأصل في الكلّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى:[٣] ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بطريق حصر الحقّيّة فيه. وقيل: حقّيّته بكونه ناسخًا غيرَ منسوخ، فـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على هذا مقابل الزائل، وعلى الأوّل مقابل الباطل. وأيًا ما كان فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلْحَقُّ﴾. وقُرِئ: "نَزَّلَ"[٤] على البناء للفاعل، و"أنزلَ" على البناءَين،[٥] و"نَزَلَ" بالتخفيف.[٦]

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالَهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن إضلال الأعمال، وتكفيرِ السيّئات، وإصلاح البال. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

١ محمد، ٨/٤٧.

٢ محمد، ٤/٤٧.

٣ م - تعالى.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٥ "أَنْزَلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. و"أُنزِلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٩/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ﴾ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الأوّلين اتّبعوا الشيطان -كما قاله مجاهد-[1] ففعلوا ما فعلوا مِن الكفر والصدّ. فبيان سببيّة اتّباعه للإضلال المذكور متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه أصلًا مستتبِعًا لهما قطعًا. وبسبب أنّ الآخرين اتّبعوا الحقّ الذي لا محيدَ عنه كائنًا مِن ربّهم، ففعلوا ما فعلوا مِن الإيمان به وبكتابه، ومِن الأعمال الصالحة. فبيان سببيّة اتّباعه لِما ذُكر مِن التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببيّة الإيمان والعمل الصالح له متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه مَبدأً ومَنشأً لهما حتمًا، فلا تدافُعَ بين الإشعار والتصريح في شيء مِن الموضعين.

ويجوز أن يُحمل ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ على ما يقابل "الحقّ"؛ وهو الزائل الذاهب الذي لا أصلَ له أصلًا، فالتصريح بسببيّة اتّباعه لإضلال أعمالهم وإبطالِها لبيان أنّ إبطالها لبطلان مَبناها وزوالِه.

وأمّا حملُه على ما لا يُنتفَع به[2] فليس كما ينبغي، لِما أنّ الكفر والصدّ أفحشُ منه، فلا وجهَ للتصريح بسببيّته لِما ذُكر[3] بطريق القَصر بعد الإشعار بسببيّتهما له، فتدبّر.

ويجوز / أن يرادَ بـ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ نفسُ الكفر والصدّ، وبـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ نفسُ الإيمان والأعمال الصالحة، فيكونَ التنصيص على سببيّتهما لِما ذُكر مِن الإضلال ومِن التكفير والإصلاح تصريحًا بالسببيّة المشعَر بها في الموقعين. [٩٦ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيّن ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مَجرى الأمثال، وهي اتّباع الأوّلين الباطلَ وخيبتُهم وخسرانُهم، واتّباع الآخرين الحقَّ وفوزُهم وفلاحُهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤﴾

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٨٢/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤.

[3] وفي هامش م: مِن إضلال أعمالهم. «منه».

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لترتيب ما في حيّزها مِن الأمر على ما قبلها، فإنّ ضلال أعمال الكفرة وخيبتَهم، وصلاحَ أحوال المؤمنين وفلاحَهم؛ ممّا يوجب أن يُرتَّب[١] على كلٍّ مِن الجانبَين ما يَليق به مِن الأحكام، أي: فإذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتموهم في المحاربة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: "فاضربوا الرِّقاب ضربًا"، فحُذف الفعل، وقُدِّم المصدر، وأُنيبَ منابَه مضافًا إلى المفعول، وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل تصويرٌ له بأشنع صُوَرِه، وتهويلٌ لأمره، وإرشادٌ للغزاة إلى أيسر ما يكون منه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثَرتم قَتلَهم، وأغلظتموه، مِن "الشيء الثَّخِين"، وهو الغليظ، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتّى أذهبتم عنهم النهوضَ، ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسِرُوهم واحفَظوهم. و﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ اسم لما يوثَق به، وكذا "الْوِثَاقَ" بالكسر، وقد قُرئ بذلك.[٢]

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمّا تَمنُّون بعد ذلك مَنًّا، أو تَفْدُون فِداءً. والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمَنّ والفداء، وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله،[٣] وعندنا منسوخ،[٤] قالوا: نزَل ذلك يوم بدر، ثمّ نُسخ، والحُكم إمّا القتل أو الاسترقاق. وعن مجاهد: «ليس اليوم مَنٌّ ولا فِداء، إنّما[٥] هو الإسلام أو ضرب العنُق».[٦] وقُرئ: "فَدًا"[٧] كـ"عَصًا".

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزارُ الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها مِن السلاح والكراع. أُسنِد وضعها إليها وهو لأهلها / إسنادًا مجازيًّا. [٩٧و]

---

١ س: يترتّب.

٢ لم أجد مَن صرّح بأنّها قراءة غير المؤلّف، وظاهر كلام المفسّرين أنّها لغة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢٠/٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦١/٩.

٣ انظر: **الأمّ** للشافعي، ١٨٧/٤؛ **والحاوي الكبير** للماوردي، ٤٠٩/٨.

٤ انظر: **المبسوط** للسرخسي، ٢٤/١٠؛ ١٣٨/١٠؛ **والدرّ المختار** للحصكفي **وحاشية ابن عابدين**، ١٣٩/٤.

٥ س ي: وإنّما.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٦/٤. وانظر: **مصنّف عبد الرزّاق**، ٢١٠/٥ (٩٤٠٤).

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن وشِبل عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩.

و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية عند الشافعي رحمه الله لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع، والمعنى: أنّهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شَوكة. وقيل: بأن ينزل عيسى عليه السلام.[١]

وأمّا عند أبي حنيفة رضي الله عنه[٢] فإن حُمِلَ الحربُ على حرب بدر فهي غاية للمَنّ والفداء، والمعنى: يُمَنّ عليهم ويُفادَون حتّى تضع حربُ بدرٍ أوزارَها، وإن حُمِلَت على الجنس فهي غاية للضرب والشدّ، والمعنى: أنّهم يُقتَلون ويُؤسَرون حتّى يضع جنس الحرب أوزارَها بأن لا يبقى للمشركين شَوكة.

وقيل: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثامها، أي: حتّى يَترك المشركون شِركَهم ومعاصِيَهم بأن أسلموا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ[٣] ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لَانتقَمَ منهم ببعض أسباب الهلَكة والاستئصال، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فأمرَكم بالقتال، وبَلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجَب الوعد، والكافرين بكم ليعاجلَهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استُشهِدوا. وقُرئ: "قَاتَلُوا"،[٤] أي: جاهَدوا وقُتِلوا وقَتَلُوا. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: فلَن يُضيِّعَها. وقُرئ: "تُضَلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٥] على البناء للمفعول، و"تَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٦] مِن "ضَلَّ".

[١] تفسير مجاهد، ص ٦٠٤.
[٢] س: رحمه الله.
[٣] م س ي: شاء.
[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٣/١٧، كذلك لكن بـ"الياء".
[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٨٦/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٣٤/١٧. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١، عن عليّ رضي الله عنه لكن بـ"الياء". وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩، عن الحسن كذلك بـ"الياء".

وعن قتادة أنّها نزلت في يوم أُحُد.[١]

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى أرشدِ الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب، أو سَيُثبِت هدايتَهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كلّ أحد مَنزِله ويهتدي إليه، كأنّه كان ساكِنَه مُذ خُلق. وعن مقاتل: «أنّ الملَك الموكَّل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيُعرّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى».[٢] أو طيّبَها لهم، مِن "العَرْف"، وهو طِيب الرائحة، أو حدّدَها لهم وأفرَزها، مِن "عَرَّفَ الدارَ"، فجنّة كلّ منهم محدَّدة مُفرَزة. والجملة إمّا مستأنَفة، أو حال بإضمار "قد"، أو بدونه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: دينَه ورسولَه ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم، ويَفتَحْ لكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب ومواقفِها، أو على مَحجّة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝﴾

[٩٧ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ التَّعْس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشرّ، والبُعد، والانحطاط. ورَجلٌ تاعِس وتَعِسٌ. وانتصابه بفعله الواجبِ حذفُه سماعًا، أي: فقال: تَعْسًا لهم، أو فقضَى تَعْسًا لهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ عطفٌ عليه، داخلٌ معه في حيّز الخبريّة للموصول.

---

[١] وفي هامش م: أي: في شأنه. «منه». | الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وانظر: تفسير عبد الرزّاق، ٢٠٤/٣ (٢٨٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ١٩١/٢١. وفي جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢١، كذلك عنه أنّ هذه الآية أنزلت يومَ أُحُد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الشِّعب.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التَّعْس وإضلالِ الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القرآن، لِما فيه مِن التوحيد وسائرِ الأحكام المخالفة لِما أَلِفوه واشتَهتْه أنفسهم الأمّارة بالسوء، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجلِ ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المكذِّبة، فإنّ آثارَ ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختصّ بهم مِن أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: "دمّره" أهلكه، و"دمّرَ عليه" أهلَك عليه ما يختصّ به.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ عواقبهم، أو عقوباتِهم، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثالَ ما لأُولئك وأضعافَه؛ بل مِثلَه، وإنّما جُمع باعتبار مماثلته لعواقب متعدّدة حسب تعدّد الأمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدّ مِن عذاب الأوّلين، وقد قُتِلوا وأُسروا بأيدي مَن كانوا يستخفّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المِثل أشدّ أَلَمًا مِن الهلاك بسبب عامّ. وقيل: المراد بـ"الكافرين" المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضع الضمير، كأنّه قيل: دمَّر الله عليهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصِرُهم على أعدائهم. وقُرئ: "وَلِيُّ الذِينَ"...[1] إلخ.[2]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

[2] س ي - إلخ.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفَع عنهم ما حَلّ بهم مِن العقوبة والعذاب، ولا يخالف هذا قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام، ٦٢/٦]، فإنّ "المَولى" هناك بمعنى "المالك".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بيان لحُكم ولايته تعالى لهم، وثمرتِها الأخرويّة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا
[٩٨و] / تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ غافلين عن عواقبهم، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مَنزلُ ثواءٍ وإقامة. والجملة إمّا حال مقدَّرة مِن واو ﴿يَأْكُلُونَ﴾، أو استئناف.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركَّبة مِن "الكاف" و"أيّ"، بمعنى "كم" الخبريّة، ومحلّها الرفع بالابتداء. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. وقوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَتِكَ﴾، وقد حُذف عنهما المضاف، وأجريَ أحكامه عليهما، كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾ أي: وكم مِن أهل قريةٍ هم أشدّ قوّةً مِن أهل قريتك الذين كانوا سببًا لخروجك مِن بينهم.

ووصفُ القرية الأُولى بشدّة القوّة للإيذان بأولويّة الثانية منها بالإهلاك لضَعف قوّتها، كما أنّ وصف الثانية بإخراجه عليه السلام للإيذان بأولويّتها به لقوّة جنايتها، وعلى طريقته قولُ النابغة:

كُلَيبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصرًا   وأيسَرَ جُرمًا مِنك ضُرِّج بالدّمِ[1]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم مِن العذاب بواسطة الأعوان

[1] ديوان النابغة الجعدي، ص ١٦٦.

والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم. و"الفاء" لترتيب ذِكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حالَي فريقي المؤمنين والكافرين، وكونِ الأوّلِين في أعلى علّيّين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لِعلّة ما لكلٍّ منهما مِن الحال. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها.[1]

و﴿مَن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسّكين بأدلّة الدين. وجعلُها عبارةً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2] أو عنه وعن المؤمنين[3] لا يساعده النظم الكريم، على أنّ الموازنة بينه عليه السلام وبينهم ممّا يأباه منصبه الجليل.

والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمَن كان مستقِرًّا على حجّة ظاهرة وبرهانٍ نَيّرٍ مِن مالكِ أمره / ومربّيه، وهو القرآن الكريم وسائرُ المعجزات والحججِ [٩٨ظ]
العقليّة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ، وانهمكوا في فنون الضلالات مِن غير أن يكون لهم شبهةٌ تُوهم صحّة ما هم عليه، فضلًا عن حجّة تدلّ عليه. وجمع الضميرَين الأخيرَين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد الأوّلين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩.

[2] س: عليه السلام. | قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣٢٠/٤.

[3] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٢١/٥.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ استئناف مَسوق لشرح محاسن الجنّة الموعودة آنِفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفيّة أنهارها التي أشيرَ إلى جريانها مِن تحتها. وعُبّر عنهم بالمتّقين إيذانًا بأنّ الإيمان والعمل الصالح مِن باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وتركِ السيّئات عن آخرها.

و"مَثَلُها" وصفُها العجيب الشأنِ. وهو مبتدأ محذوف الخبرِ، فقدَّره النضر بن شُميل:[١] "مَثَلُ الجنّة ما تسمعون".[٢] وقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ مفسِّر له، وقدّره سيبويه: "فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنّة".[٣] والأوّل هو الأنسب بصَدر النظم الكريم. وقيل: "المَثَل" زائدة كزيادة "الاسم" في قول مَن قال:

إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما[٤]

و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غيرِ متغيّرِ الطعم والرائحة. وقُرئ: "غَيْرِ أَسِنٍ".[٥]

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بأن صار قارِصًا[٦] ولا حازِرًا[٧] كألبان الدنيا. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ ليس فيها كراهةُ طعم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار، وإنّما هي تلذّذ مَحض. و﴿لَّذَّةٍ﴾ إمّا تأنيث "لَذّ" بمعنى "لَذيذ"، أو مصدر نُعِت به مبالغةً. وقُرئ: "لَذَّةٌ" بالرفع[٨] على أنّها صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، وبالنصب[٩] على العلّة،

---

١ هو النَّضر بن شُمَيل بن خَرَشة بن زيد المازني البصري، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٩م)، العلّامة، الحافظ، النحوي. أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمَرو مِن بلاد خُراسان، وانتقل إلى البصرة مع أبيه -وأصله منها- فأقام زمنًا، وعاد إلى مَرو فوَلي قضاءها. واتّصل بالمأمون العبّاسي فأكرمه وقرّبه. وتُوفّي بمَرو. مِن كتبه **الصفات، والسلاح، والمعاني، وغريب الحديث، والأنواء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢٨/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣/٨.

٢ **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ١١٤/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٠/١٧.

٣ انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١٤٣/١.

٤ تمامه:

وَمَن يَبكِ حَولًا كامِلًا فقدِ اعتذَرْ

وهو للَبيد بن ربيعة العامري في ديوانه، ص ٢١٤.

٥ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٦ القارِص: اللبَن الذي يَحْذي اللسان. **الصحاح** للجوهري، «قرص».

٧ الحازِر: اللبَن الحامِض، وقد حَزَرَ اللبَن، أي: حَمِض. **الصحاح** للجوهري، «حزر».

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

٩ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

أي: لأجل لذّة الشاربين. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لا يخالِطه الشمع / وفضلاتُ [٩٩و]
النحل وغيرها.

وفي هذا تمثيل لِما يجري مَجرى الأشربة في الجنّة بأنواع ما يُستطاب منها ويُستلذّ في الدنيا بالتخلية عمّا ينغِّصها وينقِّصها، والتحليةِ بما يوجب غَزارتها ودَوامها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر مِن فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: صِنفٌ مِن كلّ الثمرات، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: ولهم مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرُها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، مؤكِّدةٌ[١] لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن ربّهم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمَن هو خالد في هذه الجنّة حسبما جرى به الوعد كمَن هو خالد في النار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؟[٢] وقيل: هو خبر لـ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على أنّ في الكلام حذفًا، تقديرُه: أَمَثَلُ الجنّة كمَثَل جزاء مَن هو خالد في النار؟ أو أَمَثَلُ أهل الجنّة كمَثَل مَن هو خالد في النار؟ فعُرّي عن حرف الإنكار وحُذف ما حُذف تصويرًا لمكابرة مَن يسوّي بين المتمسِّك بالبيّنة وبين التابع للهوى بمكابَرة مَن سوّى بين الجنّة الموصوفة بما فُصّل مِن الصفات الجليلة وبين النار.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فَرط الحرارة. قيل: إذا دنا منهم شَوى وجوهَهم، وانمازَت فَروةُ رءوسهم، فإذا شربوه قَطّع أمعاءهم.[٣]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار لفظة ﴿مَن﴾، كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها. كانوا يحضرون مجلس

---

١ س: مؤكّد.

٢ محمد، ٤٧/١٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٣٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٢.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيسمعون كلامه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقّ رعايته تهاونًا منهم.

[٩٩ظ] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ / مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ مِن الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال الساعةَ؟ على طريقة الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام. و﴿ءَانِفًا﴾ مِن قولهم: "أَنْفُ الشيءِ" لِما تقدّم منه، مستعارٌ مِن الجارحة، ومنه "استَأْنَفَ الشيءَ" و"ائْتَنَفَ"، وهو ظرف بمعنى "وقتًا مُؤْتَنَفًا"، أو حال مِن الضمير في ﴿قَالَ﴾. وقُرِئ: "أَنِفًا".[١]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لعدم توجّهها نحو الخير أصلًا، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الباطلةَ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ إلى طريق الحقّ ﴿زَادَهُمۡ﴾ أي: الله تعالى ﴿هُدٗى﴾ بالتوفيق والإلهام، ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أعانَهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها، أو بيّنَ لهم ما يتّقون.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ۝١٨﴾

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ. وقوله تعالى: ﴿أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ أي: تُباغِتَهم بغتةً، وهي المفاجأة؛ بدل اشتمال مِن الساعة. والمعنى: أنّهم لا يتذكّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها مِن عظائم الأهوال، وما ينتظرون للتذكّر إلّا إتيانَ نفسِ الساعة بغتةً. وقُرِئ: "بَغَتَّةً" بفتح "الغين".[٢]

---

[١] قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

[٢] أي: وتشديد "التاء". قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي وهارون عن أبي عمرو. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٦٨.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقًا، على معنى أنّه لم يبقَ مِن الأمور الموجِبة للتذكّر أمر مترقَّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها، فلم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدّوها مِن مبادي إتيانها، فيكون إتيانُها بطريق المفاجأة لا محالةَ. و"الأشراط" جمع "شَرَط" بالتحريك، وهي العلامة، والمراد بها مَبعثه صلّى الله عليه وسلّم[1] وانشقاقُ القمر ونحوُهما.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ حكمٌ بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكّر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ / وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر، ٢٣/٨٩]، أي: وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم، على أنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدَّم، و﴿ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا جَآءَتۡهُمۡ﴾ اعتراض وُسِّط بينهما رمزًا إلى غاية سرعة مجيئها. وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لِما أنّ مدار استحالة نفع التذكّر كونه عند مَجيئه مطلَقًا لا مقيّدًا بقيد البغتة. وقُرِئ: "إِنْ تَأْتِهِمْ"،[2] على أنّه شرط مستأنَف، جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ﴾... إلخ. والمعنى: إن تأتِهم الساعة بغتةً لأنّه قد ظهَر أماراتها فكيف لهم تذكّرهم واتّعاظهم إذا جاءتهم؟ [١٠٠و]

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ۝١٩﴾

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إذا علمت أنّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناطَ الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبُت على ما أنت عليه مِن العلم بالوحدانيّة والعملِ بموجَبه.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو الذي ربّما يصدر عنه عليه السلام مِن ترك الأَولى، عُبّر عنه بالذنب نظرًا إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسناتُ الأبرار سيّئاتُ المقرّبين، وإرشادًا له عليه السلام إلى التواضع وهَضمِ النفس واستقصارِ العمل.

---

١ س: عليه السلام.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر الرواسي عن أهل مكّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٨/٩.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم. وفي إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلَّقَيه جنسًا. وفي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه إشعار بعَراقتهم في الذنب، وفرطِ افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنّها مراحلُ لا بدَّ مِن قطعها لا محالةَ، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العُقبى، فإنّها مَوطن إقامتكم، فلا يأمرُكم إلّا بما هو خير لكم فيهما، فبادِروا إلى الامتثال بما أَمَركم به، فإنّه المهمّ لكم في المَقامين. وقيل: يعلم جميع أحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حِرصًا منهم على الجهاد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلّا نُزِّلت سورة نُؤمر فيها بالجهاد. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ بطريق الأمر به، أي: سورة مبيِّنة، لا تشابُهَ ولا احتمالَ فيها لوجهٍ آخَر سوى وجوب القتال. عن قتادة: «كلّ / سورة فيها ذِكرُ القتال فهي محكَمة لم تُنسخ».[1] [١٠٠ظ]
وقُرئ: "فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ".[2] وقُرئ: "وَذَكَرَ" على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصبِ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾.[3]

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفٌ في الدين، وقيل: نفاقٌ، وهو الأظهر الأوفَق لسياق النظم الكريم. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تشخَص أبصارهم جُبنًا وهلَعًا كدأب مَن أصابته غَشية الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويل لهم. وهو "أَفْعَلَ" مِن "الوَلْي"، وهو القُرب. وقيل: مِن "آلَ". ومعناه الدعاء عليهم بأن يليَهم المكروه، أو يئُولَ إليه أمرهم. وقيل: هو مشتَقّ مِن "الويل"، وأصله "أَوْيَلُ" فقُلبت "العين" إلى ما بعد "اللام"، فوزنه "أَفْلَعُ".

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/٢١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٣٥.
٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن عمير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٧٠.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنَف، أي: أمرُهم طاعةٌ... إلخ، أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةٌ لقولهم، ويؤيّده قراءة أبيّ: "يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ"،[1] أي: أمرُنا ذلك.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسنَد العزمَ -وهو الجِدّ- إلى الأمر -وهو لأصحابه- مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ[2] مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان، ١٧/٣١]. وعامِل الظرف محذوف، أي: خالَفوا وتخلّفوا. وقيل: ناقضوا. وقيل: كرِهوا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ على طريقة قولك: "إذا حضَرَني طعام فلو جئتَني لَأطعمتك"، أي: فلو صدَقوه تعالى فيما قالوا مِن الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجري على موجَبه ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وفيه دلالة على اشتراك الكلّ فيما حُكي عنهم مِن قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.[3] وقيل: فلو صدَقوه في الإيمان، وواطأت قلوبُهم في ذلك ألسنتَهم.

وأيًا ما كان فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض، وهم المخاطَبون بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾... إلخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديدِ التقريع، أي: هل يُتوقَّع منكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمّرتم عليهم ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحُرًا على المُلْك وتَهالكًا على الدنيا، فإنّ مَن شاهَد أحوالَكم الدالّة على الضعف في الدين والحِرص على الدنيا حين أُمِرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحرازِ كلِّ خير وصلاح، ودفعِ كلِّ شرّ وفساد، / وأنتم مأمورون، شأنُكم الطاعة والقولُ المعروف؛ يَتوقّع منكم إذا أُطلِقت [١٠١و] أعِنّتكم وصِرتم آمِرين ما[4] ذُكر مِن الإفساد وقَطع الأرحام.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧١/٩.

[2] م: ذاك.

[3] محمّد، ٢٠/٤٧.

[4] س: بما. | وفي هامش م: مفعول "يَتوقّع". «منه».

وقيل:[١] إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة مِن الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقَطع الأرحام بمُقاتلة بعضِ الأقارب بعضًا ووَأْدِ البنات. وفيه أنّ الواقع في حيّز الشرط في مِثل هذا المقام لا بدَّ أن يكون محذوريّته باعتبار ما يستتبعه مِن المفاسد، لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أنّ الإعراض عن الإسلام رأسُ كلّ شرّ وفسادٍ، فحقُّه أن يُجعَل عمدةً في التوبيخ، لا وسيلةً للتوبيخ بما دونه مِن المفاسد.

وقُرئ: "وُلِّيتُمْ" على البناء للمفعول،[٢] أي: جُعِلتم وُلاةً. وقُرئ: "تُوُلِّيتُمْ"،[٣] أي: تَولّاكم وُلاة جَورٍ خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم. وقُرئ: "وَتَقَطَّعُوا"[٤] مِن "التَّقَطّع" بحذف إحدى التاءين، فانتصابُ ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ حينئذ على نزع الجارّ، أي: في أرحامكم. وقُرئ: "وَتَقْطَعُوا"[٥] مِن "القَطْع".

وإلحاق الضمير بـ"عسى" لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "عسى أن تفعل" و"عسى أن تفعلوا".

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ذِكر هَناتهم أوجَبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكايةَ أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدَهم مِن رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقّ لتَصامّهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ لِتَعاميهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات المنصوبة في الأنفُس والآفاق.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: ألا يلاحظونه ولا يتصفّحونه وما فيه مِن المواعظ والزواجر حتّى لا يَقعوا فيما وقعوا فيه مِن المُوبِقات، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

---

١ قاله الواحدي في التفسير الوسيط، ١٢٦/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مغفّل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١١٨/٥.

٣ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

فلا يكاد يصِلُ إليها ذِكرٌ أصلًا. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفَلةً، لا تقبل التدبّر والتفكّر، / و"الهمزةِ"[١] للتقرير. [١٠١ظ]

وتنكير "القلوب" إمّا لتهويل حالها وتفظيعِ شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنّه قيل: على قلوب مُنكَرة، لا يُعرَف حالها، ولا يُقادَر قدرُها في القَسوة، وإمّا لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون. وإضافة "الأقفال" إليها للدلالة على أنّها أقفال مخصوصة بها مناسِبةٌ لها غيرُ مجانِسة لسائر الأقفال المعهودة. وقُرئ: "أَقْفُلُهَا"،[٢] و"إِقْفَالُهَا"[٣] على المصدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه مِن الكفر، وهم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمَرض القلوب وغيره مِن قبائح الأفعال والأحوال، فإنّهم قد كفروا به عليه السلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة. وقيل: هم اليهود. وقيل: أهل الكتابَين جميعًا كفروا به عليه السلام بعدَ ما وجدوا نَعْته عليه السلام في كتابهم، وعرَفوا أنّه المنعوت بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، وقعَت خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أي: سهّل لهم ركوبَ العظائم، مِن "السَّوَل"، وهو الاسترخاء. وقيل: مِن "السُّول" المخفَّفِ مِن "السُّؤْل" لاستمرار القلب، فمعنى "سَوَّل له أمرًا" حينئذ: أوقعه في أمنيّته، فإنّ السُّؤل الأمنيّة. وقُرئ: "سُوِّلَ"[٤] مبنيًا للمفعول على حذف المضاف، أي: كيدُ الشيطان.

---

١ السياق: وما فيها مِن معنى "بل"... و"الهمزةِ"...

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٣ قراءة شاذّة، غيرَ منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأمانيّ والآمال. وقيل: أمهلهم الله تعالى، ولم يعاجِلهم بالعقوبة. وقُرِئ: "أُمْلِي لَهُمْ"[١] على صيغة المتكلِّم، فالمعنى: أنّ الشيطان يُغويهم، وأنا أُنظِرهم، فـ"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرِئ: "أُمْلِيَ لَهُمْ"[٢] على البناء للمفعول، أي: أُمهِلوا ومُدّ في عمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي،[٣] ولا إلى التسويل كما قيل،[٤] لأنّ شيئًا منهما ليس مسبَّبًا عن القول الآتي، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ﴾ يعني المنافقين المذكورين، لا اليهودَ / الكافرين به عليه السلام بعد ما وجدوا نَعته [١٠٢و]
عليه السلام في التوراة كما قيل،[٥] فإنّ كُفرهم به عليه السلام ليس بسبب هذا القول، ولو فُرض صدورُه عنهم، سواء كان المَقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل؛ بل مِن حين بِعثتِه[٦] عليه السلام.

﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع علمهم بأنّه مِن عند الله تعالى حسَدًا وطمَعًا في نزوله عليهم، لا للمشركين كما قيل،[٧] فإنّ قوله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة قطعًا عمّا حُكي عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر، ١١/٥٩]، وهم بنو[٨] قُرَيظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم، وأرادوا بـ"البعض" الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ١٢٨/٤.
٤ قاله ابن عادل في اللباب، ٤٦١/١٧.
٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥.
٦ س: بعثت.
٧ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٧.
٨ م: بنوا.

إظهارَ كفرهم وإعلانَ أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم مِن ديارهم، فإنّهم كانوا يأبَون ذلك قبل مَساس الحاجة الضروريّة الداعية إليه، لِما كان لهم في إظهار الإيمان مِن المنافع الدنيويّة.

وإنّما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرًّا، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: إخفاءَهم لِما يقولونه لليهود. وقُرئ: "أَسْرَارَهُمْ"،[1] أي: جميعَ أسرارهم التي مِن جملتها قولهم هذا. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله متضمِّن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و﴿كَيْفَ﴾ منصوب بفِعل محذوف هو العامل في الظرف، كأنّه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون مِن الحِيَل، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة؟ وقيل: مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتُهم إذا توفّتهم... إلخ؟ وقُرئ: "تَوَفَّاهُمْ"[2] على أنّه / إمّا ماضٍ، أو مضارعٌ قد حُذِف إحدى تاءَيه. [١٠٢ظ]

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَوَفَّتْهُمْ﴾، أو مِن مفعوله، وهو تصوير لتوفّيهم على أهوَل الوجوه وأفظَعها. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يتوفّى أحد على معصية إلّا يضرب الملائكة وجهه ودبره».[3]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ مِن الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه مِن الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا مِن المعاملة مع اليهود،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤. وذكر نحوه السمعاني في تفسيره، ١٨٢/٥، مِن غير نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها حالَ إيمانهم مِن الطاعات، أو بعد ذلك مِن أعمال البرّ التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِلت أحوالهم الشنيعة، وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مَدارًا لِما نُعِي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، فـ﴿أَمْ﴾ منقطعة، و﴿أَن﴾ مخفَّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، و﴿لَن﴾ بما في حيّزها خبرُها.[١] و"الأضغان" جمع "ضِغْن"، وهو الحقد، أي: بل أحسِبَ الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنّه لن يخرج الله أحقادَهم، ولن يبرِزَها لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، فيُبقي أمورهم مستورةً؟ والمعنى أنّ ذلك ممّا لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتَهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكهم بدلائلَ تعرفهم بأعيانهم معرفةً مُتاخِمة للرؤية. والالتفات إلى نون العظَمة لإبراز العناية بالإراءة، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي نَسِمُهم بها. وعن أنس رضي الله عنه: «ما خفِي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية شيء مِن المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة مِن المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى وجه كلّ واحد منهم مكتوب: "هذا منافق"».[٢]

[١٠٣و] و"اللام" لام الجواب، كُرِّرت في المعطوف للتأكيد، و"الفاء" / لترتيب المعرفة على الإراءة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلجواب قسم محذوف. و﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ نَحوه وأسلوبه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتَورِية، ومنه قيل للمخطئ: "لاحِن"، لعدله بالكلام عن سَمْت الصواب.

---

[١] س – خبرها.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعد للمؤمنين، وإيذان بأنّ حالهم بخلاف حال المنافقين.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾[1] بالأمر بالجهاد ونحوه مِن التكاليف الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ[2] ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد عِلمًا فعليًّا يتعلّق به الجزاء، ﴿وَنَبۡلُوَاْ[3] أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يُخبَر به عن أعمالكم فيظهر حَسَنها وقبيحها. وقُرئ: "وَيَبْلُو" بـ"الياء".[4] وقُرئ: "نَبْلُو" بسكون "الواو"،[5] على "ونحن نَبلُو".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وعادَوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا نعته عليه السلام في التوراة، وبما ظهر على يديه مِن المعجزات، ونزل عليه مِن الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعِمون يوم بدر.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مِن الأشياء، أو شيئًا مِن الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله تعالى[6] بمُشاقّته شيئًا، وقد حُذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مُشاقّته.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: مكائدَهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه السلام، فلا يَصلون بها إلى ما كانوا يَبغون مِن الغوائل، ولا تثمر لهم إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم.

---

[1] م س ي: وليبلونكم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

[2] م س ي: يعلم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

[3] م س ي: ونبلو.

[4] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

[5] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

[6] س – تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالَهم مِن الكفر والنفاق والعُجب والرياء والمَنّ والأذى ونحوها. وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾
[١٠٣ظ] حكمٌ يَعمّ / كلَّ مَن مات على الكفر، وإن صحّ نزوله في أصحاب القليب.[١]

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعُفوا ﴿وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفّار إلى الصلح خوَرًا، فإنّ ذلك إعطاءُ الدنيّة. ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار "أن" على جواب النهي. وقُرئ: "وَلَا تَدَّعُوا" مِن "ادّعَى القوم"، بمعنى "تَداعَوا"، نحو: "ارتَمَوا الصيدَ" و"تَرامَوه"، ومنه "تراءَوا الهلالَ"، فإنّ صيغة التفاعل قد يُراد بها صدور الفعل عن المتعدِّد مِن غير اعتبار وقوعه عليه، ومنه قوله تعالى:[٢] ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ، ١/٧٨] على أحد الوجهين. و"الفاء" لترتيب النهي على ما سبق مِن الأمر بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملة حاليّة مقرِّرة لمعنى النهي، مؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ فإنّ كونَهم الأغلبين وكونَه عزّ وعلا ناصِرَهم مِن أقوى موجِبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: ولن يُضَيِّعَها، مِن "وَتَرْتُ الرجلَ" إذا قتلتَ له قتيلًا مِن ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ فأفْردته منه، مِن "الوتر" الذي هو الفرد.

عُبّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بـ"الوتر" الذي هو إضاعة شيءٍ معتدٍّ به مِن الأنفس والأموال -مع أنّ الأعمال غير موجِبة للثواب على قاعدة

---

[١] القَلِيب: البئر، والمراد هنا: قَلِيب بَدر. وأصحاب القَلِيب: هم الكفّار الذين قُتلوا يومَ بدر، ورأسُهم أبو جهل بن هشام. انظر: فتح الباري لابن حجر، ١/٢٧١.

[٢] م - تعالى.

أهل السنّة- إبرازًا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحقّ المستَحَق، وتنزيلِ ترك الإثابة منزلةَ إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران، ١٩٥/٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها، ولا اعتدادَ بها، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم مِن الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ بحيث يخِلّ أداؤها بمعاشكم، وإنّما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها هو ربع العشر تؤدّونها إلى فقرائكم.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالَكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يَجْهَدْكم بطلب الكلّ، فإنّ الإحفاء والإلحاف المبالغةُ وبلوغ / الغاية، يقال: "أحفى شاربَه"، أي: استأصله، [١٠٤و]
﴿تَبْخَلُوا۟﴾ فلا تُعطوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: أحقادَكم. وضمير ﴿يُخْرِجْ﴾ لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظَمة،[١] أو للبخل؛ لأنّه سبب الأضغان. وقُرئ: "يَخْرُجْ" مِن الخروج بـ"الياء"[٢] و"التاء"[٣] مسندًا إلى "الأضغان".

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب بن المتوكّل واليماني. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطَبون هؤلاء الموصوفون. وقوله تعالى: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مقرِّر لذلك، أو صلة لـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنّه بمعنى "الذين"، أي: ها أنتم الذين تُدعَون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير مِن شأنهم. والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ أي: ناسٌ يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطيّة السابقة.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فإنّ كلًّا مِن نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه. و"البخل" يستعمل بـ"عن" و"على"، لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ دون مَن عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه مِن المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن تولّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطفٌ على ﴿إِن تُؤۡمِنُواْ﴾،[1] أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يخلُقْ مكانكم قومًا آخرين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى؛ بل يكونوا راغبين فيهما. قيل: هم الأنصار. وقيل: الملائكة. وقيل: أهل فارس، لِما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه فقال: «هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنوطًا بالثريّا لتناوله رجال مِن فارس».[2] وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجَم. وقيل: الروم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة محمّد كان حقًّا على الله عزّ وجلّ أن يسقيه مِن أنهار الجنّة».[3]

والحمد لله ربّ العالمين.

---

١ محمّد، ٤٧/٣٦.
٢ سنن الترمذي، ٥/٣٨٤ (٣٢٦١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٣٩.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٢٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١١٨. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

/ سورة الفتح [١٠٤ظ]

مدنيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فتحُ البلد عبارة عن الظفر به عَنوةً أو صلحًا، بحِراب أو بدونه، فإنّه ما لم يُظفَر به مُنْغَلَق، مأخوذ مِن "فتح باب الدار". وإسناده إلى نون العظَمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقًا وإيجادًا. والمراد به فتح مكّة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه،[١] بُشِّر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند انصرافه عن الحُدَيبية. والتعبير عنه بصيغة الماضي على سَنن سائر الأخبار الربّانيّة للإيذان بتحقّقه لا محالةَ تأكيدًا للتبشير، كما أنّ تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك. وفيه مِن الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبِر جلّ جلاله وعزّ سلطانه ما لا يخفى.

وقيل: هو ما أُتيح له عليه السلام في تلك السَّنة مِن فتح خيبر، وهو المرويّ عن مجاهد.[٢]

وقيل: هو صُلح الحُديبية، فإنّه وإن لم يكن فيه حِراب شديد؛ بل تَرامٍ بين الفريقين بسهام وحجارة، لكن لمّا كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحًا بلا ريب. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رمَوا المشركين حتّى أدخلوهم ديارَهم».[٣] وعن الكلبي: «ظهروا عليهم حتّى سألوا الصلح».[٤]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

وقد رُوي أنّه عليه السلام حين بلغه أنّ رجلًا قال: «ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا»، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح، ويسألوكم القضيّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأَوا منكم ما يكرهون».[1]

وعن الشعبي: «نزلت بالحُديبية، وأصاب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الغزوة ما لم يُصِب في غزوةٍ، حيث أصاب أن بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، وبلغ الهديُ مَحِلّه، وأُطعِموا نخل خيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرِح به المسلمون».[2]

وكان في فتح الحُديبية آية عظيمة، هي أنّه نُزِحَ ماؤها حتّى لم يبقَ فيها قطرة، فتمضمَض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ مَجّه فيها فدرَّت بالماء حتّى شرب جميع مَن كان معه.[3] وقيل: فجاش الماء حتّى امتلأَت، ولم ينفَد ماؤها بعدُ.

وقيل: هو جميعُ ما فُتِح له عليه السلام مِن الفتوح. وقيل: هو ما فَتح الله له عليه السلام مِن الإسلام والنبوّة والدعوة بالحجّة والسيف، ولا فتحَ أبينُ منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافّةً؛ إذ لا فتحَ مِن فتوح الإسلام إلّا
[١٠٥و] وهو شعبة مِن شُعَبِه، وفرع مِن فروعه. / وقيل: "الفتح" بمعنى القضاء، ومنه "الفُتاحة" للحكومة، والمعنى: قضينا لك على أهل مكّة أن تدخلها مِن قابل، وهو المرويّ عن قتادة رضي الله عنه.[4]

وأيًّا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذانِ بأنّ مناطَ التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصيّةُ المفتوح.

﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بيّنًا ظاهرَ الأمر، مكشوفَ الحال، أو فارِقًا بين الحقّ والباطل.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوّة، ١٦٠/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٢٤٤/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢/٩.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. والقصّة في صحيح البخاري، ١٩٣/٤ (٣٥٧٧)؛ وصحيح مسلم، ١٤٣٣/٣ (١٨٠٧).

٤ م - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ٢٣٨/٢١؛ تفسير عبد الرزّاق، ٢١٠/٣.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ غايةٌ للفتح مِن حيث إنّه مترتّب على سعيه عليه السلام[1] في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابَدة مشاقّ الحروب، واقتحامِ موارد الخطوب. والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ ممّا انتظم في سِلك الغاية مِن أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى مِن حيثيّةٍ غيرِ حيثيّة الآخَر مترتّبةٍ على صفة مِن صفاته تعالى.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: جميعَ ما فرَط منك مِن ترك الأَولى. وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضمّ المُلك إلى النبوّة وغيرهما ممّا أضافه عليه مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامةِ مراسم الرياسة. وأصلُ الاستقامة وإن كانت حاصلةً قبلَ الفتح لكن حصل بعد ذلك مِن اتّضاح سُبل الحقّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلًا قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لكونه خاتمةَ الغايات، ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يُعرِب عنه تأكيده بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نَصرًا فيه عِزّة ومَنَعة، أو قويًّا مَنيعًا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازًا للمبالغة، أو عزيزًا صاحبُه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

---

[1] وفي هامش م: فإنّه وإن كان مِن حيث الخلقُ والإيجادُ مستندًا إلى الله عز وجلّ، لكن مِن حيث الكسبُ مستند إليه عليه السلام، مترتّب على ما ذُكر مِن المساعي الجميلة الحقيقة باستتباع تلك الغايات الجليلة. «منه».

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بيان لِما أفاضَ عليهم مِن مبادي الفتح مِن الثبات والطُّمأنينة، أي: أنزلَها ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمنِ إظهارًا لِفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، / ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يقينًا [١٠٥ظ] منضمًّا إلى يقينهم، أو أنزلَ فيها السكون إلى ما جاء به عليه السلام مِن الشرائع ليزدادوا إيمانًا بها مقرونًا مع إيمانهم بالوحدانيّة واليوم الآخر. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «أنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التوحيد، ثمّ الصلاة والزكاة، ثمّ الحجّ والجهاد، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم».[٢] أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّر أمرَها كيفما يريد، يسلّط بعضها على بعض تارةً، ويُوقع بينهما السِّلم أخرى، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العلم بجميع الأمور، ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلّق بما يدلّ عليه ما ذُكر مِن كون جنود السماوات والأرض له تعالى مِن معنى التصرّف والتدبير، أي: دبَّر ما دبَّر مِن تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيُدخلهم الجنّة، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغطِّيَها ولا يظهرَها. وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدرُه؛ لأنّه مُنتَهى ما يمتدّ إليه أعناق الهِمم مِن جلب نفع ودفعِ ضرّ.

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٩.

و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ﴿فَوۡزًا﴾؛ لأنّه صفته في الأصل، فلمّا قُدِّم عليه صار حالًا، أي: كائنًا عند الله، أي: في علمه وقضائه. والجملة اعتراض مقرّر لِما قبله.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦﴾

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿يُدۡخِلَ﴾.[1] وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى مِن الدلالة على أنّهم أحقّ منهم بالعذاب. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ظنَّ الأمر السَّوء، وهو أن لا يَنصر رسوله والمؤمنين.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم، ودائر عليهم. وقُرئ: "دَائِرَةُ السُّوءِ" بالضمّ،[2] وهما لغتان مِن "سَاءَ"، كـ"الكَرْه" و"الكُرْه"، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذَمُّه مِن كلّ شيء، وأمّا المضموم فجارٍ مَجرى الشرّ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِما استحقّوه / في [١٠٦و]
الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا. و"الواو" في الأخيرين مع أنّ حقّهما "الفاء" المفيدة لِسببيّة ما قبلها لِما بعدها للإيذان باستقلال كلٍّ منها في الوعيد وأصالتِه مِن غير اعتبار استتباع بعضها لبعضٍ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ إعادة لِما سبَق، قالوا: فائدتها التنبيه على أنّ لله تعالى[3] جنودَ الرحمة وجنودَ العذاب، وأنّ المراد ههنا جنودُ العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لوصف العزّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.

٣ س – تعالى.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي: على أمّتك، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ على المعصية.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأمّته، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بتقوية دينه ورسوله، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنَزِّهوه، أو تصلّوا له، مِن "السُّبْحة"، ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشيًّا. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[1] «صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر».[2]

وقُرئ الأفعال الأربعة بـ"الياء" التحتانيّة.[3] وقُرئ: "وتُعْزِرُوهُ" بضمّ "التاء" وتخفيف "الزاء" المكسورة.[4] وقُرئ بفتح "التاء" وضمّ "الزاء"[5] وكسرها،[6] و"تُعَزِّزُوهُ" بزاءَين.[7] و"تُوقِرُوهُ"،[8] مِن "أوْقَرَهُ" بمعنى "وَقَّره".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: على قتالِ قريش تحت الشجرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، يعني: أنّ مبايَعتك هي مبايَعة الله عزّ وجلّ؛ لأنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حال أو استئناف مؤكِّد له على طريق التخييل، والمعنى: أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعَقْده مع الله تعالى مِن غير تفاوت

---

١ م – رضي الله عنهما.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٣٥/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمّد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه واليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤١.

بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٤/٨٠]. وقُرئ: "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ"،[١] أي: لأجله ولوجهه.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فمَن نقَض عهدَه فإنّما يعود ضررُ نكثه على نفسه. وقُرئ بكسر "الكاف".[٢] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ بضمّ "الهاء"، فإنّه أُبقِيَ بعد حذف "الواو"[٣] / توسّلًا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة. [١٠٦ظ] وقُرئ بكسرها.[٤] أي: ومَن وَفَى بعهده.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنّة. وقُرئ: "بِمَا عَهِدَ".[٥] وقُرئ: "فَسَنُؤْتِيهِ" بنون العظَمة.[٦]

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أعراب غِفارٍ ومُزَينة وجُهَينة وأشجَع وأسلَم والدِّيل،[٧] تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين استنفر مَن حول المدينة مِن الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسيرَ إلى مكّة عام الحُديبية معتمِرًا حذَرًا مِن قريش أن يَعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرَم عليه السلام وساق معه الهدي ليُعلَم أنّه لا يريد الحرب، وتثاقلوا عن الخروج، وقالوا: «نَذهَبُ إلى قوم قد غزَوه في عُقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن تمّام بن العبّاس بن عبد المطّلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٢ أي: "يَنكِثُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٣ وفي هامش م: حُذفت "الواو" لسكونها وسكونِ "اللام"، وبقيت الضمّة تدلّ عليها. كواشي. | تفسير الكواشي، ٣٠٥و.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٧ بنو الدِّيل: بطن مِن عبد القيس بن ربيعة مِن العدنانيّة، قال الجوهري: وهما دِيلان، أحدهما: الدِّيل بن شدّاد بن أقصى بن عبد القيس، والثاني: الدِّيل بن عمرو بن وديعة بن أقصى بن عبد القيس. قال الجوهري: ومنهم أهل عُمان. والنسب إلى الديل: "دِيلي". نهاية الأرب للقلقشندي، ٥٦/١.

فنُقاتلهم»، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام بأنّهم سَيَعتَلُّونَ ويقولون: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ولم يكن لنا مَن يَخلفُنا فيهم، ويقوم بمصالحهم، ويحميهم مِن الضياع.[١] وقُرِئ: "شَغَّلَتْنَا" بالتشديد[٢] للتكثير. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيارٍ؛ بل عن اضطرارٍ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ بدل مِن ﴿سَيَقُولُ﴾، أو استئناف لتكذيبهم في الاعتذار والاستغفار.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي: فمَن يقدر لأجلكم مِن مشيئة الله تعالى وقضائه على شيء مِن النفع ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ أي: ما يضرّكم مِن هلاك الأهل والمال وضياعهما حتّى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما. وقُرِئ: "ضُرًّا" بالضمّ.[٣] ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ أي: ومَن يقدر على شيء مِن الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم مِن حفظ أموالكم وأهليكم، فأيّ حاجة إلى التخلّف لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحقّ، وردّ لهم بموجَب ظاهر مقالتهم الكاذبة.

وتعميم الضرّ والنفع لِما يتوقّع على تقدير الخروج مِن القتل والهزيمة
[١٠٧و] والظفَر والغنيمة يَردّه قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ / فإنّه إضراب عمّا قالوا، وبيان لكذبه، بعد بيان فساده على تقدير صِدقه، أي: ليس الأمر كما تقولون؛ بل كان الله خبيرًا بجميع ما تعملون مِن الأعمال التي مِن جملتها تخلُّفكم وما هو مِن مباديه.

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ﴾... إلخ بدل مِن ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾... إلخ[٤] مفسّر لِما فيه مِن الإبهام، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٢٥٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٤ في الآية السابقة.

بأن يستأصلهم المشركون بالمرّة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا لِما ذكرتم مِن المعاذير الباطلة. و"الأهلون" جمع "أهل"، وقد يجمع على "أهلات" كـ"أرضات" على تقدير تاء التأنيث، وأمّا "الأهالي" فاسم جمع كـ"الليالي". وقُرئ: "إِلَى أَهْلِهِمْ".[1]

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقَبِلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غيرَ مبالِين بهم. وقُرئ: "زَيَّنَ"[2] على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه، أو إلى الشيطان، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إمّا الظنّ الأوّل، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيلِ عليه بالسوء، أو ما يَعمّه وغيرَه مِن الظنون الفاسدة التي مِن جملتها الظنّ بعدم صحّة رسالته عليه السلام، فإنّ الجازم بصحّتها لا يحومُ حول فكره ما ذُكر مِن الاستئصال.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هالِكين عند الله مستوجِبين لسخَطه وعقابه، على أنّه جمع "بائر"، كـ"عائذ" و"عُوذ"،[3] أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خيرَ فيكم. وقيل: "البُور" مِن "بارَ"، كـ"الهُلك" مِن "هلك" بناءً ومعنًى، ولذلك وُصف به الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كلام مبتدأ مِن جهته تعالى، غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، مقرِّرٌ لبَوارِهم، ومبيِّن لكيفيّته، أي: ومَن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: لهم، وإنّما وضع موضع الضمير "الكافرون" إيذانًا بأنّ مَن لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، وأنّه مستوجِب للسعير بكفره. وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للتهويل، أو لأنّها نار مخصوصة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ س: كعائد وعود. | وفي هامش م: وهو الحديث السنّ مِن الظباء والإبل. «منه».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

[١٠٧ظ] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ/ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، يتصرّف في الكلّ كيف يشاء، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه مِن غير دخل لأحدٍ في شيء منهما وجودًا وعدَمًا، وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغة في استغفاره عليه السلام لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في المغفرة والرحمة لمَن يشاء، ولا يشاء إلّا لمَن يقتضي الحكمةُ مغفرته ممّن يؤمن به وبرسوله، وأمّا مَن عداه مِن الكافرين فهم بمَعزِل مِن ذلك قطعًا.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المذكورون. وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرف لِما قبله، لا شرطٌ لِما بعده، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إيّاها وخصّكم بها عِوضًا ممّا فاتكم مِن غنائم مكّة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونَشهَدْ معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنّه عليه السلام رجع مِن الحديبية في ذي الحجّة مِن سنة ستٍّ، وأقام بالمدينة بقيّتَها وأوائلَ المحرَّم مِن سنة سبعٍ، ثمّ غزا خيبر بمَن شهد الحديبية، ففتَحها وغنِم أموالًا كثيرةً، فخصّها بهم حسبما أمره الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "كَلِمَ اللهِ"،[١] وهو جمع "كلِمة". وأيًّا ما كان فالمراد ما ذُكِر مِن وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصّةً، لا قولُه تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة، ٨٣/٩]، فإنّ ذلك في غزوة تبوك.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

﴿قُل﴾ إقناطًا لهم: ﴿لَن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتّبعونا، فإنّه نفي في معنى النهي للمبالغة. ﴿كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: عند الانصراف مِن الحديبية. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَا﴾ أي: ليس ذلك النهيُ حُكمَ الله؛ بل تَحسدوننا أن نشارككم في الغنائم. وقُرئ: "تَحْسِدُونَنَا" بكسر "السين".[1]

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلّا فهمًا قليلًا، وهو فِطنتهم لأمور الدنيا، ردٌّ لقولهم الباطل، ووصفٌ لهم بما هو أعظم مِن الحسد، وأطمّ مِن الجهل المُفرِط، وسوء الفهم في أمور الدين.

﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾

﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ/ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في ذمّهم: [١٠٨و]
﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ هم بنو[2] حَنيفة قومُ مسيلِمة الكذّاب، أو غيرهم ممّن ارتدّوا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو المشركين،[3] لقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين، إمّا المقاتَلة أبدًا، أو الإسلامُ لا غيرُ، كما يُفصِح عنه قراءة: "أَوْ يُسْلِمُوا".[4] وأمّا مَن عداهم فينتهي قتالهم بالجِزية كما ينتهي بالإسلام. وفيه دليل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ لم يتّفق هذه الدعوة لغيره إلّا إذا صحّ أنّهم ثقيف وهوازن، فإنّ ذلك كان في عهد النبوّة، فيُخَصُّ دوام نفي الاتّباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنّة.[5] وقيل: هم فارس والروم، ومعنى ﴿يُسۡلِمُونَ﴾: ينقادون، فإنّ الروم نصارى، وفارسَ مجوس يُقبل منهم الجِزية.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ م: بنوا.

٣ وفي هامش م: أي: مشركو العرب.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٢.

٥ انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠٢/٧.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنّة في الآخرة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعُف جرمكم.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلّف عن الغزو لِما بهم مِن العُذر والعاهة، فإنّ التكليف يدور على الاستطاعة. وفي نفي الحرَج عن كلٍّ مِن الطوائف المعدودة مزيد اعتناءٍ بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرخصة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكر مِن الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. وقُرئ: "نُدْخِلْهُ" بنون العظَمة.[١] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ وقُرئ بالنون[٢] ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم الذين ذُكِر شأن مبايعتهم. وبهذه الآية سمّيت بيعة الرضوان. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ منصوب بـ﴿رَضِىَ﴾. وصيغة المضارع لاستحضار صورتها، و﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ متعلّق به، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا نزل الحديبية بعثَ جوّاس بن أميّة الخزاعي[٣] رسولًا إلى أهل مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمانَ بن عفّان، فأخبرهم أنّه عليه السلام لم يأتِ لحرب، وإنّما جاء زائرًا لِهذا البيت،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

٣ جَوّاس بن أميّة؛ كذا في الأصول الخطّيّة بالجيم والواو وآخره سين، وهو كذلك في »

/ معظِّمًا لحُرمته، فوقَّروه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: [١٠٨ظ] ما كنتُ لأطوفَ قبل أن يطوف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنّهم قتلوه، فقال عليه السلام: «لا نبرَح حتّى نُناجزَ القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايَعوه تحت الشجرة -وكانت سَمُرةً، وقيل: سِدرةً- على أن يُقاتلوا قريشًا، ولا يفِرّوا. ورُوي على الموت دونه وأن لا يفرّوا، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنتم اليومَ خير أهل الأرض»، وكانوا ألفًا وخمسَمائة وخمسةً وعشرين.[١] وقيل: ألفًا وأربعَمائة. وقيل: ألفًا وثلثَمائة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، لِما عرفتَ مِن أنّه بمعنى: بايَعوك، لا على ﴿رَضِىَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مترتِّب على علمه تعالى بما في قلوبهم مِن الصدق والإخلاص عند مبايَعتهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿رَضِىَ﴾، أي: فأنزل عليهم الطُّمأنينة والأمْن وسكونَ النفس بالربط على قلوبهم، وقيل: بالصلح. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غِبَّ انصرافهم مِن الحديبية كما مرّ تفصيله. وقُرئ: "وَآتَاهُمْ".[٣]

= مطبوع الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢٩/٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٢/٩. ولم أجد ذكرًا له في كتب التراجم بهذا الاسم. والصواب "خِراش بن أميّة"؛ بالخاء والراء وآخره شين؛ كما في جامع البيان للطبري، ٢٧٢/٢١؛ ومسند أحمد، ٢١٦/٣١ (١٨٩١٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩. وهو خِراش بن أميّة بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشيّة بن سلول الخزاعي ثمّ الكُلَيبي، يُكنى أبا نَضلة (ت. نحو ٦٠هـ/٦٨٠م). وهو حليف بني مخزوم، شهد المرَيسيع والحديبية، وحلَق رأس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذ، أو في العمرة التي تليها. وذكَر ابن الكلبي أنّه كان حجّامًا، وأنّه رمى بنفسه على عامر بن أبي ضرار الخزاعي يوم المرَيسيع مخافةَ أن يقتله الأنصار. تُوفّي في آخر خِلافة معاوية. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤٤٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٢٣١/٢.

١ س ي: وعشروين.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٢٣/٥ (٤١٥٤)؛ وصحيح مسلم، ١٤٨٤/٣ (١٨٥٦).

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[١] أي: مغانم خيبر. والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع[٢] لتشريفهم في مقام الامتنان. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيًا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما يُفِيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكلّ واحدة منها. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيديَ أهل خيبر وحُلَفائهم مِن بني أسد وغطَفان حيث جاءوا لِنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكَصوا. وقيل: أيديَ أهل مكّة بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها صدقَ الرسول في وعده إيّاهم عند رجوعه مِن الحديبية ما ذُكر مِن المغانم وفتحِ مكّة ودخولِ المسجد
[١٠٩و] الحرام. و"اللام" متعلِّقة إمّا بمحذوف مؤخَّر، / أي: ولِتكون آيةً لهم فعَلَ ما فعَلَ مِن التعجيل والكفّ، أو بما تعلّق به علّة أخرى محذوفة مِن أحد الفعلَين، أي: فعَجل لكم هذه أو كفّ أيدي الناس لتغتنموها ولِتكون... إلخ. فـ"الواو" على الأوّل اعتراضيّة، وعلى الثاني عاطفة.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى، والتوكّلُ عليه في كلّ ما تأتون وما تذَرون.

---

١ س: تأخذونها. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س. وهي بـ"التاء" قراءة شاذّة كما سيأتي.

٢ م س ي - على قراءة الأعمش وطلحة ونافع ["صح" في هامش م]. | أي: "تَأْخُذُونَهَا". وهي قراءة شاذّة عنهم. أمّا القراءة المشهورة عن نافع فهي بـ"الياء" كالجمهور. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٩٣.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾،[١] أي: فعجّل لكم هذه المَغانم ومَغانمَ أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووَصْفُها بعدم القدرة عليها لِما كان فيها مِن الجَوْلة قبل ذلك لِزيادة ترغيبهم فيها. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ صفةٌ أخرى لِـ﴿أُخْرَىٰ﴾، مفيدةٌ لسهولةِ تَأَتّيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة مَنالها بالنظر إلى قدرتهم، أي: قد قدَر الله عليها واستولى، وأظهركم عليها. وقيل: حفِظها لكم، ومنعَها مِن غيركم.

هذا، وقد قيل: إنّ ﴿أُخْرَىٰ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: وقضى الله أخرى، ولا ريبَ في أنّ الإخبار بقضاء الله إيّاها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾،[٢] ليس فيه مزيد فائدة، وإنّما الفائدة في بيان تعجيلها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنّ قدرته تعالى ذاتيّة لا تختصّ بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أهل مكّة ولم يصالحوكم، وقيل: حُلَفاء خيبر، ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنَّ الله غلبةَ أنبيائه سنّةً قديمةً فيمَن مضى مِن الأمم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾[٣] أيديَ كفّار مكّة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخلها ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ س ي + أي.

خرج في خمسمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد على جند فهزَمهم حتّى أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد. وقيل: كان يوم الفتح، وبه استشهَد أبو حنيفة على أنّ مكّة فُتحت عَنوةً لا صلحًا.[1]

[١٠٩ظ] / ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن مقاتَلتهم وهَزْمِهم أوّلًا والكفِّ عنهم ثانيًا لتعظيم بيته الحرام. وقُرئ بـ"الياء".[2] ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك، أو يجازيهم.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوكُمۡ﴾. وقُرئ بالجرّ[3] عطفًا على ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ بحذف المضاف، أي: ونحرِ الهدي، وبالرفع على "وصُدَّ الهديُ". وقوله تعالى: ﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أي: محبوسًا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أو منصوب بنزع الخافض، أي: محبوسًا مِن أن يبلغ مكانه الذي يحِلّ فيه نحره، وبه استدلّ أبو حنيفة رحمه الله[4] على أنّ المحصَر محلّ هديه الحرَمُ.[5] قالوا: بعض الحديبية مِن الحرَم. ورُوي أنّ خيامه عليه السلام كانت في الحِلّ، ومصلّاه في الحرَم.[6] وهناك نُحِرت هداياه عليه السلام. والمراد صدُّها عن محلّها المعهود الذي هو منًى.

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تَعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم، وهو صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نِسَآءٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي: تُوقِعوا بهم وتُهلكوهم، بدل اشتمال منهم، أو مِن الضمير[7] المنصوب في ﴿تَعۡلَمُوهُمۡ﴾.

---

١ انظر: المبسوط للسرخسي، ٣٧/١٠.
٢ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٥/٩.
٤ س – رحمه الله.
٥ انظر: بدائع الصنائع للكاساني، ١٧٤/٢.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤. وفي مسند أحمد، ٢٢٠/٣١ (١٨٩١٠)، في حديث طويل: «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي في الحرَم، وهو مضطرِب في الحِلّ».
٧ وفي هامش م: فيه بحث.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن جهتهم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ أي: مشقّة ومكروه، كوجوب الدية أو الكفّارة بقتلهم، والتأسّفِ عليهم، وتعييرِ الكفّار، وسوءِ قالتهم، والإثمِ بالتقصير في البحث عنهم. وهي "مَفْعَلَة" مِن "عَرَّه" إذا عَراه ودَهاه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، أي: غير عالمين بهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهلِكوا أُناسًا مؤمنين بين الكافرين غيرَ عالمين بهم فيصيبكم بذلك مَكروه لَما كفَّ أيديكم عنهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّق بما يدلّ عليه الجواب المحذوف، كأنّه قيل عقيبَه: لكن كفّها عنهم ليُدخل بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بلا مَحذور في رحمته الواسعة بقسمَيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون، فإنّهم كانوا خارجين مِن الرحمة الدنيويّة التي مِن جُملتها الأمْنُ، مستَضعَفين تحت أيدي الكفَرة، وأمّا الرحمة الأخرويّة فهم وإن كانوا غيرَ مَحرومين منها بالمَرّة لكنّهم كانوا قاصرين في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها / على الوجه الأتمّ إدخال لهم في الرحمة الأخرويّة. [١١٠و]

وقد جُوّز[١] أن يكون ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عبارةً عمَّن رغِب في الإسلام مِن المشركين، ويأباه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾... إلخ، فإنّ فَرض التزيّل وترتيبَ التعذيب عليه يقتضي تحقّق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيّل حتمًا، أي: لو تفرّقوا وتميّز بعضهم مِن بعض. وقُرِئ: "لَوْ تَزَايَلُوا".[٢] ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقَتل مُقاتِلتهم وسَبْيِ ذراريهم. والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوب بـ"اذكُر" على المفعوليّة، أو بـ﴿عَذَّبْنَا﴾[٣] على الظرفيّة. وقيل: بمُضمَر هو "أحسَن الله إليكم". وأيًّا ما كان فوضع الموصول

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٣٤٤/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٣ في الآية السابقة.

موضعَ ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة وتعليلِ الحكم به. و"الجَعلُ" إمّا بمعنى الإلقاءِ، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: الأنَفَةَ والتكبّرَ؛ متعلِّقٌ به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلّق بمحذوف هو مفعول ثانٍ له، أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: حميّةَ المِلّة الجاهليّة، أو الحميّةَ الناشئة مِن الجاهليّة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿جَعَلَ﴾، والمراد تذكير حُسن صنيعِ الرسول عليه السلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسُوءِ صنيع الكفرة، وعلى الثاني على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة، كأنّه قيل: لم يتزيّلوا فلم نعذِّب فأنزَل... إلخ. وعلى الثالث على المضمَر تفسير له. و"السكينة" الثبات والوَقار.

يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل الحديبيةَ بعث قريش سُهيلَ بنَ عمرو القرشي،[١] وحويطبَ بن عبد العُزّى،[٢] ومِكْرَزَ بن حفص بن الأحنَف،[٣] على أن يَعرضوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يرجع مِن عامه ذلك على أن تُخلّي له قريش مكّة مِن العام القابل ثلاثةَ أيّام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"»،

---

١ هو سُهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، مِن لؤيّ، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهليّة. أسَره المسلمون يوم بدر، وافتُدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكّة، فأسلم، وسكَنها، ثمّ سكن المدينة. وهو الذي تولّى أمر الصلح بالحديبية. رُوي عن الشافعي: «كان سُهيل محمودَ الإسلام مِن حين أسلم». مات بالطاعون في الشام. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٧٧/٣؛ **الأعلام** للزركلي، ١٤٤/٣.

٢ هو حُوَيطب بن عبد العزّى بن أبي قيس القرشي العامري، أبو محمّد، أو أبو الأصبغ (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). أسلمَ عام الفتح. وشهِد حُنينًا، وكان مِن المؤلَّفة، وجدّد أنصاب الحرَم في عهد عمر. كان حُويطب يقول: «انصرفتُ مِن صلح الحديبية وأنا مستيقِن أنّ محمّدًا سيظهر». عاش مائة وعشرين سنةً. ومات في خلافة معاوية. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢٤/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

٣ كذا في الأصول الخطّيّة: "الأحنَف" بالحاء وبعدها نون، والصواب: "الأخيَف" بالخاء وبعدها ياء. هو مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف بن علقمة القرشي العامري (ت. بعد ٢هـ/٦٢٤م). قال ابن حبّان: «يُقال: له صحبة»، قال ابن حجَر: «ولم أرَه لغيره. وذكره المرزباني في معجم الشعراء، ووصفه بأنّه جاهلي، ومعناه أنّه لم يُسلم، وإلّا فقد ذَكر هو أنّه أدرك الإسلام، وقدِم المدينة بعد الهجرة لمّا أُسر سُهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٦٣/٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٤/٧.

فقالوا: «ما نعرف ما هذا، اكتب "باسمك اللّهمّ"»، ثمّ قال: «اكتب: هذا ما صالحَ رسول الله عليه السلام[1] أهلَ مكّة»، فقالوا: «لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صدَدناك عن البيت، وما قاتَلناك، اكتب: هذا ما صالح عليه[2] محمّد بن عبد الله / أهلَ مكّة»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اكتب ما يريدون»، [١١٠ظ] فهمّ المؤمنون أن يأبَوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل عليه الله السكينة عليهم، فتوقّروا وحَلُموا.[3]

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلمةَ الشهادة، أو "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو "محمّد رسول الله". وقيل: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي الوفاء بالعهد والثباتُ عليه، وإضافتها إلى ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لأنّها سبب التقوى وأساسُها، أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ متّصفين بمزيد استحقاقٍ لها، على أنّ صيغة التفضيل للزيادة مطلقًا. وقيل: أحقَّ بها مِن الكفّار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم حقَّ كلّ شيء، فيَسوقه إلى مستحِقّه.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابَه قد دخلوا مكّة آمنين، وقد حلّقوا رءوسَهم وقصّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسِبوا أنّهم داخلوها في عامهم، فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبدُ الله بن نُفَيل ورفاعةُ بن الحارث: «واللهِ ما حلّقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام»، فنزلت.[4] أي:

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ س - عليه.

٣ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٤٤/٤؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ١٣١/٥. وانظر: **صحيح البخاري**، ١٩٣/٣ (٢٧٣١).

٤ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٤٥/٤؛ **البحر المحيط لأبي حيّان**، ٤٩٩/٩.

صَدَقَه عليه السلام في رؤياه، كما في قولهم: «صدَقَني سِنُّ بَكْرِه»،[١] وتحقيقه: أَراهُ الرؤيا الصادقة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّد محذوف، أي: صِدقًا ملتبسًا بالحقّ، أي: بالغرض الصحيح والحكمةِ البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزِل فيه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، أي: ملتبسةً بالحقّ ليست مِن قَبيل أضغاث الأحلام.

وقد جُوِّز أن يكون قسَمًا بالحقّ الذي هو مِن أسماء الله تعالى، أو بنقيض الباطل، وقولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابه. وهو على الأوَّلَين جواب قسم محذوف، أي: واللهِ لتدخلُنَّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق للعِدَة بالمشيئة لتعليم العباد، أو للإشعار بأنّ بعضهم لا يدخلونه لموتٍ أو غيبةٍ أو غير ذلك، أو هي حكاية لِما قاله ملَك الرؤيا لرسول الله عليه السلام،[٢] أو لِما قاله عليه السلام لأصحابه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، والشرط معترِض، وكذا قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلِّقًا بعضُكم ومقصِّرًا آخرون. وقيل: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال مِن ضمير ﴿ءَامِنِينَ﴾، فتكون متداخلة.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، أو ﴿ءَامِنِينَ﴾، / أو ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، [١١١و]
أو ﴿مُقَصِّرِينَ﴾، أو استئناف أي: لا تخافون بعد ذلك.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقَ﴾، والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلي المتعلّق بأمر حادث بعد المعطوف عليه، أي: فعلِمَ عقيبَ ما أراهُ الرؤيا الصادقةَ ما لم تعلموا مِن الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهَد بالصدق علمًا فِعليًا، ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: مِن دون تحقّق مصداق ما أراه مِن دخول المسجد

---

١ «صَدَقَني سِنُّ بَكْرِه» يُضرب مَثَلًا في الصدق، والبَكْر: الفَتِيّ مِن الإبل. وأصله أنّ رجلًا ساوَم رجلًا في بَكْر، فقال: «ما سِنُّه؟» فقال صاحبه: «هِدَغْ هِدَغْ»، وهذه لفظة يُسكَّن بها الصغار مِن الإبل، فلمّا سمع المشتري هذه الكلمة قال: «صَدَقَني سِنُّ بَكْره». ونصب "سِنّ" على معنى: عرَّفَني سِنّ. **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٢/١.

٢ س: صلّى الله عليه وسلّم.

الحرام آمنين... إلخ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر. والمراد بجَعلِه وَعْدُه وإنجازُه مِن غير تسويفٍ ليُستدَلّ به على صدق الرؤيا حسبما قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وأمّا جعلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ عبارةً عن الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل كما جنَحَ إليه الجمهور،[2] فيأباه "الفاء"، فإنّ علمه تعالى بذلك متقدِّم على إراءة الرؤيا قطعًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ملتبسًا به، أو بسببه ولأجله، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِبَه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقًّا مِن بعض الأحكام المتبدّلة بتبدُّل الأعصار، وإظهارِ بُطلان ما كان باطلًا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان؛ إذ ما مِن أهل دين إلّا وقد قهَرهم المسلمون. وفيه فضلُ تأكيد لِما وعد مِن الفتح، وتوطينٌ لنفوس المؤمنين على أنّه تعالى سيَفتح لهم مِن البلاد، ويُتيحُ لهم مِن الغلَبة على الأقاليم ما يستقلّون إليه فتحَ مكّة.[3]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن لا محالةَ، أو على نبوّته عليه السلام بإظهار المعجزات.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

---

١ الفتح، ٢٠/٤٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٧/٢١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥.

٣ وفي هامش م: أي: يعدّون قليلًا بالنسبة إليه فتحَ مكّة. «منه».

﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو بيان، أو نعت، أي: ذلك الرسول المرسَل بالهدى ودين الحقّ محمّد رسولُ الله. وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ / خبره، والجملة مبيِّنة للمشهود به. [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ و﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع "شديد"، و﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع "رحيم". والمعنى: أنّهم يُظهرون لمَن خالف دينهم الشدّةَ والصلابةَ، ولمَن وافقهم في الدين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٥٤/٥]. وقُرئ: "أَشِدَّاءَ" و"رُحَمَاءَ"[١] بالنصب على المدح، أو على الحال مِن المستكِنّ في ﴿مَعَهُۥ﴾، لوقوعه صِلة، فالخبر حينئذ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: تشاهدهم حالَ كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات. وهو على الأوّل خبرٌ آخَر، أو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثوابًا ورِضًا؛ إمّا خبرٌ آخَر، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَىٰهُمْ﴾، أو مِن المستتِر في ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنّه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلًا... إلخ.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سِمَتُهم. وقُرئ: "سِيمِيَاؤُهُمْ" بـ"الياء" بعد "الميم" والمدِّ،[٢] وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي "السِّيماء" بالمدّ. وهو مبتدأ خبرُه: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جباههم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال مِن المستكنّ في الجارّ، أي: مِن التأثير الذي يؤثّره كثرةُ السجود. وما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قوله عليه السلام: «لا تَعْلُبُوا صُوَرَكم»،[٣] أي: لا تَسِمُوها؛ إنّما هو فيما إذا اعتمد بجبهته

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٣.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٧/٤؛ و**الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ١٢٧/٩.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٧/٤. ولم أجده مرفوعًا في مصادر الحديث. وفي **غريب الحديث** لأبي عبيد، ٢٥٣/٤، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه رأى رجلًا بأنفه أثر السجود، قال: «لا تَعلُب صورتَك». يقول: لا تؤثّر فيها أثرًا، يُقال: "عَلَبتُ الشيءَ أَعلُبه عَلْبًا وعُلوبًا" إذا أثّرتَ فيه.

على الأرض ليُحدث فيها تلك السِّمة، وذلك مَحض رياء ونفاق، والكلام فيما حدث في جبهة السَّجّاد الذي لا يسجد إلّا خالِصًا لوجه الله عزّ وجلّ. وكان الإمام زين العابدين[1] وعليّ بن عبد الله بن العبّاس[2] رضي الله عنهما يقال لهما: "ذُو الثَّفِنَاتِ"، لِما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباهَ ثَفِناتِ البعير،[3] قال قائلهم:

ديـار عـلـيٍّ والـحـسـيـن وجـعـفـرٍ وحـمـزةَ والـسَّـجّـادِ ذي الـثَّـفِـنـاتِ[4]

وقيل: صُفرة الوجه / مِن خشية الله تعالى. وقيل: نَدَى الطهور وتراب [١١٢و] الأرض. وقيل: استنارةُ وجوههم مِن طول ما صَلَّوا بالليل، قال عليه السلام: «مِن كثُر صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار».[5] وقُرئ: "مِنْ آثَارِ السُّجُودِ"،[6] و"مِنْ إِثْرِ السُّجُودِ" بكسر "الهمزة".[7]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن نُعوتهم الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوّ شأنه، وبُعد منزلته في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وَصفُهم العجيبُ الشأنِ الجاري في الغَرابة مَجرى الأمثال. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال مِن ﴿مَثَلُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة.

---

[1] هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي العلوي المدني، زين العابدين، أبو الحسين، ويقال: أبو الحسن (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). السيّد، الإمام. حدث عن أبيه الحسين، وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنةً، وكان يومئذ مَوعوكًا، فلم يقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه مع آله إلى المدينة. كان ثقة، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورِعًا. أُحصي بعدَ موته عدد مَن كان يقوتهم سِرًّا، فكانوا نحو مائة بيت. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤/٤٨٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٧٧.

[2] هو عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، أبو محمّد (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). الإمام، السيّد، السَّجّاد. وُلِد عام قُتل عليّ رضي الله عنه، فسمّي باسمه. وأمّه هي ابنة مشرح بن عديّ الكِندي؛ أحدِ الملوك الأربعة. كان رحمه الله عالمًا عاملًا جسيمًا وسيمًا مَهيبًا. رُوي أنّه كان يسجد كلَّ يوم ألفَ سجدة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/٢٥٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٣٠٢.

[3] ثَفِناتِ البعير: هي ما يقع على الأرض مِن أعضائه إذا استناخ وغَلُظ، كالركبتين وغيرهما. **الصحاح** للجوهري، «ثفن».

[4] لدُعبل الخزاعي في ديوانه، ص ٧٩، مِن قصيدة يمدح فيها آل البيت.

[5] **سنن ابن ماجه**، ٢/٣٥٨ (١٣٣٣)؛ **مسند الشهاب** للقضاعي، ١/٢٥٢ (٤٠٨)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٤/٤٧١ (٢٨٣٠).

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٣.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأوّل، كأنّه قيل: ذلك مَثَلهم في التوراة والإنجيل. وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾... إلخ تمثيل مستأنَف، أي: هم كزرع أخرج فِراخه. وقيل: هو تفسير لـ﴿ذَٰلِكَ﴾،[١] على أنّه إشارة مبهَمة. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقُرئ: "شَطَأَهُ" بفتحاتٍ.[٢] وقُرئ: "شَطَاهُ" بفتح "الطاء" وتخفيفِ "الهمزة"،[٣] و"شَطَاءَهُ" بالمدّ،[٤] و"شَطَهُ" بحذف "الهمزة" ونقلِ حركتها إلى ما قبلها،[٥] و"شَطْوَهُ" بقلبها واوًا.[٦]

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه، مِن "المُؤازرة" بمعنى المعاونة، أو مِن "الإيزار"، وهي الإعانة. وقُرئ: "فَأَزَرَهُ" بالتخفيف،[٧] و"أَزَّرَهُ" بالتشديد،[٨] أي: شَدّ أَزْرَه وقوّاه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظًا بعد ما كان دقيقًا، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قصَبه، جمع "ساق". وقُرئ: "سُؤْقِهِ" بـ"الهمزة".[٩]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوّته وكثافته وغِلَظه وحُسن منظره، وهو مَثل ضَربه الله عزّ وعلا[١٠] لأصحابه صلّى الله عليه وسلّم قلّوا في بَدْء الإسلام، ثمّ كَثُروا واستحكموا، فترقّى أمرهم يومًا فيومًا بحيث أعجَب الناس. وقيل: مكتوب في الإنجيل: «سيخرج قوم يَنبتون نباتَ الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر».[١١]

---

١ وفي هامش م: لفظ.
٢ قرأ بها ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الهمداني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٥ قرأ بها حمزة في حالة الوقف. وأمّا في الوصل فهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة والجَحدري. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٤٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٧ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.
٩ قرأ بها قُنبل عن ابن كثير في أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.
١٠ س: عزّ وجلّ.
١١ جامع البيان للطبري، ٢١/٣٣٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٦٦.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علّة لِما يُعرِب عنه الكلام مِن تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه، أو لِما بعده مِن قوله تعالى: / ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنّ الكفّار إذا سمِعوا بما أُعدّ للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا مِن العزّة غاظَهم ذلك أشدَّ غيظٍ. و﴿مِنْهُم﴾ للبيان. [١١٢ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفتح فكأنّما كان ممّن شهد مع محمّد رسول الله عليه الصلاة والسلام[1] فتحَ مكّة».[2]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٨/١٠ (سورة النصر)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ١٤٩/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الحجرات

مدنيّة، وهي ثماني عشرة آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطَبين على أنّ ما في حيّزه أمر خطير يستدعي مزيدَ اعتنائهم بشأنه، وفرطَ اهتمامهم بتلقّيه ومراعاته. ووصفُهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذانِ بأنّه داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازعٌ مِن الإخلال به.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تفعلوا التقديم، على أنّ ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل مِن غير اعتبار تعلّقه بأمر مِن الأمور، على طريقة قولهم: "فلان يُعطي ويَمنع"، أي: يفعل الإعطاء والمنع، أو لا تُقدّموا أمرًا مِن الأمور، على أنّ حذف المفعول للقصد إلى تعميمه. والأوّل أوفى بحقّ المقام، لإفادته النهيَ عن التلبّس بنفس الفعل الموجِبَ لانتفائه بالكلّيّة المستلزِمِ لانتفاءِ تعلّقه بمفعوله بالطريق البرهاني.

وقد جُوّز[1] أن يكون "التقديم" بمعنى التقدّم، ومنه "مقدِّمة الجيش" للجماعة المتقدِّمة، ويعضُده قراءة مَن قرأ: "لَا تَقَدَّمُوا"[2] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَقَدَّموا". وقُرئ: "لَا تَقْدَمُوا"[3] مِن "القُدوم".

---

[1] جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٤٩؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١٣٣.

[2] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٠٧.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مستعار ممّا بين الجهتين المسامِتَتَين ليَدَي الإنسان تهجينًا لِما نُهوا عنه.

والمعنى: لا تَقطعوا أمرًا قبل أن يَحكُما به. وقيل: المراد: بين يدَي رسول الله، وذِكرُ الله تعالى لتعظيمه والإيذانِ بجلالة محَلّه عنده عزّ وجلّ.

قيل: نزل فيما جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى[1] عنهما لدَى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تأمير الأقرَع بن حابس أو القعقاع بن معبد.[2]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون مِن الأقوال والأفعال التي مِن جُملتها ما نحن فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فمِن حقّه أن يُتّقَى ويُراقَب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروع في النهي
[١١٣و] عن / التجاوز في كيفيّة القول عند النبيّ عليه السلام بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل. وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعارِ باستقلال كلّ مِن الكلامَين باستدعاء الاعتناء بشأنه، أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدٍّ يبلغه عليه السلام بصوته. وقُرئ: "لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ"[3] على أنّ "الباء" زائدة.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ إذا كلّمتُموه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: جهرًا كائنًا كالجهر الجاري فيما بينكم؛ بل اجعلوا صوتكم أخفضَ مِن صوته عليه السلام،

---

[1] س – تعالى.

[2] انظر: صحيح البخاري، ١٦٨/٥ (٤٣٦٧)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٠/٩؛ واللباب لابن عادل، ٥٢١/١٧. والقعقاعُ بن معبد بن زُرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارِم التميمي الدارمي (ت. بعد ٨هـ/٦٢٩م). صحابي، مِن سادات العرب. حكى ابن التين أنّ القعقاع كانت فيه رِقّة، فلذلك اختاره أبو بكر رضي الله عنه. وقد بعثه النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم حنين ليأتيه بالخبر. وكان يقال للقعقاع: "تيّار الفرات" لسخائه. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٤٤/٥؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٢/٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وتعهّدوا في مخاطبته اللّين القريب مِن الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المَهيب المعظَّم، وحافِظوا على مراعاة أُبَّهة النبوّة وجلالةِ مِقدارها.

وقيل: معنى ﴿لَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: لا تقولوا له: يا محمّد، يا أحمَد، وخاطِبوه بالنبوّة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «لمّا نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه:[٢] "يا رسول الله، واللهِ لا أكلِّمك إلّا السِّرارَ -أو أخا السِّرارِ- حتّى ألقى اللهَ"».[٣] وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان يكلّمه عليه السلام كأخي السِّرار لا يُسمِعه حتّى يستفهِمَه.[٤] وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا قدِم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوفودُ أرسل إليهم مَن يعلّمهم كيف يسلّمون، ويأمرهم بالسكينة والوَقار عند رسول الله عليه السلام.[٥]

وقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ إمّا علّة للنهي، أي: لا تجهروا خشيةَ أن تحبَط، أو كراهةَ أن تحبَط، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء، ٤/١٧٦]، أو للمنهيّ، أي: لا تجهَروا لأجل الحُبوط، فإنّ الجهر حيث كان بصدَد الأداء إلى الحُبوط، فكأنّه فُعِل لأجله على طريقة التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٢٨/٨].

وليس المراد بما نُهِي عنه مِن الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإنّ ذلك كفر؛ بل ما يُتَوهّم أن يؤدّي إليه ممّا يجري بينهم في أثناء المحاوَرة مِن الرفع والجهر، حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، خلا أنّ رفع الصوت فوقَ صوته عليه السلام لمّا كان منكَرًا مَحضًا لم يُقيَّد بشيء، ولا ما يقع منهما[٦] في حربٍ أو مجادلةِ معانِد أو إرهاب عدوّ أو نحو ذلك.

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ م - رضي الله عنه.

٣ المصنّف لابن أبي شيبة، ٩٢/٧ (٣٤٤٣٥)؛ المستدرك للحاكم، ٥٠١/٢ (٣٧٢٠)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٠١/٣ (١٤٣١).

٤ مسند أحمد، ٥٥/٢٦ (١٦١٣٣)؛ صحيح البخاري، ٩٧/٩ (٧٣٠٢).

٥ س: صلّى الله عليه وسلّم. | الكشّاف للزمخشري، ٣٥٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٧/٩.

٦ وفي هامش م: مِن الرفع والجهر. «منه».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، / وكان في أذنه وَقر، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، وربّما كان يكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] فيتأذّى بصوته.[٢] [١١٣ظ]

وعن أنس رضي الله عنه: أنّه لمّا نزلت الآية فُقِد ثابت، وتفقّدَه عليه السلام، فأُخبِر بشأنه، فدعاه فسأله، فقال: «يا رسول الله، لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإنّي رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حبِط»، فقال له[٣] عليه السلام: «لستَ هناك، إنّك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنّك مِن أهل الجنّة».[٤]

وأمّا ما يُروى عن الحسن مِن أنّها نزلت في بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه السلام،[٥] فقد قيل: مَحمله أنّ نهيهم مندرِج تحت نهي المؤمنين بدلالة النصّ.[٦]

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَحۡبَطَ﴾، أي: والحال أنكم لا تشعرون بحُبوطها. وفيه مزيد تحذير ممّا نُهُوا عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾... إلخ ترغيب في الانتهاء عمّا نُهُوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به، أي: يخفضونها مراعاةً للأدب أو خشيةً مِن مخالفة النهي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن تفخيم شأنه.

---

١ س - صلّى الله عليه وسلّم.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧١/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤.

٣ س - له.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٣/٥. وهو بنحوه في صحيح البخاري، ٢٠١/٤ (٣٦١٣)؛ وصحيح مسلم، ١١٠/١ (١١٩). وزاد مسلم عن أنس رضي الله عنه: «فكنّا نراه يمشي بين أظهُرنا رجل مِن أهل الجنّة».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤.

وهو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: جرّبها للتقوى، ومرّنها عليها، أو عرَفها كائنةً للتقوى خالصةً لها، فإنّ الامتحان سبب المعرفة. و"اللام" صلة لمحذوف، أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرَب قلوبَهم بضروب المِحَن والتكاليفِ الشاقّة لأجل التقوى، فإنّها لا تظهر إلّا بالاصطبار عليها، أو أخلَصها للتقوى، مِن "امتَحَنَ الذهبَ" إذا أذابه وميّز إبريزَه مِن خَبَثه. وعن عمر رضي الله عنه: «أذهَب عنها الشهوات».[1]

﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه. والجملة إمّا خبر آخَر لـ﴿إنَّ﴾، كالجملة المصدَّرة باسم الإشارة، أو استئناف لبيان جزائهم إحْمادًا لِحالهم، / وتعريضًا بسوء حال مَن ليس مثلَهم. [١١٤و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ أي: مِن خارجها، مِن خلفها أو قُدّامها. و﴿مِن﴾ ابتدائيّة دالّة على أنّ المناداة نشأت مِن جهة الوراء، وأنّ المنادى داخل الحجرة، لوجوب اختلاف المَبدأ والمنتهَى بحسب الجهة، بخلاف ما لو قيل: ينادونك وراءَ الحجُرات.

وقُرئ: "الحُجرَاتِ" بفتح "الجيم"[2] وبسكونها،[3] وثلاثتُها جمع "حُجْرة"، وهي القطعة مِن الأرض المَحجورة بالحائط، ولذلك يقال لحَظيرة الإبل: "حُجْرة"، وهي "فُعْلة" مِن "الحَجْر" بمعنى "مَفعول"، كـ"الغُرفة" و"القُبْضة".

والمراد بها حُجرات أمّهات المؤمنين، ومناداتُهم مِن ورائها إمّا بأنّهم أتَوها حُجرةً حُجرةً فنادَوه عليه السلام مِن ورائها، أو بأنّهم تفرّقوا على الحُجرات متطلّبين له عليه السلام، فناداه بعضٌ مِن وراء هذه، وبعضٌ مِن وراء تلك، فأُسنِدَ فعل الأبعاض إلى الكلّ.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٩؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٤٥/٥.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وقد جُوِّزَ أن يكونوا قد نادَوه مِن وراء الحُجرة التي كان عليه السلام فيها، ولكنّها جُمعت إجلالًا له عليه السلام. وقيل: إنّ الذي ناداه عُيَينةُ بن حِصن الفزاري، والأقرعُ بن حابس، وَفَدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سبعين رجلًا مِن بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد، فقالا: «يا محمّد، اخرج إلينا».[1] وإنّما أُسند النداء إلى الكلّ لأنّهم رضوا بذلك، أو أمَروا به، أو لأنّه وُجد فيما بينهم.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ لو كان لهم عقل لَما تجاسَروا على هذه المرتبة مِن سوء الأدب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ولو تحقّق صبرهم وانتظارهم حتّى تخرج إليهم، فإنّ ﴿أَنَّ﴾ وإنْ دلّت بما في حيّزها على المصدر لكنّها تُفيد بنفسها التحقّق والثبوت، للفرق البيّن بين قولك: "بلغني قيامُكَ" و"بلغني أنّك قائم". و﴿حَتَّىٰ﴾ تفيد أنّ الصبر ينبغي أن يكون مُغيًّا بخروجه عليه السلام، فإنّها مختصّة بما هو غاية للشيء في نفسه، ولذلك تقول: "أكلتُ السمَكةَ حتّى رأسِها"، ولا تقول: "حتّى نصفِها أو ثلثِها"، بخلاف "إلى" فإنّها عامّة. وفي ﴿إِلَيْهِمْ﴾
[١١٤ظ] إشعار بأنّه لو خرج / لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتّى يفاتحهم بالكلام، أو يتوجّهَ إليهم.

﴿لَكَانَ﴾ أي: الصبرُ المذكور ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مِن الاستعجال، لِما فيه مِن رعاية حسن الأدب وتعظيمِ الرسول الموجِبَين للثناء والثوابِ والإسعافِ بالمسئول؛ إذ رُوي أنّهم وفَدوا شافعين في أسارى بني العنبر،[2] فأطلَقَ النصفَ، وفادى النصفَ.[3]

---

[1] **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٣٧/٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٤/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٢٨/١٧.

[2] بنو العنبر، ويقال: "بَلْعَنْبر" بفتح "الباء" وسكون "اللام": حيّ مِن تميم مِن العدنانيّة، وهم بنو العَنبر بن عمرو بن تميم. قال ابن عبد البرّ: ومِن بني العنبر حَرمَلة بن عبد الله بن أياس الصحابي. قال: ومنهم جَديلة بن عبد الله بن أياس العنبري الصحابي. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٦٨/١.

[3] **تفسير السمرقندي**، ٣٢٤/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٤/٥؛

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة والرحمة واسِعُهما، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فتعرَّفوا وتفحَّصوا.

رُوي أنّه عليه السلام بعث الوليدَ بنَ عقبة أخا عثمان لأمّه مُصَدِّقًا إلى بني المصطلِق، وكان بينه وبينهم إِحْنة، فلمّا سمعوا به استقبلوه، فحسِبَ أنّهم مُقاتِلوه، فرجع وقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «قد ارتدّوا، ومنعوا الزكاة»، فهمّ عليه السلام بقتالهم، فنزلت.[1]

وقيل: بعث إليهم خالدَ بن الوليد، فوجدهم منادين بالصلاة متهجّدين، فسلّموا إليه الصدقات، فرجع.[2]

وفي ترتيب الأمر بالتبيّن على فِسق المخبِر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض الموادّ.

وقُرئ: "فَتَثَبَّتُوا"،[3] أي: تَوقّفوا إلى أن يتبيّن لكم الحال.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ حِذارَ أن تُصيبوا ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ ملتبسين بجهالةٍ بحالهم، ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ بعد ظهور براءتهم عمّا أُسنِد إليهم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ﴾ في حقّهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾ مغتمِّين غمًّا لازمًا، متمنِّين أنّه لم يقع، فإنّ تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٥٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٩.

٢ جامع البيان للطبري، ٣٥٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٩.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٥١/٢.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَنَّ﴾ بما في حيّزها سادّةٌ[١] مَسدَّ مفعولَي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ باعتبار ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ فإنّه حال مِن أحد الضميرين في ﴿فِيكُمۡ﴾.

والمعنى: أنّ فيكم رسولَ الله كائنًا على حالة يجب عليكم تغييرها، أو كائنين على حالةٍ... إلخ، وهي أنّكم تريدون أن يَتبع عليه السلام رأيَكم في [١١٥و] كثير مِن الحوادث، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهد والهلاك. وفيه إيذان / بأنّ بعضهم زيّنوا لِرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الإيقاعَ ببَنِي المصطلِق تصديقًا لِقول الوليد، وأنّه عليه السلام لم يُطِعْ رأيهم.

وأمّا صيغة المضارع فقد قيل: إنّها للدلالة على أنّ امتناع عَنَتِهم لامتناع استمرار طاعته عليه السلام لهم؛ لأنّ عَنَتهم إنّما يلزم مِن استمرار الطاعة فيما يَعِنّ لهم مِن الأمور؛ إذ فيه اختلال أمر الإيالة، وانقلابُ الرئيس مرءوسًا، لا مِن إطاعته في بعض ما يرونه نادرًا؛ بل فيها استمالتهم بلا مَعرّة.

وقيل: إنّها للدلالة على أنّ امتناع عنَتِهم لاستمرار امتناع طاعته عليه السلام لهم في ذلك، فإنّ المضارع المنفيّ قد يدلّ على استمرار النفي بحسب المقام، كما في نظائر قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢].

والتحقيق أنّ الاستمرار الذي يفيده صيغة المضارع يعتبر تارةً بالنسبة إلى ما يتعلّق بالفعل مِن الأمور الزمانيّة المتجدّدة، وذلك بأن يعتبر الاستمرار في نفس الفعل على الإبهام، ثمّ يُعتبرَ تعلّق ما يتعلّق به بيانًا لِما فيه الاستمرار، وأخرى بالنسبة إلى ما يتعلّق به مِن نفس الزمان المتجدّد، وذلك إذا اعتُبر تعلّقه بما يتعلّق به أوّلًا، ثمّ اعتُبر استمراره، فيتعيّن أن يكون ذلك بحسب الزمان.

فإن أُريدَ باستمرار الطاعة استمرارَها وتجدّدَها بحسب تجدّد مواقعها الكثيرة التي يُفصح عنها قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ فالحقّ هو الأوّل؛ ضرورةَ أنّ مدار امتناع العنَت هو امتناع ذلك الاستمرار، سواء كان ذلك الامتناع

---

[١] س ي: سادّ.

بعدم وقوع الطاعة في أمر ما مِن تلك الأمور الكثيرة أصلًا، أو بعدم وقوعها في كلّها مع وقوعها في بعضٍ يسيرٍ منها، حتّى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين؛ بل وقعت الطاعة فيما ذُكر مِن كثير مِن الأمر في وقت مِن الأوقات وقعَ العنت قطعًا.

وإن أريدَ به استمرار الطاعة الواقعة في الكلّ وتجدُّدها بحسب تجدّد الزمان واستمراره فالحقّ هو الثاني، فإنّ مناط امتناع العنَت حينئذ ليس امتناعَ استمرار الطاعة المذكورة ضرورةَ أنّه موجِب لوقوع العنت؛ بل هو الاستمرار الزماني، لامتناع تلك الطاعة الواقعة في تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين، حتّى لو لم يستمرّ امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة في وقت مِن الأوقات وقع العَنَت حَتمًا.

واعلم أنّ الأحقّ بالاختيار والأَولى بالاعتبار هو الوجه الأوّل؛ لأنّه أوفَق للقياس / المقتضي لاعتبار الامتناع واردًا على الاستمرار حسب ورود [١١٥ظ] كلمة ﴿لَوْ﴾ المفيدةِ للأوّل على صيغة المضارع المفيدة للثاني، على أنّ اعتبار الاستمرار واردًا على النفي على خلاف القياس بمعونة المقام إنّما يُصار إليه إذا تعذّر الجريان على موجَب القياس، أو لم يكن فيه مزيد مزيّة كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢]، حيث حُمِل على استمرار نفي الحزن عنهم؛ إذ ليس في نفي استمرار الحزن مزيد فائدة.

وأمّا إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجَب القياس حقَّ الانتظام فالعدول عنه تمحُل لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾... إلخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بيانًا لِبراءتهم عن أوصاف الأوّلين، وإحمادًا لِأفعالهم، أي: ولكنّه تعالى جعل الإيمان محبوبًا لديكم، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حتّى رسَخ حبّه فيها، ولذلك أتيتم بما يليق به مِن الأقوال والأفعال، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ ولذلك اجتنبتم عمّا يليق بها ممّا لا خيرَ فيه مِن آثارها وأحكامها.

ولمّا كان في التحبيب والتكريه معنى إنهاءِ المحبّة والكراهة وإيصالهما إليهم استُعمِلا بكلمة "إلى". وقيل: هو استدراك ببيان عذر الأوّلين، كأنّه قيل: لم يكن ما صدَر عنكم في حقّ بني المصطلق مِن خللٍ في عقيدتكم؛ بل مِن فَرط حبّكم للإيمان، وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان. والأوّل هو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحقّ. والالتفات إلى الغيبة كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم، ٣٩/٣٠].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: وإنعامًا، تعليل لـ﴿حَبَّبَ﴾ أو ﴿كَرَّهَ﴾، وما بينهما اعتراض. وقيل: نصبهما بفعل مضمَر، أي: جرى ذلك فضلًا. وقيل: يبتغون فضلًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم مِن التفاضل، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كلّ ما يفعل بموجَب الحكمة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ أي: تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى، ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حُكم الله. ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ / أي: تعدَّت [١١٦و]
﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ولم تتأثّر بالنصيحة ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي: ترجعَ ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه، أو إلى ما أمر به.

﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ إليه وأقلعت عن القتال حِذارًا مِن قتالكم ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾[١] بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرّد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر. وتقييد الإصلاح بالعدل لأنّه مظِنّة الحَيف

---
١ س + أي.

لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أُكّد ذلك حيث قيل: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ أي: واعدلوا في كلّ ما تأتون وما تذرون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسنَ الجزاء.

والآية نزلت في قتالٍ حدَث بين الأوس والخزرج في عهده عليه السلام بالسَّعَف والنِّعال.[1]

وفيها دلالة على أنّ الباغي لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنّه إذا أمسك عن الحرب تُرك؛ لأنّه فَيءٌ إلى أمر الله تعالى، وأنّه يجب معاونةُ مَن بُغِيَ عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الأمر بالإصلاح، أي: أنّهم منتسِبون إلى أصل واحد هو الإيمانُ الموجِب للحياة الأبديّة. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ للإيذان بأنّ الأخُوّة الدينيّة موجِبة للإصلاح. ووضعُ المظهَر مَقام المضمَر مضافًا إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه. وتخصيصُ الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولويّة، لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل: المراد بـ"الأخوين" الأوس والخزرج. وقُرئ: "بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ"،[2] و"إِخْوَانِكُمْ".[3]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون مِن الأمور التي مِن جُملتها ما أُمرتم به مِن الإصلاح ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ راجين أن تُرحموا على تقواكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ/ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ أي: منكم ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ آخرين أيضًا منكم. [١١٦ظ]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٣٦٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٧٩.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تعليل للنهي، أو لموجَبه، أي: عسى أن يكون المَسخور منهم خيرًا عند الله تعالى مِن الساخرين. و"القوم" مختصّ بالرجال؛ لأنّهم القُوّام على النساء، وهو في الأصل إمّا جمع "قائم"، كـ"صَوم" و"زَوْر" في جمع "صائم" و"زائر"، أو مصدر نُعِت به فشاع في الجمع، وأمّا تعميمه للفريقين في مثل "قوم عاد" و"قوم فرعون" فإمّا للتغليب، أو لأنّهنّ توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السُّخرية في المجامع. والتنكير إمّا للتعميم، أو للقصد إلى نهي بعضهم مِن سُخرية بعضٍ، لِما أنّها ممّا يجري بين بعض وبعض.

﴿وَلَا نِسَآءٞ﴾ أي: ولا تَسخر نساء مِن المؤمنات ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ منهنّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي: المَسخور منهنّ ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ أي: مِن الساخرات، فإنّ مناط الخيريّة في الفريقين ليس ما يظهر للناس مِن الصور والأشكال، ولا الأوضاعِ والأطوارِ التي عليها يدور أمر السُّخرية غالبًا؛ بل إنّما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يَجْتَرِئْ أحد على استحقار أحد، فلعلّه أجمع منه لِما نِيط به الخيريّة عند الله تعالى، فيظلم نفسَه بتحقير مَن وقّره الله والاستهانةِ بمَن عظّمه الله.

وقُرئ: "عَسَوْا أَن يَكُونُوا"،[1] و"عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ"،[2] فـ"عسى" حينئذ هي ذات الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ [محمد، ٢٢/٤٧]. وأمّا على الأولى[3] فهي التي لا خبرَ لها.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: ولا يَعِبْ بعضكم بعضًا، فإنّ المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تُلمَزُون به، فإنّ مَن فعل ما يستحقّ به اللَّمْزَ فقد لمَزَ نفسه. واللَّمْزُ: الطعن باللسان. وقُرئ بضمّ "الميم".[4]

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ أي: ولا يَدعُ بعضكم بعضًا بلقب السَّوءِ، فإنّ "النَّبْز" مختصّ به عرفًا. ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الذِّكر المرتفع للمؤمنين أن يُذكَروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به، فإنّ ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ ههنا بمعنى الذِّكر، مِن قولهم: "طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم". والمراد به

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.
٣ س ي: الأوّل.
٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٩/٢.

إمّا تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين / خصوصًا؛ إذ رُوي أنّ الآية [١١٧و] نزلت في صفيّة بنت حُيَيّ، أتَت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: «إنّ النساء يقُلْنَ لي:[١] يا يهوديّة بنت يهوديّين»، فقال عليه السلام: «هلّا قلتِ: إنّ أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمّد عليهم السلام».[٢] أو الدلالة على أنّ التنابز فِسق، والجمعَ بينه وبين الإيمان قبيح.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمّا نُهي عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضعَ الطاعة، وتعريضِ النفس للعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي: كونوا على جانب منه. وإبهام "الكثير" لإيجاب الاحتياط، والتأمّلِ في كلّ ظَنّ ظَنّ حتّى يُعلم أنّه مِن أيّ قَبيل. فإنّ مِن الظنّ ما يجب اتّباعه، كالظنّ فيما لا قاطعَ فيه مِن العمليّات، وحسنِ الظنّ بالله تعالى. ومنه ما يحرم، كالظنّ في الإلهيّات والنبوّات، وحيث يخالِفه قاطع، وظنِّ السوء بالمؤمنين. ومنه ما يباح، كالظنّ في الأمور المعاشيّة.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أو لمُوجَبه بطريق الاستئناف التحقيقي. والإثم: الذنب الذي يُستَحَقُّ العقوبةُ عليه، وهمزته منقلبة مِن "الواو"، كأنّه يَثِمُ الأعمالَ، أي: يكسرها.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: ولا تبحثوا عن عورات المسلمين. "تَفَعَّلَ" مِن "الجَسّ"، لِما فيه مِن معنى الطلب، كما أنّ "التلمّس" بمعنى التطلّب، لِما في اللمس مِن الطلب،

---

[١] س: بي.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٦/٥. وفي سنن الترمذي، ٧٠٨/٥ (٣٨٩٢)، عن صفيّة بنت حُيي، قالت: «دخل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: "ألا قلتِ: فكيف تكونان خيرًا منّي وزوجي محمّد، وأبي هارون، وعمّي موسى؟"»، وكان الذي بلغها أنّهم قالوا: «نحن أكرم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها»، وقالوا: «نحن أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبنات عمّه».

وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن، ٨/٧٢]. وقُرئ بـ"الحاء"[١] مِن "الحِسّ" الذي هو أثر الجَسّ وغايتُه، ولتقاربهما يقال للمشاعر: "الحَواسّ" بـ"الحاء" و"الجيم".

وفي الحديث: «لا تَتبَّعوا عورات المسلمين، فإنّ مَن تَتبَّع عورات المسلمين تَتبَّع الله عورته حتّى يفضحَه ولو في جوف بيته».[٢]

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يذكرْ بعضكم بعضًا بالسُّوء في غيبته. وسُئِل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الغِيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه».[٣] / وعن ابن عبّاس [١١٧ظ] رضي الله عنهما: «الغِيبة إدام كلاب الناس».[٤]

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لِما يصدر عن المغتاب مِن حيث صدورُه عنه، ومِن حيث تعلّقُه بصاحبه على أفحَش وجه وأشنَعِه طبعًا وعقلًا وشرعًا، مع مبالَغات مِن فنون شتّى؛ الاستفهامُ التقريري وإسنادُ الفعل إلى "أحَد" إيذانًا بأنّ أحدًا مِن الأحَدين لا يفعل ذلك، وتعليقُ المحبّة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيلُ الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعلُ المأكول أخًا للآكل ميتًا، وإخراجُ تماثُلِهما مُخرجَ أمرٍ بيّنٍ غنيٍّ عن الإخبار به. وقُرئ: "مَيِّتًا" بالتشديد،[٥] وانتصابُه على الحاليّة مِن "اللحم". وقيل: مِن "الأخ".

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها مِن التمثيل، كأنّه قيل: وحيث كان الأمر كما ذُكر فقد كَرِهتموه. وقُرئ: "كُرِّهْتُمُوهُ"،[٦] أي: جُبِلتُم على كَراهته.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وابن سيرين. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٤. وهو بألفاظ قريبة في سنن الترمذي، ٣٧٨/٤ (٢٠٣٢)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٠٣/١٣ (١٠٦٨٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٥/٧.

٣ صحيح مسلم، ٢٠٠١/٤ (٢٥٨٩)؛ سنن أبي داود، ٢٣٧/٧ (٤٨٧٤).

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥١٩/٩..

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأبي حَيوة، ورواها الخدري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢١/٩.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بتركِ ما أُمِرتم باجتنابه، والندمِ على ما صدَر عنكم مِن قبلُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في قَبول التوبة وإفاضةِ الرحمة، حيث يجعل التائب كمَن لم يُذنب، ولا يخصّ ذلك بتائبٍ دون تائبٍ؛ بل يعمّ الجميع وإن كثُرت ذنوبهم.

رُوي أنّ رجلين مِن الصحابة بعثا سلمانَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبغي لهما إدامًا، وكان أسامة على طعامه عليه السلام، فقال: «ما عندي شيء»، فأخبرهما سلمان، فقالا: «لو بعثنا سلمان إلى بئرِ سُمَيْحةَ[1] لَغارَ ماؤها»، فلمّا راحا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لهما: «ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما؟»، فقالا: «ما تناوَلْنا لحمًا»، فقال عليه السلام: «إنّكما قد اغتَبتما»، فنزلت.[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مِن آدم وحوّاء، أو خلقنا كلّ واحد منكم مِن أب وأمّ، فالكلّ سواء في ذلك، فلا وجهَ للتفاخر بالنسب. وقد جُوِّز أن يكون تأكيدًا للنهي السابق بتقرير الأخُوّة المانعة مِن الاغتياب.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشَّعب: الجمع العظيم المنتَسبون / إلى أصل [١١٨و]
واحد، وهو يَجمع القبائل، والقبيلة تجمع العَمائر، والعِمارة تجمع البطون، والبَطْن يجمع الأفخاذ، والفَخْذ يجمع الفصائل، فخُزيمة شَعب، وكِنانة قبيلة، وقريش عِمارة، وقصيّ بَطن، وهاشم فَخْذ، والعبّاس فصيلة. وقيل: "الشعوب" بطون العَجم، و"القبائل" بطون العرب.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرفَ بعضُكم بعضًا بحسب الأنساب، فلا يعتزيَ أحد إلى غير آبائه، لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل، وتدّعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب.

---

[1] سُمَيْحة: بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣/٢٥٥.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٨٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٤.

وقُرئ: "لِتَتَعَارَفُوا"[١] على الأصل، و"لِتَّعَارَفُوا" بالإدغام،[٢] و"لِتَعْرِفُوا".[٣]

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفادِ مِن الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي، كأنّه قيل: إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى، فإن فاخَرتم ففاخِروا بالتقوى. وقُرئ بـ"أَنَّ" المفتوحة[٤] على حذف لام التعليل، كأنّه قيل: لِمَ لا نتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، لا أنسَبُكم، فإنّ مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمَن رام نيل الدرجات العُلى فعليه بالتقوى.

قال عليه السلام: «مَن سرّه أن يكون أكرمَ الناس فليتّق الله».[٥] وقال: «يا أيّها الناس، إنّما الناس رجلان؛ مؤمن تقيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ هيّن على الله».[٦] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كرم الدنيا الغِنى، وكرم الآخرة التقوى».[٧]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم، ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن أحوالكم.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ نزلَت في نفر مِن بني أسد قدِموا المدينة في سَنة جَدْب، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتيناك بالأثقال والعِيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو[٨] فلان»، / يريدون الصدقةَ، [١١٨ظ]
ويمنّون عليه عليه السلام ما فعلوا.[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.

٢ قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبان عن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٢٣.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٨٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٥٩. وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك، ٤/٣٠٠ (٧٧٠٧).

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٣٧. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٥/٣٨٩.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٨٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ٧/٣٤٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٥.

٨ م: بنوا.

٩ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٨٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٧/٣٤٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٣٧.

﴿قُل﴾ ردًّا لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إذ الإيمان هو التصديق المقارِن للثقة وطُمأنينةِ القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلّا لَما مَنَنتم عليَّ ما ذكرتم، كما يُنبئ عنه آخر السورة.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فإنّ الإسلام انقياد ودخولٌ في السِّلم، وإظهارُ الشهادة وتركُ المحاربة مشعِرٌ به. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: "لا تقولوا: آمنّا، ولكن قولوا: أسلمنا" أو "لم تؤمنوا، ولكن أسلمتم"؛ للاحتراز مِن النهي عن التلفّظ بالإيمان، وللتفادي عن إخراج قولهم مُخرجَ التسليم، والاعتدادِ به مع كونه تقوّلًا محضًا.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿قُولُوٓا۟﴾؛ أي: ولكن قولوا: أسلَمنا حالَ عدم مواطأة قلوبكم لألسِنتكم. وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن معنى التوقّع مُشعر بأنّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ لا ينقصْكم ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن أجورها، مِن "لَاتَ يَلِيتُ لَيْتًا" إذا نقَص. وقُرئ: "لَا يَأْلِتْكُم"[1] مِن "الأَلْتِ"، وهي لغة غطفان، أو شيئًا مِن النقص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما فَرَط مِن المطيعين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضّل عليهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ لم يشكّوا، مِن "ارتابَ" مطاوِع "رابَه" إذا أوقَعه في الشكّ مع التهمة. وفيه إشارة إلى أنّ فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم. و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط؛ بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت، ٣٠/٤١].

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته على تكثّر فنونها مِن العبادات البدنيّة المَحضة، والماليّة الصِّرفة، والمشتملةِ عليهما معًا كالحجّ والجهاد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الذين صدَقوا في دعوى الإيمان لا غيرُهم.

رُوي أنّه لمّا نزلت الآية جاءوا وحلفوا أنّهم مؤمنون صادقون، فنزل
[١١٩و] لتكذيبهم[١] قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أي: أتُخبرونه / بذلك بقولكم: آمَنّا؟ والتعبير عنه بالتعليم لغايةِ تَشنيعهم. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حال مِن مفعول ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ مؤكِّدة لتشنيعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله، أي: مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما أخفَوه مِن الكفر عند إظهارهم الإيمان. وفيه مَزيد تجهيل وتوبيخ لهم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ أي: يعدّون إسلامهم مِنّةً عليك، وهي النعمة التي لا يَطلب مُوليها ثوابًا ممّن أنعم بها عليه، مِن "المَنّ" بمعنى القطع؛ لأنّ المقصود بها قطع حاجة.[٢] وقيل: النعمة الثقيلة، مِن "المَنّ".

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ أي: لا تعدّوا إسلامَكم منّةً عليّ، أو لا تمنّوا عليّ بإسلامكم. فنصب بنزع الخافض.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ على ما زعمتم، مع أنّ الهداية لا تستلزم الاهتداء. وقُرئ: "إِنْ هَدَاكُمْ"،[٣] و"إِذْ هَدَاكُمْ".[٤] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٥١/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٨/٥.

٢ س ي: حاجته.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وعليّ بن زيد. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٥/٩.

في ادّعاء الإيمان. وجوابه محذوف يدلّ عليه ما قبله، أي: فلِلهِ المِنّة عليكم.

وفي سياق النظم الكريم مِن اللطف ما لا يخفى، فإنّهم لمّا سمّوا ما صدَر عنهم إيمانًا، ومنُّوا به، فنُفِي كونُه إيمانًا، وسُمِّي إسلامًا؛ قيل: يمنّون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير بالمَنّ؛ بل لو صحّ ادّعاؤهم للإيمان فلِلهِ المِنّة عليهم بالهداية إليه، لا لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سِرّكم وعلانيتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟ وقُرئ بـ"الياء".[1]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحجرات أُعطي مِن الأجر بعدَد مَن أطاع الله وعصاه».[2]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٦٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٤٩. وهو جزء من الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.


Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'L-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 7

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]


İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan


Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-38-7 (7. Cilt)

Basım Yayın ve Dağıtım

TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle / Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
7. c. , 656 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-38-7 (7. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık   Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş   Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Yedinci Cilt



İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Sığnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm